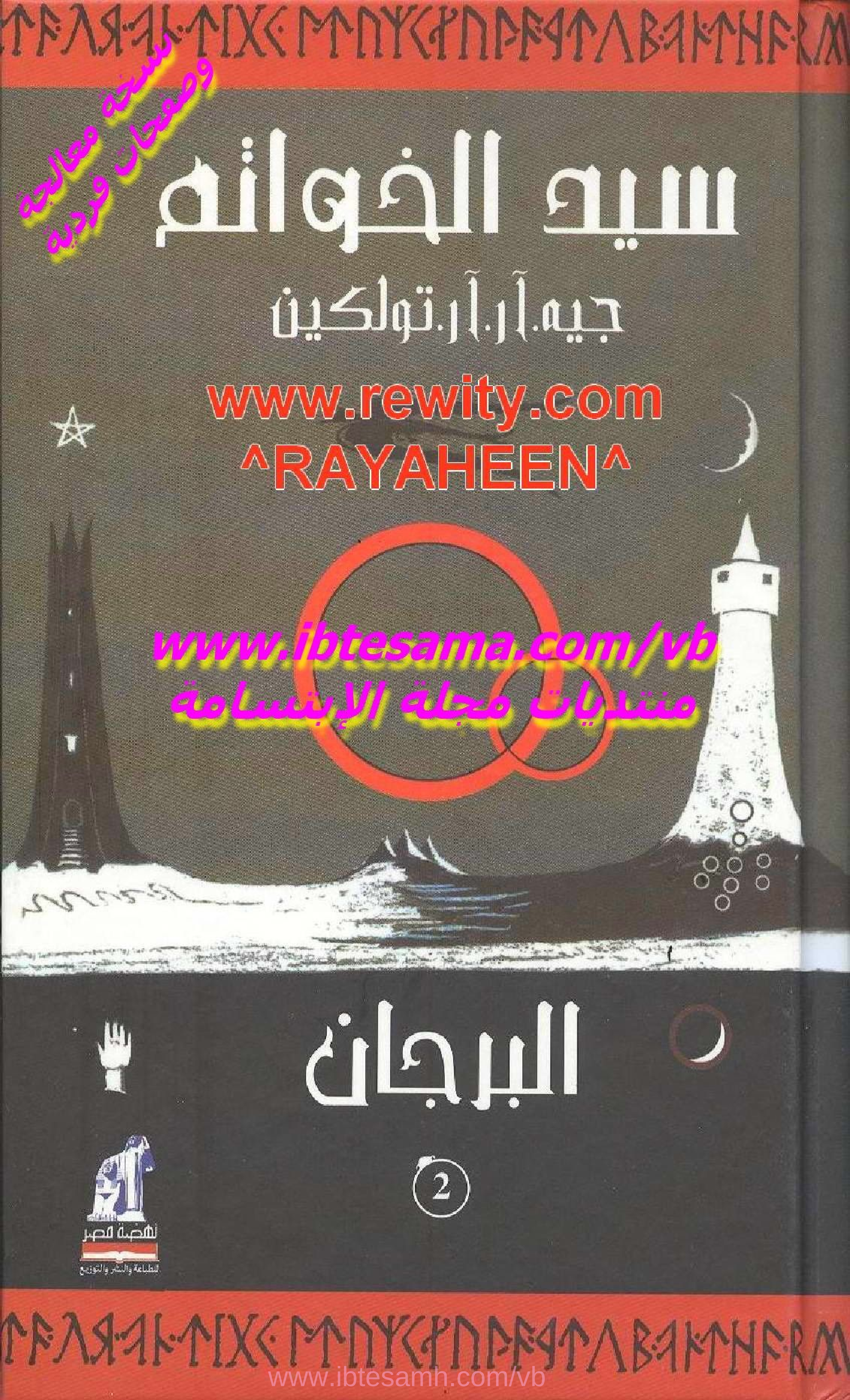

سيد الخواتم
جيه. آر. آر. تولكين
www.rewity.com
^RAYAHEEN^
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
نسخة معالجة وصفحات فردية
البرجان
2
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

الكتـــاب الثـــالـــث

العنوان: سيد الخواتم - البرجان - ج2
تأليف: جيه آر آر تولكين
ترجمة: فرج الله سيد محمد
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

Published by Nahdet Misr for Printing, Publishing and Distribution
upon arrangement with HarperCollins Publishers Limited
of 77-85 Fulham Palace Road, London W6 8JB.

ترجمة كتاب The Lord of the Rings: The Two Towers تصدرها شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - بترخيص من شركة HarperCollins Publishers Limited



الترقيم الدولي: 977-14-4114-0 رقم الإيداع: 2007/19313 الطبعة 1: يناير 2009

الإدارة العامة:
21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576

المركز الرئيسي:
80 المنطقة الصناعية الرابعة - 6 أكتوبر
تليفون: 38330287 - 38330289 02
فاكس: 38330296

مركز التوزيع:
18 شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
تليفون: 25909827 - 25908895 02
فاكس: 25903395 02

فرع الإسكندرية:
408 طريق الحرية - رشدي
تليفون: 5462090 03

فرع المنصورة:
13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبدالسلام عارف - مدينة السلام
تليفون: 2221866 050

Website: www.nahdetmisr.com E-mail: publishing@nahdetmisr.com — customerservice@nahdetmisr.com
rights@nahdetmisr.com

ثلاثة خواتم لملوك الجن تحت السماء،

سبعة لسادة الأقزام في أبهائهم الحجرية،

تسعة للبشر الفانين المحتوم عليهم بالموت،

واحد لسيد الظلام في عرشه المظلم

في أرض موردور حيث ترقد الأشباح.

واحد يحكمها جميعًا، واحد يجدها جميعًا،

خاتم واحد يجمعها جميعًا وفي الظلمة يوحدها

في أرض موردور حيث ترقد الأشباح.

المحتـــويـــات

ملخـــص

هذا هو الجزء الثاني من ملك الخواتم.

الجزء الأول «صحبة الخاتم» استعرض كيف اكتشف جندلف الأشيب أن الخاتم الذي كان يملكه فرودو والهوبيتي كان في واقع الأمر الخاتم الأوحد، حاكم جميع خواتم السلطة والقوة. وقد قص حكاية فرار فرودو ورفاقه من المقاطعة الهادئة التي كانت موطنهم، ويطاردهم رعب خيالة موردور السود، حتى وصلوا أخيرًا بمساعدة أراجورن جوال إريادور عبر أخطار محاطة باليأس إلى منزل إلروند في ريفندل.

وهناك عُقد مجلس إلروند الأعظم، والذي تقرر فيه محاولة تدمير الخاتم، وقد عين فرودو حامل الخاتم. وتم عندئذ اختيار صحبة الخاتم الذين كانت مهمتهم مساعدته في مهمته: ليصل إذا استطاع إلى جبل النار في موردور، أرض العدو نفسه، حيث لا يمكن تدمير الخاتم إلا هناك فقط. كان في هذه الصحبة أراجورن وبورومير ابن ملك جوندور، ممثلين للبشر؛ وليجولاس ابن ملك جن غابة ميركوود، ممثلًا للجن؛ وجيملي ابن جولين من الجبل الأعزل، ممثلًا للأقزام؛ وفرودو مع خادمه ساموايز، وقريبيه الشابين مريادوك وبرجرين، ممثلين للهوبيتين؛ وجندلف الأشيب.

ارتحل الرفاق سرًا بعيدًا من ريفنديل في الشمال، حتى أصابتهم الحيرة والارتباك في محاولتهم عبور المجاز العالي في كارادراس في الشتاء، فقادهم جندلف عبر البوابة الخفية ودخلوا أنفاق موريا الشاسعة، باحثين عن طريق أسفل الجبال. وهناك سقط جندلف في معركة مع روح مخيفة من العالم السفلي في هاوية مظلمة. ولكن أراجورن، والذي كُشف في ذلك الوقت أنه كان الوريث الخفي لملوك الغرب القدماء، قاد الصحبة التي واصلت الرحلة من بوابة موريا الشرقية، عبر أرض لورين الجنية، وعبر نهر أندوين العظيم، حتى وصلوا إلى شلالات راوروس. وقد أصبحوا بالفعل مدركين أن رحلتهم كانت مراقبة من جانب الجواسيس، وأن المخلوق جولام، والذي حدث وامتلك الخاتم في وقت من الأوقات وكان لا يزال يرغب فيه بشدة، كان يتبع طريقهم.

وقد أصبح ضروريًا عندئذ بالنسبة لهم أن يقرروا ما إذا كان يتوجب عليهم أن يتجهوا شرقًا إلى موردور؛ أو يواصلوا مسيرتهم مع بورومير إلى مساعدة ميناس تيريث، المدينة الرئيسية في جوندور، في الحرب القادمة؛ أو ينبغي عليهم أن ينقسموا.

عندما بات واضحًا أن حامل الخاتم كان عازمًا على مواصلة رحلته اليائسة إلى أرض العدو، حاول بورومير أن يستولي على الخاتم بالقوة. وانتهى الجزء الأول بسقوط بورومير في غواية الخاتم؛ مع هروب واختفاء فرودو وخادمه ساموايز؛ وتشتت أفراد الصحبة الباقين من جراء هجوم مفاجئ للجنود الأوركيين، وكان بعضهم في خدمة سيد الظلام في موردور، وبعضهم في خدمة الخائن سارومان في آيزنجارد. وقد بدا بالفعل أن مهمة حامل الخاتم قد لحقت بها كارثة.

أما الجزء الثاني البرجان، فهو يروى الآن كيف ارتحل كل فرد من أفراد صحبة الخاتم، بعد أن انفضت صحبتهم وتفرقت، حتى قدوم الظلمة العظيمة واندلاع حرب الخاتم، والتى سيتم سرد حكايتها في الجزء الثالث والأخير.

البرجان

الجزء الثاني

من

سيد الخواتم

الكتـــاب الثــالـــث

الفصل الأول

رحـيــل بـــورومـــير

راح أراجورن يسير سريعًا صاعدًا التل، كان من وقت لآخر ينحني إلى الأرض. كان الهوبيتيون يسيرون بخفة، ولم يكن من اليسير حتى للجوال قراءة آثار أقدامهم، ولكن على مسافة غير بعيدة من القمة قطع جدول مائي الطريق، وفي الأرض الرطبة رأى ما كان يبحث عنه، وقال لنفسه:

«لقد قرأتُ العلامات قراءة صحيحة. جرى فرودو إلى قمة التل، أتمنى لو أعرف ماذا رأى هناك، ولكنه عاد في نفس الطريق، وهبط التل مرة أخرى».

وتردد أراجورن. كان يرغب في أن يذهب إلى المقعد العلوي بنفسه، آملاً في أن يرى هناك شيئًا يمكن أن يرشده في حيرته وأشيائه المعقدة، ولكن الوقت كان ملحًا. قفز للأمام فجأة، وجرى إلى القمة، عبْر الأحجار اللوحية، وصاعدًا الدرجات. بعد ذلك، جلس في المقعد العالي ونظر للخارج. ولكن الشمس كانت تبدو وقد أظلمت، وبدا العالم معتمًا ونائيًا. والتفت من الشمال عائدًا مرة أخرى إلى الشمال، ولم ير شيئًا سوى التلال البعيدة، إلا ما كان يمكن أن يراه على البعد مرة أخرى، كان يرى طائرًا كبيرًا، مثل نسر عالٍ في الجو، يهبط في بطء في دوائر واسعة لأسفل باتجاه الأرض.

حتى وهو يحدق، فإن أذنيه الحادتين التقطتا أصواتا في الغابة أسفل منه على الجانب الغربي من النهر، فتجمد في مكانه. كانت هناك صرخات، وبينها ـ الأمر الذي أصابه بالرعب ـ استطاع أن يميز أصوات الأوركيين الخشنة. بعد ذلك فجأة في صيحة تأتي من أعماق الحلق انطلق بوق مدويًا، وضربت نفخاته التلال بقوة وراح صداها يُسمع في الحفر والوديان، وارتفع في صرخة عظيمة فوق خرير شلالات الماء المتساقطة.

وصاح قائلاً: «بوق بورومير! إنه في حاجة...!» وقفز لأسفل هابطًا الدرجات بعيدًا، وراح يقفز عبر الطريق. «يا للأسف! لقد ألم بي حظ تعس في هذا اليوم، وكل ما أفعله يبوء بالفشل. أين سام؟».

وبينما كان يجري، ازدادت الصرخات ارتفاعا، ولكن البوق الآن كان ينفخ بشكل أكثر ضعفًا وفي يأس. وارتفعت صرخات الأوركيين شرسة وحادة، وفجأة انقطعت صيحات البوق. وراح أراجورن يركض أسفل المنحدر الأخير، ولكن قبل أن يصل إلى سفح التل، خمدت الأصوات؛ وعندما التفت إلى اليسار وجرى باتجاههم تراجعوا، حتى لم يعد يسمعهم أخيرًا. واستل سيفه البراق وصاح: إلينديل! إليندیل! وانطلق مندفعًا عبر الأشجار.

علّي بعد ميل ــ ربما ــ من مرج بارث جالين[1] في فُرجة صغيرة بعيدًا عن البحيرة وجد بورومير. كان يجلس وظهره إلى شجرة كبيرة، كما لو كان يستريح. ولكن أراجورن رأى أنه قد طُعن بالكثير من السهام ذات الريش الأسود؛ كان سيفه لا يزال في يده، ولكنه كان مكسورًا بالقرب من مقبضه؛ كان بوقه مشقوقًا نصفين وكان ملقى بجانبه. كان الكثير من الأوركيين يرقدون مذبوحين، مكومين في كل مكان حوله وعند قدميه.

وانحنى أراجورن إلى جواره. فتح بورومير عينيه وحاول الكلام. أخيرًا خرجت من فمه كلمات بطيئة، وقال: «حاولت أن آخذ الخاتم من فرودو. إنني آسف. لقد دفعت ثمن ذلك». وتحولت نظراته إلى أعدائه المتساقطين؛ كان هناك عشرون على الأقل يرقدون حوله، وقال: «لقد ذهبوا؛ الأنصاف، لقد أخذهم الأوركيّون، أعتقد أنهم لم يموتوا، لقد ربطهم الأوركيون». وتوقف وأغلقت عيناه في إرهاق وإعياء. وبعد لحظة تحدث مرة أخرى.

«الوداع، يا أراجورن! اذهب إلى ميناس تيريث وأنقذ شعبي! لقد أخفقتُ أنا».

وقال أراجورن، وهو يأخذ يده ويقبل جبينه: «كلا! لقد انتصرت. قليلون هم الذين حققوا مثل هذا الانتصار. لتسترح في سلام! ميناس تيريث لن تسقط!».

وابتسم بورومير.

وقال أراجورن: «في أي طريق ذهبوا؟ هل كان فرودو هناك؟».

ولكن بورومير لم يتحدث مرة أخرى.

وقال أراجورن: «واحسرتاه! وهكذا ينقضي خليفة دنثور؛ سيد برج الحراسة! هذه نهاية مُرّة. والآن فقد تدمرت الصحبة بالكامل. لم يخفق سواي. لقد كانت ثقة جندلف في دون جدوى. ماذا سأفعل الآن؟ لقد وضع بورومير مهمة الذهاب إلى ميناس تيريث على عاتقي، وقلبي يرغب في ذلك ويتوق إليه؛ ولكن أين الخاتم وأين الحامل[2]؟ أنّى لي أن أعثر عليهما وأنقذ المهمة من كارثة؟».

وجثا على ركبتيه بعض الوقت، انحنى وهو يبكي، ولا يزال ممسكًا بيد بورومير. وهكذا عثر ليجولاس وجيملي عليه. لقد أتيا من المنحدرات الغربية للتل، في صمت، وهما يتسللان عبر الأشجار كما لو كانا يقومان بالصيد. كان جيملي ممسكًا ببلطته في يده، وكان ليجولاس ممسكًا بسكينه الطويل: لقد انتهت كل رماحه. عندما وصلا إلى الفُرجة المكشوفة في الغابة توقفا في ذهول؛ وبعد ذلك وقفا لحظة وقد أحنيا رأسيهما في حزن؛ لأنه بدا لهما واضحًا ما قد حدث.

(1) Parth Galen ــ معناها Green Sward أي المرج الأخضر «موقع» http://en.wikipedia.org/wiki/Parth_Galen (المترجم)

(2) عندما تطلق كلمة الحامل (كما في المجلد الأول) فإنها تعني حامل الخاتم؛ أي فرودو (المترجم)

وقال ليجولاس، وقد أتى إلى جانب أراجورن: «واحسرتاه! لقد اصطدنا وذبحنا الكثير من الأوركيين في الغاب، ولكن كان من الممكن أن نكون أكثر نفعًا هنا. لقد جئنا عندما سمعنا البوق ولكن بعد فوات الأوان. أخشى، فيما يبدو، أن تكون قد جُرحت جرحًا قاتلاً».

وقال أراجورن: «مات بورومير، إنني سليم لم أصب بأذى؛ لأنني لم أكن هنا معه. لقد سقط وهو يدافع عن الهوبيتيين، بينما كنتُ أنا بعيدًا فوق التل».

وصاح جيملي: «الهوبيتيون! أين هم إذن؟ أين فرودو؟».

وأجابه أراجورن في إعياء وإرهاق: «لا أدري. قبل أن يموت بورومير، أخبرني أن الأوركيين قد قيدوهم؛ لم يكن يعتقد أنهم ماتوا. لقد أرسلته ليتبع ميري وبيبين؛ ولكني لم أسأله عما إذا كان فرودو أو سام معه: ليس قبل فوات الأوان. كل ما فعلتُه اليوم باء بالفشل.

وقال ليجولاس: «أولاً يجب علينا أن ننظر فيما سنفعله بشأن ذلك الذي سقط منا. لا يمكننا أن نتركه يموت مثل جيفة بين أولئك الأوركيين البشعين».

وقال جيملي: «ولكن علينا أن نسرع. إنه لن يرغب في أن نتوانى فيما نفعل. يجب علينا أن نتبع الأوركيين، إذا كان هناك أمل أن يكون أي من أفراد صحبتنا أسرى أحياء».

وقال أراجورن: «ولكننا لا نعرف ما إذا كان حامل الخاتم معهم أم لا. هل علينا أن نتخلى عنه؟ ألا يجب علينا أن نبحث عنه؟ خيار شرير أمامنا الآن!»

وقال ليجولاس: «إذن هيا بنا الآن نفعل أولاً ما يجب علينا أن نفعله. ليس أمامنا الوقت أو الأدوات لندفن رفيقنا بالشكل اللائق، أو لأن نبني تلة جنائزية فوقه. ربما يمكننا أن نضع عليه ركامًا من حجارة وتراب».

وقال جيملي: «سوف يكون العمل شاقًا وطويلاً: ليست هناك حجارة يمكننا أن نستخدمها أكثر قربًا من جانب الماء».

وقال أراجورن: «إذن هيا بنا نضعه في قارب ومعه أسلحته، وأسلحة خصومه الذين قهرهم. سوف نرسله إلى شلالات راوروس ونقذف بها إلى أندوين. سوف يعني به نهر جوندور على الأقل بحيث لا يمكن لأي مخلوق أن يهين عظامه».

وسريعًا قاموا بتفتيش أجساد الأوركيين، وجمعوا سيوفهم والخوذات المشقوقة والدروع في كومة.

وصاح أراجورن: «انظر! ها نحن نجد أمارات!» وأخذ من كومة الأسلحة الكئيبة سكينين، نصلهما شكل ورقة الشجر، مطليين باللون الذهبي واللون الأحمر؛ ولما فتش أكثر من ذلك وجد أيضًا الأغماد، سوداء، مرصعة بجواهر حمراء صغيرة، وقال: «هذه ليست أدوات أوركيين! كان يحملها الهوبيتيون. بلا شك نهبها الأوركيون ولكنهم

خشوا أن يحتفظوا بالسكاكين، حيث كانوا يعرفون ماهيتها الحقيقية: عمل بشر الغرب، ومضروب حولها تعويذات للعنة موردور. حسنًا، الآن، إذا كانوا لا يزالون يعيشون، فإن أصدقاءنا سيكونون بلا سلاح. سوف آخذ هذه الأشياء، آملاً أن أعطيها لهم».

وقال ليجولاس: «وأنا سوف آخذ كل السهام التي يمكنني أن أجدها؛ لأن جعبتي خالية». وفتش في الكومة وعلى الأرض من حولها ووجد عددًا غير قليل لم يكن قد تلف وكان أطول في القبة من تلك السهام التي كان الأوركيون معتادين على استعمالها. ونظر إليها في تدقيق وإمعان.

ونظر أراجورن إلى المذبوحين، وقال: «هنا يرقد الكثيرون ممن ليسوا من أهل موردور. بعضهم من الشمال، من الجبال الضبابية، إذا كنتُ أعرف أي شيء عن الأوركيين وعن أنواعهم. وهنا بعض آخرون ممن هم غرباء عليَّ. معداتهم وأدواتهم ليست من طراز الأوركيين على الإطلاق!».

كان هناك أربعة جنود من الغيلان، ذوو قامة أضخم، داكنو البشرة، وأعين مائلة، وأرجل مكتنزة، وأيد كبيرة. كانوا مسلحين بسيوف قصيرة ذات أنصال عريضة، ولم يكونوا مسلحين بالسيوف المعقوفة وحيدة النصل التي كانت مألوفة لدى الأوركيين؛ وكانت معهم أقواس من شجر الطقسوس، كانت شبيهة في طولها وشكلها بأقواس البشر. وكانوا يحملون على دروعهم صورة غريبة: يد بيضاء صغيرة في وسط حقل أسود؛ في مقدمة خوذاتهم الحديدية كان موضوعًا الحرف (س S)، مصنوعًا من معدن أبيض.

وقال أراجورن: «إنني لم أر هذه الرموز من قبل. ماذا تعني؟».

قال جيملي: «حرف (س S) رمز ساورون. يمكن قراءة ذلك بسهولة».

فقال ليجولاس: «كلا! ساورون لا يستخدم حروف الجن الرونية».

وقال أراجورن: «ولا يستخدم اسمه الصحيح كذلك، ولا يسمح بتهجئته أو النطق به. ولا يستخدم اللون الأبيض. الأوركيون الذين هم في خدمة باراد دور يستخدمون علامة العين الحمراء». ووقف لحظة مستغرقًا في التفكير؛ وقال أخيرًا: «(س S) تمثل سارومان، فيما أظن. هناك شر يجري مجراه في آيزنجارد، ولم يعد الغرب آمنًا. إن الأمر كما كان جندلف يخشى: عن طريق بعض الوسائل استطاع سارومان الخائن أن يعرف أخبار رحلتنا. من المحتمل أيضًا أنه علم بسقوط جندلف. ربما يكون المطاردون من موريا قد هربوا من حراسة لورين، أو ربما يكونون قد تفادوا تلك الأرض وأتوا إلى آيزنجارد عن طريق مسارات وطرق أخرى. الأوركيون يسافرون سريعًا. ولكن سارومان له طرق كثيرة لمعرفة الأخبار. هل تذكرون الطيور؟».

وقال جيملي: «حسنًا، ليس أمامنا وقت للتفكير في الألغاز. هيا بنا نحمل بورومير بعيدًا!».

وأجابه أراجورن قائلاً: «ولكن بعد ذلك علينا أن نخمن لحل الألغاز، إذا كنا نريد أن نختار طريقنا على الوجه الصحيح».

وقال جيملي: «ربما لا يكون هناك خيار صحيح».

وأخذ القزم بلطته عندئذ وقطع عدة فروع. وربطوا هذه الفروع معًا بأوتار القوس، ونشروا معاطفهم على الإطار. على ذلك النعش الخشن حملوا جسد رفيقهم إلى الشاطئ، ومعه تلك التذكارات، لمعركته الأخيرة، والتي اختاروا أن يرسلوها معه. لم يكن مسيرهم إلا لمسافة قصيرة، بيد أنهم وجدوا أنها لم تكن مهمة سهلة؛ لأن بورومير كان رجلاً طويلاً وقويًا على السواء.

عند جانب الماء مكث أراجورن، يشاهد النعش، في حين راح ليجولاس وجيملي يسرعان الخطى عائدين مشيًا على الأقدام إلى مرج بارث جالين. كانت المسافة حوالي ميل أو أكثر، وقد انقضى بعض الوقت قبل أن يعودا، وهما يجدفان مركبين سريعين عبر الشاطئ.

وقال ليجولاس: «هناك حكاية غريبة لا بد من قصها. هناك فقط مركبان على الضفة. لم نعثر على أي أثر للآخرين».

وسأل أراجورن: «هل كان الأوركيون هناك؟».

فأجابه جيملي قائلاً: «لم نر أي علامة تدل عليهم. وكان الأوركيون سيأخذون المراكب أو يدمرونها، والأمتعة أيضًا».

وقال أراجورن: «سوف أنظر إلى الأرض عندما نصل إلى هناك».

وعندئذ وضعوا بورومير في وسط قارب كان سيحمله بعيدًا. وطووا غطاء الرأس الرمادي والمعطف الجني ووضعوهما تحت رأسه. ومشطوا شعره الطويل وصففوه فوق كتفيه. كان حزام لورين الذهبي يتوهج حول وسطه. وضعوا خوذته إلى جواره، ووضعوا في حجره البوق المشقوق ومقابض وكسور سيفه؛ وضعوا تحت قدميه سيوف أعدائه. بعد ذلك ربطوا مقدمة المركب بمؤخرة المركب الآخر، وجروه بعيدًا إلى الماء. راحوا يجدفون في حزن عبر الشاطئ، واستداروا إلى القناة التي كانت تجري سريعًا وعبروا مرج بارث جالين الخضراء. كانت جوانب تول براندير المنحدرة تتوهج: كان الوقت عندئذ منتصف ما بعد الظهيرة. بينما كانوا يذهبون جنوبًا، ارتفع زبد نهر راوروس وراح يومض أمامهم، سديم من الذهب. كان اندفاع الشلالات ودويها يهز الهواء الذي لم تكن فيه نسمة ريح.

وفي حزن بالغ فصلوا قارب النعش: هناك كان يرقد بورومير، هادئًا، مطمئنًا،

ينزلقُ فوق صدر الماء المتدفق. أخذه التيار بينما ظلوا هم ممسكين بقاربهم حاجزين إياه بالمجاديف. وطفا مارًا بهم، وفي بطء رحل قاربه، وراح يتلاشى إلى بقعة مظلمة في الضوء الذهبي؛ وعندئذ فجأة تلاشى. وراح نهر راوروس يهدر دون أن يتغير. لقد أخذ النهر بورومير بن دنثور، ولم يُر مرة أخرى في ميناس تيريث، يقف، كما اعتاد، على البرج الأبيض في الصباح. ولكن في جوندور في الأيام التالية، جرى تناقل الحكاية والقول أن القارب الجني ركب شلالات الماء والبحيرة المزبدة، وحمله هابطًا به عبر أوسجيلياث، ومر به عبر الكثير من المصاب لنهر أندوين إلى الخارج، إلى البحر العظيم ليلاً تحت النجوم.

لبعض الوقت ظل الرفاق الثلاثة صامتين، يحدقون وراءه.. ثم تحدث أراجورن قائلاً: «سوف يبحثون عنه من البرج الأبيض، ولكنه لن يرجع من الجبل أو من البحر». بعد ذلك بدأ يغني بطيئًا:

عبر روهان، فوق المستنقع والحقل، حيث تنمو الحشائش الطويلة
تأتي الريح الغربية تمشي، وتذهب حول الجدران.
«أي أخبار أحضرتِها لي من الغرب، أيتها الرحالة الجوالة، الليلة؟
هل رأيت بورومير الطويل على نور القمر أو ضوء النجوم؟».
«رأيته يركب فوق سبعة بحور، فوق بحور شاسعة ورمادية؛
رأيته يمشي في أرض جوفاء، حتى مضى بعيدًا
إلى ظلال الشمال. ما رأيته بعد ذلك أبدًا.
ربما تكون ريح الشمال قد سمعت بوق ابن دنثور».
«يا بورومير! من الجدران العالية باتجاه الغرب نظرتُ بعيدًا،
ولكنك لم تأتِ من الأراضي الجوفاء التي ليس بها أحد».

بعد ذلك راح ليجولاس يغني:

من مصاب البحر تطير ريح الجنوب، من التلال الرملية والصخور؛
تحمل نحيب طيور النورس، وعند البوابة تنوح.
«أي أخبار أحضرتِها لي من الجنوب، أيتها الريح الندابة، في المساء؟
أين بورومير الجميل الآن؟ إنه يتأخر وأنا أحزن».
«لا تسألني أين يسكن ـ عظام كثيرة هناك ترقد

على الشُطآن البيضاء والشُطآن المظلمة تحت السماء العاصفة؛
مر الكثيرون جدًا عبر أندوين ليجدوا البحر المتدفق.
أسأل عن أخبارهم ريح الشمال، ترسلها لي ريح الشمال!
«يا بورومير! وراء البوابة يجري الطريق المواجه للبحر جنوبًا
ولكنك لم تأتِ مع طيور النورس الناحبة من مصب البحر الرمادي».

بعد ذلك راح أراجورن يغني مرة أخرى:

من بوابة الملوك تركب ريح الشمال، وتمر بالمساقط الهادرة؛
ويزعق بوقها الصاخب صافيًا وباردًا حول البرج.
«أي أخبار أحضرتها لي من الشمال، أيتها الريح العظيمة، اليوم؟
أي أخبار عن بورومير الجسور؟ لأنه غاب زمنًا طويلاً».
«أسفل أمون هين سمعتُ صرخته. هناك كان يحارب خصومًا كثيرين.
درعه المشقوق، سيفه المكسور، أحضروها كلها إلى الماء.
رأسه فخور للغاية، وجهه جميل أيما جمال، وأطراف وضعوها لتستريح؛
أما راوروس ـ مساقط راوروس الذهبية ـ فحمله فوق صدره».
«يا بورومير! برج الحراس سوف يحدق للأبد نحو الشمال
إلى راوروس ـ مساقط راوروس الذهبية ـ حتى نهاية الزمان».

وعلى هذا النحو انتهوا. بعد ذلك استداروا إلى قاربهم وراحوا يقودونه بكل ما استطاعوا من سرعة ضد التيار عائدين إلى بارث جالين.

وقال جيملي: «لقد تركت لي الريح الشرقية، ولكني لن أقول شيئًا عنها».

ورد عليه أراجورن قائلاً: «ذلك هو الأمر كما ينبغي أن يكون. في ميناس تيريث يتحملون الريح الشرقية، ولكنهم لا يسألونها عن الأخبار. ولكن بورومير أخذ طريقه، ويجب علينا أن نسرع ونختار طريقنا».

ومسح المرج الأخضر، سريعًا ولكن بشكل شامل، وهو ينحني كثيرًا على الأرض، وقال: «لم يكن هناك أي أوركيين على هذه الأرض. وإلا فليس هناك من شيء يمكن التوصل إليه على وجه اليقين. كل آثار أقدامنا موجودة، العبور ومعاودة العبور. لا يمكنني القول ما إذا كان أي من الهوبيتيين قد عاد منذ أن بدأ البحث عن فرودو». وعاد إلى الضفة، قريبًا من المكان الذي يتدافع فيه الغدير من النبع إلى النهر، وقال: «هناك بعض آثار واضحة هنا. لقد خاض أحد الهوبيتيين الماء وعاد؛ ولكن لا يمكنني أن أجزم منذ كم من الوقت كان ذلك».

وسأل جيملي: «كيف تفسر هذا اللغز إذن؟».

ولم يجبه أراجورن في الحال، ولكنه عاد إلى مكان التخييم ونظر إلى الأمتعة، وقال: «هناك حزمتان مفقودتان، وواحدة منهما ـ بكل تأكيد ـ تخص سام: كانت كبيرة وثقيلة إلى حد ما. هذه إذن هي الإجابة: لقد ذهب فرودو في قارب، وقد ذهب خادمه معه. لا بد أن فرودو قد عاد بينما كنا جميعًا بعيدًا. لقد قابلتُ سام وهو يذهب صاعدًا التل وأخبرته أن يتبعني؛ ولكن من الواضح أنه لم يفعل ذلك. لقد خمن عقل سيده وعاد إلى هنا قبل أن يكون فرودو قد ذهب. لم يكن سهلاً أن يترك سام وراءه!».

وقال جيملي: «ولكن لماذا يتركنا نحن وراءه، ودون أن يقول كلمة واحدة؟ لقد كان ذلك عملاً غريبًا!».

وقال أراجـورن: «وعملاً شجاعًا. كان سام على صواب، فيما أعتقد. لم يكن فرودو يرغب أن يقود أي صديق إلى حتفه معه إلى موردور. ولكنه كان يعلم أنه ينبغي عليه أن يذهب بنفسه. هناك شيء ما قد حدث قبل أن يتركنا قهر مخاوفه وشكوكه».

وقال ليجولاس: «ربما يكون الأوركيون المطاردون قد باغتوه واضطر إلى الفرار».

وقال أراجورن: «وفر، بكل تأكيد، ولكن، في رأيي، ليس من الأوركيين». لم يفش أراجـورن ما كان برأيه السبب في قرار فرودو المفاجئ وفراره. الكلمات الأخيرة التي قالها له بورومير، احتفظ بها سرًا لوقت طويل.

وقال ليجولاس: «حسنًا، على الأقل هناك الكثير واضح الآن. لم يعد فرودو على هذا الجانب من النهر: لابد أنه هو فقط الذي أخذ القارب. وسام معه؛ لا بد أنه هو فقط الذي أخذ حزمته».

وقال جيملي: «الخيار الذي أمامنا إذن، إما أن نأخذ القارب المتبقي ونتبع فرودو، أو نتبع الأوركيين سيرًا على الأقدام. هناك القليل من الأمل في أي من الطريقين. لقد فقدنا ساعات ثمينة بالفعل».

وقال أراجورن: «دعني أفكر في الأمر! والآن ربما يمكنني أن أتوصل إلى اختيار صحيح، وأرجو قدرًا سعيدًا لهذا اليوم التعيس!» ووقف في صمت للحظة، وقال أخيرًا: «سوف أتبع الأوركيين. كنتُ سأقود فرودو إلى موردور وأذهب معه حتى النهاية؛ ولكني إن بحثتُ عنه الآن في البرية، لا بد أن أترك الأسرى يتجرعون العذاب والموت. قلبي يحدثني بوضوح أخيرًا: لم يعد مصير الحامل[1] بيدي. لقد أدت الصحبة[2] دورها. ولكننا نحن الذين نبقى لا يمكننا أن نهجر رفاقنا ما دامت لدينا القوة.

(1) الإشارة إلى حامل الخاتم، أي فرودو (المترجم)

(2) يقصد صحبة الخاتم ـ أي المجموعة التي كانت تسير معًا حتى نهاية المجلد الأول (المترجم)

هيا! سوف نذهب الآن. اتركوا كل ما يمكننا أن نتركه ونستغني عنه! سوف نَجِدُ في المسير نهارًا وفي الظلمة!».

وجَرّوا القارب الأخير وحملوه إلى الأشجار. وضعوا تحته كل ما كان لديهم من أمتعة لم يكونوا بحاجة إليها ولم يكن بإمكانهم حملها. بعد ذلك تركوا بارث جالين. كانت فترة ما بعد الظهيرة تتلاشى وهم يعودون إلى الفُرجة حيث سقط بورومير. وهناك أخذوا الطريق الذي سلكه الأوركيون. احتاج الأمر إلى قليل من المهارة للعثور عليه.

وقال ليجولاس: «ليس ثمة أشخاص آخرون يخلفون آثار أقدام مثل هذه. يبدو أنهم يبتهجون وهم يدمرون الأشياء النامية، حتى لو لم تكن تقع في طريقهم».

وقال أراجورن: «ولكنهم يسيرون بسرعة عظيمة مع كل ذلك، ولا يتعبون. وفي وقت لاحق ربما يتحتم علينا أن نبحث عن طريقنا في أراض قاحلة صلبة».

وقال جيملي: «حسنًا، وراءهم! الأقزام أيضًا يمكنهم السير بخفة وسرعة، ولا يتعبون بشكل أسرع من الأوركيين. ولكنها ستكون مطاردة طويلة: لقد بدءوا قبلنا بوقت طويل».

ولكن هيا بنا! سوف نتبع خط سير أعدائنا سواء كان هناك أمل أو لم يكن. والهلاك والدمار لهم، إذا ثبت أننا أسرع منهم! فسوف نقوم بمطاردة تعد بمثابة معجزة بين العشائر الثلاث: الجن، والأقزام، والبشر. ليتقدم المطاردون الثلاثة!».

وقفز مثل وعل. وراح يسير مسرعًا بين الأشجار. وراح يقودهم دون توقف، دون تعب، وبسرعة، الآن وقد استقر عقله وأخذ قراره أخيرًا. تركوا الغابة التي كانت تحيط بالبحيرة وراءهم. صعدوا منحدرات طويلة، ومظلمة، وحادة الأجناب والحواف، تحت سماء كانت بالفعل محمرة مع غروب الشمس. وحل بهم الغسق، فمضوا بعيدًا، كظلال رمادية في أرض حجرية.

الفصل الثاني
خيالـــة روهــــان

وازداد الغسق عمقًا. وكان السديم يرقد وراءهم بين الأشجار التي تقع أسفل منهم، تحتضنه الحواف الشاحبة لنهر أندوين، ولكن السماء كانت صافية. وطلعت النجوم. كان القمر المتنامي يطلع في الغرب، وكانت ظلال الصخور سوداء. وصلوا إلى سفوح تلال حجرية، وكانت سرعة أبطأ؛ لأن خط السير لم يعد من السهل تتبعه. وهنا راحت هضاب إمين مويل تجري من الشمال إلى الجنوب في سلسلتين طويلتين متهاويتين. كان الجانب الغربي صعباً ومن سلسلة شديدة الانحدار، ولكن المنحدرات الشرقية كانت أكثر اعتدالاً، يشقها الكثير من الأخاديد، والوهاد الضيقة. راح الرفاق الثلاثة يتخبطون طوال الليل في تلك الأرض القاحلة، يصعدون إلى قمة أول وأطول سلسلة، ويهبطون مرة أخرى إلى ظلمة الوادي الملتوي العميق على الجانب الآخر.

هناك في الساعة الهادئة الساكنة التي تسبق الفجر، استراحوا لفترة قصيرة. كان القمر قد غاب منذ فترة طويلة أمامهم، كانت النجوم تتوهج فوقهم؛ لم يكن أول ضوء للنهار قد طلع بعد فوق التلال المظلمة خلفهم. كان أراجورن في تلك اللحظة في حَيص بَيص: لقد هبط خط سير الأوركيين إلى الوادي، ولكنه تلاشى هناك.

وقال ليجولاس متسائلاً: «إلى أي اتجاه سوف يتجهون، في رأيك؟ باتجاه الشمال ليأخذوا طريقًا مستقيمًا إلى آيزنجارد، أو فانجورن، إذا كان ذلك هو هدفهم كما تخمن؟ أو باتجاه الجنوب ليصلوا إلى نهر إنتووش[1]؟».

وقال أراجورن: «إنهم لن يتجهوا إلى النهر، أيًّا كان الهدف الذي يقصدونه. ولَمّا لم يكن هناك لغط كثير في روهان، وكانت سلطة سارومان قد زادت زيادة عظيمة، فإنهم سيسلكون الطريق الأقصر الذي يمكنهم العثور عليه في حقول روهيريم. هيا بنا نبحث باتجاه الشمال!».

راح الوادي يجري مثل غور حجري طويل بين التلال ذات الحواف، وكان هناك جدول متدفق ينساب بين الصخور الكبيرة عند القاع. كان هناك جُرُف متجهم إلى يمينهم؛ وإلى يسارهم ارتفعت منحدرات عالية رمادية، معتمة وظلالية في الليل المتأخر. وواصلوا سيرهم لمسافة ميل أو أكثر باتجاه الشمال. كان أراجورن يبحث،

---

(1) Entwash ـ يتصل بالإنتيين Ents ـ كائنات مثل الأشجار يسمون «رعاة الأشجار»؛ أما wash ـ فهو جدول أو مستنقع «موقع؛ قاموس المورد» http://en.wikipedia.org/wiki/Fangorn (المترجم)

وهو منحنٍ باتجاه الأرض، بين الطيات والأخاديد التي تقود إلى أعلى إلى السلسلة الغربية. كان ليجولاس متقدمًا بعض الشيء. فجأة صدرت عن الجني صرخة وجاء الآخران يجريان باتجاهه.

وقال: «لقد تجاوزنا بالفعل بعضًا من الذين نطاردهم. انظروا!» وأشار، ورأوا أن ما اعتقدوا في أول الأمر أنه صخور كبيرة ترقد عند سفح المنحدر إنما كان جثثًا مكومة. كان هناك خمسة أوركيين ميتين يرقدون في المكان. لقد تم تقطيعهم بضربات كثيرة وحشية، وقطع رأس اثنين منهم. كانت الأرض مبللة بدمهم الداكن.

وقال جيملي: «وها نحن أمام لغز آخر! ولكنه يحتاج إلى ضوء النهار، ولا يمكننا انتظار ذلك».

وقال ليجولاس: «ولكن مهما تكن طريقة قراءتك لها، فإنها لا تبدو مجرَّدة من الأمل. أعداء الأوركيين من المحتمل أن يكونوا أصدقاءنا. هل هناك شعوب تسكن في هذه التلال؟».

ورد عليه أراجورن بقوله: «كلا. نادرًا ما يأتي الروهيريميون إلى هنا، والمكان بعيد من ميناس تيريث. ربما كانت مجموعة من البشر يصطادون هنا على مدى فصول ومواسم لا نعرفها. ولكني لا أعتقد ذلك».

وقال جيملي: «وماذا تعتقد؟».

وأجابه أراجورن بقوله: «أعتقد أن العدو قد جلب عدوه معه. هؤلاء هم أوركيون شماليون من مكان بعيد جدًا. من بين الأوركيين المذبوحين ليس هناك واحد من الأوركيين العظام بشاراتهم الغريبة. لقد كان هناك شجار، حسب ظني؛ وهو ليس بأمر مستبعد مع أولئك القوم البشعين. ربما كان هناك نزاع بشأن الطريق».

وقال جيملـــي: «أو ربما بشأن الأسرى. دعونا نأمل أنهم - أيضًا - لم يلاقوا حتفهم هنا».

وبحث أراجورن في الأرض في دائرة واسعة، ولكن لم تكن هناك أي آثار أخرى على الأشجار يمكن العثور عليها. وواصلوا سيرهم. أصبحت الشمس الشرقية بالفعل شاحبة؛ وكانت النجوم تتلاشى، وكان هناك ضوء رمادي يزداد ببطء. وبعد مسافة صغيرة نحو الشمال، وصلوا إلى طية قطع فيها جدول صغير يتساقط ويتلوى ويُرى كممر حجري هابط إلى الوادي. ونمت فيه بعض الأجمات، وكانت هناك رقع من العشب على جانبيه.

وقال أراجورن: «أخيرًا! ها هي الآثار التي نبحث عنها! إلى أعلى تلك القناة المائية: هذا هو الطريق الذي سلكه الأوركيون بعد مناقشتهم».

واستدار المطاردون الآن سريعًا وتبعوا الطريق الجديد. وراحوا يقفزون من حجر إلى آخر، كما لو كانوا ممتلئين بنشاط وحيوية بعد ليلة من الراحة. وأخيرًا وصلوا إلى قمة التل الرمادي، وهب نسيم مفاجئ فمس شعرهم وحرك معاطفهم؛ إنها رياح الفجر الباردة.

ولما التفتوا إلى الوراء رأوا عبرَ النهرِ التلالَ البعيدة متوهجة. وقفز النهار إلى السماء. ارتفع الإطار الأحمر للشمس فوق أكتاف الأرض السوداء. كان العالم أمامهم في الغرب يرقد ساكنًا، عديم الملامح، رمادي اللون؛ ولكن حتى وهم ينظرون، كانت ظلال الليل تذوب، وعادت ألوان الأرض المستيقظة: راح اللون الأخضر يتدفق فوق مراعي روهان الشاسعة؛ راحت السُدم البيضاء تتوهج في وديان الماء؛ وإلى اليسار على البعد، وعلى مسافة ثلاثين فرسخًا أو تزيد، كانت تقف «الجبال البيضاء» زرقاء وقرمزية، ترتفع مكونة قممًا عالية، تعلوها أكوام الجليد المتوهجة؛ متوهجة بزهرة الصباح.

وصاح أراجورن: «جوندور! جوندور! لكم كنتُ أتمنى أن أنظر إليك مرة أخرى في ساعة أكثر سعادة! لم يحن بعد طريقي إلى الجنوب من جداولك المشرقة المتألقة.

جوندور! جوندور، بين الجبال والبحر!
ريح الغرب هبت هناك؛ الضوء فوق الشجرة الفضية
يسقط مثل مطر براق في حدائق الملوك القدامى.

أيتها الجدران الأبية! الأبراج البيضاء! أيها التاج المجنح والعرش الذهبي!
يا جندور، جندور! هل سيرى البشر الشجرة الفضية،
أو تهب ريح الغرب مرة أخرى بين الجبال والبحر؟

والآن هيا بنا نذهب!» قال ذلك، وهو ينظر بعينيه بعيدًا عن الجنوب، ينظر نحو الغرب والشمال إلى الطريق الذي يجب عليه أن يسير فيه.

سارت سلسلة التلال العالية التي كان الرفاق يقفون فوقها إلى أسفل بشكل حاد أمام أقدامهم. وعلى بعد عشرين قامة[1] أو يزيد أسفل منهم، كان هناك رف صخري عريض ووعر انتهي فجأة في حرف جرف شديد الانحدار؛ جدار روهان الشرقي. وهكذا انتهي جبل إمين مويل، وكانت سهول روهيريم الخضراء تمتد بعيدًا أمامهم على مرمى البصر.

وصاح ليجولاس، وهو يشير إلى أعلى؛ إلى السماء فوقهم: «انظروا! ها هو النسر

(1) القامة ـ وحدة قياس أعماق تساوي ستة أقدام (قاموس المورد) (المترجم)

مرة أخرى! إنه يحلق عاليًا جدًا. يبدو أنه يطير بعيدًا الآن عن هذه الأرض عائدًا إلى الشمال. إنه يمضي بسرعة عظيمة. انظروا!».

وقال أراجورن: «كلا، حتى عيني لا تستطيع أن تراه، يا عزيزي ليجولاس. لابد أنه مرتفع جدًا حقًا. إنني أعجب بشأن المهمة التي هو بصددها، إذا كان هو نفس الطائر الذي رأيته من قبل. ولكن انظروا! أرى شيئًا ما أكثر قربًا وأكثر طلبًا لعمل مُلح؛ هناك شيء ما يتحرك فوق السهل!»

وقال ليجولاس: «أشياء كثيرة. إنها مجموعة كبيرة تسير على أقدامها؛ ولكني لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك، ولا أستطيع أن أرى من أي نوع من القوم يكونون. إنهم على بعد فراسخ كثيرة؛ اثني عشر، حسب ظني، ولكن من الصعب قياس اتساع السهل».

وقال جيملي: «بيد أنني أعتقد مع ذلك أننا لم نعد بحاجة إلى خط السير ليدلنا على الطريق الذي نسلكه. هيا بنا نجد طريقًا يهبط بنا إلى الحقول سريعًا قدر الإمكان».

وقال أراجورن: «إنني أشك إن كنتَ تستطيع أن تجد طريقًا أسرع من الطريق الذي اختاره الأوركيون».

وهم يتابعون عدوهم الآن في وضح النهار. كان يبدو أن الأوركيين قد جدوا في سيرهم بكل سرعة ممكنة. من آن لآخر كان المطاردون يجدون أشياء كانت قد سقطت أو ألقي بها: حقائب أطعمة، وبقايا أو قشور الخبز الرمادي الجاف، ومعطف أسود ممزق، وحذاء ثقيل به مسامير حديدية مكسور على الحجارة. قادهم الأثر شمالاً عبر قمة الجَرْف، وأخيرًا وصلوا إلى شق عميق منحوت في الصخر؛ نحته جدول ماء كان يسير هابطًا في ضوضاء وضجيج في الوهد الضيق، كان هناك طريق وعر يسير هابطًا مثل سلم شديد الانحدار إلى السهل.

عند القاع، وصلوا في فُجَاءة غريبة إلى مراعي روهان. كانت متكاثرة متضخمة، مثل بحر أخضر عال، حتى سفح إمين مويل ذاته وتلاشى الجدول المتساقط متحولاً إلى منطقة عميقة من نباتات الرشاد ونباتات الماء، وكانوا يسمعونه وهو يتدفق بعيدًا في صوت رنان في الأنفاق الخضراء، هابطًا منحدرات طويلة تدريجية باتجاه مستنقعات وادي إنتووش بعيدًا. كان يبدو أنها تركت الشتاء معلقًا فوق التلال وراءها. هنا كان الهواء أكثر رقة وأكثر دفئًا، وكانت تفوح منه رائحة ضعيفة، كما لو كان الربيع يتحرك بالفعل وكان النُسُغ[1] يتدفق من جديد في الأعشاب والأوراق. تنفس ليجولاس نفسًا عميقًا، مثل شخص يشرب جرعة عظيمة من الماء بعد عطش طويل في أماكن قاحلة؛ وقال:

(1) النُسْغ: سائل غذائي يجري في نُسُج النبات لتغذيته، وهو نوعان، نُسْغ صاعد ويُنعَت أيضًا بالناقص، ونُسْغ هابط ويُنعت أيضًا بالكامل؛ جف النسغ في النبات فيبس. «القاموس المحيط، نسخة إلكترونية، موقع شركة صخر للبرمجيات»: http://lexicons.sakhr.com/openme.asp?fileurl=/html/1090887.html (المترجم)

«آه! رائحة الخضرة! إنها أفضل من النوم الكثير. هيا بنا نجري!».
وقال أراجورن: «الأقدام الخفيفة ربما تجري بسرعة هنا. أكثر سرعة، ربما، من الأوركيين ذوى الأحذيةَ المصنوعة من الحديد. والآن لدينا فرصة لتقليل سبقهم لنا!».

وساروا في طابور واحد، يجرون مثل كلاب الصيد التي تجري وراء رائحة قوية، وكان هناك ضوء متلهف في أعينهم. باتجاه الغرب تقريباً، راحت المساحة العريضة للأوركيين السائرين تشق طريقها القبيح؛ لقد وطئت أقدامهم عشب روهان الجميل ودكته وجعلته أسود اللون. وفي الحال صاح أراجورن والتفت جانباً؛ وصاح قائلاً:
«ابقوا هنا! لا تتبعوني بعد!» وجرى سريعاً إلى اليمين، بعيداً عن خط السير الرئيسي؛ لأنه رأى آثار الأقدام التي سارت في ذلك الطريق، تتفرع من الآثار الأخرى للأقدام؛ آثار أقدام بدون أحذية. إن هذه، مع ذلك، لم تذهب بعيداً قبل أن تمر عليها آثار أقدام الأوركيين، وكذلك جاءت خارجة من خط السير الرئيسي في الخلف وفي الأمام، وبعد ذلك انحنت بشدة للوراء مرة أخرى وضاعت في وطء أقدام الأوركيين. عند أبعد نقطة، انحنى أراجورن وأخذ شيئًا ما من العشب؛ بعد ذلك جرى عائداً، وقال:
«نعم، إنها واضحة تماماً: إنها آثار أقدام أوركيين. فيما أعتقد، آثار أقدام بيبين. إنه أصغر من الآخرين. وانظروا إلى هذا!» وأمسك بشيء كان يلمع في ضوء الشمس. كان يبدو مثل الورقة المتفتحة حديثًا لشجرة الزان، جميلة وغريبة في ذلك السهل الذي لا شجر فيه.
وصاح ليجولاس وجيملي في صوت واحد: «إنه دبوس (بروش) معطف جني».
وقال أراجورن: «إن أوراق لُورين لا تسقط دون قيمة وجدوى. إن هذه لم تسقط بمحض المصادفة: لقد تم رميها كعلامة لأي شخص ربما يتبعهم. أعتقد أن بيبين جرى بعيداً عن خط السير لهذا الغرض».
وقال جيملي: «إذن فهو على الأقل على قيد الحياة. وقد استخدم ملكات ذكائه، واستخدم أيضاً ساقيه. إن هذا لأمر مشجع. إننا لا نسير في مطاردتنا دون جدوى».
وقال ليجولاس: «لنتمن أن شجاعته هذه لم تكلف الكثير، أكثر مما ينبغي. هيا! هيا بنا نواصل سيرنا الآن! إن فكرة أن هؤلاء القوم الصغار السعداء وهم يساقون مثل الماشية يحرق قلبي».

وارتفعت الشمس إلى الظهيرة وبعد ذلك راحت تصعد بطيئةً عبر السماء. وجاءت سحب خفيفة صاعدة من البحر إلى الجنوب البعيد دفعها النسيم بعيداً. وغابت الشمس.

وارتفعت الظلال في الوراء ومدت أذرعًا طويلة من الشرق. وما زال الصيادون يواصلون سيرهم. كان قد مر يوم منذ أن سقط بورومير، وكان الأوركيون لا يزالون بعيدين عنهم في الأمام. لم يعد بالإمكان رؤية أي علامة عليهم في السهول المنبسطة المستوية.

وبينما كان ظلام الليل يطبق عليهم من حولهم، توقف أراجورن. لم يستريحوا إلا مرتين، لمدة قصيرة، طوال مسيرتهم النهارية، وها هو الآن اثنا عشر فرسخًا يقع بينهم وبين الجدار الشرقي حيث توقفوا عند الفجر.

وقال: «لقد وصلنا أخيرًا إلى خيار صعب. هل نستريح بالليل، أم نواصل سيرنا بينما لا تزال لدينا العزيمة والقوة؟».

وقال ليجولاس: «ما لم يسترح أعداؤنا أيضًا، فإنهم سيخلفوننا وراءهم بمسافة كبيرة، إذا قعدنا هنا لننام».

وقال جيملي: «بكل تأكيد حتى الأوركيون ينبغي أن يتوقفوا في سيرهم».

وقال ليجولاس: «نادرًا ما يسير الأوركيون في العراء تحت الشمس، ولكن هؤلاء قد فعلوا ذلك. بكل تأكيد إنهم لم يستريحوا بالليل».

وقال جيملي: «ولكننا إذا سرنا بالليل، لا يمكن أن نتتبع خط سيرهم».

وقال ليجولاس: «خط السير مستقيم، ولا يذهب يمينًا ولا يسارًا، حسبما يمكن لعيني أن ترياه».

وقال أراجورن: «ربما، يمكنني أن أقودكم بالتخمين في الظلام وألتزم الخط، ولكن إن نحن ضللنا، أو إذا هم داروا جانبًا، ففي هذه الحالة عندما يأتي الضوء قد يستغرق الأمر منا وقتًا طويلاً قبل أن نعثر على خط السير مرة أخرى».

وقال جيملي: «ولاحظوا أيضًا أننا لا نستطيع أن نرى سوى بالنهار إذا كانت هناك أي طرق تقود بعيدًا. إذا حدث وهرب أحد الأسرى، أو في حالة إذا ما حُمل أي واحد بعيدًا، نحو الشرق، على سبيل المثال، إلى النهر العظيم، باتجاه موردور، فإننا قد نمر بالعلامات ولا نعرفه على الإطلاق أو ندركه».

وقال أراجورن: «هذا صحيح. ولكنني إذا قرأتُ العلامات التي مررنا بها هناك قراءة صحيحة، فإن أوركيي اليد البيضاء كانت لهم الغلبة، والمجموعة بأسرها الآن متجهة إلى آيزنجارد. وخط سيرهم الحالي يثبت صحة قولي».

وقال جيملي: «ولكن سيكون من التهور أن نكون متأكدين من خططهم ومقاصدهم. وماذا عن الهرب؟ في الظلام بالتأكيد أغفلنا العلامات التي قادتك إلى الدبوس (البروش)».

وقال ليجولاس: «سوف يكون الأوركيون في أعلى درجات حذرهم منذ ذلك

الحين، بل وسيكون الأسرى أكثر إرهاقًا وتعبًا. لن يكون هناك من مهرب أو نجاة بعد ذلك، إذا لم نحتل نحن للأمر. فكيف سيكون بالإمكان إنجاز ذلك، فهذا أمر لا يمكن تخمينه، ولكن علينا أولاً أن نتجاوزهم».

وقال جيملي: «ومع ذلك، فإنه حتى أنا، القزم الذي سافر في رحلات كثيرة، ولست الأقل شدة وجرأة بين قومي، لا يمكنني أن أجري الطريق كله إلى آيزنجارد دون أي توقف. إن قلبي يحرقني أيضًا، وكان ينبغي عليّ أن أكون قد بدأت قبل ذلك؛ ولكن الآن عليّ أن أنال قليلاً من الراحة حتى أجري بشكل أفضل. وإننا إذا استرحنا، فإن الليل المظلم هو الوقت الذي يمكننا أن نفعل ذلك فيه».

قال أراجورن: «لقد قلت إنه اختيار صعب. كيف سننهي هذا النقاش؟».

وقال جيملي: «أنت قائدنا ومرشدنا، وأنت ماهر في المطاردة. يجب عليك أن تختار».

وقال ليجولاس: «قلبي يقول لي أن نواصل السير. ولكن يجب علينا أن نتماسك معًا. سوف أتبع مشورتك وخطتك».

وقال أراجورن: «إنك تعطي الاختيار لشخص يسيء الاختيار. منذ أن مررنا عبر الأرجوناث، فإن خياراتي كانت خاطئة». ولزم الصمت، وراح يحدق شمالاً وغربًا في الليل المتجمع لفترة طويلة من الوقت؛ وقال أخيرًا:

«لن نمشي في الظلام. إن خطر فقد خط السير أو علامات الآخرين وهم يأتون ويذهبون يبدو لي هو الأكثر أهمية. لو كان القمر يعطينا النور الكافي، فإننا كنا سنستخدمه، ولكن يا للحسرة! إنه يغرب مبكرًا ولا يزال صغيرًا وشاحبًا».

وغمغم جيملي قائلاً: «وهو قد حجب الليلة على أية حال. لكم كنت أتمنى أن لو كانت السيدة قد أعطتنا ضوءًا، مثل تلك الهدية التي أعطتها لفرودو!»

وقال أراجورن: «سوف تكون الحاجة إليه أكثر في المكان الذي مُنح فيه. حيث تقع معه المهمة الحقيقية. أما مهمتنا نحن فليست سوى مسألة صغيرة في الأعمال العظيمة لهذا الزمان. مجرد مطاردة من بدايتها، ربما، لا يمكن لأي اختيار من اختياراتي أن يفسدها أو يصلحها. ولذلك دعونا نستغل الوقت أفضل استغلال ممكن!».

وألقى بنفسه على الأرض وراح في الحال في النوم؛ نظرًا لأنه لم يكن قد نام منذ ليلتهم تحت ظل تول براندير. واستيقظ ونهض قبل أن يطلع الفجر في السماء. كان جيملي لا يزال يغط في نوم عميق، ولكن ليجولاس كان واقفًا يحدق باتجاه الشمال في الظلمة، مستغرقًا في التفكير وصامتًا مثل شجرة يافعة في ليلة ساكنة لا ريح فيها.

وقال في حزن، وقد التفت إلى أراجورن: «إنهم بعيدون جدًا. إنني أعلم في قلبي أنهم لم يستريحوا هذه الليلة. لا يستطيع أن يجتازهم الآن سوى نسر».

وقال أراجورن: «ومع ذلك، سوف نواصل تتبعنا لهم قدر الإمكان». وانحنى وأيقظ القزم، وقال: «هيا! يجب علينا أن نذهب. الرائحة أصبحت باردة».

وقال جيملي: «ولكن الدنيا لا تزال مظلمة. حتى ليجولاس فوق قمة التل لا يستطيع أن يراهم وإن صعدت الشمس في السماء».

وقال أراجورن: «عندما يخفق البصر، فإن الأرض ربما تجلب لنا شائعة. يجب أن تئن الأرض تحت أقدامهم الكريهة». ومط جسمه على الأرض وأذنه ملتصقة بالطبقة العليا من التربة. ورقد في مكانه دون حراك، لمدة زمنية طويلة جداً لدرجة أن جيملي شك إن كان قد أغمي عليه أو راح في النوم مرة أخرى. وجاء الفجر يضيء بوهن، وبطيئًا راح ضوء رمادي يكبر من حولهم. وأخيرًا نهض، وعندئذ استطاع أصدقاؤه أن يروا وجهه؛ شاحبًا مهزولاً منهكًا، وكانت نظرته قلقة مضطربة؛ وقال:

«شائعة الأرض معتمة ومشوشة. ليس هناك شيء يمشي على الأرض على مسافة أميال حولنا. ضعيفة وبعيدة أقدام أعدائنا. ولكن حوافر الخيل عالية. يخيل إليَّ أنني سمعتُ خيلاً تعدو سريعًا، تمر في الغرب. ولكنها الآن تقترب منا أكثر، وهي متجهة نحو الشمال. أتمنى لو أعرف ما يجري في هذه الأرض!».

وقال ليجولاس: «هيا بنا نمضي!».

وهكذا بدأ اليوم الثالث من مطاردتهم. لم يكادوا يتوقفون طوال كل ساعاته الطويلة بسبب السحب والشمس التي كانت تظهر على فترات متقطعة، كانوا يمشون بخطى واسعة أحيانًا، ويجرون أحيانًا أخرى، كما لو لم يكن أي إرهاق أو تعب يستطيع أن يكبح النار التي كانت تحرقهم. نادرًا ما كانوا يتكلمون. فوق القفار الشاسعة مروا، وتلاشت معاطفهم الجنية مرة أخرى قبالة خلفية الحقول الخضراء الرمادية؛ حتى في ضوء الشمس البارد في وسط النهار، لم ترهم سوى أعين قليلة غير أعين الجن، حتى أصبحوا قريبين جدًا. مرارًا وتكرارًا في قلوبهم شكروا سيدة لُورِيْن على هدية «الليمباس[1]»؛ لأنهم كانوا يأكلون منها ويجدون قوة جديدة حتى وهم يجرون.

راح خط سير أعدائهم يمتد في طريق مستقيم طوال اليوم، حيث يسير في اتجاه الشمال الغربي دون توقف أو انعطاف. وحيث انقضى النهار مرة أخرى ووصل إلى نهايته، فإنهم وصلوا إلى منحدرات طويلة لا شجر فيها، حيث ارتفعت الأرض، منتفخة باتجاه صف من التلال المحدبة المنخفضة أمامهم. أصبح خط سير الأوركيين أكثر ضعفًا حيث انحنى شمالاً باتجاهها؛ لأن الأرض أصبحت أكثر صعوبة وازداد

---

(1) وردت الإشارة إليه في الفصل الثامن «وداع لُورِيْن» من الكتاب الثاني، من الجزء الأول، حيث «وأجابه أفراد الجن قائلين: «هي كذلك. ولكننا نسميها ليمباس أو خبز الطريق، وهي أكثر منحًا للقوة من أي طعام صنعه الإنس، وهي أكثر إمتاعًا من الكعكة المحشوة، من كل الوجوه». (المترجم)

العشبِ قصرًا. على البعد إلى الشمال، تعرج نهر إنتووش، خيط فضيٌ في أرض خضراء. لم يكن هناك من شيء متحرك يمكن رؤيته. وكثيرًا ما تعجب أراجورن أنهم لم يروا أي علامة على حيوان أو إنسان. كانت مساكن الروهيريميين في الجزء الأعظم منها على بعد فراسخَ كثيرةٍ إلى الجنوب، تحت الحواف البارزة المكسوة بالشجر من الجبال البيضاء، والتي أصبحت مخفية الآن في السديم والسحاب؛ ولكن سادة الخيل[1] كانوا فيما مضوا يرعون قطعانًا كثيرة ومجموعة كبيرة من الأفراس في منطقة إيستمنت الشرقية، وهي تلك المنطقة التي تقع شرقًا في مملكتهم، وهناك كان الرعاة يطوفون كثيرًا، يعيشون في مخيمات وخيام، حتى في وقت الشتاء. ولكن الأرض الآن كانت جميعها خالية، وكان هناك صمت لم يبدُ أنه هدوء السلام.

وفي الغسق، توقفوا مرة أخرى. والآن كانوا قد عبروا مسافة قدر الاثني عشر فرسخًا مرتين فوق سهول روهان وضاع جدار إمين مويل في ظلال الشرق. كان القمر اليافع يتوهج في سماء مغطاة بالسديم، ولكنه كان يمنح نورًا قليلاً، وكانت النجوم محجوبة.

وقال ليجولاس: «والآن فإنني أضن بأي وقت للراحة أو أي توقف في رحلة مطاردتنا. لقد كان الأوركيون يجرون أمامنا، كما لو كانت سياط ساورن وراءهم. أخشى أنهم قد وصلوا بالفعل إلى الغابة والتلال المظلمة، وحتى هذا الوقت يعبرون إلى ظلال الأشجار».

وصرَّ جيملي أسنانه، وقال: «هذه نهاية مريرة لأملنا ولكل كدنا وجهدنا!».

وقال أراجورن: «للأمل، ربما، ولكن ليس للكد والجهد. لن نعود للوراء هنا. بيد أنني مرهق ومتعب». وحدق في الوراء عبر الطريق الذي ساروا فيه باتجاه التجمع الليلي في الشرق، وقال: «هناك شيء غريب قيد الإعداد في هذه الأرض. كلي شك وريبة في هذا الصمت. بل إنني أشك في القمر الشاحب. النجوم خافتة؛ وأنا متعب مرهق كما لم أكن من قبل أبدًا، مرهق متعب مثلما لا ينبغي أن يكون أي جوال أمامه خط سير واحد يتبعه. هناك إرادة ما تعطي خصومنا السرعة وتضع حاجزًا غير مرئي أمامنا: إرهاق وتعب هو في القلب أكثر منه في الأطراف».

وقال ليجولاس: «حقًا! لقد عرفتُ هذا منذ أن هبطنا لأول مرة من إمين مويل؛ لأن الإرادة ليست وراءنا، إنما هي أمامنا». وأشار بعيدًا فوق أرض روهان إلى الغرب المظلم تحت القمر الهلالي.

وغمغم أراجورن قائلاً: «سارومان! ولكنه لن يعيدنا إلى الوراء! يجب علينا أن

(1) شعب روهان.

نتوقف مرة أخرى؛ لأنه، انظروا! حتى القمر أصبح محاطًا بسحابة متجمعة. ولكن في الشمال يقع طريقنا بين التل والمستنقع عندما يعود النهار».

ومثلما حدث من قبل، فإن ليجولاس كان أول من نهض على قدميه؛ إذ لم يكن قد نام فعلاً على الإطلاق، وصاح فيهم: «استيقظوا! استيقظوا! إنه فجر أحمر. أشياء غريبة تنتظرنا عند حواف الغابة. لا أدري إن كانت خيرًا أم شرًّا؛ ولكننا دُعينا. استيقظوا!».

وهب الآخرون واقفين، وفي الحال تقريبًا انطلقوا في سيرهم مرة أخرى. وراحت التلال تقترب منهم بطيئًا. كان الوقت لا يزال قبل الظهيرة بساعة عندما وصلوا إليها: منحدرات خضراء ترتفع حتى تصبح سلاسل تلال جرداء كانت تجري في خط مستقيم باتجاه الشمال. عند سفوح هذه التلال كانت الأرض جافة وكان العشب قصيرًا، ولكن كان هناك شريط طويل من أرض غائرة، اتساعه حوالي عشرة أميال، يقع ما بين هذه التلال وبين النهر يجري متجولاً في الأعماق في أجمات نبات القصب والأسل المظلمة. وإلى الغرب مباشرة من المنحدر الذي يقع في أقصى الجنوب، كانت هناك حلقة عظيمة، حيث كان العشب ممزقًا ومهلهلاً من جراء وطء أقدام كثيرة. ومن هنا راح خط سير الأوركيين يجري في الخارج مرة أخرى، حيث دار شمالاً عبر الضواحي الجافة للتلال. توقف أراجورن وتفحص المسارات عن كثب بدقة؛ وقال:

«لقد استراحوا هنا بعض الوقت، ولكن حتى خط السير الخارجي قديم بالفعل. أخشى أن يكون قلبك قد أخبرك الصدق يا ليجولاس: إنه ثلاثة أضعاف اثنتي عشرة ساعة، في ظني، منذ أن وقف الأوركيون في المكان الذي نقف فيه الآن. وإذا كانوا قد ساروا بنفس سرعتهم، ففي هذه الحالة مع مغيب شمس أمس لا بد أنهم وصلوا إلى حدود فانجورن».

وقال جيملي: «لا أستطيع أن أرى أي شيء بعيدًا نحو الشمال أو الغرب سوى العشب الذي يتلاشى إلى ضباب. هل يمكننا أن نرى الغابة لو أننا تسلقنا التلال؟».

وقال أراجورن: «إنها لا تزال بعيدة. إذا كنتُ أتذكر وجه الصواب، فهذه التلال تجري لمسافة ثمانية فراسخ أو أكثر نحو الشمال، وبعد ذلك هناك في الشمال الغربي إلى حيث ينبثق نهر إنتووش تقبع ساكنة أرض شاسعة، قد تكون على مسافة خمسة عشر فرسخًا أخرى».

وقال جيملي: «حسنًا، هيا بنا نواصل سيرنا. يجب أن تنسى ساقاي الأميال. سوف تكونان أكثر طواعية، لو أن قلبي كان أقل تحملاً بالأسى والهم».

كانت الشمس تغيب عندما اقتربوا أخيرًا من نهاية صف التلال. لقد مشوا ساعات طويلة دون أن يستريحوا. كانوا الآن يسيرون ببطء، وانحنى ظهر جيملي. الأقزام لهم صلابة الحجارة في العمل أو في الترحال، ولكن هذه المطاردة اللانهائية بدأت

تؤثر عليه، حيث خمد كل الأمل في قلبه. كان أراجـورن يمشي وراءه، متجهمًا وصامتًا، وكـان ينحني من وقت لآخـر ليتفحص بعض الآثـار أو العلامات على الأرض. ليجولاس فقط هو الذي كان لا يزال يسير في خفة مثلما كان من قبل، كانت قدماه لا تكادان تلمسان العشب، ولم يكن يخلف وراءه أي آثار أقدام وهو يمر؛ ولكن في خبز الطريق الجني كان يجد كل القوت الذي يحتاج إليه، وكان يستطيع النوم، إذا كان النوم يمكن أن يطلق عليه البشر، منح عقله الراحة في الطرق والممرات الغريبة للأحلام الجنية، حتى وهو يمشي مفتوح العينين في ضوء هذا العالم، وقال:

«هيا بنا نصعد إلى هذا التل الأخضر!». وتبعوه في تعب وإعياء، وهم يتسلقون المنحدر الطويل، حتى وصلوا إلى القمة. لقد كان تلاً شاسعًا سلسًا وقاحلاً، يقف بمفرده، التل الذي يقع في أقصى الشمال من بين كل التلال. وغابت الشمس وسقطت ظلال المساء مثل ستارة. لقد كانوا وحدهم في عالم رمادي عديم الشكل دون علامة أو مقياس. على البعد فقط في الشمال الغربي، كانت هناك ظلمة أكثر عمقًا قبالة الليل المحتضر: الجبال الضبابية والغابة عند سفوحه.

وقال جيملي: «ليس من شيء يمكننا أن نراه يرشدنا هنا. حسنًا، الآن يجب علينا أن نتوقف ونمضي الليل. الجو أصبح باردًا!».

وقال أراجورن: «الريح شمالية حسبما يظهر ذلك من الثلج».

وقال ليجولاس: «وقبل الصباح، ستكون في الشرق. ولكن استريحوا إذا كان يجب عليكم ذلك. ولكن لا تطرحوا كل الأمل وتتخلوا عنه. الغد غير معروف. المشورة غالبًا ما توجد مع شروق الشمس».

وقال جيملي: «أشرقت علينا ثلاث شموس بالفعل في مطاردتنا ولم تجلب لنا أية مشورة».

ازداد الليل برودة باستمرار. نام أراجـورن وجيملي نومًا متقطعًا، وكانا كلما استيقظا يريان ليجولاس واقفًا إلى جوارهما، أو يمشي جيئة وذهابًا، يغني بصوت رقيق مع نفسه بلغته هو، وبينما كان يغني كانت النجوم البيضاء تضيء القبو الأسود الصلب الذي كان فوقه. وهكذا مضى الليل. وشاهدوا معًا الفجر يكبر بطيئًا في السماء، حيث صار الآن باديًا للعيان ولا سحابة فيه، حتى جاء شروق الشمس أخيرًا. كان شاحبًا وصافيًا. كانت الريح في الشرق وتلاشى كل الضباب بعيدًا؛ كانت الأراضي الشاسعة ترقد كئيبة حولهم في الضوء الخافت.

ورأوا أمامهم نحو الشرق المرتفعات التي تعصف بها الرياح في عالم روهان التي كانوا قد رأوها منذ أيام كثيرة مضت من النهر العظيم. كانت تقف في الشمال الغربي

غاب فانجورن المظلمة؛ وكانت حوافها المنحدرة الظلالية لا تزال تقع على بعد عشرة فراسخ، وتلاشت منحدراتها الأكثر بعداً في الزرقة البعيدة. وفيما وراء ذلك كان يتوهج على البعد، كما لو كان يطفو على سحابة رمادية، الرأس الأبيض لقمة ميثدراس العالية، آخر قمة من الجبال الضبابية. ومن الغاب تدفق نهر إنتووش خارجاً ليقابلهم؛ كان تياره في هذا الوقت سريعاً ومجراه ضيقاً، وكانت ضفافه مشقوقة بعمق. وتحول خط سير الأوركيين من التلال باتجاهه.

وتتبع أراجورن خط السير بعينيه الحادتين وصولاً إلى النهر، وبعد ذلك من النهر عائداً إلى الغاب، فرأى ظلاً على المساحة الخضراء البعيدة؛ شيئاً ضبابياً مظلماً سريع الحركة. وألقى بنفسه على الأرض وراح ينصت مرة أخرى بتدقيق. ولكن ليجولاس وقف بجانبه، وهو يقي عينيه الجنيتين من ضوء الشمس بيده الطويلة النحيلة، ولم ير أي ظل، أو حتى شيئاً ضبابياً، لم ير سوى أشكال صغيرة لخيالة، الكثير من الخيالة، وكان وهج الصباح على أسنة حرابهم مثل وهج النجوم الدقيقة فيما وراء قدرة البصر الفاني. وبعيداً وراءهم ارتفع دخان أسود في خيوط رقيقة ملتفة.

وكان هناك صمت في الحقول الخاوية، وكان جيملي يسمع الهواء يتحرك بين الأعشاب.

وصاح أراجورن، وقد قفز على قدميه: «خيالة! خيالة كثيرون قادمون باتجاهنا على جياد سريعة!».

وقال ليجولاس: «نعم، هناك مائة وخمسة منهم. شعرهم أصفر، ورماحهم لامعة براقة. قائدهم طويل جداً».

وابتسم أراجورن وقال: «كم هي حادة أعين الجن».

وقال ليجولاس: «كلا! الخيالة على بعد يزيد قليلاً على خمسة فراسخ».

فقال جيملي: «خمسة فراسخ أو فرسخ واحد، لا يمكننا الهرب والنجاة منهم في هذه الأرض الجرداء. هل ننتظرهم هنا أم نواصل السير في طريقنا؟».

فرد عليه أراجورن بقوله: «سوف ننتظر. إنني مرهق، وقد فشلت مطاردتنا. أو على الأقل كان آخرون أمامنا وسبقونا؛ لأن هؤلاء الخيالة عائدون عبر خط سير الأوركيين. ربما نحصل على أخبار منهم».

فقال جيملي: «أو حراب».

ورد ليجولاس قائلاً: «هناك ثلاثة سروج، بيد أنني لا أرى أي هوبيتيين».

وقال أراجورن: «لم أقل إننا لن نسمع أخباراً جيدة. ولكن سواء كان ذلك شراً أم خيراً، فسوف ننتظره هنا».

وترك الرفاق الثلاثة الآن قمة التل، حيث يمكن أن يكونوا علامة سهلة تحت السماء الشاحبة، ومشوا بطيئاً عبر المنحدر الشمالي. وتوقفوا فوق سفح التل بقليل،

ولفوا معاطفهم حولهم، وجلسوا متضامين معًا فوق العشب الذابل. وراح الوقت يمضي بطيئًا وثقيلاً. كانت الريح رقيقة وقارسة. كان جيملي قلقًا؛ وقال:

«ماذا تعرف عن هؤلاء الخيالة يا أراجورن؟ هل نجلس هنا ننتظر موتًا مفاجئًا؟».

وأجابه أراجورن بقوله: «لقد كنتُ بينهم. إن بهم كبرياء وعنادًا، ولكنهم مخلصون، كرماء في فكرهم، وفي أعمالهم جسورون بيد أنهم ليسوا قساة؛ حكماء ولكنهم غير متعلمين، لا يكتبون كتبًا ولكنهم يغنون الأغاني الكثيرة، على طريقة أبناء البشر قبل السنوات المظلمة. ولكني لا أعرف ما حدث هنا أخيرًا، ولا ما قد يكون عليه الروهيريميون من رأي الآن بين الخائن ساورومان وتهديد ساورون. لقد كانوا أصدقاء لشعب جوندور لزمن طويل، على الرغم من أنهم ليسوا أقرباءهم. لقد حدث في السنوات المنسية منذ زمن طويل أن جلبهم إيورل الصغير من الشمال، وصلة قرابتهم إنما مع الباردينجيين[1] أهل الوادي، ومع البورينجيين أهل الغابة الذين ربما لا يزال يُرى بينهم الكثير من البشر ـ طوالاً وجميلين، مثلما هم خيالة روهان. على الأقل، إنهم لن يحبوا الأوركيين».

وقال جيملي: «ولكن جندلف تحدث عن شائعة أنهم يدفعون جزية لموردور».

فأجابه أراجورن بقوله: «إن تصديقي لذلك ليس أكثر من تصديق بورومير له».

وقال ليجولاس: «سوف تعلم الحقيقة قريبًا. إنهم يقتربون بالفعل».

وأخيرًا، حتى جيملي استطاع أن يسمع القرع البعيد لحوافر الخيل المتسارعة. دار الخيالة، وهم يتبعون خط سير الأوركيين، من النهر، وكانوا يقتربون من التلال. كانوا يسيرون بسرعة مثل الريح.

وجاءت الآن صرخات أصوات واضحة قوية ترن فوق الحقول. وفجأة جاءت متدافعة ولها ضوضاء مثل البرق، وانحنى الخيال الذي كان في المقدمة، ومر بسفح التل، وقاد المجموعة عائدًا باتجاه الجنوب عبر الضواحي الغربية للتلال. وساروا هم وراءه صفًا طويلاً من رجال مرتدين الدروع، سريعين، دروعهم براقة، مرهوبين وجميلين عند النظر إليهم.

كانت جيادهم عظيمة الهيئة، قوية، نظيفة الأطراف؛ كانت معاطفها الرمادية تتلألأ، وكانت ذيولها الطويلة تنساب في الريح، وكانت أعرافها مضفرة على أعناقها الشامخة. وكان الرجال الذين يركبونها يضاهونها جيدًا؛ طوالاً، ولهم أطراف طويلة؛ وكان شعرهم ذو اللون الكتاني الباهت ينساب من تحت خوذاتهم الخفيفة، ويتطاير في ضفائر طويلة وراءهم؛ كانت وجوههم متجهمة وحادة. كانوا يمسكون حرابًا طويلة من

---

(1) Bardings (الباردينجيين هم سكان منطقة دال في العصر الثالث المتأخر. وقد أخذوا اسمهم من بارد قاتل التنين المنحدر من سلالة جيريون الذي كان سيد منطقة دال قبل أن يدمرها سماوج). (المترجم)

خشب الدردار في أيديهم، وكانت دروعهم مطلية معلقة على ظهورهم، وكانت في أحزمتهم سيوف طويلة، وكانت دروعهم التيّ في صورة قمصان تتدلى حتى ركبهم.
وراحوا يَعْدُون مارين بهم مثنى مثنى، وعلى الرغم من أن أحدهم كان ينهض في ركابه من وقت لآخر ويحدق في الأمام إلى كلا الجانبين، فقد كان يبدو أنهم غير مدركين لوجود الغرباء الثلاثة الذين يجلسون في صمت ويشاهدونهم. كانت المجموعة قد مرت تقريبًا عندما وقف أراجورن فجأة، ونادى بصوت عال:
«ما الأخبار من الشمال، يا خيالة روهان؟».

وبسرعة ومهارة مذهلتين أوقفوا جيادهم، وانعطفوا بها، واندفعوا مسرعين في دائرة. وسريعًا وجد الرفاق الثلاثة أنفسهم في حلقة من الخيالة يتحركون في دائرة وهم يجرون إلى أعلى منحدر التل ووراءهم وإلى أسفل، وحولهم في كل مكان، وكانوا يقتربون نحو الداخل أكثر فأكثر. ووقف أراجورن في صمت، وجلس الآخران دون حركة، وهم يتساءلون عن الطريق الذي ستسير عليه الأمور.
وفجأة، بدون كلمة أو صيحة، توقفت الخيالة. وصوبت حزمة من الحراب باتجاه الغرباء؛ وكان لدى بعض الخيالة أقواس في أيديهم مشرعة، وكانت أسهمهم مركبة بالفعل في أوتار الأقواس. وعندئذ تقدم واحد منهم للأمام، رجل طويل، أطول من الباقين كلهم؛ وكان ينساب من خوذته مثل قشرة نبات ذنب الخيل أبيض. وراح يتقدم، حتى أصبح سن حربته في نطاق قدم واحدة من صدر أراجورن. ولم يتحرك أراجورن.
«من أنتم، وماذا تفعلون في هذه الأرض؟». ـ قال ذلك الخيال، وهو يستخدم لغة الغرب الدارجة، بطريقة وبلهجة شبيهة بحديث بورومير، رجل جوندور.
وأجابه أراجورن قائلاً: «اسمي سترايدار. جئتُ من الشمال. إنني أتعقب الأوركيين».
وقفز الخيال من فوق حصانه. وأعطى حربته لآخر، والذي سار بحصانه ونزل من فوقه إلى جواره، واستل سيفه ووقف وجهًا لوجه مع أراجورن، يتفحصه بشدة، وبدون عجب. وأخيرًا تكلم مرة أخرى؛ وقال:
«أولاً فكرتُ أنكم أنتم أنفسكم كنتم أوركيين، ولكن الآن أرى أن الأمر ليس كذلك. في الواقع أنتم تعرفون القليل عن الأوركيين، إذا ذهبتم في مطاردتهم بهذه الطريقة. لقد كانوا مسرعين ومدججين بالسلاح، وكانوا كثيرين. كنتم ستتحولون من مطاردين إلى ضحية، لو حدث ولحقتم بهم. ولكن هناك شيئًا ما غريبًا بخصوصك يا سترايدار». وحنا عينيه الصافيتين اللامعتين مرة أخرى ونظر في الجوال، وقال:

«هذا الإسم الذي قلته ليس اسمًا لرجل. كما أن ثيابك غريبة أيضًا. هل قفزت خارجًا من العشب؟ كيف غبت عن أنظارنا ولم نرك؟ هل أنتم قوم من الجن؟».

فأجابه أراجورن بقوله: «كلا. واحد فقط من بيننا جني، ليجولاس من مملكة الغابة في غابة ميركوود (الغابة المظلمة) البعيدة. ولكننا مررنا عبر لوثلورين، وعطايا وتأييد السيدة تسير معنا».

ونظر الخيال إليهم في دهشة متجددة، ولكن عينيه ازدادتا قسوة، وقال: «معنى هذا أن هناك سيدة في الغابة الذهبية، مثلما تقول الحكايات القديمة. الذين ينجون من شباكها قلة، حسب قولهم. هذه أيام غريبة! ولكن إذا كنتم قد نلتم استحسانها وتأييدها، فإنكم أيضًا ـ في هذه الحالة ـ نساجو شباك وسحرة، ربما». ونظر نظرة باردة فجأة إلى ليجولاس وجيملي، وقال متسائلاً: «لماذا لا تتحدثان، أيها الصامتان؟».

ونهض جيملي وباعد بين قدميه المغروستين بإحكام في وقفته: وقبضت يده على يد بلطته، وومضت عيناه السوداوان، وقال: «أعطني اسمك، يا سيد الخيل، وسوف أعطيك اسمي، وزيادة إلى جانب ذلك».

فقال الخيال، وهو يحدق لأسفل في القزم: «بالنسبة لذلك، فإن الغريب هو الذي يعلن عن نفسه أولاً. ولكن اسمي إيُومَرْ بن إيوموند، ويسمونني مارشال ريدرمارك الثالث».

«إذن يا إيُومَرْ بن إيوموند، مارشال ريدرمارك الثالث، دع جيملي القزم ابن جولين يحذرك من الكلمات الحمقاء. إنك تتحدث بالشر عما هو جميل فيما وراء فكرك، ولا يغفر لك سوى قليل ذكائك».

وتوهجت عينا إيُومَرْ، وغمغم رجال روهان في غضب، وأطبقوا عليهم من حولهم، وهم يمدون حرابهم، وقال إيُومَرْ: «يمكنني أن أقطع رأسك، ولحيتك، وأقطعك كلك، أيها السيد القزم، إذا كان جسدك يقف أعلى قليلاً فوق الأرض».

وقال ليجولاس، وقد أحنى قوسه وركب سهمًا بيدين كانتا تتحركان أسرع من البصر: «إنه لا يقف وحده. سوف تموت قبل أن تنزل ضربتك».

ورفع إيُومَرْ سيفه، وكان من الممكن أن تسير الأشياء على نحو سيئ لا يحمد، ولكن أراجورن قفز بينهم، ورفع يده، وصاح: «أستميحك عذرًا، يا إيُومَرْ! عندما تعلم المزيد، فإنك ستفهم السبب وراء إثارتك لغضب رفاقي. إننا لا نقصد إلحاق أي شر بروهان، ولا بأي واحد من شعبها، ولا بأي رجل ولا حصان. ألا تسمع حكايتنا قبل أن تضرب؟».

وقال إيُومَرْ وهو ينزل سيفه: «سوف أفعل. ولكن الهائمين في ريدرمارك سيكون من الحكمة أن يكونوا أقل غطرسة وتعجرفًا في هذه الأيام المليئة بالشك. أولاً أخبرني اسمك الحقيقي».

وسأله أراجـورن قائلاً: «أولاً، أخبرني من تخدم. هل أنت صديق أم عدو لساورون، سيد الظلام في موردور؟».

ورد عليه إيومر قائلاً: «أنا لا أخدم سوى سيد مارك، ثيودين الملك ابن ثينجل. إننا لا نخدم سلطة الأرض السوداء البعيدة، بيد أننا لسنا في حرب مفتوحة معهم كذلك؛ وإذا كنتَ تفر منه، فإنه من الأفضل لك إذن أن تغادر هذه الأرض. هناك قلق ومشاكل على جميع حدودنا حاليًا، ونحن مهددون؛ ولكننا لا نرغب في شيء سوى أن نكون أحرارًا، وأن نعيش كما كنا نعيش، نحتفظ بأرضنا، ولا نخدم سيدًا أجنبيًا، صالحًا كان أم طالحًا. إننا كنا نرحب بالضيوف بلطف في الأيام الطيبة الأفضل من هذه الأيام، ولكن في هذه الأوقات، فإن الغريب غير المدعو يجدنا مسرعين في رد فعلنا وقساة. هيا! من أنتم؟ ومن تخدمون؟ وبناء على أوامر من تطاردون الأوركيين في أرضنا؟».

وقال له أراجورن: «أنا لا أخدم أحدًا، ولكن خدام ساورون هم الذين أطاردهم في أي أرض قد يذهبون إليها. هناك قليلون بين البشر الفانين الذين يعرفون أكثر مني عن الأوركيين؛ وأنا لا أطاردهم بهذه الطريقة بناء على اختيار مني. الأوركيون الذين نطاردهم أخذوا اثنين من الأصدقاء أسيرين. في مثل تلك الحالة، الرجل الذي ليس لديه حصان سوف يمشي على قدميه، ولن يطلب الإذن بتتبع الأثر. كما أنه لن يقوم بإحصاء رءوس العدو إلا بالسيف. إنني لستُ بدون سلاح».

وألقى أراجورن بمعطفه للوراء. وراح الغمد الجني يلمع وهو يمسك به، وراح نصل أندوريل اللامع البراق يلمع مثل شعلة مفاجئة وهو يخرجه من غمده سريعًا. وصاح: «إلنديل! أنا أراجـورن بن أراثـورن، ويسمونني إليسار، الحجر الجني الدونادان، وريث إيسيلدور ابن إلينديل ملك جوندور. هذا هو السيف الذي كُسر وقد أعيد صنعه مرة ثانية! هل ستساعدني أم تحبطني وتعوقني؟ عليك بالاختيار سريعًا!».

ونظر جيملي وليجولاس إلى رفيقهما في ذهول؛ لأنهما لم يرياه في هذه الحالة المزاجية من قبل. كان يبدو أنه قد كبر في هيئته في حين انكمش إيومر؛ وفي وجهه الحي لمحوا رؤية سريعة لقوة وسلطان ملوك الحجارة. وبدا لحظة لعيني ليجولاس أن شعلة بيضاء ومضت على حاجبي أراجورن مثل تاج متألق.

وتراجع إيومر للوراء، وظهرت على وجهه نظرة رهبة. وأسدل عينيه الأبيتين للأرض، وغمغم قائلاً: «هذه حقًا أيام غريبة. الأحلام والأساطير تبرز للوجود والحياة من العشب».

«أخبرني، أيها السيد» ـ قال له ذلك مخاطبًا، «ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وماذا كان معنى الكلمات الغامضة؟ لقد مضى بورومير بن دنثور منذ زمن طويل يبحث عن إجابة، وعاد الحصان الذي أعرناه إياه بلا خيال. ما المصير الذي تجلبه معك من الشمال؟».

وَرَد عليه أراجورن قائلاً: «مصير الاختيار. ربما يمكنك أن تقول ذلك لثيودين ابن ثنجيل: هناك حرب مفتوحة أمامه، مع ساورون أو ضده. ربما لا يعيش أي أحد الآن مثلما كان يعيش، قليلون هم الذين سيحتفظون بما يسمونه ممتلكاتهم الخاصة. ولكننا سنتكلم عن هذه المسائل الجسام فيما بعد. إذا سنحت لنا الفرصة، فسوف آتي بنفسي إلى الملك. أما الآن فإنني في مسيس الحاجة، وإنني أطلب المساعدة، أو على الأقل الأخبار. لقد سمعتَ أننا نطارد مجموعة من الأوركيين أخذت أصدقاءنا أسرى. ما الذي يمكنكم أن تخبرونا به؟».

«وأصدقاؤنا؟».

«لم نجد أحدًا سوى الأوركيين».

وقال أراجورن: «ولكن هذا غريب حقًا. هل تبحثون عن المذبوحين؟ ألم تكن هناك أي جثث غير تلك من نوع الأوركيين؟ كانوا سيبدون صغار الحجم، ليسوا سوى أطفال بالنسبة لأعينكم، غير مرتدين أي أحذية ولكنهم مرتدون ثيابًا رمادية».

وقال إيُومَرْ: «لم يكن هناك أقزام ولا أطفال. لقد أحصينا كل المذبوحين وسلبناهم ما كان معهم، وبعد ذلك كومنا الجثث وأحرقناها تمامًا كما هي عادتنا. الرماد لا يزال يدخن».

وقال جيملي: «نحن لا نتحدث عن الأقزام أو الأطفال. أصدقاؤنا كانوا هوبيتيين».

وقال إيُومَرْ متسائلاً: «هوبيتيون؟ وماذا عساهم أن يكونوا؟ إنه اسم غريب».

ورد عليه جيملي قائلاً: «اسم غريب لقوم غرباء. ولكن هؤلاء كانوا أعزاء جدًا بالنسبة لنا. يبدو أنكم سمعتم في روهان عن الأمور التي أقلقت ميناس تيريث. إنهم يتحدثون عن الأنصاف[1]. هؤلاء الهوبيتيون هم الأنصاف».

وضحك الخيال الذي كان يقف إلى جوار إيُومَرْ، وقال: «الأنصاف! الأنصاف! ولكنهم ليسوا سوى شعب صغير في الأغاني القديمة وحكايات الأطفال التي تأتي من الشمال. هل نحن نمشي في عالم الأساطير أو على الأرض الخضراء في ضوء النهار؟».

وقال أراجورن: «بإمكان الإنسان أن يفعل الاثنين؛ لأننا لسنا من يصنع أساطير زماننا، وإنما هم الذين يأتون بعدنا. الأرض الخضراء، تقول ذلك؟ إنها أسطورة عظيمة، على الرغم من أنك وطئتها في ضوء النهار!».

وقال الخيال، وهو غير منتبهَ لأراجورن: «الوقت يدهمنا. يجب علينا أن نسرع جنوبًا، أيها السيد. دعونا نترك هؤلاء القوم الغرباء لخيالاتهم. أو دعونا نقيدهم ونأخذهم إلى الملك».

---

(1) الإشارة هنا ـ كما سبق في المجلد الأول ـ إلى الهوبيتيين. النصف، Halfling ـ اسم بديل يطلق على الواحد من الهوبيتيين، حيث إنهم شبيهون بالبشر إلا إنهم في نصف حجمهم. «موقع» http://en.wikipedia.org/wiki/Halfling (ولعل أفضل مقابل له في اللهجة المصرية هو «النص») (المترجم)

وقال إيومر بلغته هو: «السلام، يا إيوثاين! اتركني بعض الوقت. لتخبر الإيوريديين أن يتجمعوا عند الطريق، ويستعدّوا للسير إلى مخاضة إنتويد[1]».

♦

وانسحب إيوثاين وهو يدمدم، وتحدث مع الآخرين. وفي الحال انسحبوا جميعًا وتركوا إيومر وحده مع الرفاق الثلاثة.

وقال إيومر: «كل ما تقوله غريب يا أراجورن. ولكنك تقول الحق، هذا واضح: إن بشر «مارك» لا يكذبون، ومن ثم ليس من السهل خداعهم. ولكنك لم تخبرنا كل شيء. ألن تتحدث بشكل أكثر تمامًا عن مهمتك، حتى يمكنني أن أقرر ما يمكن أن أفعله؟».

وأجابه أراجورن قائلاً: «بدأتُ رحلتي من إملادريس، كما يطلق عليها في الشعر، منذ أسابيع كثيرة مضت. وذهب معي بورومير من ميناس تيريث. وكانت مهمتي تنحصر في الذهاب إلى تلك المدينة مع ابن دنثور، لمساعدة شعبه في حربهم ضد ساورون. ولكن الصحبة التي ارتحلت معها كان لديها شأن آخر. ولا يمكنني أن أتحدث عن ذلك الآن. كان جَنْدَلْفْ الأشيب قائدنا».

وصاح إيومر متعجبًا: «جَنْدَلْفْ! جَنْدَلْفْ الأشيب[2] معروف في المارك؛ ولكن اسمه، إنني أحذرك، لم يعد كلمة مرور إلى استحسان وتأييد الملك. لقد كان ضيفًا في البلاد مرات عديدة في ذاكرة الرجال، يأتي حسبما يشاء، بعد فصل، أو بعد سنوات طوال. إنه دائمًا رسول الأحداث الغريبة: جالب الشر، حسبما يقول البعض الآن.

«حقًّا فمنذ آخر مرة جاء فيها في الصيف، إن كل الأشياء فشلت وسارت على نحو خاطئ. بدأت في ذلك الوقت مشاكلنا مع سارومان. حتى ذلك الوقت كنا نعتبر سارومان صديقنا، ولكن جندلف جاء آنذاك وحذرنا أن حربًا مفاجئة كانت قيد الإعداد في آيزنجارد. وقال إنه هو نفسه كان أسيرًا في أورثاناك وقد نجا بشق الأنفس، وطلب منا المساعدة. ولكن ثيودين لم يصغ إليه، وارتحل بعيدًا. لا تتحدث عن الاسم جندلف بصوت عال في أذني ثيودين! وهو يستحق ذلك. حيث إن جندلف أخذ الحصان الذي يسمى شادوفاكس، أثمن حصان من بين كل جياد الملك، أكبر سلالة خيل الميراراس[3]، التي لا يجوز أن يركبها سوى الملك فقط؛ لأن سيد سلالتهم كان الحصان العظيم ـ حصان إيورل الذي كان يعرف لغة البشر. وقد عاد شادوفاكس منذ سبع ليال مضت؛ ولكن غضب الملك لم يخمد؛ لأن الحصان الآن أصبح جامحًا ولا يدع أي شخص يقترب منه ويتعامل معه».

---

(1) Entwade ـ العنصر الثاني من الكلمة معناه («ford») ـ أي مخاضة، والجزء الأول (Ent) معناه الإنتيون، وهي لا تترجم، ولعل الكلمة من جزئيها يكون معناها «مخاضة الإنتيين». حسب المؤلف في مسرد الأسماء» (المترجم)

(2) فيما مضى، كان يعرف باسم: Gandalf the Grey؛ وهنا يطلقون عليه اسم: Gandalf Greyhame (المترجم)

(3) Mearas ـ سلالة من الخيل في شمال الأرض الوسطى. فناؤها يعادل فناء البشر، ولكن ذكاءها وقوتها غير عاديين. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Mearas#Mearas] (المترجم)

وقال أراجـورن: «معنى ذلك أن شادوفاكس قد وجد طريقه وحده من الشرق البعيد؛ لأنه حدث أن افترقنا عن جندلف هناك. ولكن واحسرتاه! لن يركب جندلف أي حصان بعد ويسير به. لقد سقط في الظلمة في أنفاق موريا ولم يأت مرة أخرى».

وقال إيومر: «هذه أخبار كئيبة ثقيلة الوطء. على الأقل بالنسبة لي، وبالنسبة للكثيرين؛ على الرغم من أنها ليست كذلك بالنسبة للجميع، حسبما قد تكتشف، إذا جئتَ للملك».

وقال أراجورن: «إنها أخبار أكثر حزنًا مما يمكن أن يعيه أي أحد في هذه البلاد، على الرغم من أنها قد تمسهم بشكل موجع قبل أن يمضي وقت كثير من العام. ولكن عندما يسقط العظيم، يجب على من هم دونه أن يتولوا القيادة. لقد كان دوري أن أقود رفقتنا على الطريق الطويل من موريا. جئنا عبر لورين - التي كان ينبغي عليك أن تعلم حقيقتها قبل أن تتكلم عنها مرة أخرى - ومن هناك سرنا عبر فراسخ النهر العظيم إلى شلالات نهر راوروس. وهناك ذُبح بورومير على يد نفس الأوركيين الذين دمرتموهم».

وصاح إيومر في رعب: «كل أخبارك مرعبة ومدعاة حزن شديد! إنه لخطر عظيم هذا الموت بالنسبة لميناس تيريث، ولنا جميعًا. لقد كان رجلاً عظيم الشأن! الجميع يتكلمون في مديحه. نادرًا ما كان يأتي إلى المارك؛ لأنه كان دائمًا في الحروب على الحدود الشرقية؛ ولكني رأيته. إنه أكثر شبهًا بأبناء إيورل خفيفي الحركة منه إلى بشر جوندور الخطرين الوقورين بالنسبة لي، وكان من المحتمل أن يثبت أنه قائد عظيم لشعبه عندما كان سيأتي وقته. ولكن لم تصلنا أي أخبار عن هذا الحزن من جوندور. متى سقط؟».

وأجابه أراجورن قائلاً: «اليوم هو اليوم الرابع منذ أن ذُبح، ومنذ عشية ذلك اليوم ارتحلنا من ظل تول براندير».

وصاح إيومر: «على الأقدام؟».

«نعم، حتى رأيتنا».

ظهر في عيني إيومر عجب هائل، وقال: «اسم سترايدار اسم فقير بالنسبة لك، يا ابن أراثورن. إنني أسميك وينجفوت[1]. هذا العمل الذي قام به الأصدقاء الثلاثة يجب أن يغنى في الكثير من الأبهاء والقاعات. لقد قطعت خمسة وأربعين فرسخًا قبل أن ينتهي اليوم الرابع! كم هو شديد وقوي عرق إليانديل!

«ولكن الآن، أيها السيد، ما الذي ستريدني أن أفعله! يجب علي أن أعود على عجل إلى تيودين. لقد تحدثتُ بحذر أمام رجالي. هذا حقيقي، إننا لسنا في حرب معلنة مع الأرض السوداء، وهناك بعض ممن هم قريبون من أذن الملك، يسدون له نصائح غير مجدية؛ ولكن الحرب قادمة. إننا لن نتخلى عن تحالفنا القديم مع جوندور، وبينما

(1) Wingfoot - ومكونة من wing ومعناها جناح، وfoot ومعناها قدم، ومن الممكن ترجمة الاسم جملة [ذو القدم المجنحة]، وأطلق عليه إيومر هذا الاسم؛ لأنه قطع مسافة خمسة وأربعين فرسخًا في أربعة أيام. (المترجم)

هم يحاربون فإننا سنساعدهم: هكذا أقول أنا وكذلك كل من هم يصمدون معي. إن إيست مارك (المَعْلَم الشرقي[1])، دائرة المارشال الثالث، وقد أزلتُ كل قطعاننا، ورعاتنا، سحبتهم إلى ما وراء نهر إنتووش، ولم أترك أحدًا هناك سوى الحراس والمستطلعين سريعي الحركة».

فقال جيملي: «إذن فأنتم لا تدفعون جزية إلى ساورون؟».

فرد عليه إيومر ووميض في عينيه: «نحن لا ندفع له جزية ولن ندفع له جزية أبدًا، على الرغم من أنه نُمي إلى مسامعي أن هذه الأكذوبة قد تم تداولها. منذ سنوات طوال رغب سيد الأرض السوداء أن يشتري خيلاً من خيلنا بسعر كبير، ولكننا رفضنا؛ لأنه يستخدم الحيوانات في الشر. عندئذ أرسل أوركيين نهّابين، وأخذوا ما استطاعوا أن يأخذوه، وكانوا دائمًا يختارون الخيل السوداء: ليس هناك سوى القليل من هذه الآن. ولهذا السبب فإن خصومتنا مع الأوركيين أشد.

«ولكن في هذا الوقت، همنا الأساسي هو سارومان. لقد نصب نفسه سيدًا على كل هذه البلاد، وكانت هناك حرب بيننا لشهور كثيرة. لقد أخذ الأوركيين في خدمته، وكذلك راكبي الذئاب، والشريرين من البشر، وقد أغلق الفجوة في وجهنا، وهذا من أجل أن نطوق من الشرق ومن الغرب.

«إنه تعامل سيئ مع عدو كهذا: إنه ساحر ماكر وبلاّع على السواء، وله مظاهر عدة. إنه يمشي هنا وهناك، حسبما يقولون، كرجل عجوز يلبس غطاء رأس ومعطفًا، يشبه جندلف كثيرًا، مثلما يتذكر الكثيرون الآن. ينسل جواسيسه خلال كل الشباك، وطيوره المشئومة منتشرة في الخارج في السماء. إنني لا أعلم كيف سينتهي كل ذلك، وقلبي يحدثني بالشر؛ لأنه يبدو لي أن أصدقاءه لا يسكنون جميعًا في آيزنجارد. ولكنك إذا جئتَ إلى منزل الملك، فسوف ترى بنفسك. ألن تأتي؟ هل آمل أنا دون جدوى أنك قد أُرسلتَ إلي للمساعدة في ساعة الشك وساعة الحاجة؟».

وقال له أراجورن: «سوف آتي عندما أستطيع».

ورد عليه إيومر بقوله: «تعال الآن! إن وريث إلينديل سيكون مصدر قوة حقًا لأبناء إيورل في هذا الموسم الشرير. هناك معركة حتى في ذلك الوقت في المنطقة الغربية، وأخشى أن تسير على نحو سيئ بالنسبة لنا.

«في حقيقة الأمر، لقد سرتُ في طريقي هذا نحو الشمال دون إذن من الملك؛ لأن منزله في غيابي يُترك وليس به سوى القليل من الحراس. ولكن أفراد الاستطلاع حذروني من مجموعة الأوركيين القادمة من الجدار الشرقي منذ ثلاث ليال، وقد

---

(1) East-mark ـ نظرًا لأن بلدهم تسمى (Mark)، ومعناها (المَعْلَم) ـ العلامة البارزة لهداية المسافرين.. وهو مسئول عن الجزء الشرقي (East-mark) منها. (المترجم)

تناقلوًا فيما بينهم أن بعضهم كان يحمل شارات ساروماك البيضاء. إن ما أخفيه مثير للشك كثيرًا جدًا، تحالف بين أورثانك وبرج الظلام، وقدتُ رجالات عائلتي ـ الإيوريد ـ قدمًا؛ ولحقنا بالأوركيين مع حلول الليل منذ يومين، بالقرب من حدود إنتوود. وهناك قمنا بتطويقهم، وخضنا معركة في الفجر. فقدتُ خمسة عشر من رجالي، واثنى عشر حصانًا بكل أسف! وذلك لأن الأوركيين كانوا أكثر عددًا مما كنا نحسب. وانضم إليهم آخرون، كانوا يأتون من الشرق عبر النهر العظيم: إن خط سيرهم واضح بحيث يمكن رؤيته إلى الشمال قليلاً من هذه البقعة. وجاء آخرون ـ أيضًا ـ من الغابة. أوركيون عظام، وكانوا أيضًا يحملون اليد البيضاء لآيزنجارد؛ ذلك النوع أكثر قوة وضراوة من جميع الأنواع الأخرى.

«ومع ذلك وضعنا نهاية لهم. ولكننا غبنا وقتًا طويلاً للغاية. هناك حاجة إلينا في الجنوب والغرب. ألن تأتوا معنا؟ هناك خيل فائضة حسبما ترون. هناك عمل بالنسبة للسيف يمكن إنجازه. نعم، ويمكننا أن نجد استخدامًا لبلطة جيملي ولقوس ليجولاس، إذا كان يمكنهما أن يعذراني في كلماتي المتهورة فيما يتصل بالسيدة والغابة. كنتُ أتحدث فقط مثلما يتحدث جميع الرجال في بلادي، وسوف أكون مسرورًا لأن أتعلم أفضل».

وقال أراجورن: «أشكرك على كلماتك الجميلة، وإن قلبي ليرغب في أن آتي معكم؛ ولكن لا يمكنني أن أهجر أصدقائي مادام هناك أمل».

وقال إيومر: «الأمل ليس باقيًا. لن تجد أصدقاءك على الحدود الشمالية».

«بيد أن أصدقائي ليسوا وراءنا. لقد وجدنا أمارة واضحة ليست بعيدة عن الجدار الشرقي تدل على أن واحدًا منهم على الأقل لا يزال حيًا هناك. ولكن بين الجدار والتلال لم نعثر على أي أثر آخر لهم، ولم يدر أي أثر جانبًا، إلى هذا الطريق أو ذلك، ما لم تكن مهارتي قد خذلتني تمامًا».

«إذن، ماذا في رأيك يكون قد ألم بهم؟».

«لا أدري. ربما يكونون قد ذُبحوا وحُرقوا بيد الأوركيين؛ ولكن ما ستقوله لا يمكن أن يكون، وإنني لا أخشاه. لا يسعني إلا أن أفكر أنهم حُملوا إلى الغابة قبل المعركة، حتى قبل أن تطوقوا خصومكم، فيما يحتمل. هل تقسم أنه لم يهرب أحد منهم من شبكتك بتلك الطريقة؟».

فرد عليه إيومر بقوله: «أقسم لك أنه لم يهرب أي أوركي بعد أن وقعت أعيننا عليهم. لقد وصلنا إلى حدود الغابة قبلهم، وإذا كان أي شيء قد اخترق هذه الحلقة بعد ذلك، فلابد ـ في هذه الحالة ـ أنه لم يكن أوركيًا ولديه قوة جنية ما».

وقال له أراجورن: «إن أصدقاءنا كانوا يرتدون ثيابًا مثلنا، وقد مررتم بنا في وضح النهار ولم ترونا».

فرد عليه إيومر بقوله: «لقد نسيتُ ذلك. من الصعب أن تكون متأكدًا من أيّ شيء

بين كل هذه الأعاجيب الكثيرة. لقد أصبح العالم كله غريبًا. جني وقزم في صحبة يمشيان في حقولنا اليومية؛ وأناس يتحدثون مع سيدة الغابة ومع ذلك فهم أحياء؛ ويعود إلى الحرب السيف الذي كان قد كُسر في الأزمنة الطويلة الغابرة قبل أن يركب آباء آبائنا خيلهم إلى المارك[1] (المَعْلَم)! كيف يمكن لرجل أن يحدد ما يفعله في هذه الأوقات؟».

وقال أراجورن: «مثلما كان يحدد من قبل على الدوام. لم يتغير الخير والشر من السنة الماضية؛ كما أنهما لا يمثلان شيئًا بين الجن والأقزام ويمثلان شيئًا آخر بين البشر. إن الدور الذي يقع على عاتق الإنسان هو أن يميزهما، بنفس القدر في الغابة الذهبية مثلما هي الحالة في منزله الخاص به».

ورد عليه إيومر بقوله: «هذا صحيح حقًا. ولكني لا أشك فيك، ولا في العمل الذي سيفعله قلبي. بيد أنني لستُ حرًا لأفعل كل ما أريد أن أفعله. إنه خرق لقانوننا أن نسمح للغرب بالتجول على حريتهم في أرضنا، حتى يمنح الملك نفسه الإذن بذلك، بل إن الأوامر أكثر صرامة في هذه الأيام؛ أيام الخطر. لقد رجوتكم أن تعودوا معي طواعية، وأنتم لن تأتوا. إنني أكره أن أدخل في معركة بمجموعة قوامها مائة ضد ثلاثة».

فقال له أراجورن: «لا أظن أن قانونك قد وضع لمثل هذه الحالة. كما أنني لستُ غريبًا؛ لأنني جئتُ إلى هذه الأرض من قبل، أكثر من مرة، وقد ركبتُ مع مجموعة الروهيريميين، على الرغم من أنني كنتُ أحمل اسمًا آخر وفي مظهر وهيئة آخرين. أنت لم ترني من قبل؛ لأنك صغير، ولكني تحدثتُ مع إيموند والدك، ومع ثيودين بن ثينجيل. لم يكن ليحدث أبدًا في الأيام الخوالي أن يمنع أي سيد من السادة الكبار لهذه الأرض شخصًا ليتخلى عن مهمة مثل مهمتي هذه. إن مهمتي على الأقل واضحة؛ أن أواصل سيري. هيا، يا ابن إيموند، يجب إنجاز الخيار أخيرًا. ساعدنا، أو على أسوأ الأمور اتركنا لنمضي أحرارًا. وإلا فحاول تنفيذ قانونك. إنك إذا فعلت ذلك، فإنه سيكون هناك عدد أقل يعود إلى حربك أو إلى ملكك».

ولزم إيومر الصمت لحظة، وبعد ذلك تحدث، قائلاً: «كلانا بحاجة إلى العجلة. إن صحبتي تغضب عندما تكون بعيدًا، وكل ساعة تقلل من أملك. هذا هو خياري. يمكنك أن تذهب؛ والأكثر من ذلك، سوف أعيرك خيلاً. وهذا هو ما أطلبه؛ فعندما تحقق مهمتك، أو عندما يثبت أنها عديمة الجدوى، عد بالخيل فوق إنتوايد إلى ميديوسلد، المنزل العالي في إيدوراس حيث يقيم ثيودين الآن. وهكذا فإننا سنثبت له أنني لم أسئ الحكم. وفي هذا فإنني أضع نفسي، وربما حياتي كلها، في عهدة إخلاصك لا تفشل في مهمتك».

(1) Mark ـ اسم مدينتهم (المترجم)

فَرَّد عليه أراجورن بقوله: «إنني لن أفشل».

وكان هناك عجب ودهشة كبيران، والكثير من النظرات المرتابة الغامضة، بين رجاله، عندما أعطى إيومر الأوامر أن الخيالة الإضافية الموجودة مْعهم تُعار إلى الغرباء؛ ولكن لم يجرؤ على الكلام بصراحة سوى إيوثاين، حيث قال:

«ربما يكفي ذلك جيدًا بالنسبة لهذا السيدِ من سلالة جوندور، حسبما يزعم، ولكن من الذي سمع عن حصان من خيل المارك يُعطى لقزم؟».

وقال جيملي: «ليس من أحد. ولا تقلق بهذا الشأن: لن يسمع أحد بذلك. إنني أفضلِ أن أمشي على قدمي من أن أجلس على ظهر أي حيوان بهذه الضخامة، سواء كنتُ حرًا أو كنتُ مثار حسد على ذلك».

وقال له أراجورن: «ولكن يجب عليك أن تركب حصانًا الآن، وإلا فإنك ستعيقنا».

وقال له ليجولاس: «هيا، سوف تركب ورائى، يا صديقى جيملي. وسيكون كل شيء إذن على ما يرام، ولن تحتاج إلى أن تستعير حصانًا أو أن يضايقك أي حصان».

وأحضر أراجورن حصانًا رماديًا داكنًا عظيمًا، وركب عليه. وقال له إيومر: «اسمه هاسوفلْ. لعله يحملك جيدًا، ويسير بك إلى حظ أفضل، من جورَلْف، سيده السابق!».

وأحضروا حصانًا أصغر حجمًا وأخف وزنًا، ولكنه كان حرونًا وعنيفًا، لليجولاس. بيد أن ليجولاس طلب منهم أن يأخذوا السرج واللجام ـ «إنني لا أحتاج إليهما»، وقفز في خفة على الحصان، ولعجبهم فإن أرود كان طائعًا ووديعًا تحته، وراح يتحرك هنا وهناك ليس بشيء سوى كلمة: كانت هذه هي الطريقة الجنية مع كل الحيوانات الطيبة. ورفعوا جيملي وراء صديقه، وتشبث به، ولم يكن يشعر بالراحة قط أكثر من شعور سامْ جامجي وهو في مركب.

وصاح إيومر: «الوداع، وأتمنى لكم أن تجدوا ما تبحثون عنه! لتعودوا بأقصى سرعة تستطيعونها، ولندع سيوفنا بعد ذلك تلمع معًا!».

وقال له أراجورن: «سوف آتي».

قال جيملي: «وأنا سوف آتي أيضًا، لا تزال مسألة السيدة جَلدريل تقف بيننا. لا يزال يتحتم على أن أعلمك الحديث الرقيق».

ورد عليه إيومر بقوله: «سوف نرى. هناك أشياء غريبة كثيرة للغاية وقعت مصادفة لدرجة أن تعلم مديح وإطراء سيدة جميلة تحت الضربات المحببة لبلطة قزم لن تبدو مثار دهشة أو عجب كبيرين. الوداع!».

وبهذه الكلمات افترق الجانبان. كانت خيل روهان سريعة جدًا. وعندما نظر جيملي إلى الوراء بعد قليل من الوقت، فإن مجموعة إيومر كانت بالفعل صغيرة وبعيدة

جدًّا. لم ينظر أراجورن إلى الوراء: كان يشاهد خط السير وهم يسرعون في طريقهم، وكان منحنيًا قليلاً ورأسه إلى جوار رقبة هاسوّفل. قبل أن يمضي وقت طويل وصلوا إلى حدود إنتووش، وهناك قابلوا خط السير الآخر الذي تحدث عنه إيومر، وكان يسير لأسفل من الشرق خارجًا من الغابة.

ونزل أراجورن من فوق الحصان وتفحص الأرض، بعد ذلك قفز عائدًا إلى السرج، وانطلق بحصانه بعيدًا لبعض المسافة نحو الشرق، وقد التزم جانبًا واحدًا وكان حذرًا بحيث لا يدوس على آثار الأقدام. عندئذ نزل مرة أخرى من الحصان وتفحص الأرض، وراح يذرع المكان جيئة وذهابًا على قدميه.

وقال عندما عاد: « هناك القليل مما يمكن اكتشافه. خط السير الرئيسي اختلط تمامًا مع خط سير الخيالة عندما عادوا؛ إن مسارهم الخارجي لا بد أن يكون قد سار على نحو أكثر قربًا من النهر. ولكن خط السير الشرقي هذا جديد وواضح. ليست هناك أي علامة على أي أقدام ذهبت في الطريق الآخر، عائدة باتجاه أندوين. والآن، ينبغي علينا أن نسير بشكل أبطأ، ونتأكد من عدم جنوح أي خط سير أو وقع أقدام نحو أي من الجانبين. لا بد أن الأوركيين كانوا مدركين من هذه النقطة أنهم كانوا متبوعين؛ ربما يكونون قد حاولوا الابتعاد بأسراهم قبل اللحاق بهم».

❧

وبينما هم يواصلون سيرهم قُدمًا، أصبح الجو ملبدًا بالسحب. تغطت الدنيا بسحب رمادية منخفضة. وحجب الضباب الشمس. ولاحت منحدرات فانجورن المكسوة بالأشجار أكثر قربًا من أي وقت مضى، وراحت تظلم ببطء والشمس تسير نحو الغرب. لم يروا أي علامة على أي خط سير نحو اليمين أو نحو اليسار، ولكنهم كانوا يمرون هنا وهناك ببعض الأوركيين، وقد سقطوا في مسارهم وهم يجرون، وسهام مريشة بريش رمادي ملتصقة في ظهورهم أو في حلوقهم.

وأخيرًا، بينما كادت فترة ما بعد الظهيرة تنقضي، وصلوا إلى حدود الغابة، وفي منطقة مفتوحة من الغابة بين الأشجار الأولى عثروا على مكان المحرقة العظيمة: كان الرماد لا يزال ساخنًا وينبعث منه الدخان. وإلى جانبه كانت هناك كومة كبيرة من الخوذات والدروع، والتروس المشقوقة، والسيوف المكسرة، والأقواس والسهام المريشة وغير ذلك من أدوات الحرب. وعلى عصا غرست في المنتصف وضع رأس غول عظيم؛ وفوق خوذته المهشمة كانت الشارة البيضاء لا تزال واضحة ومرئية. وعلى بعد مسافة أخرى، ليس بعيدًا عن النهر، حيث راح يتدفق خارجًا من حافة الغابة، كانت هناك تلة جنائزية. كانت قد شيدت حديثًا: وكانت التربة الفجة مغطاة بعشب مقطوع حديثًا: وغرست حولها خمس عشرة حربة.

وانتشر أراجورن ورفاقه بعيدًا وفي دائرة كبيرة حول ميدان المعركة وراحوا يبحثون، ولكن الضوء تلاشى، وسريعًا ما حل المساء، معتمًا وضبابيًا. ومع حلول الليل لم يكتشفوا أي أثر لميري أو بيبين.

وقال جيملي في حزن: «لا يمكننا أن نفعل أكثر من ذلك. لقد وُضعنا إزاء الكثير من الألغاز منذ أن وصلنا إلى تول براندير، ولكن هذا اللغز هو أصعبها حلاً على الإطلاق. إنني أظن أن عظام الهوبيتيين المحروقة قد امتزجت الآن بعظام الأوركيين. ستكون هذه الأخبار صعبة الوقع على فرودو إذا هو عاش ليسمعها؛ كما ستكون صعبة أيضًا على الهوبيتي العجوز الذي ينتظر في ريفنيديل. لقد كان إلروند معارضًا لقدومهم».

ورد عليه ليجولاس قائلاً: «ولكن جندلف لم يكن معارضًا».

وأجابه جيملي بقوله: «ولكن جندلف اختار أن يأتي بنفسه، وكان هو أول من فُقد. لقد خانته بصيرته».

وقال أراجورن: «إن رأي جندلف لم يكن مبنيًا على معرفة مسبقة بالسلامة، بالنسبة لشخصه أو بالنسبة للآخرين. هناك بعض الأشياء من الأفضل أن تشرع فيها بدلًا من أن ترفضها، حتى ولو كان يحتمل أن تكون النهاية مظلمة. ولكنني لن أترك هذا المكان مع ذلك. على أية حال، يجب علينا أن ننتظر هنا ضوء الصباح».

وعلى بعد مسافة صغيرة من ميدان المعركة، نصبوا مخيمهم تحت شجرة ممتدة: كانت تبدو كشجرة كستناء، ومع ذلك كانت، ولا تزال، تحمل الكثير من الأوراق البنية العريضة من سنة ماضية، مثل أيد جافة بأصابع طويلة مبسوطة؛ كانت تتحرك في حفيف على نحو حزين في نسيم الليل.

وارتعش جيملي. لم يكونوا قد أحضروا سوى بطانية واحدة لكل فرد منهم، وقال: «هيا بنا نوقد نارًا. لم أعد آبه بأي خطر. ليأتِ الأوركيون بكثافة بمثل كثافة عثة الصيف حول شمعة!».

وقال ليجولاس: «إذا كان هؤلاء الهوبيتيون التعساء قد ضلوا في الغابة، فإن النار قد تجذبهم إلى هنا».

وقال أراجورن: «وربما تجذب أشياء أخرى، لا أوركيين ولا هوبيتيين. إننا قريبون من مستنقعات الجبال التابعة للخائن سارومان. كما أننا أيضًا على حافة غابة فانجورن، ومن الخطر أن نمس أشجار هذه الغابة، حسبما يقال».

فقال جيملي: «ولكن الروهيريميين صنعوا محرقة عظيمة هنا بالأمس، وقطعوا أشجارًا لهذه النار، حسبما يمكننا أن نرى. ومع ذلك فإنهم أمضوا الليلة التالية في أمان هنا، عندما انتهت مهمتهم».

وقال أراجورن: «لقد كانوا كثيرين، ولا يأبهون بحرق غابة فانجورن؛ لأنهم نادرًا ما يأتون إلى هنا، ولا يسيرون تحت الأشجار. ولكن طرقنا من المحتمل أن تقودنا إلى الغابة نفسها. ولذلك ينبغي علينا توخي الحذر! لا تقطعوا أي فرع شجرة حي!».

فقال جيملي: «ليس هناك حاجة إلى ذلك. لقد ترك الخيالة بعض الأخشاب وأحضروا ما يكفي، وهناك أخشاب ميتة كثيرة ملقاة على الأرض». وانطلق ليجمع الوقود، وشغل نفسه ببناء نار وإشعالها؛ ولكن أراجورن جلس في صمت وظهره لشجرة ضخمة، مستغرقًا في التفكير؛ ووقف ليجولاس وحيدًا في العراء، ينظر باتجاه ظل الغابة العميق، ومائلاً إلى الأمام، كشخص ينصت إلى أصوات تنادي من مسافة بعيدة».

وعندما انتهى القزم من صنع نار وراح لهب صغير يرتفع منها، تجمع الرفاق الثلاثة حولها واقتربوا منها وجلسوا معًا، يحجبون النار بأشكالهم المغطاة بأغطية الرأس. نظر ليجولاس إلى أعلى؛ إلى فروع الشجرة التي كانت ممتدة فوقهم، وقال: «انظروا! الشجرة سعيدة بالنار!»

ربما تكون الظلال المتراقصة قد خدعت أعينهم، بيد أن الفروع ـ بكل تأكيد ـ بدت لكل من الرفاق تنحني متمايلة إلى هذه الناحية وتلك حتى تصير فوق ألسنة اللهب، في حين أن الفروع العليا كانت تتجه لأعلى؛ وكانت الأوراق البنية عند ذلك ممتدة للخارج متصلبة، وكانت تحتك مع بعضها مثل الكثير من الأيدي الباردة المشققة تتنسم الراحة في الدفء.

وساد صمت؛ فالغابة المظلمة والمجهولة، والتي كانت قريبة منهم جدًا، فجأة، جعلتهم يشعرون بها كوجود عظيم باعث على التفكير، مليء بغرض سري. بعد فترة قصيرة، عاود ليجولاس الكلام مرة أخرى قائلاً:

«لقد حذرنا سيلبورن ألا نذهب بعيدًا إلى غابة فانجورن. هل تعرف السبب في ذلك يا أراجورن؟ ما خرافات الغابة التي سمعها بورومير؟».

ورد عليه أراجورن بقوله: «لقد سمعتُ الكثير من الحكايات في جوندور وفي أماكنَ أخرى غيرها، ولكن لولا كلمات سيلبورن فإنني أعتبرها جميعًا مجرد خرافات صنعها البشر عندما تلاشت المعرفة الحقيقية وضاعت. لقد فكرتُ في سؤالك عن حقيقة الأمر. وإذا كان جني من جن الغابة لا يعرف، فأنى لإنسان أن يعرف؟».

وقال ليجولاس: «لقد قمت بالتجوال والترحال أكثر مني. إنني لم أسمع شيئًا عن هذا في بلادي، باستثناء فقط الأغاني التي تحكي كيف كان أونودريم، الذي يسميه البشر إنتس، يسكن هناك منذ زمن طويل مضى؛ لأنها غابة قديمة، إنها قديمة حتى في تقدير الجن».

ورد أراجورن بقوله: «نعم، إنها قديمة، قديمة مثلها مثل الغابة التي توجد إلى

جوارِ تلال البارو، وإنها أكثر عظمة بكثير. يقول إلروند إن الاثنين متجانسان، آخر معاقل الغابات العظيمة التي وجدت في الأيام الخوالي، والتي كان فيرستبورن يطوف فيها بينما كان البشر لا يزالون نائمين. ولكن فانجورن لديها سر تحتفظ به وخاص بها. ما هذا السر؟ أنا لا أعلم».

ورد جيملي قائلاً: «ولا أتمنى أن أعرف. لعل أي شيء مما يسكن في فانجورن لا يتعرض لأي مشاكل بسببي!».

إنهم يقترعون حاليًا على الحراسة، وقد كان الكثير من نوبات الحراسة الأولى من نصيب جيملي. ورقد الآخرون. تقريبًا حل عليهم النوم في الحال. وقال أراجورن في نعاس: «جيملي! تذكر، إنه من الخطر أن تقطع غصنًا أو فرعًا من شجرة حية في غابة فانجورن. ولكن لا تبعد كثيرًا بحثًا عن الأخشاب الميتة. من الأفضل أن تترك النار تموت من أن تفعل ذلك! عليك باستدعائي عند الحاجة!».

وبهذه الكلمات راح في النوم. كان ليجولاس بالفعل يرقد دون حركة، ويداه الجميلتان منطويتان فوق صدره، وعيناه غير مغلقتين، يمتزج فيهما الليل الحي والحلم العميق، تمامًا كما هي الحال مع الجن. جلس جيملي محنيًا إلى جانب النار، يجرى إبهامه خلال حافة بلطته. راحت الأشجار تتحرك في حفيف. لم يكن هناك أي صوت آخر غير ذلك.

وفجأة نظر جيملي إلى أعلى، وهناك على حافة ضوء النار مباشرة كان يقف رجل عجوز منحنٍ، يتكئ على عصا، وكان متلفعًا في معطف كبير؛ كانت قبعته ذات الحواف العريضة تنزل على عينيه. وقفز جيملي من مكانه، كان مندهشًا ومذهولاً للغاية، في هذه اللحظة، لدرجة أنه لم يستطع أن يصرخ، على الرغم من أنه في الحال ومضت في ذهنه فكرة أن سارومان قد أمسك بهم. استيقظ كل من أراجورن وليجولاس على حركته المفاجئة، وجلسا في أماكنهما وراحا يحدقان. لم يتكلم الرجل العجوز أو يبد أي إشارة.

وقال أراجورن، وقد هب واقفًا على قدميه: «حسنًا، يا أبي، ما الذي يمكننا أن نفعله لك؟ تعال وتمتع بالدفء، إذا كنت تشعر بالبرد!» وسار للأمام بخطى واسعة، بيد أن الرجل العجوز اختفى. لم يكن هناك أي أثر له يمكن العثور عليه قريبًا منهم، ولم يجرءوا على أن يسيروا بعيدًا للبحث عنه. كان القمر قد غاب، وكانت الليلة حالكة الظلمة.

وفجأة صدرت عن ليجولاس صيحة: «الخيل! الخيل!».

اختفت الخيل! لقد جرت أوتادها ومرابطها واختفت. وقف الثلاثة بعض الوقت في سكون وصمت، وقد أقلقهم هذا الحدث الجديد من سوء الحظ. كانت تحت حواف غابة فانجورن، وهناك فراسخ لا نهائية تقع بينهم وبين بشر روهان؛ أصدقائهم الوحيدين في هذه الأرض الفسيحة الخطيرة. وبينما كانوا واقفين، بدا لهم أنهم سمعوا، بعيدًا جدًا

في الليل، صوت صهيل الخيل. بعد ذلك عاد كل شيء إلى هدوئه مرة أخرى، باستثناء حفيف الريح البارد.

وأخيرًا تحدث أراجورن وقال: «حسنًا، لقد ذهبوا. لا يمكننا أن نجدهم أو نمسك بهم؛ إنهم إن لم يعودوا من تلقاء أنفسهم، فيجب علينا أن نستغني عنهم. لقد بدأنا رحلتنا مشيًا على الأقدام، ولا تزال لدينا هذه الأقدام».

وقال جيملي: «الأقدام! ولكن لا يمكننا أن نأكلها مثلما نمشي عليها». وألقى ببعض الخشب في النار ورقد إلى جوارها.

وضحك ليجولاس وقال: «منذ ساعات قليلة فقط، كنتَ معارضًا للجلوس على ظهر حصان من خيل روهان. ومع ذلك فسوف تكون خيالاً».

ورد عليه جيملي بقوله: «يبدو أنه من غير المحتمل أن الفرصة ستتاح لي».

وبدأ الحديث مرة أخرى بعد بعض الوقت حيث قال: «إذا كنتَ ترغب في أن تعرف ما أفكر فيه، أظن أنه كان سارومان. ومن غيره؟ تذكر كلمات إيومر: إنه يمشي متجولاً مثل رجل عجوز عليه غطاء رأس ويرتدي معطفًا. كانت تلك هي الكلمات. لقد مضى ومعه خيلنا، أو لعله أرعبها وجعلها تهرب، وها نحن أولاء الآن. هناك المزيد من المتاعب التي ستنتابنا، لعلك تنتبه لكلماتي التي أقولها!».

ورد عليه أراجورن قائلاً: «إنني أنتبه لكل ما تقول. ولكني ألاحظ أيضًا أن هذا الرجل العجوز كان يرتدي قبعة وليس غطاء رأس. ومازلتُ لا أشك في أن ما تخمنه صحيح، وأننا في خطر هنا، في الليل أو النهار. ومع ذلك، في نفس الوقت، ليس هناك من شيء يمكننا أن نفعله سوى أن نستريح، مادام في إمكاننا ذلك. سوف أقوم بالحراسة بعض الوقت الآن، يا جيملي. إن حاجتي للتفكير أكثر من حاجتي للنوم».

ومضت الليلة بطيئةً. وتبع ليجولاس أراجورن، وتبع جيملي ليجولاس، وانتهت نوبات حراستهم. ولكن لم يحدث أي شيء. لم يظهر الرجل العجوز مرة أخرى، ولم تعد الخيل.

الفصل الثالث

الأوروك هـــــاي[1]

كان بيبين يرقد في حلم كئيب ومضطرب: كان يبدو أنه يسمع صدى صوته الصغير في الأنفاق المظلمة، ينادي فرودو! فرودو! ولكن بدلاً من فرودو، عبست فيه مئات من وجوه الأوركيين الكريهة من الظلال، وأمسكت به مئات الأذرع من كل جانب. أين كان ميري؟

واستيقظ. وكان الهواء البارد يهب في وجهه. كان يرقد على ظهره. كان المساء في طريقه للحلول، وكانت السماء فوقه معتمة. ودار، ووجد أن الحلم كان أسوأ من اليقظة قليلاً. كانت رسغاه وساقاه وكاحلاه موثوقة بالحبال. وإلى جواره كان يرقد ميري، وجهه أبيض، وخرقة قذرة موضوعة على جبهته. وكانت فيما حولهم في كل مكان مجموعة كبيرة من الأوركيين جالسين أو واقفين.

وببطء في رأس بيبين المتألم أخذت الذاكرة تلملم شتاتها وأصبحت منفصلة عن ظلال الحلم. بالطبع؛ لقد هرب هو وميري إلى الغابة. ما الذي حل بهما؟ لماذا اندفع الاثنان على هذا النحو، ولم يلاحظا وجود سترايدار العجوز؟ لقد جريا لمسافة طويلة وهما يصيحان ـ لم يستطع أن يتذكر إلى أي مدى أو ما طول المسافة؛ وبعد ذلك اصطدما فجأة بمجموعة من الأوركيين: كانوا يقفون ينصتون، ولم يبد أنهم رأوا ميري وبيبين إلى أن كانوا بين أيديهم تقريباً. بعد ذلك صرخا وقفزت العشرات من غيلان آخرين من فوق الشجر. واستل هو وميري سيفيهما، ولكن الأوركيين لم يكونوا يريدون العراك، وقد حاولوا فقط أن يمسكوا بهما، حتى عندما قام ميري ببتر الكثير من أذرعهم وأيديهم. جيد يا ميري العجوز!

بعد ذلك جاء بورومير يقفز عبر الأشجار. لقد جعلهم يقاتلون. لقد ذبح الكثيرين منهم وفر الباقون. ولكنهم لم يسيروا كثيراً في طريق عودتهم عندما هوجموا مرة أخرى، هاجمهم مائة من الأوركيين على الأقل، كان بعضهم ضخماً جداً، وأمطروهم بوابل من السهام: كانت كلها تقريباً تقع على بورومير. لقد نفخ بورومير بوقه العظيم حتى دوى في الغابة كلها، وفي البداية روع الأوركيون وتراجعوا؛ ولكن عندما لم يأت أي رد سوى الأصداء، فإنهم قاموا بالهجوم بشراسة أكثر من أي وقت مضى. لم

(1) Uruk-hai ـ بلغة [Black Speech] أي لغة موردور، وهي اللغة الوحيدة لكل خدام موردور؛ ومعناها [Orc folk]ـ أي الشعب الأوركي؛ وهم سلالة متقدمة من الأوركيين. [موقع: http://en.wikipedia.org/wiki/Uruk_Hai، وhttp://en.wikipedia.org/wiki/Black_Speech] (المترجم)

يكن بيبين يتذكر أكثر من ذلك. كانت آخر ذكرى عالقة لديه عن بورومير، وهو متكئ على شجرة، ينتزع سهماً؛ وبعد ذلك حل الظلام فجأة.

وقال لنفسه: «أعتقد أنني ضربت على رأسي. إنني أتساءل إن كان ميري المسكين قد تعرض لأذى كبير. ما الذي حل ببورومير؟ لماذا لم يقتلنا الأوركيون؟ أين نحن، وإلى أين سنذهب؟».

لم يكن لديه أي إجابة عن الأسئلة. كان يشعر بالبرد وبالإعياء. وفكر بينه وبين نفسه: «لكم أتمنى ألا يستطيع جندلف أن يقنع إلروند بأن يدعنا نأتي. ما النفع الذي حققته؟ مجرد إزعاج؛ مسافر، قطعة من المتاع. والآن لقد سرقت وأنا مجرد قطعة من متاع للأوركيين. أتمنى أن يأتي سترايدار أو أي شخص آخر ويطالب بأخذنا! ولكن هل ينبغي علي أن آمل في ذلك؟ أليس من شأن ذلك أن يفسد كل الخطط؟ أتمنى لو استطعت أن أصير حراً!».

وناضل قليلاً بدون جدوى على الإطلاق. وضحك أحد الأوركيين الذي كان يجلس بالقرب منه وقال شيئاً لرفيقه بلغتهم البغيضة: «لتسترح ـ مادام في وسعك الراحة ـ قليلاً أيها الأحمق!» ـ بعد ذلك قال لبيبين، باللغة الدارجة، والتي جعلها بغيضة مثل لغته تقريباً. «لتسترح مادام في وسعك الراحة! سوف نجد استعمالاً لساقيك قبل أن يمضي وقت طويل. سوف تتمنى لو لم تكن لديك أي سيقان قبل أن تصل إلى موطننا».

وقال الآخر: «لو استعملت طريقتي معك، لكنت تمنيت أن تكون ميتاً الآن. كنت سأجعلك تصرخ، أيها الجرذ البائس». وانحنى فوق بيبين، ووضع أنيابه الصفراء قريباً من وجهه. كانت في يده سكين سوداء لها نصل طويل مسنن، وقال في هسيس: «ارقد في هدوء، وإلا طعنتك بهذا. لا تلفت الانتباه إليك، وإلا فسوف أنسى أوامري. اللعنة على سكان آيزنجارد!» وبعدها انخرط في حديث طويل غاضب بلغته هو، والذي انتهي بطيئاً ليصل إلى غمغمة وزمجرة.

رقد بيبين المرعوب ساكناً في مكانه، على الرغم من أن الألم في رسغيه وكاحليه كان يتزايد، وكانت الصخور تحته تثقب ظهره. وحتى يبعد عقله عن نفسه، فإنه راح يصغي ببالغ انتباه إلى كل ما يمكن أن يسمعه. كانت هناك أصوات كثيرة حوله، وعلى الرغم من أن حديث الأوركيين كان طوال الوقت يبدو مليئاً بالكراهية والغضب، فقد بدا واضحاً أن شيئاً ما مثل العراك قد بدأ، وأصبح أكثر وطأة.

ولدهشة بيبين فإنه وجد أن الكثير من الحديث كان غير واضح؛ كان الكثير من الأوركيين يستخدمون لغة عادية. فيما يبدو أن أفراد عشيرتين أو ثلاث عشائر مختلفة كانوا موجودين، ولم يفهموا لغة الأوركيين الخاصة بكل منهم. كان هناك نقاش غاضب فيما يتصل بما سيفعلونه حالياً: ما الطريق الذي سيأخذونه، وما الذي يجب فعله مع الأسرى.

قال واحد منهم: «ليس هناك وقت لقتلهم بالشكل اللائق. ليس هناك وقت للعب في هذه الرحلة».

ورد عليه آخر: «لا يمكننا الحيلولة دون ذلك. ولكن لماذا لا نقتلهم سريعًا، نقتلهم الآن؟ إنهم مصدر إزعاج ملعون، ونحن في عجلة من أمرنا. المساء يحل بنا، وينبغي علينا أن نواصل سيرنا».

وقال صوت ثالث في صوت مدمدم عميق: «الأوامر: اقتلوا الجميع ما عدا الأنصاف؛ يجب أن نعود بهم أحياء بأقصى سرعة ممكنة. هذه هي أوامري».

وتساءلت أصوات عديدة: «ما الحاجة إليهم؟ ولماذا أحياء؟ هل يقدمون تسلية جيدة؟».

«كلا! سمعتُ أن واحدًا منهم لديه شيء ما، شيء مطلوب للحرب، خريطة جنية أو غير ذلك. على أية حال سيتم استجوابهما هما الاثنين».

«هل هذا هو كل ما تعرفه؟ لماذا لا نفتشهم ونتبين الأمر؟ ربما نعثر على شيء يمكن أن نستخدمه نحن أنفسنا».

«هـــذه ملاحظة جيدة جـدًا» قال ذلك صـوت في شخير، أرق من الأصوات الأخرى ولكنه أكثر شرًا. «قد يكون لزامًا على أن أنقل ذلك. الأسرى لن يفتشوا أو ينهبوا: هذه هي أوامري».

وقال الصوت العميق: «وأوامري أنا أيضًا. أحياء ومثلما تم أسرهم؛ لا ينهبون. هذه هي أوامري».

وقال صوت من الأصوات التي جاءت أولاً: «إنها ليست أوامرنا! لقد قطعنا كل هذه الطرق من الأنفاق لنقتل، وننتقم لقومنا. إنني أرغب في أن أقتل، وبعد ذلك أعود إلى الشمال».

وقال الصوت المدمدم: «في هذه الحالة، يمكنك أن تتمنى وترغب مرة أخرى. إنني أوجلوك. أنا الآمر. سوف أعود إلى آيزنجارد من أقصر طريق».

وقال الصوت الشرير: «هل سارومان هو السيد أم العين العظيمة؟ يجب أن نعود في الحال إلى لُجبورز».

وقال صوت آخر: «إذا استطعنا عبور النهر العظيم، ربما يمكننا ذلك. ولكن ليس هناك عدد كاف منا للمغامرة بالهبوط إلى الجسور».

وقال الصوت الشرير: «لقد جئتُ عبرها. هناك شبح مجنح من أشباح الخاتم (نازجول[1]) في انتظارنا في الشمال على الضفة الشرقية».

(1) Nazgûl ـ ومكونة من مقطعين (Nazg ـ "ring") و(Gûl ـ «wraith أوspirit») ـ ومعناها أشباح الخاتم. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Nazgul] (المترجم)

«ربما، ربما! وعندئذ سوف نطير بأسرانا، ونحصل على كل المكافأة والإطراء في لَجْبورز، وتتركنا نقطع المسافة سيرًا على الأقدام قدر استطاعتنا عبر بلاد الخيل. كلا، يجب أن نبقى جميعًا معًا. هذه الأراضي خطيرة: مليئة بالمتمردين وقطاع الطريق الأشرار».

ودمدم أوجلوك قائلاً: «نعم، يجب أن نبقى جميعًا معًا. إنني لا أثق بك أيها الخنزير الصغير. إننا نحن الأوروك هاي المحاربون! نحن ذبحنا المحارب العظيم. نحن أخذنا الأسرى. نحن خدام سارومان الحكيم، اليد البيضاء؛ اليد التي تعطينا لحم البشر لنأكله. لقد جئنا من آيزنجارد، وقدناكم هنا، وسوف نقودكم في طريق العودة عبر الطريق الذي نختاره نحن. إنني أنا أوجلوك. ولقد تحدثت».

وقال الصوت الشرير في شخير: «لقد تحدثتَ أكثر مما هو كاف، يا أوجلوك. إنني أتساءل كيف سيروق لهم الأمر في لَجْبورز. ربما يعتقدون أن كتفي أوجلوك كانتا بحاجة إلى أن تستريحا من رأس منتفخ. ربما يسألون من أين أتت أفكاره الغريبة. هل أتت من سارومان، ربما؟ من يظن نفسه، وهو يعمل من تلقاء نفسه بشاراته البيضاء القذرة؟ من المحتمل أن يتفقوا معي، مع جريشْنَاخْ[1] رسولهم الأمين؛ وأنا جريشْنَاخْ أقول هذا: سارومان أحمق، وأحمق قذر خائن. ولكن العين العظيمة تراقبه.

«أيها الخنزير أهكذا هو الأمر؟ كيف أيها القوم تحبون أن تُنادوا باسم (الخنزير) من جانب ساحر قذر تافه؟ إن ما يأكلونه هو لحم الأوركيين، إنني أؤكد ذلك».

وردت عليه صرخات عالية كثيرة تتحدث بلغة الأوركيين، وكذلك صوت دوى وقرع الأسلحة التي استلوها. وفي حذر راح بيبين يتدحرج، أملاً في أن يرى ما سيحدث. لقد ذهب حراسه لينضموا إلى المشاجرة. في الشفق رأى أوركيًا ضخمًا أسود، أوجلوك ـ فيما يحتمل، يقف مواجهًا جريشْنَاخْ، مخلوق قصير معقوف الساقين، عريض جدًا وله ذراعان طويلتان تتدليان تقريبًا حتى الأرض. وكان حولهما الكثير من العفاريت الصغيرة. وقد افترض بيبين أن هؤلاء كانوا من الشمال. وسحبوا سكاكينهم وسيوفهم، ولكنهم ترددوا في مهاجمتهم لأوجلوك.

وصاح أوجلوك، وجرى عدد من أوركيين آخرين في نفس حجمه تقريبًا. وبعد ذلك فجأة، ودون تحذير، قفز أوجلوك للأمام، وبضربتين سريعتين اجتث رأسين من رءوس خصومه. قفز جريشْنَاخْ جانبًا، واختفى. وتراجع الآخرون، وقفز أحدهم إلى الوراء وسقط على ميري الذي كان جاثيًا على ركبتيه، وهو يطلق اللعنات. ولكن ذلك أنقذ حياته ـ فيما يحتمل ـ حيث إن أتباع أوجلوك قفزوا فوقه وقتلوا آخر بسيوفهم ذات

(1) Grishnákh (المترجم)

النِّصَال العريضة. لقد كان الحارس ذا الأنياب الصفراء. وسقط جسده على بيبين مباشرة، ولا يزال يمسك بسكينه ذات الحافة المنشارية.

وصاح أوجلوك: «ضعوا أسلحتكم! ودعونا من هذا الهراء! سوف نذهب مباشرة نحو الغرب من هنا، وننزل على السلم. ومن هناك مباشرة إلى التلال، بعد ذلك عبر النهر إلى الغابة. وسوف نسير نهارًا وليلاً. هل هذا واضح؟».

وفكر بيبين: «والآن، لو أن الأمر استغرق بعضًا من الوقت من هذا الشخص القبيح لينظم قواته ويضعها تحت السيطرة، فإنه ستكون أمامي فرصة». وجاءته ومضة من أمل. لقد جرحت حافة السكين الأسود ذراعه جرحًا خفيفًا، وبعد ذلك انزلقت إلى أسفل إلى رسغه. كان يشعر بالدم وهو يتقاطر على يده، ولكنه كان يشعر أيضًا بملمس الصلب البارد على جلده.

كان الأوركيون يستعدون للمسير، ولكن بعض الشماليين كانوا لا يزالون، كارهين ذلك، وذبح أهل آيزنجارد اثنين آخرين قبل أن يُـرَوَّعَ الآخـرون ويتم إخضاعهم. كان هناك الكثير من السب واللعن والارتباك. لم تكن هناك مراقبة أو حراسة على بيبين في هذه اللحظة. كانت ساقاه مربوطتين بإحكام، ولكن ذراعيه لم تكونا مربوطتين إلا حول الرسغين، وكانت يداه أمامه. كان يمكنه أن يحركهما معًا، على الرغم من أن الأربطة كانت محكمة بشكل قاس وشرس. ودفع الأوركي الميت جانبًا، وبعدُ وهو لا يكاد يجرؤ على التنفس، سحب عقدة الحبل المربوط به معصمه لأعلى ولأسفل على نصل السكين. كانت حادة وكانت اليد الميتة تمسك بها بقوة. وقطع الحبل! وبسرعة أخذه بيبين في أصبعيه وعقده مرة أخرى في صورة سوار سائب مكون من حلقتين ووضعه على يديه. بعد ذلك رقد ساكنًا تمامًا.

وصاح أوجلوك: «لتأخذوا هؤلاء الأسرى! لا أريد أي تلاعب معهم! إذا لم يكونوا أحياء عندما نعود، فإن شخصًا آخر سيموت أيضًا».

وأمسك أوركي ببيبين مثل جوال، ووضع رأسه بين يديه المربوطتين، وجذب ذراعيه وسحبهما تحته، إلى أن سُحق وجه بيبين في عنقه؛ بعد ذلك راح يسير به بعنف. وعامل أوركي آخر ميري بنفس الطريقة. قبضت يد الأوركي الشبيهة بالمخلب على ذراعي بيبين مثل الأغلال الحديدية؛ وعضت الأظافر فيه. وأغلق عينيه وغاص في أحلام شريرة.

وفجأة طُرح على الأرض الحجرية مرة أخرى. كان الليل في بدايته، ولكن القمر الهزيل كان يقع بالفعل إلى اتجاه الغرب. لقد كانوا على حافة جرف كان يطل على بحر من ضباب شاحب. كان هناك صوت مياه تسقط قريبًا منهم.

وقال أوركي قريبًا منهم: «أخيرًا جاء المستكشفون».

وزمجر صوت أوجلوك قائلاً: «حسنًا، ما الذي اكتشفتموه؟».

«خيال واحد فقط، وسار باتجاه الغرب. كل شيء واضح الآن».

«الآن، إذا جاز لي التعبير. ولكن منذ متى؟ أيها الحمقى! كان ينبغي عليكم أن تقتلوه. سوف يحذر الآخرون. سوف يسمع مربو الخيل الملعونون بنا مع الصباح. الآن يجب علينا أن نضاعف سرعة عَدْوِنَا».

وانحنى ظل فوق بيبين. لقد كان أوجلوك، وقال الأوركي: «قف! لقد تعب رجالي من حملك والسير بك. يجب علينا أن ننزل هابطين، ويجب عليكم أن تستخدموا سيقانكم. لتكونوا ذوي فائدة الآن. لا نريد أي صراخ، أو أي محاولة للهرب. إن لدينا طرقًا نرد بها على الخدع، ولن تحبوها، على الرغم من أنها لن تتلف فائدتكم بالنسبة للسيد».

وقطع الحبال التي كانت حول ساقي بيبين وكاحليه، ورفعه من شعره وأوقفه على قدميه. ووقع بيبين على الأرض، وجره أوجلوك لأعلى من شعره مرة أخرى. وضحك أوركيون عديدون. وأقحم أوجلوك قارورة بين أسنانه وصب سائلاً يغلي في حلقه: وشعر بحرارة ساخنة شديدة تتدفق عبر جسده. وتلاشى الألم الذي كان في ساقيه وكاحليه. واستطاع أن يقف على رجليه.

وقال أوجلوك: «والآن إلى الآخر!» ورآه بيبين يذهب إلى ميري، الذي كان يرقد قريبًا منه، وركله برجله. وتأوه ميري. وأمسك أوجلوك به بخشونة، وجذبه واضعًا إياه في وضع الجلوس، ومزق العصابة من فوق رأسه. بعد ذلك كسا الجرح بمادة سوداء من صندوق خشبي صغير. وصاح ميري، وراح يقاوم في هياج.

وصفق الأوركيون وأطلقوا صيحات الاستهزاء، وراحوا يسخرون قائلين: «لا يستطيع أن يأخذ دواءه. إنه لا يعرف ما هو صالح بالنسبة له. نعم! سوف ننال بعض المتعة والمرح فيما بعد».

ولكن في هذه اللحظة، لم يكن أوجلوك مشتركًا في اللعبة. كان يحتاج إلى السرعة وكان عليه أن يساير الأتباع المعارضين العنيدين. كان يداوي ميري بطريقة الأوركيين؛ وقد نجح علاجه له سريعًا. عندما نجح بالقوة في أن يضع الشراب من قارورته في حلق الهوبتي، وقطع أربطة ساقيه، وجره وأوقفه على قدميه، وقف ميري، كان يبدو شاحبًا ولكنه كان متجهمًا ومتحديًا غير هياب، وكان مملوءًا بحيوية كبيرة. لم يعد الجرح الذي كان في جبهته يسبب له أي ألم، ولكن ظل يحمل أثرًا بنيًا للجرح حتى نهاية أيامه.

وقال مخاطبًا بيبين: «مرحبًا، يا بيبين! وهكذا قد جئتَ في هذه المهمة الصغيرة أيضًا؟ أين سنجد فراشنا وإفطارنا؟».

وقال أوجلوك: «والآن! ليس هناك شيء من ذلك! أمسكا لسانيكما. لا تتحدثا مع بعضكما. أي مشكلة سيتم إبلاغها إلى الجانب الآخر، وسوف يعرف هو كيف يدفع لكما لقاء ذلك. سوف تحصلان على فراش وإفطار دون شك: أكثر مما تتحملانه».

وبدأت مجموعة الأوركيين في هبوط وهد ضيق يتجه أسفل إلى السهل الضبابي أسفل منهم. وهبط ميري وبيبين، يفصلهما عشرة أوركيين أو أكثر، معهم. وفي القاع، راحوا يمشون على العشب، وزاد خفقان قلبي الهوبيتيين.

وصاح أوجلوك: «والآن سيروا في خط مستقيم! غرباً ونحو الشمال قليلاً. اتبعوا لاجداش».

قال بعض أوركيي الشمال: «ولكن ماذا سنفعل عند شروق الشمس؟».

وقال أوجلوك: «نواصل الجري. ما رأيك في ذلك؟ نجلس على العشب وننتظر ذوي البشرة البيضاء حتى ينضموا إلى النزهة».

«ولكننا لا نستطيع الجري في ضوء الشمس».

فرد عليهم أوجلوك بقوله: «سوف تجرون وأنا وراءكم. اجر! اجروا! وإلا فلن تروا حفركم الحبيبة مرة أخرى مطلقًا. أقسم باليد البيضاء! ما فائدة إرسال اليرقات الجبلية في رحلة، وهي فقط نصف مدربة. اجروا، عليكم اللعنة! اجروا ما دام الليل موجوداً!».

عندئذ بدأت المجموعة بكاملها تجري بخطوات الأوركيين الطويلة القافزة الواسعة. لم يحافظوا على أي ترتيب، وراحوا يطعنون، ويتدافعون ويسبون؛ ولكن سرعتهم كانت كبيرة جدًا. كان مع كل هوبيتي مجموعة حراسة مكونة من ثلاثة. كان بيبين بعيدًا في مؤخرة الصف. وتساءل عن المسافة التي سيكون بإمكانه أن يجريهاءبهذه السرعة: إنه لم يتناول أي طعام منذ الصباح. كان مع أحد حراسه سوط. ولكن في الوقت الحالي كان شراب الأوركيين الذي أعطوه له لا يزال ساخنًا بداخله. كما أن حواسه أيضًا كانت مستيقظة تمامًا.

وكان يأتي إلى عقله من آن لآخر من تلقاء نفسه منظر وجه سترايدار الحاد منحنياً يتبع خط سير مظلم، ويجري، ويجري في الوراء. ولكن ما الذي يمكن أن يراه - حتى الجوال - باستثناء خط سير مشوش لأقدام الأوركيين؟ إن آثار خطاه وآثار خطى ميري الصغيرة كان يغمرها ويطمسها وطء الأحذية ذات النعال الحديدية أمامهم ووراءهم ومن حولهم.

لم يكونوا قد قطعوا سوى ميل أو بعض ميل من الجرف عندما انحدرت الأرض لأسفل وتحولت إلى منخفض واسع ضحل، حيث كانت الأرض طرية ومبتلة. كان الضباب حولهم، وهجًا شاحبًا في أشعة الوجه الآخر من القمر المنجلي. أصبحت الأشكال السوداء للأوركيين أمامهم معتمة، وبعد ذلك ابتلعتها الظلمة.

وصاح أوجلوك من المؤخرة: «جماعة! بثبات الآن!».

وخطرت ببال بيبين فكرة مفاجئة، وقام بتنفيذها في الحال. مال جانبًا نحو اليمين، وهبط بحيث يكون بعيدًا عن متناول حارسه القابض عليه، واقتحم الضباب برأسه أولاً؛ ونزل متمددًا باسطًا ذراعيه وقدميه على العشب.

وصرخ أوجلوك: «توقفوا!».

وساد اضطراب وفوضى للحظة. وقفز بيبين وراح يجري. ولكن الأوركيين كانوا وراءه. وظهر بعضهم فجأة أمامه.

وفكر بيبين قائلاً: «ليس هناك من أمل في الهرب! ولكنْ هناك أمل أنني تركت بعض آثاري على الأرض الرطبة لم يتلفوها». وراح يتحسس حلقه بيديه المربوطتين، وفك بروش معطفه. وفي اللحظة التي أمسكت به فيها الأذرع الطويلة والمخالب الصلبة، تركه يسقط؛ وقال بينه وبين نفسه: «هنا ـ فيما أعتقد ـ سوف يرقد هذا البروش حتى نهاية الزمن. لا أدري لماذا فعلتُ ذلك. إذا كان الآخرون قد هربوا، فمن المحتمل أنهم ذهبوا جميعًا مع فرودو».

والتف سير سوط حول ساقيه، وصدرت عنه صرخة مخنوقة.

وصاح أوجلوك وهو يجري: «كفى! لا يزال يتحتم عليه أن يجري مسافة طويلة بعد. اجعلوهما يجريان! استخدموا السوط فقط كأداة للتذكير».

«ولكن ذلك ليس كل شيء»، قال ذلك في غضب شديد وهو يلتفت إلى بيبين. «إنني لن أنسى. الدفع مؤجل فقط. اركض!».

لم يتذكر بيبين ولا ميري الكثير من الجزء الأخير من الرحلة. امتزجت الأحلام الشريرة واليقظة الشريرة في نفق طويل من البؤس، والأمل راح يصبح أكثر ضعفًا على نحو مستمر وراءهما. جريا، وجريا، محاولين جاهدين أن يحافظا على السرعة التي وضعها الأوركيون، وكان يلسعهما من آن لآخر سير سوط قاس كان يجري التعامل معه في دهاء. إذا هم توقفوا أو تعثروا، كان يتم الإمساك بهم وجرهم لمسافة ما.

لقد ذهب دفء الشراب الأوركي. شعر بيبين بالبرد والمرض مرة أخرى. وفجأة سقط على وجهه على الحشائش. وقبضت عليه أيد صلبة بأصابع ممزقة ورفعته. وحُمل مثل جوال مرة أخرى، وزادت الظلمة من حوله: ولم يدر ما إذا كانت هذه الظلمة ظلمة ليلة أخرى، أو عمى أصاب عينيه.

وأصبح مدركًا على نحو غير جلي لصخب الأصوات من حوله: كان يبدو أن الكثيرين من الأوركيين يطلبون التوقف. وكان أوجلوك يصرخ فيهم. شعر بنفسه يُلقى بقوة على الأرض، ورقد مثلما سقط، حتى أخذته الأحلام السوداء. ولكنه لم يهرب

كثيرٌ من الألم؛ وفي الحال كانت القبضة الحديدية لليدين، عديمتي الرحمة، تمسكان به مرة أخرى، وأخذتا تهزانه مدة طويلة، وبعد ذلك، وفي بطء، انجلت الظلمة وعاد مرة أخرى إلى عالم اليقظة ووجد أن الدنيا كانت صباحًا. كانت الأوامر تصدر في صياح، وأُلقيَ هو بخشونة على العشب.

ورقد في مكانه بعض الوقت، يناضل في يأس. كان رأسه يدور، ولكن من الحرارة التي كانت في جسمه، خمن أنهم قد أعطوه جرعة شراب أخرى: انحنى أوركي فوقه، ورمى له بعض الخبز وشريحة من سمك نيء مجفف. أكل الخبز الرمادي القديم في نهم، ولكنه لم يأكل اللحم. كان يتضور جوعًا، بيد أنه لم يكن جائعًا للغاية بحيث يأكل لحمًا رماه له أوركي، لحم مخلوق لم يجرؤ على أن يخمن ماهيته.

وجلس في مكانه ونظر حوله. لم يكن ميري بعيدًا عنه. كانوا على ضفاف نهر ضيق سريع. لاحت الجبال أمامهم؛ كانت هناك قمة عالية تمسك الأشعة الأولى للشمس. كان هناك ضباب أسود من الغابة يقع على المنحدرات الدنيا أمامهم.

كان هناك الكثير من الصراخ والنقاش بين الأوركيين؛ شجار كان يبدو على وشك النشوب مرة أخرى بين الشماليين والآيزنجارديين. كان بعضهم يشير للوراء باتجاه الجنوب، وكان بعضهم يشير نحو الشرق.

وقال أوجلوك: «حسن جدًا. اتركاهما لي إذن! لا أريد قتلاً، كما أخبرتكم من قبل؛ ولكنكم إذا كنتم تريدون أن تتخلصوا مما قطعنا كل ذلك الطريق لنحصل عليه، فلتتخلصوا منه! سوف أتولى أنا أمر العناية به. لندع الأوروك هاي المحاربين يقومون بالعمل، كالمعتاد. إذا كنتم تخشون ذوي البشرة البيضاء، فاجروا! اجروا! ها هي الغابة» صاح بهذه الكلمات وهو يشير للأمام «اذهبوا إليها! إنها أفضل أمل لديكم. اذهبوا. وسريعًا، قبل أن أطيح بالمزيد من الرءوس، لأضع بعض الإدراك والوعي في الآخرين».

كان هناك بعض السباب والشجار، وبعد ذلك انفصل معظم الشماليين وانطلقوا مسرعين، ما يزيد على مائة منهم، يجرون في هياج عبر النهر باتجاه الجبال. وتُرك الهوبيتيون مع الآيزنجارديين؛ مجموعة كئيبة شريرة، أربع مجموعات من عشرينات على الأقل من أوركيين ضخام داكني البشرة زائغي العيون معهم أقواس عظيمة وسيوف قصيرة النصال. وظل معهم عدد قليل من الشماليين الأكثر ضخامة والأكثر جرأة.

وقال أوجلوك: «والآن سوف نتعامل مع جريشْنَاخ»، ولكن بعضًا ـ حتى من أتباعه هو ـ كانوا ينظرون في قلق نحو الجنوب.

فقال أوجلوك مدمدمًا: «أعلمُ. لقد وصلت أخبارنا إلى أولاد الخيل الملاعين. ولكن هذا خطؤك يا سناجا. كان يجب أن تقطع آذانكم أنت والمستكشفين. ولكننا نحن المحاربين، سوف نقيم وليمة على لحم الخيل فيما بعد، أو شيء أفضل من ذلك».

في تلك اللحظة رأى بيبين السبب الذي كان يجعل بعض الجنود يشيرون نحو الشرق. من ذلك الاتجاه، جاءت الآن صرخات مبحوحة، وها هو جريشناخ مرة أخرى، ووراءه مجموعتان قوام كل منهما عشرون من أوركيين آخرين مثله: لهم أذرع طويلة، وسيقان معقوفة. كانت هناك أعين حمراء مرسومة على دروعهم. وسار أوجلوك للأمام لملاقاتهم، وقال:

«هكذا، لقد عدتم؟ غيرتم رأيكم، صحيح؟».

فأجابه جريشناخ قائلاً: «لقد عدت لأرى أن الأوامر يتم تنفيذها وأن الأسرى سالمون».

فقال أوجلوك: «حقًا! مجهود ضائع. سوف أهتم بتنفيذ الأوامر تحت إمرتي. وماذا أيضًا جعلك تعود ثانية؟ لقد ذهبت في عجلة. هل تركت أي شيء وراءك؟».

وزمجر جريشناخ قائلاً: «تركت أحمق. ولكن كان هناك بعض الرفاق الأشداء معه؛ جيدين إلى حد يجعل من غير الممكن فقدهم. عرفت أنك ستقودهم إلى ورطة. لقد جئت لأساعدهم».

وضحك أوجلوك وقال: «رائع! ولكن ما لم يكن لديك الشجاعة للقتال، فإنك تكون قد سلكت الطريق الخطأ. لجبورز كان طريقك. ذوو البشرة البيضاء قادمون. ماذا حدث لنازجولك (شبح الخاتم) الثمين؟ هل هناك مطية أخرى أدخلت تحته؟ والآن، لو أنك كنت قد أحضرته معك، فربما كان ذلك مفيدًا ـ إذا كان هؤلاء الأشباح هم كل ما يدلون عليه. ورد عليه جريشناخ وهو يرتعش ويلعق شفتيه، كما لو كان للكلمة مذاق كريه كان يتذوقه في ألم بقوله: «نازجول، نازجول. إنك تتحدث عما هو عميق يقع فيما وراء قدرة أحلامك الموحلة في الوصول إليه، يا أوجلوك. النازجول. نعم! كل ما يمثلونه. ذات يوم ستتمنى أنك لم تكن قد قلت ذلك. أيها القرد!» ـ قال ذلك في شخير شرس. «ينبغي عليك أن تعرف أنهم قرة عين العين العظيمة. ولكن النازجول المجنحين: ليس بعد، ليس بعد. إنه لن يتركهم يظهرون أنفسهم عبر النهر العظيم بعد، ليس مبكرًا أكثر من اللازم. إنهم معدون للحرب ـ وأغراض أخرى».

ورد عليه أوجلوك قائلاً: «يبدو أنك تعرف الكثير. أكثر مما هو مفيد بالنسبة لك، فيما أعتقد. ربما يتعجب أولئك الذي يسكنون في لجبورز عن كيفية ذلك وعن سببه. ولكن في ذات الوقت فإن الأوروك هاي من آيزنجارد يمكنهم أن يقوموا بالعمل القذر كالمعتاد. لا تقف هناك ولعابك يسيل! لتجمع شتات نفسك! الخنازير الآخرون يركضون إلى الغابة. من الأفضل أن تتبعهم. لن تعود إلى النهر العظيم حيًا. اخرج بعيدًا عن العلامة مباشرة! الآن! سوف أكون في ذيلك».

أمسك الآيزنجارديون بميري وبيبين مرة أخرى وعلقوهما على أكتافهم. بعد ذلك بدأت الفرقة سيرها. راحوا يجرون ساعة بعد ساعة، ويتوقفون من آن لآخر فقط

ليعلقوا الهوبيتيين على حاملين جديدين ليحملوهما. وسواء لأن الآيزنجارديين كانوا أكثر سرعة وصلابة، أو بسبب خطة ما كانت لدى جريشْنَاخْ، فإنهم كانوا يمرون تدريجيًا عبر أوركيي موردور، وكانت جماعة جريشْنَاخْ تأتي وراءهم مباشرة. وسريعًا ما كانوا يقتربون أيضًا من الشماليين في المقدمة. وبدأت الغابة تزداد قربًا.

وأصيب بيبين برضوض وكدمات وتمزق، وتأذى رأسه المتألم كثيرًا بالخد القذر والأذن المشعرة للأوركي الذي كان يحمله. وكانت أمامه مباشرة ظهور محنية، وأرجل خشنة كثيفة تصعد وتهبط، تصعد وتهبط، لا تستريح، كما لو كانت مصنوعة من سلك وقرون، تطّرد الثواني الشريرة مثل الكابوس في وقت لانهائي.

في فترة ما بعد الظهيرة، تجاوزت مجموعة أوجلوك الشماليين. كانوا يذوون في أشعة الشمس الساطعة، على الرغم من أن شمس الشتاء كانت تسطع في سماء باردة شاحبة؛ كانت رءوسهم محنية وألسنتهم متدلية للخارج.

وقال الآيزنجارديون في سخرية: «أيتها اليرقات! لقد أصبتم بالإرهاق وقُضي عليكم. سوف يمسك بكم ذوو البشرة البيضاء ويأكلونكم. إنهم قادمون!»

وجاءت صيحة من جريشْنَاخْ أظهرت أن ذلك لم يكن مجرد مزحة. الخيالة، يسيرون بخيلهم بسرعة كبيرة، قد تمت رؤيتهم حقًا: ومع أنهم كانوا لا يزالون بعيدًا وراءهم ولكنهم كانوا يقتربون من الأوركيين، يقتربون منهم مثل فيضان على سهول منبسطة على قوم ضلوا في بحر من الرمال.

وبدأ الآيزنجارديون في الجري بسرعة مضاعفة أذهلت بيبين، بدت كدفعة نشاط مفاجئ هائلة لنهاية سباق. بعد ذلك رأى أن الشمس كانت تغرب، تغوص وراء الجبال الضبابية؛ ووصلت الظلال فوق الأرض. رفع جنود موردور رءوسهم وبدءوا كذلك يزيدون سرعتهم. كانت الغابة مظلمة وقريبة منهم. لقد مروا بالفعل بعدة أشجار متباعدة. بدأت الأرض في الانحدار لأعلى، وراحت تزداد حدة باستمرار؛ ولكن الأوركيين لم يتوقفوا. وراح كل من أوجلوك وجريشْنَاخْ يصرخان فيهم، يحثانهم على مواصلة المسير حتى آخر ذرة جهد لديهم.

وفكر بيبين بينه وبين نفسه قائلاً: «إنهم سينجون مع ذلك. سوف يهربون». وبعد ذلك نجح في أن يلوي رقبته، حتى يستطيع النظر للوراء بعين واحدة فوق كتفه. رأى أن الخيالة الذين كانوا بعيدين باتجاه الشرق كانوا بالفعل بمحاذاة الأوركيين، وهم يعدون فوق السهل. أضاف غروب الشمس زخرفًا وبريقًا إلى حرابهم وخوذاتهم، وكان يتوهج في شعرهم الباهت المنساب مع الريح. كانوا يطوقون الأوركيين، يمنعونهم من الانتشار، ويدفعونهم عبر مجرى النهر.

وتعجب كثيرًا جدًا! أي نوع من الشعوب كان هؤلاء! تمنى عندها أن لو كان قد تعلم في ريفينديل، ونظر أكثر في الخرائط والأشياء؛ ولكن في تلك الأيام كانت خطط الرحلة تبدو في أيد أكثر كفاءة، ولم يخطر بباله قط أنه سينفصل عن جندلف، أو عن سترايدار، بل وحتى عن فرودو. كل ما كان يستطيع أن يتذكره عن روهان أن حصان جندلف، شادوفاكس، قد أتى من هذه الأرض. وقد بدا ذلك مفيدًا، حسبما كان يتضح.

وراح يفكر: «ولكن كيف سيعرفون أننا لسنا أوركيين؟ لا أظن أنهم قد سمعوا قط عن هوبيتيين في هذه الأماكن. أظن أنه ينبغي عليّ أن أكون مسرورًا أن الأوركيين البهيميين يبدو أنهم سيدمرون، ولكني أفضل أن يتم إنقاذي». كانت الفرص أنه هو وميري سوف يقتلان مع آسريهما، حتى قبل أن يدرك بشر روهان وجودهم.

كان يبدو أن عددًا قليلًا من الخيالة قواسون، مهرة في الرمي من فوق حصان يجري. وانطلقوا بسرعة إلى المرعى، وأطلقوا سهامهم على الأوركيين الذين تبعثروا في الخلف، وسقط العديدون منهم؛ عند دار الخيالة بعيدًا خارج نطاق أقواس أعدائهم التي كانت ترد عليهم، والذين كانوا يصوبون عليهم في وحشية، غير متجرئين على التوقف. وحدث ذلك مرات كثيرة، وفي مرة من المرات سقطت السهام بين الآيزنجارديين. وسقط واحد منهم، وكان أمام بيبين مباشرة، ولم ينهض مرة أخرى.

وحل الليل دون أن يتقدم الخيالة للدخول في معركة. سقط الكثير من الأوركيين، ولكن ظل منهم مائتان كاملتان. في الظلمة المبكرة جاء الأوركيون إلى رابية. كانت أطراف الغابة قريبة جدًا منهم، كانت على بعد لا يزيد على ثلاثة فرلنغات على ما يحتمل، ولكنهم لم يستطيعوا التقدم أكثر من ذلك، فلقد طوقهم الخيالة. وعصت مجموعة صغيرة أمر أوجلوك، وواصلت جريها تجاه الغابة: ولم يعد سوى ثلاثة منهم.

وقال جريشْنَاخ في ازدراء: «حسنًا، ها نحن أولاء. أصدقاء طيبون! أتمنى أن يقودنا أوجلوك العظيم إلى مخرج من هنا مرة أخرى».

وأمرهم أوجلوك قائلًا«أنزلوا هؤلاء الأنصاف!» دون أن يعير أي انتباه لجريشْنَاخ. «أنت، لاجدوش، خذ معك اثنين آخرين وقوموا بحراستهم ومراقبتهم! لا يجوز قتلهم، إلا إذا تقدم ذوو البشرة البيضاء القذرون واخترقوا الصفوف. مفهوم؟ ومادمت حيًا، فإنني أريدهم. ولكن لا تجعلوهم يصرخون، لئلا يتم إنقاذهم. اربطوا أرجلهم!»

ونفذ الجزء الأخير من الأمر دون رحمة. ولكن بيبين وجد أنه للمرة الأولى كان قريبًا من ميري. كان الأوركيون يحدثون قدرًا كبيرًا من الضوضاء، يصرخون ويتضاربون بأسلحتهم، ونجح الهوبيتيان في أن يتبادلا الهمسات معًا بعض الوقت.

وقال ميري: «إنني لا آبه كثيرًا بذلك. إنني أشعر أني قد انتهيت. لا تظن أن بإمكاني أن أحبو بعيدًا لمسافة كبيرة، حتى ولو كنت حرًا».

وهمس فيه بيبين قائلاً: «الليمباس! الليمباس! إن لدي بعضًا منه. وأنت؟ لا أظن أنهم أخذوا أي شيء سوى سيوفنا».

وأجابه ميري بقوله: «نعم، لدي رزمة في جيبي، ولكن لا بد أنها كُسِّرت وصارت فتاتًا. على أية حال لا يمكنني أن أضع فمي في جيبي!».

«لن يكون عليك لزامًا أن تفعل ذلك. إنني ـــــ»؛ ولكن في هذه اللحظة تمامًا إذا بركلة وحشية تحذر بيبين أن الضوضاء قد خمدت، وأن الحراس أصبحوا يقظين متنبهين.

كانت الليلة باردة وساكنة. حول الهضبة التي كان الأوركيون متجمعين حولها ومن كل اتجاه، كانت نيران حراسة صغيرة تتقافز في الجو، حمراء ذهبية في الظلمة، في صورة حلقة كاملة من النيران. كانوا في نطاق رمية قوس طويلة، ولكن الخيالة لم يكشفوا عن أنفسهم في الضوء، وضيع الأوركيون الكثير من السهام التي أطلقوها على النيران، حتى أوقفهم أوجلوك. ولم يسمع أي صوت من الخيالة. وفي وقت لاحق من الليل، عندما بزغ القمر من الضباب، فإنهم كانوا يرون ـ عندها ـ من وقت لآخر، أشكالاً ظلالية كانت تتوهج من وقت لآخر في الضوء الأبيض، وهم يتحركون في دورية حراسة دائمة.

وقال أحد الحراس في تذمر: «سوف ينتظرون الشمس، اللعنة عليهم! لماذا لا نتجمع ونهجم عليهم؟ ماذا يظن أوجلوك العجوز أنه يفعل، إنني أود أن أعرف ذلك؟».

وقال أوجلوك في زمجرة وهو يتقدم للأمام من مكانه في الخلف: «أظن أنه بإمكانك أن تعرف. أعني أنني لا أعتقد ذلك على الإطلاق، تمام؟ اللعنة عليك! إنك سيئ مثلك مثل مجموعة الرعاع الآخرين؛ يرقات وقرود لجبورز. ليس هناك من فائدة للهجوم معهم. إنهم سيصرخون ويفرون وحسب، وهناك أكثر مما هو كاف من هؤلاء الصبية الخيالة القذرين بحيث يمكنهم أن يهزموا كثرتنا هزيمة ساحقة.

«هناك شيء واحد فقط يمكن لهؤلاء اليرقات أن يفعلوه؛ إنهم يستطيعون أن يروا مثل المخرز في الظلام. ولكن هؤلاء ذوي البشرة البيضاء لديهم أعين ترى في الليل أفضل من معظم البشر، من كل ما سمعته؛ ولا تنس خيلهم! إنهم يستطيعون أن يروا نسيم الليل، أو هكذا يقال عنهم. ومع ذلك لا يزال هناك شيء لا يعرفه هؤلاء الرفاق الرائعون: ماهور ورجاله في الغابة، وسوف يظهرون في أي لحظة الآن».

وكانت كلمات أوجلوك كافية، فيما يبدو، بحيث تقنع الآيزنجارديين؛ ولكن الأوركيين الآخرين كانوا مكتئبين وثائرين على السواء. لقد وضعوا حراسًا قليلين،

ولكن معظمهم كان يرقد على الأرض، يستريح في الظلمة المرضية اللطيفة. وأصبحت الدنيا مظلمة جدًا مرة أخرى حقًا؛ لأن القمر تحرك إلى الغرب في سحابة كثيفة، ولم يكن بيبين يستطيع أن يرى أي شيء على بعد أقدام قليلة. لم تجلب النيران أي ضوء إلى الهضبة. لم يكن الخيالة، مع ذلك، راضين بالانتظار إلى الفجر، فحسب، وترك أعدائهم يستريحون. أظهرت صيحة عالية مفاجئة على الجانب الشرقي من الهضبة أن شيئًا ما لم يكن على ما يرام. كان يبدو أن البشر قد اقتربوا، ونزلوا خلسة من فوق خيلهم، وراحوا يزحفون إلى حافة المعسكر وقتلوا عدة أوركيين، وبعد ذلك اختفوا وتلاشوا مرة أخرى. وانطلق أوجلوك مسرعًا ليوقف عملية فرار جماعي.

وجلس بيبين وميري. كان حراسهما، من الآيزنجارديين، قد ذهبوا مع أوجلوك. ولكن لو كان لدى الأوركيين أي تفكير في الهرب، فإنه تحطم في الحال. أخذ بكل منهما ذراع طويلة مشعرة من رقبته ووضعهما بالقرب من بعضهما. كانوا مدركين في وهن لرأس جريشناخ العظيم ووجهه البشع بينهما؛ كان نَفَسُه العفن يقع على خدودهما. بدأ يتحسسهما في خشونة ويمسهما. ارتعش بيبين بينما كانت الأصابع الباردة الصلبة تتحسس ظهره.

وقال جريشناخ في همس منخفض: «حسنًا، يا صغاري! تستمتعان براحتكما اللطيفة؟ أم لا؟ ربما تكونان موضوعين بشكل آخر قليلاً: سيوف وسياط على جانب، وحراب قذرة على الجانب الآخر! الأشخاص الصغار يجب عليهم ألا يقحموا أنفسهم في شئون أكبر منهم بكثير جدًا». وواصلت أصابعه تحسسها. كان هناك ضوء مثل نار شاحبة، بيد أنها باردة، خلف عينيه.

وجاءت الفكرة فجأة إلى ذهن بيبين، كما لو كانت قد جاءته مباشرة من فكرة عدوه الملحة: «جريشناخ يعرف بالخاتم! إنه يبحث عنه، بينما أوجلوك مشغول؛ ربما يكون يريده لنفسه». كان قلب بيبين ممتلئًا بالخوف البارد، ولكن في نفس الوقت كان يتساءل كيف يمكنه أن يستفيد من رغبة جريشناخ.

وقال هامسًا: «لا أعتقد أنك ستجده بهذه الطريقة. إنه ليس من السهل العثور عليه».

«العثور عليه؟» قال ذلك جريشناخ: وتوقفت أصابعه عن الزحف وقبضت على كتف بيبين. «العثور على ماذا؟ ما الذي تتحدث عنه أيها الشخص الصغير؟».

ولزم بيبين الصمت للحظة. وبعد ذلك فجأة في الظلام أصدر ضوضاء في زوره: جولام، جولام. وأضاف قائلاً: «لا شيء، شيء ثمين».

وأحس الهوبيتيان بأصابع جريشناخ تتحول. وقال الغول في هسيس: «أوه، أوه! هذا هو ما يعنيه، أليس كذلك؟ أوه، أوه! خطير جدًا جد. . .ا، يا صغاري».

فقال ميري، وقد تنبه لتخمين بيبين وأصبح على دراية به: «ربما. ربما؛ وليس فقط بالنسبة لنا وحدنا. لا تزال تعرف عملك أفضل معرفة. هل تريده، أم لا؟ وما الذي يمكن أن تعطيه لقاءه؟».

فقال جريشناخ، كما لو كان في حيرة؛ غيرَ أنَّ ذراعيه كانتا ترتعشان: «هل أنا أريده؟ هل أنا أريده؟ ما الذي يمكنني أن أعطيه لقاءه؟ ماذا تقصد؟».

ورد عليه بيبين، وهو يختار كلماته بعناية بالغة: «إننا نقصد أنه ليس هناك من الفائدة في التحسس والبحث في الظلام. يمكننا أن نوفر وقتك ونوفر عليك المتاعب. ولكن يجب عليك أن تفك أرجلنا أولاً، وإلا فلن نفعل شيئًا، ولن نقول شيئًا».

وقال جريشناخ في هسيس: «يا أعزائي الحمقى الصغار الضعاف، كل شيء لديكما، وكل شيء تعرفونه، سوف يُنتزع منكما في الوقت المناسب: كل شيء! سوف تتمنيان أن لو كان هناك أكثر من ذلك لتخبرا به القائم على استجوابكما، سوف تتمنيان ذلك حقًا، قريبًا جدًا. لن نستعجل في الاستجواب. كلا يا أعزائي! لماذا تظنان أنكما أبقيتما على قيد الحياة؟ رفاقي الصغار الأعزاء، صدقاني من فضلكما عندما أقول إن ذلك لم يكن بدافع العطف أو الشفقة: بل إن هذه ليست سقطة من سقطات أوجلوك».

وقال ميري: «إنني أجد الأمر سهل التصديق تمامًا. ولكنك لم تصل بفريستك إلى البيت بعد. ولا يبدو أن الأمر يسير على طريقتك، مهما يكن ما يحدث. إذا وصلنا إلى آيزنجارد، فلن يكون جريشناخ العظيم هو الذي سيستفيد؛ سوف يأخذ ساروما ن كل ما يمكنه أن يجده. إذا كنت تريد أي شيء لنفسك، فهذا هو الوقت الذي يمكنك أن تبرم صفقة فيه».

وبدأ جريشناخ يفقد صوابه. بدا أن اسم ساروما ن يغيظه على وجه الخصوص. كان الوقت يمضي وكان الإزعاج يخمد ويتلاشى. قد يعود أوجلوك أو الآيزنجارديون في أي لحظة. وقال في ازدراء: «هل هو موجود معكما ـ أي منكما؟».

وقال بيبين: «جولام، جولام!».

وقال ميري: «فك أرجلنا!»

وشعرا بذراعي الأوركي ترتعشان في عنف. وقال في هسيس: «عليكما اللعنة، أيتها الحشرتان الصغيرتان القذرتان! أفك أرجلكما؟ سوف أفك كل وتر في جسديكما. هل تظنان أنني لا يمكن أن أفتشكما وصولاً إلى عظامكما؟ أفتشكما! سوف أمزقكما أنتما الاثنين إلى شراذمَ مرتعشة. إنني لستُ بحاجة إلى أرجلكما لأفعل ما أريد بكما ـ وآخذكما لنفسي تمامًا!».

وفجأة أمسك بهما. كانت القوة الموجودة في ذراعيه الطويلتين وكتفيه مروعة. وحشر كل واحد منهما تحت ذراع، وضغط عليهما في عنف شديد في جنبيه؛ ووضعت يد عظيمة على فم كل منهما تكتمه. بعد ذلك قفز للأمام، وهو ينحني لأسفل. وبسرعة

وفي صمت راح يمضي، حتى جاء إلى حافة هضْبة صغيرة. وهناك اختار فجوة بين المراقبين، ومر مثل ظل شرير خارجًا إلى الليل، هابطًا المنحدر وذاهبًا بعيدًا نحو الغرب باتجاه النهر الذي كان يتدفق خارجًا من الغابة. في هذا الاتجاه، كانت هناك مساحة فضاء واسعة مفتوحة ولم يكن بها سوى نار واحدة.

وبعد السير لمسافة عشر ياردات توقف، وراح يحدق ويتنصت. لم يستطع أن يرى أو يسمع أي شيء. وراح يزحف متسللاً في بطء، وهو منحن ويكاد يصل إلى الأرض. بعد ذلك جثا على الأرض وراح ينصت مرة أخرى. وبعد ذلك هب واقفًا، كما لو كان يريد أن يخاطر باندفاع مفاجئ. وفي تلك اللحظة تمامًا لاح شكل خيال أسود أمامه مباشرة. وراح حصان يصول ويشب على قائمتيه الخلفيتين. وصاح رجل.

ألقى جريشناخ نفسه على الأرض منبطحًا، وهو يجر الهوبيتيين تحته؛ ثم استل سيفه. ليس من شك أنه كان يريد أن يقتل أسيريه، لا أن يدعهما يهربان أو يتم إنقاذهما؛ ولكن ذلك كان هلاكه. حيث قرع السيف في ضعف، ولمع قليلاً في ضوء النار بعيدًا إلى يساره. وجاء سهم يئز خارجًا من الظلمة؛ لقد كان مصوبًا بمهارة، أو موجهًا بالقدر، واخترق يده اليمنى. وسقط السيف من يده وزعق. كان هناك قرع حوافر سريع، وحتى بينما كان جريشناخ يفر ويجري، فقد تعقبته الخيل واخترقته حربة من الحراب. وزعق زعقة مخيفة بشعة ورقد ساكنًا في مكانه.

وظل الهوبيتيان منبطحين على الأرض، حيث كان جريشناخ قد تركهما. وجاء خيال آخر بحصانه سريعًا يقدم العون لزميله. وشب الحصان وقفز في خفة فوقهما، سواء كان ذلك بسبب حدة إبصار خاصة، أو بسبب حاسة أخرى؛ ولكن الخيال لم يرهما، وهما يرقدان مغطيين بمعاطفهما الجنية، محشورين إلى أبعد الحدود، وخائفين إلى أقصى درجة بحيث لا يمكنهما الحركة.

وأخيراً تحرك ميري وهمس في صوت منخفض: «كل شيء على ما يرام حتى الآن؛ ولكن كيف لنا أن نتجنب الحرق؟».

وجاءت الإجابة في الحال تقريبًا. لقد أيقظت صرخات جريشناخ الأوركيين. ومن الصراخ والزعيق الذي جاء من الهضْبة الصغيرة، خمن الأوركيان أن اختفاءهما قد اكتشف: ربما كان أوجلوك فيما يحتمل يطيح بالمزيد من الرءوس. بعد ذلك فجأة جاءت صيحات أصوات الأوركيين المجيبة من اليمين، من خارج دائرة نيران المراقبة، من اتجاه الغابة والجبال. كان يبدو أن موهور قد وصل وكان يهاجم المحاصرين. كان هناك صوت خيل تعدو. كان الخيالة يقتربون في دائرتهم حول الهضْبة الصغيرة، مخاطرين بالتعرض لأسهم الأوركيين، حتى يحولوا دون وقوع

أي غارة، في حين أن مجموعة منهم انطلقت مسرعة للتعامل مع القادمين الجدد. وفجأة أدرك ميري وبيبين أنهم الآن خارج الدائرة بدون حركة: لم يكن هناك شيء يمنعهما من الهرب.

وقال ميري: «الآن، لو أن أرجلنا وأيدينا كانت متحررة، لربما أمكننا أن نهرب. ولكني لا أستطيع أن أمس العقد، ولا يمكنني أن أقضمها بأسناني».

فقال له بيبين: «ليس هناك حاجة لذلك. كنتُ سأخبرك؛ لقد نجحتُ في تحرير يديّ. هذه العقد إنما تركت فقط للتظاهر. من الأفضل أن تأخذ قليلاً من الليمباس أولاً».

ونزع الحبال من على رسغيه، وسحب علبة. كانت الكعكات مكسرة، ولكنها بحالة جيدة، لا تزال في الأوراق التي كانت ملفوفة فيها. أكل كل من الهوبيتيين قطعتين أو ثلاث قطع. أعاد المذاق إليهما ذكرى الوجوه الجميلة والضحك، والطعام الصحي في الأيام الهادئة التي صارت بعيدة عنهما الآن. ولبعض الوقت فإنهما راحا يأكلان مستغرقين في التفكير، وهما يجلسان في الظلمة، غير آبهين بالصيحات وأصوات المعركة القريبة منهما. كان بيبين هو الأول الذي يعود إلى الحاضر، وقال:

«ينبغي علينا أن ننطلق. نصف لحظة!» كان سيف جريشناخ يرقد قريباً منهما، ولكنه كان ثقيلاً للغاية وأخرق بحيث لا يمكنهما استخدامه؛ ولذلك فإنه زحف للأمام، ولما وجد جسم العفريت فإنه استل سكيناً حاداً طويلاً من غمده. وقد قطع بهذا السكين أربطتهما سريعاً، وقال:

«والآن لنر ما يمكن أن نفعله! عندما نصير دافئين بعض الشيء، ربما سيكون بإمكاننا أن نقف مرة أخرى، ونمشي. ولكن على أية حال من الأفضل أن نبدأ بالزحف».

وراحا يزحفان. كان المرج عميقاً وطبقة التربة العليا لينة، وقد ساعدهما ذلك؛ ولكن بدا ذلك عملاً طويلاً بطيئاً. ودارا حول نار الحراسة في دائرة واسعة، وتسللا في طريقهما للأمام شيئاً فشيئاً، حتى وصلا إلى حافة النهر، وهو ينطلق متدفقاً في خرير سائراً بعيداً في الظلال السوداء تحت ضفافه العميقة. بعد ذلك نظرا إلى الوراء.

لقد خمدت الأصوات. من الواضح أن موهور و«رجاله» قد قتلوا أو سيقوا بعيداً. لقد عاد الخيالة إلى حراستهما الصامتة المنذرة بسوء. لن يستمر ذلك أطول من هذا كثيراً جداً. لقد تقدم الليل بالفعل في الشرق الذي ظل خلواً من السحب، كانت الشمس قد بدأت تزداد شحوباً.

وقال بيبين: «لا بد أن نختبئ تحت ستار وإلا فإنهم سيروننا. لن يكون مصدر راحة لنا على الإطلاق لو أن هؤلاء الخيالة اكتشفوا أننا لسنا أوركيين بعد أن نموت». ونهض قائماً وضرب الأرض بقدميه، وقال: «هذه الأربطة جرحتني مثل الأسلاك؛ ولكن قدميّ تصبحان دافئتين مرة أخرى. يمكنني أن أمشي مترنحاً الآن مواصلاً السير. ماذا عنك يا ميري؟».

ونهض ميري وقال: «نعم. يمكنني أن أفعل ذلك. الليمباس يعطيك الشجاعة والقوة! وشعورًا أكثر صحة، أيضًا، من حرارة شراب الأوركيين ذلك. إنني لأتساءل عمن صنع هذا. من الأفضل ألا نعرف، فيما أتوقع. هيا بنا نأخذ شرابًا من الماء لنطرد عنا التفكير في ذلك!».

ورد عليه بيبين قائلاً: «ليس هنا، الضفاف شديدة الانحدار. للأمام الآن!».

ودارا وراحا يمشيان جنبًا إلى جنب ببطء عبر مسار النهر. وكان الضوء يزداد وراءهما في الشرق. وبينما كانا يمشيان راحا يقارنان الملاحظات، يتحدثان في صوت منخفض، بطريقة الهوبيتيين، عن الأشياء التي حدثت منذ أسرهما. لم يكن بإمكان أي منصت لهما أن يخمن من كلماتهما أنهما قد عانيا بقسوة، وكانا في خطر محدق، حيث كانا يذهبان دون أمل باتجاه العذاب والموت؛ أو حتى إنهما، كما كانا يعرفان جيدًا، كانت لديهما فرصة ضئيلة للعثور على صديق على الإطلاق أو العثور على السلامة مرة أخرى أبدًا.

وقال ميري: «يبدو أن الأشياء كانت تسير على ما يرام معك، أيها السيد التوكي. سوف تحصل على فصل تقريبًا في كتاب بيلبو العجوز، إذا حدث وأتيحت لي الفرصة على الإطلاق أن أنقل له ما حدث. عمل طيب: وعلى وجه الخصوص تخمين تلك اللعبة الصغيرة لهذا الوغد المشعر، وتملقه كسبًا لرضاه. ولكني أعجب إن كان سيحدث على الإطلاق أن يعثر أحد على خط سيرك ويعثر على هذا الدبوس (البروش). إنني أكره أن أفقد دبوسي، ولكني فيما أخشى فإن دبوسك قد ذهب إلى الأبد.

«سوف يتحتم على أن أنظف أصابع رجلي، إذا كان لي أن أتساوى معك. حقًا، فإن ابن العم براندييك يسير في المقدمة الآن. هذا هو المكان الذي يأتي فيه. لا أفترض أن لديك فكرة كبيرة عن المكان الذي نحن فيه الآن؛ ولكني أمضيتُ وقتي في ريفينديل بشكل أفضل بعض الشيء. إننا نسير نحو الغرب عبر الإنتووش. الجزء المتبقي من الجبال الضبابية أمامنا، وغابة فانجورن».

حتى وهو يتحدث، فإن الحافة المظلمة للغابة لاحت أمامهما مباشرة. وبدا الليل وكأنه قد احتمى تحت أشجارها العظيمة، وهو يزحف بعيدًا عن الفجر القادم.

وقال بيبين: «واصل السير والقيادة، أيها السيد براندييك! أو لنتقدنا للوراء! لقد حذرونا من فانجورن. ولكن واحدًا يعرف ذلك، لن يكون قد نسي ذلك».

وأجابه ميري قائلاً: «إنني لم أنس، ولكن الغابة تبدو أفضل بالنسبة لي، مع ذلك، من العودة للوراء إلى قلب معركة».

وقاد المسيرة سائرًا أسفل فروع الأشجار الضخمة. كانت تبدو كبيرة عجوزًا وراء

كل تخمين. كانت هناك فروع عظيمة من الأشنة تتدلى منها، وهي تتقاذف وتتأرجح مع النسيم. ومن خارج الظلال، اختلس الهوبيتيان نظرة، وراحا يحدقان عبر المنحدر: أشكال صغيرة مختلسة لدرجة أنها في الضوء المظلم كانت تبدو مثل أطفال جنيين في أعماق الزمان يحدقون من الغابة البرية في ذهول واندهاش في فجرهم الأول.

وبعيداً فوق النهر العظيم، والأراضي البنية، فراسخ فوقها فراسخ بنية بعيداً، جاء الفجر، أحمر مثل شعلة من لهب. ودوت أبواق الصيد عالية لتحييه. وقفز خيالة روهان فجأة نابضين بالحياة. وراحت الأبواق يرد بعضها على البعض.

سمع ميري وبيبين صهيل خيل الحرب، واضحاً في الهواء البارد، وكذلك غناء الكثير من الرجال. وارتفع طرف الشمس، قوس من نار، فوق حافة العالم. بعد ذلك بصيحة عظيمة، هجم الخيالة من الشرق؛ وتوهج الضوء الأحمر على الدروع والحراب. وصرخ الأوركيون وأطلقوا جميع السهام التي كانت باقية معهم. ورأى الهوبيتيان الكثير من الخيالة يتساقطون؛ ولكن صفهم ظل متماسكاً صاعداً التل وفوقه، واستداروا وهجموا مرة أخرى. معظم الخيالة الذين تركوا أحياء انهاروا الآن وفروا هاربين، في هذا الطريق وذاك، مطاردين واحداً واحداً إلى الموت. ولكن مجموعة واحدة، ظلت متماسكة معاً في وتد أسود، سارت للأمام في تصميم وعزم في اتجاه الغابة. وهاجموا في خط مستقيم عبر المنحدر لأعلى باتجاه المراقبين والحراس. والآن، كانوا يقتربون، وبدا أنهم سيهربون بشكل مؤكد: لقد قاموا بالفعل بنحر ثلاثة خيالة كانوا يسدون طريقهم.

وقال ميري: «لقد شاهدنا لفترة طويلة جداً. ها هو أوجلوك! إنني لا أريد أن ألقاه مرة أخرى». واستدار الهوبيتيان وفرا هاربين في الأعماق إلى ظلال الغابة.

وهكذا كان الأمر، أنهم لم يروا الموقف الأخير، عندما بوغت أوجلوك وتم التغلب عليه وهوجم عند حافة غابة فانجورن مباشرة. وهناك ذُبح في نهاية الأمر ـ ذبحه إيومر، المارشال الثالث للمارك الذي نزل من فوق حصانه وقاتله سيفاً لسيف. وفوق الحقول الشاسعة طارد الخيالة ذوو العيون الحادة العدد القليل من الأوركيين الذي كانوا قد هربوا وكان لا يزال لديهم القوة للفرار.

بعد ذلك عندما كانوا قد وضعوا زملاءهم الذين سقطوا قتلى في كومة صغيرة فوق رابية وغنوا عبارات المديح لهم، قام الخيالة بصنع نار عظيمة وبعثروا رماد أعدائهم. وهكذا انتهت الغارة، ولم تأت أية أخبار عنها قط عائدة إلى موردور أو إلى آيزنجارد على الإطلاق؛ ولكن دخان الحريق ارتفع عالياً إلى السماء ورأته الكثير من الأعين اليقظة الحارسة.

الفصل الرابع

تـــريــبــيـــرد

وفي ذات الوقت راح الهوبيتيان يسيران بأقصى سرعة ممكنة تسمح بها الغابة المظلمة المتشابكة، وهما يتبعان خط النهر الجاري، نحو الغرب وصعودًا باتجاه منحدرات الجبال، أعمق وأعمق في غابة في فانجورن. وببطء راح خوفهما من الأوركيين يخمد ويتلاشى، وسرعة سيرهما تقل. وانتابهما شعور خانق غريب، كما لو كان الهواء ضئيلاً للغاية أو غير كاف للغاية للتنفس.

وأخيرًا توقف ميري، وقال في لهاث: «لا يمكننا أن نواصل السير على هذا النحو. إنني أريد بعض الهواء».

وقال بيبين: «هيا بنا نتناول شرابًا على أية حال. إنني أحترق ظمأً». وتسلق في جهد شديد على جذر شجرة عظيم كان يسيرمتعرجًا لأسفل إلى النهر، وانحنى وأخذ بعض الماء في يديه اللتين جعلهما مثل كوب. كان الماء صافيًا وباردًا، وأخذ عدة رشفات. وتبعه ميري. وأنعشتهما المياه وبدا أنها تنعش قلبيهما؛ ولبعض الوقت جلسا معًا على حافة النهر، يلعبان بأقدامهما وأرجلهما المتقرحة في الماء، ويحدقان فيما حولهما إلى الأشجار التي تقف في صمت من حولهما، صفًا فوق صف، حتى تلاشت بعيدًا في الشفق الرمادي في كل اتجاه.

وقال بيبين، وهو يتكئ على جذع شجرة عظيم: «أعتقد أنك لم تفقدنا بالفعل؟ يمكننا على الأقل أن نتتبع مسار هذا النهر، الإنتووش أو أيًا ما كان الاسم الذي يطلق عليه، ونخرج مرة أخرى بنفس الطريقة التي أتينا بها».

ورد عليه ميري بقوله: «يمكننا ذلك، إذا استطاعت أرجلنا أن تفعل ذلك، وإذا استطعنا أن نتنفس بالشكل المناسب».

فقال له بيبين: «نعم، الدنيا معتمة في كل مكان حولنا، الهواء فاسد هنا. إن هذا المكان يذكرني، على أية حال، بالغرفة القديمة في قصر التوكيين العظيم هناك بعيدًا في السميالز[1] في تكبورو؛ مكان ضخم، لم يتحرك الأثاث فيه قط أو يتغير على مدى أجيال. إنهم يقولون إن التوكي العجوز عاش فيها سنة بعد سنة، في حين أنه هو والغرفة كانا يزدادان كبرًا ورثاثة معًا ـ ولم تتغير أبدًا منذ مات، من قرن مضى.

---

(1) أوصى المؤلف بتركها دون ترجمة، حيث إنها كلمة خاصة بالهوبيتيين، ومعناها جُحر أو وجار؛ وربما تكون قريبة من الكلمة الإنجليزية القديمة (smygel) التي لها نفس المعنى. وقد ألمح بأن نفس العنصر (smygel) يوجد في الاسم الأصلي لجولام (Sméagol) [سميجول]. (المترجم)

وكان جِرونتياس العجوز جد جدي؛ وهذا يعود بالحكاية إلى الوراء بعض الشيء. ولكن هذا لا يعد شيئًا مع المشاعر القديمة الخاصة بهذه الغابة. انظر إلى كل لحى وشوارب الأشنات الباكية المتدلية! ومعظم الأشجار يبدو نصفها مغطى بأوراق جافة مهترئة لم تسقط أبدًا وغير منظمة. لا يمكنني أن أتصور كيف سيبدو الربيع هنا، إذا حدث وأتى على الإطلاق؛ ولا يزال أقل من ذلك التنظيف الشامل».

ورد ميري بقوله: «ولكن الشمس على أية حال يجب أن تبزغ أحيانًا. إنها لا تبدو على الإطلاق مثل وصف بيلبو لغابة ميركوود. لقد كانت كلها ظلامًا وسوادًا، ومنزل الأشياء السوداء المظلمة. هذا معتم تمامًا، وشبيه بالأشجار بشكل مخيف. لا يمكن أن نتصور حيوانات تعيش هنا على الإطلاق، أو تبقى هنا لوقت طويل».

وقال بيبين: «كلا، ولا هوبيتيون. ولا أحب فكرة محاولة المرور عبرها أيضًا. يمكنني أن أخمن أنه ليس هناك من شيء تأكله لمسافة مائة ميل. ماذا عن مواردنا؟».

وقال ميري: «منخفضة. لقد نفد كل ما معنا باستثناء زوجين من العلب المتبقية من الليمباس، وتركنا كل شيء غير ذلك وراءنا». ونظرا إلى ما بقي معهما من كعكات جنية؛ كسر لمدة خمسة أيام هزيلة، كان هذا كل ما لديهما. وقال ميري: «وليس معنا دثار أو بطانية. سوف نشعر بالبرد هذه الليلة، أيًا كان الطريق الذي نذهب فيه».

وقال بيبين: «حسنًا، من الأفضل أن نقرر بشأن الطريق الآن. لا بد أن الصباح يدهمنا».

وفي ذلك الحين تمامًا أصبحا مدركين لضوء أصفر كان قد ظهر، على بعد مسافة ما في الغابة؛ أشعة من ضوء الشمس بدا أنها اخترقت سقف الغابة فجأة.

وقال ميري: «مرحبًا. لا بد أن الشمس قد مرت خلال سحابة بينما كنا نحن تحت هذه الأشجار، والآن ها هي قد خرجت مرة أخرى؛ وإلا فإنها قد صعدت عاليًا بما يكفي للنظر لأسفل عبر فرجة ما. ليس هذا ببعيد ـ هيا بنا نذهب ونكتشف!».

لقد وجدوا أنها كانت أكثر بعدًا مما فكروا. كانت الأرض لا تزال ترتفع بشكل حاد، وأصبحت الأرض صخرية بشكل متزايد. وأصبح الضوء أكثر انبلاجًا وواصلا سيرهما، وفي الحال رأيا أنه كان هناك جدار صخري أمامهما؛ جانب تل، أو النهاية المفاجئة لجذر طويل دفعته إلى الخارج بشدة الجبال البعيدة. لم تكن هناك أي أشجار نامية فوقه، وكانت الشمس تسقط كاملة على سطحه الصخري. كانت أغصان الأشجار عند سفحه ممتدة إلى الخارج صلبة وساكنة، كما لو كانت تمتد لتصل إلى الدفء. وحيثما كان كل شيء يبدو رثًا باليًا للغاية وكئيبًا أمامهما، فإن الغابة عندها كانت تتوهج بألوان بنية غنية، وبالألوان الرمادية الداكنة السلسة للحاء مثل جلد مصقول. كانت جذوع الأشجار تتوهج بلون أخضر ناعم مثل العشب الناضر؛ أوائل الربيع أو طيف مسرع منه كان يحيط بهما.

وفي وجه الجدار الصخري كان هناك شيء ما مثل سلم؛ ربما كان طبيعياً، وصنعه تعرض الصخر للعوامل الجوية وانشقاقه؛ وذلك نظرًا لأنه كان خشنًا وغير متساو. وعلى ارتفاع متساو تقريباً مع قمم أشجار الغابة، كان هناك رف تحت جرف. لم يكن هناك شيء نامٍ سوى مجموعة حشائش وأعشاب قليلة عند حافته، وجذع شجرة قديم ليس به سوى فرعين محنيين، كان يبدو تقريباً مثل شكل رجل عجوز نكد المزاج، يقف هناك، ينظر بعين طارفة في ضوء الصباح.

وقال ميري في فرح: «لنذهب لأعلى. والآن لنأخذ نفسًا من الهواء، وترى أعيننا الأرض!».

وتسلقا الصخر وراحا يزحفان عليه في عجلة. لو كان السلم قد صُنع، فلأقدام أكبر حجمًا وأرجل أكثر طولاً من أقدامهم وأرجلهم. لقد كانوا تواقين للغاية لتصيبهم الدهشة من الطريقة المذهلة التي شفيت بها جروح وقروح أسرهم وعادت بها إليهما حماستهما وقوتهما. لقد وصلا أخيرًا إلى حافة الرف الصخري عند سفوح الجذل العجوز تقريباً؛ عندئذ قفزا ودارا وظهراهما للتل، وهما يتنفسان بعمق، وينظران باتجاه الشرق. لقد رأيا أنهما لم يسيرا سوى ثلاثة أو أربعة أميال في الغابة؛ كانت رءوس الأشجار تسير هابطة المنحدرات باتجاه السهل. وهناك، بالقرب من حافة الغابة، ارتفعت عالياً قمم من الدخان الأسود المتعرج، تلوح وتتدفق باتجاههما.

فقال ميري: «الريح تغير اتجاهها. لقد استدارت شرقًا مرة أخرى. يبدو الجو باردًا هنا».

ورد عليه بيبين بقوله: «نعم. أخشى أن يكون هذا مجرد وميض عابر، وسوف يصبح كل شيء رمادياً مظلماً مرة أخرى. يا للشفقة! هذه الغابة الشعثاء العجوز تبدو مختلفة في ضوء الشمس. كدتُ أشعر أنني أحببتُ المكان».

وجاء صوت غريب يقول: «كدت تشعر أنك أحببت الغابة! شيء جيد! هذا لطف استثنائي منك. دورا ودعاني أنظر إلى وجهيكما. أكاد أشعر أنني أكرهكما أنتما الاثنين، ولكن لا أريد أن أكون متعجلاً. دورا!» ووضعت يد كبيرة براجمها مثل المقابض على كل كتف من كتفيهما، وتم تدويرهما، في رفق ولكن بشكل لا يمكن مقاومته؛ عندئذ رفعتهما ذراعان عظيمتان لأعلى.

لقد وجدا أنهما كانا ينظران إلى وجه غريب للغاية. لقد كان وجهًا لكائن ضخم شبيه بالإنسان، كان شكله تقريباً مثل غول، طوله أربعة عشر قدمًا تقريباً، قوي جدًا، له رأس طويل، ولا يكاد يكون له رقبة. وسواء كان مرتدياً أشياء شبيهة باللحاء الأخضر والرمادي، أو أن ذلك كان جلده هو، فإن ذلك كان صعب تحديده والجزم به. وعلى

أية حالٍ فإن الأذرع ـ على مسافة قريبة من الجذع ـ لم تكن مغضنة، ولكنها كانت مغطاة ببشرة سمراء ملساء. كانت القدمان الضخمتان بهما سبع أصابع في كل قدم. كان الجزء السفلي من الوجه الطويل مغطى بلحية شيباء جافة، كثة، تكاد تكون كثيرة الأماليد عند الجذور، نحيلة وشبيهة بالطحلب عند النهايات. ولكن في هذه اللحظة لم يلاحظ الهوبيتيان سوى القليل غير العينين. هاتان العينان العميقتان كانتا الآن تتفحصهما، ببطء ووقار، ولكنهما كانتا ثاقبتين للغاية. كانتا بنيتين، بهما ضوء أخضر. وغالبا فيما بعد ما كان بيبين يحاول وصف أول انطباع له عنهما.

«لقد أحسستُ كما لو كانت هناك بئر هائلة وراءهما، مملوءة بعصور من الذكريات والتفكير الطويل والبطيء والثابت؛ ولكن كان سطحهما يومض متوهجًا بالحاضر؛ مثل الشمس تتوهج على الأوراق الخارجة من شجرة هائلة، أو على قطرات بحيرة غاية في العمق. لا أدري، ولكن الأمر كان يبدو كما لو أن شيئًا كان ينمو في الأرض ـ نائم، ربما يمكنك القول، أو كان يحس بنفسه كشيء بين طرف الجذر وطرف الورقة، بين الأرض العميقة والسماء قد استيقظ فجأة، وكان يتفحصك بنفس الاهتمام الذي كان يوليه لشئونه هو الداخلية طوال سنوات لا نهائية».

وغمغم الصوت، صوت عميق مثل آلة نفخ موسيقية عميقة جدًا: «هرام، هووم. شيء غريب جدًا حقًا! لا تكن مستعجلاً متهورًا، هذا هو شعاري. ولكن لو كنتُ قد رأيتك، قبل أن أرى أصواتكم ـ لقد أحببتها؛ أصوات صغيرة لطيفة؛ تذكرني بشيء لا يمكن أن أتذكره ـ لو كنتُ رأيتكما قبل أن أسمعكما، لكنتُ قد وطئتُ عليكما، معتبرًا إياكما أوركيين صغيرين، ولكنتُ اكتشفتُ خطئي فيما بعد. أنتما غريبان جدًا، في الواقع. جذر وغصن، منتهى الغرابة!»

على الرغم من أن بيبين كان لا يزال مندهشًا، إلا أنه لم يعد يشعر بالخوف. تحت هاتين العينين، أحس بتشوق غريب، ولكن ليس خوفًا، وقال: «من فضلك. من أنت؟ وماذا أنت؟».

وجاءت نظرة غريبة إلى العينين العجوزين، نوع من الاحتراز؛ وتغطت البئران العميقتان. وأجابه الصوت: «هورم، الآن، حسنًا، إنني إنتي[1]، أو هذا هو الاسم الذي يطلقونه عليّ. نعم. إنتي هي الكلمة. الإنتي، أنا، ربما يمكنكما القول، بطريقتكما في التحدث. اسمي فانجورن طبقًا للبعض، البعض يسمونني ترييرد «لحية الشجرة». «ترييرد» سوف تفي بالغرض».

وقال ميري: «إنتي؟ ما هذا؟ ولكن ماذا تطلق على نفسك؟ ما اسمك الحقيقي؟».

(1) Ent ـ أوصى المؤلف بعدم ترجمتها، وهي كلمة من الإنجليزية القديمة تقابل «giant» ـ أي عملاق. وهي هنا شجرة شبيهة بالبشر. (المترجم)

وردد ترييرد : «هُوو الآن! هُوو! الآن سوف يكون ذلك بمثابة الإخبار. ليس متعجلاً جداً. وأنا سأقوم بتوجيه الأسئلة. أنتما في بلادي. من أنتما، هذا ما أود معرفته؟ لا يمكنني أن أحددكما. لا يبدو أنكما تأتيان في القوائم القديمة التي تعلمتها عندما كنتُ صغيرًا. ولكن ذلك كان منذ زمن طويل، طويل، وقد تكون هناك قوائم جديدة ظهرت خلال هذا الزمن الطويل. دعوني أرى! دعوني أرى! كيف تسير الأمور؟

تعلم الآن علوم المخلوقات الحية
اذكر أولًا الأربعة، الشعوب الحرة:
الأكبر من الجميع، أطفال الجن؛
القزم الحفار، مظلمة هي منازله؛
الإنت الأرضي، قديم مثل الجبال؛
الإنسان الفاني، سيد الخيل:

همم، همم، همم

القندس البَنّاء، الوعل القفاز،
الدب صائد النحل، الخنزير المحارب؛
كلب الصيد جائع، الأرنب البري خائف. . .

همم، همم، همم

النسر في وكره، الثور في مرعاه،
الأيل تعلوه القرون؛ الصقر هو الأسرع،
التم الأكثر بياضًا، الأفعى الأكثر برودة . . . .

هووم، همم؛ هووم، همم، كيف صارت الأمور؟ رووم توم، رووم توم، رووم توم، رووممتي تووم توم. كانت قائمة طويلة. ولكن على أية حال لا يبدو أنكما تتفقان في أي مكان!».

فقال ميري: «إننا دائماً نبدو قد أُخرجنا من القوائم القديمة، والقصص القديمة. ولكننا كنا في الوجود منذ زمن طويل جداً. إننا هوبيتيون».

وقال بيبين: «لماذا لا تصوغ سطرًا جديدًا؟».

«هوبيتيون أنصاف كبار، سكان الحفر.

ضعنا بين الأربعة، بعد الإنسان (الأشخاص الكبار) وعندئذ نكون موجودين في قائمتك».

وقال تريبيرد: «همم! ليس سيئًا، ليس سيئًا. سوف يفي هذا بالغرض. إذن أنتم تعيشون في حفر، صحيح؟ يبدو أن ذلك صحيح ومناسب للغاية. من الذي يناديكم بالهوبيتيين، مع ذلك؟ لا يبدو أن هذا اسم جني بالنسبة لي. لقد صاغ الجن كل الكلمات القديمة: لقد بدءوها هم».

وقال بيبين: «لا أحد آخر ينادينا بالهوبيتيين؛ إننا نحن الذين نطلق على أنفسنا هذا الاسم».

«هووم، همم! هيا الآن! ليس سريعًا جدًا! أنتم تسمون أنفسكم هوبيتيين؟ ولكن يجب ألا تخبروا أي أحد بذلك. سوف تفشون بذلك أسماءكم الحقيقية إذا لم تكونوا حريصين».

فقال ميري: «نحن لسنا حريصين بهذا الشأن. إنني براندييكي، ميريادوك براندييكي، على الرغم من أن معظم الناس ينادونني ميري وحسب».

«وأنا توكي. بيريجرين تووك، ولكنني أنادى على وجه العموم باسم بيبين أو بيب».

وقال تريبيرد: «همم، ولكنكم قوم متعجلون، فيما أرى. إنه ليشرفني ثقتكم؛ ولكن يجب ألّا أن تكونوا متحررين أكثر من اللازم فجأة على هذا النحو. هناك إنتيون وإنتيون، هل تعرفون ذلك؟! أو هناك إنتيون وأشياء أخرى تبدو مثل الإنتيين ولكنهم ليسوا إنتيين، ربما قد تقولون. سوف أناديكما ميري وبيبين، بعد إذنكما، اسمان لطيفان؛ لكنني لن أخبركما باسمي، ليس بعد على أية حال». وجاءت نظرة غريبة نصف عارفة، نصف مازحة بومضة خضراء وظهرت في عينيه. «وذلك لسبب واحد أنه سوف يستغرق زمنًا طويلاً؛ إن اسمي يكبر مع الوقت، وقد عشتُ أمدًا طويلاً طويلاً؛ ولذلك فإن اسمي مثل قصة. الأسماء الحقيقية تخبرك قصة الأشياء التي تنتمي إليها في لغتي، في اللغة الإنتية القديمة إذا جاز لك القول. إنها لغة جميلة، ولكن الأمر يستغرق وقتًا طويلاً جدًا لقول أي شيء بها؛ لأننا لا نقول أي شيء بها، ما لم يكن جديرًا باستغراق وقت طويل لقوله، وللإنصات إليه.

«ولكن الآن» ـ وأصبحت العينان براقتين للغاية و«حاضرتين»، وبدتا أنهما تصبحان أصغر حجمًا وحادتين تقريبًا، «ما الذي يجري؟ ما الذي تفعلونه في ذلك كله؟

يمكنني أن أرى وأسمع (وأشم وأشعر) قدرًا كبيرًا من هذا، من هذا، من هذا. أستميحكما عذرًا؛ هذا جزء من اسمي خاص بهذا الشأن؛ لا أدري ما الكلمة التي تقابل ذلك في اللغات الخارجية؛ تدركان ما أقول، الشيء الذي نحن بصدده، حيث أقف وأنظر في الصباح، وأفكر في الشمس، والعشب الذي يقع وراء الغابة، والخيل، والسحب، وتفتّح العالم وانكشافه. ما الذي يجري؟ ما الأمر الذي يبدو جندلف بصدده؟ وهؤلاء ـ البورارورم»، وصدرت عنه ضوضاء صاخبة مثل نشاز في أرغن عظيم ـ «هؤلاء الأوركيون، وسارومان الصغير هناك في آيزنجارد؟ إنني أحب الأخبار. ولكن ليس سريعًا أكثر من اللازم الآن».

فقال ميري: «هناك الكثير جدًا مما يجري، بل وحتى إذا حاولنا أن نسرع، فسوف يستغرق الأمر وقتًا طويلاً للإخبار به. ولكنك أخبرتنا ألا نكون متعجلين. هل ينبغي علينا أن نخبرك أي شيء يكون قريبًا جدًا؟ هل ستظن ذلك غلظة وفظاظة، إذا نحن سألنا ما الذي ستفعله معنا، وفي أي جانب أنت؟ وهل تعرف جندلف؟».

ورد تريبيرد قائلاً: «نعم، إنني أعرفه: الساحر الوحيد الذي يأبه حقًا بالأشجار. هل تعرفانه؟».

ورد عليه بيبين في حزن: «نعم، نحن نعرفه. لقد كان صديقًا عظيمًا، وكان قائدنا ومرشدنا».

ورد عليه تريبيرد قائلاً: «إنني لن أفعل أي شيء معكما؛ ليس إذا كنتما تقصدان بذلك «أفعل شيئًا ما لكما» بدون إذنكما. ربما يمكننا أن نفعل بعض أشياء معًا. إنني لا أعرف شيئًا عن الجوانب. إنني أسير في طريقي الخاص؛ ولكن ربما يذهب طريقكما معي لبعض الوقت. ولكنكما تتحدثان عن سيدي جندلف، كما لو كان في قصة قد وصلت إلى نهايتها».

وقال بيبين في حزن: «نعم، نحن نقصد ذلك. يبدو أن القصة مستمرة، ولكني للأسف أخشى أن جندلف قد خرج منها».

فقال تريبيرد: «هوو، هيا الآن! هووم، همم، آه، حسنًا» وتوقف، ونظر طويلاً إلى الهوبيتيين. «هووم، آه، حسنًا، لا أدري ماذا أقول. هيا الآن!».

وقال له ميري: «إذا كنت تريد أن تسمع المزيد، فسوف نخبرك. ولكن الأمر سيستغرق بعض الوقت. ألا تحب أن تنزلنا؟ ألا يمكننا الجلوس هنا معًا في الشمس، مادامت موجودة؟ لا بد أنك تعبت من حملنا».

«همم، تعبت؟ كلا، أنا لم أتعب. لا أصاب بالتعب بسهولة. ولا أجلس. إنني لست، همم، أستطيع الانحناء. ولكن هناك، الشمس تجنح للمغيب. دعونا نترك هذا ـ ماذا تدعونه حسبما قلت؟».

وأقترح بيبين قائلاً: «التل؟ الرف الصخري؟ الدرج؟».

وكرر ترييبرد الكلمات في استغراق. «التل، نعم، هذه هي الكلمة. ولكنها كلمة متعجلة لشيء وقف هنا إلى الأبد منذ أن تشكل هذا الجزء من العالم. لا تهتم بالأمر. دعونا نتركه، ونمض».

وسأل ميري قائلاً: «أين سنذهب؟».

وأجابه ترييبرد بقوله: «إلى منزلي، أو إلى واحد من منازلي».

«وهل هو بعيد؟».

«لا أدري. ربما تقول عنه إنه بعيد. ولكن ماذا يهم ذلك؟».

فقال ميري: «حسنًا، كما ترى، لقد فقدنا كل متعلقاتنا. ليس لدينا سوى القليل من الطعام».

فرد عليه ترييبرد بقوله: «أوه، همم! يجب ألا تقلقا بهذا الشأن. يمكنني أن أعطيكما شرابًا يجعلكما مفعمين بالحياة والحيوية، وناميين، لفترة زمنية طويلة، طويلة. وإذا قررنا أن نفترق، فبوسعي أن أنزلكما خارج بلادي في أي نقطة تختارانها. هيا بنا نذهب!».

وأمسك ترييبرد بالهوبيتيين برفق ولكن بإحكام، ممسكًا كل واحد منهما في الجزء المعقوف لكل ذراع، ورفع قدمًا كبيرة أولاً ثم رفع القدم الأخرى بعد ذلك، وتحرك بهما إلى حافة الرف الصخري. وقبضت أصابع القدمين التي تشبه الجذور بالصخور. بعد ذلك في عناية ورزانة، راح يمشي ببطء نازلاً من درج إلى درج، ووصل إلى أرض الغابة.

وفي الحال، انطلق في سيره بخطوات واسعة طويلة متأنية عبر الأشجار، بشكل أكثر عمقًا وأكثر إلى الغابة، دون أن يبعد كثيرًا عن النهر، وهو يصعد بشكل مطرد باتجاه منحدرات الجبال. بدت الكثير من الأشجار نائمة، أو غير مدركة له مثل عدم إدراكها لأي مخلوق آخر مر بها مجرد مرور؛ ولكن بعضها ارتعش، ورفع بعضها فروعه فوق رأسه وهو يقترب. وفي ذلك الوقت، راح يمشي، وكان يتحدث مع نفسه في تيار منساب طويل من الأصوات الموسيقية.

كان الهوبيتيون صامتين بعض الوقت، أحسوا، الأمر الذي كان غريبًا بشكل كاف، بالأمان والراحة، وكان لديهم الكثير ليفكروا فيه ويتعجبوا بشأنه. وأخيرًا، تجرأ بيبين على الكلام مرة أخرى:

«من فضلك يا ترييبرد، هل لي أن أسألك شيئًا؟ لماذا حذرنا سيلبورن من غابتك؟ أخبرنا ألا نخاطر ونتورط فيها».

ورد عليه تريبيرد مدمدمًا: «همم، هل فعل ذلك الآن؟ وربما كنتُ قد قلتُ الكثير مثل ذلك، إذا كنتم قد ذهبتم في الطريق الآخر، فلا تخاطروا ولا تتورطوا في غابات لورليندورِنان! هذا هو الاسم الذي اعتاد الجن أن يطلقوه عليها ولكن الآن جعلوا الاسم أقصر؛ لوثلورين ـ هكذا يسمونها. ربما يكونون على صواب: ربما تكون تتلاشى، وليست تتنامى. أرض وادي الذهب المغني، هذه كانت هي، في وقت من الأزمان. والآن فإنها زهرة الأحلام «دريم فلاور». آه، حسنًا! ولكنه مكان غريب، وليس لأي أحد لأن يغامر ويذهب إليه. إنني مندهش أنه قد حدث وأمكنك الخروج منه، ولكني أكثر اندهاشًا بكثير أنكم دخلتم فيه على الإطلاق: إن ذلك لم يحدث قط لغرباء طوال سنين كثيرة. إنها أرض غريبة.

«وهكذا هذه الأرض. لقد آل الأمر بالناس إلى حزن هنا. نعم، لقد حدث وآل بهم الأمر إلى الحزن. لورليندورِنان ليندلورِندور مالينورنِليون أورنِمالين» هكذا كان يدندن مع نفسه؛ ثم قال «إنهم يتخلفون وراء العالم هناك، حسب ظني. لا هذا البلد، ولا أي شيء آخر خارج الغابة الذهبية (جولدن وود)، هو ما كان عليه عندما كان سيلبورن صغيرًا. لا يزال:

توريليلوميا ـ تومباليمورنا تومباليتوريا لومِيانور،

هذا هو ما اعتادوا قوله. لقد تغيرت الأشياء، ولكن لا يزال صحيحًا في بعض الأماكن».

ورد عليه بيبين قائلاً: «ماذا تعني؟ ما هو الصحيح؟».

وأجابه تريبيرد بقوله: «الشجر والإنتيون. إنني لا أفهم كل ما يدور أنا نفسي، ولذلك لا يمكنني أن أشرحه لكما. لا يزال بعض منا إنتيين حقيقيين، ومفعمين بالحياة والحيوية بالشكل الكافي على طريقتنا، ولكن الكثيرين أصبحوا نيامًا، أصبحوا مثل الشجر، حسبما يمكنك القول. معظم الأشجار ليست سوى أشجار، بالطبع؛ ولكن الكثير منها نصف مستيقظ. البعض مستيقظ تمامًا، وقليل منها، حسنًا، آه، أصبحوا إنتيين على نحو جيد. الأمر يسير على هذا النحو طوال الوقت.

«عندما يحدث ذلك لشجرة من الشجر، فإن تجد البعض قلوبها سيئة. ليس لهذا أي دخل بأخشابها؛ إنني لا أقصد ذلك. لماذا، لقد عرفتُ بعض أشجار الصفصاف العجوز الجيدة هناك عبر نهر إنتووش، مضت منذ زمن طويل، بكل أسف! لقد كانت جوفاء تمامًا، في الواقع كانت جميعها تتداعى، ولكنها كانت هادئة وحلوة الحديث مثل ورقة

شابة. وكذلك فهناك بعض الأشجار في الوادي أسفل الجبال، بصحة جيدة تمامًا، وسيئة تمامًا من الداخل. إن هذا النوع من الأشياء يبدو أنه منتشر. كان هناك بعض الأجزاء الخطيرة جدًا في هذه البلاد. لا يزال هناك بعض مناطق سوداء جدًا».

وسأل ميري قائلاً: «مثل الغابة العجوز هناك بعيدًا في الشمال، هل تقصد ذلك؟».

«نعم، نعم، شيء كهذا، ولكن أكثر سوءًا. لا أشك أن هناك شبحًا ما من الظلمة العظيمة يرقد هناك لا يزال على البعد في الشمال؛ وقد انتقلت الذكريات السيئة. ولكن هناك وديان جوفاء في هذه الأرض لم ترفع فيها الظلمة أبدًا، والأشجار أكبر عمرًا مني. ومع ذلك، فإننا نفعل ما يمكننا أن نفعله. إننا نبعد الغرباء والمتهورين؛ ونقوم بالتدريب وبالتعليم، ونمشي، ونزيل العشب.

«نحن رعاة الأشجار، نحن الإنتيين الكبار. ما ترك منا الآن عدد قليل بما يكفي. الخراف تصبح مثل الراعي، والرعاة مثل الخراف، حسبما يقال؛ ولكن ببطء، ولا يمكث أي منها الكثير في العالم. الأمر أكثر سرعة وأكثر قربًا مع الشجرة والإنتيين، وهم يمشون منتقلين عبر العصور معًا؛ لأن الإنتيين أشبه كثيرًا بالجن يمكنك القول بأنهم أقل اهتمامًا بأنفسهم من البشر، أكثر تغيرًا من الجن، وأسرع تكيفًا مع المحيط الخارجي، أو أفضل من الاثنين؛ لأنهم أكثر ثباتًا ويبقون وعقولهم مركزة على الأشياء لوقت أطول.

«بعض أقاربي يبدون مثل الأشجار تمامًا الآن، ويحتاجون إلى شيء عظيم ليثيرهم؛ وهم لا يتحدثون إلا همسًا. ولكن البعض من أشجاري رشيقة، أطرافهم لدنة، والكثير منهم يمكنهم الحديث معي. لقد بدأ ذلك الجن، بالطبع، يوقظون الأشجار ويعلمونهم الكلام ويتعلمون كلام الأشجار. لقد كانوا دائمًا يتمنون الحديث إلى كل شيء، الجن القدماء فعلوا ذلك. ولكن عندئذ جاءت الظلمة العظيمة، ومضوا بعيدًا فوق البحر، أو فروا إلى الوديان البعيدة، واختبئوا، وألفوا أغنيات عن الأيام التي لم تأت مرة أخرى. لم تأت مرة أخرى قط. نعم، نعم، كانت هناك غابة واحدة فقط في يوم من الأيام من هنا إلى جبال القمر، ولم تكن هذه سوى النهاية الشرقية.

«هذه كانت الأيام الرحبة! وقتما كنت أستطيع أن أمشي وأغني طوال اليوم ولا أسمع أكثر من صدى صوتي وحدي في التلال الجوفاء.

كانت الغابات مثل غابات لوثلورين، كانت فقط أكثر كثافة، وأكثر قوة، وأصغر سنًا. ورائحة الهواء! كنتُ أمضي أسبوعًا ولا أفعل شيئًا سوى التنفس».

ولزم ترييرد الصمت، وهو يخطو بخطى واسعة، ومع ذلك لا يكاد يصدر منه صوت بقدميه الكبيرتين. عندئذ بدأ يدندن مرة أخرى، وتحول إلى أغنية مهمهمة. وبالتدريج أدرك الهوبيتيان أنه كان يغني لهما:

في مروج صفصاف تسارينان مشيتُ في الربيع.
آه! مرأى ورائحة الربيع في نان ـ تاساريون!
وقلتُ إن ذلك كان جيدًا.
وطفتُ في الصيف في غابة أوسيرياند لشجر الدردار.
آه! الضوء والموسيقى في الصيف إلى جوار أنهار أوسير السبع!
وقلتُ إن ذلك كان الأفضل.
وفي الخريف جئتُ إلى غابات الزان في نيلدوريث.
آه! الذهب والحمرة وتنهد الأوراق في الخريف في تور ـ نا ـ نيلدور!
لقد كان ذلك أكثر من رغبتي.
وتسلقتُ إلى أشجار الصنوبر على هضْبة دورثونيون في الشتاء
آه! الريح والبياض والفروع السوداء
للشتاء فوق أورود ـ نا، ثون!
وارتفع صوتي وغنى في السماء.
والآن تقع كل تلك الأشجار تحت الموجة،
وأنا أمشي في أمباروا، في تورِمورنا، فِيْ أليالومي،
في أرضي أنا، في بلاد فانجورن،
حيث الجذور طويلة،
والسنين ترقد أكثر كثافة من أوراق الشجر
في تورِمورنالومي.

وأنهى أغنيته، وراح يسير بخطى واسعة في صمت، وفي الغابة، إلى أقصى مسافة يمكن أن تصلها الأذن، لم يكن هناك أي صوت.

وانقضى النهار، والتف الغسق حول سوق الأشجار. وأخيرًا رأى الهوبيتيان أرضًا مظلمة شديدة الانحدار ترتفع على نحو غائم أمامهما؛ لقد وصلوا إلى سفوح الجبال، وإلى جذور ميثيدراس الطويلة الخضراء. وإلى أسفل جانب التل، راح نهر إنتووش الشاب، وهو يقفز من ينابيعه عاليًا فوقهما، يجري في صخب من درج إلى درج ليلقاهما. على يمين الجدول، كان هناك منحدر طويل، مكسو بالحشائش، صار رماديًا الآن وقت الغسق. لم تكن هناك أي أشجار نامية وكان مكشوفًا تحت السماء؛ كانت النجوم ساطعة بالفعل في البحيرات بين شواطئ السحب.

وراح تريبيرد يسير بخطى واسعة في المنحدر، ولا يكاد يرخي سرعته. وفجأة رأى الهوبيتيان أمامهما فرجة واسعة. كانت شجرتان عظيمتان تقفان هناك، شجرة على كل جانب، مثل أعمدة بوابة حية؛ ولكن لم تكن هناك بوابة باستثناء معبرهم وأغصان متشابكة. وبينما كان الإنت العجوز يقترب رفعت الأشجار فروعها، وراحت جميع أوراقها ترتعش ويصدر عنها حفيف؛ وذلك لأنها كانت دائمًا أشجارًا خضراء، وكانت أوراقها داكنة ومصقولة، ومتوجهة في ضوء الشفق. وفيما وراءها كانت هناك مساحة فضاء واسعة مستوية، كما لو كانت أرض بهو عظيم قد نحتت في جانب التل. وعلى كلا الجانبين، انحدرت الجدران انحدارًا شديدًا لأعلى، حتى صار ارتفاعها خمسين قدمًا أو يزيد، وعبر كل جدار كان يقف صف من الأشجار كانت هي الأخرى تزداد ارتفاعًا وهم يمشون نحو الداخل.

وعند النهاية البعيدة، كان الجدار الصخري شديد الانحدار، ولكن عند القاع فإنه قد صار أجوف وتراجع إلى خليج صغير ضحل له سقف مقوس، السقف الوحيد للبهو، باستثناء فروع الشجر التي ظللت عند النهاية الداخلية جميع الأرض تاركة فقط ممرًا مفتوحًا عريضًا في الوسط. وهرب نبع صغير من الجداول فوقهم، وراح يصب قطرات فضية، مثل ستارة دقيقة أمام الخليج المقوس. وتجمعت المياه مرة أخرى في حوض صخري في الأرض بين الأشجار، ومن ذلك المكان راحت تتساقط وتنساب بعيدًا إلى جانب الممر المفتوح، نحو الخارج لتلتحم بنهر إنتووش في رحلته عبر الغابة.

وقال تريبيرد، كاسرًا صمته الطويل: «همم! ها قد وصلنا! لقد سرت بكما حوالي سبعين ألف خطوة واسعة من خطوات الإنتيين، ولكن ماذا يمثل ذلك في قياس أرضكم، فهذا ما لا أعرفه. على أية حال، إننا قريبون من جذور الجبل الأخير. جزء من اسم هذا المكان قد يكون ويلينج هوول، في حالة تحويله إلى لغتكم. إنني أحبه. سوف نمكث الليل هنا». وأنزلهما على الحشائش بين صفوف الأشجار، وتبعاه باتجاه القنطرة العظيمة. ولاحظ الهوبيتيان عندئذ أنه وهو يمشي كانت ركبتاه لا تكاد تنحنيان، ولكن رجليه كانتا تفتحان في خطوة واسعة عظيمة. كان يغرس أصابع قدميه الكبيرة (وقد كانت كبيرة حقًا، وعريضة جدًا) في الأرض أولاً، قبل أي جزء آخر من قدميه.

وللحظة، وقف تريبيرد تحت مطر النبع المتساقط، وأخذ نفسًا عميقًا؛ وبعد ذلك ضحك، ومر نحو الداخل. كانت هناك طاولة صخرية عظيمة، ولكن لم تكن هناك مقاعد. عند مؤخرة الخليج الصغير كانت الدنيا مظلمة حقًا. رفع تريبيرد وعاءين عظيمين وضعهما على الطاولة. كان يبدو أنهما ممتلئان بالماء؛ ولكنه وضع يديه فوقهما، وفي الحال بدأا يتوهجان، أحدهما بضوء ذهبي والآخر بضوء أخضر صارخ؛

وأضاء مزيج الضوءين الخليج، كما لو كانت شمس الصيف تسطع عبر سقف من أوراق يافعة. ولما نظر الهوبيتيان للوراء، رأيا أن الأشجار في البهو قد بدأت هي الأخرى تتوهج، وهجًا ضعيفًا في بداية الأمر، ولكنه كان يتسارع بشكل مطرد، حتى صارت كل ورقة محاطة بحافة من ضوء بعضها أخضر، بعضها ذهبي، بعضها أحمر مثل الرصاص؛ في حين أن جذوع الأشجار بدت مثل أعمدة صنعت من صخر مضيء.

وقال تريبيرد: «حسنًا، حسنًا، الآن يمكننا الحديث مرة أخرى. إنكما ظمآنان، فيما أتوقع. ربما تكونان أنتما متعبين أيضًا. اشربا هذا!» وذهب إلى مؤخرة الخليج، وبعد ذلك رأيا أن عدة أوانٍ صخرية طويلة تقف هناك، ولها أغطية ثقيلة. ورفع واحداً من الأغطية، وغمس في الوعاء مغرفة كبيرة، وملأ بها ثلاث سلطانيات، واحدة منها كانت كبيرة جداً، في حين كانت الاثنتان الأخريان أصغر حجمًا.

وقال لهما: «هذا منزل إنتي، وليست هناك أي مقاعد، فيما أخشى. ولكن يمكنكما الجلوس على الطاولة». وأمسك بالهوبيتيين ووضعهما على الطاولة الصخرية الكبيرة، التي ترتفع ستة أقدام فوق الأرض، وهناك جلسا وأرجلهما مدلاة، وراحا يشربان رشفات.

كان الشراب مثل الماء، كان حقًّا مثل مذاق الجرعات التي شرباها من نهر إنتووش بالقرب من حدود الغابة، ومع ذلك كانت هناك بعض رائحة أو مذاق فيه لم يمكنهما وصفها؛ لقد كانت ضعيفة، ولكنها ذكرتهما برائحة غابة بعيدة يحملها من بعيد نسيم بارد في الليل. وبدأ أثر جرعة الشراب عند أصابع القدمين، وراح يرتفع باطراد خلال كل طرف من أطراف الجسم، جالبًا الانتعاش والحيوية وهو يسير لأعلى، حتى وصل إلى أطراف الشعر. لقد شعر الهوبيتيان حقًا أن الشعر في رأسيهما كان يقف بالفعل، وهو يلوح ويتلوى ويكبر. أما بالنسبة لتريبيرد، فإنه غسل قدميه أولاً في الحوض وراء القنطرة، وبعد ذلك أفرغ سلطانيته في جرعة واحدة، جرعة واحدة طويلة بطيئة. ظن الهوبيتيان أنه لن يتوقف أبدًا.

وأخيرًا أنزل السلطانية مرة أخرى، وتنهد قائلاً: «آه ـ آه. همم، هُووم، الآن يمكننا الحديث بشكل أكثر سهولة. يمكنكما الجلوس على الأرض، وأنا سوف أرقد؛ سوف يمنع هذا الشراب من الارتفاع إلى رأسي وجعلي أنام».

على الجانب الأيمن من الخليج، كان هناك سرير عظيم يقف على أرجل واطئة، لا تزيد على قدميه طولاً، مغطى بغطاء عميق من الحشائش الجافة السرخس الجاف. وأنزل تريبيرد نفسه بطيئًا على هذا السرير (مع أقل علامة على الانحناء في وسطه)، حتى رقد بطوله تمامًا، وذراعه خلف رأسه، ينظر لأعلى إلى السقف الذي كانت

الأضواء تتلألأ فوقه، مثل لعب الأوراق في ضوء الشمس الساطع. جلس ميري وبيبين إلى جواره على وسائد من عشب.

وقال تريبيرد: «والآن أخبراني بقصتكما، ولا تتعجلا!».

وبدأ الهوبيتيان يحكيان له قصة مغامراتهما منذ أن غادرا قرية هوبيتيون (قرية الهوبيتيين). ولم يتبعا ترتيبًا واضحًا جدًا؛ لأنهما كانا يقاطعان بعضهما بشكل مستمر، وكان تريبيرد يوقف المتحدث كثيرًا، ويعود مرة أخرى إلى نقطة سابقة أو يقفز للأمام سائلاً أسئلة عن أحداث لاحقة. لم يقولا أي شيء، أيًا كان، عن الخاتم، ولم يخبراه لماذا خرجا في رحلتهما أو إلى أي مكان كانا ذاهبين؛ ولم يسألهما عن أي سبب لذلك.

لقد كان مهتمًا اهتمامًا هائلاً بكل شيء؛ الخيالة السود، إلروند، ريفينديل، الغابة العجوز، توم بومباديل، أنفاق موريا، لوثلورين، جلادرييل، لقد جعلهما يصفان المقاطعة وريفها مرات ومرات. لقد قال شيئًا غريبًا عند هذه النقطة، حيث سأل قائلاً: «إنكما لم تريا أبدًا، همم، أي إنتيين هناك، هل حدث ذلك؟ حسنًا، لم تروا أي إنتيين؛ أي وزوجات إنتيات ينبغي عليَّ أن أقول».

فقال بيبين: «زوجات إنتيات؟ هل هن مثلك على الإطلاق؟».

فرد عليه تريبيرد في استغراق: «نعم، همم، حسنًا ـ لا؛ إنني لا أعرف على وجه الحقيقة الآن. ولكنهن سيحببن بلدكم، ولذلك فإنني كنتُ أتساءل فقط».

ومع ذلك فقد كان تريبيرد مهتمًا على وجه الخصوص بكل شيء كان يتصل بجندلف؛ وكان مهتمًا أكبر اهتمام بأعمال سارومان. وندم الهوبيتيان شديد الندم أنهما كانا يعرفان القليل جدًا عن هذه الأعمال؛ لم يكونا يعرفان سوى تقرير غامض بعض الشيء عن قصة سام لما كان جندلف قد أخبر به المجلس. ولكنهما كانا يعرفان بوضوح على أية حال أن أوجلوك ومجموعته كانا من آيزنجارد، وكانوا يتحدثون عن سارومان بصفته سيدهم.

«همم، هُووم!» ـ قال ذلك تريبيرد، عندما دارت قصتهما أخيرًا وانعطفت على معركة الأوركيين وخيالة روهان. «حسنًا، حسنًا! حزمة مجموعة من الأخبار ولا شك. إنكما لم تخبراني بكل شيء، لم تخبراني حقًا بذلك، بحال من الأحوال. ولكني لا أشك أنكما تتصرفان مثلما كان جندلف يرغب. هناك شيء ما كبير جدًا يجري، يمكنني أن أراه، أما عن ماهيته فإنني قد أعلم به عاجلاً أو آجلاً. سواء في الجذر أو الغصن، ولكنه عمل غريب: ها هم قوم صغار يطلعون ليسوا في القوائم القديمة، وانظرا! الخيالة التسعة الذين نُسوا يعاودون الظهور للإيقاع بهم، ويأخذهم جندلف في رحلة عظيمة، ويؤويهم جندلف في كاراس جلدهون، ويطاردهم الأوركيون عبر فراسخ ويلدرلاند (أرضِ التيه) بطولها؛ حقًا إنه يبدو أنهم قد أوقع بهم في ريح عظيمة. أتمنى أنهم ينجون منها!».

وسأله ميري قائلاً: «وماذا عنك أنت نفسك؟».

فرد عليه تريبيرد بقوله: «هووم، همم، إنني لم أشغل نفسي بالحروب العظيمة، إنها تخص في معظمها الجن والإنس. هذا هو عمل السحرة؛ السحرة دائماً يشغلون أنفسهم بالمستقبل. إنني لا أحب القلق بشيء عن المستقبل. إنني لستُ على الإطلاق في جانب أي أحد؛ لأنه ليس هناك من أحد على الإطلاق في جانبي، إذا كنتما تفهمان ما أقول؛ ليس من أحد يهتم بأشجار الغابة مثلما أهتم أنا بها، بل ولا حتى الجن في هذه الأيام. ومع ذلك، فإنني أنجذب كثيرًا إلى الجن أكثر من غيرهم: لقد كان الجن هم الذين شفونا من الخَرَس منذ زمن طويل، وقد كانت هذه هدية عظيمة لا يمكن أن تُنسى، على الرغم من أن طرقنا افترقت منذ ذلك الحين. وهناك بعض أشياء بالطبع، والتي لستُ أنا بجانبها على الإطلاق؛ إنني ضدها تمامًا؛ هؤلاء ــ البورارورم» (وإذا به مجددًا يصدر دمدمة الاشمئزاز) «ــــــــ هؤلاء الأوركيون، وسادتهم.

«لقد كنتُ قلقًا عندما سقط الظل على غابة ميركوود، ولكن عندما انتقل إلى موردور، فلم أعد أقلق أبدًا؛ إن موردور بعيدة جدًا. ولكن يبدو أن الريح تتجه نحو الشرق، وقد يكون ذبول جميع أشجار الغابة قريبًا. ليس هناك من شيء يمكن لإنتي عجوز أن يفعله لكبح هذه العاصفة؛ يجب عليه أن ينجو منها أو ينهار.

«ولكن سارومان الآن! سارومان جار لنا؛ لا يمكنني أنْ أغفله. يجب على أن أفعل شيئًا، فيما أظن. لقد تساءلت كثيرًا أخيرًا بشأن ما ينبغي أن أفعله بخصوص سارومان».

وسأل بيبين: «من هو سارومان؟ هل تعرف أي شيء عن تاريخه؟».

وأجابه تريبيرد بقوله: «سارومان ساحر. أكثر مما يمكنني أن أقوله. إنني لا أعرف تاريخ السحرة. لقد ظهروا أول ما ظهروا بعد أن أتت السفن العظيمة على البحر؛ ولكن إذا كانوا قد أتوا مع السفن فلا يمكنني أن أعرف ذلك أبدًا. كان سارومان يعتبر عظيماً بينهم، فيما أعتقد. لقد تخلى عن التجوال والاهتمام بشئون الإنس والجن، منذ زمن مضى ــ يمكنك أن تقول عنه منذ زمن طويل؛ واستقر في أنجرنوست، أو آيزنجارد مثلما يسميها بشر روهان. بادئ ذي بدء فإنه كان هادئًا جدًا، ولكن شهرته بدأت تنمو وتزيد. لقد اختير ليكون رئيس المجلس الأبيض، كما يقولون؛ ولكن لم ينته ذلك ليكون جيدًا بشكل كبير. بل إنني أتساءل الآن إن لم يكن سارومان عندئذ قد تحول إلى طرق شريرة. ولكن على أية حال فقد اعتاد ألا يأبه كثيرًا بجيرانه. لقد اعتدتُ أن أتحدث معه. كان هناك وقت عندما كان يمشي دائمًا متجولاً في غابتي. كان مؤدبًا في تلك الأيام، يطلب مني الإذن دائمًا (على الأقل عندما كان يقابلني)؛ وكان دائمًا تواقًا للإنصات. لقد أخبرته أشياء كثيرة ما كان له أن يكتشفها هو بنفسه مطلقًا؛ ولكنه لم يكافئني مطلقًا بالمثل. لا يمكنني أن أذكر أنه أخبرني أي شيء قط. وكان لديه الكثير

والكثير مثل ذلك؛ وجهه، مثلما أتذكره ـ لم أره على مدى أيام كثيرة ـ أصبح مثل نوافذ في جدار حجري؛ نوافذ بمصاريع من الداخل.

«أعتقد أنني أفهم الآن ما هو بصدده. إنه يدبر ليصبح قوة. إن لديه عقلاً غاية في القساوة؛ ولا يأبه بالأشياء التي تنمو، إلا بالقدر الذي تخدمه به في الوقت الحالي. والآن من الواضح أنه خائن شرير. لقد تحالف مع أناس شريرين، مع الأوركيين. برم، هووم! الأسوأ من ذلك؛ لقد كان يفعل شيئًا لهم؛ شيئًا خطيرًا؛ لأن هؤلاء الآيزنجارديين كبيرو الشبه بالبشر الأشرار. إنها علامة على الأشياء الشريرة التي جاءت في الظلمة العظيمة التي لا تستطيع أن تتحمل الشمس؛ ولكن أوركيي سارومان يمكنهم تحملها، حتى لو كانوا يكرهونها. وإنني لأتساءل ما عساه أن يكون قد فعل؟ هل أولئك الذين دمرهم بشر، أم أنه قد مزج أجناس الأوركيين والبشر؟ إن ذلك من شأنه أن يكون شرًا أسودا!».

ودمدم تريبيرد للحظة، كما لو كان ينطق بعض لعنات وشتائم إنتية سرية عميقة؛ وواصل حديثه قائلاً: «منذ زمن مضى بدأت أتساءل كيف تجرأ الأوركيون على العبور في غابتي بهذه الحرية. ولم أخمن إلا أخيرًا فقط أن سارومان كان هو من يجب توجيه اللوم له، وأنه كان منذ زمن طويل يتجسس ويراقب كل الطرق، ويكتشف أسراري. إنه هو وقبيله الأشرار يشيعون الخراب والدمار الآن. فهم يقومون عبر الحدود بقطع الأشجار؛ الأشجار الصالحة. بعض الأشجار يقومون بقطعها وحسب ويتركونها تتعفن، ذلك هو أذى الأوركيين؛ ولكن معظمها يتم تقطيعه وحمله ليغذي نيران أورثانك. هناك دائمًا دخان يرتفع من آيزنجارد هذه الأيام.

«اللعنة عليه، أصلاً وفرعًا! الكثير من هذه الأشجار كانوا أصدقاء لي، مخلوقات كنتُ قد عرفتها من الجوز والبلوط؛ الكثير منها له أصوات خاصة بها ضاعت الآن إلى الأبد. وهناك مخلفات من جذوع الشجر والعليق حيث كان يوجد في وقت من الأوقات بساتين مغنية. لقد كنتُ متعطلاً كسولاً. لقد تركتُ الأشياء تمضي. لا بد أن يتوقف ذلك!».

ورفع تريبيرد نفسه من فراشه بحركة مفاجئة، ونهض واقفًا، وضرب بيده على الطاولة. وارتعشت أواني الضوء وانطلقت منها دفعتان من اللهب. وكان هناك وميض مثل نار خضراء في عينيه، وانتصبت لحيته خشنة غليظة مثل مقشة عظيمة.

وقال في صوت مدو: «سوف أوقف ذلك. وسوف تأتيان معي. فقد يكون بإمكانكما مساعدتي. سوف تساعدان أصدقاءكما بهذه الطريقة، أيضًا؛ لأنه لو لم تتم السيطرة على سارومان فإن روهان وجندور سوف يكون لهما عدو وراءهما كما لهما عدو أمامهما. إن طرقنا تسير معًا ـ إلى آيزنجارد!»

وقال ميري: «سوف نأتي معك. سوف نفعل ما بإمكاننا أن نفعله».

ورد بيبين قائلاً: «نعم! إنني أود أن أرى اليد البيضاء يُقضى عليها. إنني أود أن أكون هناك، حتى لو لم يكن بإمكاني تقديم الكثير من النفع والمساعدة: إنني لن أنسى أبدًا أوجلوك وعبور روهان».

وقال تريبيرد: «جيد! جيد! ولكنني أتحدث في عجالة. ينبغي ألا نكون في عجلة. لقد أصبحت عنيفًا أكثر من اللازم. يجب على أن أهدأ نفسًا وأفكر في الأمر؛ لأنه من الأيسر أن تصيح توقف! بدلاً من أن تفعل ذلك».

وخطا خطوات واسعة إلى القنطرة ووقف بعض الوقت أسفل مطر الربيع المتساقط. بعدئذ ضحك وهز نفسه، وفي كل مكان تسقط عليه قطرات الماء فيه وهي تتوهج على الأرض فإنها كانت تومض مثل شرارات حمراء وخضراء. وعاد ووضع نفسه على السرير مرة أخرى ولزم الصمت.

بعد بعض الوقت، سمع الهوبيتيان الصوت المتذمر مرة أخرى. كان يبدو أنه يعد على أصابعه، وتنهد قائلاً: «فاندورن، فينجلاس، فلادريف، نعم، نعم. المشكلة تكمن في أن هناك عددًا قليلاً جدًا منا لا يزال موجودًا». قال ذلك والتفت باتجاه الهوبيتيين. «لم يبق سوى ثلاثة من الإنتيين الأوائل الذين مشوا في الغابة قبل الظلمة: ليس هناك سواي، فانجورن، وفينجلاس، وفلادريف ـ وذلك عند ذكرهم بأسمائهم الأجنبية؛ يمكنك أن تناديهم ليفلوك، وسكينبارك، إذا كنت تحب ذلك أكثر. ومن بيننا نحن الثلاثة، ليفلوك وسكينبارك لا يُفيدان كثيرًا في هذا الأمر. لقد أصبح ليفلوك كثير النوم، صار كشجرة تقريبًا. ربما يمكنكما القول بذلك؛ لقد اعتاد الوقوف مع نفسه نصف نائم طوال الصيف بأكمله وحشائش المرج العميقة حول ركبتيه. إنه مغطى بشعر مورق. لقد اعتاد الاستيقاظ في الشتاء؛ ولكن أخيرًا أصبح كثير النعاس جدًا بحيث لا يمكنه المشي كثيرًا حتى في ذلك الوقت. عاش سكينبارك على منحدرات الجبال إلى الغرب من آيزنجارد. وهذا هو المكان الذي كانت فيه أسوأ المشاكل. لقد جرحه الأوركيون، وقد قُتل ودُمر الكثيرون من قبيله ومن رعاة الأشجار لديه. لقد صعد إلى الأماكن العالية، بين شجر القضبان الذي يحب حبًا جمًا، ولن يهبط من هناك مرة أخرى. ومع ذلك، إذا جاز لي القول، يمكنني أن أجمع مجموعة كبيرة من الأفراد الأصغر سنًا ـ إذا استطعت أن أجعلهم يفهمون الحاجة إلى ذلك؛ إذا استطعت إيقاظهم: نحن لسنا قومًا متعجلين. يا للأسف هناك قليلون جدًا منا!».

وسأله بيبين قائلاً: «لماذا يوجد القليلون منهم جدًا، في حين أنكم عشتم في تلك البلاد زمنًا طويلاً جدًا؟ هل مات الكثيرون جدًا؟».

ورد عليه تريبيرد بقوله: «أوه، كلا! بوسعك أن تقول إنه لم يمت أحد من الداخل، البعض سقط طوع الظروف العصيبة للسنوات الطوال، وأصبح عدد أكبر منهم مثل

الأشجار. ولكن لم يكن هناك الكثيرون منا ولم يزد عددنا. لم يكن هناك أي إنتيين صغار ـ لم يكن هناك أي أطفال، بوسعك أن تقول إنه لم يكن هناك أطفال طوال سنين طويلة. وكما ترون، فإننا فقدنا الزوجات الإنتيات».

فقال بيبين: «يا لغاية الحزن! كيف حدث ومُتن كلهن جميعًا؟».

فرد عليه تريبيرد بقوله: «إنهن لم يمُتن! أنا لم أقل إنهن مُتن قط. لقد فقدناهن، هذا ما قلته. فقدناهن ولا يمكننا العثور عليهن». وتنهد مواصلاً كلامه قائلاً: «كنتُ أظن أن معظم الأشخاص يعرفون ذلك. لقد كانت هناك أغان عن تفتيش الإنتيين وبحثهم عن الزوجات الإنتيات تغني بين الجن والإنس من غابة ميركوود إلى جندور. لا يمكن أن تكون قد نُسيت تمامًا».

فقال ميري: «حسنًا، فإن الأغاني، للأسف، لم تأت إلى الغرب فوق الجبال إلى المقاطعة. ألا يمكنك أن تخبرنا بالمزيد، أو تغني لنا أغنيةً من هذه الأغنيات؟».

فأجابه تريبيرد، وقد بدا أنه مسرور بالطلب، قائلاً: «نعم، سوف أفعل ذلك حقًا. ولكن لا يمكنني أن أقص الحكاية بالشكل المناسب، سوف أقصها في إيجاز وحسب؛ وبعد ذلك يجب أن ننهي حديثنا: «في الغد هناك اجتماع يجب أن نعقده، وعمل يجب أن نفعله، وقد تكون أمامنا رحلة علينا أن نبدأها».

وواصل كلامه بعد فترة توقف: «إنها قصة غريبة وحزينة بعض الشيء. عندما كان العالم شابًا يافعًا، وكانت الغابات واسعة مقفرة، فإن الإنتيين والزوجات الإنتيات -وكانت هناك عذارى إنتيات آنذاك- آه! جمال وروعة فيمبرثيل، من ووندليمب خفيف القدمين في أيام الشباب! مشوا معًا وعاشوا في بيوت معًا. ولكن قلوبنا لم تستمر في النمو بنفس الطريقة؛ أعطى الإنتيون حبهم لأشياء قابلوها في العالم، وأعطت الزوجات الإنتيات فكرهن لأشياء أخرى؛ لأن الإنتيين أحبوا الأشجار العظيمة، والغابات المقفرة، ومنحدرات التلال العالية؛ وشربوا من جداول الجبل، ولم يأكلوا سوى الفاكهة التي كانت الأشجار تتركها تسقط في طريقهم، وتعلموا عن الجن وتحدثوا مع الأشجار. ولكن الزوجات الإنتيات أعطين عقولهن للأشجار الأقل، وللمروج في ضوء الشمس الساطع فيما وراء سفوح الغابات، ورأين برقوق السياج في الأجمة، والتفاح البري والكرز يزهر في الربيع، والأعشاب الخضراء في أرض المياه (ووترلاند) في الصيف، والحشائش المنبتة في حقول الخريف. إنهن لم يرغبن في الحديث مع هذه الأشياء؛ ولكنهن تمنين أن يسمعن ويطعن ما كان يقال لهن. لقد أمرتهم الزوجات الإنتيات بأن ينموا طبقًا لرغباتهن، ويحملوا الأوراق والثمار حسبما يحببن؛ لأن الزوجات الإنتيات كن يرغبن في النظام، والكثرة، والسلام (وكن يعنين به أن

الأشياء ينبغي أن تظل في المكان الذي وضعت فيه). ولذلك فإن الزوجات الإنتيات صنعن حدائق للعيش فيها. ولكن نحن الإنتيين واصلنا تجوالنا، ولم نأت إلى الحدائق إلا من وقت لآخر. عندئذ، وعندما أتى الظلام في الشمال، عبرت الزوجات الإنتيات النهر العظيم، وصنعن حدائق جديدة، وحرثن حقولاً جديدة، وصارت رؤيتنا لهن أكثر ندرة. وبعد أن تم التغلب على الظلام، فإن أرض الزوجات الإنتيات أزهرت بثراء، وكانت حقولهن مليئة بالحبوب. وتعلم الكثير من الرجال حرف الزوجات الإنتيات وراحوا يجلونهن إجلالاً عظيماً؛ ولكننا لم نكن سوى أسطورة بالنسبة لهم؛ سر في قلب الغابة. ولكننا لا نزال هنا، في حين أن كل حدائق الزوجات الإنتيات خربت ودمرت؛ يطلق البشر عليها الآن «الأراضي البنية».

«وإنني أتذكر أن ذلك كان منذ زمن طويل مضى ـ في وقت الحرب بين ساورون ورجال البحر ـ استولت الرغبة عليّ لأرى فيمبرثيل مرة أخرى. كانت لا تزال جميلة جداً في عيني، عندما كنتُ قد رأيتها آخر مرة، على الرغم من أنها كانت تشبه قليلاً العذراء الإنتية في الماضي. ونظراً لأن الزوجات الإنتيات كن منحنيات وسمراوات من عملهن؛ فإن شعرهن كان مجففاً بفعل الشمس ليأخذ لون الذرة الناضجة وكانت خدودهن مثل التفاح الأحمر. ولكن أعينهن كانت لا تزال أعين شعبنا. وعبرنا أندوين وجئنا إلى أرضهن؛ ولكننا وجدنا صحراء! لقد احترقت جميعها واستؤصلت من الجذور؛ لأن الحرب مرت عليها. ولكن الزوجات الإنتيات لم يكن هناك. ونادينا طويلاً، وبحثنا طويلاً؛ وسألنا الجميع ممن قابلناهم عن الطريق الذي مضت فيه الزوجات الإنتيات. البعض قال إنهم لم يروهن أبداً؛ والبعض الآخر قال إنهم رأوهن يمشين بعيداً نحو الغرب، وقال بعض آخر نحو الشرق، وقال آخرون نحو الجنوب. ولكننا لم نستطع العثور عليهن في أي مكان ذهبنا إليه؛ لذا كان حزننا عظيماً. ولكن الغابة البرية نادت، وعدنا إليها. لقد اعتدنا الخروج على مدى سنين، من آن لآخر، باحثين عن الزوجات الإنتيات، ورحنا نمشي بعيداً وفي كل اتجاه ونتادي عليهن بأسمائهن الجميلة. ولكن مع مرور الوقت أصبح ذهابنا أكثر ندرة ورحنا نتجول لمسافات أقل. والآن ليست الزوجات الإنتيات سوى ذكرى بالنسبة لنا، ولحانا طويلة ورمادية. وصاغ الجن أغاني كثيرة تتصل بـ «بحث الإنتيين»، ومر بعض من الأغاني إلى ألسنة البشر. ولكننا لم نؤلف أي أغنيات عن ذلك، حيث رضينا بأن نغني أسماءهن الجميلة عندما نفكر في الزوجات الإنتيات. إننا نعتقد أننا قد نلتقي مرة أخرى في وقت من الأوقات في المستقبل، وربما نجد في مكان ما أرضاً يمكننا أن نعيش فيها معاً ونكون كلنا راضين مسرورين. ولكنْ هناك تنبؤ أن هذا لن يكون إلا عندما نكون قد فقدنا نحن الاثنين كل ما نملكه الآن. وقد يكون من المتوقع جداً أن هذا الوقت يقترب أخيراً؛ لأنه

لو أن ساوروْن القديم قد دمر الحدائق، فإن العدو اليوم يبدو من المحتمل أنه سيشل كل الغابات.

«كانت هناك أغنية تحدثت عن هذا، أو على الأقل هذا ما فهمته أنا. كانت تُغني صعودًا وهبوطًا في النهر العظيم. إنها لم تكن أغنية إنتية أبدًا، لاحظا ذلك؛ فلقد كانت أغنية طويلة جدًا باللغة الإنتية! ولكننا نحفظها عن ظهر قلب، وندندن بها من آن إلى آخر. وها هي كلماتها في لغتكم:

إنتي: *عندما يفتح الربيع ورقة الزان، ويكون النسغ في الغصن؛*
عندما يكون الضوء في جدول الغابة البرية، وتكون الريح على حافة المنحدر؛
عندما تكون الخطوة الواسعة طويلة، والنفس عميقًا، وشديدًا هواء الجبال،
ارجعي إلي! ارجعي إلي، وقولي أرضي جميلة!

زوجة إنتية: *عندما يأتي الربيع للحقل والحديقة، ويكون الحَب في النصل؛*
عندما يكون الزهر موضوعًا في البستان مثل ثلج ساطع؛
عندما يملأ وابل المطر، والشمس فوق الأرض، بالشذا الهواء،
سوف أبقى هنا، ولن آتي، لأنها جميلة أرضي.

إنتي: *عندما يرقد الصيف فوق العالم؛ وفي ظهر من الذهب*
تحت سقف الأوراق النائمة تتكشف أحلام الشجر؛
عندما تكون أبهاء الغابة خضراء باردة، وتكون الريح في الجنوب،
ارجعي إلي! ارجعي إلي، وقولي أرضي الأفضل!

زوجة إنتية: *عندما يدفئ الصيف الفاكهة المتدلية ويسفع التوت بنيًا؛*
عندما يكون القش ذهبيًا، والأذن بيضاء، ويأتي المحصول إلى المدينة؛
عندما ينسكب العسل، والتفاح ينتفخ، رغم أن الريح في الغرب،
سوف أبقى هنا تحت الشمس؛ لأن أرضي الأفضل!

إنتي: *عندما يأتي الشتاء يكون جامحًا حتى إنه سيذبح التل والغابة؛*
عندما تسقط الأشجار والليل عديم النجوم يلتهم النهار عديم الشمس؛
عندما تكون الريح في الشرق المميت، عندئذ في المطر القارص

سوف أبحث عنك، وأناديك؛ سوف آتي إليك ثانيةً!

زوجة إنتية: *عندما يأتي الشتاء، وينتهي الغناء؛ عندما تسقط الظلمة أخيرًا؛*
عندما ينكسر الغصن غير المثمر، ويمضي الضوء والعمل؛
سوف أبحث عنك، وأنتظرك، حتى نلتقي مجددًا:
معًا سوف نأخذ الطريق تحت المطر القارص!

الاثنان: *معًا سوف نأخذ الطريق الذي يؤدي إلى الغرب،*
وبعيدًا سوف نجد أرضًا حيث يمكن لقلبينا كليهما أن يستريحا».

وأنهى بريبيرد أغنيته، وقال: «هذه هي الكلمات. إنها بلغة الجن، بالطبع: جذلة، سريعة الإيقاع، وتنتهي سريعًا. يمكنني القول إنها جميلة بما فيه الكفاية. ولكن الإنتيين يمكنهم القول أكثر من ذلك من جانبهم، إذا توافر لهم الوقت! ولكن الآن سوف أقف وأنال قسطًا من النوم. أين ستقفان؟».

فقال ميري: «نحن عادة نرقد لننام. سوف يكون كل شيء على ما يرام في المكان الذي نحن فيه».

وقال له تريبيرد: «ترقدون لتناموا. لماذا بالطبع تفعلون! همم، هووم: كنتُ قد نسيتُ؛ إن غنائي لهذه الأغنية وضع في عقلي الأزمنة الماضية؛ فقد فكرتُ تقريبًا أنني كنتُ أتحدث مع صغار الإنتيين، نعم فكرت في ذلك. حسنًا، يمكنكما أن ترقدا في الفراش. سوف أقف في المطر. تصبحان على خير!».

وصعد ميري وبيبين إلى السرير والتفا في الحشائش الغضة والسرخس. كان الجو نقيًا، وحلو الرائحة، ودافئًا. وخفتت الأضواء، وتلاشى وهج الأشجار؛ ولكن بالخارج أسفل القنطرة كانا يريان تريبيرد العجوز واقفًا دون حركة، وذراعاه مرفوعتان فوق رأسه. وبزغت النجوم اللامعة من السماء، وتقاطرت، تقاطرت، في مئات من قطرات فضية على قدميه. وراح الهوبيتيان ينصتان إلى صوت قطرات المطر المتساقطة حتى راحا في النوم.

واستيقظا ليجدا شمسًا باردة ساطعة في البهو العظيم، وعلى أرض الخليج. كانت فوق رءوسهم مزق من سحابة عالية، تجري مع ريح شرقية قاسية. لم يكونوا يرون تريبيرد؛ ولكن بينما كان ميري وبيبين يستحمان في الحوض بجوار القنطرة، سمعاه يدندن ويغني، وهو يأتي صاعدًا الطريق بين الأشجار.

وقال بصوت مدو عندما رآهما: «هوو، هو! صباح الخير، يا ميري وبيبين! أنتما تنامان طويلاً. لقد سرتُ مئات كثيرة من الخطوات الواسعة اليوم بالفعل. والآن سوف نتناول شرابًا، ونذهب إلى إنتمووت».

وصب لهما ملء سلطانيتين من وعاء حجري؛ ولكن من وعاء مختلف. لم يكن المذاق هو نفسه مثلما كان في الليلة الماضية: ولعله كان، إذا جاز لنا القول، أكثر ثراء، وأكثر تغذية، وأكثر شبهًا بالطعام. وبينما كان الهوبيتيان يشربان، وهما يجلسان على حافة الفراش، ويضمان قطعًا صغيرة من كعك الجن (وذلك لأنهما شعرا أن الأكل كان جزءًا ضروريًا من الإفطار أكثر من أنهما كانا يشعران بالجوع)، وقف تريبيرد، يدندن باللغة الإنتية أو لغة الجن أو لسان غريب آخر، وينظر لأعلى إلى السماء.

وتجرأ بيبين وسأل: «أين إنتموت؟».

فقال له تريبيرد، وهو يلتفت ناحيته: «هوو، ماذا؟ إنتموت؟ إنها ليست مكانًا، إنها مجموعة من الإنتيين ـ الأمر الذي لا يحدث غالبًا هذه الأيام. ولكني نجحت في جعل عدد كبير يعد بالمجيء. سوف نلتقي في المكان الذي كنا نلتقي فيه دائمًا، درنديجل ـ كما يسميه البشر. إنه طريق إلى الجنوب من هنا. يجب أن نكون هناك قبل الظهيرة».

وقبل أن يمضي وقت طويل بدءوا رحلتهم. حمل تريبيرد الهوبيتيين على ذراعيه كما فعل في اليوم السابق تمامًا عند مدخل البهو دار يمينًا، وخطا فوق الجدول، وسار بخطى واسعة بعيدًا باتجاه الجنوب عبر سفوح المنحدرات العظيمة المتساقطة حيث كانت الأشجار نادرة. ورأى الهوبيتيان فوقهما أجمات من شجر القضبان وشجر السمن، ووراءهما أشجار الصنوبر المظلمة الصاعدة. وسريعًا دار تريبيرد قليلاً بعيدًا عن التلال واندفع سريعًا إلى أيكة عميقة، حيث كانت الأشجار أكبر حجمًا، وأكثر طولاً، وأكثر كثافة من أي مكان رآه الهوبيتيان من قبل على الإطلاق. ولبعض الوقت أحسا إحساسًا ضعيفًا بالاختناق الذي كانا قد لاحظاه عندما دخلا لأول مرة في فانجورن، ولكنه راح سريعًا. لم يتحدث تريبيرد معهما. راح يدندن مع نفسه في عمق واستغراق، ولكن ميري وبيبين لم يتبينا أي كلمات صحيحة: كانت الكلمات مثل ـ بووم، بووم، رومبووم بوورار، بووم بووم، ياترار بووم بوون، داهرار بووم، وغيرها مع تغيير مستمر في النغمة والإيقاع. ومن وقت إلى آخر كانا يعتقدان أنهما سمعا إجابة، همهمة أو ارتعاش صوت، كان يبدو أنه يأتي خارجًا من الأرض أو من الأغصان فوق رءوسهم، أو ربما من الجذوع والأشجار؛ ولكن تريبيرد لم يتوقف أو يدر رأسه إلى أي اتجاه.

لقد ساروا وقتًا طويلاً ـ كان بيبين يحاول أن يحصي «الخطوات الإنتية» ولكنه فشل في ذلك، حيث ضاع العدد منه عند رقم ثلاثمائة ـ عندما بدأ تريبيرد يقلل سرعته. وتوقف فجأة، وأنزل الهوبيتيين، ورفع يديه المعقوفتين إلى فمه بحيث صنعتا أنبوبًا أجوف؛ عندئذ نفخ أو نادى من خلالهما. ودوى صوت عظيم ـ هووم، هوم ـ مثل بوق صادر من

حلق عميق جدًا في الغابة، وبدا أنه يرجع الصدى من الأشجار. وعلى البعد هنالك جاء من اتجاهات عديدة صوت مشابه هُووم، هوم لم يكن صدى ولكنه كان إجابة.

ووضع تريبيرد الآن كلاً من ميري وبيبين على كتفيه وراح يسير بخطى واسعة مرة أخرى، وكان يرسل من وقت إلى آخر نداء ببوق آخر، وكانت الإجابات في كل مرة تأتي أعلى صوتًا وأكثر قربًا. بهذه الطريقة، وصلوا أخيرًا إلى ما كان يشبه جدارًا لا يمكن اختراقه من الأشجار المظلمة دائمة الخضرة، أشجار من نوع لم يره الهوبيتيان من قبل قط، وتفرعت من الجذور مباشرة، وكانت مغطاة بكثافة بأوراق مظلمة صقيلة مثل البهشية عديمة الأشواك، وكانت تحمل الكثير من عناقيد الزهور المستقيمة المتصلبة وبها براعم كبيرة لامعة زيتونية اللون.

ولما دار تريبيرد إلى اليسار ليلف حول هذا السياج، فإنه وصل في خطوات واسعة قليلة إلى مدخل ضيق. ومن خلال هذا المدخل مر طريق مطروق غاص فجأة إلى أسفل منحدر شديد الانحدار. ورأى الهوبيتيان أنهما كانا ينزلان إلى واد عظيم، مستدير مثل سلطانية تقريبًا، واسع جدًا وعميق، متوج عند الحافة بالسياج العالي المظلم دائم الخضرة. كان أملس ومكسوًا بالحشائش من الداخل، ولم تكن هناك أي أشجار باستثناء ثلاث أشجار طويلة جدًا وجميلة من شجر القضبان الفضي كانت تقف عند قاع السلطانية. وكان هناك ممران آخران يقودان لأسفل الوادي؛ من الغرب ومن الشرق.

كان قد وصل عدة إنتيين بالفعل. كان المزيد قادمين من الطرق الأخرى، وكان البعض الآن يتبعون تريبيرد. وبينما كانوا يقتربون، راح الهوبيتيان يحدقان فيهما. لقد توقعا أن يريا عددًا من المخلوقات كبيرة الشبه بتريبيرد مثل شبه الهوبيتي بهوبيتي آخر (على أية حال بالنسبة للعين الغريبة)؛ وكانوا مندهشين كثيرًا لعدم رؤيتهم أي شيء من هذا القبيل. كان الإنتيون مختلفين عن بعضهم البعض مثل اختلاف الأشجار عن بعضها البعض؛ كان البعض مختلفًا مثل اختلاف شجرة عن شجرة أخرى لها نفس الاسم ولكن نموها وتاريخها مختلفان تمام الاختلاف؛ وكان البعض مختلفًا مثل اختلاف نوع من الأشجار من نوع آخر، مثل اختلاف شجر القضبان عن شجر الزان، واختلاف شجر البلوط عن شجر التنوب. كان هناك عدد قليل من إنتيين كبار السن، لهم لحى وعقد كثيرة وكلها صحيحة بيد أنها أشجار قديمة (على الرغم من أنه لم يبد أي منها قديمًا مثل تريبيرد)؛ وكان هناك إنتيون طوال أقوياء، لهم أطراف نظيفة وبشرة ملساء مثل أشجار الغابة في ريعان شبابها؛ ولكن لم يكن هناك أي أنتيين صغار السن، لم تكن هناك أي شجيرات صغيرة. وعلى وجه الإجمال، كان هناك حوالي دستتين يقفون على أرض الوادي المعشوشبة الواسعة، وكان عدد كبير أكثر منهم يمشون داخلين الوادي.

في البداية، أصيب ميري وبيبين بالذهول بشكل أساسي من التنوع والاختلاف

الذي رأوه في الأشكال الكثيرة والألوان، الاختلافات في الحجم، والطول، وطول الرجل والذراع؛ وفي عدد أصابع القدمين وأصابع اليدين (عدد يتراوح من ثلاثة إلى تسعة). بدا عدد قليل منها شبيهًا، من قريب أو بعيد، بتريبيرد، وكان يذكرهما بأشجار الزان أو البلوط. ولكن كانت هناك أنواع أخرى. كان بعضها يذكرهم بالكستناء: إنتيون بشرتهم بنية ولهم أيد مسحاء، وأرجل قصيرة ثخينة. وكان بعضهم - يشبه شجرة الدردار - طوالاً مستقيمين، لونهم رمادي، لهم أيد كثيرة الأصابع وأرجل طويلة؛ وكان بعضهم يشبه شجر التنوب (الإنتيون الأكثر طولاً)، وآخرون كانوا يذكرونهما بشجر القضبان، وشجرة السمن، والزيزفون. ولكن الإنتيين تجمعوا جميعهم حول تريبيرد، وهم يحنون رءوسهم قليلاً، ويدندنون بأصواتهم الموسيقية البطيئة، وينظرون طويلاً وبتدقيق إلى الغرباء، عندئذ رأى الهوبيتيان أنهم كانوا جميعًا من نفس العشيرة، ولهم جميعًا نفس الأعين: ليست كلها عجوزًا جدًا أو عميقة جدًا مثل عيني تريبيرد، ولكن كلها كان لها نفس التعبير البطيء، الثابت، المستغرق في التفكير، ولها نفس الوميض الأخضر.

وبمجرد أن تجمعت المجموعة كلها، ووقفوا في دائرة واسعة حول تريبيرد، بدأ حوار غريب وغير مفهوم. بدأ الإنتيون يهمهمون ببطء؛ انضم للحوار واحد ثم آخر، حتى أصبحوا كلهم يغنون معًا في إيقاع صاعد وهابط، أكثر ارتفاعًا في جانب من الحلقة آنًا، وفي آن آخر يخفت هناك ويصعد إلى دوي عظيم في الجانب الآخر. على الرغم من أن بيبين لم يستطع أن يلتقط أو يفهم أي كلمة من هذه الكلمات - حيث افترض أن اللغات كانت اللغة الإنتية - إلا أنه وجد الصوت لطيفًا جدًا للإنصات إليه في بداية الأمر؛ ولكن تدريجيًا تحول انتباهه. بعد وقت طويل (ولم يظهر الغناء أي علامات على التراخي) وجد نفسه يتساءل - حيث إن اللغة الإنتية كانت لغة «غير متعجلة» - ما إذا كانوا قد وصلوا إلى أكثر من «صباح الخير»؛ وما إذا كان تريبيرد سينادي على الأسماء، ما عدد الأيام التي سيستغرقها غناء أسمائهم كلها. وفكر بينه وبين نفسه: «إنني أتساءل ما تساويه «نعم» أو «لا» في اللغة الإنتية». وتثاءب.

وعلى الفور أدرك تريبيرد وجوده، فقال، في حين توقف جميع الإنتيين الآخرين عن الغناء: «همم، ها، هاي، عزيزي بيبين! إنكم قوم متعجلون، كنتُ قد نسيتُ ذلك؛ وعلى أية حال من المرهق الإنصات إلى حديث لا تفهمه. يمكنك أن تنزل الآن. لقد أخبرتُ أسماءكم لجماعة الإنتمووت، وقد رأوكم، وقد اتفقوا على أنكم لستم أوركيين، وأن سطرًا جديدًا سيوضع في القوائم القديمة. ولم نصل إلى ما وراء ذلك بعد، ولكن هذا عمل سريع بالنسبة لجماعة إنتمووت. يمكنك أنت وميري أن تتمشيا في الوادي، إذا كنتما ترغبان في ذلك. هناك بئر من ماء جيد، إذا كنتما تحتاجان إلى الانتعاش،

بعيدًا هناك عند الضفة الشمالية. لا تزال هناك بعض الكلمات لنتحدث بها قبل أن يبدأ الموت حقًا. سوف آتي وأراكما مرة أخرى، وأخبرّكما كيف تسير الأمور».

وأنزل الهوبيتيين. وقبل أن يمشيا بعيدًا انحنيا واطئًا. هذا الصنيع بدا أنه يسر الإنتيين كثيرًا جدًا، وذلك حكمًا من خلال نغمة همهماتهم، ووميض أعينهم؛ ولكن في الحال عادوا إلى شأنهم. وصعد ميري وبيبين الطريق الذي كان يأتي من الغرب، ونظرا خلال الفرجة الموجودة في السياج العظيم. ارتفعت منحدرات طويلة مكسوة بالأشجار من حافة الوادي، وبعيدًا فيما وراء هذه المنحدرات، فوق أشجار التنوب للحافة البعيدة ارتفعت هنالك، حادة وبيضاء، قمة جبل عال. وباتجاه الجنوب إلى اليسار، كانا يريان الغابة تغيب بعيدًا في المسافات الرمادية. وهناك على البعد كان يأتي وهج شاحب أخضر خمن ميري أنه لمحة من سهول روهان.

وقال بيبين: «إنني لأعجب أين تكون آيزنجارد؟».

فرد عليه ميري بقوله: «إنني لا أدري تمامًا أين نحن، ولكن هذه القمة يحتمل أنها قمة ميثيدراس، وحسبما أستطيع أن أتذكر فإن حلقة آيزنجارد تقع في شعب أو جرف عميق عند نهاية الجبال. من المحتمل أنها لأسفل وراء هذه الحافة العظيمة. يبدو أن هناك دخانًا أو ضبابًا رقيقًا، على يسار القمة، ألا تعتقد ذلك؟».

فقال بيبين: «وكيف تبدو آيزنجارد؟ إنني لأتعجب مما يمكن أن يفعله الإنتيون بشأنها!».

وقال ميري: «وأنا كذلك. آيزنجارد تشبه حلقة من صخور أو تلال، في رأيي، مع مساحة مسطحة في الداخل وجزيرة أو عمود من صخر في الوسط، يسمى أورثانك. هناك برج لسارومان فيها. وهناك بوابة، وربما أكثر من بوابة في الجدار الذي يحيط بها في صورة دائرة، وأعتقد أن هناك نبعا ما يجري فيها؛ إنه يخرج من الجبال، ويسير متدفقًا عبر فجوة روهان. إنه لا يبدو هو ذلك النوع من الأماكن التي يرتادها الإنتيون. ولكنْ لدي شعور غريب بشأن هؤلاء الإنتيين، على أية حال فإنني لا أظن أنهم آمنون و... حسنًا... ظرفاء، مثلما يبدون. إنهم يبدون وبهم بطء وغرابة وصبر، وحزن تقريبًا؛ ومع ذلك فإنني أعتقد أنه يمكن إثارتهم وإنهاضهم. وإذا حدث ذلك، فإنني أفضل ألا أكون في الجانب الآخر».

وقال بيبين: «نعم! أعرف ما ترمي إليه. قد يكون هناك كل الاختلافات بين بقرة عجوز جالسة وتمضغ طعامها في استغراق، وبين ثور هائج يهاجم؛ وقد يحدث التغيير فجأة. وإنني لأتمنى أن أعرف إن كان رييبرد سوف يوقظهم ويثيرهم. إنني واثق من أنه يقصد المحاولة. ولكنهم لا يحبون أن يوقظهم أو يثيرهم أحد. لقد أوقظ تريبيرد نفسه ليلة أمس، ولكنه عندئذ كبح نفسه مرة أخرى».

والتفت الهوبيتيان للوراء. كانت أصوات الإنتيين لا تزال تصعد وتهبط في اجتماعهم السري. وكانت الشمس وقتها قد ارتفعت عالياً بشكل كاف لتظل على السياج العالي، وتوهج فوق قمم شجر القضبان وأضاءت الجانب الشمالي من الوادي بضوء أصفر بارد. وهناك رأيا نافورة صغيرة متوهجة. ومشيا عبر حافة السلطانية العظيمة عند سفوح أغصان الأشجار دائمة الخضرة ـ كان لطيفاً الشعور بالعشب البارد حول أصابع أقدامهم مرة أخرى، وألا يكونوا في عجلة من أمرهم، وعندئذ تسلقا هابطين إلى المياه المتدفقة. وشربا جرعة قليلة ونظيفة وباردة وجميلة، وجلسا على صخر مكسو بالطحلب، يشاهدان بقع الشمس على العشب وظلال السحب المبحرة تمر عابرة فوق الوادي. واستمرت همهمة الإنتيين. كان المكان يبدو غريباً ونائياً للغاية، خارج عالمهم، وبعيداً عن كل شيء يكون قد سبق أن حدث لهم. انتابهم شوق غريب لوجوه وأصوات رفاقهم، وعلى وجه الخصوص فرودو وسام، ولستر‌ايدرا.

وأخيراً جاءت وقفة في أصوات الإنتيين؛ ولما نظرا لأعلى وجدا تريبيرد قادماً نحوهما، ومعه إنتي آخر بجانبه.

وقال تريبيرد: «همم، هووم، هأنذا مرة أخرى. هل تعبتما، أو تشعران بالضجر ونفاد الصبر، هممم، ماذا؟ حسناً، أخشى ألا تكونا قد ضجرتما أو نفد صبركما بعد. لقد أنهينا المرحلة الأولى الآن؛ ولكن يجب على أن أشرح الأشياء مرة أخرى لأولئك الذين يعيشون على بعد مسافة كبيرة، بعيداً عن آيزنجارد، وأولئك الذين لم أستطع التحدث معهم قبل المووت (الاجتماع)، وبعد ذلك سوف يكون لزاماً علينا أن نقرر ما يجب أن نفعله. ومع ذلك فإن اتخاذ قرار بشأن ما ينبغي فعله لا يستغرق كثيراً من الإنتيين مثل المرور بجميع الوقائع والأحداث التي يتحتم عليهم اتخاذ قرار بشأنها. ومع ذلك، ليس هناك فائدة من الإنكار، فسوف نكون هناك لمدة طويلة من الوقت، مع ذلك، لمدة يومين فيما يحتمل. ولذلك فقد أحضرت لكم رفيقاً. إن لديه منزلاً إنتياً بالقرب من هنا. اسمه الجني برجلاد. يقول إنه قد اتخذ قراره بالفعل ولا يحتاج إلى البقاء في الاجتماع. همم، همم، إنه أقرب شيء بيننا إلى الإنتي المتعجل. ينبغي عليكما الاتفاق معاً. إلى اللقاء!» واستدار تريبيرد وتركهم.

وقف برجلاد لبعض الوقت يتفحص الهوبيتيين في وقار؛ ونظرا هما كذلك إليه، يتساءلان متى ستظهر عليه أي علامات على «العجلة». كان طويلاً، وكان يبدو أنه واحد من الإنتيين صغار السن؛ كانت بشرة ذراعيه ورجليه ملساء لامعة؛ كانت شفتاه ضاربتين إلى الحمرة، وكان شعره أخضر مائلاً للرمادي. كان يمكنه أن ينحني وأن يهتز مثل شجرة نحيلة في مهب الريح. وأخيراً تكلم، وعلى الرغم من أن صوته كان رناناً فإنه كان أعلى وأوضح من صوت تريبيرد، وراح يقول:

«ها، همم، أصدقائي، هيا بنا نتمشى! أنا برجلاد، وهي تعني في لغتكم كويك بيم (الشعاع السريع) ولكنه ليس سوى كُنية بالطبع. لقد كانوا يتادونني بهذا الاسم منذ أن قلت (نعم) لإنتي عجوز قبل أن أنهي سؤاله. كما إنني أشرب سريعًا، وأخرج بينما لايزال البعض يبللون لحاهم. تعالا معي!».

ومد ذراعين حادتين وأعطى يدًا ذات أصابع طويلة لكل واحد من الهوبيتيين. وظلوا يمشون طوال هذا اليوم ويتجولون، في الغابة معه، وهو يغني ويضحك؛ لأن كويك بيم كان كثير الضحك. كان يضحك إذا خرجت الشمس من وراء سحابة، كان يضحك إذا مروا بنبع ماء أو جدول، وعندئذ كان ينحني وينضح قدميه ورأسه بالماء؛ كان يضحك أحيانًا على صوت أو همس ما في الأشجار. وكلما رأى شجر سمن كان يتوقف لحظة وذراعاه مفتوحتان، ويغني ويهتز وهو يغني.

ومع حلول الليل أحضرهما إلى منزله الإنتي: لم يكن شيئًا أكثر من صخر مكسو بالطحلب موضوع فوق مروج تحت الضفة الخضراء. كانت أشجار السمن نامية في دائرة حوله، وكانت هناك مياه (تمامًا كما هي الحال في كل منازل الإنتيين)، نبع ماء يبقبق خارجًا من الضفة. وتحدثوا بعض الوقت بينما كان الظلام يحل بالغابة. وعلى مسافة غير بعيدة، كانت أصوات الإنتموت تُسمع والاجتماع لايزال متواصلاً؛ ولكن الآن كانت تبدو أكثر عمقًا وأقل تمهلاً، وكان من وقت لآخر يرتفع صوت عظيم في موسيقىً عالية ومتسارعة، في حين كانت الأصوات الأخرى تخمد وتتلاشى. ولكن بجانبهم كان برجلاد يتحدث في رفق بلغتهم، كان حديثه همسًا تقريبًا؛ وقد علما أنه ينتمي إلى شعب سكينبار، وقد دُمر البلد الذي كانوا يعيشون فيه. وقد بدا ذلك كافيًا تمامًا ليشرح «عجلته» للهوبيتيين، على الأقل فيما يتصل بمسألة الأوركيين.

وقال برجلاد، في صوت منخفض وفي حزن: «كانت هناك أشجار السمن في بلادي، أشجار السمن التي امتدت جذورها عندما كنتُ طفلاً إنتيًا، منذ ستين طويلة جدًا في هدوء العالم. وقد زرع الإنتيون أقدم هذه الأشجار ليحاولوا إرضاء الزوجات الإنتيات؛ ولكنهم نظروا إليهم وابتسموا وقالوا إنهم يعلمون أين تنمو البراعم الأكثر بياضًا والفاكهة الأكثر غنى. ولكن ليس هناك أي شجر من كل ذلك الجنس، شعب الورود، والتي هي جميلة؛ غاية في الجمال بالنسبة لي. وكبرت هذه الأشجار وكبرت، حتى صار ظل كل شجرة منها مثل بهو أخضر، وكانت ثمارها؛ ثمار التوت الحمراء، في الخريف حملانًا، وجمالاً عجيبة. كانت الطيور تتجمع هناك. إنني أحب الطيور، حتى عندما تزقزق؛ وشجر السمن به الكثير والكثير. ولكن الطيور أصبحت معادية وجشعة وراحت تمزق الأشجار، وتلقي بالثمار على الأرض ولا تأكلها. عندئذ جاء

الأوركيون بألفنوس وقطعوا أشجاري. وجئتُ ورحتُ أناديهم بأسمائهم الطويلة، ولكنها لم ترتعش، إنها لم تسمعني أو تجبني، كانت ترقد ميتة.

يا أوروفارني، لاسميستا، كارنيمسيري!
يا شجرة السمن الجميلة، فوق شعرك كم هو أبيض الزهر يرقد!
يا شجرتي شجر السمن، رأيتك تتألقين في يوم الصيف،
ولحاؤك لامع جداً، وأوراقك مضيئة، وصوتك بارد وناعم:
وفوق رأسك كما كان أحمر ذهبيًا التاج الذي تحملينه عاليًا!
يا شجرة السمن الميتة، فوق رأسك شعرك جاف وأشيب؛
تاجك أريق، وصوتك لا يزال للأبد.
يا أوروفارني، لاسميستا، كارنيمسيري!

وراح الهوبيتيان في النوم على صوت غناء برجلاد الرقيق الذي كان يبدو أنه يرثي بلغات كثيرة سقوط الأشجار التي كان يحبها.

وأمضوا اليوم التالي أيضًا في صحبته، ولكنهم لم يذهبوا بعيدًا عن «منزله». جلسوا معظم الوقت صامتين تحت ظل الضفة؛ لأن الريح كانت باردة، وكانت السحب أكثر قربًا وكآبة؛ كانت الشمس ساطعة قليلاً، على بعد مسافة كانت أصوات الإنتيين في اجتماعهم لا تزال تعلو وتهبط، أحيانًا عالية وقوية، وأحيانًا منخفضة وحزينة، وأحيانًا أخرى متسارعة، وأحيانًا بطيئة ورزينة مثل ترنيمة جنائزية. وجاءت ليلة ثانية ولا يزال اجتماع الإنتيين منعقدًا تحت السحب المتسارعة والنجوم التي تظهر على فترات متقطعة.

وانبلج اليوم الثالث، كئيبًا وعاصفًا. مع شروق الشمس، ارتفعت أصوات الإنتيين إلى صخب عظيم، بعد ذلك خمدت مرة أخرى. ومع انقضاء الصباح، هدأت الريح وأصبح الهواء محملاً بالتوقعات. استطاع الهوبيتيان أن يريا أن برجلاد كان عندئذ ينصت في انتباه، على الرغم من أن صوت الاجتماع كان ضعيفًا بالنسبة لهم في أسفل وادي المنزل الإنتي.

وجاءت فترة ما بعد الظهيرة، وأرسلت الشمس، وهي تذهب غربًا باتجاه الجبال، أشعة صفراء طويلة بين شروخ وشقوق السحب. وفجأة أدركا أن كل شيء أصبح هادئًا للغاية؛ وقفت الغابة بأسرها تنصت في صمت. وبالطبع، لقد توقفت الأصوات الإنتية. ماذا كان يعني ذلك؟ كان برجلاد يقف منتصبًا ومتوترًا، ينظر للوراء باتجاه الشمال في اتجاه درنديتجل.

عندئذ ومع ارتطام شديد جاءت صرخة عظيمة مدوية: را ـ هُـووم ـ راه! وارتعشت الأشجار وانحنت كما لو كانت قد أصابتها هبّة ريح قوية. وجاءت وقفة أخرى، وبعد ذلك بدأت موسيقى زحف مثل الطبول الكئيبة، وفوق الدويّ والقرع جاءت أصوات تغني بصوت عال وقوي.

نحن نأتي، نأتي مع قرع الطبول: تا ـ روندا روندا
روندا رُوم!

كان الإنتيون قادمين: وكانوا يقتربون طوال الوقت وارتفعت أغنيتهم أكثر وأكثر:

نحن نأتي، نأتي مع قرع الطبول: تا ـ روندا روندا
روندا رُوم!

وأخذ برجلاد الهوبيتيين وراح يمشي بخطى واسعة من منزله.

قبل أن يمضي وقت طويل، رأوا صفًّا زاحفًا يقترب: كان الإنتيون يترنحون في سيرهم بخطوات واسعة عظيمة هابطين عبر المنحدر باتجاههم. كان في مقدمتهم تريبيرد، وكان وراءه نحو خمسين تابعًا، اثنين اثنين جنبًا إلى جنب، يحافظون على الخطوات بأقدامهم وينقرون حاسبين الوقت بأيديهم فوق أجنابهم. وبينما كانوا يقتربون، كان بالإمكان رؤية وميض ووهج أعينهم.

وصاح تريبيرد عندما وقعت عيناه على برجلاد والهوبيتيين: «هووم، هوم! ها نحن نأتي بدوي، ها نحن نأتي أخيرًا! تعالوا، لتنضموا إلى الحشد! إننا منطلقون. إننا منطلقون إلى آيزنجارد!».

وصاح الإنتيون في أصوات كثيرة: «إلى آيزنجارد!».

«إلى آيزنجارد!».

إلى آيزنجارد! على الرغم من أن آيزنجارد قد تكون محاطة ومسدودة بأبواب من حجارة؛
مهما تكن آيزنجارد قوية وصعبة، باردة مثل الصخر وعارية مثل العظام،
إننا ذاهبون، ذاهبون، ذاهبون إلى الحرب، لنقطع الصخر ونكسر الباب؛
لأن الجذع والغصن يحترقان الآن، المحرقة تئز ـ نذهب إلى الحرب!

إلى أرض الكآبة في رحلة الهلاك، مع قرع الطبول، نأتي، نأتي؛
إلى آيزنجارد بالهلاك نأتي!
بالهلاك نأتي، بالهلاك نأتي!

وهكذا راحوا يغنون وهم يمشون باتجاه الجنوب.

برجلاد، وعيناه تسطعان، دخل في الصف إلى جوار تريبيرد. وأخذ الإنتي العجوز الهوبيتيين مرة أخرى، ووضعهما على كتفيه مرة أخرى، وهكذا راحوا يسيرون محمولين في فخر في مقدمة المجموعة المغنية بقلوب خافقة ورءوس مرتفعة عالياً. على الرغم من أنهما كانا قد توقعا حدوث شيء في نهاية الأمر، فإنهما كانا مندهشين للتغيير الذي حدث للإنتيين. كان يبدو الآن مفاجئاً مثل اندلاع الفيضان الذي كان يحجزه لفترة طويلة سد عظيم.

«لقد اتخذ الإنتيون قرارهم بسرعة نوعًا ما، مع كل ذلك، أليس كذلك؟». هكذا تجرأ بيبين على القول بعد بعض الوقت، عندما توقف الغناء لحظة من الزمن، ولم يكن يُسمع سوى قرع الأيدي والأقدام.

وقال تريبيرد: «سريعاً؟ هُووم! نعم، حقًّا. أسرع مما كنتُ أتوقع. حقًّا إنني لم أرهم يستيقظون على هذا النحو لعدة أجيال كثيرة. نحن الإنتيين لا نحب الاستيقاظ؛ ولا يوقظنا أحد أبدًا ما لم يكن واضحًا بالنسبة لنا أن أشجارنا وحياتنا في خطر عظيم. ولم يحدث ذلك في هذه الغابة منذ حروب ساورون وبشر البحر. إنه عمل الأوركيين، قطع الأشجار الجائر - راروم - بدون حتى ذلك العذر السيئ المتمثل في تغذية النيران، الأمر الذي أغضبنا غضباً شديداً؛ وخيانة الجار الذي كان ينبغي أن يساعدنا. ينبغي أن يعرف السحرة أفضل من ذلك: إنهم يعرفون أفضل من ذلك. ليست هناك أي لعنة أو سب في اللغة الجنية أو اللغة الإنتية أو لغات البشر يعادل سوء تلك الخيانة. إلى الجحيم مع سارومان!».

وسأل ميري: «هل ستكسرون حقًّا أبواب آيزنجارد؟».

«هُو، همم، حسنْا، يمكننا ذلك، أنت تعلم ذلك! أنت لا تعلم، ربما، مدى قوتنا. ربما تكون قد سمعت عن الغيلان؟ إنهم أقوياء إلى حد بعيد. ولكن الغيلان ليسوا سوى مخلوقات مزيفة، صنعها العدو في الظلمة العظيمة، في تقليد زائف للإنتيين، تماماً كما كان الأوركيون يحاكون الجن. إننا أقوى من الغيلان. إننا مصنوعون من عظام الأرض. إننا نستطيع أن نشق الصخر مثل جذور الأشجار، ولكننا أسرع، أسرع بكثير، إذا أوقظت عقولنا! إذا لم نُقطع، أو نُدَمَّر بالنيران أو نفخة السحر والشعوذة، إننا نستطيع أن نشطر آيزنجارد إلى شظايا ونشق جدرانها إلى أنقاض مكسرة».

«ولكن سارومان سيحاول إيقافكم، أليس كذلك؟».

«همم، آه، نعم، هكذا الأمر. إنني لم أنس ذلك. حقًا، لقد فكرتُ كثيرًا في هذا. ولكن، كما ترى، الكثيرون من الإنتيين أصغر مني سنًا، بمقدار أعمار عديدة من أعمار الأشجار. كلهم قد أوقظوا الآن، وعقلهم مركز بأكمله في شيء واحد: كسر آيزنجارد. ولكنهم سيبدءون التفكير مرة أخرى قبل أن يمضي وقت طويل؛ سوف يهدءون قليلاً، عندما نأخذ شراب المساء. كم سنكون عطشى عندئذ! ولكن دعهم الآن يمشون ويغنون! أمامنا طريق طويل علينا أن نقطعه، وهناك وقت طويل أمامنا للتفكير. إن كوننا قد بدأنا يمثل شيئًا كبيرًا».

وواصل تريبيرد سيره، وهو يغني مع الآخرين بعض الوقت. ولكن بعد وقت، خمد صوته حتى أصبح مجرد همهمة ولزم الصمت مرة أخرى. استطاع بيبين أن يرى أن حاجبه العجوز قد تغضن وتعقد. وأخيرًا نظر لأعلى، ورأى بيبين نظرة حزينة في عينيه، حزينة ولكنها ليست غير سعيدة. كان هناك ضوء فيهما، كما لو كان الشعار الأخضر قد غاص عميقًا في آبار فكره العميقة.

وقال ببطء: «بالطبع، إنه من المحتمل بشكل كاف يا أصدقائي، من المحتمل بشكل كاف أننا ذاهبون إلى حتفنا: آخر مسيرة للإنتيين. ولكننا إذا بقينا في ديارنا، ولم نفعل شيئًا، فإن حتفنا وقدرنا سيجدنا على أية حال، عاجلاً أو آجلاً. لقد كان هذا الفكر يتنامى ويتزايد في قلوبنا لفترة طويلة؛ وهذا هو السبب الذي جعلنا نسير الآن. إنه لم يكن قرارًا متعجلاً. الآن على الأقل آخر مسيرة للإنتيين قد تستحق أغنية. نعم»، وتنهد، وواصل كلامه ـ «قد نساعد الشعوب الأخرى قبل أن نموت. ومع ذلك، كنتُ أود أن تتحقق الأغنيات عن الزوجات الإنتيات. كنتُ أتمنى كثيرًا أن أرى فيمبرثيل مرة أخرى، ولكن في هذه الأمور، يا أصدقائي، فإن الأغنيات مثل الأشجار لا تحمل الثمار إلا في أوقاتها وبطريقتها الخاصة؛ وأحيانًا فإنها تذبل في غير أوانها».

وراح الإنتيون يسيرون بخطى واسعة وبسرعة عظيمة. لقد هبطوا طية طويلة من الأرض كانت تنزل بهم بعيدًا باتجاه الجنوب؛ والآن بدءوا يصعدون ويصعدون إلى الحافة الغربية العالية. وتباعدت الأشجار وجاءوا إلى مجموعات متناثرة من شجر القضبان، وبعد ذلك وصلوا إلى منحدرات جرداء شديدة الانحدار حيث لم يكن فيها سوى قليل من أشجار الصنوبر الهزيلة. وغابت الشمس وراء خلفية التل المظلمة أمامهم. وساد غسق رمادي.

ونظر بيبين للوراء. لقد زاد عدد الإنتيين ـ أو ماذا كان يحدث؟ أين ينبغي أن تقع المنحدرات الجرداء المظلمة التي كانوا قد عبروها، ظن أنه رأى أيكات من الأشجار.

ولكنها كانت تتحرك! هل يمكن أن تكون أشجار فانجورن قد استيقظت، وكانت الغابة تنهض وتستيقظ، وتسير فوق التلال إلى الحرب؟ وفرك عينيه وهو يتعجب إذا كان النوم والظل قد خدعاه؛ ولكن الأشكال الرمادية العظيمة كانت تتحرك للأمام باطراد. كانت هناك ضوضاء مثل الريح في فروع كثيرة. كان الإنتيون يقتربون من قمة سلسلة التلال الآن، وتوقف كل الغناء. وحل الليل، وساد صمت: لم يكن هناك أي شيء يسمع سوى ارتعاشة ضعيفة للأرض تحت أقدام الإنتيين، وحفيف، ظل يهمس، كما لو كان يصدر عن كثير من الأوراق المتراكمة. وأخيرًا وقفوا فوق قمة، ونظروا لأسفل حفرة مظلمة: الجرف العظيم في نهاية الجبال: نان كورونير، وادي سارومان.

وقال تريبيرد: «الليل يغطي آيزنجارد».

الفصل الخامس
الخيـــال الأبيـــض

«لقد تجمدت عظامي كلها» ـ قال ذلك جيملي، وهو يحرك ذراعيه بقوة ويضرب الأرض بقدميه. وجاء النهار أخيرًا. عند الفجر صنع الرفاق طعام إفطار قدر استطاعتهم؛ والآن في الضوء المتزايد كانوا يستعدون للبحث في الأرض مرة أخرى عن علامات على الهوبيتيين.

وقال جيملي: «ولا تنسوا ذلك الرجل العجوز! إنني سأكون أكثر سعادة إذا أنا رأيتُ أثر حذاء».

فقال ليجولاس: «لماذا سيجعلك ذلك سعيدًا؟».

فرد عليه القزم بقوله: «لأن رجلاً عجوزًا بقدمين تتركان علامات على الأرض قد لا يكون أكثر مما يبدو».

وقال الجني: «ربما، ولكن حذاء ثقيلاً ربما لا يخلف أي أثر هنا، العشب عميق ولين رطب».

وقال جيملي: «هذا لن يعيق جوالاً. إن سيفًا معقوفًا يكون كافيًا لأراجورن ليقرأه. ولكني لا أتوقع أنه سيجد الآثار. لقد كان شبحًا شريرًا لساروماﻥ الذي رأيناه الليلة الماضية. إنني واثق من ذلك، حتى تحت ضوء الصباح. إن عينيه تطلان علينا من فانجورن حتى ونحن الآن، فيما يحتمل».

ورد أراجورن بقوله: «من المحتمل أن ذلك يكفي، ولكني لستُ واثقًا. إنني أفكر في الخيل. لقد قلتَ ليلة أمس يا جيملي إنهم قد فروا مذعورين. ولكني لا أعتقد ذلك. هل سمعتهم يا ليجولاس؟ هل يبدون لك في رعبهم مثل الحيوانات؟».

فرد عليه ليجولاس بقوله: «كلا. لقد سمعتهم بوضوح. ولكن من جراء الظلمة وما كان بنا من خوف، لا بد أنني خمنتُ أنهم كانوا حيوانات صارت جامحة من جراء سعادة مفاجئة. كانوا يتحدثون مثلما تتحدث الخيل عندما تقابل صديقًا كانت تفتقده لفترة طويلة».

فقال أراجورن: «هذا ما فكرتُ فيه، ولكن لا يمكنني أن أحل هذا اللغز، ما لم يعودا. هيا! الضوء يزداد سريعًا. دعونا ننظر أولاً ونخمن فيما بعد! يجب أن نبدأ هنا، بالقرب من أرض مخيمنا، نبحث بدقة وعناية في كل مكان حولنا، ونصعد المنحدر باتجاه الغابة. إن مهمتنا هي أن نجد الهوبيتيين، أيًا ما يكون ما قد نفكر فيه بشأن زوارنا في الليل. إذا كانا قد هربا بمحض المصادفة، فلا بد أنهما قد اختبئا بين الأشجار، وإلا

لكنا قد رأيناهما. إذا لم نجد أي شيء من هنا وإلى حدود الغابة، ففي هذه الحالة سنقوم ببحث أخير في أرض المعركة وبين الرماد. ولكن يوجد القليل من الأمل هناك، فلقد أنجز خيالة روهان عملهم على أكمل وجه».

وراح الرفاق يزحفون، بعض الوقت، ويفتشون في الأرض. كانت الأشجار تقف في حزن فوقهم، وكانت أوراقها الجافة عندئذ تتدلى فوقهم مترنحة، وتخشخش في الريح الشرقية الباردة. وتحرك أراجورن ببطء بعيدًا. وصل إلى رماد نار الحراسة بالقرب من ضفة النهر، وبعد ذلك بدأ يتعقب الأثر على الأرض راجعًا باتجاه الهضبة الصغيرة التي جرت عليها المعركة. وفجأة انحنى، ومال على الأرض حتى إن وجهه كاد يكون في العشب. عندئذ نادى على الآخرين. وأتوا إليه يجرون.

وقال لهم: «هنا أخيرًا نجد أخبارًا!». ورفع ورقة مكسورة لهم ليروها، ورقة كبيرة شاحبة فضية اللون، وكانت وقتها قد بهت لونها وتحولت إلى اللون البني. «هذه ورقة خُبازة من لورين، وها هو بعض الفتات عليها، وقطع فتات أخرى في العشب. وانظروا! هناك بعض قطع من حبل مقطوع يرقد قريبًا من المكان!»

وقال جيملي: «وها هي السكين التي قطعت هذه الحبال!» وانحنى وأخرج سكينًا قصيرًا كما لو كانت من كتلة من العشب كانت قد دفنتها فيها قدم ثقيلة. وكان بجانبها المقبض الذي كانت السكين قد قطعت منها، وقال: «لقد كانت سلاحًا أوركيًا»، وأمسك بها ببالغ الحذر، وهو ينظر في اشمئزاز إلى المقبض المنحوت: لقد شُكل مثل رأس قبيح بعينين حولاوين وفم ماكر خبيث.

وقال ليجولاس متعجبًا: «حسنًا، ها هو أغرب لغز عثرنا عليه حتى الآن! أسير مقيد يهرب من كل من الأوركيين والخيالة المحيطين به. وبعد ذلك يتوقف، بينما لا يزال في العراء، ويقطع الحبال المقيد بها مستخدمًا سكينًا أوركيًا. ولكن كيف ولماذا؟ لأنه لو كانت رجلاه مربوطتين، فكيف مشى؟ وإذا كانت ذراعاه مربوطتين، فكيف استخدم السكين؟ وإذا لم يكن أي منهما مربوطًا فلماذا قطع الأربطة على الإطلاق؟ وسرورًا منه بمهارته، جلس عندئذ وتناول بعضًا من نبات «لسان الحمل»! هذا على الأقل كاف لإظهار أنه كان هوبيتيًا، بدون ورقة الخبازة. وبعد ذلك، فيما افترض، حول ذراعيه إلى جناحين وطار بعيدًا يغني إلى الأشجار. سيكون من السهل العثور عليه؛ إننا فقط سنحتاج إلى أجنحة نحن أنفسنا!».

وقال جيملي: «لقد كان هناك سحر وشعوذة هنا بالقدر الكافي. ماذا كان يفعل هذا الرجل العجوز؟ ماذا لديك ينبغي قوله، يا أراجورن، بالنسبة لقراءة ليجولاس. هل بإمكانك تحسينها والتفوق عليها؟

فرد عليه أراجورن وهو يبتسم قائلاً: «ربما، يمكنني ذلك. هناك علامات أخرى متاحة لم تأخذها بعين الاعتبار. إنني أتفق أن الأسير كانَ هوبيتيًا ولا بد أن رجليه أو يديه كانتا حرتين، قبل أن يأتي إلى هنا. أظن أن يديه هما اللتان كانتا مربوطتين؛ لأن اللغز عندئذ يصبح أيسر، وكذلك لأنه، حسبما أقرأ العلامات، كان محمولاً حتى هذه النقطة، كان يحمله أوركي. لقد أريق دم هناك، على بعد خطوات قليلة، دم أوركي. هناك آثار عميقة لحوافر في كل مكان حول هذه البقعة، وعلامات على أن شيئًا ثقيلاً كان قد تم جره بعيدًا. لقد ذُبح الأوركي على يد الخيالة، وفيما بعد ألقيت جثته في النار. ولكن الهوبيتي لم يُرَ؛ إنه لم يكن «في العراء»؛ لأن الدنيا كانت ليلاً وكان لا يزال معه معطفه الجني. كان مرهقًا وجائعًا، وليس من مجال للعجب من ذلك، عندما قطع أربطته بسكين عدوه الذي سقط في ساحة المعركة، فإنه استراح وأكل قليلاً قبل أن يزحف بعيدًا. ولكن من دواعي الارتياح أن نعرف أنه كان معه بعض الليمباس في جيبه، حتى ولو جرى بعيدًا بدون عتاد أو متاع؛ هذا، فيما يحتمل، شبيه بهوبيتي. إنني أقول [هو[1]]، على الرغم من أنني أتمنى وأظن أن كلاً من ميري وبيبين كانا هنا معًا. ومع ذلك، فليس هناك أي شيء يثبت ذلك على وجه اليقين».

وسأل جيملي قائلاً: «وكيف تفترض أن واحدًا من أصدقائنا كانت يده حرة؟».

وأجاب أراجورن بقوله: «لا أدري كيف حدث ذلك. كما أنني لا أعرف أيضًا لماذا كان أوركي يحملهما بعيدًا! أليساعدهما على الهرب؟ ربما نكون متأكدين من ذلك. كلا، بل إنني أعتقد أنني بدأتُ الآن أفهم مسألة حيرتني منذ البداية؛ لماذا عندما سقط بورومير كان الأوركيون راضين بأسر ميري وبيبين؟ لم يبحثوا عن الباقين منا، ولم يهاجموا المعسكر؛ ولكن بدلاً من ذلك ذهبوا بأقصى سرعة لديهم باتجاه آيزنجارد. هل كانوا يفترضون أنهم قد أسروا حامل الخاتم وصديقه المخلص؟ لا أعتقد ذلك. إن سادتهم لم يكونوا يجرءُون على إعطاء هذه الأوامر الصريحة للأوركيين، حتى لو كانوا يعرفون الكثير جدًا هم أنفسهم؛ لن يتكلموا معهم صراحة عن الخاتم؛ إنهم ليسوا خدامًا جديرين بالثقة. ولكني أعتقد أن الأوركيين قد تلقوا أوامر بأسر الهوبيتيين، أحياء، مهما تكن كلفة ذلك. وقد بُذلت محاولة للهرب بالأسرى الغالين قبل المعركة. الخيانة ربما، من المحتمل بما فيه الكفاية مع هؤلاء القوم؛ ربما كان أوركي ضخم وجريء يحاول الهرب بالغنيمة وحده، لأغراضه هو الخاصة. وهذه هي حكايتي بهذا الخصوص. قد تكون هناك حكايات أخرى قد حكيت. ولكن يمكننا الاعتماد على هذه الرواية على أي حال من الأحوال؛ واحد على الأقل من أصدقائنا هرب. إنها لمهمتنا

(1) الإشارة هنا إلى استخدامه ضمير الغائب المفرد [هـ، هو]] (المترجم)

أن نعثر عليه ونساعده قبل أن نعود إلى روهان. يجب ألا نتلكأ خوفًا من فانجورن، حيث إن الحاجة قد دفعته إلى هذا المكان المظلم».

وقال جيملي: «لا أدري ما الذي يخيفني أكثر؛ فانجورن، أم فكرة الطريق الطويل عبر روهان سيرًا على الأقدام؟».

ورد أراجورن بقوله: «عندئذ هيا بنا نذهب إلى الغابة».

ولم يمض وقت طويل قبل أن يعثر أراجورن على علامات جديدة. عند إحدى النقاط، بالقرب من ضفة إنتووش، عثر على آثار أقدام؛ آثار أقدام هوبيتيين، ولكنها كانت خفيفة جدًا بحيث لا يمكن استنتاج الكثير منها. عندئذ ومرة أخرى تحت جذع شجرة عظيمة على نفس حافة الغابة تم اكتشاف المزيد من آثار الأقدام. كانت الأرض جرداء وجافة، ولم تكشف عن الكثير.

وقال أراجـورن: « على الأقل وقف هوبيتي واحد هنا بعض الوقت ونظر إلى الوراء؛ وبعد ذلك انصرف بعيدًا إلى الغابة».

وقال جيملي: «عندئذ يجب علينا الدخول، أيضًا. ولكني لا أحب منظر هذه الغابة، غابة فانجورن، وقد حُذرنا منها. أتمنى أن لو كانت المطاردة قد انتهت بنا إلى مكان آخر غير ذلك!».

وقال ليجولاس: «لا أعتقد أن الغابة تبدو شريرة، مهما يكن ما تقوله الحكايات». ووقف تحت حدود الغابة، وانحنى للأمام، كما لو كان ينصت، ويحدق بعينين واسعتين في الظلال. «كلا، إنها ليست شريرة؛ أو أن ما فيها من شر بعيد جدًا. إنني لا أسمع سوى أضعف الأصداء للأماكن المظلمة حيث قلوب الأشجار سوداء. ليس هناك أي حقد قريب منا؛ ولكن هناك يقظة، وغضب».

فقال جيملي: «حسنًا، ليس لديها أي سبب لتكون غاضبة مني. إنني لم أفعل لها أي ضرر أو أذى».

فقال ليجولاس: «وذلك عدل أيضًا. ولكن مع ذلك فإنها قد عانت الأذى والضرر. هناك شيء ما يحدث بالداخل، أو سوف يحدث. ألا تشعر بالتوتر؟ إنه يأخذ أنفاسي».

فرد القزم قائلاً: «أشعر أن الهواء فاسد. هذه الغابة أخف من غابة ميركوود، ولكنها عفنة وبالية».

فقال الجني: «إنها عجوز، عجوز جدًا. عجوز جدًا لدرجة أنني أكاد أشعر أنني صغير مرة أخرى، مثلما لم أشعر من قبل منذ أن سرتُ في رحلة مع أولادي. إنها عجوز ومليئة بالذكريات. كنتُ سأكون سعيدًا هنا، لو أنني أتيتُ في أيام السلام».

فرد جيملي في غضب ودهشة: «أظن أنه بإمكانك ذلك. إنك جني من جن الغابة، على

أية حال، على الرغم من أن الجن، من أي نوع، قوم غريبو الأطوار. ولكنك تشجعني. في أي مكان تذهب سوف أذهب. ولكن ليكن قوسك جاهزًا لإطلاقه، وسوف أجعل بلطتي سائبة في حزامي. ليس للاستخدام مع الأشجار»، أضاف ذلك في عجلة، وهو ينظر أعلى إلى الشجرة التي كانوا يقفون تحتها. «إنني لا أريد أن أقابل ذلك الرجل العجوز على حين غرة بدون أن تكون هناك حجة جاهزة، هذا كل ما في الأمر. هيا بنا نذهب!».

وبهذا القول اندفع الصيادون الثلاثة إلى غابة فانجورن. ترك ليجولاس وجيملي تعقب الأثر لأراجورن. كان هناك القليل يمكنه أن يراه. كانت أرض الغابة جافة ومغطاة بوابل من أوراق الشجر؛ ولكن تخمينًا أن الفارين كانوا سيبقون بالقرب من الماء، فإنه كان غالبًا ما يعود إلى ضفاف النهر. وهكذا حدث أن جاء إلى المكان الذي شرب فيه ميري وبيبين وغسلا فيه أرجلهما. وهناك كانت آثار أقدام الهوبيتيين واضحة للجميع بحيث يمكنهم رؤيتها، كان أحدهما أصغر بحال من الأحوال من الآخر.

وقال أراجورن: «هذه أخبار جيدة. ولكن العلامات مضى عليها يومان. ويبدو أنه عند هذه النقطة غادر الهوبيتيان جانب الماء».

فقال جيملي: «إذن ماذا سنفعل الآن؟ لا يمكننا مطاردتهم عبر اتساع غابة فانجورن بأسرها. لقد كادت مواردنا تنضب. إن لم نجدهم سريعًا، فإننا لا تكون مصدر نفع بالنسبة لهم، باستثناء أن نجلس بجوارهم ونظهر لهم صداقتنا بالموت جوعًا معًا».

ورد عليه أراجورن بقوله: «إذا كان هذا حقًا كل ما يمكننا أن نفعله، إذن ينبغي علينا أن نفعل هذا. هيا بنا نواصل المسير».

ووصلوا أخيرًا إلى النهاية المفاجئة شديدة الانحدار لتل تريبيرد، ونظروا أعلى إلى الجدار الصخري بدرجاته الوعرة التي تؤدي إلى الرف الصخري المرتفع. كانت هناك ومضات من الشمس تظهر فجأة عبر السحب المتسارعة، وبدت الغابة عندها أقل كآبة وأكثر وحشة.

وقال ليجولاس: «هيا بنا نصعد وننظر فيما حولنا! لا أزال أشعر أن نفسي مخنوق. إنني أود أن أذوق هواء أكثر حرية بعض الوقت».

وصعد الرفاق. وجاء أراجورن آخرهم، وهو يتحرك ببطء، كان يتفحص الدرجات والأرفف الصخرية بدقة وعن كثب، وقال:

«إنني شبه متأكد أن الهوبيتيين قد صعدا إلى هذا المكان. ولكن هناك علامات أخرى، لا أفهمها. إنني أتمنى أن نرى أي شيء من هذا الرف الصخري سوف يساعدنا في أن نخمن أي طريق سلكاه بعد ذلك؟».

ووقف ونظر حوله، ولكنه لم ير أي شيء له أي قيمة. كان الرف الصخري مواجهًا الشرق والغرب؛ ولكن لم يكن المنظر مفتوحًا إلا في الشرق. هناك كان باستطاعته أن يرى رءوس الأشجار تهبط في صفوف باتجاه السهل الذي كانا قد أتيا منه.

وقال ليجولاس: «لقد سرنا لمسافة طويلة دائريًا. لقد كنا سنصل جميعًا إلى هنا سالمين معًا، لو كنا قد تركنا النهر العظيم في اليوم الثاني أو اليوم الثالث واتجهنا نحو الغرب. قليلون هم أولئك الذين يمكنهم أن يتنبئوا إلى أين سيقودهم الطريق، حتى يصلوا إلى نهايته».

فقال جيملي: «ولكننا لم نكن نرغب في أن نأتي إلى فانجورن».

وقال ليجولاس: «ولكننا ها نحن أولاء ـ وقد وقعنا بشكل لطيف في الشبكة. انظروا!».

فرد جيملي بقوله: «ننظر إلى ماذا؟».

«هناك بين الأشجار».

«أين؟ ليست لي أعين الجن».

فقال ليجولاس وهو يشير: «أنصت! تكلم بصوت أكثر انخفاضًا! انظر! هناك بين الأشجار، إلى الوراء في الطريق الذي جئنا منه لتونا. إنه هو. ألا يمكنك أن تراه، يعبر من شجرة إلى شجرة؟».

فقال جيملي في صوت هامس: «أرى، أرى الآن! انظر، يا أراجـورن! ألم أحذرك؟ ها هو ذا الرجل العجوز مرتديًا خرقًا رمادية قذرة؛ هذا هو السبب الذي جعلني لم أستطع رؤيته منذ البداية».

ونظر أراجورن ورأى شكلاً منحنيًا يتحرك ببطء. لم يكن بعيدًا منهم. كان يبدو مثل رجل شحاذ، يمشي في إعياء، ينحني على عصا خشنة. كان رأسه محنيًا، ولم ينظر باتجاههما. في بلاد أخرى، كانوا سيحيونه بكلمات طيبة؛ ولكنهم الآن وقفوا صامتين، وقد شعر كل منهم بتوقع غريب، شيء ما كان يقترب كان يشكل قوة خفية ـ أو تهديدًا.

وحدق جيملي بعينين واسعتين بعض الوقت، بينما كان الشكل يقترب منهم خطوة خطوة. وعندئذ فجأة، حيث لم يستطع أن يحتوي نفسه أكثر من ذلك، انفجر: «قوسك، يا ليجولاس! اثنه! استعد! إنه سارومان. لا تدعه يتكلم، وإلا فسيضع تعويذة علينا! ارم أولاً!».

وأخذ ليجولاس قوسه، وثناه، وببطء، وكما لو كانت إرادة أخرى تقاومه. وأمسك بسهم بشكل سائب في يده ولكنه لم يضعه في الوتر. ووقف أراجورن صامتًا، كان وجهه مترقبًا ومركزًا.

وقال جيملي في همس له هسيس: «لماذا تنتظر؟ ماذا دهاك؟».

وقال أراجورن في هدوء: «ليجولاس على حق. ربما يجب علينا ألا نرمي رجلاً عجوزًا على هذا النحو، على حين غرة ودون تحدٍ. أيًا كان الخوف أو الشك الذي ينتابنا. راقب وانتظر!».

في تلك اللحظة أسرع الرجل العجوز خطوته وأتى بسرعة مذهلة إلى سفح الجدار الصخري. عندئذ نظر إلى أعلى فجأة، بينما كانوا يقفون دون حركة ينظرون إلى أسفل. لم يكن هناك أي صوت.

لم يكونوا يرون وجهه: كان يلبس غطاء رأس، وكان يرتدي فوق غطاء الرأس قبعة عريضة الحواف، الأمر الذي حجب كل ملامحه، باستثناء طرف أنفه ولحيته الشيباء. بيد أنه بدا لأراجورن أنه رأى وميض عينين حادًا ولامعًا من داخل ظل الحاجبين اللذين كانت تغطيهما قلنسوة الرأس.

وأخيرًا كسر الرجل العجوز الصمت، وقال في صوت منخفض: «لقاء طيب حقًا، يا أصدقائي. أتمنى أن أتحدث معكم. هلا نزلتم، أم أصعد أنا إليكم؟». ودون أن ينتظر أي إجابة بدأ يصعد.

وصاح جيملي: «الآن! أوقفه يا ليجولاس!».

فقال الرجل العجوز: «ألم أقل إنني أتمنى أن أتحدث معكم؟ أبعد هذا القوس، أيها السيد الجني!».

وسقط القوس والسهم من يدي ليجولاس، وتدلى ذراعه إلى جانبه.

«وأنت، أيها السيد القزم، أرجوك أبعد يدك عن مقبض بلطتك، حتى أصعد إليكم! لن تحتاجوا إلى مثل هذه النزاعات».

ووثب جيملي وبعد ذلك وقف ساكنًا مثل حجر، يحدق، بينما قفز الرجل العجوز صاعدًا الدرجات الوعرة في رشاقة مثل الماعز. بدا كل الإعياء والإرهاق وقد تركه. وبينما كان يقفز صاعدًا إلى الرف الصخري كان هناك وميض، قصير للغاية بحيث لم يكن بالإمكان التأكد منه، وهج سريع أبيض، كما لو كان زيًا أبيض تغطيه الخرق الرمادية البالية قد كُشفت للحظة. كان يمكن سماع دخول نفس جيملي حيث كان عاليًا مثل الهسيس في الصمت.

«لقاء طيب، أقول ذلك مرة أخرى!» ـ قال ذلك الرجل العجوز، وهو يأتي باتجاههم. وعندما كان على مسافة أقدام قليلة منهم، توقف، وانحنى فوق عصاه، ورأسه بارز للأمام، يحدق فيهم من تحت قلنسوته وقال: «وما عساكم تفعلون في هذه الأجزاء؟ جني، ورجل من البشر، وقزم، جميعهم مرتدون الزي الجني. ليس هناك

من شك أن هناك قصة تستحق الإنصات إليها وراء ذلك كله. مثل هذه الأشياء لا تُرى هنا غالبًا».

ورد أراجورن قائلاً: «إنك تتحدث كشخص يعرف فانجورن جيدًا. هل الأمر كذلك؟».

فرد عليه الرجل العجوز بقوله: «ليس جيدًا، من شأن هذا أن يكون بمثابة دراسة حيوات كثيرة. ولكني آتي هنا من وقت لآخر».

ورد أراجورن قائلاً: «هل لنا أن نعرف اسمك، وبعد ذلك نسمع ما هو ذلك الذي تريد أن تقوله لنا؟ الصباح يمضي، ولدينا مهمة لن تنتظر».

«أما بالنسبة لما كنتُ أرغب في أن أقوله لكم، فقد قلته: ما عساكم تفعلون هنا، وما الحكاية التي يمكن أن تحكوها عن أنفسكم؟ أما فيما يتصل باسمي!» وانخرط في الضحك طويلاً وبصوت منخفض. أحس أراجورن برعشة تسري عبر جسمه لسماعه الصوت، رعشة غريبة باردة؛ ومع ذلك فلم يكن ذلك الذي أحس به خوفًا أو رعبًا: بل كان مثل قرصة هواء حاد، أو لطمة مطر بارد توقظ نائمًا خائفًا قلقًا.

وقال الرجل العجوز مرة أخرى: «اسمي! ألم تخمنوه بالفعل؟ لقد سمعتموه من قبل، فيما أعتقد. نعم، لقد سمعتموه من قبل. ولكن على رسلكم الآن، ماذا عن حكايتكم؟».

ووقف الثلاثة صامتين ولم يحاروا جوابًا.

وقال الرجل العجوز: «هناك بعض ممن سيبدءون الشك ما إذا كانت مهمتكم مناسبة للإفصاح عنها. من دواعي السعادة أنني أعرف شيئًا عنها. إنكم تتعقبون آثار أقدام اثنين من الهوبيتيين الصغار، فيما أعتقد. نعم، هوبيتيون. لا تحدقوا، كما لو أنكم لم تسمعوا الاسم من قبل. لقد سمعتموه، وكذلك أنا. حسنًا، لقد صعدوا إلى هنا قبل يوم أمس؛ وقابلوا شخصًا ما لم يكونوا يتوقعونه. هل هذا يريحكم؟ والآن تريدون أن تعرفوا إلى أين أخذوا؟ حسنًا، حسنًا، ربما يكون بإمكاني أن أعطيكم بعض الأخبار عن هذا. ولكن لماذا أنتم واقفون؟ مهمتكم، كما ترون، لم تعد ملحة مثلما كنتم تظنون. هيا بنا نجلس لنكون في وضع مريح».

واستدار الرجل العجوز بعيدًا وذهب باتجاه كومة من الصخور والحجارة المتساقطة عند سفح الجرف وراءهم. وعلى الفور، كما لو كانت تعويذة قد أزيلت، استرخى الآخرون وتحركوا. وذهبت يد جيملي في الحال إلى مقبض بلطته. واستل أراجورن سيفه. وأخذ ليجولاس قوسه.

ولم يلحظ الرجل العجوز شيئًا، ولكنه انحنى وجلس هو نفسه على حجر مسطح واطئ. عندئذ انزاح معطفه الرمادي جانبًا، ورأوا، فيما لا يدع مجالاً للشك، أنه كان مرتديًا ثيابًا كلها بيضاء تحت هذا المعطف.

«سارومان!» ـ صاح جيملي، وهو يقفز باتجاهه والبلطة في يده. «تكلم! أخبرنا أين أخفيت أصدقاءنا! ما الذي فعلته بهم؟ تكلم،- وإلا فإنني سوف أحدث بعجة في قبعتك، حتى الساحر سيجد أنه من الصعب التعامل معها!».

وكان الرجل العجوز سريعًا للغاية بالنسبة له. وقفز على قدميه وقفز إلى قمة صخر كبير. ووقف هناك، وفجأة أصبح طويلاً، وارتفع فوقهم. وطارت قلنسوته وخرقه الرمادية البالية بعيدًا. وسطعت ملابسه البيضاء ولمعت. ورفع عصاه، وقفزت بلطة جيملي من قبضته، سقطت ولها رنين على الأرض. أما سيف أراجورن، والذي كان متصلبًا في يده التي شلت عن الحركة، فقد توهج بنار مفاجئة. وصرخ ليجولاس صرخة عظيمة ورمى سهمًا عاليًا في الهواء، وتلاشى السهم في ومضة من لهب.

وصاح: «ميثرانديز! ميثرانديز!»

وقال الرجل العجوز: «لقاء طيب، أقول ذلك لكم مرة أخرى، يا ليجولاس!»

وحدقوا جميعًا فيه. كان شعره أبيض مثل الثلج في الشمس الساطعة، وكان رداؤه يومض بوهج أبيض، وكانت العينان تحت حاجبيه العميقين براقتين، ثاقبتين مثل أشعة الشمس، كانت القوة في يده. بين الدهشة، والفرح، والخوف، وقفوا ولم يجدوا أي كلمات يقولونها.

وأخيرًا تحرك أراجـورن، وقال: «جندلف. فيما وراء كل أمل تعود إلينا في حاجتنا! أي حجاب كان فوق عيني؟ جندلف!» لم يتفوه جيملي بكلمة واحدة، ولكنه خر على ركبتيه، وهو يظلل عينيه بيده.

«جندلف»، كرر الرجل العجوز الكلمة، كما لو كان يسترجع من ذاكرة قديمة كلمة لم تستخدم لوقت طويل. «نعم، كان هذا هو الاسم. كنتُ جندلف».

ونزل من فوق الحجر، وأخذ معطفه الرمادي ولفه حوله، بدا كما لو كانت الشمس تسطع، ولكن الآن اختفت في سحابة مرة أخرى. «نعم، ربما لا يزال بإمكانكم أن تنادوني جندلف»، قال ذلك، وكان الصوت صوت صديقهم ومرشدهم العجوز. «انهض، يا عزيزي جيملي الطيب!» لا تثريب عليك، وليس من ضرر أو أذى لحق بي. حقًا يا أصدقائي، ليس منكم من أحد لديه سلاح يمكن أن يؤذيني. لتسعدوا! إننا نلتقي مرة أخرى. عند هذه النقطة الحرجة حيث تحول التيار. العاصفة العظيمة قادمة، ولكن التيار قد تحول».

ووضع يده على رأس جيملي، ونظر القزم لأعلى وضحك فجأة، وقال: «جندلف. ولكنك أبيض تمامًا!».

فقال جندلف: «نعم، إنني أبيض الآن. حقًا إنني سارومان، قد يقول أحدكم،

سارومان كما كان ينبغي أن يكون. ولكن هيا الآن، أخبروني عن أنفسكم! لقد مررتُ عبر نيران ومياه عميقة، منذ أن افترقنا. لقد نسيتُ الكثير مما كنتُ أظن أنني أعرفه، وتعلمتُ مرة أخرى الكثير مما كنتُ قد نسيته. يمكنني أن أرى أشياء كثيرة بعيدة جدًا، ولكن إشياء كثيرة مما هي قريبة في المتناول لا يمكنني أن أراها. أخبروني عن أنفسكم!».

ورد عليه أراجورن بقوله: «ما الذي تود أن تعرفه؟ كل ذلك الذي حدث منذ أن افترقنا على الجسر من شأنه أن يكون حكاية طويلة. هلا أعطيتنا أولاً أخبارًا عن الهوبيتيين؟ هل وجدتهما، وهل هما آمنان؟».

فقال جندلف: «كلا، إنني لم أجدهما. كانت هناك ظلمة على وديان إمين مويل، ولم أعرف عن أسرهم، حتى أخبرني بذلك النسر».

فقال ليجولاس: «النسر! لقد رأيتُ نسرًا يطير عاليًا وبعيدًا، آخر مرة كانت منذ ثلاثة أيام مضت، فوق إمين مويل».

ورد جندلف بقوله: «نعم، كان هذا جوايهير سيد الريح، الذي أنقذني من أورثانك. لقد أرسلته قبلي ليراقب النهر ويجمع الأخبار. حيث إن نظره ثاقب، ولكنه لا يستطيع أن يرى كل ما يمر أسفل التل والشجر. بعض الأشياء قد رآها، وأشياء أخرى رأيتها أنا بنفسي. لقد مر الخاتم الآن فيما وراء مساعدتي، أو مساعدة أي فرد من الصحبة التي خرجت مع بعضها من ريفينديل. تقريبًا جدًا قد كُشف أمرها للعدو، ولكنها هربت. كان لي دور معين في ذلك؛ لأنني جلستُ في مكان عال، وناضلت مع برج الظلام؛ ومر الظل. عندئذ كنتُ مرهقًا، مرهقًا للغاية؛ ومشيتُ طويلاً في الأفكار المظلمة».

وقال جيملي: «إذن فأنت تعرف شيئًا عن فرودو! كيف تسير الأمور معه؟».

«لا يمكنني القول. لقد أُنقذ من خطر عظيم، ولكن الكثير من الأخطار لا تزال تترصده في طريقه. لقد قرر الذهاب إلى موردور، وبدأ رحلته؛ هذا كل ما يمكنني أن أقوله».

فقال ليجولاس: «ليس وحده. نعتقد أن سام ذهب معه».

«هل ذهب معه!»، قال ذلك جندلف، وكان في عينيه وميض وابتسامة على وجهه، «هل ذهب معه حقًا؟ إنها أخبار جديدة وجيدة بالنسبة لي، ولكنها مع ذلك لم تدهشني. جيد! جيد جدًا! إنك تبهج قلبي. لابد أن تخبرني بالمزيد. والآن اجلس إلى جواري وأخبرني بقصة رحلتكم».

وجلس الرفاق على الأرض عند قدميه، وبدأ أراجورن يقص الحكاية له. لم يتفوه جندلف بكلمة لفترة طويلة، ولم يسأل أي أسئلة. كانت يداه مبسوطتين فوق ركبتيه، وكانت عيناه مغلقتين. وأخيرًا تحدث أراجورن عن موت بورومير وعن رحلته الأخيرة على النهر العظيم، وتنهد الرجل العجوز.

وقال في هدوء: «إنك لم تقل كل ما تعرفه أو تخمنه، يا أراجـورن يا صديقي. بورومير المسكين! لا يمكنني أن أتصور ما حدث له. لقد كانت محنة محزنة بالنسبة لذلك الرجل؛ محارب، وسيد من سادة البشر. أخبرتني جلدريل أنه كان في خطر. ولكنه هرب في النهاية. إنني سعيد بذلك. لم يكن دون فائدة أن جاء الهوبيتيون الصغار معًا، لو لم يكن من أجل بورومير. ولكن ليس هذا هو الجزء الوحيد الذي كان عليهم أن يؤدوه. لقد جيء بهم إلى فانجورن، وكان مجيئهم مثل سقوط حجارة صغيرة عندما يبدأ انهيار كتلة صخرية في الجبال. حتى ونحن نتحدث هنا، فإنني أسمع القعقعات الأولى. كان من الأفضل ألا يتم الإمساك بسارومان بعيدًا عن موطنه عندما انفجر السد!».

وقال أراجـورن: «يا صديقي العزيز، هناك شيء معين لم تتغير فيه؛ لا تزال تتحدث بالألغاز».

فقال جندلف: «ماذا؟ بالألغاز؟ كلا! لأنني كنتُ أتحدث بصوت عال مع نفسي. عادة قديمة من عاداتي؛ إنهم يختارون أكثر الأشخاص الموجودين حكمة للحديث معه؛ التفسيرات الطويلة التي كان الصغار يحتاجون إليها مرهقة ومملة». وضحك، ولكن الصوت الآن بدا دافئًا وعطوفًا مثل وميض سطوع الشمس.

وقال أراجون: «إنني لم أعد صغيرًا حتى في حساب بشر المنازل القديمة. ألن تفتح عقلك بشكل أكثر وضوحًا لي؟».

«ماذا عساي أن أقوله إذن؟». ـ قال ذلك جندلف، وتوقف لحظة مفكرًا. «هذا باختصار كيف أرى الأشياء في الوقت الحاضر، إذا كنتَ ترغب في معرفة شيء من أفكاري واضح قدر الإمكان. العدو، بالطبع، قد عرف منذ وقت طويل أن الخاتم بالخارج، وأن هوبيتيا يحمله. وهو يعرف الآن عدد رفقتنا التي خرجت من ريفينديل في رحلتها، ونوع كل منا. ولكنه لم يدرك بعد غرضنا بوضوح. إنه يفترض أننا كنا جميعًا ذاهبين إلى ميناس تيريث؛ لأن ذلك هو ما كان سيفعله هو نفسه لو كان في مكاننا. وطبقًا لحكمته، فإن ذلك سيكون ضربة ثقيلة ضد قوته. حقًا إنه في خوف عظيم؛ حيث لا يعرف مدى ما يمكن أن يظهر عليه الواحد من عظمة وقوة فجأة، صنع الخاتم، والهجوم عليه بالحرب، والسعي إلى الإطاحة به وأخذ مكانه. إن كوننا سنطيح به ولا نضع أي أحد آخر مكانه، ليس فكرة يمكن أن تخطر بباله أو يفكر فيه. إننا سندمر الخاتم نفسه فإن هذا شيء لم يدخل حتى أكثر الأحلام سوادًا. ليس هناك من شك في أنك سترى حظنا الجيد وأملنا الجيد. من أجل تصور الحرب، فإنه قد أطلق الحرب، اعتقادًا منه أنه ليس أمامه وقت ليضيعه؛ لأن ذلك الذي يضرب الضربة الأولى، إن هو ضربها بقوة كافية، فقد لا يحتاج إلى أن يضرب أكثر منها. ولذلك فإن القوات التي كان يقوم على تجهيزها لزمن طويل قد بدأت الحركة الآن، أسرع مما كان ينوي.

أحمق ذكي. حيث إنه لو استخدم كل وقته لحراسة موردور، حتى لا يكون بإمكان أحد أن يدخلها، وركز كل مكره في مطاردة الخاتم، لتلاشى عندئذ الأمل حقًا، لم يكن لا للخاتم ولا لحامل الخاتم أن يروغا منه طويلاً. ولكن الآن عينه تحدق بعيدًا فضلاً عن كونها تحدق قريبًا إلى دياره؛ وهو ينظر في الغالب باتجاه ميناس تيريث. سريعًا جدًا الآن ستقع قوته عليها مثل العاصفة.

«وذلك لأنه يعرف بالفعل أن الرسل الذين أرسلهم ليكمنوا لصحبة الخاتم قد فشلوا مرة أخرى. إنهم لم يعثروا على الخاتم. كما أنهم لم يحضروا أي هوبيتيين كأسرى. إنهم لو كانوا قد فعلوا حتى أي شيء من هذا القبيل، لكان ذلك ضربة شديدة وثقيلة لنا، وربما كانت ضربة قاضية. ولكن دعونا لا نوقع الكآبة في قلوبنا بتصور محاولة ولائهم المعتدل لبرج الظلام؛ وذلك لأن العدو قد أخفق - حتى الآن - وذلك بفضل سارومان».

وتحدث جيملي قائلاً: «إذن سارومان ليس خائنًا؟».

فقال جندلف: «كلاً في واقع الأمر. على نحو مؤكد. أليس هذا غريبًا؟ ليس هناك من شيء مما تحملناه أخيرًا كان يبدو موجعًا وخطيرًا مثل خيانة آيزنجارد. حتى إذا عُد سيدًا وقائدًا، فإن سارومان قد أصبح قويًا. إنه يهدد بشر روهان ويجتذب مساعدتهم من ميناس تيريث، حتى الضربة الأساسية كانت تأتي مقتربة من الشرق. ولكن السلاح الخطير يشكل خطرًا دائمًا على اليد. وسارومان أيضًا يفكر في الاستيلاء على الخاتم، لنفسه، أو على الأقل ليوقع ببعض الهوبيتيين لأغراضه الشريرة؛ ولذلك فإن أعداءنا فيما بينهم قد خططوا ليحضروا ميري وبيبين بسرعة مذهلة، وفي اللحظة الحاسمة، إلى فانجورن، حيث لم يكونوا ليأتوا إلى هناك على الإطلاق لولا ذلك!

«وكذلك لقد ملئوا أنفسهم بشكوك جديدة تؤثر سلبًا على خططهم. لن تصل أي أخبار عن المعركة إلى موردور، وذلك بفضل خيالة روهان.. لكن سيد الظلام يعرف أن هوبيتيين قد أخذا في إمين مويل وحملا بعيدًا باتجاه آيزنجارد ضد رغبة خدامه أنفسهم. والآن لديه آيزنجارد يخشاها بالإضافة إلى ميناس تيريث. إذا سقطت ميناس تيريث، فإن الأمر لن يكون طيبًا مع سارومان».

وقال جيملي: «إنه لمن دواعي الأسى أن أصدقاءنا يقعون بينهما. وإذا لم تكن هناك أي أرض تفصل آيزنجارد وموردور، فعندئذ يمكن أن يحاربا بينما نحن نراقب وننتظر».

وقال جندلف: «وسوف يخرج المنتصر أكثر قوة من الآخر، ومتحررًا من أي شك. ولكن آيزنجارد لا يمكن أن تحارب موردور، ما لم يحصل سارومان على الخاتم أولاً. وهذا ما لن يُفعل مطلقًا الآن. إنه لا يعرف بعد الخطر الذي يحدق به.

هناك الكثير مما لا يعرفه. كان تواقًا للغاية لأن يضع يديه على فريسته، لدرجة أنه لم يستطع البقاء في دياره، وخرج ليقابل رسله ويتجسس عليهم. ولكنه جاء متأخرًا أكثر من اللازم، هذه المرة فقط، وكانت المعركة قد انتهت وخارج نطاق مساعدته قبل أن يصل إلى هذه الأجزاء. ولم يظل هنا كثيرًا. إنني أنظر في عقله وأرى ما فيه من شك. ليست لديه أية براعة في أعمال الغابات. إنه يظن أن الخيالة ذبحوا وحرقوا كل شيء في ساحة المعركة، لكنه لا يعرف ما إذا كان الأوركيون يجلبون معهم أي أسرى أم لا، ولا يعلم شيئًا عن الشجار الذي دار بين خدامه وأوركيي موردور، كما أنه لا يعرف شيئًا عن الرسول المجنح».

وصاح ليجولاس: «الرسول المجنح! لقد رميته بسهم بقوس جلدريل فوق سارن جبير، وصرعته من السماء. لقد ملأنا جميعًا بالخوف. أي رعب جديد هذا؟».

ورد جندلف قائلاً: «إنه رسول لا يمكن أن تذبحه بالسهام. كل ما فعلته أنك ذبحت جواده. لقد كان عملاً جيدًا، لكن الخيال سرعان ما حصل على حصان؛ لأنه كان نازجول؛ واحدًا من التسعة الذين يسيرون الآن على جياد مجنحة. وسريعًا سوف يتفوق رعبه على الجيوش الأخيرة لأصدقائنا، حاجبًا الشمس. ولكن لم يسمح لهم بعد بعبور النهر، ولا يعلم سارومان شيئًا عن هذا الشكل الجديد الذي أُلبس أطياف الخاتم فيه. إنه تفكير على الدوام منصبٌ على الخاتم. هل كان موجودًا في المعركة؟ هل تم العثور عليه؟ ماذا لو أن ثيودين، سيد مارك، تصادف وعثر عليه وعلم بقوته؟ هذا هو الخطر الذي يراه، وقد فر عائدًا إلى آيزنجارد ليضاعف هجومه على روهان ضعفين وثلاثة أضعاف. وطوال الوقت هناك خطر آخر، قريب، يوشك أن يقع، لا يراه هو؛ حيث إنه مشغول بأفكاره النارية. لقد نسي تريبيرد».

وقال أراجورن مبتسمًا: «والآن تتحدث إلى نفسك مرة أخرى. تريبيرد غير معروف لي. وقد خمنتُ جزءًا من خيانة سارومان المزدوجة، لكنني لا أرى بأي طريقة قد كان مجيء اثنين من الهوبيتيين إلى فانجورن مفيدًا، إلا أن يعطينا مطاردات طويلة وغير مجدية».

وصاح جيملي قائلاً: «انتظر دقيقة! هناك شيء آخر أود أن أعرفه أولاً. هل كنت أنت يا جندلف أم سارومان الذي رأيناه ليلة أمس؟».

وأجابه جندلف قائلاً: «بكل تأكيد لم ترني أنا؛ ولذلك فإنني أظن أنك رأيت سارومان. من الواضح أننا نبدو متشابهين جدًا لدرجة أنه يجب مسامحتك على رغبتك في أن تحدث بعجة غير قابلة للشفاء في قبعتي».

وقال جيملي: «جيد، جيد! إنني سعيد أنه لم يكن أنت».

وضحك جندلف مرة أخرى، وقال: «نعم، يا قزمي الطيب، إنه لمن دواعي

الارتياح ألا تكونَ مخطئًا في جميع الأمور. ألستُ أعرف ذلك جيدًا جدًّا إلى أبعد حد! ولكن، بالطبع، إنني لم أَلُمك قط على طريقة استقبالك لي وترحيبك بي. كيف لي أن أفعل ذلك، أنا الذي كثيرًا ما استشرت أصدقائي لأشك حتى في أيديهم هم عند التعامل مع العدو. يرحمك الله، يا جيملي، يا ابن جولين! لعلك ترانا نحن الاثنين معًا في يوم ما وتحكم بيننا!».

وتدخل ليجولاس في الحوار قائلاً: «ولكنَّ الهوبيتيين! لقد جئنا مسافة طويلة بحثًا عنهما، ويبدو أنك تعلم أين هما. أين هما الآن؟».

ورد عليه جندلف بقوله: «مع تريبيرد والإنتيين».

وقال أراجورن متعجبًا: «الإنتيون! إذن هناك حقيقة في الأساطير القديمة عن السكان في الغابات العميقة ورعاة الأشجار العمالقة! ألا يزال هناك إنتيون في العالم؟ كنتُ أظن أنهم كانوا فقط ذكرى لأيام قديمة ماضية؛ إذ كان في واقع الأمر أكثر من أسطورة من أساطير روهان على الإطلاق».

وصاح ليجولاس قائلاً: «أسطورة من أساطير روهان! كلا، فكل جني في أرض التيه غنى أغنية عن أولدريم القديمة وحزنهم الطويل، ولكن حتى بيننا، فهم فقط ذكرى. إذا كان لي أن أقابل واحدًا لا يزال يمشي في هذا العالم، سينتابني شعور عندئذ في واقع الأمر بأنني صغير مرة أخرى! ولكن تريبيرد: هذه ليست سوى ترجمة لفانجورن إلى اللغة الدارجة، ولكن يبدو أنك تتحدث عن شخص، فمن هو ذلك التريبيرد؟».

فقال جندلف: «آه! بأنني إنك تسأل كثيرًا الآن، والقليل الذي أعرفه عن قصته المملة الطويلة ليس لدينا وقت لسرده الآن. تريبيرد هو فانجورن؛ حارس الغابة؛ إنه أكبر الإنتيين سنًّا، أكبر كائن حي لا يزال يمشي تحت الشمس على الأرض الوسطى. أتمنى حقًّا، يا ليجولاس، أنك قد تقابله مع ذلك. لقد كان ميري وبيبين محظوظين: لقد قابلاه هناك، بل وحتى في المكان الذي نجلس فيه؛ لأنه أتى إلى هنا منذ يومين وحملهما بعيدًا إلى مسكنه بعيدًا عند جذور الجبال. إنه يأتي هنا غالبًا، وعلى وجه الخصوص عندما يكون عقله مشغولاً، وتقلقه شائعات العالم الخارجي. رأيته منذ أربعة أيام يمشي بخطى واسعة بين الأشجار، وأعتقد أنه رآني، لأنه توقف، لكنني لم أتكلم؛ لأنني كنتُ مثقلاً بالفكر، ومتعبًا ومرهقًا بعد نضالي مع عين موردور، ولم يتكلم هو أيضًا، كما لم يناد اسمي».

ورد جيملي قائلاً: «ربما ظن هو أيضًا أنك كنت سارومان، ولكنك تتحدث عنه كما لو كان صديقًا.. كنتُ أظن فانجورن خطيرًا.

فصاح جندلف: «خطير! وأنا كذلك، خطير جدًّا؛ أكثر خطرًا من أي شيء ممكن أن تقابله على الإطلاق، ما لم تُحضَر حيًّا أمام مقعد سيد الظلام. وأراجورن خطير،

وليجولاس خطير. إنك مكتنَف بالأخطار، يا جيملي ابن جولين؛ لأنك أنت نفسك خطير، على طريقتك. بكل تأكيد غابة فانجورن خطيرة ـ وليست أقل خطرًا بالنسبة لأولئك الذين هم مستعدون إلى أبعد الحدود ببلطاتهم وفانجورن نفسه؛ إنه خطير أيضًا.. لكنه حكيم وعطوف مع ذلك. ولكن حنقه البطيء الطويل الآن فاض وطفح، والغابة جميعها امتلأت به. قدوم الهوبيتيين والأخبار التي جلبوها معهم قد جعلته يتدفق، وسريعًا في القريب سوف يجري مثل فيضان؛ لكن تياره موجه نحو سارومان وبلطات آيزنجارد. شيء على وشك الحدوث لم يحدث منذ الأيام الأولى، سوف يستيقظ الإنتيون ويجدون أنفسهم أقوياء».

وسأل ليجولاس في ذهول: «ماذا سيفعلون؟».

ورد عليه جندلف قائلاً: «لا أعرف. لا أظن أنهم هم أنفسهم يعرفون. لكم أتمنى أن أعرف». ولزم الصمت، وحنى رأسه وهو مستغرق في التفكير.

ونظر الآخرون إليه. وسقطت ومضة من شمس عبر سحب طائرة على يديه، اللتين كانتا مقلوبتين على حجره، كانتا تبدوان مفعمتين بالضوء مثل كأس مملوءة بالماء. وأخيرًا نظر لأعلى وحدق إلى الشمس مباشرة، وقال:

«الصباح ينقضي.. ينبغي علينا أن نذهب في الحال».

فسأل أراجورن: «هل سنذهب لنجد أصدقاءنا ونرى تريبيرد؟».

فرد عليه جندلف بقوله: «كلا. ليس هذا هو الطريق الذي يجب أن تسلكوه. لقد تحدثت بكلمات فيها أمل. تحدثت فقط عن الأمل. الأمل ليس نصرًا. الحرب تدهمنا وكل أصدقائنا، الحرب لا يمكن أن يمنحنا فيها ضمانة النصر سوى استخدام الخاتم فقط. الأمر يملؤني بحزن عظيم وخوف كبير؛ لأن الكثير سوف يدمر وربما يضيع كل شيء. أنا جندلف، جندلف الأبيض، ولكن الأسود لا يزال أكثر قوة».

ونهض وحدق بالخارج في اتجاه الشرق، وهو يظلل عينيه بيده، كما لو كان قد رأى أشياء بعيدة لا يمكن لأي منهم أن يراها. وبعد ذلك هز رأسه، وقال بصوت خفيض: «كلا، لقد ذهب فيما وراء متناولنا وما هو بوسعنا. دعونا نكن سعداء بذلك على الأقل. لم يعد بالإمكان إغراؤنا باستخدام الخاتم. يجب علينا أن ننزل لنواجه خطرًا قريبًا من اليأس، ولكن ذلك الخطر المميت قد أُزيل».

واستدار قائلاً: «هيا يا أراجورن بن أراثورن! لا تندم على اختيارك في وادي إمين مويل، ولا تقل عنه إنه مسعى عديم الجدوى. لقد اخترتَ بين الشكوك الطريق الذي بدا أنه صحيح: كان الاختيار صائبًا، وقد كوفئ؛ لأننا من أجل ذلك التقينا في الوقت المناسب، نحن أولئك الذين لولا ذلك لكنا قد التقينا بعد فوات الأوان. ولكن مهمة رفاقك قد انتهت. رحلتك التالية محددة بالكلمة التي أعطيتها. يجب أن تذهب إلى

إدوراس وتبحث عن ثيودين في بهوه؛ لأن هناك حاجة إليك. لا بد أن يُكشف الآن ضوء أندوريل في معركة طال انتظارها كثيرًا جدًّا. هناك حرب في روهان، وشر أسوأ من ذلك: الأمور سيئة مع ثيودين».

فقال ليجولاس: «إذن، هل محتم علينا ألا نرى الهوبيتيين الصغيرين مرة أخرى؟».

فرد عليه جندلف قائلاً: «أنا لم أقل ذلك. من يدري؟ تحلَّ بالصبر. لتذهب إلى حيث يتحتم عليك، وليكن لديك أمل! إلى إدوراس! إنني أذهب إلى هناك أيضًا».

وقال أراجورن: «إنه لطريق طويل ليمشيه أي رجل، صغيرًا كان أم كبيرًا. أخشى أن تنتهي المعركة قبل أن أصل إلى هناك بكثير».

فقال له جندلف: «سوف نرى، سوف نرى. هل ستأتي الآن معي؟».

فأجابه أراجورن بقوله: «نعم، سوف نبدأ الرحلة معًا. ولكنني لا أشك أنك ستصل إلى هناك قبلي، إذا كنت تريد ذلك». ونهض ونظر طويلاً إلى جندلف. وحدق الآخران إليهما في صمت وهما واقفان في مكانهما في مواجهة كل منهما الآخر. الشكل الرمادي للإنسان، أراجورن بن أراثورن، كان طويلاً، وقاسيًا مثل الصخر، ويده على مقبض سيفه؛ كان يبدو كما لو أن ملكًا من خارج سُدُم البحر قفز على شطآن أناس أقل منه شأنًا. وكان منحنيًا أمامه الشكل العجوز، أبيض، يسطع وقتئذ كما لو كان هناك ضوء يتوهج داخله، منحن، محمل بالسنين، ولكنه يقبض على قوة تفوق قوة الملوك.

وتحدث أراجورن أخيرًا قائلاً: «ألم أقل أنا حقًّا، يا جندلف، أنك تستطيع أن تذهب إلى أي مكان ترغب في الذهاب إليه أسرع مني؟ وأقول هذا أيضًا: أنت قائدنا ورايتنا. سيد الظلام لديه تسعة. ولكن نحن لدينا واحد، أعظم منهم؛ الخيال الأبيض. لقد مر عبر النار وهاوية الجحيم، وسوف يخشونه. سوف نذهب إلى حيث يقودنا».

وهنا قال ليجولاس: «نعم، معًا سوف نتبعك. ولكن أولاً، سوف يريح قلبي يا جندلف أن أسمع ما ألمَّ بك في موريا. ألن تخبرنا بذلك؟ ألا يمكن حتى أن تبقى لتخبر أصدقاءك كيف تم إنقاذك وخلاصك؟».

وأجابه جندلف قائلاً: «لقد بقيتُ بالفعل طويلاً أكثر من اللازم. الوقت قصير. ولكن لو كانت هناك سنة لنمضيها، فإنني لن أستطيع أن أخبركم بكل شيء».

فرد جيملي قائلاً: «عندئذ أخبرنا ما ستخبرنا به، وما يسمح به الوقت! هيا يا جندلف، أخبرنا كيف صارت حالك مع العفريت العظيم (البالروج)!».

«لا تذكر اسمه!» ـ قال جندلف له ذلك، وبدا للحظة أن سحابة من ألم قد مرت فوق وجهه، وجلس في صمت، وقد بدا عجوزًا مثل الموت. وقال أخيرًا ببطء كما لو كان يعود بفكره للوراء بصعوبة: «سقطتُ وقتًا طويلاً. سقطتُ وقتًا طويلاً، وسقط هو

معي. كانت ناره تحيط بي. لقد احترقتُ. بعد ذلك قفز هو في المياه العميقة وصار كل شيء مظلمًا. كانت باردة مثل تيار الموت، وكادت تجمد قلبي».

فقال جيملي: «عميقة هي الهاوية التي كان يمر عليها جسر دورين، ولم يقم أحد بقياسها».

ورد جندلف قائلاً: «نعم، كان لها قاع، فيما وراء الضوء والمعرفة. ووصلتُ إلى هناك أخيرًا، إلى أقصى الأساسات الصخرية. وكان هو معي. وكانت ناره قد أطفئت، لكنه كان وقتها شيئًا من مادة لزجة، أقوى من أفعى خناقة.. تقاتلنا بعيدًا تحت الأرض الحية؛ حيث ليس للوقت عد أو حساب. كان قابضًا عليَّ دائمًا، وكنتُ أنا أقطعه دائمًا، حتى فر أخيرًا إلى الأنفاق المظلمة. لم تكن من صنع قوم دورين، يا جيملي بن جولين. بعيدًا، بعيدًا أسفل أكثر حفر الأقزام عمقًا، العالم تنخره أشياء لا أسماء لها. حتى ساورون لا يعرفها. إنها أكبر منه عمرًا. وعندئذ فقد مشيتُ هناك، ولكنني لن أجلب أي تقرير ليظلم ضوء النهار. في ذلك اليأس كان عدوي هو أملي الوحيد، وطاردته، قابضًا على عقبه. وهكذا فإنه عاد بي أخيرًا إلى الطرق السرية لخازاد ـ دوم: لقد كان يعرفها جميعًا أفضل معرفة. وحتى الوقت الذي ذهبنا فيه، إلى أن وصلنا إلى سلم لانهائي».

فقال جيملي: «لقد ضاع ذلك منذ زمن طويل.. الكثيرون قالوا إنه لم يصنع على الإطلاق إلا في الأساطير، ولكنَّ آخرين يقولون إنه قد دُمر».

فقال جندلف: «لقد صُنع، ولم يتم تدميره.. كان يصعد من أدنى الأبراج إلى أعلى قمة، صاعدًا في حلزون غير منقطع من آلاف الدرجات، حتى وصل في النهاية إلى برج دورين المنحوت في صخر زيراكزيجيل الحي، برج سيلفرتين.

«وكانت هناك فوق سيليبديل نافذة وحيدة في الثلج، وأمامه كانت ساحة فضاء ضيقة؛ وكر شاهق فوق سُدم العالم. كانت الشمس تسطع بحدة هناك، ولكن كل ما كان تحتها كان مغلفًا في السحاب. وقفز خارجًا، وحتى وأنا أذهب وراءه، فإنه انفجر في لهب جديد. لم يكن هناك أي شيء يمكن رؤيته، أو ربما سيكون لا يزال يُغني أغاني تأتي بعد عصور عن معركة القمة». وفجأة ضحك جندلف. «ولكن، ما الذي سيقولونه في الأغنية؟ أولئك الذين نظروا لأعلى من مكان عال ظنوا أن الجبل قد تُوج بعاصفة. كان ما سمعوه رعدًا، وقالوا إن البرق ضرب بقوة فوق سيليبديل، وقفز للوراء وقد تكسر إلى ألسنة نارية. أليس هذا بالكافي؟ وارتفع دخان عظيم حولنا، ضباب وبخار، وسقط الثلج مثل المطر. وطرحتُ عدوي أرضًا، وسقط من المكان العالي وكسر جانب الجبل في المكان الذي ضربه فيه في تدميره له. وعندئذ أخذتني الظلمة، وتهتُ خارج الفكر والزمان، وتجولتُ بعيدًا في طرق لن أتكلم عنها.

«وعدتُ عارِيًا ـ لفترة وجيزة، حتى انتهت مهمتي. ورقدتُ عاريًا على قمة الجبل. وتفتت الجبل ورائي إلى غبار، وذهبت النافذة، وخُنق السلم المتهدم بالحجارة المحترقة والمتكسرة. كنتُ وحيدًا، منسيًا، بدون مهرب على قرن العالم الصلب. ورقدتُ هنالك أحدق إلى أعلى، في حين كانت النجوم تمر مسرعةً، وكان كل يوم طويلاً مثل طول عصر من عصور الأرض. وجاءت إلى أذني شائعة ضعيفة عن كل الأراضي: الولادة والموت، الغناء والبكاء، والمواء البطيء المتواصل للأبد للصخر بالأحمال. وهكذا أخيرًا عثر عليّ جوايهير سيد الريح مرة أخرى، وأخذ يصعد بي لأعلى وحملني بعيدًا.

وقلت: «محتوم عليّ دائمًا للأبد أن أكون حملك، أيها الصديق عند الحاجة».

«وأجابني قائلاً: «لقد كنتَ حملاً، لكنك لستَ كذلك الآن.. خفيف مثل جناحِ طائر التم في مخلبي أنت الآن. الشمس تسطع خلالك. حقًّا إنني لا أظن أنك تحتاج إليّ.. لو أنني تركتك تسقط، فإنك ستطفو فوق الريح».

ورددت عليه لاهثًا: «لا تتركني أسقط!»؛ لأنني أحسستُ بالحياة داخلي مرة أخرى. «احملني إلى لوثلورين!».

«وأجابني قائلاً: «هذه هي حقًّا أوامر السيدة جَلَدْريل؛ لذا أرسلتُ أبحث عنك».

«وهكذا جئتُ إلى كاراس جلدهورن ووجدت أنك قد مضيت منذ زمن قصير. ومكثتُ هناك في الوقت الأبدي لهذه الأرض حيث تجلب الأيام الشفاء لا الفناء. ووجدتُ الشفاء، وألبستُ ملابس بيضاء. وأسديتُ النصائح، وتلقيتُ نصائح. ومن ذلك المكان خلال طريق غريبة أتيتُ، وأحضر رسائل لبعض منكم. أمرتُ أن أقول لأراجورن هذا:

أين هم الدوناداتيون الآن، يا إليسار، إليسار؟
لماذا يتجول أهل عشيرتك بعيدًا؟
الساعة قريبة عندما يعود المفقود،
وتركب الصحبة الرمادية من الشمال.
ولكنه مظلم ذلك الطريق المخصص لك:
الموتى يراقبون الطريق الذي يقود للبحر.

وأرسلت إلى ليجولاس هذه الكلمة:

ليجولاس جرينليف طويل تحت الشجرة
لقد عشتَ في فرح. لتحذر البحر!

إذا سمعت صيحة النورس على الشاطئ،

فلن يستريح قلبك عندئذ سيستريح في الغابة بعد».

وصمت جندلف وأغمض عينيه.

وقال جيملي وحنى رأسه: «إذن، فهي لم ترسل لي أي رسالة؟».

وقال ليجولاس: «كئيبة هي كلماتها، وقليل ما تعنيه بالنسبة لأولئك الذين يتلقونها».

وقال جيملي: «ليس هذا أي عزاء».

فقال ليجولاس: «ماذا إذن؟ هل تود أن تسمعها وهي تتحدث صراحة عن موتك؟».

«نعم، إذا لم يكن لديها أي شيء آخر لتقوله».

وقال جندلف وقد فتح عينيه: «ما هذا؟ نعم، أعتقد أنني أستطيع أن أخمن ما قد تعنيه كلماتها. أستميحك عذرًا يا جيملي! كنتُ أفكر في الرسائل مرة أخرى. ولكن في الواقع هي أرسلت كلمات لك، ليست بالكئيبة ولا بالحزينة».

حيث قالت: «إلى جيملي ابن جولين، أرسل له تحيات سيدته. حامل القفل، أينما تذهب فإن فكري يذهب معك. ولكن كن حريصًا في أن تضع بلطة على الشجرة الصحيحة!».

«في ساعة سعيدة عدت إلينا يا جندلف» ـ صاح القزم بهذه الكلمات وهو يغني بصوت عال بلغة الأقزام الغريبة. «تعال، تعال!» ـ صاح، وهو يلوح ببلطته. «حيث إن رأس جندلف الآن مقدس، دعونا نجد رأسًا يكون من الصواب شطره!».

فقال جندلف وهو ينهض من مجلسه: «لن يكون ذلك بعيدًا في البحث عنه. تعال! لقد أمضينا كل الوقت المسموح به للأصدقاء الذين تفرقوا وتباعدوا. والآن هناك حاجة إلى العجلة والسرعة».

ولف نفسه مرة أخرى في معطفه القديم المهلهل، ومشى في المقدمة، وتبعوه، وهبطوا سريعًا من الرف الصخري المرتفع وشقوا طريق عودتهم عبر الغابة، إلى أسفل ضفة إنتووش. لم يتحدثوا بأي كلمات أخرى، إلى أن وقفوا مرة ثانية على العشب وراء حدود غابة فانجورن. لم تكن هناك أي علامة يمكن رؤيتها تدل على خيلهم.

وقال جندلف: «لن أمشي. الوقت يدهمنا». وبعد ذلك رفع رأسه وصفر صفارة طويلة. كانت النغمة واضحة وثاقبة للغاية، لدرجة أن الآخرين وقفوا مذهولين لسماع مثل ذلك الصوت يأتي من هاتين الشفتين العجوزين واللحية العجوز. صفر ثلاث مرات؛ وعندئذ بدا أنهم سمعوا صهيل حصان محمول من السهول فوق الريح الشرقية، ضعيفًا وبعيدًا للغاية بالنسبة لهم. وانتظروا وهم يعجبون. وقبل أن يمضي وقت طويل

جاء صوت الحوافر؛ في البداية لم يكد يكون أكثر من رعشة أرض لم يدركها سوى أراجورن وهو يرقد على العشب، بعد ذلك أصبح الصوت أشد وأعلى وأكثر وضوحًا بشكل مطرد ليتحول إلى قرع سريع.

وقال أراجورن: «هناك أكثر من حصان واحد قادم».

فقال جندلف: «بالتأكيد، إننا حمل كبير للغاية بحيث لا يمكن لحصان واحد حمله».

فقال ليجولاس وهو يحدق فوق السهل: «هناك ثلاثة. انظر كيف تجري! هناك هاسوفل، وهنالك صديقي أرود إلى جواره! ولكن هناك واحد آخر يجري في المقدمة: حصان عظيم للغاية. إنني لم أر له مثيلاً من قبل».

وقال جندلف: «ولن ترى له مثيلاً مرة أخرى. إنه شادوفاكس. إنه الحصان الرئيسي لميراس، سيد الخيل، وليس حتى ثيودين، ملك روهان، حدث ووقعت عيناه على حصان أفضل منه. أليس يسطع مثل الفضة، ويجري في سلاسة مثل تيار سريع؟ لقد جاء من أجلي: حصان الخيال الأبيض. إننا ذاهبون إلى المعركة معًا».

حتى وبينما كان الساحر العجوز يتحدث، جاء الحصان العظيم يعدو سريعًا صاعدًا المنحدر باتجاههم؛ كان معطفه يتلألأ وكان عرفه ينساب مع ريح سرعته. وكان الحصانان الآخران يتبعانه، وأصبحا الآن وراءه بمسافة كبيرة. وبمجرد أن رأى شادوفاكس جندلف، كبح سرعته وراح يصهل بصوت عال؛ عندئذ راح يخب متقدمًا في رفق، وحنى رأسه الفخور وحك أنفه العظيم في رقة الرجل العجوز.

وراح جندلف يلاطفه، وقال: «إنها لمسافة طويلة من ريفينديل يا صديقي، لكنك حكيم وسريع وتأتي عند الحاجة. هيا بنا نسر بعيدًا الآن معًا، ولا نفترق في هذا العالم مرة أخرى!».

وفي الحال، جاءت الخيل الأخرى صاعدة ووقفت في هدوء إلى جواره، كما لو كانت تنتظر التعليمات. وقال جندلف وهو يخاطبهم في وقار ورزانة: «وصلنا أخيرًا إلى ميدوسلد، بهو سيدكم، ثيودين. الوقت يدهمنا، والآن بإذنكم يا أصدقائي، سوف نركب وننطلق. إننا نرجوكم أن تسرعوا قدر ما تستطيعون. سوف يحمل هاسوفل أراجـورن، وسوف يحمل أرود ليجولاس.. سوف أضع جيملي أمامي، وبإذن شادوفاكس فإنه سوف يحملنا نحن الاثنين.. سوف ننتظر الآن فقط لنتناول القليل من الشراب».

وقال ليجولاس وهو يقفز بخفة على ظهر أرود: «الآن أفهم جزءًا من لغز الليلة الماضية. سواء كانوا قد فروا في بداية الأمر خوفًا، أم لا، فإن خيلنا قابلوا شادوفاكس، رئيسهم، وحيوه في فرح. هل تعرف أنه كان جاهزًا للاستعمال يا جندلف؟».

وردِ الساحر قائلاً: «نعم، كنتُ أعرف ذلك. لقد كنتُ موجهًا ذهني إليه، آمره أن يسرع؛ لأنه كان بعيدًا جدًا أمس في جنوب هذه البلاد. ولعله يحملني سريعًا في طريق العودة مرة أخرى!».

وتحدث جندلف الآن إلى شادوفاكس، وانطلق الحصان بسرعة جيدة، ولكن ليس فوق مقدور الآخرين. بعد وقت قصير، استدار فجأة واختار مكانًا كانت ضفاف النهر فيه منخفضة، وخاض النهر، وبعد ذلك قادهم بعيدًا باتجاه الجنوب إلى أرض مسطحة، واسعة لا شجر فيها. وذهبت الريح مثل أمواج رمادية عبر الأميال اللانهائية من العشب.. لم تكن هناك أي علامة لطريق أو مسار، ولكن شادوفاكس لم يتوقف أو يتردد.

وقال جندلف: «إنه يسير الآن في مسار مستقيم قاصدًا أبهاء ثيودين تحت منحدرات الجبال البيضاء. سيكون الأمر أكثر سرعة على هذا النحو. الأرض أكثر صلابة وتماسكًا في الشرق (إيستمنت)؛ حيث يقع الطريق الشمالي الرئيسي عبر النهر، ولكن شادوفاكس يعرف الطريق عبر كل مستنقع وواد».

وساروا ساعات طويلة عبر المروج ووديان الأنهار.. كان العشب في الغالب طويلاً جدًا لدرجة أنه كان يطال ركبتي الخيالة، وكانت جيادهم تبدو كأنها تعوم في بحر أخضر رمادي. ووصلوا إلى الكثير من أحواض المياه الخفية، ولمساحات شاسعة من البردي تلوح فوق مستنقعات رطبة وخداعة.. وكان شادوفاكس يجد الطريق، وكانت الجياد الأخرى تتبعه في خط سيره. وبطيئًا راحت الشمس تهبط من السماء غائبة. ولما نظر الخيالة فوق السهل العظيم، رأوا على مسافة بعيدة جدًا كأن نارًا حمراء تغوص في العشب. وكانت أكتاف الجبال تتوهج على مد البصر محمرة على كلا الجانبين. كان يبدو أن دخانًا يصعد ويظلم قرص الشمس جاعلاً إياه على شاكلة لون الدم، كما لو كان قد أضرم النار في العشب وهو يمر هابطًا تحت إطار الأرض.

وقال جندلف: «هنالك تقع فجوة روهان. إنها الآن تقع إلى الغرب منا تقريبًا. في ذلك الطريق تقع آيزنجارد».

وقال ليجولاس: «إنني أرى دخانًا عظيمًا. ما عسى ذلك أن يكون؟».

ورد عليه جندلف قائلاً: « المعركة والحرب! واصلوا انطلاقكم!».

الفصل السادس
ملــــك البهــــو الذهبــي

وواصلوا سيرهم حتى غروب الشمس، والغسق البطيء، والليل المتجمع*. عندما توقفوا أخيرًا وترجلوا من فوق جيادهم، حتى أراجورن كان متصلبًا ومرهقًا. لم يسمح لهم جندلف إلا بالراحة ساعات قليلة. نام كل من ليجولاس وجيملي، ورقد أراجورن منبطحًا، ممددًا على ظهره، لكن جندلف ظل واقفًا، متكئًا على عصاه، يحدق إلى الظلمة، شرقًا وغربًا. كان كل شيء حولهم صامتًا، ولم تكن هناك أي علامة على كائن حي أو أي إشارة إلى صوت. كانت الليلة مليئة بسحب طويلة تفر مسرعة على ريح باردة، عندما نهضوا مرة أخرى. وتحت القمر المحجوب بالغيوم راحوا يسيرون مرة أخرى بسرعة في الليل، مثلما كانوا بالنهار.

ومرت الساعات ومازالوا يسيرون. وانحنى رأس جيملي من النعاس وكان من الممكن أن يقع من فوق ظهر الحصان، لو لم يمسك به جندلف ويهزه. وتبع هاسوفل وأرود، وكانا فخورين، رغم تعبهما، بقائدهما الذي لا يكل ولا يمل، وظل رمادي أمامهما لا يكاد يُرى. وراحت الأميال تنطوي، وغاب القمر في الغرب الملبد بالغيوم.

وجاء الهواء حاملًا بردًا قارسًا. وبطيئًا في الشرق تلاشت الظلمة حتى تحولت إلى لون رمادي بارد. وقفزت أعمدة حمراء من الضوء فوق جدران إمين مويل السوداء بعيدًا على يسارهم. وجاء الفجر صافيًا ونيرًا؛ واجتاحت مسارهم ريح، مندفعة عبر العشب المتمايل. وفجأة وقف شادوفاكس ساكنًا وراح يصهل. وأشار جندلف للأمام.

«انظروا!» ـ صاح جندلف، ورفعوا أعينهم المتعبة. كانت تقف أمامهم جبال الجنوب: ذات قمم بيضاء مخططة بلون أسود. وراحت المراعي تنطوي قبالة التلال التي كانت متجمعة عند سفوحها، وراحت تنساب صاعدة إلى الكثير من الوديان التي كانت لا تزال معتمة وسوداء، لم يمسها ضوء الفجر، شاقة طريقها على نحو ملتو إلى قلب الجبال العظيمة. وفُتح أمام المسافرين مباشرة أوسع واد من هذه الوديان الصغيرة المنعزلة مثل خليج طويل بين التلال. وبعيدًا إلى الداخل لمحوا كتلة جبال مكومة بها قمة عالية، عند مدخل الوادي كان يقف مثل حارس مرتفع وحيد. وحول سفوحه كان ينساب، مثل خيط من فضة، نبع الماء الذي كان يأتي من الوادي؛ ولمحوا على حافته، بينما لا تزال بعيدة، ومضة في الشمس البازغة، وميض من ذهب.

وقال جندلف: «تحدث يا ليجولاس! أخبرنا ما تراه هناك أمامنا!».

وحدق ليجولاس في الأمام، وهو يضع يده على عينيه من الأشعة المستوية للشمس المشرقة، وقال: «أرى نبع ماءٍ أبيض يأتي هابطًا من الثلج. حيث ينبع من ظل الوادي، يرتفع تل أخضر في الشرق. يحيط به سياج وجدار عظيم وسور شائك. وفي داخله ترتفع أسقف المنازل؛ وفي الوسط، كان موضوعًا على مصطبة خضراء، تقف عاليًا، بهو عظيم للبشر. ويبدو لعينيَّ أنها كانت مسقوفة بالذهب. كان ضوءها يسطع عاليًا فوق الأرض. وكانت أعمدة أبوابها ذهبية أيضًا. وهناك كان يقف رجال يرتدون دروعًا براقة؛ بيد أن كل شيء عدا ذلك داخل الأبهاء كان لا يزال نائمًا».

وقال جندلف: «يطلق على هذه الأبهاء اسم إدوراس، وهذا البهو الذهبي اسمه مدُيوسلد. هناك يسكن ثيودن ابن ثنجل، ملك «مارك روهان». لقد جئنا مع طلوع النهار. والآن يقع الطريق منبسطًا بحيث يمكننا الرؤية أمامنا. ولكن يجب علينا السير بمزيد من الحذر؛ لأن الحرب بالخارج، والرهيريميين، سادة الخيل، لا ينامون، حتى لو كان الأمر يبدو كذلك من بعيد. لا تستلوا أي أسلحة، لا تتكلموا بكلمات التعالي والغطرسة، هذه نصيحتى لكم جميعًا، حتى نصل أمام عرش ثيودن».

كان الصباح ساطعًا وصافيًا حولهم، وكانت الطيور تغني، عندما وصل المسافرون إلى نبع الماء. كان يجري هابطًا في سرعة إلى السهل، وفيما وراء سفوح التل دار عبر طريقهم في ثنية واسعة، متدفقًا بعيدًا نحو الشرق ليغذي نهر الإنتوش بعيدًا في قيعانه التي يخنقها نبات القصب. كانت الأرض خضراء: في المراعي الرطبة وعبر حدود نبع الماء المعشوشبة نمت الكثير من أشجار الصفصاف. بالفعل في تلك الأرض الجنوبية كانت أطراف أصابعهم محمرة، شاعرين بقدوم الربيع. كانت هناك مخاضة على نبع الماء بين ضفاف منخفضة وطئتها كثيرًا الخيل المارة. ومر الخيالة فوقها ووصلوا إلى مسار واسع مخدد من أثر السير يقود باتجاه النجود.

عند سفح التل المحاط بالجدران، راح الطريق يسير تحت ظل الكثير من الروابي، عالية وخضراء. كان العشب فوق جوانبها الغربية أبيض كما لو كان مكللاً بالثلج المتساقط: انبثقت الزهور الصغيرة هناك مثل نجوم لا حصر لها وسط المرج.

وقال جندلف: «انظروا! كم هي جميلة زهور العيون البراقة في المرعى! إنهم يسمونها إيفرمايند، سيمْبلْمينى في أرض البشر هذه؛ وذلك لأنها تزهر في كل فصول السنة، وتنمو في الأماكن التي يرقد فيها الموتى من البشر. انظروا! لقد وصلنا إلى التلال الجنائزية العظيمة حيث يرقد آباء ثيودن».

وقال أراجورن: «سبعة تلال جنائزية في الشمال، وتسعة في اليمين. حيوات رجال طويلة منذ بناء البهو الذهبي».

وقال ليجولاس: «خمسمائة مرة سقطت الأوراق الحمراء في غابة ميركوود في دياري منذ ذلك الحين، ولم يبدُ ذلك لنا إلا وقتًا قصيرًا».

فقال أراجورن: «ولكن بالنسبة لخيالة المارك يبدو ذلك منذ زمن طويل جدًّا لدرجة أن تشييد هذا المنزل ليس سوى ذكرى أغنية، وقد ضاعت السنون الماضية في ضباب الزمن. والآن يطلقون على هذه الأرض ديارهم، خاصتهم، وانفصلت لغتهم عن أقاربهم الشماليين». عندئذ بدأ يغني في صوت منخفض بلغة بطيئة غير معروفة للجني والقزم؛ ومع ذلك كانوا ينصتون، لأنه كانت فيها موسيقى جميلة.

وقال ليجولاس: «هذه ـ في ظني ـ لغة الروهيريميين؛ لأنها تشبه هذه الأرض نفسها؛ غنية ومنسابة من ناحية، وفيما عدا ذلك صعبة وقوية مثل الجبال. ولكن لا أستطيع أن أخمن معناها، باستثناء أنها محملة بحزن البشر الفانين».

وقال أراجورن: «وهذه هي كلماتها حسب اللغة الدارجة قريبة بقدر ما استطعتُ أن أترجمها:

أين هو الخيال الآن والحصان؟ أين البوق الذي كان يزعق؟
أين الخوذة والدرع، والشعر اللامع منسابًا؟
أين اليد على وتر القيثارة، والنار الحمراء تتوهج؟
أين الربيع والحصاد والذرة الطويلة نامية؟
مرت جميعا مثل المطر على الجبال، مثل ريح في المروج؛
مضت الأيام مختفية في الغرب وراء التلال إلى ظلال.
من سيجمع دخان الغابة الميتة محترقًا،
أو يشاهد السنوات المنسابة من البحر عائدة؟

هكذا تحدث شاعر منسي في روهان، متذكرًا إلى أي مدى كان طويلاً وجميلاً إيورل الصغير، الذي جاء راكبًا حصانه من الشمال؛ وكانت هناك أجنحة فوق أقدام جواده المطهم، فِلاروف، أبو الخيل. لا يزال البشر يغنون هكذا في المساء».

بهذه الكلمات عبر المسافرون التلال الجنائزية الصامتة. واتبعوا الطريق المتعرج صاعدين الأكتاف الخضراء للتلال، ووصلوا أخيرًا إلى الجدران التي اجتاحتها الرياح وأبواب إدوراس.

وهناك كان يجلس الكثيرون من الناس في دروع براقة، والذين قفزوا في الحال على أقدامهم وسدوا الطريق بحرابهم، وصاحوا بلغة ريدرمارك، طالبين من الغرباء أن يقولوا أسماءهم ومهمتهم: «قفوا، أيها الغرباء غير المعروفين هنا!»

وكانت عيونهم كلها عجب ولكن كان بها القليل من الصداقة؛ ونظروا بطريقة مكفهرة إلى جندلف.

وأجابهم بنفس اللغة: «حسنًا، إنني أفهم لغتكم، ولكنْ غرباء قليلون هم الذين يعرفون ذلك. لماذا إذن لا تتحدثون باللغة الدارجة، كما هي العادة في الغرب، إذا كنتم ترغبون في الحصول على إجابة؟

ورد عليه الحراس قائلين: «إن هذه هي رغبة ثيودن الملك؛ ألا يدخل أحد من أبوابه، ما عدا أولئك الذين يعرفون لغتنا وهم من أصدقائنا. لا نستقبل أحدًا هنا في أيام الحرب سوى قومنا نحن، وأولئك الذين يأتون من ماندبرج في أرض جوندور. من أنتم الذين تأتون غير آبهين فوق السهل مرتدين ثيابًا غريبة، تركبون خيلاً مثل خيلنا نحن؟ لقد كنا في حراسة هنا منذ وقت طويل، وقد شاهدناكم من بعيد. إننا لم نر أبدًا خيالة آخرين بهذه الغرابة، كما لم نشاهد أبدًا أي خيل أكثر كبرياء من واحد من الخيل التي تحملكم. إنه حصان من الميراس، ما لم تكن أعيننا قد خُدعت تحت تأثير تعويذة معينة. قل لنا، ألست أنت ساحرًا، جاسوسًا من جواسيس سارومان، أو أشباحًا من صنعه؟ تحدث الآن وأسرع وأوجز!».

فقال أراجورن: «إننا لسنا أشباحًا، كما أن أعيننا لا تخدعكم؛ لأن هذه الخيل التي نركبها إنما هي في واقع الأمر خيلكم، كما عرفتكم جيدًا قبل أن تسألوا، فيما أظن. ولكن نادرًا ما يركب اللص حصانه عائدًا إلى الإسطبل. هذان هما هاسوفل وأرود، اللذان أعارهما لنا إيومر، مارشال المارك الثالث، منذ يومين فقط. إننا نعود بهما الآن، حتى ونحن وعدناه. ألم يحضر إيومر إذن ويحذر بقدومنا؟».

وظهرت في أعين الحارس نظرة مضطربة، وأجاب قائلاً: «عن أيومر، ليس لدي شيء أقوله. إذا كان ما تخبرني به هو الحقيقة، عندئذ فمما لا شك فيه أن ثيودن قد سمع به. ربما لم يكن قدومكم غير مسعى له بالكلية. لقد جاء وورمتونج1 إلينا منذ ليلتين فقط وقال إنه بإرادة ثيودن لا يمر أي غريب من هذه الأبواب».

وقال جندلف وهو ينظر بحدة وتدقيق إلى الحارس: «وورمتونج؟ لا تتحدث بأكثر من ذلك! إن رسالتي ليست إلى وورمتونج، ولكن إلى ملك المارك نفسه. إنني في عجلة من أمري. أليس بإمكانك أن تذهب أو ترسل شخصًا يقول إننا قد أتينا؟». وومضت عيناه تحت حاجبيه العميقين وهو يخفض نظرته المحدقة في الرجل.

وأجابه الحارس بطيئًا: «نعم، سوف أذهب. ولكن ما الأسماء التي سأبلغ بها؟ وماذا سأقول عنك؟ تبدو الآن كبير السن مرهقًا، ومع ذلك فإنك رهيب وبشع أسفل ذلك، هذا في اعتقادي».

وقال الساحر: «حسن ما تراه وتقوله؛ لأنني جندلف. لقد عدتُ. وانظر! وأنا أيضًا أجلب معي حصانًا. ها هو شادوفاكس العظيم الذي لا يمكن لأي يد أخرى غير يدي أن

تروضه. وها هو إلى جانبي أراجورن بن أراثورن، سليل الملوك، وهو ذاهب إلى موندبرج. وها هو أيضًا ليجولاس الجني وجيملي القزم زملاؤنا. اذهب الآن وقل لسيدك إننا على أبوابه ونود أن نتحدث معه، إذا سمح لنا أن نأتي إلى بلاطه».

فقال الحارس: «أسماء غريبة حقًا التي تعطيها! ولكني سأبلغها كما أمرت، وأعلم إرادة سيدي. انتظروا هنا بعض الوقت، وسوف أجلب لكم الإجابة التي حسبما سيبدو جيدًا بالنسبة له. لا تأملوا أكثر من اللازم! هذه الأيام سود وشريرة». وذهب بعيدًا على جناح السرعة، تاركًا الغرباء تحت حراسة رفاقه اليقظين.

بعد بعض الوقت عاد، وقال: «اتبعوني! ثيودن يأذن لكم بالدخول؛ ولكن أي أسلحة تحملونها، حتى ولو لم تكن سوى عصا، يجب عليكم تركها على العتبة. سوف تكون في الحفظ مع حراس الأبواب».

وفتحت الأبواب المظلمة. ودخل المسافرون، يمشون في طابور وراء مرشدهم. وجدوا ممرًا واسعًا، ممهدًا بحجارة مقطوعة، راح الآن يتعرج صاعدًا لأعلى، وصعد بعدها في مجموعات قصيرة من الدرج في صورة درجات حسنة الوضع والصنعة. مروا بالكثير من المنازل التي كانت مبنية من الخشب كما عبروا الكثير من الأبواب. وإلى جانب الطريق في قناة من الحجر كان ينساب جدول ماء صاف، يتوهج ويثرثر. وأخيرًا وصلوا إلى قمة التل. كانت تقف هنالك منصة عالية فوق مصطبة خضراء، عند سفحها كان يتدفق مندفعًا نبع ماء لامع من حجر منحوت في صورة رأس حصان؛ وكان تحته حوض واسع كانت المياه تنسكب منه وتغذي الجدول المتساقط. وصعودًا على المصطبة الخضراء كان هناك سلم من الحجر؛ عال وعريض، وعلى كل جانب من جانبي أعلى درجة من درجات السلم كانت هناك مقاعد منحوتة من صخر. وهناك كان يجلس حراس آخرون، وسيوفهم مستلة في أيديهم وموضوعة على رُكبهم. كان شعرهم الذهبي مضفرًا على أكتافهم؛ كانت الشمس منتشرة على تروسهم الخضراء، وكانت دروعهم تتوهج براقة لامعة، وعندما نهضوا كانوا يبدون أكثر طولاً من البشر الفانين.

وقال المرشد: «هنالك هي الأبواب أمامكم. ينبغي عليَّ أن أعود الآن إلى مهمتي عند البوابة. الوداع! وأتمنى أن يكون ملك المارك لطيفًا معكم وكريمًا معكم!».

واستدار وذهب سريعًا هابطًا في طريق عودته. وصعد الآخرون السلم العالي تحت أعين الحراس الطوال. كانوا يقفون صامتين الآن فوقهم ولم يتفوهوا بكلمة، حتى خطا جندلف على المصطبة الممهدة عند رأس السلم. عندئذ فجأة تحدثوا في أصوات واضحة مقدمين تحية لطيفة بلغتهم هم.

«مرحبًا، القادمون من بعيد!» ـ قالوا ذلك، وأداروا مقابض سيوفهم باتجاه المسافرين كعلامة سلام. وراحت جواهر خضراء تومضَ في ضوء الشمس. عندئذ سار أحد الحراس للأمام وتحدث باللغة الدارجة.

حيث قال ـ «إنني حارس بوابة ثيودن. اسمي هاما. هنا ينبغي عليَّ أن أطلب منكم أن تتخلوا عن أسلحتكم قبل أن تدخلوا».

عندئذ أعطاه ليجولاس في يده السكينة ذات المقبض الذهبي، وجعبة سهامه، وقوسه وقال له: «احتفظ بهذه الأشياء جيدًا؛ لأنها أتت من الغابة الذهبية وأعطتها لي سيدة لوثلورين».

وظهر العجب والدهشة في عيني الرجل، ووضع الأسلحة جانبًا على عجل إلى جوار الجدار، كما لو كان يخشى أن يتعامل معها، وقال: «لن يمسها أي شخص، أعدك بذلك».

ووقف أراجورن بعض الوقت مترددًا، وقال: «إنني لا أريد أن أتخلى عن سيفي أو أن أسلم أندوريل إلى يد أي شخص آخر».

فقال له هاما: «إن هذه هي رغبة ثيودن».

«ليس واضحًا لي أن رغبة ثيودن ابن تنجل، حتى ولو كان سيد المارك، ينبغي أن تسود على رغبة أراجورن بن أراثورن، وريث إلنديل على جوندور».

فرد هاما قائلاً: «هذا هو منزل ثيودن، وليس منزل أراجورن، حتى ولو كان ملك جوندور في عرش دنثور»، وتقدم للأمام سريعًا أمام الباب سادًا الطريق. وكان سيفه عندئذ في يده وكان سنه مشيرًا إلى الغرباء.

وقال جندلف: «هذا حديث لا طائل من ورائه. إن طلب ثيودن غير ضروري، ولكن الرفض غير مجد. للملك طريقته في بلاطه الخاص، سواء كان ذلك حكمة أو حمقًا».

فرد أراجورن قائلاً: «حقًا. وسوف أفعل مثلما أمرني سيد المنزل، لو لم يكن ذلك سوى كوخ حارس غابة ملكية، لو أنني كنتُ أحمل الآن أي سيف غير أندوريل».

فقال هاما: «أيًا كان اسمه، فإنك ستضعه هنا، إذا كنت لن تحارب بمفردك ضد كل رجال إدوراس».

وهنا قال جيملي: «ليس بمفرده» ـ وتحسس نصل بلطته بأصابعه، ونظر في تجهم لأعلى في الحارس، كما لو كان شجرة صغيرة ينوي جيملي أن يقطعها. «ليس بمفرده!».

فقال جندلف: «على رسلكم، على رسلكم! نحن جميعًا أصدقاء هنا. أو ينبغي علينا أن نكون كذلك؛ لأن ضحك موردور سيكون مكافأتنا الوحيدة، إذا نحن تقاتلنا. إن مهمتي ورسالتي ملحة وعاجلة. ها هو على الأقل سيفي، أيها الرجل الطيب هاما.

احتفظ به جيدًا. اسمه جلامدرينج؛ لأن الجن صنعوه منذ زمن طويل. والآن دعني أمر. هيا، يا أراجورن!».

وفي بطء فك أراجورن حزامه ووضع بنفسه سيفه قائمًا على الجدار، وقال: «ها هنا أضعه، ولكني آمرك ألا تمسه، وألا تسمح لأي شخص آخر أن يضع يده عليه. في هذا الغمد الجني يسكن النصل الذي كان قد كُسر وتم صنعه من جديد. كان أول من صنعه تلشار في أعماق الزمان. سوف يأتي الموت إلى أي شخص يستل سيف إلنديل غير وريث إلنديل».

وتراجع الحارس ونظر في اندهاش إلى أراجورن، وقال: «يبدو أنك أتيت على أجنحة أغنية قادمًا من الأيام المنسية. سوف أكون، يا سيدي، مثلما أمرت».

وقال جيملي: «حسنًا، وإذا كانت بلطتي سيكون معها أندوريل رفيقًا، فإنه يجوز أن تبقى هنا هي أيضًا دون خزي أو عار» ــ ووضع بلطته على الأرض. «والآن، إذا كان كل شيء حسبما ترغب وتريد، فدعنا ندخل ونتكلم مع سيدك».

وكان الحارس لا يزال مترددًا، وقال لجندلف: «عصاك. اعذرني، ولكن هذه أيضًا يجب تركها على الباب».

وقال جندلف: «حماقة! الحكمة والاحتراس شيء، ولكن الفظاظة شيء آخر. إنني عجوز. إذا لم أتوكأ على عصاي وأنا أمشي، فعندئذ سوف أجلس بالخارج هنا، حتى يشاء ثيودن أن يخرج بنفسه ليتحدث معي».

وضحك أراجورن. «كل شخص لديه شيء معين عزيز عليه للغاية لدرجة أنه لا يتركه لآخر. ولكن هل يمكنك أن تفصل ما بين رجل عجوز وعكازه؟ هيا، ألن تدعنا ندخل؟».

وقال هاما: «قد تكون العصا في يد الساحر أكثر من كونها سندًا للعمر». ونظر كثيرًا إلى عصا خشب الدردار التي كان جندلف يتكئ عليها. «ومع ذلك في حالة الريبة والشك فإن الرجل الجدير بالثقة وذا القيمة سوف يثق بحكمته وحصافته. أظن أنكم أصدقاء وأشخاص جديرون بالشرف، وليس لديكم أي غرض شرير. يمكنك الدخول».

ورفع الحراس عندئذ قضبان الأبواب الثقيلة وأداروها ببطء نحو الداخل وهي تدمدم على مفصلاتها العظيمة. ودخل المسافرون. بدت الدنيا بالداخل مظلمة ودافئة بعد الهواء الصافي فوق التل. كان البهو طويلاً وواسعًا ومليئًا بالظلال وأنصاف المصابيح؛ كانت هناك أعمدة عظيمة تحمل سقفه السامق. ولكن كانت هنا وهناك تسقط أشعة شمس ساطعة في أعمدة متوهجة من النوافذ الشرقية، عالية تحت الحواف العميقة. وعبر الكُوَّة التي كانت في السقف، فوق الحزم الرقيقة من الدخان المتصاعد، ظهرت

السماء شاحبة وزرقاء. ولما تغيرت أعين المسافرين، فإنهم أدركوا أن الأرض كانت ممهدة بصخور ذات ألوان كثيرة؛ كانت هناك حروف رونية وأدوات غريبة متشعبة متشابكة تحت أقدامهم. ورأوا الآن أن الأعمدة كانت منحوتة على نحو ثري، تتوهج وهجًا باهتًا بالذهب وألوان نصف مرئية. كان هناك الكثير من الملابس المنسوجة معلقة فوق الجدران، وعلى مساحاتها الكبيرة كانت تمشي أشكال من الأساطير القديمة، بعضها باهتٌ من فرط السنين، وبعضها مظلمٌ في الظلال. ولكن الشمس كانت تنزل على شكل من هذه الأشكال؛ شاب على حصان أبيض، كان ينفخ بوقًا عظيمًا، وكان شعره الأصفر يطير في الريح. كان رأس الحصان مرفوعًا، وكان منخاراه واسعين ولونهما أحمر وهو يصهل، وهو يشم رائحة المعركة بعيدًا. كانت المياه المزبدة، خضراء وبيضاء، تتدافع وتتحرك بطريقة لولبية حول ركبتيه.

وقال أراجورن: «انظروا إلى إيورل الصغير! هكذا ركب حصانه قادمًا من الشمال إلى معركة ميدان سيلبيرانت».

والآن سار الرفاق الأربعة إلى الأمام، أمام نار الخشب الصافية التي كانت مشتعلة فوق الموقد الطويل في وسط البهو. وعندئذ توقفوا. في النهاية البعيدة من الدار، فيما وراء المدفأة، وفي مواجهة الشمال باتجاه الأبواب كانت هناك منصة لها درجات ثلاث؛ وفي وسط المنصة كان هناك كرسي مطلي بالذهب. وكان يجلس فوقه رجل منحنٍ من أثر السنين لدرجة أنه كان يبدو قزمًا؛ ولكن شعره الأبيض كان طويلاً وكثيفًا وكان يسقط في ضفائر كبيرة من وراء عقد ذهبي رقيق موضوع على جبينه. في الوسط فوق جبهته كانت تسطع ماسة بيضاء واحدة. كانت لحيته ترقد على ركبتيه مثل الثلج؛ ولكن عينيه كانتا لا تزالان تلتمعان بضوء براق، يتوهج وهو ينظر في الغرباء. وكانت تقف وراء كرسيه امرأة ترتدي ثيابًا بيضاء. وعند قدميه فوق الدرجات كان يجلس رجل ذابل الشكل، له وجه شاحب حكيم وعينان مثقلتان بالجفون.

وكان هناك صمت. لم يتحرك الرجل العجوز في كرسيه. وأخيرًا تحدث جندلف قائلاً: «مرحبًا، يا ثيودن ابن ثنجل! لقد عدتُ. انظر! العاصفة تأتي، والآن يجب أن يتجمع جميع الأصدقاء، مخافة أن يتم تدميرهم كل على حدة واحدًا بعد الآخر».

ونهض الرجل العجوز بطيئًا واقفًا على قدميه، يتكئ بشدة على عصا سوداء قصيرة لها مقبض من عاج أبيض؛ والآن رأى الغرباء أنه على الرغم من أنه كان محنيًا، فإنه كان لا يزال طويلاً ولا بد أنه كان في شبابه شامخًا وفخورًا حقًا.

وقال: «إنني أحييكم وربما تكونون تبحثون عن الترحيب، ولكن أخبركم الحقيقة، إن الترحيب بكم مشكوك فيه هنا، أيها السيد جندلف. لقد كنتَ دائمًا نذير ويل وكرب.

المتاعب تتبعك مثل الغربان، وعلى الدوام كلما زاد مجيئك كان ذلك أكثر سوءًا. إنني لن أخدعك؛ فعندما سمعتُ أن شادوفاكس قد عاد بدون خيالة، فإنني فرحتُ بعودة الحصان، ولكن كان لا يزال هناك الكثير عن عدم وجود الخيالة؛ وعندما جاء إيومر بالأخبار أنك قد ذهبت أخيرًا إلى مثواك الأخير، فإنني لم أحزن. ولكن الأخبار من بعيد نادرًا ألا يبالغ فيها. وهأنتذا تأتي مرة أخرى! ويأتي معك شرور أكثر سوءًا من ذي قبل، كما يمكن أن يُتوقع. لماذا ينبغي على أن أرحب بك، يا جندلف نذير العواصف؟ أخبرني بذلك». وبطيئًا جلس مرة أخرى في كرسيه.

وقال الرجل الشاحب الذي كان جالسًا فوق درجات المنصة: «إنك تتكلم كلامًا صائبًا يا سيدي. لم تمض خمسة أيام بعد منذ أن جاءت الأخبار المريرة أن ثيودرد ابنك قد ذُبح في المستنقعات الغربية؛ ساعدك الأيمن، المارشال الثاني للمارك. في إيومر هناك القليل من الثقة. رجال قليلون سيُتركون لحراسة جدرانك، لو أنه كان سُمح له بالحكم. بل وحتى الآن فإننا نعلم من جوندور أن سيد الظلام يتحرك في الشرق. تلك هي الساعة التي يختار فيها هذا الجوال العودة. لماذا ينبغي علينا حقًا أن نرحب بك، أيها السيد نذير العواصف؟ إنني أسميك لاذسبيل، الأخبار السيئة؛ والأخبار السيئة ضيف سيئ كما يقولون». وضحك في عبوس، وهو يرفع جفونه الثقيلة في هذه اللحظة ويحدق في الغرباء بعينين كئيبتين.

وأجاب جندلف في صوت منخفض: «إنك تعتبر حكيمًا، يا صديقي وورمتونج، وأنت بلا شك سند عظيم لسيدك. ولكن يمكن أن يأتي الشخص بأخبار سيئة في حالتين. قد يكون جالبًا للشر؛ أو قد يكون شخصًا يظل بمفرده، ولا يأتي إلا ليجلب المساعدة في وقت الحاجة».

فقال وورمتونج: «إن الأمر كذلك، ولكنْ هناك نوع ثالث؛ جامعو العظام الذين يتدخلون في أحزان الآخرين، طائر الجيف الذي يسمن على الحروب. أي مساعدة جلبتها أبدًا، يا نذير العواصف؟ وما المساعدة التي تجلبها الآن؟ لقد كانت المساعدة منا هي التي سعيتَ للحصول عليها في المرة الأخيرة التي كنتَ فيها هنا. وعندئذ طلب منك سيدي أن تختار أي حصان تريده وتمضي؛ ولدهشة الجميع فإنك أخذت شادوفاكس في غطرستك وعجرفتك. كان سيدي حزينًا حزنًا بالغًا؛ ولكن بالنسبة للبعض بدا أن ثمن الإسراع بإخراجك من البلاد لم يكن غاليًا أكثر من اللازم. أظن أن الأمر سيتضح أنه هو نفس الشيء مرة أخرى: «سوف تسعى للحصول على المساعدة أكثر من تقديمها. هل تحضر الرجال؟ هل تحضر الخيل والسيوف والرماح؟ هذا ما يمكن أن أسميه مساعدة؛ هذه هي حاجتنا الحالية. ولكن من هم أولئك الذين يتبعونك؟ ثلاثة جوالين يرتدون ملابس رمادية مهلهلة، وأنت نفسك أكثر الثلاثة شبهًا بالمتسولين!».

فقال جندلف: «إن لطف بهوك قل أخيرًا بحال من الأحوال يا ثيودن بن ثنجل. ألم يقل لك الرسول الذي جاء من عند البوابة أسماء رفاقي؟ تدر أن يستقبل أي سيد من سادة روهان ثلاثة ضيوف كهؤلاء. الأسلحة وضعوها على أبوابك وهي تساوي الكثير من الرجال الفانين، حتى أعظمهم. ثيابهم رمادية؛ لأن الجن هم الذين ألبسوهم هذه الثياب، وهكذا فقد مروا خلال ظل الأخطار العظيمة إلى بلاطك».

فقال وورمتونج: «إذن فإنه صحيح، كما قال إيومر، أنك متحالف مع ساحرة الغابة الذهبية، ليس هذا شيء يدعو للعجب والاستغراب: شباك الخداع كانت دائمًا تُحبك في دويموردين».

وتقدم جيملي للأمام خطوة واسعة، ولكن شعر فجأة بيد جندلف تمسك به من كتفه، فتوقف متصلبًا مثل الحجر.

في دويموردين، في لورين
نادرًا ما مشت أقدام البشر،
أعين فانية قليلة رأت الضياء
الذي يرقد هناك للأبد، طويلاً وبراقًا.
جلدريل! جلدريل!
صافية مياه بئرك؛
ابيض النجم الذي في يدك البيضاء؛
غير فاسدة، غير ملوثة الورقة والأرض
في دويموردين، في لورين
أكثر جمالاً من أفكار البشر الفانين.

هكذا غنى جندلف، وبعد ذلك تغير فجأة. وطرح معطفه المهلهل جانبًا، ووقف ولم يعد يتكئ على عصاه؛ وتحدث في صوت واضح بارد:

«الحكماء يتحدثون فقط عما يعرفونه، يا جريما[1] بن جالاموند. لقد أصبحت أفعى[2] عديمة الذكاء. ومن ثم الزم الصمت، وأبق لسانك المشعب خلف أسنانك. إنني لم أمر عبر النار والموت لأتبادل الكلمات الملتوية مع خادم حتى يحل البرق».

(1) Wormtongue ـ في مكان من الأماكن أوصى المؤلف بالإبقاء عليها كما هي؛ وجاء في مكان آخر وشرح الكلمة قائلا إنها صيغة محدثة من لقب (جريما [Gr?ma]) ـ مستشار روهان الشرير: والكلمة في لغة روهان هي [wyrm-tunga] وتقابل [snake-tongue] أي [لسان الأفعي]، وأوصى بترجمتها على هذا النحو [لسان الأفعى]. (المترجم)

(2) الإشارة هنا إلى اسمه [Wormtongue]، انظر الشرح السابق. (المترجم)

ورفع عصاه فدوَّت مثل الرعد. وانمحى ضوء الشمس من النوافذ الشرقية؛ أصبح البهو بأسره فجأة مظلمًا مثل الليل. وتلاشت النار وتحولت إلى جمرات كليلة. لم يكن يُرى سوى جندلف، يقف أبيض وطويلاً أمام المدفأة السوداء.

في الظلام سمعوا هسيس صوت وورمتونج: «ألم أشر عليك يا مولاي، أن تمنع عصاه من الدخول؟ ذلك الأحمق هاما خدعنا!» وجاء وميض كما لو أن البرق قد شق السقف. عندئذ أصبح كل شيء صامتًا. انبطح وورمتونج على وجهه.

وقال جندلف: «الآن يا ثيودن بن ثنجل، هل ستصغي إليّ؟ هل تطلب المساعدة؟».

ورفع عصاه وأشار إلى نافذة عالية. وهنالك بدت الظلمة تنقشع، وكان يُرى عبر الفتحة، عاليًا وبعيدًا، بقعة من سماء ساطعة. «ليس كل شيء مظلمًا. تشجع، يا ملك المارك؛ لأنك لن تجد مساعدة أفضل. ليس لدي ما أشير به على أولئك الذين ييئسون. ولكن النصيحة يمكنني أن أقدمها لك، والكلمات يمكنني أن أتحدث بها إليك. هل ستسمعني؟ إنها ليست لكل الآذان. إنني أطلب منك أن تخرج أمام أبوابك وتنظر في كل اتجاه. لقد جلستَ طويلاً أكثر من اللازم في الظلام ووثقتَ في الحكايات الملتوية المحرفة والتحريضات الملتوية».

وفي بطء ترك ثيودن كرسيه. وبزغ ضوء خافت في البهو مرة أخرى. وأسرعت المرأة إلى جانب الملك، تأخذ ذراعه، وفي خطوات مترددة نزل الرجل العجوز من فوق المنصة وراح يخطو في ضعف عبر البهو. وظل وورمتونج منبطحًا على الأرض. وجاءوا إلى الأبواب وطرق جندلف، وصاح:

«افتح! ملك المارك يتقدم!».

وتراجعت الأبواب للوراء ودخل هواء شديد له صفير. كانت هناك ريح تهب على التل.

وقال له جندلف: «أرسل حراسك إلى أسفل السُلَّم. وأنت، يا سيدتي، اتركيه بعض الوقت معي. سوف أعتني به».

وقال لها الملك العجوز: «اذهبي يا إيو وين يا بنة أختي! لقد مضى زمن الخوف».

ودارت المرأة وذهبت في بطء إلى المنزل. وبينما هي تمر بالأبواب التفتت ونظرت للوراء. كانت نظرتها حزينة ومستغرقة في التفكير، وهي تنظر إلى الملك وشفقة باردة في عينيها. كان وجهها جميلاً جدًا، وكان شعرها الطويل مثل نهر من الذهب. كانت نحيلة وطويلة في ردائها الأبيض المطوق بحزام من الفضة؛ ولكنها كانت تبدو قوية وصلبة مثل الصلب، ابنة ملوك. هكذا رأى أراجورن للمرة الأولى على مدى يوم كامل إيو وين، سيدة روهان، ورأى أنها جميلة، جميلة وباردة، مثل صباح ربيع شاحب لم تأت بعد إلى مرحلة الأنوثة. وأصبحت فجأة مدركة لوجوده: سليل ملوك طويل، حكيم

بما مر به من سنين، مرتديًا معطفًا رماديًا، يخفي قوة هي أيضًا أحست بها. ووقفت ساكنة للحظة مثل صخر، بعد ذلك التفتت سريعًا ومضت في طريقها.

وقال جندلف: «والآن يا مولاي، انظر إلى بلادك! تنفس الهواء الطلق مرة أخرى!».

ومن الشرفة فوق أعلى المصطبة العالية كانوا يرون فيما وراء نبع الماء حقول روهان الخضراء تتلاشى متحولة إلى اللون الرمادي عبر المسافات الطويلة. وانحدرت ستائر من مطر تدفعه الريح هابطة. كانت السماء فوقهم وإلى الغرب لا تزال مظلمة بالرعد، وكان البرق بعيدًا يومض بين قمم التلال المختفية. ولكن الريح كانت قد تحولت إلى الشمال، وبالفعل كانت العاصفة التي جاءت من الشرق تتقهقر، وتنطلق بعيدًا نحو الجنوب إلى البحر. وفجأة عبر شق في السحاب وراءهم جاء عمود من الشمس مخترقًا السحاب. وومض وابل المطر مثل الفضة، وبعيدًا راح النهر يومض مثل زجاج متألق.

وقال ثيودن: «الدنيا ليست مظلمة جدًا هنا».

فقال جندلف: «كلا. ولا العمر يرقد ثقيلاً جدًا على كتفيك مثلما يجعلك البعض تظن. ارم عكازك بعيدًا!».

ومن يد الملك سقطت العصا السوداء تقعقع على الصخور. وببطء استجمع قوته كرجل تصلب من طول الانحناء في عمل كاد كئيب. والآن وقف طويلاً ومستقيمًا، وكانت عيناه زرقاوين وهو ينظر في السماء المفتوحة؛ وقال:

«كانت أحلامي مظلمة كئيبة في الفترة الأخيرة، ولكني أشعر كأني شخص استيقظ حديثًا. لكم كنت أتمنى الآن أنك قد جئت من قبل يا جندلف. لأنني أخشى أن تكون قد جئت بعد فوات الأوان، فقط لترى الأيام الأخيرة لمنزلي. لن يستمر طويلاً البهو العالي الذي بناه برجو ابن إيورل. سوف تلتهم النار الكرسي. ما الذي ينبغي فعله؟».

فقال جندلف: «الكثير. ولكن أرسل أولاً في طلب إيومر. أليس تخميني صائبًا أنك تحسبه، بناء على نصيحة من جريما الذي يسميه الجميع ماعدا أنت، لسان الأفعى (وورمتونج)؟».

فرد عليه ثيودن قائلاً: «هذا صحيح. لقد تمرد على أوامري، وهدد جريما بالموت في بهوي».

فقال جندلف: «قد يحبك أحد الرجال بينما لا يحب وورمتونج ولا نصائحه».

«ربما يكون ذلك. سوف أفعل بناء على طلبك. أستدع هاما إلي. حيث إنه ثبت أنه لا يمكن الوثوق به كحارس للبوابة، فلنجعله يصبح حامل رسائل. سيسوق المذنب المذنب إلى الحكم» ـ قال ذلك ثيودن، وكان صوته شرسًا، ومع ذلك نظر إلى جندلف

وابتسم، وبينما كان يفعل ذلك؛ فإن الكثير من تجاعيد الهم استقامت وتلاشت ولم تعد إلى وجهه.

وعندما تم استدعاء هاما ومضى في مهمته، قاد جندلف ثيودن إلى كرسي من حجر، وبعد ذلك جلس هو نفسه أمام الملك على أعلى درجة. ووقف أراجورن ورفاقه قريباً منهما.

وقال جندلف: «ليس هناك وقت لأقص عليك كل ما ينبغي عليك سماعه. ولكن إذا لم يخني الأمل، فسوف يأتي الوقت قبل أن يمضي وقت طويل عندما يكون بإمكاني أن أتكلم بشكل أكثر تمامًا وكمالاً. انظر! لقد وصلت إلى خطر أعظم حتى مما يمكن لقريحة وورمتونج أن تنسج في أحلامك. ولكن انظر! إنك لم تعد تحلم. أنت تعيش. جوندور وروهان لا تقفان وحدهما. العدو قوي بما يفوق تقديرنا، ولكن لدينا أمل لم يصل تخمينه إليه».

وتحدث جندلف سريعًا عندئذ. كان صوته منخفضًا وغامضًا، ولم يسمع أحد سوى الملك ما قاله. ولكن النور كان يسطع دائمًا، وهو يتحدث، دائمًا أكثر إشراقًا في عين ثيودن، وأخيرًا نهض من مجلسه واقفًا ناصبًا قامته تمامًا، وجندلف إلى جواره، ونظرا معًا من المكان المرتفع باتجاه الشرق.

وقال جندلف، وقد أصبح صوته عاليًا الآن، وحادًا وواضحًا: «حقًا في ذلك الطريق يقع أملنا، حيث يجلس أعظم أخطارنا. القدر لا يزال معلقًا على خيط رفيع. ولكن لا يزال الأمل هناك، إذا استطعنا فقط أن نصمد دون أن ننهزم بعض الوقت».

وحول الآخرون أيضًا أبصارهم الآن باتجاه الشرق. فوق الفراسخ المتباعدة من الأراضي، بعيدًا جدًا راحوا يحدقون على مدى البصر، وراح الأمل والخوف يحملان أفكارهم بعيدًا بعيدًا، إلى ما وراء الجبال إلى أرض الظل. أين كان حامل الخاتم الآن؟ كم هو رفيع حقًا الخيط الذي لا يزال القدر معلقًا عليه! بدا لليجولاس، وهو يشحذ عينيه بعيدتي النظر، أنه رأى وميضًا أبيض؛ وبعيدًا جدًا بمحض المصادفة تلألأت الشمس على قمة برج الحراس. وكان لا يزال على مسافة أكثر بعدًا، بعيدًا إلى ما لا نهاية ولكنه يشكل تهديدًا حاضرًا، لسان صغير من لهب.

وفي بطء جلس ثيودن مرة أخرى، كما لو كان الإرهاق لا يزال يجاهد ليقهر ضد إرادة ورغبة جندلف. والتفت ونظر إلى منزله العظيم، وقال: «يا أسفاه! إن هذه الأيام الشريرة تكون أيامي وتأتي في أيام هرمي بدلاً من السلام الذي أستحقه وأستأهله. يا أسفاه على بورمير الشجاع! الشباب يهلك والعجوز يبقى، ذابلاً». وقبض على ركبتيه بيديه المجعدتين.

فقال جندلف: «إن أصابعك سوف تتذكر. أصابعك قوتها القديمة أفضل، لو أنها أمسكت بمقبض السيف».

ونهض ثيودن ووضع يده على جانبه؛ ولكن لم يكن هناك سيف معلق في حزامه؛ وغمغم قائلاً وهو لا يكاد يسمع: «أين وضعه جريما؟».

فقال له صوت واضح: «خذ هذا، يا مولاي العزيز! لقد كان دائمًا في خدمتك». لقد جاء رجلان صاعدان السلم سريعًا ووقفا الآن على مسافة عدة خطوات من القمة. كان إيومر موجودًا. لم تكن هناك خوذة على رأسه ولم يكن هناك درع على صدره، ولكنه كان ممسكًا في يده بسيف مستل؛ وبينما كان جاثيًا على ركبتيه قدم المقبض لسيده.

«كيف يكون ذلك؟». ـ قال ثيودن في عبوس. والتفت باتجاه إيومر، ونظر الرجال في عجب إليه، وهو يقف الآن شامخًا منتصبًا. أين كان الرجل العجوز الذي كان قد تركه جاثيًا في كرسيه أو متكئًا على عصاه؟

وقال هاما وهو يرتعش: «إن هذا من صنيعي يا مولاي. كنتُ أفهم أن أيومر سيطلق سراحه. لقد كان في قلبي فرح بالغ لدرجة أنني ربما أكون قد أخطأت. ولكن، حيث إنه أصبح حرًا مرة أخرى، وهو مارشال المارك، فإنني أحضرتُ له سيفه كما أمرني».

فقال إيومر: «لأضعه تحت قدميك يا مولاي».

وللحظة من صمت وقف ثيودن ينظر لأسفل إلى إيومر وهو لا يزال راكعًا أمامه. ولم يتحرك.

وقال جندلف: «ألن تأخذ السيف؟».

وببطء مدَّ ثيودن يده. وبينما أخذت أصابعه المقبض، بدا للذين كانوا يشاهدونه أن الصلابة والقوة عادت إلى ذراعه. وفجأة رفع السيف ولوَّح به وهو يومض ويصفر في الهواء. بعد ذلك صاح صيحة عظيمة. ودوى صوته واضحًا وهو يغني بلغة روهان دعوة لحمل السلاح.

انهضوا الآن، انهضوا، خيالة ثيودن!
الأعمال العظيمة تستيقظ، الدنيا ظلام نحو الغرب.
لتلجموا الخيل، وتطلقوا الأبواق!
إلى الأمام يا شعب إيورل!

ـ وقفز الحراس صاعدين السلالم، ظنًّا منهم أنه قد تم استدعاؤهم. نظروا إلى مليكهم في ذهول، وبعدئذ وعلى قلب رجل واحد استلوا سيوفهم ووضعوها عند قدميه، قائلين: «لتأمرنا بما تشاء!».

وصاح إيومر: إنها فرحة لنا أن نراك تعود إلى سابق عهدك. لن يقال أبدًا مرة أخرى، يا جندلف، إنك تأتي فقط بالأحزان!».

وقال الملك: «خذ سيفك يا إيومر يا ابن أختي! اذهب يا هاما وابحث عن سيفي أنا! جريما يحتفظ به معه. أحضره لي هو أيضًا. والآن يا جندلف قلتَ إن لديك نصيحة تقدمها لنا، إذا كنتُ سأسمعها، فما نصيحتك؟».

وأجابه جندلف قائلاً: «لقد أخذت أنت بنصيحتي بالفعل. أن تثق بإيومر، لا أن تثق في رجل عقله غير مستقيم أو غير سليم. وأن تطرح الندم والخوف جانبًا. أن تؤدي العمل الذي هو في المتناول. كل رجل ممن يمكنهم ركوب الخيل يجب أن يتم إرساله إلى الغرب في الحال، كما أشار عليك بذلك إيومر: يجب علينا أولاً أن ندمر تهديد سارومان، مادام أمامنا وقت لذلك. وإذا فشلنا، سقطنا. وإذا نجحنا ـ عندئذ سوف نواجه المهمة التالية. في ذات الوقت، فإن قومك الذين تُركوا؛ النساء والأطفال والعجائز، يجب أن يفروا إلى الملاذات التي لديكم في الجبال. ألم تكن قد أعددت ليوم شرير كهذا؟ دعهم يأخذوا معهم المؤن، ولكن دون تأخير، ويجب ألا يحملوا أنفسهم بالكنوز، كبيرة كانت أو صغيرة. إن حياتهم هي المعرضة للخطر».

فقال ثيودن: «النصيحة تبدو جيدة بالنسبة لي الآن. ليستعد جميع أهلي! ولكنكم أنتم يا ضيوفي حقًا قلتَ يا جندلف إن بلاطي لم يعد لطيفًا كما كان. لقد سرتم بخيلكم طوال الليل، والنهار يكاد ينقضي. ولم تناموا ولم تتناولوا طعامًا. سوف يتم إعداد دار للضيافة: هناك ستنامون، عندما تكونون قد تناولتم الطعام».

فقال أراجورن: «كلا يا مولاي. ليست هناك راحة بعد للمتعبين. يجب أن ينطلق رجال روهان اليوم، وسوف ننطلق نحن معهم، البلْطة، والسيف، والقوس. إننا لم نحضر أسلحتنا معنا لتستريح على جدارك، يا ملك المارك. وقد وعدتُ إيومر أن سيفي وسيفه سوف يستلان معًا».

فقال إيومر: «الآن حقًا هناك أمل في النصر!».

وقال جندلف: «أمل، نعم. ولكن آيزنجارد قوية. وهناك أخطار أخرى تصبح أكثر قربًا. لا تتأخروا، يا ثيودن، عندما نمضي. لتقد قومك سريعًا إلى معقل دانهارو في التلال!».

وقال الملك: «كلا، يا جندلف! إنك لا تعرف ما لديك من مهارة في الشفاء. لن يكون الأمر كذلك. أنا نفسي سوف أذهب للحرب، لأسقط في جبهة القتال، إذا كان لا بد من ذلك. هكذا سوف أنام بشكل أفضل».

وقال أراجورن: «إذن حتى هزيمة روهان ستكون مجيدة في أغنية». وضرب الرجال المسلحون الذين كانوا يقفون قريبًا أسلحتهم مع بعضها وصاحوا: «ملك المارك سوف يخرج للقتال! إلى الأمام يا رجال إيورل!».

وقال جندلف: «ولكن شعبك يجب ألا يكون غير مسلح وبدون راعٍ. من الذي سيوجههم ويحكمهم في مكانك؟».

وأجابه ثيودن قائلاً: «سوف أفكر في ذلك قبل أن أمضي. ها هو ذا مستشاري».

في هذه اللحظة جاء هاما مرة أخرى من البهو. وجاء وراءه منكمشًا خوفًا ومتذللاً بين رجلين آخرين جريما (لسان الأفعى). كان وجهه شاحبًا جدًا. كانت عيناه تطرفان في ضوء الشمس. وانحنى هاما وقدم سيفًا طويلاً لثيودن في قِراب له مشبك من ذهب ومرصع بالجواهر الخضراء، وقال:

«مولاي، ها هو ذا هيروجريم، سيفك القديم. لقد عثر عليه في خزانته. لقد كان كارهًا أن يعطينا المفاتيح. وأشياء أخرى كثيرة هناك كان الرجال قد فقدوها».

فقال وورمتونج: «أنت تكذب. وهذا السيف أعطاه لي سيدك لأحتفظ به في عهدتي».

فقال ثيودن: «وهو الآن يطلبه منك مرة أخرى. هل هذا يغضبك؟».

فقال وورمتونج: «بكل تأكيد لا يا مولاي. إنني أعتني بك وبما يخصك بأفضل ما في استطاعتي. ولكن لا تتعب نفسك، أو ترهق قوتك على نحو ثقيل أكثر من اللازم. دع آخرين يتعاملون مع هؤلاء الضيوف المثيرين للضجر. إن طعامك على وشك أن يوضع على المائدة. ألن تذهب إليه؟».

فقال ثيودن: «سوف أذهب. وليتم إعداد الطعام لضيوفي ليجلسوا على المائدة إلى جواري. الجيش يتحرك اليوم. لترسل السفراء قدمًا! دعهم يستدعوا كل أولئك الذين يسكنون قريبًا! كل رجل وغلام قوي يستطيع أن يحمل السلاح، كل من لديهم خيل، ليستعدوا جميعًا على سروجهم عند البوابة قبل الساعة الثانية من الظهيرة!».

وصاح وورمتونج: «مولاي العزيز! الأمر كما كنتُ أخشى. هذا الساحر أصابك بسحره. ألن يُترك أحد ليدافع عن البهو الذهبي ـ بهو آبائك، وكل ما لديك من كنوز؟ ألن يُترك أحد ليحرس ملك المارك؟».

فرد عليه ثيودن قائلاً: «إذا كان هذا سحرًا، فإنه يبدو لي أكثر نفعًا من همسات. إن علاجك قبل وقت طويل كان سيجعلني أمشي على أربعتي مثل حيوان. كلا، لن يُترك أحد، ولا حتى جريما. جريما سوف يخرج للحرب أيضًا. اذهب! لا يزال أمامك وقت لتنظف الصدأ من سيفك».

وقال وورمتونج وهو ينتحب وهو منبطح على الأرض: «الرحمة يا مولاي! لتشفق على شخص أفنى نفسه في خدمتك. لا تبعدني من جانبك! أنا على الأقل سوف أقف إلى جوارك عندما يكون الجميع قد مضوا. لا تبعد جريما رجلك المخلص!».

فقال ثيودن: «أنت خذ شفقتي ولا أبعدك عن جانبي. أنا نفسي ذاهب للحرب مع رجالي. وإنني آمرك أن تأتي معي وتبرهن على إخلاصك».

وراح وورمتونج ينظر من وجه لوجه. وفي عينيه كانت هناك نظرة فاحصة لحيوان يبحث عن فجوة في دائرة أعدائه. ولعق شفتيه بلسان طويل شاحب[1]. «هذا القرار قد يكون متوقعًا من سيد منزل إيورل، على الرغم من أنه قد يكون عجوزًا. ولكن أولئك الذين يحبون حقًّا سوف يرحمون سني عمره الضعيفة. ولكني أرى أنني أتيتُ متأخرًا بعد فوات الأوان. آخرون الذين يحتمل أن يحزنهم موت مولاي بدرجة أقل، قد أقنعوه فعلاً. إذا لم أستطع أن أبطل عملهم، اسمعني على الأقل في هذه، يا مولاي. إن شخصًا يعرف عقلك ويحترم ويمجد أوامرك يجب أن يُترك في إدوراس. لتعين قهرمانًا مخلصًا. لتدع مستشارك جريما يحتفظ بكل شيء حتى عودتك، وإنني أرجوك أن نتدبر الأمر، على الرغم من أن أي رجل حكيم لن يعتبر ذلك مشجعًا وموحيًا بالأمل».

وضحك إيومر وقال: «وإذا كان هذا الاستجداء لا يعفيك من الحرب، يا وورمتونج الأكثر نبلاً، أي منصب أقل شرفًا يمكن أن تقبله؟ أن تحمل جوالاً من طعام تصعد به إلى الجبال إذا كان أي رجل يستودعك إياه؟».

فقال جندلف، وقد حول نظرته الثاقبة عليه: «كلا يا إيومر إنك لا تفهم فهمًا تامًا عقل سيدي وورمتونج. إنه شجاع وداهية. إنه حتى الآن يلعب لعبة مع الخطر ويفوز برمية. لقد ضيع ساعات من وقتي الثمين بالفعل. انزل، أيها الأفعى!» قال ذلك فجأة بصوت رهيب. «انزل على بطنك! كم مضى من الزمن منذ اشتراك ساروما‌ن؟ ماذا كان السعر الذي وعدك به؟ عندما يموت كل الرجال، فإنك ستأخذ نصيبك من الكنز، وتأخذ المرأة التي تريدها؟ لقد شاهدتَها طويلاً للغاية من تحت جفونك ولازمت خطواتها».

وقبض إيومر على سيفه، وقال مدمدمًا: «هذا عرفتُه بالفعل. ولهذا السبب كنتُ سأذبحه من قبل، ناسيًا قانون البلاط. ولكن هناك أسباب أخرى». وسار للأمام، ولكن جندلف صده بيده، وقال:

«إيووين في أمان الآن. ولكنك أنت، يا وورمتونج، فقد فعلتَ ما باستطاعتك لسيدك الحقيقي. وقد نلتَ بعض المكافأة على الأقل. ولكن ساروما‌ن يميل إلى نسيان صفقاته. إنني أنصحك أن تذهب سريعًا وتذكره، خشية أن ينسى خدمتك المخلصة».

فقال وورمتونج: «أنت تكذب».

وقال جندلف: «هذه الكلمة تأتي كثيرًا وبسهولة من شفتيك. إنني لا أكذب. انظر، يا ثيودن، ها هو ذا ثعبان! لا يمكنك أن تأخذه معك بأمان، كما لا يمكنك أن تتركه وراءك. إن ذبحه سيكون عدلاً. ولكنه لم يكن دائمًا كما هو الآن. لقد كان رجلًا في

(1) المؤلف هنا يشير إلى تسميته (لسان الأفعى)!! (المترجم)

وقت مضى، وقام بخدمتك على طريقته. أعطه حصانًا ودعه يمضي في الحال، في أي مكان يختاره. حسب اختياره سوف تحكم عليه».

فقال ثيودن: «هل سمعت هذا يا وورمتونج؟ هذا هو اختيارك؛ أن تخرج معي للحرب، ولنر في المعركة إن كنت مخلصًا؛ أو أن تذهب الآن، إلى حيث تشاء. ولكن عندئذ، إذا حدث وتقابلنا مرة أخرى، فإنني لن أكون رحيمًا».

ونهض وورمتونج بطيئًا. ونظر إليهم بعينين نصف مغلقتين. وأخيرًا مسح وجه ثيودن وفتح فمه كما لو كان سيتحدث. وبعد ذلك فجأة امتنع عن الكلام. وتحركت يداه. وومضت عيناه. كان فيهما حقد ومكر لدرجة أن الرجال تراجعوا عنه. وكشف عن أسنانه؛ وعندئذ وفي نفس مثل الهسيس بصق أمام قدمي الملك، واندفع جانبًا، وانطلق نازلاً السلم.

وقال ثيودن: «وراءه! تأكد أنه لم يلحق أي أذى بأحد، ولكن لا تؤذه أو تعقه. أعطه حصانًا، إذا أراد ذلك».

وقال إيومر: «وإذا كان أي حصان سوف يحمله».

وجرى واحد من الحراس نازلاً السلم. وذهب آخر إلى البئر الموجودة عند أسفل المصطبة وسحب الماء في خوذته، وغسل بالماء الحجارة التي لوثها وورمتونج.

وقال ثيودن: «والآن يا ضيوفي، تعالوا! تعالوا وتناولوا وجبة طعام خفيفة بقدر ما تسمح به العجلة».

وعادوا إلى المنزل الكبير. وقد سمعوا بالفعل أسفل منهم في المدينة الرسل يصيحون وأبواق الحرب تنفخ؛ لأن الملك كان سينطلق بمجرد أن يتم تسليح وتجميع رجال المدينة وأولئك الذين يسكنون قريبًا منها.

وجلس على مائدة الملك إيومر والضيوف الأربعة، وكانت هناك أيضًا السيدة إيووين تقوم على خدمة الملك. وأكلوا وشربوا سريعًا. وكان الآخرون صامتين بينما كان ثيودن يستفسر من جندلف عن ساروما ن.

وقال جندلف: «إلى أي مدى تعود خيانته؟ من يستطيع أن يخمن ذلك؟ لم يكن دائمًا شريرًا. في وقت من الأوقات لم أشك أبدًا أنه كان صديقًا لروهان؛ بل وحتى عندما أصبح قلبه أكثر برودًا، كان يجدكم مفيدين أيضًا. ولكن منذ زمن طويل الآن فإنه دبر تدميركم، مرتديًا قناع الصداقة، حتى يصبح مستعدًا. في تلك السنوات كانت مهمة وورمتونج سهلة، وكل ما كنت تفعله كان يعرف سريعًا في آيزنجادر؛ لأن بلادك كانت مفتوحة، وكان الغرباء يأتون ويذهبون. وكانت همسات وورمتونج دائمًا في أذنيك، يسمم أفكارك، ويثبط قلبك، ويضعف أطرافك، في حين كان الآخرون يشاهدون ولا يستطيعون أن يفعلوا أي شيء؛ لأن إرادتك كانت في حوزته.

«ولكن عندما هربْتُ وحذرتُك، عندئذ تمزق القناع بالنسبة لأولئك الذين يرون. بعد ذلك لعب ورمتونج لعبًا خطيرًا، دائمًا يسعى إلى إعاقتك، إلى منع استجماعك كامل قوتك. كان ماكرًا؛ كان يجلس يقظًا فيفت في عضد الرجال، أو يعمل على تخويفهم، حسبما تسمح به الظروف. ألا تذكر كم كان يحض في لهفة ألا يترك أي رجل في مطاردة عقيم نحو الشمال، عندما كان الخطر الملح نحو الغرب؟ لقد أقنعك أن تمنع إيومر من مطاردة الأوركيين الغزاة. لو أن أيومر لم يتحد صوت ورمتونج الذي كان يتحدث بلسانك، لكان هؤلاء الأوركيون قد وصلوا إلى آيزنجارد الآن، حاملين هدية عظيمة. ليست هي في واقع الأمر الهدية التي كان يريدها سارومان فوق كل شيء، ولكن على الأقل فردان من صحبتي، مشاركان لأمل سري، لا يمكنني أن أتحدث عنه حتى معك يا مولاي بصراحة. هل تجرؤ على التفكير فيما يمكن أن يكونا يعانيان منه الآن، أو ما كان يمكن أن يكون سارومان قد عرفه مسببًا دمارنا وهلاكنا؟».

فقال ثيودن: «إنني أدين بالكثير لإيومر. القلب المخلص يملك لسانًا جريئًا تواقًا».

وقال جندلف: «قل أيضًا إن الحقيقة بالنسبة للعيون الماكرة الخبيثة قد تلبس وجهًا عنيدًا».

فقال ثيودن: «حقًا لقد كانت عيناي تقريبًا عمياوين. إنني أدين لك بالكثر يا ضيفي. وها أنت ذا مرة أخرى تأتي في الوقت المناسب. سوف أعطيك هدية قبل أن نمضي، حسب اختيارك. كل ما عليك هو أن تذكر أي شيء يكون ملكًا لي. كل ما أحتفظ به الآن هو سيفي!».

فقال جندلف: «سواء كنتُ قد جئتُ في الوقت المناسب أم لا فإن هذا سوف يرى بعد. ولكن فيما يتصل بهديتك يا مولاي فسوف أختار هدية تناسب حاجتي: سريعة وقوية. أعطني شادوفاكس! فقد أعرتني إياه فقط من قبل، إذا كنا سنسمي ذلك إعارة. ولكن الآن سوف أركبه إلى مخاطر عظيمة، واضعًا الفضة مقابل السواد: إنني لن أخاطر بأي شيء ليس ملكي الخاص. وبالفعل هناك رباط من حب بيننا».

وقال له ثيودن: «أنت تختار جيدًا، وأنا أعطيه لك بكل سرور. ولكنها هدية عظيمة. ليس هناك من شيء مثل شادوفاكس. لقد عاد فيه واحد من جياد الماضي العظيمة. لن يعود مثله أبدًا مرة أخرى. وسوف أعرض عليكم يا ضيوفي الآخرين الأشياء التي قد أجدها في مستودع أسلحتي. السيوف لا تحتاجون إليها، ولكن هناك خوذات ودروع متقنة الصنع، وهدايا لآبائي من جوندور. اختاروا من هذه قبل أن نذهب، وأتمنى أن تناسبكم وتخدمكم جيدًا!».

وعندئذ جاء الرجال يحملون ملابس الحرب من مخزن الملك، وألبسوا أراجورن وليجولاس درعًا براقًا. كما اختارا أيضًا خوذات، وتروسًا: وقد طعمت عقدها بالذهب

ورصعت بالجواهر، الخضراء والحمراء والبيضاء. لم يأخذ جندلف أي درع؛ ولم يكن جيملي بحاجة إلى درع حلقية حتى لو أن واحداً منها كان قد وجد مناسباً لقامته؛ لأنه لم يكن هناك أي درع في مستودعات إدوراس مصنوعة صناعة أفضل من درعه المصنوعة أسفل الجبال في الشمال. ولكنه اختار غطاء رأس من حديد وجلد كان مناسباً بشكل جيد لرأسه المدور؛ كما أنه أخذ ترساً صغيراً. كان يحمل الحصان الذي يجري، أبيض على أخضر، والذي كان شعار منزل إيورل.

وقال ثيودن: «أتمنى أن يحميك جيداً! لقد كان مصنوعاً لي في عيد تنجل، عندما كنتُ لا أزال ولداً صغيراً».

وانحنى جيملي وقال: «إنني فخور، يا ملك المارك، أن أحمل مُعدة لك. في واقع الأمر، فإنني قريباً ما سأحمل حصاناً بدلاً من أن يحملني حصان. إنني أحب قدمي بشكل أفضل. ولكن، ربما، آتي مع ذلك إلى حيث أستطيع أن أقف وأحارب».

وقال ثيودن: «أتمنى أن يكون الأمر كذلك».

ونهض الملك الآن، وفي الحال جاءت إيو وين تحمل نبيذاً، وقالت: «خذ الآن هذه الكأس واشرب في ساعة سعيدة. لتكن الصحة معك في ذهابك وقدومك!».

وشرب ثيودن من الكأس، وبعد ذلك قدمتها للضيوف. وبينما كانت واقفة أمام أراجورن توقف فجأة ونظرت إليه، وكانت عيناها تلمعان. ونظر هو لأسفل؛ إلى وجهها الجميل وتبسم؛ ولكن بينما كان يأخذ الكأس، قابلت يده يدها، وعرف أنها ارتعشت من جراء اللمسة، وقالت: «مرحباً أراجورن بن أراثورن!» ورد عليها قائلاً: «مرحباً سيدة روهان!» ـ ولكن وجهه الآن كان قلقاً ولم تظهر عليه ابتسامة.

وعندما شربوا جميعاً، ذهب الملك عبر البهو إلى الأبواب. وهناك انتظره الحراس، ووقف الرسل، وتجمع جميع اللوردات والزعماء معاً، والذين كانوا في إدوراس أو كانوا يسكنون قريباً من إدوراس.

وقال ثيودن: «انظروا! إنني أخرج للحرب، ويبدو أن تلك ستكون آخر مرة أخرج فيها. ليس لي أي ابن. إن ابني ثيودرد قد ذبح. وإنني أعين إيومر ابن أختي ليكون وريثاً لي. وإذا لم يعد أي منا، عندئذ اختاروا لورداً جديداً حسبما تشاءون. ولكن يجب أن أعهد لواحد من قومي وشعبي الذي أتركه ورائي، ليحكمهم في مكاني. من منكم سيبقى؟».

ولم يتحدث أي من الرجال.

«أليس منكم من أحد سترشحونه؟ في أي منكم يثق شعبي؟».

وأجابه هاما قائلاً: «في منزل إيورل».

فقال الملك: «ولكن إيومر لا يمكنني أن أستغني عنه، كما لا يمكنه أن يبقى، وهو الأخير في هذا المنزل.

وأجابه هاما بقوله: «أنا لم أقل إيومر. وهو ليس الأخير. هناك إيووين، ابنة إيوموند، أخته. إنها لا تخاف وهي شجاعة. الجميع يحبونها. لتكن لوردًا على شعب إيورل، بينما نذهب نحن».

فقال ثيودن: «ليكن الأمر كذلك. ليعلن الرسل على الناس أن السيدة إيو وين سوف تقودهم!».

عندئذ جلس الملك على كرسي أمام أبوابه، وانحنت إيووين أمامه وأخذت منه سيفًا ودرعًا جميلة، وقال لها: «الوداع يا ابنة أختي! الساعة مظلمة، ولكن ربما نعود إلى البهو الذهبي. ولكن في دانهارو لعل الناس يدافعون طويلاً عن أنفسهم، وإذا سارت المعركة على نحو سيئ، فسوف يعود من هناك كل من يهربون».

وأجابته قائلة: «لا تتحدث على هذا النحو! سوف أحتمل سنة عن كل يوم يمر حتى عودتك». ولكن وبينما هي تتكلم ذهبت عيناها إلى أراجورن الذي كان يقف قريبًا.

وقال: «سوف يأتي الملك مرة أخرى. لا تخافي! ليس غربًا إنما شرقًا ينتظرنا حتفنا».

وذهب الملك هابطًا السلم وجندلف إلى جواره. وتبعهما الآخرون. ونظر أراجورن للوراء وهم يمرون باتجاه البوابة. كانت إيووين تقف بمفردها أمام أبواب المنزل عند أعلى السلم؛ كان السيف موضوعًا قائمًا أمامها، وكانت يداها موضوعتين على المقبض. كانت مرتدية درعًا وكانت تسطع مثل الفضة في الشمس.

ومشى جيملي مع ليجولاس، وبلطته على كتفه، وقال: «حسنًا، أخيرًا ننطلق! البشر يحتاجون إلى الكثير من الكلمات قبل الأعمال. إن بلطتي لا تهدأ في يدي. على الرغم من أنني لا أشك أن هؤلاء الروهيريميين أياديهم ضارية وحشية عندما يحتاج الأمر إلى ذلك. ومع ذلك، ليست هذه الحرب التي تناسبني. كيف أصل إلى المعركة؟ أتمنى أن أستطيع المشي ولا أتخبط مثل جوال في قربوس[1] جندلف».

قال ليجولاس: «أظن أنه كرسي أكثر أمانًا من كراسي كثيرة. ولكن مما لا شك فيه أن جندلف سيضعك في سعادة على قدميه عندما يبدأ الهجوم؛ أو شادوفاكس نفسه. البلطة ليست سيفًا لخيال».

فقال جيملي، وهو يضرب بلطف على مقبض بلطته: «والقزم ليس خيالاً. إنها رقاب الأوركيين هي التي سأقطعها، ولن أحلق رءوس الرجال».

وعند البوابة وجدوا جيشًا كبيرًا من الرجال، كبارًا وصغارًا، الجميع جاهزون

(1) القَرَبُوس: حِنْو السرج؛ أي جزؤه الأمامي المقوس [قاموس المورد] (المترجم)

على سروجهم. كان هناك أكثر من ألفين محتشدين. كانت حرابهم مثل غابة نابتة. راحوا يصيحون بصوت عال وفي فرح عندما جاء ثيودن. أمسك بعضهم بحصان الملك، سنومين، متحفزًا، وأمسك آخرون حصاني أراجورن وليجولاس. ووقف جيملي قلقًا، وعابسًا ولكن إيومر جاء إليه، يقود حصانه، وصاح:

«مرحبًا، يا جيملي بن جولين. لم يتح لي الوقت لأتعلم الحديث اللطيف تحت توجيهك، كما وعدت. ولكن ألن نضع اختلافنا جانبًا؟ على الأقل لن أتكلم بشر عن سيدة الغابة».

فقال جيملي: «سوف أنسى شديد غضبي بعض الوقت، يا إيومر ابن إيوموند، ولكن إذا حدث مطلقًا ورأيتَ السيدة جلدريل بعينيك، فعندئذ سوف تقر بأنها أجمل سيدة، وإلا فستنتهي صداقتنا».

فقال إيومر: «ليكن الأمر كذلك! ولكن حتى ذلك الوقت اعذرني، وكعلامة على العفو اركب معي، أرجوك. سوف يكون جندلف في المقدمة مع ملك المارك؛ ولكن حصاني، فايرفوت، سوف يحملنا نحن الاثنين، إذا شئتَ أنت».

فقال له جيملي وقد سر سرورًا عظيمًا: «إنني أشكرك حقًا. سوف أذهب معك بكل سرور، إذا كان ليجولاس، رفيقي، فسوف يسيرون إلى جوارنا».

فقال إيومر: «سوف أكون كذلك. ليجولاس على شمالي، وأراجورن على يميني، ولن يجرؤ أحد على الوقوف أمامنا!».

وقال جِندلف: «أين شادوفاكس؟».

أجابوه قائلين: «يجري طليقًا هائجًا فوق المرعى. إنه لن يدع أي رجل يمسك به. إنه هناك يذهب، بعيدًا عبر المخاضة، مثل ظل بين أشجار الصفصاف».

وصفر جندلف ونادى بصوت عال باسم الحصان، وبعيدًا ضرب رأسه وراح يصهل، ودار سريعًا باتجاه الجيش مثل السهم منطلقًا.

«لو أن نسيم ريح الغرب كان يأخذ جسمًا غير مرئي، حتى والأمر كذلك فإنه سوف يظهر». ـ قال ذلك إيومر، بينما كان الحصان العظيم يجري صاعدًا، حتى وقف أمام الساحر.

وقال ثيودن: «الهدية تبدو قد أعطيت بالفعل. ولكن أنصتوا جميعًا! هنا الآن أطلق على ضيفي، جندلف جريهايم، أحكم المستشارين، أكثر الجوالة ترحابًا، سيد المارك، زعيم شعب إيورك بينما لا تزال قرابتنا قائمة؛ وإنني أعطيه شادوفاكس، أمير الخيل».

فقال له جندلف: «أشكرك، يا ثيودن الملك». عندئذ فجأة رمى معطفه الرمادي للوراء، وألقى قبعته جانبًا، وقفز على ظهر الحصان. لم يكن يرتدي خوذة ولا درعًا.

راح شعر ثلجي البيّاض يطير حرًّا مع الريح، وكانت ثيابه البيضاء تسطع في تألق باهر في الشمس.

«انظروا إلى الخيال الأبيض!» ـ صاح أراجورن، وأخذ الجميع الكلمات.

وصاحوا: «ملكنا والخيال الأبيض! إلى الأمام يا شعب إيورل!».

وانطلقت الأبواق مدوية. وراحت الخيل تشب على قوائمها الخلفية وتصهل. واصطكت الحراب بالتروس. وعندئذ رفع الملك يده، وفي هجوم كبير مثل اندفاع الريح العظيمة انطلق آخر جيش لروهان مدوياً مثل الرعد إلى الغرب.

وبعيداً فوق السهل، رأت إيووين وهج رماحهم وتألقها، وهي تقف ساكنة، وحدها أمام أبواب المنزل الساكن.

الفصل السابع
وادي هيلـم العميـق

كانت الشمس بالفعل تتجه غربًا بينما كانوا يسيرون من إدوراس، وكان ضوءها في أعينهم يحول كل حقول روهان المنسابة إلى سديم ذهبي. كان هناك طريق مطروق، إلى الشمال الغربي عبر سفوح تلال الجبال البيضاء، وقد تبعوا هذا الطريق، صعودًا ونزولاً في مراعٍ خضراء، عابرين الكثير من الجداول الصغيرة السريعة عن طريق الكثير من المخاضات. وإلى الأمام على مسافة بعيدة وإلى اليمين لاحت الجبال الضبابية؛ وغدت أكثر ظلمة وأكثر طولاً والأميال تنطوي. وراحت الشمس تغرب ببطء أمامهم. وجاء المساء وراءهم.

وواصل الجيش المسير. كانت الحاجة تدفعهم. الخوف من أن يصلوا بعد فوات الأوان، راحوا يسيرون بكل سرعة ممكنة، ونادرًا ما كانوا يتوقفون للراحة. كانت جياد روهان سريعة وشديدة التحمل، ولكن كانت أمامهم فراسخ كثيرة يجب قطعها. كانت المسافة المتبقية أربعين فرسخًا ويزيد، في خط مستقيم، من إدوراس إلى مخاضات آيزن، حيث كانوا يأملون أن يجدوا رجال الملك الذين أوقفوا جيوش ساروممان.

وأطبق الليل حولهم. وأخيرًا توقفوا ليقيموا معسكرهم. لقد ساروا حوالي خمس ساعات بعيدًا عن السهل الغربي، ومع ذلك لا يزال أمامهم نصف رحلتهم متبقيًا. وفي دائرة عظيمة، تحت السماء المليئة بالنجوم والقمر في طوره للكمال، وصنعوا الآن معسكرهم. لم يوقدوا أي نار؛ لأنهم كانوا غير متأكدين من الأحداث؛ ولكن صنعوا حلقة من الحراس الراكبين حولهم، وانطلق الكشافة نحو الخارج بعيدًا، يمرون مثل الأشباح في طيات الأرض. ومرت الليلة البطيئة بدون أخبار أو إنذار بخطر. ومع الفجر، دوت الأبواق، وفي غضون ساعة أخذوا الطريق مرة أخرى.

لم تكن هناك سحب فوقهم بعد، ولكن كان في الهواء ثقل؛ كانت الدنيا حارة بالنسبة لهذا الفصل من السنة. كانت الشمس المشرقة غائمة، ووراءها كانت هناك ظلمة متنامية، كتلك التي تكون من عاصفة عظيمة تتحرك خارجة من الشرق، تتبعها ببطء عبر السماء. وبعيدًا في الشمال الغربي كان يبدو أن هناك ظلمة أخرى تحتضن سفوح الجبال الضبابية، ظل كان يزحف هابطًا ببطء من وادي الساحر.

وتأخر جندلف في السير للوراء إلى حيث كان يسير ليجولاس بجوار إيومر،

وقال: «إن لك الأعين الحادة ـ أعين عشيرتك الجميلة يا ليجولاس، ويمكن لعينيك أن تفرقا بين العصفور وبين الحَسّون[1] من على بعد فرسخ. أخبرني، هل يمكنك أن ترى أي شيء هنالك باتجاه آيزنجارد؟».

وقال ليجولاس وهو يحدق إلى هناك واضعًا يده الطويلة على عينيه من الشمس: «أميال كثيرة بيننا وبينها. يمكنني أن أرى ظلمة. هناك أشكال تتحرك فيها، أشكال عظيمة بعيداً عن ضفة النهر؛ ولكن ما هذه الأشكال؟ لا يمكنني أن أحددها. ليس الضباب أو السحاب الذي يقهر عيني؛ هناك ظل حاجب لقوة ما ترقد على الأرض تحجب الرؤية، وهي تسير بطيئًا عبر النهر. إنها كما لو كان الشفق تحت أشجار لا نهائية يتدفق منسابًا هابطًا لأسفل من التلال».

وقال جندلف: «ووراءنا تأتي عاصفة حقيقية من موردور. إنها ستكون ليلة سوداء».

بينما كان اليوم التالي من مسيرهم يتقدم، زاد الثقل الذي كان في الهواء. فيما بعد الظهيرة بدأت السحب السوداء تلحق بهم: ظُلة داكنة كئيبة لها حواف متلاطمة ومضت بضوء يخطف الأبصار. وغربت الشمس، حمراء مثل الدم في سديم دخاني. كانت أسنة رماح الخيالة مدببة بالنيران بينما كانت آخر أعمدة الضوء تشعل الأسطح المنحدرة لقمم ثريهيرني؛ والآن وقفوا قريبًا جدًا على الذراع الشمالية القصوى للجبال الضبابية، ثلاثة أبواق مثلمة تحدق في غروب الشمس. في الوهج الأخير الأحمر، رأى الرجال في المؤخرة بقعة سوداء، خيالاً يركب عائدًا باتجاههم. وتوقفوا بانتظاره.

وجاء، رجل مرهق خوذته منبعجة وترسه مشقوق. ونزل ببطء من فوق حصانه ووقف هناك برهة يلهث. وأخيرًا تحدث، وسأل قائلاً: «هل إيومر هنا؟ لقد أتيت أخيرًا، ولكن بعد فوات الأوان، ومعك قوة قليلة أقل من اللازم. لقد سارت الأمور على نحو سيئ منذ سقوط ثيودرد. لقد طردنا للوراء بالأمس فوق الآيزن بخسارة عظيمة؛ هلك كثيرون عند المعبر. عندئذ في الليل جاءت قوات جديدة فوق النهر قبالة معسكرنا. لا بد أن آيزنجارد قد فرغت؛ وقد سلح سارومان رجال التلال ورعاة دونالاند فيما وراء الأنهار، وهؤلاء أيضًا أطلقهم علينا. لقد قُهرنا. وكُسر الجدار الواقي. لقد سحب إركينبراند سيد ويستفولد أولئك الرجال الذين استطاع تجميعهم باتجاه معقله في وادي هيلم. الباقون تناثروا.

«أين إيومر؟ أخبروه أنه ليس هناك أي أمل أمامنا. يجب عليه أن يعود إلى إدوراس قبل أن تصل ذئاب آيزنجارد إلى هناك».

---

(1) طائر شبيه بالعصفور (المترجم)

لقد جلس ثيودن صامتًا، مختبئًا من الرجل كي لا يراه وراء حراسه؛ والآن استحث حصانه على السير للأمام، وقال: «تعال، قف أمامي يا سيورَل! أنا هنا. آخر جيش من شعب إيورل قد خرج زاحفًا. ولن يعود بدون معركة».

وأضاء وجه الرجل بالفرح والعجب. واستقام في وقفته في كبرياء. عندئذ ركع، مقدمًا سيفه المفلول للملك، وصاح قائلاً: «أمرك يا مولاي! واعف عني! ظننتُ ــــ».

فقال ثيودن: «ظننتَ أنني ظللتُ في مديوسلد منحنيًا مثل شجرة عجوز تحت ثلج الشتاء. هكذا كان الأمر عندما خرجتم للحرب. ولكن ريحًا غربية هزت الأغصان. أعطوا هذا الرجل حصانًا جديدًا! هيا بنا ننطلق لنجدة إركنبراند!».

وبينما كان ثيودن يتكلم، سار جندلف بحصانه مسافة قصيرة إلى الأمام، وجلس هنالك وحده، يحدق شمالاً إلى آيزنجارد وغربًا إلى الشمس التي كانت في طريقها للغروب. وبعد ذلك عاد في الحال، وقال:

«سر يا ثيودن! سر إلى وادي هيلم! اذهب إلى مخاضة آيزنجارد، ولا تتوان في السهل! يجب عليّ أن أتركك بعض الوقت. يجب أن يحملني شادوفاكس الآن في مهمة سريعة». والتفت إلى أراجورن وإيومر ورجال أهل بيت الملك، وصاح: حافظوا على ملك المارك جيدًا حتى أعود. انتظروني عند بوابة هيلم! الوداع!».

وتحدث بكلمة إلى شادوفاكس، وقفز الحصان العظيم منطلقًا بعيدًا مثل سهم من قوس. وبينما كانوا ينظرون فإنه انطلق؛ ومضة من فضة في غرب الشمس، ريح فوق المرج، ظل طائرًا ومر من البصر. وصهل سنومان وشب على قائمتيه الخلفيتين، وهو متلهف على أن يتبعه؛ ولكن لم يكن بالإمكان أن يتجاوزه سوى طائر سريع يطير بجناحيه.

وقال واحد من الحراس متحدثًا إلى هاما: «ماذا يغني ذلك؟».

وأجابه هاما قائلاً: «إن جندلف جريهايم بحاجة إلى العجلة. إنه دائمًا ما يأتي ويذهب على نحو غير متوقع أو مرتقب».

وقال الآخر: «وورمتونج، لو كان هنا، لم يكن ليجد تفسير ذلك صعبًا».

فرد هاما قائلاً: «صحيح تمامًا، ولكن بالنسبة لي أنا نفسي، فسوف أنتظر حتى أرى جندلف مرة أخرى».

وقال الآخر: «ربما ستنتظر طويلاً».

ودار الجيش بعيدًا الآن من الطريق إلى مخاضات آيزن وانحنوا في خط سيرهم باتجاه الجنوب. وحل الليل، وهم لا يزالون يواصلون سيرهم. واقتربت التلال، ولكن قمم ثريهيرني الطويلة كانت بالفعل معتمة قُبالة السماء المظلمة. وعلى بعد بعض

الأميال، على ألجانب البعيد من وادي ويستفولد، كان يقع أمامهم واد ضيق عميق، خليج كبير في الجبال، وفُتح منه خور في التلال. يطلق عليه البشر اسم وادي هيلم، نسبة إلى بطل في الحروب القديمة اتخذ له ملاذًا هناك. وراح يتعرج بشكل مستمر وشديد الانحدار نحو الداخل من الشمال تحت ظل ثريهيرني، حتى ارتفع الجُرف الذي تنتابه الغربان مثل أبراج عظيمة على كلا الجانبين، حاجبة الضوء.

عند بوابة هيلم، قبل مدخل الوادي، كانت هناك حافة صخرية بارزة نحو الخارج إلى جوار الجرف الشمالي. وهناك فوق أنف تلك الحافة الصخرية كانت توجد جدران عالية من صخور قديمة، وبداخلها كان هناك برج سامق. يقول الناس إنه في الأيام البعيدة ـ أيام مجد جوندور بنى ملوك البحر هنا هذا المعقل بأيدي العمالقة. وكانوا يسمونه هورنبيرج[1]؛ لأنه عندما يطلق بوق فوق البرج فإن صداه يكون في الوادي في الوراء، كما لو كانت هناك جيوش نسيت منذ القدم تخرج للحرب من الكهوف أسفل التلال. كما أن هناك جدارًا أيضًا صنعه الناس في القدم يخرج من حصن هورنبرج إلى الجرف الجنوبي، يحول دون الدخول إلى مدخل الحصن. وتحته من خلال بربخ واسع يخرج نهر الماء العميق. وحول قاع هورنروك تقريبًا يسير متعرجًا، ويتدفق عندئذ في أخدود عبر وسط قطعة أرض صغيرة مثلثة واسعة خضراء، منحدرًا تدريجيًا من بوابة هيلم إلى خندق هيلم التلالي. ومن هناك انحدر إلى الوادي الضيق العميق ومنه إلى وادي ويستفولد. وهناك في حصن هورنبرج عند بوابة هيلم كان يسكن إركنبراند، سيد ويستفولد على حدود المارك. ولما أصبحت الأيام مظلمة بتهديد الحروب، فإنه نظرًا لحكمته قام بإصلاح الجدار وجعل الحصن قويًا.

•

كان الخيالة لا يزالون في الوادي المنخفض أمام مدخل الوادي الضيق، عندما سُمعت صيحات وأصوات نفير من كشافيها الذين ذهبوا في المقدمة. ومن خارج الظلمة جاءت الرماح تصفر. وسريعًا عاد الكشافة وقالوا إن راكبي الذئاب كانوا بالخارج في الوادي، وإن مجموعة من الأوركيين والبشر الجامحين كانوا ينطلقون مسرعين جنوبًا من مخاضات آيزن وكان يبدو أنهم متجهون إلى وادي هيلم.

وقال الكشاف: «لقد وجدنا الكثير من قومنا يرقدون مذبوحين وهم يفرون إلى هناك. وقد قابلنا رفاقًا متفرقين، ذاهبين في هذا الطريق وذلك، بدون قائد. أما عما أصبح من شأن أركنبراند فلا أحد يعلم شيئًا. من المحتمل أنه سيتم التغلب عليه قبل أن يصل إلى بوابة هيلم، إذا لم يكن قد هلك بالفعل».

(1) Hornburg ـ الجزء الأول من الكلمة (Horn) ومعناه بوق أو نفير، والجزء الثاني (burg) ومعناه مدينة محصنة ـ فالاسم إذن معناه حصن البوق (المترجم)

وسأل ثيودن قائلاً: «هل هناك أي شيء رئي عن جندلف؟».

«نعم يا مولاي. الكثيرون رأوا رجلاً عجوزًا يرتدي ثيابًا بيضاء على حصان، يمر إلى هنا فوق السهول مثل الريح في العشب. اعتقد البعض أنه كان سارومان. وقيل إنه ذهب بعيدًا قبل حلول الليل باتجاه آيزنجارد. البعض يقولون إن وورمتونج قد رئي قبل ذلك، يذهب باتجاه الشمال مع مجموعة من الأوركيين».

وقال ثيودن: «سوف يكون من السيئ بالنسبة لوورمتونج لو أن جندلف لحق به. ومع ذلك فإنني أفتقد الآن كلا المستشارين، القديم والجديد. ولكن في هذه الحاجة ليس لدينا خيار أفضل من مواصلة السير، كما قال جندلف، إلى بوابة هيلم، سواء كان إركنبراند هناك أم لا. هل من المعروف عدد الجيش الذي يأتي من الشمال؟».

وقال الكشاف: «إنه كبير جدًا. ذلك الذي يحصي كل خصم مرتين، ولكني تحدثت مع رجال شجعان، وإنني لا أشك أن قوة العدو الأساسية كبيرة بمقدار أضعاف كثيرة مما هو لدينا هنا».

فقال إيومر: «إذن هيا بنا نسرع. هيا بنا نشق طريقنا عبر أولئك الخصوم مثلما هو بالفعل بيننا وبين هذا المعقل. هناك كهوف في وادي هيلم حيث ترقد المئات مختبئة هناك؛ والطرق السرية تقود من ذلك المكان صاعدة إلى التلال».

فقال له الملك: «لا تثق بالطرق السرية. لقد تجسس سارومان طويلاً على هذه الأرض. ولا يزال في ذلك المكان يقع دفاعنا طويلاً. هيا بنا نمضي!».

وذهب أراجورن وليجولاس الآن مع إيومر في طليعة الجيش. وواصلوا سيرهم عبر الليلة المظلمة، وهم يسيرون ببطء دائمًا بينما الظلمة تزداد عمقًا وصعد الطريق باتجاه الجنوب، بشكل أكثر ارتفاعًا وأكثر إلى الطيات المعتمة حول سفوح الجبال. وجدوا عددًا قليلاً من العدو أمامهم. وكانوا يمرون من مكان لآخر بمجموعات شاردة من الأوركيين؛ ولكنهم كانوا يفرون قبل أن يستطيع الخيالة أن يأخذوهم أو يذبحوهم.

وقال إيومر: «لن يمضي وقت طويل فيما أخشى قبل قدوم جيش الملك سوف يكون معروفًا لقائد الأعداء، سارومان أو أي قائد آخر يكون قد أرسله».

وكبرت شائعة الحرب وراءهم. وكانوا عندئذ يسمعون صوت الدوي الأجش محمولاً فوق الظلمة. وكانوا قد صعدوا بعيدًا إلى الوادي الضيق العميق عندما نظروا إلى الوراء. عندئذ فإنهم رأوا مشاعل، نقاطًا لا حصر لها من ضوء ناري فوق الحقول المظلمة وراءهم، مبعثرة مثل زهور حمراء، أو تصعد متعرجة من الأراضي الواطئة في خطوط طويلة خافقة. وهنا وهناك راحت تقفز صاعدة شعلة أكبر.

وقال أراجورن: «إنها جماعة كبيرة وتتبعنا بكد واجتهاد».

وقال ثيودن: «إنهم يحضرون نيرانًا وهي تحرق - بينما هم يسيرون في طريقهم - الحجر والكوخ والشجر. لقد كان ذلك واديًا غنيًا وكان به الكثير من المنازل. واأسفاه على قومي!».

فقال أراجورن: «أتمنى أن لو كان ذلك اليوم هنا وأن لو كان باستطاعتنا أن نهجم عليهم مثل عاصفة من خارج الجبال! إنه ليحزنني أن نفر أمامهم».

وقال إيومر: «يجب علينا ألا نفر أكثر من ذلك. إن ساج هيلم يقع على مسافة غير بعيدة الآن، وهو خندق ومتراس قديم مشقوق عبر الوادي الضيق، على مسافة فورلونج[1] أسفل بوابة هيلم. هناك يمكننا أن ندور وندخل في معركة».

فقال ثيودن: «كلا، إننا قليلون للغاية بحيث لا يمكننا أن ندافع عن الخندق. إن طوله ميل أو يزيد، والثغرة التي فيه واسعة.

وقال إيومر: «عند الثغرة يجب أن يقف محاربو المؤخرة، إذا كان الوضع ملحًا علينا».

لم يكن هناك لا نجم ولا قمر عندما وصل الخيالة إلى الثغرة في الخندق، حيث كان التيار من فوقهم يمر خارجًا، وكان الطريق الذي يقع إلى جواره يجري هابطًا من حصن هورنبرج. ولاح المتراس فجأة أمامهم، ظل عاليًا فيما وراء حفرة مظلمة. وبينما كانوا يسيرون صاعدين اعترض طريقهم حارس يسأل عن هويتهم.

وأجابه إيومر بقوله: «ملك المارك يسير إلى بوابة هيلم. أنا، إيومر ابن إيوموند، تكلم».

فقال الحارس: «هذه أخبار جيدة وراء كل أمل. أسرعوا! العدو في أثركم».

ومر الجيش عبر الثغرة وتوقفوا عند المرج المنحدر فوقهم. وقد علموا الآن لفرحتهم أن إركنبراند قد ترك رجالاً كثيرين لحراسة بوابة هيلم، وقد هرب المزيد إلى هناك منذ ذلك الحين.

وقال جيمليج، وهو رجل عجوز، قائد أولئك الذين كانوا يحرسون الخندق: «ربما، لدينا ألف ملائمون للحرب على الأقدام. ولكن معظمهم مرت عليهم ستون كثيرة للغاية، مثلما مر عليّ، أو قليلة للغاية، مثل ابن ابني هنا. هل هناك أخبار عن إركنبراند؟ جاءت أخبار أمس أنه كان يتراجع إلى هنا مع كل ما ترك من أفضل خيالة ويستفولد. ولكنه لم يأت».

فقال إيومر: «أخشى أنه لن يأتي الآن. لم يحصل كشافتنا على أي أخبار عنه، والعدو يملأ الوادي كله وراءنا».

وقال ثيودن: «أتمنى أن يكون قد هرب. لقد كان رجلاً عظيمًا. وقد عاشت فيه شجاعة هيلم قبضة المطرقة. ولكن لا يمكننا أن ننتظره هنا. يجب أن نسحب كل قواتنا الآن وراء الجدران. هل لديكم مخزون جيد؟ إن معنا القليل من المؤن؛ لأننا خرجنا إلى معركة مفتوحة، وليس إلى حصار».

---

(1) فرسخ.

وقال جيمليـنج: «وراءنا في كهوف الوادي هناك أجزاء ثلاثة من عشيرة ويستفولد، كبارًا وصغارًا، أطفالاً ونساء. ولكن تم أيضًا جمع مخزون كبير من الطعام، والكثير من الحيوانات وأعلافها، هناك».

فقال إيومر: «هذا جيد. إنهم يحرقون أو ينهبون كل ما تبقى في الوادي».

وقال جيمليـنج: «إنهم إذا كانوا يساومون على سلعنا عند بوابة هيلم، فإنهم سيدفعون ثمنًا كبيرًا».

وواصل الملك وخيالته سيرهم. وقبل الطريق المرتفع الذي كان يعبر النهر ترجلوا من فوق خيلهم. وفي طابور طويل قادوا خيلهم صاعدين الطريق المنحدر ومروا عبر بوابات حصن هورنبرج. وهناك تم استقبالهم مرة أخرى بفرح وأمل متجدد؛ لأنه الآن كان هناك عدد كاف من الرجال لتحصين كل من الحصن والجدار الحاجز.

وسريعًا وضع إيومر رجاله في وضع الاستعداد. وكان الملك ورجال أهل بيته في حصن هورنبرج، وهناك أيضًا كان الكثير من رجال ويستفولد. ولكن على جدار الوادي العميق وعلى برجه، وفيما وراءه، نظم إيومر معظم قواته التي كانت معه؛ لأن الدفاع هنا كان يبدو غير مضمون النتائج بشكل أكبر، إن لم يكن الهجوم محددًا وبقوة كبيرة. واقتيدت الخيل لأعلى الوادي في ظل حراسة بقدر ما كان بالإمكان الاستغناء عنه من عدد.

كان ارتفاع جدار الوادي العميق عشرين قدمًا، وكان سميكًا للغاية بحيث يمكن لرجلين أن يُسيرا متواجهين فوقه، يحميه متراس لا يمكن أن ينظر من فوقه سوى رجل طويل. وهنا وهناك كانت توجد شقوق في الصخر يمكن للرجال أن يصوبوا ويضربوا من خلالها. هذه الشرفة المفرجة يمكن الوصول إليها عن طريق سلم يجري هابطًا من باب في فناء حصن هورنبرج الخارجي؛ ثلاث مجموعات من السلالم كانت تقود أيضًا صاعدة إلى الجدار من الوادي أسفل منهم؛ ولكنه كان أملس في الأمام، وكانت صخوره العظيمة مرصوصة بمهارة كبيرة بحيث لا يمكن العثور على موطئ قدم عند وصلاتها، وفي القمة كانت معلقة مثل جرف حفره البحر.

وقف جيملي متكئًا على المتراس المرتجل فوق الجدار. وجلس ليجولاس فوق المتراس، وهو يتحسس قوسه، ويحدق في الظلمة.

وقال القزم، وهو يضرب بقدميه الصخور: «هذا أكثر مما أحبه. إن قلبي يخفق دائمًا ونحن نقترب من الجبال. هناك صخر جيد هنا. هذا البلد به صخور وعرة. لقد شعرتُ بها في قدمي ونحن نصعد من الخندق. أعطني سنة ومائة من عشيرتي وسوف أجعل هذا مكانًا تتكسر الجيوش عليه مثل المياه».

فقال ليجولاس: «إنني لا أشك في ذلك. ولكنك قزم، والأقزام قوم غريبو الأطوار. إنني لا أحب هذا المكان، ولن أحبه مع ضوء النهار. ولكنك تمنحني شيئًا من الارتياح، يا جيملي، وإنني سعيد أن تقف قريبًا بساقيك القويتين وبلطتك الصلبة. أتمنى أن لو كان هناك الكثير من عشيرتك بيننا. ولكني كنتُ سأعطي المزيد لمائة قواس جيد من ميركوود. سوف نحتاج إليهم. الروهيريميون لديهم قواسون مهرة على طريقتهم هم، ولكن قليلون جدًا منهم هنا، أقل مما ينبغي».

فقال جيملي: «الدنيا مظلمة للرماية. في واقع الأمر إنه وقت النوم. النوم! أشعر بالحاجة إلى النوم، مثلما لم يحدث قط وظننتُ أن قزمًا يمكنه ذلك. ركوب الخيل عمل متعب. ولكن بلطتي لا تهدأ في يدي. أعطني صفًا من أعناق الأوركيين ومساحة أدير فيها بلطتي وسوف يسقط كل هذا التعب والإعياء مني!».

ومر وقت بطيء. وتناثرت أسفل الوادي نيران كانت لا تزال تحترق. كانت جيوش آيزنجارد تتقدم في صمت الآن. كانت مشاعلهم تُرى تسير متعرجة في الوادي الضيق في صفوف كثيرة.

وفجأة انطلقت من الخندق صرخات وزعيق، وصيحات المعارك الشرسة للرجال. وظهرت الجمرات الملتهبة فوق الحافة وتجمعت في كثافة عند الثغرة. عندئذ تناثرت وتلاشت. وجاء الرجال يعدون سريعًا عائدين فوق الحقل وصاعدين الطريق المنحدر إلى بوابة حصن هورنبرج. وقد تم إرغام مؤخرة جيش ورجال ويستفولد نحو الداخل.

وقالوا: «العدو قريب منا! لقد أطلقنا كل سهم كان لدينا، وملأنا الخندق بالأوركيين. ولكن لن يوقفهم ذلك طويلاً. إنهم بالفعل يتسلقون الضفة عند نقاط كثيرة، في كثافة مثل النمل المحتشد في سيره. ولكننا علمناهم ألا يحملوا مشاعل.

كان الوقت عندها بعد منتصف الليل. كانت السماء مظلمة تمامًا، وكان سكون الهواء الثقيل ينبئ بعاصفة. وفجأة لفح العاصفة وميض يعمي. وضرب الرعد المتفرع بقوة التلال الشرقية. وللحظة من التحديق رأى الحراس على الجدران كل الفضاء بينهم وبين الخندق يضيئه ضوء أبيض: كان يغلي ويزحف بأشكال سوداء، بعضها كان قصيرًا وعريضا، وكان بعض آخر طويلاً ومتجهمًا، ومعهم خوذات عالية وتروس سوداء قاتمة. كانت هناك مئات ومئات أخرى تتدافع على الخندق وعبر الثغرة. وتدفق التيار المظلم صاعدًا إلى الجدران من جرف إلى جرف. وراح الرعد يدوي في الوادي. وكان المطر يهبط غزيرًا.

وجاءت سهام كثيفة مثل المطر تصفر فوق الشرفات المفرجة، تسقط ولها صليل وميض فوق الصخور. وجد البعض علامة. لقد بدأ الهجوم على وادي هيلم، ولكن لم يسمع أي صوت أو تحد في الداخل؛ لم تأت أي أسهم في رد على تلك الأسهم.

وتوقفت الحشود المهاجمة وقد أحبطها التهديد الصامت للصخور والجدران. ومرارًا وتكرارًا مزق البرق الظلمة. وعندئذ راح الأوركيون يصرخون ويزعقون، وهم يلوحون بالحراب والسيوف، ويطلقون سحابة من السهام على أي شخص كان يقف مكشوفًا فوق الشرفات المفرجة؛ ونظر رجال المارك في ذهول إلى الخارج، وكما بدا لهم، على حقل عظيم من الذرة المظلمة، تتقاذفه عاصفة حرب، وكانت كل أذن تتوجه بضوء شائك.

وانطلقت الأبواق النحاسية مدوية. واندفع العدو مهاجمًا للأمام، البعض على جدار الوادي العميق، وبعض آخر باتجاه الممر المرتفع والطريق المنحدر الذي كان يقود صاعدًا إلى بوابات حصن هورنبرج. وهناك كان محتشدًا أضخم الأوركيين، ورجال هضاب دونالاند المستسلمين الهائجين. وترددوا للحظة وبعد ذلك أتوا. وومض البرق، وتوهج على كل خوذة وترس، لقد رئيت يد آيزنجارد المروعة الشريرة. ووصلوا إلى قمة الصخرة؛ وانطلقوا نحو البوابات.

عندئذ أخيرًا جاء رد: قابلتهم عاصفة من سهام، ووابل من حجارة. وترددوا، وتكسروا، ثم هاجموا مرة أخرى؛ وفي كل مرة، مثل البحر القادم الجديد، وتوقفوا عند نقطة أكثر ارتفاعًا. ومرة أخرى دوت الأبواق، وانطلقت جمهرة من الرجال الهادرين مندفعة للأمام. وأمسكوا بتروسهم الكبيرة فوقهم مثل سقف، بينما حملوا في وسطهم جذعين لشجرتين عظيمتين. وفيما وراءهم احتشد رماة الأوركيين، يرسلون وابلاً من السهام المريشة على الرماة الموجودين على الجدران. لقد استولوا على البوابات. وضربت الأشجار، وهي تتقاذفها أذرع قوية، الخشب في دوي شديد. لو أن رجلاً سقط، أو سحقه حجر مندفع من أعلى، فإن رجالاً آخرين يقفزون ليأخذوا مكانه. ومرارًا وتكرارًا كانت المنجنيق العظيمة تدور وتقذف في قوة.

ووقف إيومر وأراجون معًا على جدار الوادي العميق. سمعوا زئير الأصوات وضربات المنجنيق؛ وبعد ذلك في ومضة مفاجئة من ضوء رأوا خطر البوابات.

وقال أراجورن: «هيا! هذه هي الساعة عندما نستل سيوفًا معًا!».

وراحا يجريان مثل النار مسرعين عبر الجدار، صعدا السلم وعبرا إلى الفناء الخارجي فوق الصخر. وبينما كانا يجريان فإنهما جمعا مجموعة من حملة السيوف الأقوياء. وكان هناك باب خلفي صغير يفتح في زاوية في جدار الحصن في الغرب، حيث يمتد الجرف للخارج ليلاقيه. على ذلك الجانب كان هناك ممر ضيق يجري ملتفًا باتجاه البوابة العظيمة، بين الجدار وحافة الصخر المرتفعة. وقفز كل من إيومر

وأراجورن معًا عبر الباب، ووراءهما رجالهما. وومض السيفان وهما يخرجان من أغمادهما مثل سيف واحد.

وصاح إيومر: «جوثواين[1]! جوثواين للمارك!».

وصاح أراجورن: «أندوريل[2]. أندوريل للدونادانيين!».

وهجما من الجانب، واندفعا بأنفسهما هاجمين على الرجال الجامحين الهائجين. وراح أندوريل يرتفع وينخفض، ويتوجه بنار بيضاء. وصعدت صرخة من الجدار والبرج: «أندوريل! أندوريل يذهب للحرب. النصل الذي كان قد كُسر يلمع مرة أخرى!».

ولما كان رماة المنجنيق قد أصيبوا بالفزع فإنهم تركوا الأشجار تسقط وتحولوا إلى القتال؛ ولكن جدار تروسهم قد كُسر كما لو كان بضربة من برق، وقد جُرفت بعيدًا، وقطعت، أو رميت على الصخر في النهر الحجري أسفل منهم. وراح رماة الأوركيين يطلقون سهامهم في جموح وهم يفرون.

وللحظة توقف إيومر وأراجورن أمام الأبواب. كان الرعد مدمدمًا على البعد الآن. وكان البرق لا يزال يتوهج ويومض، بعيدًا بين الجبال في الجنوب. كانت هناك ريح حادة تهب من الشمال مرة أخرى. كانت السحب ممزقة ومنجرفة، وكانت النجوم تطل من ورائه؛ وفوق تلال جانب الوادي الضيق راح القمر المتجه غربًا ينطلق متوهجًا بلون أصفر في حطام العاصفة.

وقال أراجورن وهو ينظر إلى الأبواب: «إننا لم نأت سريعًا جدًا». كانت مفصلاتها الضخمة وقضبانها الحديدية ملتوية ومثنية؛ وكان الكثير من ألواح الخشب الأخرى مشقوقة مشروخة.

فقال إيومر: «ولكن لا يمكننا البقاء هنا فيما وراء الجدران لندافع عنها. انظر!» وأشار إلى الممر المرتفع. كان هناك بالفعل حشد من الأوركيين والبشر يتجمع مرة أخرى فيما وراء النهر. ودوت الرماح، وراحت تنهال على الصخور فيما حولهم. «هيا! يجب علينا أن نعود ونرى ما الذي يمكن أن نفعله لنكوم الصخور والعوارض الخشبية عبر البوابات من الداخل. هيا بنا الآن!».

وداروا وراحوا يجرون. في تلك اللحظة قفز حوالي عشرة أوركيين كانوا يرقدون بلا حركة بين المذبوحين وهبوا واقفين على أقدامهم، وجاءوا في صمت وبسرعة وراءهم. وألقى اثنان منهم بأنفسهما على الأرض عند كعبي إيومر، وأوقعاه على الأرض، وفي لحظة كان الاثنان فوقه. ولكن قفز شكل مظلم صغير لم يكن قد لاحظه

(1) G?thwinë ـ سيف إيومر (المترجم)

(2) And?ril ـ سيف أراجورن ومعنى الكلمة [<Flame of the West>] أي شعلة الغرب (المترجم)

أحد من خارج الظلال وصرخ صرخة غليظة: باروك خازاد! خازاد آي ـ مينو! ودارت بلطة وضربت بقوة للوراء. وسقط أوركيان مقطوعي الرأسين. وفر الباقون.
وجاهد إيومر ونهض على قدميه، في اللحظة نفسها التي كان أراجورن يجري فيها عائدًا لمساعدته.

وأغلق الباب الخلفي مرة أخرى، وسُد الباب الحديدي وكومت وراءه من الداخل أكوام من الحجارة. وعندما أصبح كل شيء آمنًا من الداخل، التفت إيومر وقال: «أشكرك يا جيملي بن جولين! لم أكن أعلم أنك كنتَ معنا في الهجوم. ولكن في الغالب فإن الضيف غير المدعو يثبت أنه هو أفضل الصحبة. كيف حدث وكنتَ هناك؟».
فقال جيملي: «لقد تبعتكما حتى أطرد عني النوم، ولكني نظرتُ إلى رجال التل وبدا أنهم كبار أكثر من اللازم بالنسبة لي، ولذلك جلستُ إلى جوار حجر لأرى مبارزتكم بالسيوف».
فقال إيومر: «لن أجد مكافأتك أمرًا سهلاً».
وضحك القزم قائلاً: «قد تكون فرص كثيرة قبل أن ينقضي الليل. ولكني راض. حتى الآن لم أقطع سوى الأخشاب منذ أن غادرتُ موريا».

«اثنان!» ـ قال ذلك جيملي وهو يربت على بلطته. لقد عاد إلى مكانه على الجدار.
فقال ليجولاس: «اثنان؟ لقد فعلتُ أفضل من ذلك، على الرغم من أنه ينبغي عليَّ الآن أن أبحث عن السهام المستهلكة؛ لقد راحت كل سهامي. ولكن مجموعها يصل إلى عشرين على الأقل. ولكن ذلك ليس سوى أوراق صغيرة في غابة».

كانت السماء الآن تصحو سريعًا وكان القمر الغائب يسطع في إشراق. ولكن الضوء جلب القليل من الأمل لخيالة المارك. كان العدو أمامهم يبدو وقد زاد ولم ينقص، وكان لا يزال المزيد يحتشدون من الوادي عبر الثغرة. إن الهجوم على الصخرة لم يحقق سوى فترة راحة قصيرة. وتضاعف الهجوم على البوابات. وراحت حشود آيزنجارد تزأر في هجومها على جدار الوادي العميق مثل البحر. واحتشد الأوركيون ورجال التلال حول سفوحه من أقصاها إلى أقصاها. وتم إلقاء حبال بخطاطيف محكمة الربط فوق المتراس أسرع مما يمكن للبشر قطعها أو قذفها بقوة للوراء. وتم رفع المئات من السلالم الطويلة. وتم إلقاء الكثير منها لأسفل مدمرة، ولكن حل محلها الكثير، وراح الأوركيون يقفزون عليها مثل القرود في غابات الجنوب المظلمة. وتم أمام سفح الجدار تجميع الموتى، والذين كُسروا في كومة مثل لوح خشبي في عاصفة؛ وراحت التلال الجنائزية ترتفع أكثر وأكثر، ولا يزال العدو يواصل قدومه وتزايده.

أصيب رجال زُوهان بالتعب والإرهاق. وقد استهلكت جميع سهامهم، وتم إطلاق كل رمح؛ وثُلمت سيوفهم، ومُزقت تروسهم. جمعهم وحثهم على القتال كل من أراجون وإيومر ثلاث مرات، وومض أندوريل ثلاث مرات في هجوم مستقتل دفع العدو بعيدًا عن الجدار.

بعد ذلك ارتفع صخب وجلبة في الوادي وراءهم. لقد زحف الأوركيون مثل الجرذان عبر البربخ الذي كان جدول المياه ينساب خارجًا خلاله. وهناك تجمعوا في ظل الجُرف، حتى صار الهجوم فوقهم في أقصى درجات الشدة وكان جميع رجال الدفاع تقريبًا قد اندفعوا إلى أعلى الجدار. عندئذ قفزوا خارجين. كان بعض منهم بالفعل قد مروا إلى جوانب الوادي وكانوا بين الخيل، يتقاتلون مع الحراس.

وقفز من على الجدار جيملي وهو يصرخ صرخة شرسة سُمع صداها في الجُرف. «خازاد! خازاد!» وسريعًا كان لديه عمل كاف.

وراح يصرخ: «آي ـ أوي. الأوركيون خلف الجدار. آي ـ أوي! هيا، يا ليجولاس! هناك ما يكفي لنا نحن الاثنين. خازاد آي مينو!».

ونظر جيملينج العجوز لأسفل من حصن هورنبرج، وهو يسمع الصوت العظيم الذي أطلقه القزم فوق كل الصخب والجلبة؛ وصاح قائلاً: «الأوركيون في الوادي! هيلم! هيلم! إلى الأمام يا سكان هيلم!» ـ وصاح وهو يقفز نازلاً السلالم من الصخرة وهناك الكثير من رجال ويستفولد يتبعونه.

كان هجومهم شرسًا ومفاجئًا، واستسلم الأوركيون أمامهم. قبل أن يمضي وقت طويل أصبحوا مطوقين في ممرات الحصن الضيقة، وقد ذُبحوا جميعًا أو دفعوا للوراء يصرخون في هوة الوادي العميق ليسقطوا أمام حراس الكهوف المختبئة.

وصاح جيملي: «واحد وعشرون!» لقد ضرب ضربة بكلتا يديه ووضع آخر أوركي أمام قدميه. «الآن يفوق عددي عدد سيدي ليجولاس مرة أخرى».

وقال جيملينج: «يجب أن نسد فتحة الجرذان هذه. يُقال إن الأقزام قوم دهاة في تعاملهم مع الحجر. لتعرنا مساعدتك أيها السيد!».

فرد عليه جيملي بقوله: «إننا لا نشكل الحجارة ببلطات القتال، ولا بأظافر أصابعنا. ولكني سأعدك قدر استطاعتي».

وقاموا بجمع جلاميد صغيرة وحجارة مكسرة بقدر ما استطاعوا أن يعثروا عليه، وتحت توجيهات جيملي قام رجال ويستفولد بسد النهاية الداخلية من البربخ، حتى لم يظل سوى مخرج ضيق. عندئذ راح نهر الوادي العميق، وقد انتفخ بماء المطر، يتحرك بعنف ويهتاج في ممره المكبوت، وينتشر بطيئًا في برك باردة من جرف إلى جرف.

وقال جيملي: «سوف تكون أكثر جفافًا فوق. تعال يا جيملينج، هيا بنا نر كيف تسير الأمور على الجدار!».

وصعد الجدار ووجد ليجولاس إلى جوار أراجورن وإيومر. كان الجنيّ يشحذ سكينه الطويل. كان هناك بعض الوقت هدوء مؤقت في الهجوم، حيث إن محاولة اختراق البربخ قد أخفقت.

وقال جيملي: «واحد وعشرون!».

فقال ليجولاس: «جيد! ولكن عددي الآن دستتان. لقد كان عمل السكين حتى الآن».

كان إيومر وأراجورن منحنيين في إرهاق على سيفيهما. وبعيدًا إلى اليسار راح اصطدام وصليل المعركة على الصخرة يرتفع عاليًا مرة أخرى. ولكن حصن هورنبرج كان لا يزال متماسكًا صامدًا، مثل جزيرة في البحر. وأصبحت بواباتها مهدمة مدمرة؛ ولكن فوق متراس العوارض والحجارة في الداخل لم يمر أي عدو حتى الآن.

نظر أراجورن إلى النجوم الشاحبة، وإلى القمر الذي كان ينحدر الآن وراء التلال الغربية التي كانت تحيط بالوادي، وقال: «هذه ليلة طويلة مثل السنين. إلى متى يتأخر النهار؟».

فقال جيملينج الذي كان عندئذ قد صعد إلى جواره: «الفجر ليس بعيدًا. ولكن الفجر لن يساعدنا، فيما أخشى».

فقال أراجورن: «ولكن الفجر هو دائمًا أمل البشر».

فقال جيملينج: «ولكن مخلوقات آيزنجارد هذه، هؤلاء أنصاف الأوركيين والبشر الغيلان الذين صنعهم سارومان بصنعته الكريهة، لن يذبلوا في الشمس. وكذلك الأمر بالنسبة لرجال التلال الجامحين. ألم تسمع أصواتهم؟».

وأجابه إيومر بقوله: «إنني أسمعهم، ولكنها فقط صرخات الطيور وأصوات الحيوانات التي تخور بالنسبة لأذنيّ».

فقال جيملينج: «ولكن هناك الكثيرون الذين يصيحون بلغة الدونالانديين. إنني أعرف هذه اللغة. إنها لهجة قديمة من لهجات البشر، وكانت في وقت من الأوقات يجري الحديث بها في الكثير من الوديان الغربية في المارك. أنصتوا! إنهم يكرهوننا، وهم سعداء؛ لأن هلاكنا يبدو أكيدًا بالنسبة لهم. إنهم يصيحون «الملك، الملك. سوف نأخذ ملكهم. الموت للفورجويليين! الموت لشعب ستروهيدز! الموت للصوص الشمال!». هذه الأسماء يطلقونها علينا. إنهم لم ينسوا في نصف ألف سنة حزنهم أن ملوك جوندور أعطوا المارك إلى إيورل الصغير وتحالفوا معه. هذا الكره القديم أشعله سارومان. إنهم قوم شرسون عندما ينهضون ويهبون. إنهم لن يستسلموا الآن للغسق ولا للفجر، حتى يأخذوا ثيودن، أو إلى أن يُذبحوا هم أنفسهم».

فقال أراجوانٌ: «على الرغم من ذلك، فإن النهار سوف يجلب الأمل لي. ألم يُقل إنه لم يحدث قط أن استولى أي خصم على حصن هورنبرج مادام البشر يدافعون عنه».
فرد إيومر قائلاً: «هكذا يقول الشعراء».
ورد أراجورن بقوله: «إذن لندافع عنها ونأمل!».

وبينما هم يتكلمون جاء دوي الأبواق. بعد ذلك جاء صوت اصطدام ووميض شعلة ودخان. وتدافعت مياه نهر الوادي العميق هادرة ومزبدة؛ لم تعد مخنوقة، لقد تم نسف فتحة كبيرة في الجدار. وتدافع حشد من أشكال مظلمة نحو الداخل.
وصاح أراجورن: «سحر سارومان! لقد زحفوا في البربخ مرة أخرى، بينما كنا نتكلم، وقد أشعلوا نار أورثانك تحت أقدامنا». وصاح ـ «إلنديل! إلنديل!» وهو يقفز هابطًا إلى الثغرة؛ ولكن بينما كان يفعل ذلك تم رفع مائة سلم على الشرفات المفرجة. فوق الجدار وتحت الجدار جاء الهجوم الأخير مجتاحًا مثل موجة مظلمة فوق تل من رمال. وتم دحر الهجوم. وتم دحر بعض الخيالة ودفعهم للوراء، بعيدًا أكثر وأكثر إلى الوادي العميق، يتساقطون ويقاتلون وهم يتراجعون، خطوة خطوة، باتجاه الكهوف. وقطع آخرون طريق عودتهم باتجاه القلعة.
صعد سلمًا عريضًا من الوادي العميق إلى الصخرة والبوابة الخلفية لهورنبرج. بالقرب من القاع وقف أراجورن. كان أندوريل لا يزال يتوهج في يده، وقد أوقف رعب السيف العدو بعض الوقت، بينما راح الذين استطاعوا أن يصلوا إلى السلم يصعدون واحدًا واحدًا باتجاه البوابة. وفي الخلف عند درجات السلم العلوية انحنى ليجولاس. وكان قوسه محنيًا، ولكن كل ما كان معه هو بقايا سهم واحد، ونظر إلى الخارج الآن، مستعدًا ليرمي أول أوركي سوف يتجرأ ويقترب من السلم.
وصاح قائلاً: «كل ما يمكنه أن يكون لديه الآن يصبح آمنًا في الداخل، يا أراجورن. ارجع!».
ودار أراجورن وأسرع صاعدًا السلم؛ ولكن بينما كان يجري فإنه تعثر من جراء إرهاقه وإعيائه. في الحال قفز أعداؤه متقدمين. وجاء الأوركيون صاعدين، يصرخون وأذرعتهم الطويلة ممدودة للإمساك به. وسقط الأول منهم بسهم ليجولاس الأخير في حلقه، ولكن الباقين قفزوا فوقه. عندئذ ألقي جلمود عظيم من الجدار الخارجي فوقهم، سقط على السلم في ارتطام شديد، وقذف بهم للخلف إلى الوادي العميق. ووصل أراجورن إلى الباب، وسريعًا رن صوت الباب وهو يغلق وراءه.
وقال، وهو يمسح العرق من فوق جبينه بذراعه: «لقد سارت الأمور على نحو سيئ يا أصدقائي».

فقال ليجولاس: «على نحو سيئ بالقدر الكافي، ولكنها ليست بعد ميئوسًا منها، مادمت معنا. أين جيملي؟».

فقال أراجورن: «لا أدري. آخر مرة رأيته فيها كان يقاتل على الأرض وراء الجدار، ولكن العدو فصل ما بيننا».

وقال ليجولاس: «واأسفاه! هذه أخبار مشئومة».

وقال أراجـورن: «إنه صلب وقوي. لنأمل أنه سيهرب ويعود إلى الكهوف. وهناك سوف يكون آمنًا بعض الوقت. أكثر أمنًا منا نحن. هذا الملاذ سوف يكون شيئًا يحبه القزم».

فقال ليجولاس: «لا بد أن ذلك هو أملي. ولكن أتمنى أن لو كان قد جاء في هذا الطريق. كنتُ أرغب أن أخبر سيدي جيملي أن عددي الآن ثلاثة وتسعون».

وضحك أراجـورن وقال: «إنه إذا استطاع الذهاب إلى الكهوف، فإنه سوف يتجاوز عددك مرة أخرى. إنني لم أر بلطة قط تستخدم بهذه البراعة الفائقة».

وقال ليجولاس: «يجب أن أذهب وأبحث عن بعض السهام. أتمني أن تنتهي هذه الليلة، وسوف يكون لدي ضوء أفضل للرماية».

ومر أراجورن الآن إلى القلعة. وهناك لفزعه ورعبه علم أن إيومر لم يصل إلى حصن هورنبرج.

قال أحد رجال ويستفولد القائمين على الحراسة: «كلا، إنه لم يأت إلى الصخرة».

«آخر مرة رأيته فيها كان يجمع الرجال حوله ويقاتل عند مدخل الوادي العميق. كان جيملينج معه، والقزم؛ ولكني لم أستطع أن آتي إليهم».

وخطا أراجـورن خطوات واسعة عبر البهو الداخلي، وصعد غرفة عالية في البرج. وهناك كان يقف الملك، أسود أمام نافذة ضيقة، ينظر فوق الوادي، وقال:

«ما الأخبار يا أراجورن؟».

«الجدار الدفاعي للوادي تم الاستيلاء عليه يا مولاي وتم دحر جميع الدفاعات؛ ولكن هرب الكثيرون إلى هنا إلى الصخرة».

«هل إيومر هنا؟».

«كلا يا مولاي. ولكن الكثيرين من رجالك تراجعوا إلى الوادي العميق؛ والبعض يقول إن إيومر كان بينهم. في الممرات الضيقة قد يصدون العدو ويأتون في نطاق الكهوف. أي أمل قد يكون لديهم عندئذ لا أدري».

«أكثر منا. مؤن جيدة، حسبما يقال. والهواء صحي هناك بسبب المنافذ الموجودة عبر الشقوق في الصخر العالي فوقهم. لا شيء يمكن أن يدخل عنوة على رجال مصممين. قد يصمدون طويلاً».

فقال أراجورن: «ولكن الأوركيين قد أحضروا سحرًا من أورثانك. إن لديهم نارًا عاصفة، وبها استولوا على الجدار. إذا لم يستطيعوا أن يدخلوا الكهوف، فإنهم قد يسدون الباب على أولئك الموجودين في الداخل. ولكن الآن يجب أن نحول كل تفكيرنا إلى دفاعنا نحن».

وقال ثيودن: «إنني أبلى في هذا السجن. لو أنني استطعت أن أمسك رمحًا في راحة يدي، وأسير أمام رجالي فوق الميدان، ربما كان بإمكاني أن أشعر مرة أخرى بفرحة المعركة، وهكذا أنتهي. ولكني أصلح لغرض صغير هنا».

فقال أراجورن: «هنا على الأقل أنت محروس في أقوى حصن في المارك. إن لدينا أملاً للدفاع عنك في حصن هورنبرج أكبر منه في إدوراس، أو حتى في دانهارو في الجبال».

فقال ثيودن: «قيل إن حصن هورنبرج لم يسقط أبدًا في أي هجوم، ولكن الآن قلبي يملؤه الشك. العالم يتغير، وكل ما كان في وقت من الأوقات قويًا يصبح الآن غير أكيد. كيف يمكن لأي برج أن يصمد أمام تلك الأعداد وهذه الكراهية المتهورة؟ لو أنني عرفتُ أن قوة آيزنجارد قد كبرت بهذا الحجم، ربما ما كنتُ قد خرجتُ بهذا التهور لملاقاته، معترضًا على كل حيل جندلف. إن نصيحته لا تبدو الآن جيدة مثلما كانت تبدو تحت شمس الصباح».

ورد عليه أراجورن قائلاً: «لا تحكم على نصيحة جندلف، قبل أن ينتهي كل شيء، يا مولاي».

فقال له الملك: «النهاية لن تكون بعيدة. ولكني لن أنتهي هنا، أؤخذ مثل حيوان الغرير في مصيدة. سنومين وهاسوفل وخيل حراسي كلها في البهو الداخلي. عندما يأتي الفجر، سوف أخرج الرجال بإطلاق نفير هيلم، وسوف أنطلق في سيري. هل ستخرج معي عندئذ، يا ابن أراثورن؟ ربما يمكننا أن نشق طريقًا، أو نصنع نهاية تكون جديرة بأغنية ـ إذا تُرك أي أحد ليغني عنا بعد ذلك».

ورد عليه أراجورن قائلاً: «سوف أخرج معك».

واستأذن منه، وعاد إلى الجدران، ومر حول محيطها بالكامل، يشجع الرجال ويقوي قلوبهم، ويعطي المساعدة في المكان الذي يكون منه الهجوم قويًا. وذهب ليجولاس معه. وراحت قذائف النيران ترتفع من أسفلهم تهز الصخور. راحت الخطاطيف محكمة الربط تتدافع، وترتفع السلالم. ومرارًا وتكرارًا كان الأوركيون يصلون إلى قمة الجدار الخارجي، وكان المدافعون يصدونهم مرة أخرى.

وأخيرًا وقف أراجورن فوق البوابات العظيمة غير آبه بأسهم العدو المريشة.

وبينما كان ينظر للأمام رأى السماء الشرقية تصبح شاحبة. ثم رفع يده الفارغة، وكفه نحو الخارج علامة على التفاوض.

وصاح الأوركيون وراحوا يسخرون منه، وصرخوا قائلين: «انزل! انزل! إذا كنتَ تريد أن تتحدث معنا، فانزل! أحضر ملكك معك! إننا نحن الأوروك هاي المحاربون. سوف نحضره من حفرته، إذا لم يأت. لتحضر معك الملك المختبئ!

فقال أراجورن: «الملك يبقى أو يأتي على حسب رغبته وإرادته».

وأجابوه قائلين: «إذن ماذا تفعل هنا؟ لماذا تطل علينا؟ هل ترغب في أن ترى عظمة جيشنا؟ إننا نحن الأوروك هاي المحاربون».

فقال أراجورن: «كنتُ أطل لأرى الفجر».

وصاحوا في سخرية: «وماذا عن الفجر؟ نحن الأوروك هاي: نحن لا نوقف القتال ليلاً أو نهارًا، في الطقس الجميل أو في العاصفة. نحن نأتي لنقتل، عند طلوع الشمس أو بزوغ القمر. ماذا عن الفجر؟».

فقال أراجورن: «لا أحد يعرف ما سيجلبه له اليوم الجديد. اذهبوا قبل أن يتحول اليوم إلى شركم».

وصاحوا قائلين: «انزل وإلا فسوف نطلق عليك سهامنا من الجدار. هذا ليس تفاوضًا. ليس لديك شيء تقوله».

وأجابهم أراجورن قائلاً: «لا يزال لدي ما أقوله. لم يحدث قط أن استولى أي عدو على حصن هورنبرج. ارحلوا، وإلا فلن نبقي على واحد منكم. لن نترك واحدًا منكم حيًا ليعود بالأخبار إلى الشمال. إنكم لا تعرفون الخطر الذي يحدق بكم».

قوة عظيمة وملكية ظهرت في أراجورن، وهو يقف هناك وحده فوق الأبواب المدمرة أمام جيش أعدائه، لدرجة أن الرجال الجامحين توقفوا، ونظروا للوراء فوق أكتافهم إلى الوادي، ونظر بعضهم لأعلى في شك إلى السماء. ولكن الأوركيين ضحكوا بأصوات عالية؛ وراح وابل من السهام المريشة والسهام ينطلق مصفرًا فوق الجدار، بينما كان أراجورن يقفز نازلاً.

كان هناك زئير ووابل من نيران. انهار مدخل البوابة المقنطر الذي وقف فوقه قبل لحظة وتداعى في الدخان والغبار. وتناثر المتراس كما لو كان أصيب بصاعقة. وجرى أراجورن إلى برج الملك.

ولكن في اللحظة التي تداعت فيها البوابة، وصرخ الأوركيون الذين كانوا حولها، استعدادًا للهجوم، ارتفعت دمدمة وراءهم، مثل ريح على البعد، وتحول إلى صخب لأصوات كثيرة تصيح بأخبار غريبة في الفجر. تردد الأوركيون الذين كانوا على الصخرة، لما سمعوا شائعة الفزع، ونظروا إلى الوراء. وبعد ذلك، دوى صوت بوق هيلم العظيم فجأة ومروعًا من البرج فوقهم.

ارتعش كل منْ سمع ذلك الصوت. ألقى الكثيرون من الأوركيين بأنفسهم على وجوههم وغطوا آذانهم بمخالبهم. وجاءت الأصداء عائدة من الوادي العميق، نفخة فوق نفخة، كما لو كان هناك رسول عظيم يقف فوق كل جرف وكل تل. ولكن نظر الرجال إلى أعلى الجدران، ينصتون في عجب؛ لأن الأصداء لم تمت. وراحت نفخات البوق تتحرك متعرجة بين التلال؛ وراحت ترد على بعضها بشكل أقرب وأعلى الآن، وهي تنفخ في شراسة وبحرية.

وصاح الخيالة: «هيلم! هيلم! لقد نهض هيلم وعاد للحرب. هيلم لثيودن الملك!».

ومع هذه الصيحة جاء الملك. كان حصانه أبيض مثل الثلج، ذهبيًا كان ترسه، وطويلة كانت حربته. كان أراجـورن، ورييث إلنديل، على يمينه، وكان يركب وراءه سادة منزل إيورل الصغير. وقفز الضوء في السماء. ورحل الليل.

«تقدموا يا شعب إيورل!» وهجموا بصيحة وضوضاء عظيمة. وراحوا يزأرون لأسفل عبر الأبواب، وهجموا فوق الممر الضيق، وتقدموا يشقون حشود آيزنجارد مثلما تشق الريح طريقها عبر العشب. ووراءهم من الوادي العميق جاءت صيحات حادة لرجال يخرجون من الكهوف، يدفعون العدو للأمام. وتدفق كل الرجال الذين كانوا قد تُركوا على الصخرة. وراح صوت الأبواب يدوي دائمًا دون انقطاع في التلال.

وراحـوا يواصلون تقدمهم، الملك ورفاقه. راح القادة والأبطال يسقطون أو يفرون أمامهم. لم يقاومهم لا أوركي ولا إنسان. كانت ظهورهم لسيوف ورماح الخيالة، وكانت وجوههم للوادي. راحوا يصيحون وينتحبون؛ لأن الخوف والعجب العظيم ألم بهم مع طلوع النهار.

وهكذا انطلق الملك ثيودن من بوابة هيلم وشق طريقه إلى الخندق العظيم. وهناك توقفت المجموعة. وأصبح الضوء ساطعًا حولهم. وراحت أعمدة من الشمس تتموج فوق التلال الشرقية وتتوهج على رماحهم. ولكنهم جلسوا في صمت على خيلهم، وراحوا يحدقون في الوادي المنخفض العميق.

لقد تغيرت الأرض. حيثما كان يقع الوادي الأخضر من قبل، ومنحدرات العالية المعشوشبة التي تكتنف التلال المرتفعة دومًا، لاحت الآن هناك غابة. أشجار عظيمة، جرداء وصامتة، وقفت صفًا على صف بأغصانها المتشابكة ورءوسها الشيباء؛ كانت جذورها الملتوية مدفونة في العشب الأخضر الطويل. كانت الظلمة تخيم. بين الخندق وحواف الغابة التي لا اسم لها لم يكن يقع سوى فرسخين مكشوفين. هنالك الآن كانت تجثم حشود سارومان الفخورة، في رعب من الملك وفي رعب من الأشجار. وراحوا يتدفقون بأعداد كبيرة من بوابة هيلم حتى صار كل ما فوق الخندق خاليًا منهم، ولكن

أسفل منه تجمعوا مثل الذباب المحتشد. وراحوا يزحفون دون جدوى ويتسلقون حول جدران الوادي الضيق، محاولين الهرب. وفي الشرق كان جانب الوادي شديد الانحدار وصخريًا للغاية؛ وفي الشمال، ومن الغرب، اقترب مصيرهم النهائي.

وفجأة ظهر فوق قمة من القمم خيال، يرتدي لباسًا أبيض، يتألق في الشمس المشرقة. وفوق التلال الواطئة راحت الأبواق تدوي. ووراءه، كان ألف رجل يسرعون هابطين المنحدرات العالية طويلة سيرًا على أقدامهم؛ كانت سيوفهم في أيديهم. وكان يسير بخطى واسعة وسطهم رجل طويل وقوي. كان ترسه أحمر اللون. وعندما وصل إلى حافة الوادي، وضع على شفتيه بوقًا أسود عظيمًا ونفخ نفخة مدوية.

وصاح الخيالة: «إركنبراند! إركنبراند!»

وصاح أراجورن: «انظر الخيال الأبيض! لقد جاء جندلف مرة أخرى!»

قال ليجولاس: «مثيرانديز، مثيرانديز! إن هذا لقوة سحرية حقًا! هيا! أتمنى أن أنظر إلى هذه الغابة، قبل أن تتغير التعويذة السحرية».

وزأرت حشود آيزنجارد، وهم يترنحون في هذه الاتجاه وذاك، ويتحولون من خوف إلى خوف. وانطلق البوق مدويًا مرة أخرى من البرج. وهبوطًا عبر ثغرة الخندق هجمت مجموعة الملك. وهبوطًا من التلال قفز إركنبراند سيد ويستفولد. وهبوطًا قفز شادوفاكس، مثل أيل يجري راسخ القدم في الجبال. وكان الخيال الأبيض فوقهم، وملأ رعب قدومه العدو بالجنون. ووقع الرجال الجامحون على وجوههم أمامه. ونكص الأوركيون وصرخوا وألقوا جانبًا كلاً من السيف والرمح. وفروا هاربين مثل دخان أسود تدفعه ريح صاعدة. ومروا وهم يصرخون ويعوون أسفل ظل الأشجار المترقبة؛ ومن ذلك الظل لم يأت أحد مرة أخرى قط.

الفصل الثامن
الطـريــق إلـى آيــزنـجــارد

وهكذا حدث أن كان في ضوء صباح جميل، تقابل الملك ثيودن وجندلف الخيالْ الأبيض مرة أخرى على العشب الأخضر إلى جوار نهر الوادي العميق. كما كان هناك أيضًا أراجورن بن أراثورن، وليجولاس الجني، وإركنبراند سيد ويستفولد، وسادة المنزل الذهبي. وتجمع حولهم الروهيريميون، خيالة المارك، وغلب العجب على فرحتهم بالنصر، وتحولت أعينهم باتجاه الغابة.

وفجأة جاءت صرخة عظيمة، وإلى أسفل من الخندق جاء أولئك الذين كانوا قد دُحروا إلى الوادي العميق. وها قد جاء جيملينج العجوز، وإيومر ابن إيوموند، وإلى جوارهما كان يمشي جيملي القزم. لم تكن معه خوذة، وكانت هناك عصابة من كتان حول رأسه ملطخة بالدم؛ ولكن صوته كان عاليًا وقويًا. وصاح:

«اثنان وأربعون سيدي ليجولاس! واحسرتاه! بلطتي حدث بها ثلم؛ الثاني والأربعون كان لديه طوق حديدي حول عنقه. كيف هو الحال معك؟».

وأجابه ليجولاس قائلاً: «لقد تجاوزتَ عددي بمقدارِ واحدٍ. ولكني لا أحقد عليك، إنني سعيد جدًا أن أراك واقفًا على ساقيك!».

وقال ثيودن: «مرحبًا، يا إيومر، يا ابن أختي! والآن وقد رأيتُك سالمًا، فإنني سعيد حقًا».

ورد عليه إيومر قائلاً: «مرحبًا، ملك المارك! لقد مرت الليلة المظلمة، وقد جاء النهار مرة أخرى. ولكن النهار قد جلب معه أخبارًا غريبة». والتفت وحدق في ذهول، أولاً إلى الغابة وبعد ذلك إلى جندلف، وقال: «مرة أخرى تأتي في ساعة الحاجة، على نحو غير متوقع أو مرتقب».

فقال جندلف: «على نحو غير متوقع أو مرتقب؟ أنا قلتُ إنني سأعود وألقاك هنا».

«ولكنك لم تحدد الساعة، كما لم تتنبأ بطريقة قدومك. مساعدة غريبة تجلبها. إنك عظيم في السحر، يا جندلف الأبيض!».

«ربما يكون ذلك. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإنني لم أظهره بعد. كل ما هنالك أنني قدمتُ نصيحة جيدة بشأن الخطر، واستخدمتُ سرعة شادوفاكس. إن شجاعتك فعلت أكثر من ذلك، وسيقان رجال ويستفولد القوية التي تسير خلال الليل».

بعد ذلك حدقوا جميعًا في جندلف مع مزيد من الدهشة والذهول. نظر بعضهم في

غموض إلى الغابة، ومرروا أيديهم فوق جباههم، كما لو كانوا يظنون أن أعينهم ترى خلاف ما تراه عيناه.

وضحك جندلف طويلاً في مرح وسعادة، وقال: «الأشجار؟ كلا، إنني أرى الغابة تمامًا مثلما ترونها. ولكن ليس هذا عملاً من أعمالي. إنه شيء وراء نصيحة الحكماء. أفضل من تخطيطي، بل وقد أثبت الحدث أنه أفضل من أملي».

فقال ثيودن: «إذن إذا لم يكن هذا سحرك، فلمن هذا السحر؟ ليس سحر سارومان، هذا واضحًا. هل هناك حكيم أكثر عظمة، سوف نسمع عنه بعد؟».

فقال جندلف: «إنه ليس سحرًا، ولكن قوة أكثر قدمًا بكثير، قوة سارت على الأرض، قبل أن يغني جني أو تدق مطرقة.

قبل أن يوجد الحديد أو يُقطع الشجر،
عندما كانت الجبال شابة تحت القمر؛
قبل أن يُصنع الجرس، أو يُصنع البلاء،
مشي في الغابات منذ زمن طويل».

فقال ثيودن: «وما عساها تكون إجابة لغزك؟».

وأجابه جندلف قائلاً: «إذا كنتَ تريد أن تعرف ذلك، فينبغي عليك أن تأتي معي إلى آيزنجارد».

وصاحوا جميعًا: «إلى آيزنجارد؟».

ورد جندلف بقوله: «نعم. سوف أعود إلى آيزنجارد، وأولئك الذين يريدون يمكنهم أن يأتوا معي. هناك قد نرى أشياء غريبة».

فقال ثيودن: «ولكن ليس هناك رجال بالعدد الكافي في المارك، ولا حتى لو جُمعوا جميعًا وشفوا من جراحهم وما بهم من إرهاق وإعياء، لمهاجمة معقل سارومان».

فقال جندلف: «ومع ذلك فإنني ذاهب إلى آيزنجارد. لن أبقى هناك طويلاً. يقع طريقي الآن باتجاه الشرق. ابحثوا عني في إدوراس، قبل أن يدخل القمر المحاق!».

فقال ثيودن: «كلا! في الساعة المظلمة قبل الفجر أشك، ولكن لن نفترق الآن. سوف آتي معك، إذا كانت هذه مشورتك ونصيحتك».

فقال جندلف: «أتمنى أن أتحدث مع سارومان سريعًا قدر الإمكان الآن، وحيث إنه قد ألحق بك ضررًا عظيمًا، فإنه سيكون من المناسب أن تكون هناك. ولكن ما مدى السرعة التي ستنطلق بها؟».

فقال الملك ردًا عليه: «إن رجالي مرهقون من المعركة، وأنا مرهق أيضًا؛ لأنني

سرتُ كثيرًا ونمتُ قليلاً. واحسرتاه! إن كبر سني ليس زيفًا كما أنه ليس عائدًا إلى همسات وورمتونج. إنه مرض لا يمكن أن يشفيه تمامًا أي طبيب، ولا حتى جندلف».

فقال جندلف: «ليسترح كل من سيخرجون معي الآن. سوف نرتحل تحت ظل المساء. وهو كذلك؛ حيث إن نصيحتي أن كل تحركاتنا من ذهاب وإياب يجب أن تكون سرًا قدر الإمكان، من الآن فصاعدًا. ولكن لا تأمر الكثير من الرجال للذهاب معك، يا ثيودن: إننا ذاهبون للتفاوض وليس للقتال».

عندئذ اختار الملك أولئك الذين لم يكونوا مصابين ولديهم خيل سريعة، وأرسلهم بأخبار النصر إلى كل واد من المارك؛ كما أنهم حملوا أوامره بالاستدعاء أيضًا، آمرين كل الرجال، صغارًا وكبارًا، ليأتوا على عجلة إلى إدوراس. هناك سوف يعقد ملك المارك اجتماعًا لكل من يستطيع حمل السلاح، في اليوم الثاني بعد تمام القمر. اختار الملك للخروج معه إلى آيزنجارد إيومر وعشرين رجلاً من أهل بيته. وسيذهب مع جندلف أراجورن وليجولاس وجيملي. وعلى الرغم من إصابته، فإن القزم لن يتخلف عنهم، وقال:

«لم تكن سوى ضربة ضعيفة وقد صدها غطاء الرأس. سوف يحتاج الأمر إلى أكثر من خدشة من أوركي ليمنعني عن الذهاب».

فقال أراجورن: «سوف أقوم على علاجك، بينما تستريح أنت».

وعاد الملك الآن إلى هورنبيرج، ونام، نومًا هادئًا مثلما لم يعرفه لسنوات كثيرة، كما أن الباقين من مجموعته التي اختارها استراحت أيضًا. ولكن الآخرين، كل أولئك الذين لم يكن بهم أذى أو إصابات، بدءوا عملاً عظيمًا؛ نظرًا لأن الكثيرين سقطوا في المعركة ويرقدون أمواتًا في الميدان أو في الوادي العميق.

لم يظل أي أوركي حيًا؛ كانت أجسادهم لا حصر لها. ولكن كثيرين جدًا من رجال التلال استسلموا؛ وكانوا خائفين، وراحوا يصرخون طالبين الرحمة.

أخذ رجال المارك منهم سلاحهم، وأسندوا إليهم أعمالاً.

وقال إركنبراند: «ساعدوا الآن في إصلاح الشر الذي شاركتم فيه، وبعد ذلك سوف تقسمون قسمًا ألا تمروا مرة أخرى أبدًا من مخاضات آيزن وأنتم مسلحون، ولا تسيروا مع عدو البشر؛ وبعد ذلك سوف تعودون إلى بلادكم أحرارًا؛ لأنكم قد خُدعتم؛ خدعكم سارومان. أخذ الكثيرون منكم الموت مكافأة لهم على ثقتكم فيه؛ ولكن لو أنكم كنتم قد انتصرتم، فإن أجوركم كانت ستكون أفضل قليلاً من ذلك».

ودهش رجال دونالاند؛ لأن سارومان كان قد أخبرهم أن رجال روهان كانوا قساة وكانوا يحرقون أسراهم أحياءً.

في وسط الميدان أمام هورنبرج تم بناء تلين جنائزيين، وتحتهما وضع كل خيالة المارك الذين سقطوا في الدفاع، أولئك الذين كانوا من الوديان الشرقية في جانب، وأولئك الذين كانوا من ويستفولد في الجانب الآخر. ورقد في قبر بمفرده تحت ظل هورنبرج هاما ـ قائد حرس الملك. سقط أمام البوابة.

وتم تجميع الأوركيين في أكوام كبيرة، بعيدًا عن التلال الجنائزية للبشر، ليس بعيدًا عن حواف الغابة. وكان الناس قلقين في عقولهم؛ وذلك نظرًا لأن أكوام الجثث كانت كبيرة للغاية بحيث لا يمكن دفنها أو حرقها. كان لديهم القليل من الخشب لصنع النار، ولم يجرؤ أحد على أخذ بلطة ويقطع بها الأشجار الغريبة، حتى لو لم يكن جندلف قد حذرهم من أن يؤذوا لحاء أو غصنًا في خطرهم العظيم.

وقال جندلف: «دعوا الأوركيين يرقدون. ربما يجلب الصباح خطة ومشورة جديدة».

في فترة ما بعد الظهيرة، استعدت جماعة الملك للرحيل. كان عمل الدفن عندئذ في بدايته وحسب؛ وكان ثيودن حزينًا على فقد هاما، قائده، وألقى بأول حفنة تراب على قبره؛ وقال: «مصاب عظيم حقًا ألحقه سارومان بي وبكل هذه البلاد، وسوف أذكر ذلك، عندما نتقابل».

كانت الشمس تقترب بالفعل من التلال في غرب الوادي الضيق، عندما بدأ أخيرًا ثيودن وجندلف ورفاقهما المسير من الخندق. تجمع وراءهم حشد كبير، من كل من الخيالة ومن شعب ويستفولد، كبارًا وصغارًا، نساء وأطفالاً، من الذين خرجوا من الكهوف. راحوا يغنون أغنية النصر بأصوات صافية؛ وبعد ذلك لزموا الصمت، متسائلين عما عساه أن يحدث مصادفة؛ لأن أعينهم كانت على الأشجار وكانوا يخشونها.

وصل الخيالة إلى الغابة، وتوقفوا؛ خيلاً ورجلاً، كانوا كارهين المرور فيها. كانت الأشجار كئيبة وتوحي بالتهديد والخطر، وكان حولها ظل أو سديم. كانت نهايات غصونها الطويلة الجارفة مدلاة لأسفل مثل أصابع دقيقة، وكانت جذورها خارجة من الأرض مثل أطراف وحوش غريبة، وكانت مفتوحة تحتها كهوف مظلمة. ولكن جندلف تقدم مواصلاً سيره، يقود المجموعة، وفي المكان الذي التقى فيه الطريق من هورنبرج الأشجار رأوا الآن فتحة مثل بوابة مقنطرة أسفل الغصون العظيمة؛ ومر خلالها جندلف، وتبعوه. عندئذ، ولدهشتهم، وجدوا أن الطريق كان يواصل المسير، وكان نهر الوادي العميق يجري إلى جواره؛ وكانت السماء مفتوحة فوقهم ومليئة بضوء ذهبي. ولكن على كلا الجانبين كانت ممرات الغابة الكبيرة مغلقة بالفعل بالظلمة، وممتدة بعيدًا إلى ظلال لا يمكن اختراقها؛ وهناك سمعوا صرير وعويل الأغصان، وصرخات

بعيدة، وإشاعة لأصواتٍ صامتة، تدمدم في غضب. لم يكن يُرى لا أوركي ولا أي مخلوق حي آخر.

كان ليجولاس وجيملي الآن يركبان معًا فوق حصان واحد؛ وكانا ملاصقين لجندلف؛ لأن جيملي كان خائفًا من الغابة.

وقال ليجولاس لجندلف: «الدنيا حر هنا. إنني أشعر بغضب شديد حولي. ألا تشعر بخفقان الهواء في أذنيك؟».

ورد عليه جندلف بقوله: «نعم».

وقال ليجولاس: «ما الذي حل بالأوركيين التعساء؟».

فرد عليه جندلف بقوله: «ذلك ـ في رأيي ـ لن يعرفه أحد على الإطلاق».

وساروا في صمت بعض الوقت؛ ولكن ليجولاس كان يحدق دومًا من جانب لآخر، وكان سيتوقف كثيرًا لينصت لأصوات الغابة، لو كان جيملي قد سمح له بذلك، وقال:

«هذه أغرب أشجار رأيتها في حياتي، وقد رأيتُ أشجار بلوط كثيرة تنمو من بذرتها وحتى بلوغها عمر الدمار. أتمنى أن لو كان هناك وقت فراغ للسير فيما بينها: إن لها أصواتًا، ومع الوقت قد أستطيع أن أفهم أفكارها».

فقال جيملي: «لا، لا! لنتركها! إنني أخمن أفكارها بالفعل، الكراهية لكل من يسير على رجلين؛ وحديثهم إنما هو عن السحق والخنق».

ورد عليه ليجولاس بقوله: «ليس لكل من يمشي على رجلين. في هذه النقطة أرى أنك قد أخطأت. إن من يكرهونهم هم الأوركيون؛ لأنهم ليسوا من هنا ويعرفون القليل عن الجن والإنس. بعيدة جدًا هي الوديان التي جاءوا منها. من وديان فانجورن العميقة، يا جيملي، أتوا، فيما أظن».

فقال جيملي: «إذن فهذه الغابة أكثر الغابات خطورة في الأرض الوسطى. إنني ممتن للدور الذي أدوه، ولكني لا أحبهم. ربما تظن أنت أنهم رائعون، ولكني رأيت عجبًا أعظم في هذه الأرض، أكثر جمالاً من أي أيكة أو فرجة في غابة حدث أن نمت على الإطلاق: لا يزال قلبي مفعمًا بها.

«غريبة هي طرائق البشر، يا ليجولاس! هنا لديهم واحدة من معجزات العالم الشمالي، وما الذي يقولونه عنها؟ كهوف، هذا ما يقولونه! كهوف! حفر يفرون إليها في وقت الحرب، ليخزنوا فيها العلف! يا عزيزي ليجولاس، هل تعلم أن كهوف وادي هيلم شاسعة وجميلة؟ لو أن وجود هذه الأشياء كان قد عرف، لكانت هناك رحلة لا نهائية من الحجيج الأقزام، يأتون لمجرد النظر إليها. نعم حقًا، إنهم كانوا سيدفعون ذهبًا خالصًا لقاء نظرة قصيرة!».

فقال ليجولاس: «وأنا كنتُ سأدفع ذهبًا لإعفائي وضعف ذلك لأخرج، لو أنني ضللتُ ودخلتُ فيها!».

فقال جيملي: «إنك لم تر، ولذلك فإنني أغفر لك مزحتك. ولكنك تتحدث، مثل أحمق. هل تظن أن هذهِ الأبهاء جميلة، حيث يسكن ملكك تحت التل في غابة ميركوود، وقد ساعد الأقزام في صنعها من زمن طويل؟ إنها ليست سوى أكواخ مقارنة بالكهوف التي رأيتها هنا؛ أبهاء لا حد لها، مملوءة بموسيقى لا نهائية من المياه تتقاطر في رنين مكونة أحواضًا كبيرة، جميلة مثل خيليد زارام في ضوء النجوم.

«ليجولاس، وعندما تُشعَل المشاعل ويمشي البشر على أرضيات رملية تحت القباب التي تنبعث منها الأصداء، آه! عندئذ، يا ليجولاس، تتوهج الجواهر والبللورات وعرق المعدن النفيس في الجدران المصقولة؛ ويتوهج الضوء عبر ألواح الرخام المطوية، مثل القواقع، شفاف مثل أيدي الملكة جلدريل الحية. هناك أعمدة من الورد الأبيض، والزعفران، وورد الفجر الجديد، يا ليجولاس، محززة ومفتولة في صورة أشكال شبيهة بالحلم؛ إنها تنبت أراضي كثيرة الألوان لتلاقي قلائد السقف المدلاة؛ أجنحة وحبالاً وستائر دقيقة مثل سحب متجمدة؛ رماحًا ورايات وقباب قصور معلقة! وتعكس صورها جميعًا البحيرات الساكنة: عالم متوجه يتطلع من بحيرات مظلمة مغطاة بزجاج صاف؛ مدن، مثل المدن التي يندر أن يتخيلها عقل دورين في نومه، وتنبسط ممتدة عبر الطرق المشجرة والأبهاء ذات الأعمدة، وتظل تمتد إلى أعماق مظلمة حيث لا يمكن لأي ضوء أن يصل إليها. وانظروا! تسقط قطرة فضية، والتجاعيد المدورة في المرآة تجعل جميع الأبراج تنحني وتهتز مثل الأعشاب والشعاب المرجانية في كهف بحري. وعندئذ يأتي المساء وتتلاشى وينطفئ وميضها؛ وتنتقل المشاعل إلى غرفة أخرى وحلم آخر. هناك غرفة بعد غرفة، يا ليجولاس؛ بهو يفتح من بهو آخر، قبة بعد قبة، سلم وراء سلم؛ ولا تزال الممرات المتعرجة تقود إلى قلب الجبال. الكهوف! كهوف وادي هيلم! كم كانت سعيدة تلك الفرصة التي ساقتني إلى هناك! إن تركي لها يجعلني أبكي».

وقال الجني: «إذن فسوف أتمنى لك هذه الفرصة لراحتك يا جيملي أن تأتي آمنًا من الحرب وتعود لتراها مرة أخرى. ولكن لا تخبر كل عشيرتك! يبدو أن هناك القليل قد ترك أمامهم ليفعلوه، من خلال روايتك للأمر. ربما يكون رجال هذه البلاد حكماء ليقولوا القليل؛ عائلة واحدة من الأقزام المنشغلين بالمطرقة والإزميل قد تفسد أكثر ما صنعوا».

فقال جيملي: «كلا، أنت لا تفهم. لن يكون أي قزم غير مبال أمام هذا الجمال. لن ينقب أي واحد من سلالة دورين في تلك الكهوف بحثًا عن حجارة أو معدن نفيس، ولا حتى لو كان بالإمكان الحصول على الألماس والذهب هناك. هل تقطعون أيكات الأشجار المزهرة في الربيع لتأخذوا منها خشبًا للنار؟ إننا سنرعى هذه الوديان من

الحجر المزهر لا أنْ نقوم بقطعها. بمهارة حذرة، نقرة نقرة ـ قطعة صغيرة من صخر وليس أكثر من ذلك، ربما، في يوم كامل مليء بالقلق ـ هكذا سوف نعمل، وبينما تمضي السنون، سوف نفتح طرقًا جديدة، ونعرض غرفًا بعيدة لا تزال مظلمة، تُرى فقط على أنها فراغ فيما وراء الشقوق في الصخر. والأضواء يا ليجولاس! سوف نصنع أضواء مثل المصابيح مثل تلك التي كانت تسطع في يوم من الأيام في خازاد دُوم؛ وعندما نريد نطرد الليل بعيدًا، والذي كان يرقد هناك منذ أن صُنعت التلال؛ وعندما نرغب في الراحة، فإننا نَدَعُ الليل يعود».

ورد ليجولاس بقوله: «إنك تؤثر فيَّ يا جيملي. إنني لم أسمعك تتحدث كهذا من قبل. إنك تجعلني أندم تقريبًا على أنني لم أر هذه الكهوف. هيا! لنضرب هذا الاتفاق ـ إذا عدنا كلانا سالمين من الأخطار التي تترقبنا، فسوف نرتحل معًا بعض الوقت. سوف تزور فانجورن معي، وبعد ذلك سوف آتي أنا معك لأرى وادي هيلم».

فرد جيملي بقوله: «لن تكون هذه طريقة العودة التي يجب عليَّ اختيارها. ولكني سوف أحتمل فانجورن، إذا وعدتني أن تعود إلى الكهوف وتشاركني في عجبها ودهشتها».

فقال له ليجولاس: «أعدك بذلك. ولكن يا للأسف! الآن يجب علينا أن نترك وراءنا كلاً من الكهف والغابة بعض الوقت. انظر! إننا نصل إلى نهاية الأشجار. كم تبعد المسافة إلى آيزنجارد يا جندلف؟».

وأجابه جندلف بقوله: «حوالي خمسين فرسخًا، كما تقطعها غربان سارومان، خمسة من مدخل الوادي الضيق إلى المخاضات؛ وعشرة بعد ذلك من هناك إلى أبواب آيزنجارد. ولكن لن نسير كل هذه المسافة الليلة».

وسأل جيملي قائلاً: «وعندما نصل إلى هناك، ما الذي سنراه؟ ربما تعرف، ولكني لا أستطيع التخمين».

وأجابه الساحر بقوله: «إنني لا أعرف أنا نفسي على وجه اليقين. كنتُ هناك مع حلول الليل بالأمس، ولكن ربما يكون قد حدث الكثير منذ ذلك الحين. ولكني أعتقد أنك لن تقول إن الرحلة كانت بلا جدوى ـ ليس كذلك على الرغم من أننا نترك كهوف أجلاروند المتوهجة وراءنا».

وأخيرًا مرت المجموعة عبر الأشجار، ووجدت أنهم قد وصلوا إلى قاع الوادي الضيق، حيث تفرع الطريق من وادي هيلم، ذاهبًا في أحد الاتجاهين نحو الشرق إلى إدوراس، والطريق الآخر ذهب شمالاً إلى مخاضات آيزن. وبينما كانوا يسيرون تحت حواف الغابة، توقف ليجولاس ونظر للوراء في ندم. وبعد ذلك صاح صيحة مفاجئة قائلاً:

«هناك عيون. عيون تنظر من ظلال الأغصان. إنني لم أر تلك العيون من قبل قط».

وتوقف الآخرون والتفتوا مندهشين من صيحته؛ ولكن ليجولاس بدأ يسير عائدًا.

وصاح جيملي: «كلا، كلا! افعل ما شئتَ في جنونك، ولكن دعني أولاً أنزل من فوق هذا الحصان! إنني لا أرغب في أن أرى أي عيون!

وقال جندلف: ابق يا ليجولاس جرينليف! لا تعد إلى الغابة، ليس بعد! الآن ليس وقتك».

وبينما هو يتكلم، خرجت من الأشجار ثلاثة أشكال. كانت طويلة مثل الغيلان، حيث كان طولها اثني عشر قدمًا أو يزيد؛ كانت أجسامهم القوية، الصلبة مثل الأشجار الصغيرة، تبدو عليها ثياب أو جلد لصيق بأجسادهم رمادي وبني. كانت أطرافهم طويلة، وكانت بأيديهم أصابع طويلة؛ كان شعرهم منتصبًا، وكانت لحاهم رمادية خضراء مثل الطحلب. كانوا يحدقون بأعين وقور ولكنهم لم يكونوا ينظرون إلى الخيالة، كانت أعينهم متجهة نحو الشمال. وفجأة رفعوا أيديهم الطويلة إلى أفواههم، وأطلقوا صيحات مدوية، واضحة مثل نغمات بوق، ولكن أكثر موسيقية ومتعددة. وجاء الرد على الصيحات؛ ولما التفت الخيالة مرة أخرى رأوا مخلوقات أخرى من نفس النوع تقترب منهم، وهي تسير بخطى واسعة عبر العشب. وجاءوا سريعًا من الشمال، يمشون مثل طيور البلشون تخوض الماء في مشيتهم، ولكن ليس في سرعتهم؛ لأن سيقانهم في خطواتهم الطويلة كانت تضرب بسرعة أكبر من أجنحة البلشون. وصاح الخيالة بصوت عال في دهشة، ووضع بعضهم أيديهم على مقابض سيوفهم.

وقال جندلف: «لستم بحاجة إلى أي أسلحة. هؤلاء ليسوا سوى رعاة. إنهم ليسوا أعداء، في واقع الأمر إنهم ليسوا معنيين بنا على الإطلاق».

هكذا بدا الأمر فعلاً؛ حيث إنه وهو يتكلم، وبدون نظرة على الخيالة، ساروا نحو الغابة بخطى واسعة واختفوا.

وقال ثيودن: «رعاة! وأين قطعانهم التي يرعونها؟ ماذا هم يا جندلف؟ لأنه واضح أنه بالنسبة لك، على أية حال، أنهم ليسوا غرباء».

وأجابه جندلف بقوله: «إنهم رعاة الأشجار. هل مضى زمن طويل منذ أن سمعتَ حكايات بجوار الموقد؟ هناك أطفال في بلادك يمكنهم من خيوط القصة المحبوكة أن يلتقطوا الإجابة عن سؤالك. لقد رأيتَ الإنتيين، أيها الملك، إنتيون يأتون من غابة فانجورن، التي تسمونها بلغتكم غابة الإنتيين. هل كنت تعتقد أن هذا الاسم أطلق من فراغ؟ كلا، يا ثيودن، إنه غير ذلك؛ بالنسبة لهم أنت لست سوى الحكاية العابرة؛ كل السنين من إيورل الصغير إلى ثيودن العجوز ذات أهمية قليلة بالنسبة لهم؛ وكل أعمال منزلك ليست سوى شأن صغير».

ولزم الملك الصمت. وقال أخيرًا: «إنتيون! من خارج ظلال الأسطورة أبدأ قليلاً في فهم معجزة الأشجار، فيما أعتقد. لقد عشتُ لأرى أيامًا غريبة. لقد رعينا حيواناتنا وحقولنا طويلاً، أو بنينا منازلنا، أو صنعنا أدواتنا، أو سرنا بخيلنا بعيدًا لنساعد في حروب ميناس تيريث. وهذا أطلقنا عليه حياة البشر، طريقة العالم.

كنا نغني قليلاً لما يقع وراء حدود أرضنا. الأغاني التي لدينا، والتي تحكي عن هذه الأشياء، ولكننا ننساها، ولا نعلمها إلا للأطفال، كعادة غير متقنة. والآن جاءت الأغاني بيننا من أماكن غريبة، وتمشي مرئية تحت الشمس».

وقال جندلف: «ينبغي أن تكون سعيدًا أيها الملك ثيودن. فليست فقط حياة البشر الصغيرة هي المعرضة للخطر الآن، ولكن أيضًا حياة تلك الأشياء التي اعتبرتها مسألة أسطورة. إنك لست بدون حلفاء، حتى لو كنتَ لا تعرفهم».

وقال ثيودن: «ولكن ينبغي أن أكون حزينًا أيضًا؛ لأنه أيًا كان المصير الذي ستفضي إليه الحرب، أليس بالإمكان أن تنتهي على نحو يجعل الكثير الذي كان جميلاً ورائعًا ينتهي إلى الأبد من الأرض الوسطى؟».

وقال جندلف: «ربما يكون ذلك. إن شرر ساورون لا يمكن شفاؤه تمامًا، ولا يمكن أن يُجعل كأنه لم يكن. ولكن محتوم علينا أن نرى هذه الأيام. هيا بنا الآن نواصل رحلتنا التي كنا قد بدأناها!»

عندئذ دارت المجموعة بعيدًا من الوادي الضيق، ومن الغابة وأخذوا الطريق باتجاه المخاضات. وتبعهم ليجولاس على مضض. كانت الشمس قد غربت، كانت قد غربت بالفعل وراء حافَة العالم؛ ولكن بينما كانوا يسيرون خارجين من ظل التلال ونظروا غربًا إلى فجوة روهان كانت الشمس لا تزال حمراء، وكان هناك ضوء متوهج تحت السحب الطافية. وكانت هناك طيور كثيرة سوداء مجنحة تطير مسرعة سوداء تحتها. مر بعضها فوقهم وهي تصيح صيحات حزينة، عائدة إلى منازلها بين الصخور.

وقال إيومر: «لقد كانت طيور الجثث منشغلة حول ميدان المعركة».

وراحوا الآن يسيرون بسرعة منخفضة وحل الظلام على السهول حولهم. وصعد القمر البطيء، حيث كان عندئذ يتحول نحو الاكتمال، وفي نوره الفضي البارد ارتفعت المراعي المنتفخة وسقطت مثل بحر رمادي واسع. كانوا قد ساروا لمسافة أربع ساعات منذ تفرع الطرق عندما اقتربوا من المخاضات. راحت منحدرات طويلة تجري سريعًا هابطة إلى حيث انتشر النهر في مناطق ضحلة بين المصاطب العشبية العالية. وسمعوا عواء الذئاب محملاً على الرياح. كانت قلوبهم مثقلة بالقلق، عندما تذكروا الرجال الكثيرين الذين سقطوا في المعركة في هذا المكان.

وغاص الطريق بين ضفاف العشب المرتفعة، شاقًا مساره عبر المصاطب إلى حافة النهر، وصعودًا مرة أخرى على الجانب البعيد. كانت هناك ثلاثة صفوف من الصخور المدرجة المسطحة عبر نبع الماء، وبينها كانت هناك مخاضات للخيل التي كانت تسير من كل حافة إلى جزيرة جرداء في الوسط. ونظر الخيالة لأسفل فوق المعابر، وبدت غريبة لهم؛ لأن المخاضات كانت دومًا مكانًا مليئًا باندفاع المياه وثرثرتها فوق الصخور؛ ولكنها الآن كانت صامتة. كانت قيعان النهر جافة تقريبًا، مخلفات جرداء من حصى ورمل رمادي.

وقال إيومر: «لقد أصبح هذا مكانًا كئيبًا موحشًا. أي علة قد ألمت بالنهر؟ أشياء كثيرة جميلة دمرها سارومان؛ فهل التهم ينابيع آيزن أيضًا؟».

فقال جندلف: «هكذا سيبدو».

وقال ثيودن: «واحسرتاه! هل يجب علينا أن نمر بهذا الطريق، حيث حيوانات الجيف تلتهم الكثير من خيالة المارك؟».

فقال جندلف: «هذا هو طريقنا. كم هو مفجع سقوط رجالك؛ ولكنك سترى ـ على الأقل ـ أن ذئاب الجبال لا تلتهمهم. إن وليمتهم تنعقد مع أصدقائهم، الأوركيين: هذه هي في واقع الأمر الصداقة التي تكون من نوعهم. هيا!»

وساروا في طريقهم إلى النهر، وبينما كانوا يتقدمون توقف عواء الذئاب وراحت تنسل بعيدًا. حل بهم الخوف لما رأوا جندلف في القمر، وحصانه شادوفاكس يلمع مثل الفضة. ومر الخيالة عابرين إلى الجزيرة الصغيرة، وراحت الأعين المتوهجة تراقبهم في وهن من ظلال الضفاف.

وقال جندلف: «انظروا! أصدقاء قد كدحوا هنا».

ورأوا أنـه في وسط الجزيرة كانت هناك رابية مكومة، محاطة بحجارة، وموضوع حولها الكثير من الحراب.

وقال جندلف: «هنا يرقد جميع رجال المارك الذين سقطوا قريبًا من هذا المكان».

وقال إيومر: «هنا دعهم يستريحوا! وعندما تكون حرابهم قد بليت وصدئت، لعل رابية لا تزال تقف طويلاً وتحرس مخاضات آيزن!».

فقال ثيودن: «هل هذا عملك أيضًا يا جندلف يا صديقي؟ لقد حققتَ كثيرًا في أمسية وليلة!».

فقال جندلف: «بمساعدة شادوفاكس ـ وآخرين. سرتُ سريعًا وبعيدًا. ولكن هنا إلى جوار الرابية سوف أقول هذه لراحتك؛ لقد سقط الكثيرون في معارك المخاضات، ولكن أقل مما أشاعته الشائعات. الكثيرون كانوا مبعثرين أكثر ممن كانوا مذبوحين؛ جمعتُ كل ما استطعتُ جمعهم معًا. أرسلتُ بعض الرجال مع جريمبولد من ويستفولد

للانضمام إلى إريكنبرّاند. البعض خصصتهم لإنجاز عملية الدفن. لقد تبعوا الآن قائدك، إلفهيلم. لقد أرسلتُه مع خيالة كثيرين إلى إدوراس. وعلمتُ أن سارومان قد أرسل قوته كاملة ضدكم، وقد استدار خدامه جانبًا من جميع المهام التي أرسلوا فيها وذهبوا إلى وادي هيلم؛ بدت الأرض خالية من الأعداء؛ ولكن خشيتُ أن راكبي الذئاب والنهابين قد يأتون على الرغم من ذلك إلى ميدوسلد، وهي غير محمية. ولكن الآن أعتقد أنه لا داعي لأن تخاف؛ سوف تجد منزلك ليرحب بعودتك».

وقال ثيودن: «وسوف أكون سعيدًا أن أراها ثانية، على الرغم من أن إقامتي قد تكون قصيرة الآن هناك، فلا أشك في ذلك».

وبهذه الكلمات ودعت الصحبة الجزيرة والرابية، ومرت عابرة النهر، وصعدت الضفة البعيدة. وبعد ذلك واصلوا سيرهم، سعدوا أنهم تركوا المخاضات الحزينة. وبينما كانوا يسيرون راح عواء الذئاب يتجدد مرة أخرى.

كان هناك طريق قديم يسير من آيزنجارد إلى المعابر. وراح يأخذ طريقه بعض الوقت إلى جوار النهر، ينحني معه شرقًا وبعد ذلك شمالاً؛ ولكن في النهاية دار بعيدًا وذهب في خط مستقيم باتجاه بوابات آيزنجارد؛ وكانت هذه تحت جانب الجبل في غرب الوادي، على مسافة ستة عشر ميلاً أو يزيد من المدخل. وتبعوا هذا الطريق ولكنهم لم يسيروا فيه؛ لأن الأرض إلى جواره كانت صلبة ومستوية، مغطاة لمسافة أميال كثيرة بأعشاب قصيرة نامية. راحوا عندئذ يسيرون بسرعة أكبر، ومع منتصف الليل كانت المخاضات على مسافة خمسة فراسخ وراءهم تقريبًا. وعندئذ توقفوا، منهين رحلتهم الليلية، وكان الملك مرهقًا متعبًا. لقد وصلوا إلى سفوح الجبال الضبابية، وامتدت أذرع نان كورونير الطويلة هابطة لتلقاهم. كان الوادي يرقد مظلما أمامهم؛ لأن القمر كان قد مر إلى الغرب، وأخفت التلال ضوءه. ولكن من الظل العميق للوادي ارتفع عمود كبير من الدخان والبخار؛ وبينما كان يصعد، فإنه أمسك بأشعة القمر الغائب، وانتشر في كتل السحاب العظيمة المتوهجة، سوداء وفضية، فوق السماء المليئة بالنجوم.

وسأل أراجورن: «ما رأيك في هذا يا جندلف؟ سيقول الواحد أن كل وادي الساحر كان يحترق».

وقال إيومر: «هنا بخار دائمًا فوق الوادي في هذه الأيام، ولكني لم أر قط مثل ذلك من قبل. هذه أبخرة وليست أدخنة. إن سارومان يعد بعض الشراب ليحيينا به. قد يكون يغلي ماء آيزن، وهذا هو السبب الذي يجري النهر جافًا».

فقال جندلف: «ربما يكون كذلك. غدًا سوف نعرف ما الذي يفعله. والآن دعونا نسترح بعض الوقت، إذا كان بإمكاننا».

وعسكروا إلى جوار قاع نهر الآيزن؛ كان لا يزال صامتًا وخاليًا. نام بعضهم

قليلاً. ولكن في وقت متأخر من الليل صاح الحراس، واستيقظ الجميع. كان القمر قد اختفى. كانت النجوم تسطع فوقهم؛ ولكن كانت تزحف فوق الأرض ظلمة أكثر سوادًا من الليل. على كلا جانبي النهر راحت تندفع باتجاههم، في اتجاه الشمال.

وقال جندلف: «ابقوا حيث أنتم! لا تستلوا أي أسلحة! انتظروا! وسوف تمر بكم وتنقضي!».

وتجمع ضباب حولهم. كانت، ولاتزال، فوقهم نجوم قليلة تتوهج في خفوت؛ ولكن على كل جانب ارتفعت جدران من ظلام لا يمكن اختراقه؛ كانوا في طريق صغير ضيق بين أبراج متحركة من ظلال. سمعوا أصواتًا، وهمسات وأنات وحفيفًا لا نهائيًا من التنهيد؛ كانت الأرض تهتز تحتهم. بدا ذلك طويلاً لهم لدرجة أنهم جلسوا وكانوا خائفين؛ ولكن أخيرًا مرت الظلمة والشائعة، وتلاشت بين أذرع الجبل.

بعيدًا في الجنوب فوق الهوربنبرج، في منتصف الليل سمع الرجال ضوضاء عظيمة، كما لو كانت ريحًا في الوادي، وارتجفت الأرض؛ وكان الجميع خائفين ولم يجرؤ أحد على الحركة. ولكن في الصباح خرجوا وكانوا مذهولين؛ لأن الأوركيين المذبوحين كانوا قد اختفوا، وكذلك الأشجار. بعيدًا نحو وادي هيلم كان العشب مسحوقًا وعليه آثار بنية، كما لو أن رعاة عمالقة قد رعوا قطعانًا عظيمة من الماشية هناك؛ ولكن على بعد ميل أسفل الخندق تم حفر حفرة كبيرة في الأرض، وفوقها تكومت صخور مكونة تلاً. اعتقد الرجال أن الأوركيين الذين كانوا قد ذبحوهم قد دفنوا هناك؛ ولكن سواء كان أولئك الذين فروا إلى الغابة كانوا معهم أم لا، فلم يكن باستطاعة أحد أن يعرف ذلك؛ لأنه لم يضع أي رجل قدمه على هذا التل. وبعد ذلك أطلق عليه اسم تل الموت، ولم ينمُ أي عشب هناك. ولكن الأشجار الغريبة لم تُر قط في الوادي الذي يقود إلى وادي هيلم مرة أخرى؛ وكانوا قد عادوا في الليل، وذهبوا بعيدًا إلى وديان فانجورن المظلمة. وهكذا انتقموا من الأوركيين.

لم ينم الملك والمجموعة أكثر من ذلك في تلك الليلة؛ ولكنهم لم يروا أو يسمعوا أي شيء غريب آخر، باستثناء شيء واحد؛ صوت النهر إلى جوارهم استيقظ فجأة. كان هناك اندفاع للمياه وهي مسرعة في هبوطها بين الصخور؛ وعندما مرت، تدفق الآيزن مزبدًا في قاعه مرة أخرى، كما كان يفعل دائمًا.

عند الفجر استعدوا لمواصلة رحلتهم. جاء الضوء رماديًا وشاحبًا، ولم ير شروق الشمس. كان الهواء فوقهم ثقيلاً محملاً بالضباب، وكان هناك دخان يرقد على الأرض من حولهم. وراحوا يسيرون ببطء، يسيرون الآن على الطريق العام. كان طريقًا

واسعًا وصعبًا، ومعتنًى به. كانوا يتبينون الذراع الطويلة للجبال على نحو معتم عبر السُدم ترتفع على شمالهم. ومروا إلى نان كورونير، وادي الساحر. لقد كان ذلك الوادي محميًا، مفتوحًا فقط من ناحية الجنوب. كان في وقت من الأوقات جميلاً وأخضر، وكان الآيزن يتدفق خلاله، وكان عميقًا بالفعل وقويًا قبل أن يجد السهول؛ لأنه كانت تغذيه الكثير من الجداول والينابيع الأصغر بين التلال التي تغسلها الأمطار، وكانت ترقد في كل مكان حولها أرض لطيفة خصبة.

لم يكن الأمر كذلك الآن. كانت لا تزال هناك تحت جدران آيزنجارد أكرات يحرثها ويزرعها عبيد سارومان؛ ولكن معظم الوادي أصبح أرضًا قفرًا ملؤها الأعشاب والأشواك. كانت نباتات «العلّيق» منتشرة على الأرض، أو متسلقة على الشجيرات والضفة، وصنعت كهوفًا خشنة شعثاء كانت الحيوانات تسكن فيها. لم تكن هناك أشجار نامية هناك؛ ولكن بين العشب الذي كان ناميًا بكثرة كانت جذوع أشجار الأيكات القديمة لاتزال تُرى محروقة ومقطوعة بالبلطات والفئوس. لقد كان بلدًا حزينًا، صامتًا الآن لولا ضوضاء الصخور التي تصنعها المياه المسرعة. كانت الأدخنة والأبخرة تنطلق في سحب كئيبة وتختفي في التجاويف. لم يتكلم الخيالة. كان الكثيرون يشكون في قلوبهم، يتساءلون إلى أي نهاية كئيبة ستقودهم رحلتهم؟

بعد أن ساروا بعض الأميال، أصبح الطريق العام شارعًا عريضًا، ممهدًا بحجارة كبيرة مسطحة، مربعة وموضوعة بمهارة؛ لم تكن هناك أي ورقة من عشب في أي عقدة. قنوات عميقة، مليئة بماء متقاطر، كانت تجري على كلا الجانبين. وفجأة لاح أمامهم عمود طويل، كان أسود؛ وموضوعًا عليه حجر عظيم، ومنحوتًا ومرسومًا في صورة يد بيضاء طويلة. كان إصبعها يشير شمالاً. وعرفوا الآن أن بوابات آيزنجارد لابد أنها تقع على مسافة غير بعيدة، وكانت قلوبهم مثقلة؛ ولكن أعينهم لم تكن لتستطيع أن تخترق السدين أمامهم.

ووقف تحت ذراع الجبل في وادي الساحر عبر سنوات لا حصر لها ذلك المكان القديم الذي يسميه البشر آيزنجارد. كان جزئيًا يأخذ شكل الجبال، ولكن رجال الأراضي الغربية صنعوا أعمالاً عظيمة هناك في القدم؛ وقد سكن سارومان هناك طويلاً ولم يكن دون عمل.

كانت هذه هي طريقتها، بينما كان سارومان في أوجه، يحسبه الكثيرون كبير السحرة. جدار دائري عظيم من الحجر، مثل جرف عالٍ، كان يقف ناتئًا من ظل جانب الجبل الذي كان يجري منه ثم يعود مرة أخرى. لم يكن هناك سوى مدخل واحد مصنوع فيه، قنطرة عظيمة محفورة في الجدار الجنوبي. هنا عبر الصخر الأسود تم قطع نفق طويل، مغلق من النهايتين بأبواب عظيمة من حديد. كانت مصنوعة

ومتوازنة على مفصلاتها الضخمة، أعمدة من حديد صلب مغروزة في الصخر الحي، بطريقة تجعلها عند فتحها يمكن تحريكها بحركة خفيفة بالأذرع، بدون أي ضوضاء. رأى واحد ممن دخلوا وخرجوا في النهاية من النفق الذي يسمع فيه الصدى، رأى سهلاً، دائرة كبيرة، مجوفة بحال من الأحوال مثل تجويف ضحل شاسع؛ كان اتساعه من الحافة إلى الحافة مقدار ميل. كان في وقت من الأوقات أخضر مليئًا بالطرق المشجرة، وأيكات من أشجار محملة بالثمار، وتُرَى ينابيع ماء كانت تتدفق من الجبال إلى بحيرة. ولكن لم يكن هناك أي شيء أخضر نامٍ في أيام سارومان الأخيرة. كانت الطرق مرصوفة بأحجار لوحية، سوداء وصلبة؛ وإلى جوار حدودها بدلاً من الأشجار كانت هناك صفوف طويلة من الأعمدة، بعضها من رخام، وبعضها من نحاس وحديد، متصلة بسلاسل ثقيلة.

كانت هناك منازل كثيرة وغرف وأبهاء وممرات مقطوعة ومحفورة في صورة أنفاق في الجدران على جانبها الداخلي، بحيث كانت كل الدائرة المفتوحة تطل عليها نوافذ لا حصر لها وأبواب سوداء. آلاف يمكنهم العيش هناك، عمال وخدم وعبيد ومحاربون مع مخزون كبير من أسلحة؛ كانت الذئاب تُغذى وتوضع في كهوف عميقة أسفل منها. وكان السهل أيضًا مثقوبًا ومحفورًا. كانت الأعمدة مغروسةٍ بعمق في الأرض؛ كانت نهاياتها العليا مغطاة بروابٍ واطئة وقباب من حجر، وبهذا فإن حلقة آيزنجارد كانت تبدو في نور القمر مثل مقبرة لموتى قلقين؛ لأن الأرض كانت ترتجف. كانت الأعمدة تسير هابطة عن طريق منحدرات كثيرة وسلالم حلزونية إلى كهوف تحتها بكثير؛ هناك كانت لدى سارومان خزائن مال، ومخازن، ومخازن أسلحة، ودكاكين حدادين، وأفران كبيرة. كانت هناك عجلات من حديد تدور بلا توقف، ومطارق تضرب بقوة. في الليل كانت أعمدة من بخار تغلي خارجة من المنافذ، مضاءة من أسفل بضوء أحمر، أو أزرق، أو أخضر سام.

وإلى الوسط كانت كل الطرق تجري بين سلاسلها. وكان يقف برج له شكل رائع باهر. كان قد بني على طريق البنائين في الماضي، والذين سووا حلقة آيزنجارد، ومع ذلك كان يبدو شيئًا لم تصنعه مهارة البشر، ولكنه مشقوق من عظام الأرض في التعذيب القديم في التلال. كان قمة وجزيرة من صخر، أسود يومض بشدة؛ أربع دعامات هائلة من حجر متعددة الجوانب كانت ملتحمة في واحد، ولكن بالقرب من القمة كانت تفتح في صورة أبواق فاغرة، كانت قممها العالية حادة مثل أسنة الحراب، حادة الحواف مثل السكاكين. وكانت بينها مساحة فضاء ضيقة، وهناك على أرضية من حجر مصقول، مكتوب بعلامات غريبة، قد يقف رجل على مسافة خمسمائة قدمٍ فوق السهل. كانت هذه هي أورثانك، قلعة سارومان، واسمها (سواء بتخطيط أو عن

طريق المصادفة) له معنيان؛ لأن كلمة أورثانك في لغة الجن تعني «جبل فانج»، ولكن في لغة المارك القديمة تعني «العقل الماكر».

كانت آيزنجارد مكانًا قويًا ورائعًا، وكانت جميلة لزمن طويل؛ وسكن هناك سادة وملوك عظام، حكام جوندور على الغرب، ورجال حكماء كانوا يراقبون النجوم. ولكن سارومان صاغها بطيئًا بما يتناسب مع أغراضه المتغيرة، وجعلها أفضل، حسب تفكيره، حيث كان منخدعًا؛ لأن كل هذه الفنون والحيل الماكرة التي ترك من أجلها سابق حكمته، والتي تخيل بحماقة أنها له، إنما جاءت من موردور؛ ولذلك فإن ما فعله لم يكن شيئًا، فقط نسخة صغيرة، نموذج طفل أو تملق عبد، لهذه القلعة الشاسعة، ومخزن الأسلحة والسجن والأتون ذي القوة البالغة، باراد دور، برج الظلام، والذي لم يكن له ند، وكان يضحك في تملق، يأمر وقته، آمنًا في فخره وكبريائه وقوته التي لا حد لها.

كان هذا معقل سارومان، كما نقلته الشهرة؛ لأنه في نطاق الذاكرة الحية لم يعبر رجال روهان من بواباتها، باستثناء، ربما، عدد قليل، مثل وورمتونج الذي كان في السر ولم يخبروا أي رجل بما رأوه.

والآن سار جندلف إلى عمود اليد العظيم وعبره؛ وبينما هو يفعل ذلك رأى الخيالة لدهشتهم أن اليد لم تعد تبدو بيضاء. كانت كأنها ملطخة بالدم الجاف؛ ولما نظروا بتدقيق أكثر أدركوا أن أظافر اليد كانت حمراء. ودون أن يكترث سار جندلف إلى السديم، وتبعوه كارهين. كل ما كان حولهم الآن، كما لو كان هنا فيضان مفاجئ، كانت بركًا واسعة من الماء إلى جوار الطريق، تملأ التجاويف، وراحت الجداول تتقاطر ساقطة بين الصخور.

وأخيرًا توقف جندلف وأومأ إليهم؛ وجاءوا، ورأوا أن السديم وراءه قد انقشع، وراح يسطع ضوء شمس باهت. وكانت ساعة الظهيرة قد انقضت. ووصلوا إلى أبواب آيزنجارد.

ولكن الأبواب كانت مخلوعة وملوية وملقاة على الأرض. وكان في كل مكان حولهم، الحجر، مشروخًا ومتناثرًا إلى قطع مسننة لا حصر لها، متناثرًا بعيدًا وفي نطاق واسع كبير، أو مكومًا في أكوام من ركام. كانت القنطرة العظيمة لا تزال قائمة، ولكنها كانت تفتح الآن على هوة بلا سقف: كان النفق أجرد، وعبر الجدران الشبيهة بالجرف على كل جانب، كانت هناك شقوق وكسور ممزقة؛ وكانت أبراجها مسحوقة مثل التراب. لو كان البحر العظيم قد ارتفع غضبًا وحنقًا وسقط على التلال في عاصفة، لم يكن يُحْدِثُ دمارًا أكبر من ذلك.

كانت الحلقة وراءهم مليئة بماء يغلي؛ مرجل يغلي، كان يرتفع ويطفو فيه حطام من قضبان وأعمدة وصناديق وبراميل وأدوات وعدد مكسرة. كانت الأعمدة الملتوية والمائلة ترفع جذوعها المتشظية فوق الفيضان، ولكن كل الطرق كانت قد غرقت. وبعيدًا، كما يبدو، نصف مختف في السحب الدوارة، لاحت الجزيرة الصخرية. وكان برج أورثانك يقف وهو لا يزال مظلمًا طويلاً غير متأثر بالعاصفة ولم تكسره. وتجمعت المياه الشاحبة حول سفوحه.

وجلس الملك وجميع من معه في صمت على خيولهم، يتعجبون، مدركين أن قوة سارومان قد هُزمت؛ ولكن لم يكن بإمكانهم تخمين الطريقة التي حدث بها ذلك. والآن أداروا أعينهم باتجاه المدخل المقنطر والبوابات المهدمة. وهناك رأوا قريبًا إلى جوارهم كومة كبيرة من ركام؛ وفجأة أدركوا وجود شكلين صغيرين يرقدان عليهما في راحة، مرتدين ثيابًا رمادية، ولا يكادان يريان بين الصخور. وكانت هناك زجاجات وسلطانيات وأطباق موضوعة إلى جوارهما، كما لو كانا قد أكلا جيدًا منذ وقت قصير، والآن استراحا من عنائهما وكدهما. كان يبدو أن أحدهما نائم؛ والآخر واضع رجله على الأخرى وذراعاه خلف رأسه، مائل للوراء على صخر مكسور وكان يرسل من فمه الطويل خيوطًا طويلة وحلقات صغيرة من دخان أزرق رقيق.

راح ثيودن وإيومر وجميع رجاله للحظة يحدقون فيهما في عجب وذهول. ووسط كل هذا الحطام لآيزنجارد بدا ذلك لهم أغرب منظر. ولكن قبل أن يتكلم الملك، أصبح الشكل الصغير الذي كان ينفث الدخان مدركًا فجأة لوجودهم، بينما كانوا يجلسون هناك في صمت على حافة السديم. وقفز واقفًا على قدميه. كان يبدو فتى شابًا، أو كأنه فتى شاب، على الرغم من أنه لم يكن أكثر من نصف رجل في طوله؛ وكان رأسه مكشوفًا بشعره البني المجعد، ولكنه كان مرتديًا معطفًا عليه آثار السفر له نفس اللون والشكل مثل ذلك الذي كان رفاق جندلف يرتدونه عندما كانوا يسيرون إلى إدوراس. وكان منحنيًا واطئًا جدًا، وهو يضع يده على صدره. عندئذ، وقد بدا أنه لم يلاحظ الساحر وأصدقاءه، التفت إلى إيومر والملك، وقال:

«مرحبًا بكم يا مولاي في آيزنجارد. نحن حراس الأبواب. اسمي مريادوك، ابن سارادوك؛ وصاحبي الذي يبدو عليه الإعياء والإرهاق بكل أسف» ـ وهنا لكز الآخر برجله ـ «هو برجرين، بن بالادين، من منزل التووكيين. موطننا هناك بعيدًا في الشمال. الملك سارومان في الداخل؛ ولكن في هذه اللحظة فهو في خلوة مع وورمتونج، أو بلا شك سيكون هنا ليرحب بأولئك الضيوف المبجلين».

وضحك جندلف وقال: «بلا شك سيكون! وهل كان سارومان الذي أمركم بحراسة أبوابه المدمرة، ومراقبة وصول الضيوف، عندما يمكن جذب انتباهكم من الطبق والزجاجة؟».

وأجابه ميري في حزن: «كلا، أيها السيد الطيب، لقد هربت المسألة منه. لقد كان مشغولاً كثيرًا. جاءت أوامرنا من تريبيرد الذي تولى إدارة آيزنجارد. لقد أمرني بأن أرحب بملك روهان بكلمات مناسبة. وقد فعلتُ قصارى جهدي».

وصاح جيملي ولم يعد قادرًا على احتواء نفسه أكثر من ذلك: «وماذا عن رفاقكما؟ ماذا عن ليجولاس وعني؟ أيها الوغدان، أيها الكسولان ذوا الأقدام كثيفة الشعر والرأس المكسو بالشعر كالصوف! لقد جعلتمونا ندخل في مطاردة كبيرة! مائتا فرسخ، عبر المستنقعات والغابة، معركة وموت، لإنقاذكما! وها نحن نجدكما تتمتعان ولا تفعلان شيئًا في كسل ـ وتدخنان! تدخنان! من أين حصلتما على السيجار، أيها الوغدان؟ يا للغضب! إنني ممزق بين الغضب والفرح، وإنني إن لم أنفجر فسوف يكون ذلك معجزة!».

وضحك ليجولاس قائلاً: «أنت تتحدث بلساني يا جيملي. على الرغم من أنني سأعرف حالاً كيف أتيا بالنبيذ».

وقال بيبين وهو يفتح عينيه: «هناك شيء واحد لم تعثروا عليه في مطاردتكم، وهذا ذكاء أكثر شدة. هنا تعثرون علينا نجلس في ميدان الانتصار، وسط غنيمة الجيوش، وتتساءلون كيف عثرنا على بعض مظاهر الراحة التي جنيناها بكدنا!».

وقال جيملي: «جنيتموها بكدكما؟ لا يمكنني أن أصدق ذلك!».

وضحك الخيالة. وقال ثيودن: «لا أشك أننا نشهد لقاء أصدقاء أعزاء. وهكذا فإن هؤلاء هما الفردان المفقودان من صحبتكم، يا جندلف؟ لقد تحتم على الأيام أن تكون مليئة بالمعجزات. بالفعل لقد رأيتُ الكثير منذ أن تركتُ منزلي؛ والآن هنا أمام عيني لاتزال تقف أمامي معجزة من قوم الأساطير. أليس هذان هما النصفين[1]، اللذين يطلق عليهم البعض من بيننا اسم هولبيتلان؟[2]».

وقال بيبين: «الهوبيتيون، لو سمحت يا مولاي».

وقال ثيودن: «الهوبيتيون؟ لقد تغيرت لغتكم تغيرًا غريبًا؛ ولكن لا يبدو الاسم غير مناسب هكذا. الهوبيتيون! ليس هناك من تقرير مما سمعت أنصف الحقيقة».

وانحنى ميري؛ ونهض بيبين وانحنى بشدة، وقال: «أنت كريم يا مولاي؛ أو أتمنى أن آخذ كلماتك على هذا النحو. وهاهي معجزة أخرى! لقد سرتُ متجولاً في بلدان

---

(1) الإشارة إلى الهوبيتيين لصغر حجمهم (المترجم).

(2) Holbytlan ـ الأصل القديم لكلمة «Hobbit» [الهوبيتي]ـ ومعناها «hole-builders» ـ أي بناة أو صناع الحفر. (برنامج بابليون، القاموس [Middle-earth v2.2b]). (المترجم).

كثيرة، منذ أن تركتُ موطني، ولم أجد أبدًا حتى الآن أناسًا يعرفون أي خبر أو حكاية فيما يتصل بالهوبيتيين».

فقال ثيودن: «لقد أتى شعبي من الشمال منذ زمن طويل. ولكني لن أخدعكما: إننا لا نعرف أي حكايات عن الهوبيتيين. كل ما قيل بيننا أنه بعيد جدا؛ فعلى الكثير من التلال والأنهار يعيش شعب الأنصاف؛ لأنه يقال إنهم يفعلون القليل، ويتجنبون رؤية البشر، ولديهم القدرة على الاختفاء في طرفة عين؛ ويمكنهم تغيير أصواتهم لتشبه صوت الطيور. ولكن يبدو لي أن هناك الكثير مما يمكن قوله».

ورد ميري قائلا: «هناك الكثير حقًا يا مولاي».

وقال ثيودن: «لأن هناك شيئًا واحدًا، لم أسمع أنهم ينفثون الدخان من أفواههم».

وأجابه ميري قائلاً: «هذا ليس مدهشًا؛ لأن ذلك فن لم نمارسه على ما يزيد على أجيال كثيرة. لقد كان توبولد هورنبلاور، من لونجبوتوم في ساوثفارذينج، أول من زرع عشب الغليون الحقيقي في حدائقه، حوالي سنة 1070 طبقًا لتقويمنا. منذ متى عثر توبي على النبات...».

وقاطعه جندلف قائلاً: «إنك لا تعرف خطرك يا ثيودن. هؤلاء الهوبيتيون سوف يجلسون على حافة الدمار ويناقشون مباهج وملذات المائدة، أو الأعمال الصغيرة لآبائهم أو أجدادهم، وأجداد آبائهم، وأبناء عمومة أكثر بعدًا حتى الدرجة التاسعة، إذا أنت شجعتهم بصبر مفرط. وقت ما آخر سوف يكون أكثر ملاءمة لتاريخ التدخين. أين تريبرد يا ميري؟».

«دائمًا في الجانب الشمالي، فيما أعتقد. ذهب ليحضر شرابًا من ماء نظيف. معظم الإنتيين معه، ولا يزالون مشغولين في عملهم هناك». ولوح ميري بيده باتجاه البحيرة المتدفقة؛ وبينما كانوا ينظرون، سمعوا قعقعة وخشخشة تأتي من بعيد، كما لو كان هناك جبل جليدي يسقط من جانب الجبل. وجاء من بعيد صوت هووم ـ هوم، كما لو كان صوت أبواق تنفخ معلنة النصر.

وسأله جندلف قائلاً: «وهل تُركت أورثانك إذن دون حراسة؟».

وقال ميري: «هذا هو صوت الماء. ولكن كويكبيم وبعضًا آخرين يحرسونها. ليست كل هذه المواقع والأعمدة في السهل من زراعة سارومان. كويكبيم، فيما أعتقد، موجود بجوار الصخر، بالقرب من قاع السلم».

وقال ليجولاس: «نعم، إنتي طويل رمادي هناك ولكن ذراعيه إلى جانبيه، وهو يقف ساكنًا مثل باب من شجر».

وقال جندلف: «الوقت ما بعد الظهيرة، ونحن على أية حال لم نأكل أي شيء منذ الصباح الباكر. ولكن أتمنى أن أرى تريبرد بأسرع ما يمكن. ألم يترك لي أي رسالة، أم أن الطبق والزجاجة قد طردا ذلك من عقلكما؟».

فقال ميري: «لقد ترك رسالة وكنتُ في طريقي لأقولها، ولكن أعاقتني عنها أسئلة كثيرة. كنتُ سأقول، إذا سار كل من ملك المارك وجندلف إلى الجدار الشمالي فسوف يجدون تريبرد هناك، وسوف يرحب بهما. وقد أضيف أنهما سيجدان أيضًا طعامًا من أفضل الطعام هناك، لقد اكتشفه واختاره خدامك المتواضعون». وانحنى.

وضحك جندلف وقال: «هذا أفضل! حسنًا، يا ثيودن، هل ستسير معي للعثور على تريبرد؟ يجب علينا أن نذهب إلى هناك، ولكنها ليست بعيدة. عندما ترى تريبرد، سوف تعلم الكثير؛ لأن تريبرد هو فانجورن، وهو أكبر الإنتيين وزعيمهم، وعندما تتكلم معه سوف تسمع حديث أكبر المخلوقات الحية».

فقال ثيودن: «سوف آتي معك. الوداع أيها الهوبيتيان العزيزان! لعلنا نلتقي مرة أخرى في منزلي! هناك سوف تجلسان إلى جواري وتخبرانني كل ما تحبه قلوبكما: أعمال أجدادكما وأسلافكما، إلى أقصى قدر يمكنكما الوصول إليه وتذكر أنه منهم؛ وسوف نتحدث أيضًا عن توبولد العجوز ومعرفته بعلم الأعشاب. الوداع!».

وانحنى الهوبيتيان.. في تواضع جم قال بيبين في صوت خفيض: «إذن فهذا هو ملك روهان. رجل عجوز رائع. مؤدب غاية الأدب».

الفصل التاسع

الحُـــطـــــام

وسار جندلف ومجموعة الملك بعيدًا واتجهوا نحو الشرق ليدوروا حول جدران آيزنجارد المهدمة. ولكن أراجورن وجميلي وليجولاس تخلفوا عنهم. وتركوا أرود وهاسوفل ليتجولا بحثًا عن العشب، وجاءا وجلسا إلى جوار الهوبيتّيين.

وقال أراجورن: «حسنًا! حسنًا! انتهت المطاردة، ونتقابل مرة أخرى أخيرًا، حيث لم يفكر أحد منا قط في أن يأتي».

وقال ليجولاس: «والآن وقد ذهب العظماء لمناقشة مسائل كبيرة، ربما يكون بإمكان المطاردين أن يعرفوا الإجابات عن أسئلتهم الصغيرة. لقد تعقبنا بعيدًا حتى الغابة، ولكن لا تزال هناك أشياء كثيرة أود أن أعرف حقيقتها».

فقال ميري: «وهناك قدر عظيم أيضًا نريد أن نعرفه عنكم. لقد عرفنا أشياء قليلة من خلال برييرد، الإنتي العجوز، ولكن ليس هذا كافيًا تقريبًا».

فقال ليجولاس: «كل شيء في الوقت المناسب. لقد كنا نحن المطاردين، ويجب أن تحكوا لنا عن أنفسكم أولاً».

وقال جيملي: «أو ثانيًا. سوف يكون ذلك أفضل بعد تناول الطعام. إن رأسي يؤلمني؛ والوقت بعد منتصف النهار. وأنتما أيها الكسولان قد تصلحان الأمر بأن تعثرا لنا على بعض الغنائم التي تتحدثان عنها. الطعام والشراب سوف يسددان بعض ما لي عليكما».

فقال بيبين: «إذن سوف تنالون ما تطلبون. هل ستنالونه هنا، أو في مكان أكثر راحة فيما تُرك من منزل حراس سارومان ـ هناك تحت القنطرة؟ كان يجب علينا أن نأكل هنا في الهواء الطلق، حتى نجعل أعيننا على الطريق..».

فقال جيملي: «أقل من عين! ولكنني لن أذهب إلى أي منزل من منازل الأوركيين؛ ولن أمس طعام الأوركيين أو أي شيء صنعوه».

وقال ميري: «سوف نسألك أن تفعل. إن لدينا ما يكفي من الأوركيين نحن أنفسنا بما يكفي لحياة كاملة. ولكن كان هناك الكثير من القوم الآخرين في آيزنجارد. لقد كان لدى سارومان ما يكفي من الحكمة بحيث لم يثق في أوركييه. كان لديه بشر يحرسون بواباته؛ بعض من أخلص خدامه، فيما أفترض. على أية حالة كانوا مفضلين وكانوا يحصلون على مؤن جيدة».

وقال جيملي متسائلاً: «وعشب الغليون أيضًا؟».

وضحك ميري وقال: «كلا، لا أظن ذلك. ولكن هذا أمر آخر، يمكن أن ينتظر إلى ما بعد الغداء».

وقال القزم: «حسنًا، هيا بنا نمض ونتناول الغداء إذن!».

وقاد الهوبيتيين الآخرين؛ ومروا تحت القنطرة ووصلوا إلى الباب الواسع في اليسار، عند أعلى سلم. وكان يفتح مباشرة على غرفة كبيرة، بها أبواب أخرى أصغر حجمًا في النهاية البعيدة، ومدفأة ومدخنة في أحد الجوانب. كانت الغرفة مقطوعة من الحجر؛ ولا بد أنها كانت في وقت من الأوقات مظلمة؛ لأن نوافذها كانت تطل فقط على النفق. ولكن الليل أتى الآن داخلاً خلال السقف المكسور. وكان الخشب يحترق في المدفأة.

وقال بيبين: «لقد أشعلتُ نارًا صغيرة. إنها أنعشتنا في الضباب. كانت هناك عدة حزم من عصي حولنا، ومعظم الخشب الذي وجدناه كان رطبًا. ولكن كان هناك تيار شديد في المدخنة: يبدو أنها تنبعث بعيدًا عاليًا عبر الصخر، ومن حسن الحظ أنها لم تُسد. هناك نار قريبة. سوف أصنع لكم بعض الطعام. الخبز قديم مضى عليه ثلاثة أو أربعة أيام، للأسف».

وجلس أراجورن ورفاقه في إحدى نهايتي طاولة طويلة، واختفى الهوبيتيان عبر واحد من الأبواب الداخلية.

«المخزن هناك، وفوق الفيضانات لحسن الحظ»، قال ذلك بيبين عندما عادا محملين بالأطباق والسلطانيات والأكواب والسكاكين والطعام من ألوان شتى.

وقال ميري: «ولست بحاجة إلى أن تدير أنفك نحو العلف، يا سيدي جيملي. هذه ليست أشياء الأوركيين، ولكنها طعام البشر، مثلما يطلق عليها تريبرد. هل ستأخذ نبيذًا أم بيرة؟ هناك برميل بالداخل؛ مقبول جدًا. وهذا هو لحم من الدرجة الأولى. أو بإمكاني أن أقطع لك بعض قطع لحم مقدد وأشويها لك، إذا كنتَ تريد ذلك. إنني آسف ليست هناك أصناف خضراء، فقد كانت الكميات المجلوبة متوقفة بعض الشيء في الأيام القليلة الماضية! لا يمكنني أن أقدم لك أي شيء يتبع ذلك سوى الزبد والعسل لخبزك. هل أنت راض بذلك؟».

فقال جيملي: «في حقيقة الأمر نعم. مقدار تفوقي قد قل كثيرًا».

وكان الثلاثة سريعًا منشغلين بوجبتهم؛ والهوبيتيان ـ غير خجولين ـ استعدا للمرة الثانية، وقالا: «لا بد أن نلازم ضيوفنا».

وضحك ليجولاس قائلاً: «إنكما مليئان بالكياسة واللطف هذا الصباح. ولكن ربما، لو كنا لم نصل، هل كنتما تلازمان بعضكما مرة أخرى؟».

فقال بيبين: «ربما؛ ولم لا؟ لقد قطعنا رحلة سيئة مع الأوركيين، وقليل بالشكل الكافي لمدة أيام قبل ذلك. يبدو أنه مضى وقت طويل منذ أن أكلنا ونحن راضون في قلوبنا».

وقال أراجورن: «لا يبدو أن ذلك قد تسبب في أي أذى لكما. حقًّا إنكما تبدوان في قمة الصحة والعافية».

فقال جيملي: «نعم، إنكما تبدوان كذلك حقًّا»، ونظر إليهما متفحصًا من أسفل لأعلى من فوق كوبه. «لماذا شعركما كثيف ومجعد ضعف ما كان عليه لما افترقنا؟ وإنني لأقسم أنكما قد كبرتما بعض الشيء، إذا كان ذلك ممكنًا للهوبيتيين في سنكما. هذا التريبرد لم يجوعكما بحال من الأحوال».

فقال ميري: «إنه لم يفعل. وإنما الإنتيون يشربون فقط، والشراب ليس كافيًا للرضا. قد تكون جرعات شراب تريبرد منعشة، ولكن الواحد يشعر بالحاجة إلى شيء صلب. وحتى الليمباس ليس شيئًا سيئًا جدًّا للتغيير».

وقال ليجولاس: «لقد شربتما من مياه الإنتيين، هذا صحيح؟ آه، إذن فإنني أظن أن عيني جيملي ـ فيما يحتمل ـ لم تخدعاه. هناك أغنيات غريبة تُغني عن شراب فانجورن».

وقال أراجورن: «هناك حكايات غريبة كثيرة حكيت عن تلك الأرض. إنني لم أدخلها أبدًا. هيا، أخبرني المزيد عنها، وعن الإنتيين!».

فقال بيبين: «الإنتيون. الإنتيون هم ـ حسنًا الإنتيون مختلفون تمامًا في شيء واحد. ولكن أعينهم الآن، أعينهم غريبة جدًّا». وردد مجموعة كلمات متلعثمة انتهت إلى صمت، وواصل كلامه قائلاً: «أوه، حسنًا، لقد كنتُ على بعد بالفعل ـ لقد رأوك على أية حال، ونقلوا أنك كنت على الطريق ـ وسوف ترى آخرين كثيرين، حسب توقعي، قبل أن تغادر المكان هنا. يجب عليك أن تكون أفكارك الخاصة بك».

وقال جيملي: «الآن، الآن! إننا نبدأ القصة في المنتصف. إنني أريد قصة في الترتيب الصحيح، تبدأ بذلك اليوم الغريب عندما انفضت رفقتنا».

وقال ميري: «سوف تحصل عليها، مادام هناك وقت. ولكن أولاً ـ إذا كنتَ قد انتهيتَ من الأكل ـ سوف تملأ غليونك وتشعله. وبعد ذلك يمكننا أن نتظاهر لبعض الوقت أننا عدنا جميعًا في سلام مرة أخرى إلى البري، أو في ريفنديل».

وأخرج حقيبة جلدية صغيرة مليئة بالتبغ، وقال: «لدينا أكوام منه، ويمكنكم جميعًا أن تملئوا كثيرًا حسبما تريدون، عندما نمضي. لقد قمنا بعمل إنقاذي هذا الصباح. أنا وبيبين. هناك الكثير من الأشياء الطافية هناك. لقد كان بيبين هو الذي وجد برميلين صغيرين، خرجا من قبو ما أو مخزن، فيما أفترض. عندما فتحناهما، وجدنا أنهما كانا مليئين بهذا: عشبة غليون جيدة حسبما تتمنى وترغب، وغير تالفة على الإطلاق».

وأخذ جيملي بعضًا منها وفركه في كفيه واستنشقه وقال: «يبدو أنه جيد، وأن رائحته جيدة».

فقال ميري: «إنه جيد. يا عزيزي جيملي، إنه ورقة لونجبوتوم! كانت هناك أصناف هورنبلاور في البراميل، واضحة مثل السهل. كيف أتت إلى هنا، هذا ما لا يمكنني تخيله. لاستخدام سارومان الخاص، حسب اعتقادي. إنني لم أعرف أبدًا أن هذا التبغ ذهب بعيدًا جدًا إلى الخارج. ولكنه أتى وفي المتناول الآن!».

وقال جيملي: «سوف يأتي، إذا كان لدي غليون ليكون معه. بكل أسف، ضاع غليوني في موريا، أو قبل ذلك. أليس هناك أي غليون في كل ما لديكم من متاع؟».

فقال ميري: «كلا، للأسف لا. إننا لم نجد أي غليون، ولا حتى هنا في غرف الحراس. كان سارومان يحتفظ بهذا الطعام اللذيذ لنفسه، فيما يبدو. ولا أعتقد أنه سيكون من المفيد الطرق على أبواب أورثانك لنتسول غليونًا منه! يجب علينا أن نشترك فيما لدينا منها، حسبما يفعل الأصدقاء الجيدون عند الحاجة».

وقال بيبين: «نصف دقيقة». ووضع يده داخل صدر معطفه وأخرج محفظة ناعمة صغيرة معلقة من خيط وقال: «إنني أحتفظ بكنز أو كنزين بالقرب من جلدي، غالية عندي مثل الخواتم. ها هو واحد؛ غليوني الخشبي القديم. وها هو واحد آخر؛ واحد لم يستخدم. لقد حملته لمسافة طويلة، على الرغم من أنني لا أعرف السبب الداعي لذلك. إنني لم أتوقع أبدًا في حقيقة الأمر أن أجد عشب الغليون في الرحلة، عندما نفد ما كان معي منه. ولكن الآن أصبح مفيدًا على أية حال». ومد غليونًا صغيرًا به تجويف واسع منتفخ، وناوله لجيملي، وقال: «هل هذا يسوي الحساب الذي بيننا؟».

وصاح جيملي: «يسويه! أيها الهوبيتي النبيل، وهو يجعلني مدينًا لك كثيرًا جدًا».

قال ليجولاس: «حسنًا، سوف أعود إلى الهواء الطلق، لأرى ما تفعله الريح والسماء!».

وقال له أراجورن: «سوف نأتي معك».

وخرجوا وجلسوا على أحجار مكومة أمام البوابة. كانوا يرون الآن بعيدًا إلى أسفل منهم في الوادي؛ كانت السدم ترتفع وتطفو بعيدًا فوق النسيم.

وقال أراجورن: «الآن دعونا نسترح هنا بعض الوقت! سوف نجلس على حافة الخرائب ونتحدث، كما يقول جندلف، بينما لا يزال هو مشغولاً في مكان آخر. إنني أشعر بإرهاق كما لم أشعر به من قبل قط». ولف معطفه الرمادي حوله، مخفيًا درعه القميصية، ومد ساقيه الطويلتين. بعد ذلك رقد وأرسل من بين شفتيه دفقًا رقيقًا من دخان.

وقال بيبين: «انظروا! سترايدار الجوال قد عاد!».

وقال أراجورن: «إنه لم يبعد مطلقًا. أنا سترايدار ودونادان أيضًا، وأنا أنتمي إلى كل من جوندور والشمال».

وراحوا يدخنون في صمت بعض الوقت، وراحت الشمس تسطع عليهم وتميل منحدرة إلى الوادي من بين السحب البيضاء عاليةً في الغرب. ورقد ليجولاس في سكون، ينظر لأعلى إلى الشمس والسماء بعينيه الثابتتين، ويغني بصوت منخفض لنفسه. وأخيرًا جلس في مكانه، وقال: «تعالوا الآن. الوقت ينقضي، والسُدم تنقشع بعيدًا، أو سوف تنقشع بعيدًا إذا لم تلفوا أنفسكم أيها القوم غريبي الأطوار في الدخان. ماذا عن الحكاية؟».

فقال بيبين: «حسنًا، تبدأ حكايتي بالمشي في الظلام والعثور على نفسي معلقًا تمامًا في معسكر للأوركيين. دعوني أرى، أي يوم نحن اليوم؟».

ورد عليه أراجورن بقوله: «الخامس من مارس بتقويم المقاطعة». وقام بيبين ببعض الحسابات على أصابعه، وقال: «منذ تسعة أيام مضت فقط![1] يبدو أنه قد مضت سنة منذ أن أمسكوا بنا. حسنًا، على الرغم من أن نصف هذه المدة كان مثل حلم سيئ، فإنني أعتقد أنه تبعها ثلاثة أيام رهيبة. سوف يصحح ميري كلامي، إذا أنا نسيتُ أي شيء مهم، إنني لن أخوض في التفاصيل؛ السياط والقاذورات والرائحة النتنة وغيرها من أشياء من ذلك القبيل؛ إنها لا تحتمل التذكر». وبهذه الكلمات انخرط في قصة المعركة الأخيرة لبرومير وسير الأوركيين من إمين مويل إلى الغابة. وأومأ الآخرون حيث إن النقاط العديدة قد تلاقت مع تخميناتهم.

وقال أراجورن: «هذه بعض أشياء ثمينة تركتها تسقط منك. سوف تكون سعيدًا أن تستعيدها». وفك حزامه من تحت معطفه، وأخذ منه السكينين المغمدين.

وقال ميري: «حسنًا! إنني لم أتوقع أبدًا أن أراهما مرة أخرى! لقد أصبت عددًا قليلاً من الأوركيين بسكيني؛ ولكن أوجلوك أخذهم منا. كم كان يحملق غاضبًا! في بداية الأمر اعتقدتُ أنه كان سيطعنني، ولكنه رمى الأشياء بعيدًا كما لو كانت تحرقه».

وأجابه أراجورن قائلاً: «وها هو دبوسك (البروش) كذلك، يا بيبين. لقد احتفظتُ به سالمًا لك؛ لأنه شيء ثمين جدًّا».

فقال بيبين: أعرف ذلك. لقد كان أسى شديدًا أن أتركه وأتخلى عنه؛ ولكن ماذا أيضًا كان يمكنني أن أفعل؟».

(1) كل شهر في تقويم المقاطعة كان به 30 يومًا.

وأجابه أراجورن قائلاً: «لا شيء آخر. الشخص الذي لا يستطيع أن يرمي شيئًا ثمينًا وقت الحاجة إنما هو مكبل بالقيود. لقد فعلتَ الصواب».

وقال جيملي: «قطع الأربطة التي كانت على معصميك، لقد كان ذلك عملاً بارعًا! لقد خدمك الحظ في هذا الأمر؛ ولكنك أمسكت فرصتك بكلتا يديك، إذا جاز للواحد أن يقول».

وقال ليجولاس: «وصنعت لغزًا كبيرًا. إنني أتعجب إن كانت قد طلعت لك أجنحة!».

فقال بيبين: «لسوء الحظ لا. ولكنك لم تعرف شيئًا عن جريشناخ». وهز كتفيه ولم يقل شيئًا أكثر من ذلك، تاركًا ميري ليحكي حكاية تلك اللحظات الرهيبة الأخيرة: الأيدي المتلمسة، والنفس الحار، والقوة المخيفة لذراعي جريشناخ المكسوتين بالشعر.

وقال أراجورن: «كل هذا عن أوركيي بَراد دُور، لوجبرز كما يسمونها، يشعرني بالقلق وعدم الارتياح. ملك الظلام قد عرف كثيرًا جدًا بالفعل، وكذلك خدامه؛ ومن الواضح أن جريشناخ قد أرسل رسالة ما عبر النهر بعد المعركة. سوف تكون العين الحمراء تتطلع وتنظر نحو آيزنجارد. ولكن سارومان على أية حال في عصا مشقوق من صنع مكائده».

فقال ميري: «نعم، أيًا ما كان الجانب الذي يفوز، فإن توقعه سيئ. بدأت الأشياء تسير على نحو خاطئ تمامًا بالنسبة له من لحظة أن وضع أوركيوه قدمهم في روهان».

وقال جيملي: «لقد لمحنا الوغد العجوز، أو هكذا ألمح جندلف. عند حافة الغابة».

وسأل بيبين قائلاً: «متى كان ذلك؟».

وأجابه أراجورن قائلاً: «منذ خمس ليال مضت».

وقال ميري: «دعوني أرى. منذ خمسة أيام مضت ـ الآن نصل إلى جزء من القصة لا تعرفون شيئًا عنه. لقد قابلنا تريبرد في ذلك الصباح بعد المعركة؛ وفي تلك الليلة كنا في هويلنجهول، أحد منازل الإنتيين الخاصة بهم. في صباح اليوم التالي ذهبنا إلى إنتموت، اجتماع الإنتيين، بعبارة أخرى، وأكثر ما حدث أن رأيته غرابة في حياتي. وقد استمر طوال ذلك اليوم واليوم التالي أيضًا؛ وأمضينا الليالي مع إنتي يُدعى كويكبيم. وبعد ذلك في وقت متأخر في فترة ما بعد الظهيرة في اليوم الثالث من اجتماع الإنتيين، أطلق الإنتيون الأبواق فجأة. كان ذلك مذهلاً. بدت الغابة متوترة كما لو كانت عاصفة رعدية تدوي داخلها؛ عندئذ وفي الحال انفجرت. أتمنى أن لو كنتم قد سمعتم أغنيتهم وهم يسيرون».

وقال بيبين: «لو كان سارومان قد سمعها، لكان على بعد مائة ميل الآن، حتى ولو كان يتوجب عليه أن يجري على ساقيه».

«مع أن آيزنجارد قوية وصلبة، وباردة مثل الصخر وجرداء مثل العظم، فإننا نذهب، نذهب، نذهب إلى الحرب، لنقطع الصخر ونكسر الباب!.

كان هناك ما يفوق ذلك كثيرًا. قدر كبير من الأغنية لم يكن له كلمات، وكان مثل موسيقى الأبواق والطبول. كان مثيرًا جدًا. ولكني اعتقدتُ أنها كانت فقط موسيقى الزحف وليست أكثر من ذلك، مجرد أغنية ـ حتى وصلتُ إلى هنا. وأنا أعرف أفضل الآن».

وواصل ميري الكلام قائلاً: «ونزلنا فوق الحافة الأخيرة إلى نان كورونير، بعد أن حل الليل. لقد كان عند ذلك أن شعرتُ لأول مرة أن الغابة نفسها كانت تتحرك وراءنا. ظننتُ أنني كنتُ أرى حلمًا إنتيًا، ولكن بيبين لاحظه أيضًا. كنا كلانا مرعوبين؛ ولكننا لم نتبين المزيد عنه حتى وقت لاحق.

«لقد كانوا الهورنيين، أو هكذا كان الإنتيون يسمونهم في «اللغة المختصرة». ولم يقل تريبرد شيئًا كثيرًا عنهم، ولكني أعتقد أنهم إنتيون قد أصبحوا مثل الأشجار تقريبًا، على الأقل عند النظر إليهم. إنهم يقفون هنا وهناك في الغابة أو تحت حوافها، في صمت، يحرسون الأشجار بلا نهاية؛ ولكن هناك في الأعماق في أكثر الوديان ظلمة مئات ومئات منهم، فيما أعتقد.

«هناك قوة عظيمة فيهم، ويبدو أنهم قادرون على إخفاء أنفسهم في الظل؛ فمن الصعب أن تراهم يتحركون. ولكنهم يتحركون. يمكنهم أن يتحركوا بسرعة كبيرة، إذا غضبوا. تقف ساكنًا تنظر في الطقس، ربما، أو تنصت إلى حفيف الريح وتَلمس الأشجار من حولك في كل مكان. لا يزال لهم أصوات، ويتكلمون مع الإنتيين ـ وهذا هو السبب الذي من أجله سموا الهورنيين» هكذا يقول تريبرد ـ ولكنهم أصبحوا غرباء ووحشيين. خطيرين. إنني سأكون مرعوبًا لمقابلتهم، إذا لم يكن هناك أي إنتيين حقيقيين في الجوار يعتنون بهم.

«حسنًا، في الليل المبكر رحنا نزحف عبر واد طويل إلى النهاية العلوية من وادي الساحر، وكان الإنتيون بكل هورناتهم ذات الجلبة وراءنا. لم نكن نراهم، بالطبع، ولكن الهواء كله كان مليئًا بالصرير. كانت الليلة شديدة الظلمة والجو ملبدًا بالغيوم. كانوا يتحركون بسرعة كبيرة بمجرد تركهم التلال، كما كانوا يصدرون ضوضاء مثل حفيف الريح. لم يظهر القمر عبر السحب، ولم يمض وقت طويل بعد منتصف الليل حتى كانت هناك غابة طويلة حول الجانب الشمالي من آيزنجارد كله. لم تكن هناك أي علامة على الأعداء ولا على أي تحد. كان هناك ضوء يومض من نافذة عالية في البرج، كان هذا كل شيء».

وراح ترَّبيرد وعدة إنتيين آخرين يواصلون زحفهم، يدورون حتى صار في نطاق رؤية البوابات العظيمة. كنتُ أنا وبيبين معه. كنا نجلس على كتفي ترييرد، وكنتُ أشعر بتوتر مرتعش فيه. ولكن حتى عندما يستيقظ الإنتيون ويثارون، فإنهم يكونون غاية في الحذر والصبر. ووقفوا ساكنين مثل حجارة منحوتة، يتنفسون وينصتون.

«عندئذ في الحال كانت هناك حركة هائلة. راحت الأبواق تدوي، وكانت جدران آيزنجارد ترجع الصدى. ظننا أنه قد تم اكتشافنا، وأن المعركة كانت على وشك البداية. ولكن لم يقع أي شيء من هذا القبيل. كل أتباع سارومان كانوا يمشون بعيداً. إنني لا أعرف الكثير عن هذه الحرب، أو عن خيالة روهان، ولكن سارومان يبدو أنه كان ينوي أن يُجْهِز على الملك وجميع رجاله بضربة واحدة نهائية. لقد أخلى آيزنجارد. لقد رأيتُ العدو يذهب: صفوفاً لا نهائية من الأوركيين الزاحفين؛ وكانت مجموعات كبيرة منهم تركب الذئاب. وكانت هناك كتائب من البشر، أيضاً. كان الكثيرون منهم يحملون مشاعل، وفي وهج النار رأيتُ وجوههم. كان معظمهم بشراً عاديين، طوال القامة بعض الشيء وكانت شعورهم داكنة وكانوا عابسين، بيد أنهم لم يكونوا على وجه الخصوص سيئي المنظر. ولكن كان بعضهم مروعين: طولهم طول الرجال ولكن كانت وجوههم مثل الغيلان، شاحبة، تنظر شزراً، وكان في أعينهم حَوَل. هل تعرف؟ لقد ذكروني في الحال بذلك الجنوبي الذي كان في «بري»؛ كل ما هنالك أنه لم يكن بوضوح شديد شبيهاً بالأوركيين كما كان معظم هؤلاء».

وقال أراجورن: «وفكرتُ فيه أيضاً. كان لدينا الكثيرون من أنصاف الأوركيين هؤلاء للتعامل معهم في وادي هيلم. يبدو واضحاً الآن أن ذلك الجنوبي كان جاسوساً من جواسيس سارومان؛ ولكن سواء كان يعمل مع الخيالة السود، أو يعمل لحساب سارومان وحده، لا أعلم. من الصعب مع هؤلاء القوم الأشرار معرفة متى يكونون في عصبة مع بعضهم، ومتى يخون كل منهم الآخر».

وقال ميري: «حسناً، من جميع الأنواع معاً، لا بد أنه كان هناك عشرة آلاف على أقل تقدير. لقد استغرقوا ساعة ليعبروا من البوابات. بعضهم ذهب منطلقاً عبر الطريق العام إلى المخاضات، والبعض دار بعيداً وذهب نحو الشرق. تم بناء جسر هناك، على بعد ميل تقريباً، حيث يجري النهر في قناة عميقة للغاية. يمكنك أن تراها الآن، إذا أنت انتصبت واقفاً. كانوا جميعاً يغنون بصوت أجش، ويضحكون، محدثين جلبة بشعة. ظننتُ أن الأشياء كانت تبدو شريرة للغاية بالنسبة لروهان. ولكن ترييرد لم يتحرك، وقال: «إن عملي مع آيزنجارد هذه الليلة، مع الصخر والحجر».

«ولكن، على الرغم من أنني لم أكن أرى ما كان يحدث في الظلام، أعتقد أن الهورنيين بدءوا يتحركون جنوباً، بمجرد أن أغلقت الأبواب مرة أخرى. كان عملهم

مع الأوركيين فيما أعتقد. كانوا بعيدين عبر الوادي في الصباح؛ أو على أية حال كان هناك ظل لم يكن الواحد يرى خلاله.

«وبمجرد أن أطلق سارومان جيشه، جاء دورنا. وأنزلنا تريبيرد، وذهب إلى البوابات، وبدأ الطرق على الأبواب بشدة، وينادي على سارومان. لم تكن هناك أي إجابة، باستثناء السهام والحجارة من الجدران. ولكن السهام لا تجدي مع الإنتيين. لقد آذوهم، بالطبع، وأثاروا غضبهم وحنقهم: مثل الذباب الذي يعض. ولكن الإنتي يمكن أن يضرب بسهام الأوركيين ويمتلئ مثل وسادة الدبابيس، ولا يتأذى أي أذى شديد. لا يمكن إصابتهم بالسم، لشيء واحد فقط؛ ويبدو أن جلدهم سميك للغاية، وأكثر خشونة من لحاء الشجر. حتى يمكن أن تجرحهم جرحًا خطيرًا يحتاج ذلك إلى ضربة شديدة للغاية من بلطة. إنهم لا يحبون البلطة. ولكن لا بد أنه سيكون هناك رجال بلطة كثيرون للغاية لكل واحد من الإنتيين، أي رجل يضرب مرة واحدة على الإنتي لن تتاح له فرصة ثانية قط ليضرب ضربة ثانية. إن ضربة من قبضة يد الإنتي تلوي الحديد مثل القصدير الرقيق.

«عندما أصابت تريبيرد عدة سهام قليلة، بدأ يسخن، يصبح «متعجلاً» بشكل إيجابي، حسبما يقولون. وأطلق صيحة عظيمة (هووم ـ هوم)، وجاءت دستة أخرى من الإنتيين تسير بخطى واسعة. الإنتي الغاضب يكون مروعًا. إن أصابع أيديهم وأصابع أرجلهم تتجمد على الصخر؛ وهم يمزقونه مثل قشرة الخبز. كان الأمر مثل مشاهدة عمل جذور شجرة عظيمة على مدى مئات السنين، تجمعت كلها في لحظات قليلة.

«وراحوا يدفعون ويشدون ويمزقون ويهزون ويضربون؛ وتتعالى الأصوات كلانج ـ بانج، كراش ـ كراك، في خمس دقائق كانوا قد دمروا تلك الأبواب الضخمة؛ وكان بعضهم قد بدأ بالفعل ينخر الجدران، مثل الأرانب وهي تنخر في حفرة رملية. لا أدري ما كان يظن سارومان أنه يحدث؛ ولكن على أية حال لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الأمر. ربما يكون سحره قد قل في الفترة الأخيرة وضعف، بالطبع؛ ولكن على أية حال أعتقد أنه لم يكن لديه الكثير من الثبات والعزم، ليس الكثير من الشجاعة الواضحة لديه وحده في مكان ضيق بدون الكثيرين من العبيد والآلات والأشياء، أظنكم تفهمون ما أرمي إليه. مختلف تمامًا عن جندلف العجوز. إنني لأتساءل إن لم تكن شهرته مردها كلها في الأساس إلى مهارته في الاستقرار في آيزنجارد».

فقال أراجورن: «كلا. لقد كان في وقت من الأوقات عظيمًا مثلما جعلته شهرته. كانت معرفته عميقة، وكان فكره بارعًا حادًا، وكانت يداه ماهرتين بشكل عجيب؛ وكانت لديه قوة وله سلطان على عقول الآخرين. كان يقنع الحكماء، ويروع القوم الأصغر. لا يزال بكل تأكيد يحتفظ بهذه القوة وهذا السلطان. ليس هناك الكثيرون في

الأرض يمكنني أن أقول إنهم كانوا آمنين، لو أنهم تركوا بمفردهم للتحدث معهم، حتى في الوقت الحاضر وقد تعرض لهزيمة. جندلف وإلروند وجلدريل، ربما، الآن وقد بات شره واضحًا، ولكن قليلاً آخرين غيرهم».

وقال بيبين: «الإنتيون آمنون. يبدو أنه في وقت من الأوقات قد دار حولهم، ولكن لم يحدث ذلك قط. وعلى أية حال فإنه لم يفهمهم؛ وقد ارتكب الخطأ الكبير ـ خطأ إخراجهم من حساباته. لم يكن لديه خطة لهم، ولم يكن هناك وقت لوضع أي خطة، بمجرد أن انخرطوا في العمل. وبمجرد أن بدأ هجومنا، بدأت مجموعة الجرذان القليلة المتبقية في آيزنجارد الاندفاع من كل حفرة صنعها الإنتيون. وترك الإنتيون البشر يذهبون، بعد أن استجوبوهم، دستتين أو ثلاثة فقط في هذه النهاية. لا أظن أن الكثيرين من الأوركيين، من أي حجم، هربوا. ليس من الهورنيين: كانت هناك غابة مليئة بهم في كل مكان في آيزنجارد في ذلك الوقت، وكذلك أولئك الذين ساروا عبر الوادي.

«عندما كان الإنتيون قد دمروا جزءًا كبيرًا من الجدران الجنوبية وأحالوه إلى تراب، ولاذ بالفرار من تبقى من قومه وتركوه، وفر سارومان في ذعر. يبدو أنه كان عند البوابات عندما وصلنا؛ أتوقع أنه أتى ليشاهد جيشه الرائع يزحف للخارج. وعندما شق الإنتيون طريقهم داخلين، فإنه غادر في عجلة. إنهم لم يروه في بداية الأمر. ولكن الليل كان قد انبسط، وكان ضوء النجوم هناك عظيمًا، كافيًا تمامًا للإنتيين ليروا على ضوئه، وفجأة أطلق كويكبيم صرخة: «قاتل الأشجار، قاتل الأشجار!» كويكبيم مخلوق لطيف، ولكنه يكره سارومان بشكل أكثر شراسة للغاية؛ وذلك لأن قومه عانوا بكل قساوة بلطات الأوركيين. وقفز عبر الممر من البوابة الداخلية، ويمكنه أن يتحرك مثل الريح عند إثارته. كان هناك شكل شاحب يسرع مبتعدًا داخلاً وخارجًا من ظلال الأعمدة، وقد وصل تقريبًا إلى السلالم المؤدية إلى باب البرج. ولكنه كان شيئًا قريبًا. كان كويكبيم سريعًا للغاية في أثره، لدرجة أنه كان في نطاق خطوة أو خطوتين من الإمساك به وخنقه عندما انسل خارجًا من الباب.

«عندما كان سارومان آمنًا إذ عاد إلى أورثانك، لم يمض زمن طويل إلا وقد وضع بعضًا من آلاته الثمينة قيد العمل. ومع حلول ذلك الوقت كان هناك الكثير من الإنتيين داخل آيزنجارد: كان بعضهم قد تبع كويكبيم، وكان بعضهم الآخر قد اندفعوا داخلين من الشمال والشرق؛ كانوا يطوفون في المكان ويلحقون قدرًا كبيرًا من الضرر. وفجأة ارتفعت النيران والأدخنة الخبيثة: بدأت منافذ التهوية والمداخن تنفث الدخان في كل مكان. احترق عدد كبير من الإنتيين وتقيحت أجسامهم. وأمسك بأحدهم، أعتقد أنهم كانوا ينادونه بييتشبون، إنتي طويل جدًا وأنيق، في رذاذ متطاير من نار سائلة واحترق مثل مشعل؛ منظر مروع.

وأصابهم هذا بالجنون. ظننتُ أنهم كانوا قد أثيروا بالفعل من قبل؛ ولكني كنتُ مخطئًا. ورأيتُ كيف يكون الأمر في النهاية. كنتُ أتهاوى. راحوا يدمدمون ويزأرون وينفخون أبواقهم حتى بدأت الصخور تتشقق وتتساقط على مجرد الضوضاء الصادرة عنهم. ورقدتُ أنا وميري على الأرض وحشرنا معاطفنا في آذاننا. وراح الإنتيون يدورون ويدورون حول صخرة أورثانك في خطى واسعة ويتدافعون مثل عاصفة مدوية، يكسرون الأعمدة، ويدمرون أكوامًا من الكتل الصخرية على الأعمدة، يقذفون ببلاطات ضخمة من الصخر في الهواء مثل أوراق الشجر. كان البرج في وسط ريح دوامة دوارة. رأيتُ أعمدة الحديد وكتل البناء تصعد إلى مسافة مئات الأقدام، وتنزل مدمرة على نوافذ أورثانك. ولكن تريبرد حافظ على ثباته. لم يكن به أي حروق، لحسن الحظ. إنه لم يكن يريد أن يؤذي قومه أنفسهم في غضبتهم، ولم يكن يريد أن يهرب سارومان من حفرة ما وسط هذه الجلبة. كان الكثيرون من الإنتيين يلقون أنفسهم على صخرة أورثانك؛ ولكن هذه هزمتهم. إنها ملساء جدًا وصلبة. هناك بعض السحر فيها، ربما، أكبر عمرًا وأقوى من سحر سارومان. على أية حال لم يستطيعوا أن ينالوا منها، أو يحدثوا بها أي شرخ؛ وكانوا يصيبون أنفسهم بكدمات ويجرحون أنفسهم وهم يقذفون بأنفسهم عليها.

ولذلك خرج تريبيرد إلى الحلقة وصاح. وارتفع صوته الهائل فوق الضجيج. وساد صمت قاتل فجأة. وسمعنا في هذا الصمت ضحكة مدوية من نافذة عالية في البرج. كان لتلك الضحكة أثر غريب على الإنتيين. كانوا يغلون؛ الآن أصبحوا باردين، متجهمين كالثلج، وهادئين. وتركوا السهل وتجمعوا حول تريبرد، ووقفوا ساكنين تمامًا. وتحدث إليهم بعض الوقت بلغتهم؛ أظن أنه كان يخبرهم بخطة وضعها في رأسه العجوز قبل وقت طويل. بعد ذلك تلاشوا في صمت بعيدًا في الضوء الرمادي. كان اليوم يبزغ فجره مع ذلك الوقت.

وضعوا مراقبة على البرج، فيما أعتقد، ولكن المراقبين كانوا مختبئين جيدًا في الظلال وكانوا ساكنين تمامًا، لدرجة أنني لم أستطع رؤيتهم. وذهب الآخرون بعيدًا نحو الشمال. كانوا مشغولين طوال ذلك اليوم، مختفين عن الأنظار. تُركنا بمفردنا طوال اليوم. لقد كان يومًا كئيبًا موحشًا؛ ورحنا نتجول في المكان بعض الوقت، على الرغم من أننا بقينا بعيدًا عن نظر نوافذ أورثانك كثيرًا، قدر استطاعتنا، كانوا يحدقون فينا بشكل مهدد للغاية. أمضينا قدرًا كبيرًا من الوقت نبحث عن شيء لنأكله. وكذلك جلسنا وتحدثنا، متسائلين عما كان يحدث بعيدًا في الجنوب في روهان، وماذا حل بباقي صحبتنا. ومن وقت لآخر كنا نسمع على البعد قعقعة وسقوط الصخور، وضوضاء الارتطام يأتي صداها في التلال.

في فترة ما بعد الظهيرة مشينا حول الدائرة، وذهبنا لنلقي نظرة على ما كان يجري. كانت هناك غابة ظليلة عظيمة للهورنيين عند رأس التل، وأخرى حول الجدار الشمالي. لم نجرؤ على الدخول. ولكن كانت هناك ضوضاء عنيفة ممزقة لعمل يمضي قدمًا بالداخل. كان الإنتيون والهورنيون يحفرون حفرًا وخنادق عظيمة، ويصنعون بحيرات وسدودًا عظيمة، يجمعون كل مياه آيزن وكل نبع وجدول آخر يمكنهم العثور عليه. وتركناهم يقومون بعملهم.

ومع الغسق جاء تريبرد عائدًا إلى البوابة. كان يدندن ويطنطن مع نفسه، وكان يبدو مسرورًا. ووقف ومد ذراعيه وساقيه الطويلتين وأخذ نفسًا عميقًا. وسألته إن كان متعبًا.

«فرد عليّ قائلاً: «متعبًا؟ متعبًا؟ كلا، لستُ متعبًا، ولكني متصلب. إنني أحتاج إلى جرعة كبيرة من الإنتووش. لقد عملنا عملاً شاقًا؛ لقد فعلنا الكثير من العمل في شق الصخور ونخر الأرض اليوم أكثر مما فعلناه في سنوات طويلة من قبل. ولكن العمل انتهى تقريبًا. عندما يحل الليل لا تبقوا قريبًا من هذه البوابة أو في النفق القديم! ربما تنفذ المياه ــ وسوف تكون مياهًا عفنة بعض الوقت، حتى تغسل جميع قاذورات سارومان. وبعد ذلك يمكن أن يجري آيزن نظيفًا مرة أخرى». وبدأ يقوض المزيد قليلا من الجدران، بطريقة وئيدة هادئة، لمجرد تسلية نفسه.

وكنا نتساءل عن المكان الذي سيكون آمنًا للرقود فيه ونيل بعض النوم، عندما حدث الشيء الأكثر دهشة. جاء صوت خيال يسير بسرعة وخفة عبر الطريق ورقدت أنا وميري في هدوء، وأخفى تريبرد نفسه في الظلال تحت القنطرة. وفجأة جاء حصان هائل يسير بخطى واسعة، مثل وميض من فضة. كانت الدنيا ظلامًا بالفعل، ولكني كنت أرى وجه الخيال بوضوح: كان يبدو أنه يومض، وكانت كل ثيابه بيضاء. كل ما فعلته أني جلستُ ورحتُ أحدق، وفمي مفتوح. وحاولت أن أنادي، ولكني لم أستطع.

«لم تكن هناك أي حاجة. توقف عندنا مباشرة ونظر إلى أسفل منا. وقلتُ أخيرًا، «جندلف!»، ولكن صوتي كان همسًا فقط. هل قال: «مرحبًا يا بيبين! هذه مفاجأة لطيفة!»؟ كلا، حقًا! حيث قال: «انهض أيها الأحمق من التوكيين! أين، باسم الدهشة، في كل ذلك الدمار يوجد تريبرد؟ إنني أريده. بسرعة!».

وسمع تريبرد صوته وخرج من الظلال في الحال؛ وحدثت مقابلة غريبة. كنتُ مندهشًا؛ لأنه لم يبد أي منهما مندهشًا على الإطلاق. لقد توقع جندلف فيما يبدو أن يجد تريبرد هنا؛ وربما كان تريبرد تقريبًا يتلكأ في الجوار قريبًا من الباب عن عمد ليقابله. ولكننا كنا قد أخبرنا الإنتي العجوز كل شيء عن موريا. ولكني تذكرتُ عندئذ نظرة غريبة نظرها إلينا في ذلك الوقت. لا يمكنني إلا أن أفترض أنه كان جندلف أو لديه أخبار عنه،

ولكنه لم يكن ليقول أي شيء في عجلة. «لا تكن متعجلاً» هي شعاره؛ ولكن ليس من أحد، ولا حتى الجن، سيقول الكثير عن حركات جندلف عندما لا يكون موجودًا.

وقال تريبرد: «هووم! جندلف! إنني سعيد لمجيئك. الغابة والماء، الجذع والصخر، يمكنني أن أسيطر عليها؛ ولكنْ هناك ساحر يدير هنا».

فقال جندلف: «تريبرد. إنني بحاجة إلى مساعدتك. لقد فعلتَ الكثير، ولكني أحتاج إلى الكثير. لدي حوالي عشرة آلاف أوركي يمكنني التعامل معهم».

عندئذ انطلق الاثنان معًا وعقدا اجتماعًا في ركن ما. لا بد أنه كان يبدو متعجلاً جدًّا بالنسبة لتريبرد؛ لأن جندلف كان في عجلة هائلة، وكان يتكلم بالفعل بسرعة كبيرة، بحيث لا يستطيع أحد سماعهما. ولم يغيبا سوى عدة دقائق، ربما ربع الساعة. عندئذ جاء جندلف عائدًا إلينا، وكان يبدو مرتاح البال، يكاد يكون سعيدًا مرحًا. لقد قال إنه كان سعيدًا لرؤيتنا، عندئذ.

وصحتُ أنا قائلاً: «ولكن يا جندلف، أين كنت؟ وهل رأيتَ الآخرين؟».

وأجاب بطريقة جندلف الحقيقية الخاصة به قائلاً: «أيًا كان المكان الذي كنتُ فيه، فقد عدتُ. نعم، لقد رأيتُ بعضًا من الآخرين. ولكن الأخبار يجب أن تنتظر. إنها ليلة خطيرة، ويجب عليَّ أن أسير بحصاني بسرعة. ولكن قد يكون الفجر أكثر إشراقًا؛ وإذا كان الأمر كذلك، فسوف نلتقي مرة أخرى. اعتنيا بأنفسكما، وابتعدا عن أورثانك! إلى اللقاء!».

كان ترّيبرد مستغرقًا جدًّا في التفكير بعد رحيل جندلف. لقد علم فيما يبدو الكثير في وقت قصير وكان يهضم ما علمه. ونظر إلينا وقال: «همم، حسنًا، أعتقد أنكما لستما متعجلين مثلما كنتُ أظن. لقد قلتما أقل مما يحتمل أن تقولاه، وليس أكثر مما ينبغي أن تقولاه. همم، هذه مجموعة من الأخبار بلا شك! حسنًا، الآن يجب أن يصبح تريبرد مشغولاً مرة أخرى».

«وقبل أن يمضي، حصلنا على قليل من الأخبار منه؛ ولم يسعدنا ذلك على الإطلاق. ولكن في الوقت الحالي كنا نفكر أكثر بشأنكم أنتم الثلاثة أكثر من تفكيرنا في فرودو وسام، أو في بورومير المسكين؛ لأننا استنتجنا أنه كانت هناك معركة كبيرة تجري، أو ستجري في القريب العاجل، وأنكم كنتم فيها، وربما لا تعودون منها أبدًا».

وقال تريبرد: «الهوريون سوف يساعدون». بعد ذلك ذهب بعيدًا ولم نره مرة أخرى حتى هذا الصباح.

«كانت ليلة مظلمة. ورقدنا فوق كومة من الصخر، ولم نستطع أن نرى أي شيء وراءها. راح السديم أو الظلال يحيط بكل شيء مثل بطانية عظيمة حولنا تمامًا. كان

الهواء يبدو ساخنًا ثقيلاً؛ مليئًا بالحفيف والصرير، ودمدمة مثل أصوات عابرة. أعتقد أن مئات آخرين من الهورنيين لابد أنهم كانوا يعبرون للمساعدة في المعركة. وفي وقت لاحق كانت هناك قعقعة رعدية بعيدًا في الجنوب، وومضات من برق بعيدًا جدًا عبر روهان. ومن وقت إلى آخر كنا نرى قمم الجبال، على بعد أميال كثيرة، تبرز فجأة، سوداء وبيضاء، وتختفي فجأة. ووراءنا كانت هناك ضوضاء مثل الرعد في التلال، ولكن مختلفة. وفي بعض الأوقات كان صوت الصدى ينطلق من الوادي كله.

«لا بد أن الوقت كان قرابة منتصف الليل عندما كسر الإنتيون السدود وصبوا كل المياه المتجمعة عبر فجوة في الجدار الشمالي، لتنزل إلى آيزنجارد. لقد مر ظلام الهورنيين، وقد انطلق الرعد بعيدًا مدويًا. كان القمر يغيب وراء الجبال الغربية.

«بدأت آيزنجارد تمتلئ بجداول وبحيرات زاحفة سوداء. كانت تتوهج في النور الأخير للقمر، وهي تنتشر فوق السهل. ومن وقت لآخر كانت المياه تجد طريقها هابطة إلى قصبة أو فتحة منبجسة. كانت جداول عظيمة بيضاء تصفر وهي سائرة. وارتفع الدخان في كتل عظيمة مثل الموج. كانت هناك انفجارات وعواصف من نار. وارتفع عمود ضخم من البخار صاعدًا، يتلوى في حلقة دائرية حول أورثانك، حتى بدا مثل قمة مرتفعة من السحاب، ناريًا من أسفل ومثل نور القمر من أعلى. كان، ولا يزال، المزيد من الماء يتدفق، حتى بدت آيزنجارد أخيرًا مثل مقلاة ضخمة مسطحة، تغلي وتبقبق كلها».

وقال أراجورن: «رأينا سحابة من دخان وبخار من الجنوب في الليلة الماضية، عندما وصلنا إلى مدخل نان كورونير. لقد خشينا أن يكون سارومان يقوم بإعداد شيء ما جديد ليرسله لنا».

فقال بيبين: «ليس هو! ربما كان هو يختنق ولم يضحك بعد. مع الصباح، صباح أمس، كانت المياه قد غارت في جميع الحفر، وكانت هناك سحابة كثيفة من الضباب. ولذنا في غرفة الحراس هذه هناك؛ وكنا مرعوبين حقًا. بدأت البحيرة تفيض ويندفع منها الماء للخارج عبر النفق القديم، وكانت المياه ترتفع سريعًا عبر درجات السلم. لقد ظننا أننا سنقع مثل الأوركيين في حفرة؛ ولكننا وجدنا سلمًا متعرجًا في مؤخرة غرفة المخزن قادنا إلى الخارج أعلى القنطرة. لقد كان مأزقًا أن نخرج من هناك، حيث كانت الممرات بها شروخ ونصف مسدودة بالصخور المتساقطة بالقرب من القمة. وهناك جلسنا عاليًا فوق الفيضانات ورحنا نراقب غرق آيزنجارد. وواصل الإنتيون صب المزيد من الماء، حتى أطفئت جميع النيران وامتلأ كل كهف. وتجمعت سحب الضباب بطيئًا مع بعضها وتبخرت في مظلة ضخمة من السحاب؛ لا بد أن ارتفاعها كان ميلاً. في المساء كان هناك قوس قزح عظيم فوق التلال الشرقية؛ وبعد ذلك اختفى

غروب الشمس برذاذ متساقط كثيف على جنبات الجبال. وأصبح كل شيء هادئًا تمامًا. وعوت في حزن عدة ذئاب قليلة، بعيدًا جدًا. وأوقف الإنتيون تدفق الماء في الليل، وتركوا نهر الآيزن مرة أخرى يعود إلى مساره القديم. وكانت هذه نهاية كل شيء».

«منذ ذلك الحين كانت المياه تغوص مرة أخرى. لا بد أنه كانت هناك منافذ في مكان ما من الكهوف أسفل منها، فيما أعتقد. إذا أطل ساروما من أي نافذة من نوافذه، لا بد أن ذلك سيبدو فوضى غير منظمة كئيبة. شعرنا أننا وحيدون جدًا. لم يكن هناك حتى إنتي واحد يمكن رؤيته للتحدث معه في كل ذلك الدمار والخراب؛ ولم تكن هناك أي أخبار. أمضينا الليلة في هذا المكان العالي هنالك فوق القنطرة، وكان الجو باردًا ورطبًا ولم ننم. كان لدينا شعور أن أي شيء قد يحدث في أي دقيقة. لايزال ساروما في برجه. كانت هناك ضوضاء في الليل مثل ريح تأتي عبر الوادي. أعتقد أن الإنتيين والهورنيين الذين كانوا بعيدًا جاءوا عائدين عندئذ؛ ولكن إلى أين ذهبوا الآن؟ لا أدري. لقد كان الصباح مليئًا بالسديم ورطبًا عندما نزلنا ونظرنا حولنا مرة أخرى، ولم يكن هناك أي أحد حولنا. وهذا هو كل ما هنالك مما يمكن أن نخبر به. يبدو أن الدنيا هادئة مطمئنة تقريبًا الآن بعد كل هذه الجلبة والصخب. وأكثر أمانًا أيضًا، بحال من الأحوال، منذ أن عاد جندلف. يمكنني أن أنام!».

ولزموا جميعًا الصمت بعض الوقت. عاود جيملي ملء غليونه مرة أخرى، وقال وهو يشعله بقداحته: «هناك شيء واحد أتمنى لو أعرفه. وورمتونج. لقد أخبرتَ ثيودن أنه كان مع ساروما. كيف وصل إلى هناك؟».

وقال بيبين: «أوه، نعم لقد نسيت أمره. إنه لم يصل إلى هنا حتى هذا الصباح. لقد كنا أشعلنا النار من تونا وتناولنا بعض الإفطار عندما ظهر تريبرد مرة أخرى. سمعناه يدندن وينادي بأسمائنا في الخارج، حيث قال:

«لقد جئتُ من توي لأرى كيف تسير الأمور معكما، يا أولادي، ولأجلب لكم بعض الأخبار. لقد عاد الهورنيون. كل شيء على ما يرام؛ نعم على ما يرام في واقع الأمر!». وضحك، وضرب بيديه على فخذيه. «ليس هناك المزيد من الأوركيين في آيزنجارد، ليس هناك المزيد من البلطات! وسوف يكون هناك قوم يأتون من الجنوب قبل أن يتوغل النهار؛ بعضهم قد يكونون سعداء لرؤيتهم».

«لم يكد يقول ذلك، حتى سمعنا صوت حوافر على الطريق. واندفعنا خارجين أمام البوابات، ووقفتُ أنا ورحتُ أحدق، نصف متوقع لأن أرى سترايدار وجندلف يأتيان بخيلهما على رأس جيش. ولكن خرج من الظلمة رجل على حصان عجوز متعب؛ وكان هو نفسه يبدو نوعًا غريبًا من المخلوقات ملتويًا. لم يكن هناك أي شخص آخر.

عندما خرج من السديمَ ورأى فجأة كل الدمار والخراب أمام عينيه، جلس وفغر فاه، وأصبح وجهه أخضر تقريباً. لقد كان مذهولاً للغاية لدرجة أنه لم يبد أنه قد لاحظنا في البداية. وعندما لاحظنا، أطلق صيحة، وحاول أن يدير حصانه وينطلق مرة أخرى. ولكن تريبرد خطا ثلاث خطوات واسعة، ومد ذراعًا طويلة، ورفعه عن سرجه. وانطلق حصانه في رعب، وانبطح هو على الأرض. وقال إنه جريما، صديق الملك ومستشاره، وقد أُرسل برسائل مهمة من ثيودن إلى سارومان، وقال:

«ليس من أحد أخير يجرؤ على أن يركب حصانه في الأرض العراء، المليئة جدًّا بالأوركيين العفنين. وهكذا قد أرسلتُ أنا برسائلي. وقد كانت رحلتي رحلة خطيرة، وإنني جائع ومتعب. لقد فررتُ في الشمال بعيدًا عن طريقي، تطاردني الذئاب».

ولمحتُ النظرات الجانبية التي كان ينظرها إلى تريبرد، وقلتُ لنفسي «كاذب». ونظر إليه تريبرد بطريقة طويلة بطيئة لعدة دقائق، حتى كان الرجل التعس يتلوى على الأرض. وأخيرًا قال: «ها، همم، كنتُ أترقب قدومك يا سيدي وورمتونج». وحدق الرجل عندما سمع الاسم. «لقد وصل جندلف إلى هنا أولاً. وهكذا أحب أن أعرف كثيرًا عنك قدر ما أحتاج، وإنني أعرف ما يجب أن أفعله معك. ضع جميع الجرذان في مصيدة واحدة، قال جندلف؛ وسوف أفعل. إنني سيد آيزنجارد الآن، ولكن سارومان محبوس في برجه؛ ويمكنك أن تذهب إلى هناك وتعطيه جميع الرسائل التي يمكن أن تفكر فيها».

وقال وورمتونج ـ «دعني أذهب، دعني أذهب! إنني أعرف الطريق».

فقال تريبرد ـ «أنت تعرف الطريق، لا أشك في ذلك. ولكن الأشياء قد تغيرت هنا قليلاً. اذهب وشاهد!».

وترك وورمتونج يذهب، راح يمشي في بطء عبر القنطرة، ونحن الاثنان لصيقان به من خلفه، حتى جاء إلى داخل الحلقة واستطاع أن يرى جميع الفيضانات التي ترقد بينه وبين أورثانك. وبعد ذلك التفت إلينا.

وقال في نحيب: «دعني أذهب! دعني أذهب! إن رسائلي عديمة الجدوى الآن».

وقال له تريبرد: «إنها كذلك حقًّا. ولكن ليس لديك سوى خيارين: أن تبقى معي حتى يصل جندلف وسيدك؛ أو تعبر الماء. أي خيار تختار؟».

وارتعش الرجل عند ذكر سيده، ووضع قدمًا في الماء؛ ولكنه سحبها ثانية، وقال: «لا يمكنني العوم».

فقال له تريبرد: «المياه ليست عميقة. إنها قذرة، ولكن هذا لن يضرك، يا سيدي وورمتونج. امض في الماء الآن!».

وبهذه الكلمات انطلق الحقير في الفيضان. راح الماء يرتفع إلى رقبته تقريبًا قبل

أن يذهب بعيدًا بحيث لم يمكني رؤيته. كان آخر شيء رأيته منه هو التشبث ببرميل قديم ما أو لوح خشب. ولكن تريبرد خاض الماء وراءه، وراح يراقب تقدمه.

وقال عندما عاد: «حسنًا، لقد ذهب في الماء. لقد رأيته يزحف على السلالم مثل جرذ موحول. لا يزال هناك شخص ما في البرج؛ وخرجت يد وجذبته نحو الداخل. وهكذا ها هو ذا، وأتمنى أن يكون قد أحب ما لقي من ترحاب. والآن يجب أن أذهب وأنظف نفسي من الوحل والقذارة. سوف أغيب في الجانب الشمالي، إذا أراد أي أحد أن يراني. فليست هناك أي مياه نظيفة هنا تناسب إنتيا ليشرب منها، أو يغتسل فيها. ولذلك سوف أطلب منكما أن تقوما بالحراسة عند البوابة لمراقبة الأناس الذين يأتون. سوف يكون هناك ملك حقول روهان، هل تدركون ذلك! يجب عليكما أن ترحبا به جيدًا بقدر ما تعرفان؛ لقد حارب رجاله معركة في عظيمة مع الأوركيين. ربما، تعرفان الطريقة المناسبة لكلمات البشر لمثل ذلك الملك، أفضل من الإنتيين. لقد كان هناك سادة كثيرون في الحقول الخضراء في وقتي، ولم أتعلم أبدًا لغتهم أو أسماءهم. سوف يكونون بحاجة إلى طعام البشر، وأنتم تعرفون كل شيء عن ذلك، حسب ظني. ولذلك اعثرا على ما تظنان أنه مناسب لملك ليأكله، إذا كنتما تستطيعان». وهذه هي نهاية القصة. على الرغم من أنني أود أن أعرف من هو ذلك الوورمتونج. هل كان حقًا مستشار الملك؟».

فقال أراجورن: «لقد كان، وجاسوس سارومان أيضًا وخادمه في روهان. لم يكن القدر أكثر عطفًا معه مما هو يستحق. لا بد أن مشهد دمار كل ما كان يظن أنه كان قويًا للغاية ورائعًا عقابًا كافيًا له تقريبًا. ولكني أخشى أن الكثير ينتظره».

فقال ميري: «نعم، لا أظن أن تريبرد قد أرسله إلى أورثانك من دافع العطف. كان يبدو مسرورًا بشكل متجهم مروع بهذا الأمر، وكان يضحك بينه وبين نفسه عندما ذهب ليأخذ حمامه وشرابه. لقد أمضينا وقتًا مشغولاً بعد ذلك، نفتش في الحطام الغارق وننقب في المكان. بقي مخزنان أو ثلاثة مخازن في أماكن مختلفة تقريبًا، فوق مستوى الفيضان. ولكن تريبرد أرسل بعض الإنتيين لأسفل، وحملوا قدرًا كبيرًا من الأشياء.

«إننا نريد طعام بشر لخمسة وعشرين شخصا» ـ قال ذلك الإنتيون، وهكذا يمكنكم أن تروا أن شخصًا ما قد أحصى صحبتكم بدقة قبل أن تصلوا. أنتم الثلاثة كنتم مقصودين بكل وضوح للذهاب مع الناس العظام. ولكن لم تكن حالكم لتصير إلى أفضل من ذلك. لقد ظللنا على ما يرام مثلما أرسلنا، إنني أعدكم. أفضل؛ لأننا لم نرسل أي شراب.

وقلت للإنتيين: «وماذا عن الشراب؟».

فقالوا: «هناك مياه الآيزن، وهذا جيد بالشكل الكافي للإنتيين وللبشر». ولكني أتمنى أن يكون الإنتيون قد وجدوا الوقت ليصنعوا بعضًا من أشربتهم من ينابيع الجبال،

وسوف نرى لحية جندلف تلتف عندما يعود. بعد أن ذهب الإنتيون، شعرنا بالتعب، وبالجوع. ولكننا لم نتذمر ـ لقد كوفئت أعمالنا وجهودنا خير مكافأة. لقد كان من خلال البحث والتفتيش عن طعام البشر أن اكتشف بيبين جائزة كل ذلك الحطام، برميلي الهورنبلاور. وقال بيبين: «عشب الغليون أفضل بعد الطعام»؛ هذه هي الطريقة التي نشأ بها الموقف».

وقال جيملي: «إننا نفهم الأمر تمامًا الآن».

فقال أراجورن: «كل شيء عدا شيء واحد، ورقة من الربع الجنوبي (ساوث فارذينج) في آيزنجارد. كلما أمعنت في التفكير فيها وجدتها غريبة بشكل أكبر. إنني لم أكن في آيزنجارد أبدًا، ولكني ارتحلتُ في هذه البلاد، وإنني أعرف جيدًا البلاد الخاوية التي ترقد بين روهان والمقاطعة. لم تمر من ذلك الطرق لا بضائع ولا سلع ولا أشخاص على مدى سنة طويلة، ليس صراحة. كان لسارومان تعاملات سرية مع شخص ما في المقاطعة، حسب ظني. قد يوجد أشخاص مثل وورمتونج آخرون في منازل أخرى غير منزل الملك ثيودن. هل كان هناك تاريخ على البرميلين؟».

وأجابه بيبين قائلاً: «نعم. لقد كان محصول 1417، هذا هو محصول آخر سنة؛ كلا، السنة قبل الماضية، بالطبع، الآن: سنة صالحة».

فقال أراجورن: «آه حسنًا، أيًا ما كان الشر الذي يترقبنا، فإنني أتمنى أن يكون قد انقضى الآن؛ وإلا فإنه يكون خارج نطاق بحثنا في الوقت الحاضر. ومع ذلك أعتقد أنني سأذكر ذلك لجندلف، على الرغم من أنها قد تبدو مسألة صغيرة بين شئونه الجسام».

فقال ميري: «إنني أتساءل بشأن ما يفعله. وقت ما بعد الظهيرة يدهمنا. هيا بنا نذهب وننظر فيما حولنا! يمكنك، يا ستْرايدار، دخول آيزنجارد الآن على أية حال إذا كنت تريد. ولكنه ليس مشهدًا مبهجًا جدًا».

الفصل العاشر
صـــــوت ســـــارومـــان

ومروا عبر النفق الخرب ووقفوا فوق كومة من الحجارة، يحدقون في صخرة أورثانك المظلمة، ونوافذها الكثيرة، لا يزال هناك تهديد في الخراب والدمار الذي يرقد في كل مكان حولها. كانت كل المياه قد خمدت الآن تقريبًا. وظلت في أماكن متفرقة أحواض مياه كئيبة، مغطاة بالزبد والحطام؛ ولكن كان معظم الدائرة الواسعة أجرد مرة أخرى، تيه من الوحل والحجر المتساقط، به حفر سوداء، وبه نقط من أعمدة مترنحة مثل السكارى في هذا الاتجاه وذاك. عند حافة التجويف المتناثر كانت هناك رواب صغيرة ومنحدرات، مثل ألواح من خشب قذفتها ريح عظيمة؛ وفيما وراءهم كان الوادي الأخضر المتشابك يجري عبر الوهاد الطويلة بين أذرع الجبال المظلمة. وعبر الخراب رأوا خيالة يتلمسون طريقهم؛ كانوا يأتون من الجانب الشمالي، وكانوا بالفعل يقتربون من أورثانك.

وقال ليجولاس: «هذا هو جندلف، وثيودن ورجاله! هيا بنا نذهب ونقابلهم!».

وقال ميري: «امشوا بحذر. هناك بلاطات سائبة قد تميل وتلقي بكم لأسفل في حفرة، إذا لم تتوخوا الحذر».

وتبعوا ما كان قد تبقى من الطريق من البوابات إلى أورثانك، سائرين ببطء، وذلك نظرًا لأن الألواح الحجرية كانت مشروخة وموحلة. وتوقف الخيالة ـ إذ رأوهم يقتربون ـ تحت ظل صخرة وانتظروا قدومهم. وواصل جندلف سيره للأمام لملاقاتهم، وقال:

«حسنًا، دارت بيني وبين تريبرد بعض مناقشات مهمة، ووضعنا بعض خطط قليلة، وقد نلنا جميعًا بعض الراحة التي كنا في مسيس الحاجة إليها. والآن ينبغي علينا أن نواصل سيرنا مرة أخرى. أتمنى أن تكونوا جميعكم يا رفاق قد نلتم بعض الراحة، أيضًا، وجددتم نشاطكم وحيويتكم».

فقال ميري: «لقد فعلنا. ولكن مناقشتنا بدأت وانتهت في دخان. لا نزال نشعر أننا أقل عدائية تجاه سارومان أكثر مما كنا نشعر».

فقال جندلف: «هل تحسون بذلك حقًا؟ حسنًا، إنني لا أشعر بذلك. لدي الآن مهمة أخيرة يجب إنجازها قبل أن أذهب؛ يجب عليَّ أن أزور سارومان زيارة الوداع.

خطيرة، وربما دون فائدة؛ ولكن يجب القيام بها. أولئك الذين يرغبون يمكنهم أن يأتوا معي ـ ولكن كونوا على حذر! ولا تهزءوا بالأمر! فهذا ليس وقته».

فقال جيملي: «سوف آتي أنا. أرغب في أن أراه وأعرف إذا كان يبدو حقًا مثلك».

وقال جندلف: «وكيف ستعرف ذلك، يا سيدي جندلف؟ يمكن أن يبدو سارومان مثلي في عينيك، إذا كان ذلك يناسب غرضه معك. وهل أنت حكيم بما يكفي لتكتشف كل زيفه؟ حسنًا، سوف نرى، ربما. قد يكون خجولاً من إظهار نفسه أمام أعين كثيرة مختلفة معًا. ولكني أمرتُ كل الإنتيين ليكونوا بعيدًا عن الرؤية، ولذلك ربما سنقنعه أن يخرج».

وسأل بيبين: «وما الخطر؟ هل سيرمينا، ويصب النار علينا من النوافذ؛ أو هل سيضع تعويذة علينا من بعد؟».

فقال جندلف: «الأخيرة هي الأكثر احتمالاً، إذا سرت إلى بابه وقلبي خالٍ من الخوف والهم. ولكننا لا نعرف ما الذي يمكن أن يفعله، أو قد يختار أن يجربه. إن حيوانًا بريًا محاصرًا في زاوية لا يكون الاقتراب منه آمنًا. كما أن سارومان لديه قوى لا تخمنونها. احذروا صوته!».

ووصلوا الآن إلى سفح أورثانك. كانت مظلمة، وكان الحجر يومض كما لو كان مبللاً. كان للوجوه الكثيرة للحجر حواف حادة كما لو كانت قد نحتت من جديد. تحزيزات قليلة، وشظايا صغيرة مثل القشور بالقرب من القاعدة، كانت هي كل العلامات التي كانت تحملها من غضب وحنق الإنتيين.

على الجانب الشرقي، في زاوية دعامتين، كان هناك باب عظيم، عالٍ فوق الأرض؛ وفوقه كانت هناك نافذة بمصاريع، تفتح على بلكونة محاطة بقضبان حديدية. وعاليًا عند عتبة البار كانت هناك مجموعة من سبع وعشرين درجة سلم عريضة، مقطوعة على نحو غير معروف من نفس الحجر الأسود. كان هذا هو المدخل الوحيد إلى البرج؛ ولكن كانت هناك الكثير من النوافذ العالية المنحوتة بفتحات عميقة في الجدران العالية: وهناك عاليًا كانت تطل مثل أعين صغيرة في الأوجه شديدة التحدر لقمم الجبال المستدقة.

عند سفح السلالم نزل جندلف والملك. وقال جندلف: «سوف أصعد. لقد كنتُ في أورثانك وأعرف ما يحدق بي من خطر».

فقال الملك: «وأنا أيضًا سوف أصعد. إنني عجوز، ولم أعد أخشى أي خطر. أريد أن أتحدث مع العدو الذي ظلمني كثيرًا جدًا. سوف يأتي إيومر معي، ويرى أن قدمي العجوزتين لا تتعثران».

فقال جندلف: «كما تشاء. سوف يأتي أراجورن معي. لينتظر الآخرون قدومنا عند سفح السلالم. سوف يسمعون ويرون ما فيه الكفاية إذا كان هناك أي شيء يمكن سماعه أو رؤيته».

وقال جيملي: «كلا! نرغب أنا وليجولاس في الرؤية من وضع أكثر قربًا. نحن هنا فقط نمثل عشائرنا. نحن أيضًا سوف نأتي وراءكم».

فقال جندلف: «تعالوا إذن» ـ وبهذه الكلمات راح يصعد السلالم وذهب ثيودن إلى جواره.

جلس خيالة روهان في قلق فوق خيلهم، على كل جانب من السلالم، ونظروا لأعلى في كآبة إلى البرج العظيم، خائفين مما قد يحل بمولاهم. جلس ميري وبيبين على آخر درجة في أسفل السلم، كلاهما شاعران بأنهما غير مهمين وغير آمنين.

وغمغم بيبين قائلا: «نصف ميل بغيض من هنا إلى البوابة! أتمنى أن لو كنت أستطيع أن أنسل عائدًا دون أن يلحظني أحد إلى غرفة الحراس! لماذا أتينا؟ إننا غير مطلوبين».

ووقف جندلف أمام باب أورثانك وقرع عليه بعصاه. ودوى بصوت أجوف. وراح يصيح بصوت عال آمر: «سارومان، ساروما! ساروما اخرج إلينا!».

لم تأت أي إجابة بعض الوقت. وأخيرًا فُتحت النافذة التي كانت فوق الباب، ولكن لم يكن يرى أي شكل عند فتحتها المظلمة.

وقال صوت: «من ينادي؟ ما الذي تريده؟».

وفزع ثيودن، وقال: «إنني أعرف هذا الصوت. وألعن اليوم الذي سمعته فيه أول مرة».

فقال جندلف: «اذهب وأحضر ساروما، حيث إنك قد أصبحت خادمه، يا جريما وورمتونج! ولا تضيع وقتنا!».

وأغلقت النافذة. وراحوا ينتظرون. وفجأة تحدث صوت آخر، منخفض ورخيم، نفس صوته كان أغنية. أولئك الذين كانوا يسمعون ذلك الصوت في غفلة نادرًا ما يمكنهم معرفة الكلمات التي كانوا يسمعونها؛ وإذا هم فعلوا، كانوا يعجبون، هناك قليل من القوة يبقى فيهم. وفي الغالب كانوا يتذكرون فقط أنه كان من السرور سماع ذلك الصوت يتكلم، كل ما كان يقوله كان يبدو حكيمًا وعاقلاً، وكانت الرغبة تستيقظ فيهم باتفاق سريع أن يبدوا هم أنفسهم حكماء. وعندما تحدث آخرون كانت تبدو فيهم غلظة وفظاظة على النقيض منه؛ وإذا هم أنكروا وناقضوا الصوت، كان الغضب يشتعل في قلوب أولئك الواقعين تحت التعويذة. كانت التعويذة بالنسبة للبعض تدوم فقط مادام الصوت يتحدث إليهم، وعندما كان يتحدث مع شخص آخر كانوا يبتسمون، مثلما يفعل الرجال عندما يشاهدون حيلة مشعوذ ويكتشفونها، في حين أن الآخرين يكونون

فاغرين أفواههم ذهولاً منها. ولكن بالنسبة للكثيرين فإن وقع الصوت وحده كان كافيًا ليفتنهم ويأسرهم؛ ولكن بالنسبة لأولئك الذين كانت التعويذة تغلبهم وتقهرهم فإن التعويذة كانت تدوم عندما كانوا يبعدون، وكانوا دائمًا يسمعون هذا الصوت الرقيق يهمس فيهم ويحضهم. ولكن لم يكن أي أحد ثابتًا لا مباليًا لم يستطع أحد أن يطرح حججه وأوامره بدون جهد عقلي منه وقوة إرادة، مادام سيدها يسيطر عليها.

وقال في صوت رقيق: «حسنًا؟ لماذا تقلقون راحتي؟ ألا تتركونني في سلام لا في ليل ولا في نهار؟». وكانت نبرة صوته نبرة صوت عطوف حزين من إصابات ألمت به دون أن يكون مستحقًا لها.

ونظروا لأعلى في ذهول؛ لأنهم لم يسمعوا أي صوت لمجيئه؛ ورأوا شكلاً يقف إلى جوار الحاجز، ينظرون إلى أسفله؛ رجل عجوز، ملفوف في معطف عظيم، لم يكن من السهل معرفة لونه؛ لأنه كان يتغير إذا هم حركوا أعينهم أو إذا هو تحرك. كان وجهه طويلاً، وجبهته عالية، كانت عيناه عميقتين مظلمتين، من الصعب سبر غورهما، على الرغم من أن النظرة التي كانت فيهما عندئذ كانت وقور وخيرة، وحزينة بعض الشيء. كان لون شعره ولحيته أبيض، ولكن خصلات من السواد كانت لا تزال تظهر حول شفتيه وأذنيه.

وغمغم جيملي قائلاً: «شبيهه وليس شبيهه».

وقال الصوت الرقيق: «ولكن تعالوا الآن. اثنان منكما على الأقل أعرفهما بالاسم. جندلف أعرفه جيدًا للغاية بحيث يكون لدي الكثير من الأمل أنه جاء يطلب النصيحة أو المشورة هنا. ولكنك أنت، يا ثيودن ملك مارك روهان، تنبئ عنك شعاراتك النبيلة ولا يزال هناك المزيد تنبئ به الملامح الجميلة لمنزل إيورل. أيها الفاضل ابن ثينجل المعروف إلى أبعد حد! لماذا لم تأت من قبل، وكصديق؟ لكم رغبتُ أن أراك، أعظم ملك للبلاد الغربية، وخاصة في هذه السنوات الأخيرة، لأنقذك من النصائح الطائشة والشريرة التي اكتنفتك وأقلقتك! هل مازال الوقت متأخرًا وقد فات الأوان؟ على الرغم من الإصابات التي لحقت بي، والتي كان لرجال روهان، واحسرتاه! دور معين فيها، مازلتُ أرغب في إنقاذك، وأخلصك من الدمار الذي يقترب بشكل حتمي، إذا أنت سرت على هذا الطريق الذي سلكته. في حقيقة الأمر أنا الوحيد الذي أستطيع مساعدتك الآن».

وفتح ثيودن فمه كما لو كان سيتكلم، ولكنه لم يقل شيئًا. ونظر لأعلى إلى وجه سارومان، وعيناه القاتمتان الوقورتان تنظران لأسفل إليه، وبعد ذلك إلى جندلف في جانبه؛ وبدا أنه متردد. لم تبد أي علامة على جندلف؛ ولكنه وقف صامتًا مثل الحجر، كشخص ينتظر في صبر نداء ما لم يأت بعد. وتحرك الخيالة أولاً، كرجال مسحورين تحت تأثير تعويذة. بدا لهم أن جندلف لم يتكلم أبدًا بهذا الجمال وذلك الإحكام مع سيدهم

قط. بدت كل تعاملاته الآن مع ثيودن خشنة ومغرورة. وفوق قلوبهم راح يزحف ظل الخوف من الخطر الكبير؛ نهاية المارك في ظلمة كان جندلف يدفعهم إليها، في حين أن سارومان كان يقف إلى جوار باب للنجاة، فاتحًا إياه نصف فتحة فكان شعاع من ضوء يمر خلاله. كان هناك صمت ثقيل.

ولقد كان جيملي القزم هو من تحدث فجأة، قابضًا على مقبض بلطته، حيث قال في تذمر: «إن كلمات هذا الساحر تقف على رءوسهم. في لغة أورثانك المساعدة تعني الدمار، والإنقاذ يعني الذبح، هذا واضح. ولكننا لا نأتي إلى هنا لنستعطف ونستجدي».

«السلام!» ـ قال ذلك سارومان، وللحظة خاطفة كان صوته أقل لطفًا، ولمع ضوء في عينيه واختفى، وقال: «إنني لا أتحدث معك بعد، يا جيملي بن جولين. إن ديارك بعيدة جدًا ومتاعب هذه البلاد لا تهمك إلا قليلاً. ولكن اشتراكك في هذه المتاعب لم يكن بتخطيط منك، ولذلك فإنني لن ألومك على ذلك الدور الذي أديته ـ دور شجاع، لا أشك في ذلك. ولكني أرجوك، اتركني أولاً أتحدث مع ملك روهان، جاري، وكان في وقت من الأوقات صديقي.

ماذا لديك لتقوله أيها الملك ثيودن؟ هل ستتصالح معي، وتشاركني كل المساعدة التي يمكن أن تجلبها معرفتي التي أسستها طوال سنين طويلة؟ هل سنتشاور معًا ضد الأيام الشريرة، ونصلح إصاباتنا بنية حسنة بحيث يكون ما نخلفه ونورثه أفضل من أي وقت مضى على الإطلاق؟».

ولا يزال ثيودن لم يحر جوابًا. ولم يكن أحد يعرف ما إذا كان يناضل مع الغضب أو مع الشك. وتحدث إيومر قائلاً:

«مولاي، اسمعني! الآن نشعر بالخطر الذي حذرنا منه. هل نحن خرجنا للنصر، لنقف في آخر الأمر مذهولين بكذاب عجوز يقطر العسل من على لسانه المتشعب المخادع؟ هكذا سوف يتحدث الذئب الذي وقع في شرك الصياد إلى كلاب الصيد، إذا استطاع. ما المساعدة التي يمكنه أن يقدمها لك، في الواقع؟ إن كل ما يرغب فيه هو أن ينجو من محنته. هل ستتفاوض مع هذا المتورط في الخيانة والقتل؟ تذكر ثيودرد عند المخاضات، وقبر هام في وادي هيلم!»

وقال سارومان وقد كانت ومضة من غضبه واضحة الآن ويمكن رؤيتها: «إذا تحدثنا عن الألسنة المسمومة ماذا سنقول عن لسانك، أيتها الحية الصغيرة؟ ولكن على رسلك يا إيومر بن إيوموند!» وراح يتحدث بصوته الرقيق مرة أخرى: «لكل رجل دوره. الشجاعة في السلاح لك، وتفوز بشرف كبير نتيجة لذلك. اذبح من يقول مولاك إنهم أعداء، وكن راضيًا. لا تتدخل في السياسات التي لا تفهمها. ولكن ربما، إذا أصبحت ملكًا، فسوف تجد أنه يجب عليك اختيار أصدقائك بحرص. صداقة

سارومان وقوة أورثانك لا يمكن طرحها جانبًا في استخفاف، أيًّا كانت المظالم، حقيقية أو متخيلة، والتي تقع وراءها. لقد كسبت معركة ولكنك لم تكسب حربًا، وكان ذلك بمساعدة لا يمكنك الاعتماد عليها مرة أخرى. ربما تجد ظل الغابة عند باب دارك في المرة التالية؛ إنه متمرد صعب المراس، ولا يحس، ولا يحب البشر.

ولكن مولاي ملك روهان، هل سيُطلَقُ عليَّ اسم قاتل، لأن رجالاً شجعانًا سقطوا في المعركة؟ إذا ذهبت للحرب، بدون داع، لأنني لم أكن أرغب فيها، ففي هذه الحالة سيُذبح الرجال. ولكني إذا كنتُ قاتلاً لهذا السبب، فإن منزل إيومر، في هذه الحالة، ملطخ بالقتل؛ لأنهم خاضوا حروبًا كثيرة، وأغاروا بعنف على الكثيرين ممن تحدوهم. ولكن مع البعض تصالحوا بعد ذلك وعقدوا سلامًا، ليس لشيء سوى كونه سياسيًا. أقول، أيها الملك ثيودن، هل سننعم بالسلام والصداقة، أنت وأنا؟ إن علينا أن نسيطر على أنفسنا».

«سوف ننعم بالسلام». ـ قال ذلك ثيودن أخيرًا بصوت أجش وبكثير من الجهد. وصاح الكثير من الخيالة في فرح. ورفع ثيودن يده، وقال وكان صوته الآن واضحًا: «نعم، سوف ننعم بالسلام. سوف ننعم بالسلام، عندما تفنى أنت وجميع أعمالك وأعمال سيدك الشرير الذي ستسلمنا له. أنت كذاب يا سارومان ومفسد لقلوب الرجال. أنت تمد يدك لي، وأنا أرى فقط أصبعًا من مخلب موردور. وحشي وبارد! حتى ولو كانت حربك عليَّ عادلة؛ حيث إنها لم تكن؛ لأنك لو كنت حكيمًا بقدر عشرة أضعاف، فإنه لن يكون لك أي حق في أن تحكمني وعشيرتي لمصلحتك ومنفعتك أنت حسبما كنتَ ترغب، حتى والأمر كذلك، ماذا ستقول عن مشاعلك في ويستفولد والأطفال الذين يرقدون موتى هناك؟ وقد قطعوا جسد هاما أمام بوابات هورنبرج، بعد أن مات. عندما تتعلق من مشنقة في نافذتك تنهشك غربانك، فإنني سوف أعقد سلامًا معك ومع أورثانك. كثير جدًا بالنسبة لمنزل إيورل. أنا ابن صغير أقل شأنًا لآباء عظام، ولكني لستُ بحاجة لأن ألعق أصابعك. اتجه إلى أي مكان آخر. ولكني أخشى أن صوتك قد فقد سحره وفتنته».

وحدق الخيالة لأعلى في ثيودن مثل رجال فزعوا من حلم. راح صوت سيدهم الأجش يدوي في آذانهم، مثل غراب عجوز في آذانهم بعد موسيقى سارومان. ولكن سارومان لوقت قصير كان إلى جواره وكله حنق. واتكأ على الحاجز كما لو كان سيضرب الملك بقوة بعصاه. وبدا للبعض فجأة أنهم رأوا ثعبانًا يلف نفسه ليضرب.

وجاء صوته وله هسيس وهو يقول: «مشنقة وغربان»، وانتابتهم رعدة من هذا التغيير البشع. «عجوز خرف! ما منزل إيورلف سوى حظيرة مسقوفة بالقش حيث يشرب اللصوص وقطاع الطرق الدخان، ويتدحرج أطفالهم على الأرض بين الكلاب!

لقد نجوا هم أنفسهم من المشنقة طويلاً أكثر من اللازم. ولكن الأنشوطة تأتي، بطيئة في الاقتراب، ضيقة وصعبة في النهاية. اشنق إذا أردت!» والآن تغير صوته، وهو يسيطر على نفسه ببطء. «لا أدري لماذا صبرت حتى أتحدث معكم.،لأنني لا أحتاج إليكم، ولا إلى مجموعة العدائين لديكم الذين يطيرون سريعًا مثلما يتقدمون، يا ثيودن يا سيد الخيل. منذ زمن طويل عرضتُ عليك وضعًا فوق ما تستحق وفوق ذكائك. وقد عرضته مرة أخرى، حتى يستطيع أن يرى بوضوح أولئك الذين أضللتَهم خيار الطرق. إنك تعطيني تفاخرًا وسوء معاملة. ليكن ذلك. عد إلى أكواخك!».

«ولكنك أنت يا جندلف! إنني حزين على الأقل من أجلك، أحس بخزيك. أنى لك أن تحتمل هذه الصحبة؟ لأنك فخور، يا جندلف ـ وليس بدون سبب، حيث إن لديك عقلاً نبيلاً وعيونًا عميقة وبعيدة. حتى في الوقت الحالي لن تنصت إلى نصيحتي؟».

وتحرك جندلف، ونظر إلى أعلى، وسأل: «ماذا لديك لتقوله لم تقله في اجتماعنا الأخير؟ أو ربما لديك أشياء تتراجع عن قولها؟».

وتوقف سارومان، وراح يقول في استغراق وتفكير كما لو كان متحيرًا: «تتراجع عن قولها؟ تتراجع عن قولها؟ لقد حاولتُ نصحك لمصلحتك أنت، ولكنك نادرًا ما كنت تصغي. أنت متكبر ولا تحب النصيحة، حيث إن لديك في واقع الأمر مخزونك الخاص بك من الحكمة. ولكن في هذا الأمر أخطأتَ، في رأيي، مفهمرًا نواياي تفسيرًا خاطئًا عن عمد. أخشى في لهفتي لإقناعك، أنني فقدتُ صبري. وحقًا أندم على هذا. لأنني لا أحمل لك أي ضغينة؛ وحتى في ذلك الوقت لا أضمر لك ضغينة، على الرغم من أنك تعود إليّ في صحبة عنيفة وجاهلة. أنى لي ذلك؟ ألسنا نحن الاثنان عضوين في رتبة راقية وقديمة، وهي الأكثر تميزًا في الأرض الوسطى؟ إن صداقتنا ستفيدنا نحن الاثنين على السواء. سوف يكون بإمكاننا أن نحقق الكثير معًا، أن نعالج الاضطرابات في العالم. دعنا يفهم كل منا الآخر، ونطرد من فكرنا القوم الأقل شأنًا! دعهم ينتظروا قراراتنا! للصالح العام فإنني على استعداد لإصلاح وتقويم الماضي، وأن أستقبلك. ألن تتشاور معي؟ ألن تأتي؟».

لقد كانت قوة سارومان التي بذلها في هذه المحاولة الأخيرة عظيمة للغاية لدرجة أنه لم يكن أي شخص ممن كانوا في نطاق السمع قد تأثر. ولكن الآن كانت التعويذة مختلفة تمامًا. لقد سمعوا الاحتجاج اللطيف لملك لطيف مع وزير مخطئ ولكنه محبوب حبًا جمًا. ولكنهم كانوا قد حجبوا، ينصتون على الباب إلى كلمات لم تكن موجهة لهم؛ أطفال سيئو الطباع أو خدم أغبياء يسترقون السمع إلى حديث كبارهم المراوغ، ويتساءلون كيف سيؤثر على جماعتهم. لقد صنع هذان الاثنان من مادة أكثر سموًا؛ مبجلين وحكماء. كان حتمًا أنهما يتحدان. سوف يصعد جندلف إلى البرج ليناقش أشياء عميقة

تقع وراء؛ فهمهم في غرف أورثانك العالية. سوف يُغلق البابُ، وسوف يُتركون بالخارج، مبعدين لينتظروا العمل الموزع عليهم أو العقاب. حتى في عقل ثيودن تشكلت هذه الفكرة، مثل ظل الشك: «سوف يخوننا؛ سوف يذهب ـ سوف نضيع».

عندئذ ضحك جندلف. وتلاشى الوهم مثل هبة من دخان.

وقال جندلف وهو لا يزال يضحك: «سارومان، سارومان! سارومان، لقد ضللتَ طريقك في الحياة. كان ينبغي أن تكون مهرج الملك وتكسب قوتك، وتنال الضرب أيضًا، وذلك بتقليد مستشاريه. آه يا أنا!» وتوقف وهو يُخضع مرحه وطربه. «يفهم كل منا الآخر؟ أخشى أنني وراء فهمك. ولكنك أنت، يا سارومان، أفهمك الآن جيدًا للغاية. إنني أحتفظ بذاكرة أكثر وضوحًا لنقاشاتك وأعمالك مما تفترض. عندما زرتك آخر مرة، كنتَ سجان موردر، وهناك كان سيتم إرسالي. كلا، الضيف الذي هرب من السقف، سوف يفكر مرتين قبل أن يعود ويدخل من الباب. كلا، إنني لا أعتقد أنني سوف أصعد وآتي إليك. ولكن أنصت يا سارومان للمرة الأخيرة! ألن تنزل؟ لقد ثبت أن آيزنجارد أضعف مما جعلها أملك وخيالك. وكذلك قد تكون أشياء أخرى لا تزال تثق فيها. ألن يكون من المقبول والجيد أن تتركها بعض الوقت؟ لتتحول إلى أشياء جديدة، ربما؟ فكر جيدًا يا سارومان! ألن تنزل؟».

ومر ظل على وجه سارومان؛ وبعد ذلك صار شاحبًا شحوب الموت. وقبل أن يستطيع إخفاءه، فإنهم رأوا خلال القناع عذاب عقل يحيا في شك، كارهًا أن يبقى وخائفًا أن يغادر ملاذه. وتردد ثانية، ولم يتنفس أحد. وبعد ذلك تحدث. وكان صوته صاخبًا وباردًا. كان الكبرياء والكراهية تغلبانه.

وقال ساخرًا: «هل سأنزل؟ هل ينزل رجل غير مسلح ليتحدث مع اللصوص خارج الأبواب؟ يمكنني أن أسمعكم جيدًا بالشكل الكافي هنا. إنني لست أحمق، ولا أثق فيك، يا جندلف. إنهم لا يقفون صراحة على سلالمي، ولكني أعرف أين يختبئ عفاريت الغابة الجامحون، بناء على أمرك».

وأجابه جندلف بضجر: «الخائنون دائمون مرتابون قليلو الثقة. ولكنك لست بحاجة إلى أن تخشى على حياتك. إنني لا أريد قتلك، أو إيذاءك، كما تعرف، لو أنك كنت قد فهمتني حقًا. ولدي القوة لحمايتك. إنني أمنحك فرصة أخيرة. يمكنك مغادرة أورثانك، حرًا ـ إذا اخترتَ ذلك».

وقال سارومان في سخرية: «يبدو ذلك جيدًا. على طريقة جندلف الأشيب بشكل كبير جدًا: منتهى التعطف واللطف، وغاية الشفقة والود. إنني لا أشك أنك ستجد أورثانك ملائمة، ومغادرتي مريحة. ولكن لماذا أرغب في أن أغادر؟ وما الذي تعنيه بقولك «حرًا»؟ هناك شروط، فيما أفترض؟».

وأجابه جندلف قائلاً: «للمغادرة أسباب يمكنك رؤيتها من نوافذك. وأسباب أخرى سوف تحدث لفكرك. لقد دُمر خدامك وتبعثروا؛ جيرانك جعلتهم أنت أعداءك؛ وقد خنتَ سيدك الجديد، أو حاولت أن تفعل ذلك. عندما تلتفت عينه إلى هنا، فإنك ستكون عين الغضب الحمراء. ولكن عندما أقول «حرًا»، فإنني أقصد بـ «حرًا» حرًا من أي قيد، من أي سلاسل أو من أي أمر: لتذهب حيثما تريد، حتى، حتى إلى موردور، يا سارومان، إذا كنتَ تريد. ولكنك سوف تعطيني أولاً مفتاح أورثانك، وعصاك. سوف يكونان رهنين لحسن سلوكك، على أن يتم ردهما في وقت لاحق، إذا أنت كنت جديرًا بهما».

أصبح وجه سارومان شاحبًا، ملتويًا من الغضب، وكان هناك ضوء أحمر يتوهج في عينيه. وراح يضحك في جنون، وصاح «في وقت لاحق» وارتفع صوته إلى الصراخ «في وقت لاحق! نعم، عندما يكون معك أيضًا مفاتيح براد دُور نفسها، فيما أفترض؛ وتيجان سبعة ملوك، وعصى السحرة الخمسة، وتكون قد اشتريت لنفسك حذاء أكبر من الذي تلبسه الآن بمقاسات كثيرة. خطة متواضعة. لا تكاد تكون هناك حاجة إلى مساعدة مني في واحدة منها! لدي أشياء أخرى يجب أن أفعلها. لا تكن أحمق. إذا كنتَ ترغب في التعامل معي، مادامت الفرصة سانحة، امض بعيدًا، وعد عندما تكون معتدلاً غير ثمل! واترك هؤلاء السفاحين الشُعثِ الذين يتبعونك في ذيلك! طاب يومك!» واستدار وترك البلكونة.

وقال جندلف في صوت آخر: «عُد يا سارومان!» ولدهشة الآخرين، استدار سارومان مرة أخرى، كما لو كان مسحوبًا ضد رغبته، جاء بطيئًا عائدًا إلى الحاجز الحديدي، متكئًا عليه، يتنفس بصعوبة. كان وجهه مغضنًا ومنكمشًا. كانت يده تقبض على عصاه السوداء الثقيلة مثل مخلب.

وقال جندلف في صرامة: «إنني لم آذن لك بالانصراف. إنني لم أنته. لقد أصبحتَ أحمق يا سارومان ومع ذلك يرثى لك. ربما كان لا يزال بإمكانك أن تبعد عن الحماقة والشر، وتكون ذا فائدة ونفع. ولكنك اخترت أن تبقى وتقرض نهايات خططك القديمة. لتبق إذن! ولكني أحذرك، إنك لن تخرج مرة أخرى بسهولة. ليس إلى أن تمتد أيدي الشرق الشريرة لتأخذك. سارومان!» قالها صائحًا وزاد صوته قوة وسلطة. «انظر، أنا لستُ جندلف الأشيب الذي خنته وخدعته. أنا جندلف الأبيض، والذي عاد من الموت. ليس لك لون الآن، وإنني أطرد من الرتبة ومن المجلس».

ورفع يده، وراح يتحدث ببطء في صوت واضح بارد: «سارومان، لقد كُسرت عصاك». وكان هناك صوت شرخ وانقسمت العصا إرْبًا في يد سارومان، وسقط رَأسها عند قدمي جندلف. وقال له جندلف: «اذهب!». وبصرخة سقط سارومان على ظهره وراح يحبو بعيدًا. في تلك اللحظة جاء شيء ثقيل ساطع يندفع لأسفل قادمًا من أعلى.

وطاش عن الحاجز الحديدي، بينما كان سارومان يتركه، ومر قريبًا جدًّا من رأس جندلف، وضرب بقوة درجة السلم التي كان يقف عليها. ودوى صوت الحاجز وطقطق. وشرخت درجة السلم وتناثرت في شظايا متوهجة. ولكن الكرة لم تصب بأي ضرر؛ راحت تتدحرج نازلة درجات السلم، كرة من البلور، مظلمة، ولكنها كانت متوهجة بقلب من نار. وبينما كانت تثب بعيدًا باتجاه حوض للمياه، انطلق بيبين وراءها والتقطها.

وصاح إيومر: «الوغد السفاح!» ولكن جندلف كان هادئًا لا مباليًا، وقال: «كلا، لم يكن الذي رمى هذه سارومان، ولا حتى ألقى بها بناء على أمر منها، في اعتقادي. لقد جاءت من نافذة بعيدة فوقنا. رمية فراق من سيدي وورمتونج، حسب تصوري، ولكن كانت سيئة التصويب».

وقال أراجورن: «كان التصويب سيئًا، ربما؛ لأنه لم يستطع أن يقرر من الذي يكره أكثر، أنت أم سارومان».

وقال جندلف: «قد يكون الأمر كذلك. سوف يجد هذان الاثنان راحة صغيرة في صحبتهما معًا: سوف يزعجان بعضهما بالكلمات. ولكن العقوبة عادلة. إذا حدث وخرج وورمتونج من أورثانك حيًّا، فإن ذلك سيكون أكثر مما يستحق».

«الآن، سوف آخذ هذه، يا ولدي! إنني لم أطلب منكم التعامل معها» ـ صاح بهذه الكلمات، وهو يدور بحدة ورأى بيبين يأتي صاعدًا السلم، ببطء، كما لو كان يحمل وزنًا عظيمًا. وذهب نازلاً ليقابله وبسرعة أخذ الكرة السوداء من الهوبيتي، ولفها في طيات معطفه، وقال: «سوف أتولى أمر هذه. إنها ليست شيئًا، في ظني، كان سارومان سيختار أن يلقي به».

وقال جيملي: «ولكن قد يكون معه أشياء أخرى سوف يرمي بها. إذا كانت هذه هي نهاية الحوار، هيا بنا نخرج من مرمى الحجر، على الأقل!».

وقال جندلف: «إنها النهاية. هيا بنا نمض».

وأداروا ظهورهم لأبواب أورثانك، وذهبوا نازلين. وحيا الخيالة الملك في فرح، وحيوا جندلف. لقد كُسرت تعويذة سارومان: لقد رأوه يأتي بناء على النداء، ويحبو بعيدًا، مطرودًا.

وقال جيملي: «حسنًا، لقد انتهى هذا الأمر. والآن يجب علي أن أعثر على تريبرد وأخبره كيف مضت الأشياء».

فقال ميري: «سوف يكون قد خمن الأمر، بكل تأكيد، فهل كان من المحتمل أن تنتهي الأشياء في أي طريق آخر؟».

وأجابه جندلف بقوله: «ليس من المحتمل، على الرغم من أنها أتت متوازنة «على

شعرة». ولكن كان لدي أسبابي في المحاولة: بعضها رحيم وبعضها أقل رحمة. أولاً أُثبت لسارومان أن قوة صوته كانت تضعف. لا يمكنه أن يكون طاغية ومستشارًا على السواء. عندما تكتمل الخطة فإنها لا تظل سرًا. ولكنه سقط في المصيدة، وحاول التعامل مع ضحاياه تدريجيًا، بينما كان الآخرون ينصتون. بعد ذلك أعطيته اختيارًا أخيرًا وكان اختيارًا عادلاً؛ أن يتخلى عن كل من موردور وعن خططه الخاصة، ويصلح الأمور بمساعدتنا في حاجتنا. إنه يعرف حاجتنا، أفضل من أي شخص آخر. لقد كان سيقدم لنا خدمة عظيمة. ولكنه اختار أن يحتفظ بها لنفسه، ويحتفظ بقوة أورثانك. إنه لن يخدم، فقط سيأمر. إنه يعيش حاليًا في رعب من ظل موردور، ومع ذلك لا يزال يحلم بركوب العاصفة. أحمق تعس! سوف يتم التهامه، لو أن قوة الشرق مدت أذرعها إلى آيزنجارد. لا يمكننا تدمير أورثانك من الخارج، ولكن سارومان ـ الذي يعرف ما الذي يستطيع أن يفعله؟».

وسأل بيبين: «ولكن ماذا لو أن سارومان لم ينتصر؟ ما الذي ستفعله معه؟».

فقال جندلف: «أنا؟ لا شيء؟ لن أفعل شيئًا له. إنني لا أرغب في السيادة. ما الذي سيحل به؟ لا يمكنني القول. إنني حزين أن كثيرًا جدًا مما كان جيدًا يفسد حاليًا في البرج. لا تزال الأشياء بالنسبة لنا لم تصبح سيئة. غريبة هي دورات الحظ! كثيرًا جدًا ما تؤذي الكراهية نفسها! إنني أظن، حتى لو أننا كنا قد دخلناها، كنا سنجد بعض كنوز قليلة في أورثانك ثمينة أكثر من الشيء الذي ألقاه وورمتونج علينا».

صرخة حادة، انقطعت فجأة، جاءت من نافذة مفتوحة عالية فوقهم. وقال جندلف: «يبدو أن سارومان يظن ذلك أيضًا. دعونا نتركهم!».

وعادوا الآن إلى أطلال البوابات. لم يكادوا يعبرون تحت القنطرة، حتى ـ من بين ظلال الحجارة المكومة حيث كانوا يقفون، جاء تريبرد وستة آخرون من الإنتيين يمشون بخطى واسعة. وراح أراجورن وجيملي وليجولاس يحدقون فيهم في ذهول.

وقال جندلف: هؤلاء ثلاثة من رفاقي، يا تريبرد. لقد تحدثتُ عنهم، ولكنك لم تكن قد رأيتهم بعد». وراح يسميهم واحدًا واحدًا.

ونظر الإنتى العجوز إليهم طويلاً وفي تدقيق، وتحدثت معهم كل في دوره. وأخيرًا اتجه إلى ليجولاس. «وهكذا فقد جئتَ مباشرة من غابة ميركوود، يا عزيزي الجني؟ غابة عظيمة جدًا كانت في الماضي!».

وقال ليجولاس: «ولا تزال كذلك. ولكنها ليست عظيمة جدًا لدرجة أننا نحن الذين نعيش هناك، لا نمل أبدًا من رؤية أشجار جديدة. إنني أحب حبًا شديدًا أن أسير في غابة فانجورن. نادرًا ما مررتُ فيما وراء حدودها، ولم أتمن أن أعود».

وتوهجت عينا تريبرد بالسرور، وقال: «أتمنى أن تنال ما تتمنى، قبل أن تصبح التلال أكبر عمرًا».

وقال ليجولاس: «سوف آتي إذا حالفني الحظ. لقد عقدتُ صفقة مع صديقي أنه إذا سار كل شيء على ما يرام، فسوف نزور فانجورن معًا ـ بعد إذنك».

وقال تريبرد: «أي جني يأتي معك سيكون على الرحب والسعة».

فقال ليجولاس: «الصديق الذي أتحدث عنه ليس جنيًا. إنني أقصد جيملي، ابن جولين هنا». وانحنى جيملي كثيرًا، وسقطت البلطة من حزامه وأحدثت صليلاً على الأرض.

وقال تريبرد وهو ينظر إليه بعينين سوداوين: «هُووم، هم! آه، الآن. قزم وحامل بلطة! هُووم! إن لدي شعورًا وديًا تجاه الجن؛ ولكنك تطلب الكثير. إنها صداقة غريبة!».

فقال ليجولاس: «قد تبدو غريبة، ولكن مادام جيملي حيًا فإنني لن آتي إلى فانجورن بمفردي. إن بلطته ليست للأشجار، ولكن لأعناق الأوركيين، يا فانجورن، سيد غابة فانجورن. لقد قطع رقاب اثنين وأربعين في المعركة».

وقال تريبرد: «هُوو! هيا الآن! هذه قصة فُضْلَى! حسنًا، حسنًا، حسنًا، سوف تسير الأمور حسبما تسير؛ وليست هناك حاجة إلى الإسراع بمقابلتها. ولكن الآن يجب أن نفترق بعض الوقت. النهار يقترب من نهايته، ولكن جندلف يقول يجب أن تذهبوا قبل أن يحل الليل، وملك المارك متلهف على منزله».

فقال جندلف: «نعم، يجب أن نذهب، ونذهب الآن. أخشى أنه يجب علي أن آخذ حراس بواباتك منك. ولكنك ستسير على ما يرام بدونهم».

فقال تريبرد: «ربما سأكون كذلك. ولكني سأفتقدهم. لقد أصبحنا أصدقاء في فترة قصيرة للغاية لدرجة أنني أعتقد أنني قد أصبحتُ متعجلًا، سريعًا أنمو للوراء باتجاه الشباب، ربما. ولكن هناك، هم الشيء الأول الجديد تحت الشمس أو القمر رأيته لأيام كثيرة طويلة طويلة. إنني لن أنساهم. لقد وضعت أسماءهم في القائمة الطويلة. سوف يتذكرها الإنتيون.

الإنتيون من أصل أرضي، كبار مثل الجبال،
ذوو الخطوات الواسعة، شاربو المياه؛
وجائعون مثل الصيادين، الأطفال الهوبيتون،
القوم الضاحكون، الأناس الصغار.

سوف يظلون أصدقاء مادامتِ الأوراق تتجدد. الوداع! ولكن إذا سمعتم أخبارًا في أرضكمْ الطيبة، في المقاطعة، فأرسلوا لي رسالةً! تعرفون ما أقصد؛ رسالة أو منظرًا للزوجات الإنتيات. تعالوا بأنفسكم إذا استطعتم!».

فقال ميري وبيبين معًا: «سوف نفعل!» وداروا بعيدًا في عجلة. ونظر تريبرد إليهما، ولاذ بالصمت بعض الوقت، وهو يهز رأسه في استغراق في التفكير. وبعد ذلك التفت إلى جندلف، وقال:

«وهكذا فإن سارومان لن يغادر، لم أكن أعتقد أنه سيفعل. إن قلبه متعفن مثل قلب هورني أسود. ومع ذلك، لو أنني كنتُ قد غُلبتُ وكانت كل أشجاري قد دُمرت، فإنني لم أكن سآتي مادامت هناك حفرة مظلمة واحدة باقية أختبئ فيها».

فقال جندلف: «كلا. ولكنك لم تخطط أن تغطي العالم كله بأشجارك وتخنق كل الكائنات الحية. ولكن ها هو الأمر، يظل سارومان يرعى كراهيته ويقوم مرة أخرى بنسج الشباك قدر ما يستطيع. إن لديه مفتاح أورثانك. ولكن يجب ألا يُسمح له بالهرب».

فقال تريبرد: «حقًّا لا ينبغي! سوف يتعهد الإنتيون بذلك. لن يضع سارومان قدمًا خارج الصخرة، بدون إذن مني. سوف يقوم الإنتيون بمراقبته».

وقال جندلف: «جيد! هذا ما كنتُ آمل فيه. والآن يمكنني الذهاب والالتفات إلى أمور أخرى مع قليل من العناية. ولكن يجب أن تكون حذرًا. لقد غارت المياه. لن أكون كافيًا بحيث أضع الحراس حول البرج، إنني أخشى. لا أشك أنه كانت هناك طرق عميقة محفورة تحت أورثانك، وأن سارومان يأمل في الذهاب والمجيء دون أن يلحظه أحد، قبل أن يمضي وقت طويل. إذا كنت ستطلع بالعمل، فإنني أرجوك أن تصب الماء مرة أخرى؛ وأن تفعل ذلك حتى تظل آيزنجارد حوض ماء راكد، أو تكتشف المنافذ. عندما تغرق جميع الأماكن تحت الأرض، وتسد جميع المنافذ، عندئذ يجب أن يبقى سارومان في الأدوار العليا وينظر من النوافذ».

وقال تريبرد: «اترك ذلك للإنتيين! سوف نفتش الوادي من أقصاه إلى أقصاه وننظر تحت كل حصاة. الأشجار تعود لتعيش هنا، الأشجار العجوز، الأشجار البرية. سوف نسميها أشجار المراقبة. لن يذهب إلى هنا حتى سنجاب دون أن أعلم به. اترك الأمر للإنتيين! حتى تمضي سنوات سبع أضعاف السنوات التي عذبنا فيها، لن نتعب من مراقبته».

الفصل الحادي عشر
حجر بالانتير

كانت الشمس تغرب وراء ذراع الجبال الغربية الطويلة عندما بدأ جندلف ورفاقه، والملك مع خيالته، رحلتهم مرة أخرى من آيزنجارد. وأخذ جندلف ميري وراءه، وأخذ أراجورن بيبين. ذهب اثنان من رجال الملك في المقدمة، يسيران بسرعة كبيرة، وسريعًا اختفيا عن الأنظار هابطين إلى التل. وتبعهما الآخرون بسرعة هينة.

وقف الإنتيون في صف رزين وقور مثل التماثيل عند البوابة، وأذرعهم الطويلة مرفوعة عاليًا، ولكن لم يصدر عنهم أي صوت. ونظر ميري وبيبين إلى الوراء، عندما كانوا قد مشوا في بعض الطريق هابطين الطريق المتعرج. كان ضوء الشمس لا يزال يسطع في السماء، ولكن الظلال الطويلة كانت تصل إلى آيزنجارد؛ أطلال رمادية تنتهي في الظلام. كان تريبرد يقف وحيدًا هناك الآن، مثل جذع شجرة عجوز بعيدة: فكر الهوبيتيان في اجتماعهما الأول، على الرف الصخري المشمس بعيدًا على حدود فانجورن.

ووصلوا إلى عمود اليد البيضاء. كان العمود لا يزال واقفًا، ولكن اليد المنحوتة رميت وكسرت إلى قطع صغيرة. وفي وسط الطريق مباشرة كان يرقد إصبع السبابة، أبيض في الغسق، وكان ظفره الأحمر يظلم حتى يصير أسود.

وقال جندلف: «الإنتيون يعيرون انتباهًا لكل تفصيلة!».

وواصلوا سيرهم، وازداد المساء عمقًا في الوادي.

وسأل ميري بعد وقت قصير: «هل سنسير بعيدًا الليلة، يا جندلف؟ لا أعرف كيف تشعر بالنسبة للشخص الأشعث الذي يتدلى وراءك؛ ولكن الشخص الأشعث تعب وسوف يكون مسرورًا أو يتوقف عن التدلي وراءك ويرقد بعض الشيء».

فقال جندلف: «إذن فأنت سمعت ذلك؟ لا تدعه يعتمل في ذهنك! لتكن ممتنًا أن الكلمات لم تعد موجهة إليك. كانت عيناه تقعان عليك. إذا كان في ذلك أي راحة لكبريائك، فإنني أقول ذلك، في هذه اللحظة، أنت وبيبين في فكره أكثر من كل الباقين منا. من أنتما؟ كيف جئتما إلى هنا؟ ولماذا؟ ماذا تعرفان؟ وما إذا كنتما قد أسرتما؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف هربتما في حين هلك جميع الأوركيين؟ إن هذه الألغاز الصغيرة هي التي تشغل عقل سارومان العظيم. إن قولاً ساخرًا منه، يا مريادوك، مديح وإطراء، إذا كنتَ تشعر بأن اهتمامه يشرفك».

فقال ميري: «أشكرك! لكنه شرف أعظم أن أكون وراءك، يا جندلف. وذلك لشيء واحد، في ذلك الوضع يكون لديَّ الفرصة أن أسأل سؤالاً للمرة الثانية: هل سنسير بعيدًا الليلة؟».

وضحك جندلف. «أكثر هوبيتي لا يمكن كبحه! إن جميع السحرة ينبغي أن يكون معهم هوبيتي أو اثنان في رعايتهم؛ ليعلموهم معنى الكلمة، وليصوبوهم. أستميحك عذرًا. ولكني قد فكرت حتى في هذه الأمور البسيطة. سوف نسير لمسافة ساعات قليلة، برفق، حتى نصل إلى نهاية الوادي. غدًا يجب علينا أن نسير بسرعة أكبر.

«عندما جئنا، كنا نقصد أن نذهب مباشرة من آيزنجارد عائدين إلى منزل الملك في إدوراس فوق السهول، مسيرة بعض الأيام. ولكننا فكرنا وغيرنا الخطة. لقد ذهب الرسل أمامنا إلى وادي هيلم، ليحذروهم من أن الملك سيعود غدًا. سوف يسير من هناك مع الكثير من الرجال إلى دانهارو خلال ممرات بين التلال. ومن الآن فصاعدًا لن يذهب أكثر من اثنين أو ثلاثة معًا على نحو صريح فوق الأرض، بالليل أو النهار، عندما يمكن تفادي ذلك».

فقال ميري: «لا شيء أو مساعدة مزدوجة هو طريقك! أخشى أنني لم أكن أنظر وراء نوم الليلة. أين وما هو وادي هيلم وكل ما تبقى مما قلت. إنني لا أعرف أي شيء عن هذا البلد».

«إذن من الأفضل أن تتعلم بعض الشيء، إذا كنت تريد أن تفهم ما يجري. ولكن ليس الآن فحسب، وليس مني؛ فلدي الكثير من الأمور الملحة لأفكر فيها».

«حسنًا، سوف أحدث سترايدار عند نار المخيم؛ إنه نزق بدرجة أقل. ولكن لماذا كل هذه السرية؟ اعتقدت أننا قد كسبنا المعركة!».

«نعم، لقد فزنا، ولكن النصر الأول فقط، وهذا في نفسه يزيد من خطرنا. كانت هناك صلة ما بين آيزنجارد وموردور، لم أسبر غورها بعد. كيف كانوا يتبادلون الأخبار لست متأكدًا من ذلك؛ ولكنهم كانوا يفعلون ذلك. إن عين براد دور سوف تنظر بنفاد صبر باتجاه وادي الساحر، في اعتقادي؛ وباتجاه روهان. وكلما قل ما تراه كان أفضل».

ومر الطريق بطيئًا، يتعرج هابطًا عبر الوادي. راح آيزن يتدفق في بعض الأحيان أكثر بعدًا، وفي أحيان أخرى أكثر قربًا في قاعه الصخري. وحل الليل من الجبال. وانقشعت جميع السُدم. وهبت ريح باردة. راح القمر ـ بعد أن أصبح هلالاً ـ يملأ السماء الشرقية ببريق بارد شاحب. راحت أكتاف الجبل إلى يمينهم تنحدر هابطة لتصبح تلالاً جرداء. وانفتحت السهول الشاسعة رمادية أمامهم.

وأخيرًا توقفوا؛ وبعد ذلك داروا جانبًا، تاركين الطريق الرئيسي متجهين إلى المروج المرتفعة الجميلة مرة أخرى. ولما ساروا مسافة قرابة الميل باتجاه الغرب وصلوا إلى واد. كان يفتح باتجاه الجنوب، ويميل للوراء إلى منحدر دُول باران الدائري، التل الأخير من السلاسل الشمالية، ذات السفوح الخضراء، المتوجة بنبات الخلنج. كانت جنبات الوادي الصغير المنحدر شعثاء بسرخس السنة الماضية، والتي كانت بينه أوراق الربيع الملفوفة بإحكام قد طلعت من توها تشق الأرض حلوة الرائحة. كانت الأجمات الشوكية نامية بكثافة فوق الضفاف الواطئة، وتحتها صنعوا مخيمهم، قرابة الساعتين قبل منتصف الليل. أشعلوا نارًا في تجويف، إلى أسفل بين جذور شجرة زعرور بري، طويلة مثل الشجرة، مغضنة مع طول العمر، ولكن سليمة صحيحة في كل فرع. كانت البراعم منتفخة في كل طرف غصن.

تم وضع الحراس؛ اثنان في كل نوبة حراسة. أما الباقون، فبعد أن تناولوا عشاءهم، فقد لفوا أنفسهم في معطف وبطانية وراحوا في النوم. رقد الهوبتيان في زاوية مع أنفسهما فوق كومة من نبات السرخس القديمة. كان ميري نائمًا، بينما كان بيبين الآن قلقًا بشكل فضولي. راحت أخشاب السرخس تتكسر ويصدر لها حفيف، وهو يتلوى ويدور.

وسأل بيبين: «ما الخطب؟ هل أنت راقد على بيت نمل؟».

فرد عليه بيبين قائلاً: «كلا، ولكني لستُ مستريحًا. إنني أود أن أعرف كم مضى من الوقت منذ أن نمتُ في فراش؟».

وتثاءب ميري، وقال: «قم بإحصائها على أصابعك! ولكن يجب عليك أن تعرف كم مضى من الوقت منذ أن غادرنا لورين».

فقال بيبين: «أوه، هذا! أقصد سريرًا حقيقيًا في غرفة نوم».

فقال ميري: «حسنًا، ريفينديل إذن. ولكن يمكنني أن أنام في أي مكان هذه الليلة».

فقال له بيبين بصوت رقيق بعد وقفة طويلة: «أنت محظوظ يا ميري. لقد كنتَ تركب مع جندلف».

«حسنًا، وماذا عن ذلك؟».

«هل وصلتك أي أخبار أو أي معلومات منه؟».

«نعم، قدر كبير منها. أكثر من المعتاد. ولكنك سمعتها كلها أو معظمها؛ لقد كنتَ قريبًا، ولم نكن نتكلم سرًا. ولكن يمكنك الذهاب معه غدًا، إذا كنتَ تعتقد أنك تستطيع الحصول على المزيد منه، وإذا كان هو سيأخذك».

«هل يمكنني ذلك؟ جيد. ولكنه كتوم، أليس كذلك؟ لم يتغير على الإطلاق».

فقال ميري، وقد استيقظ قليلاً، وبدأ يتساءل عما كان يقلق رفيقه: «أوه، نعم، إنه

كذلك! لقد كبر، أو شيء ما من هذا القبيل. بالإمكان أن يكون أكثر لطفًا وأكثر قلقًا، وأكثر سعادة وأكثر وقارًا ورزانة من ذي قبل على السواء، في اعتقادي. لقد تغير؛ ولكن لم تتح لنا فرصة لنرى مدى ذلك التغيير، بعد. ولكن فكر في الجزء الأخير من ذلك الأمر مع سارومان! تذكر أن سارومان كان في وقت من الأوقات أرفع مرتبة من جندلف؛ رئيس المجلس، مهما قد يكون ذلك على وجه التحديد. لقد كان سارومان الأبيض. جندلف هو الأبيض الآن. جاء سارومان عندما طُلب منه ذلك، وأخذت منه عصاه؛ وبعد ذلك طلب منه بكل بساطة أن يذهب، وذهب!».

وواصل بيبين حديثه قائلاً: «حسنًا، لو كان جندلف قد تغير، فهو أكثر تكتمًا حينئذ من ذي قبل. تلك ـ الكرة الزجاجية، الآن. كان يبدو مسرورًا بشكل كبير بها. إنه يعرف أو يخمن شيئًا عنها. ولكن هل يخبرنا عن كنه ذلك؟ كلا، ولا حتى كلمة. ولكني التقطتها، وأنقذتها من أن تتدحرج وتنزل في حوض ماء. الآن، سوف آخذ هذه، يا ولدي، هذا كل شيء. أتمنى لو أعرف ما هي؟ لقد كانت ثقيلة جدًا جدًا». وانخفض صوت بيبين كثيرًا جدًا، كما لو كان يتحدث مع نفسه.

وقال ميري: «مرحبًا! إذن هذا هو ما يضايقك؟ الآن، يا بيبين يا ولدي، لا تنس قول جيلدور؛ العبارة التي كان سام يقتبسها: لا تتدخل في شئون السحرة؛ وذلك لأنهم دهاة ويغضبون سريعًا..».

فقال بيبين: «ولكن حياتنا كلها طوال شهور كانت تدخلًا في شئون السحرة. إنني أود الحصول على بعض المعلومات وكذلك بعض الخطر. إنني أرغب في نظرة على تلك الكرة».

فقال له ميري: «نم! سوف تحصل على معلومات كافية، عاجلاً أو آجلاً. يا عزيزي بيبين، لم يغلب أي توكي قط «براندياكي» في الفضول؛ ولكن هل هذا هو الوقت المناسب، إنني أسألك؟».

«حسنًا! ما الضرر في أن أخبرك ما أريده؛ نظرة على ذلك الحجر؟ أعرف أنه ليس بإمكاني ذلك، وجندلف العجوز يجلس عليه، مثل دجاجة على بيضة. ولكن لا يساعد كثيرًا أن أحصل منك على شيء سوى قولك: يا هذا لن تستطيع الحصول عليها، اذهب لتنم!».

فقال ميري: «حسنًا، ماذا غير ذلك عساي أن أقول؟ آسف يا بيبين، ولكن يجب عليك حقًا الانتظار حتى الصباح. سوف أكون فضوليًا مثلك بعد الإفطار وسوف أساعد بأي طريقة أستطيعها في الحصول على ذلك من الساحر بالتملق. ولكني لا أستطيع أن أظل مستيقظًا أكثر من ذلك. إذا أنا تثاءبت أكثر من ذلك، فسوف ينشق وجهي عند الأذنين. طابت ليلتك!».

ولم يتفوه بيبين بأكثرٍ من ذلك. ورقد ساكنًا الآن، ولكن النوم ظل بعيدًا؛ ولم يشجعه صوت ميري وهو يتنفس برفق، حيث راح في النوم في دقائق قليلة بعد أن قال طابت ليلتك. وبدت فكرة الكرة السوداء تصبح أكثر قوة بينما أصبح كل شيء هادئًا. وأحس بيبين مرة أخرى بثقلها في يدها، ورأى مرة أخرى الأعماق الحمراء الغامضة التي نظر فيها للحظة. وتقلب ودار وحاول أن يفكر في أي شيء آخر.

وأخيرًا لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك. نهض من مكانه ونظر حوله. كان الجو شديد البرودة، ولف نفسه بمعطف حوله. كان القمر يسطع باردًا وأبيض، إلى أسفل إلى الوهدة، وكانت ظلال الأجمات مظلمة. كانت ترقد في كل مكان حوله أشكال نائمة. لم يكن الحارسان في مجال الرؤية؛ كانا عاليين فوق التل، ربما، أو مختبئين في شجر السرخس. ومشى بيبين بخفة ـ يدفعه دافع لم يستطع أن يفهمه ـ إلى حيث كان يرقد جندلف. ونظر إليه. كان الساحر يبدو نائمًا، ولكن جفنيه لم يكونا مغلقين تمامًا؛ كان هناك وميض في عينيه تحت أهدابه الطويلة. وقفز بيبين للوراء سريعًا. ولكن جندلف لم تصدر عنه أي حركةَ؛ وانسحب للأمام مرة أخرى، ضد إرادته تقريبًا، وراح الهوبيتي يزحف مرة أخرى من وراء رأس الساحر. كان ملفوفًا في بطانية، وكان معطفه منشورًا على قمة رأسه؛ وقريبًا إلى جواره، بين جانبه الأيمن وذراعه المحنية، كانت هناك رابية صغيرة، شيء دائري ملفوف في قطعة قماش؛ بدت يده قد تركتها تنسل منها على الأرض الآن فقط.

راح بيبين ـ وهو لا يكاد يتنفس ـ يزحف أكثر قربًا، قدمًا قدمًا. وأخيرًا انحنى راكعًا. بعد ذلك مد يديه في خلسة، وببطء رفع الكتلة عاليًا: لم تكن تبدو ثقيلة جدًا مثلما توقع. «ليست سوى حزمة من بقايا أشياء،.ربما، معْ كل ذلك» ـ هكذا فكر بينه وبين نفسه بشيء من الراحة والارتياح؛ ولكنه لم ينزل الحزمة مرة أخرى، ووقف لحظة ممسكًا بها. بعد ذلك جاءت إلى عقله فكرة. مشى بعيدًا على أطراف أصابعه، ووجد حجرًا كبيرًا، وعاد.

وسحب قطعة القماش الآن سريعًا، ولف الحجر فيها وانحنى ووضعها مرة أخرى في يد الساحر. وأخيرًا بعد ذلك نظر إلى الشيء الذي كان قد كشفه. وها هو ذا: كرة ملساء من البلور، الآن سوداء وجامدة، ترقد مكشوفة أمام ركبتيه. ورفعها بيبين، وغطاها سريعًا بمعطفه، والتفت في نصف استدارة ليعود إلى فراشه. في تلك اللحظة تحرك جندلف في نومه، وغمغم ببعض كلمات: بدت أنها بلغة غريبة؛ وراحت يده تتحسس وأمسكت بالحجر الملفوف، بعد ذلك تنهد ولم يتحرك مرة أخرى.

وغمغم بيبين لنفسه قائلًا: «أنت أيها الغبي الأحمق! سوف تورط نفسك في ورطة مخيفة. ضعها مكانها سريعًا!» ولكنه وجد الآن أن ركبتيه كانتا ترتجفان، ولم يجرؤ

على الذهاب قريبًا بما يكفي إلى الساحر ليصل إلى الصرة. وفكر بينه وبين نفسه قائلاً: «لن أعيدها أبدًا إلى مكانها الآن بدون أن أوقظه، ليس حتى أن أصبح أكثر هدوءًا قليلاً. وهكذا فربما ألقي نظرة أيضًا. ليس هنا تمامًا مع ذلك!» وانسل بعيدًا، وجلس على رابية صغيرة خضراء ليست بعيدة عن فراشه. وأطل القمر فوق حافة الوهدة.

وجلس بيبين ورجلاه منتصبتان والكرة بينهما. وانحنى فوقها، وقد بدا مثل طفل نهم ينحني على سلطانية من طعام، في ركن بعيدًا عن الآخرين. وألقى معطفه جانبًا وراح يحدق إليها. كان الهواء يبدو ساكنًا متوترًا من حوله. في البداية كانت الكرة مظلمة، سوداء مثل الكهرمان الأسود، ونور القمر يبزغ على سطحها. بعد ذلك جاء وهج خافت وحركة في وسطها، وتملكت عينيه، ولذلك فإنه لم يستطع أن ينظر بعيدًا. وفي الحال بدت من الداخل أنها تحترق؛ كانت الكرة تدور، أو الأضواء داخلها كانت تدور. وفجأة انطفأت الأضواء. وراح يلهث ويناضل؛ ولكنه ظل محنيًا، ممسكًا بالكرة بكلتا يديه. وراح ينحني أكثر وأكثر قربًا، وبعد ذلك أصبح متصلبًا؛ وراحت شفتاه تتحركان بلا صوت لبرهة. بعد ذلك وبصرخة مخنوقة وقع على ظهره ورقد ساكنًا.

كانت الصرخة ثاقبة. وقفز الحارسان هابطين من فوق الضفة. وفي الحال كان جميع المعسكر يتحرك.

وقال جندلف: «إذن فهذا هو اللص!» وفي عجالة ألقى بمعطفه على الكرة حيثما كانت ترقد. «ولكنك أنت يا بيبين! هذا تحول خطير في الأشياء!» وانحنى إلى جوار جسم بيبين: كان الهوبيتي يرقد على ظهره، متصلبًا، بعينين لا تريان شيئًا، وتحدقان إلى أعلى في السماء. «السحر والشعوذة! أي ضرر أحدثه لنفسه، ولنا جميعًا؟». وكان وجه الساحر مسحوبًا ومهزولاً.

وأخذ بيد بيبين وانحنى فوق وجهه، يتسمع صوت نفسه؛ بعد ذلك وضع يده على جبينه. وارتعش الهوبيتي. وأغلقت عيناه. وصاح؛ وجلس في مكانه، وراح يحدق في ذهول إلى جميع الوجوه من حوله، شاحبًا في نور القمر.

«إنها ليست لك يا سارومان!» صاح بذلك بصوت صاخب وبدون نبر، وهو ينكمش بعيدًا عن جندلف. «سوف أرسل في طلبها في الحال. هل تفهم؟ قل ذلك وحسب!» بعد ذلك جاهد ليقف ويهرب، ولكن جندلف أمسك به بلطف وإحكام، وقال:

«برجرين توك! عُد!»

واسترخى الهوبيتي ومال للوراء، متشبثًا بيد الساحر، وراح يصيح: «جندلف! جندلفي! سامحني!».

وقال الساحر: «أسامحك؟ أخبرني أولاً ما الذي فعلتَه!».

وقال بيبين متلعثمًا: «أنا، أنا أخذتُ الكرة ونظرتُ فيها، ورأيتُ أشياء أخافتني. وأردتُ أن أذهب بعيدًا، ولكني لم أستطع. وبعد ذلك جاء وراح يسألني؛ ونظر إلي، و، و، هذا كل ما أتذكره».

وقال جندلف في حدة: «هذا لن يفي بالغرض. ما الذي رأيته، وما الذي قلته؟».

وأغلق بيبين عينيه وارتعش، ولكنه لم يقل شيئًا. وراحوا جميعًا يحدقون إليه في صمت، باستثناء ميري الذي التفت بعيدًا. ولكن وجه جندلف كان لا يزال متصلبًا، وقال: «تكلم!».

وفي صوت منخفض متلعثم بدأ بيبين مرة أخرى، وببطء راحت كلماته تصبح أكثر وضوحًا وأقوى، وهو يقول:. «رأيتُ سماء مظلمة، وشرفات مفرجة عالية. ونجومًا بالغة الصغر. كان ذلك يبدو بعيدًا جدًا ومنذ زمن طويل، ولكن ثابتًا وواضحًا. بعدئذ راحت النجوم تختفي وتظهر ـ كانت تقطعها أشياء لها أجنحة كبيرة جدًا ـ في اعتقادي ـ ولكن في الزجاج بدت مثل خفافيش تدور حول البرج. أعتقد أن عددها كان تسعة. بدأ واحد منها يطير في خط مستقيم باتجاهي، وراح يصبح أكبر وأكبر. وكان له ـــ فظيع، كلا، كلا! لا أستطيع أن أقول.

«حاولتُ الهرب، لأنني ظننتُ أنه سيطير خارجًا؛ ولكن عندما غطى الكرة كلها، اختفى. بعد ذلك أتى هو. لم يتكلم بحيث أستطيع أن أسمع كلمات. كان ينظر وحسب، وفهمتُ».

«وهكذا فقد عدتَ؟ لماذا تجاهلت أن تنقل لي الأخبار لفترة طويلة جدًا؟».

«ولكني لم أجبه. وقال: «من أنت؟». ولم أجبه بعد، ولكن ذلك آذاني بشدة؛ وضغط عليَّ، ولذلك قلتُ: «هوبيتي».

«وعندئذ فجأة بدا أنه يراني، وضحك عليَّ. كان ذلك قاسيًا وحشيًا. كان مثل طعنة بسكاكين. وجاهدتُ. ولكنه قال: «انتظر لحظة! سوف نلتقي مرة أخرى قريبًا. أخبر سارومان أن هذا الطعام اللذيذ ليس له. سوف أرسل في طلبه في الحال. هل تفهم؟ قل ذلك وحسب!».

«بعد ذلك راح يحدق إليَّ طويلاً. شعرتُ أنني كنت أتساقط قطعًا. كلا، كلا! لا يمكنني أن أقول أكثر من ذلك. لا أتذكر أي شيء آخر».

فقال له جندلف: «انظر إليّ!»

ونظر بيبين إلى أعلى في عينيه مباشرة. وأمسك الساحر نظرته للحظة في صمت. بعد ذلك أصبح وجهه أكثر رفقًا ولطفًا، وظهر عليه ظل ابتسامة. ووضع يده برفق على رأس بيبين، وقال:

«حسنًا! لا تقل أكثر من ذلك! إنك لم تصب بأي أذى. ليس هناك أي كذب في عينيك،

حسبما كنتُ أخشى. ولكنه لم يتحدث طويلاً معك. أحمق، ولكن سوف تظل أحمق أمينًا، يا برجرين التووكي. الأشخاص الأكثر حكمة ربما كانوا قد تصرفوا بشكل أسوأ في هذه الحالة. ولكن انتبه لذلك! لقد تم إنقاذك، وكل أصدقائك أيضًا، في الأساس بالحظ الجيد، حسبما يُسمى. لا يمكنك الاعتماد على ذلك مرة ثانية. لو أنه كان قد سألك، في ذلك الزمان والمكان، لكنتَ على وجه التأكيد تقريبًا قد أخبرتَه بكل شيء تعرفه، الأمر الذي كان سيجلب علينا الدمار جميعًا. ولكنه كان متلهفًا أكثر من اللازم. لم يكن يريد معلومات فقط: إنه كان يريدك أنت، سريعًا، حتى يمكنه التعامل معك في برج الظلام، بطيئًا. لا ترتعش! إذا تدخلت في شئون السحرة، لا بد أن تكون مستعدًا للتفكير في تلك الأشياء. ولكن هيا! إنني أعفو عنك. لتسترح وتهدأ! لم تصبح الأشياء شريرة مثلما كان من الممكن أن تصير».

ورفع بيبين في رفق وحمله عائدًا إلى فراشه. وتبعه ميري، وجلس إلى جواره. وقال جندلف: «ارقد هنا واسترح، إذا استطعت، يا بيبين! ثق بي. إذا شعرتَ بلهفة في يدك مرة أخرى، فأخبرني بها! هذه الأشياء يمكن علاجها. ولكن على أية حال، لا تضع حجرًا تحت إبطي مرة أخرى! الآن، سوف أترككما معًا بعض الوقت».

وبهذه الكلمات عاد جندلف إلى الآخرين الذين كانوا لا يزالون واقفين إلى جوار صخرة أورثانك في فكر قلق مضطرب، وقال: «الخطر يأتي في الليلة التي يكون فيها أقل توقعًا. لقد نجونا بأعجوبة!».

وسأله أراجورن بقوله: «وكيف حال الهوبيتي، بيبين؟».

فأجابه جندلف قائلاً: «أعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام الآن. إنه لم يحتجز طويلاً، ولدى الهوبيتيين قوة هائلة في الاسترداد. الذكرى، أو رعب الذكرى، سوف يتلاشى سريعًا فيما يحتمل. سريعًا أكثر من اللازم، ربما. هلا أخذت يا أراجورن حجر أورثانك وقمت على حراسته؟ إنها مهمة خطيرة».

وقال له أراجورن: «إنها خطيرة حقًا، ولكن ليست على الجميع. هناك واحدة قد يكون لها الحق فيها أصلاً؛ لأن هذا بكل تأكيد حجر البالانتير من أورثانك من خزانة إلنديل، وضعها هنا ملوك جوندور. والآن تقترب ساعتي. سوف آخذه».

ونظر جندلف إلى أراجورن، وبعد ذلك، لدهشة الآخرين رفع الحجر المغطى وانحنى وهو يقدمه، وقال:

«لتأخذه يا مولاي! عربونًا لأشياء أخرى سوف تعاد لك. ولكن لعلي أشير عليك في استخدام ما يخصك، لا تستخدمه ـ بعد! كن على حذر!».

فقال أراجورن: «ومتى كنتُ متعجلاً أو غير حذر، ذلك الذي أنتظر وكان يجهز طوال سنين طويلة؟».

وأجابه جندلف قائلاً: «ليس بعد على الإطلاق. لا تتعثر إذن عند نهاية الطريق. ولكن على الأقل احتفظ بهذا الشيء سرًا. أنت، وجميع الآخرين الذين يقفون هنا! الهوبيتي برجرين فوق الجميع يجب ألا يعرف أي وضع. ربما تنتابه النوبة الشريرة مرة أخرى؛ لأنه بكل أسف! تعامل معه ونظر فيه، كما لا ينبغي أن يحدث على الإطلاق. يجب ألا يمسه في آيزنجارد، وهناك كان ينبغي عليَّ أن أكون أكثر سرعة. ولكن عقلي كان مركزًا على سارومان، ولم أخمن في الحال طبيعة الحجر. وقد كنتُ عندئذ مرهقًا، وبينما كنتُ أرقد أمعن التفكير والتدقيق فيه، غلبني النوم. الآن أعرف الأمر!».

ورد عليه أراجورن بقوله: «نعم، لا يمكن أن يكون هناك أي شك. أخيرًا نعرف الصلة بين آيزنجارد وموردور، وكيف كانت تسير. لقد استبان الكثير».

وقال ثيودن: «أعداؤنا لديهم قوى غريبة ونقاط ضعف غريبة! ولكن قيل منذ زمن طويل: «كثيرًا ما يفسد الشر الإرادة الشريرة».

وقال جندلف: «لقد رأى ذلك مرات كثيرة. ولكن في هذه المرة كنا محظوظين بشكل غريب. ربما، لقد أنقذني هذا الهوبيتي من زلة رهيبة. لقد فكرتُ في إمكانية فحص هذا الحجر بنفسي لأتعرف استعمالاته. لو أنني كنتُ قد فعلتُ ذلك، لكنتُ قد كُشفت أنا نفسي له. إنني لستُ جاهزًا لهذه التجربة، إذا كان لي أن أكون كذلك على الإطلاق. ولكن حتى لو وجدتُ القوة لأسحب نفسي، فسوف يكون كارثة بالنسبة له أن يراني، مع ذلك، حتى تحين الساعة عندما لا يكون للسرية أي جدوى».

فقال أراجورن: «هذه الساعة قد حانت الآن، في اعتقادي».

فقال جندلف: «ليس بعد. تظل هناك لحظة قصيرة من شك، والتي يجب أن نستخدمها. من الواضح أن العدو فكر أن الحجر كان في أورثانك ـ لماذا لا ينبغي عليه ذلك؟ وأن الهوبيتي بناء عليه كان أسيرًا هناك، دُفع للنظر في الزجاجة لتعذيبه من جانب سارومان. سوف يملأ العقل المظلم الشرير الآن بصوت ووجه الهوبيتي وبالتوقع؛ ربما استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يعلم خطأه. لا بد أن ننتزع ذلك الوقت. لقد كنا متروين أكثر من اللازم. لا بد أن نتحرك. إن مجاورة آيزنجارد ليست مكانًا للبقاء فيه الآن. سوف أتقدمكم في السير حالًا مع بيرجرين التوكي. سوف يكون من الأفضل بالنسبة له من الرقود في الظلام بينما ينام الآخرون».

وقال الملك: «سوف أحتفظ بإيومر وعشرة خيالة. سوف يسيرون معي في وقت مبكر من النهار. يمكن للباقين الذهاب مع أراجورن والسير بمجرد أن يجدوا الرغبة في ذلك».

وقال جندلف: «كما تشاء. ولكن أسرع بكل ما تستطيع من سرعة لتقطع التلال إلى وادي هيلم!».

وفي تلك اللحظة ألم به ظل. بدا نور القمر الساطع وقد انقطع فجأة. وصاح عدد من الخيالة، وجثموا على الأرض، ممسكين بأسلحتهم فوق رءوسهم، كما لو كانوا يدرءون عن أنفسهم ضربة من أعلى؛ خوف أعمى وبرد قاتل ألم بهم جميعًا. ونظروا إلى أعلى وهم جاثمون. مر فوق القمر مثل سحابة سوداء شكل مجنح كبير. ودار واتجه شمالاً، وهو يطير بسرعة أكبر من أي ريح في الأرض الوسطى. كانت النجوم خافتة أمامه. ومضى.

وقاموا واقفين، متصلبين كالحجارة. كان جندلف يحدق إلى أعلى، وذراعاه ممدودتان إلى الخارج ولأسفل، متصلبتان، ويداه مقبوضتان.

وصاح: «نازجول! رسول موردر. العاصفة قادمة. لقد عبر النازجول النهر! سيروا، سيروا! لا تنتظروا الفجر! لا تدعوا السريع ينتظر البطيء! سيروا!».

وانطلق بعيدًا، ينادي على شادوفاكس وهو يجري. وتبعه أراجورن. وذهب جندلف إلى بيبين، وأخذه بين ذراعيه، وقال له: «سوف تأتي معي هذه المرة. سوف يريك شادوفاكس سرعته». بعد ذلك جرى إلى المكان الذي كان قد نام فيه. ووقف شادوفاكس هناك بالفعل. وعلق الساحر الحقيبة الصغيرة التي كانت كل متاعه على كتفيه، وبعدها قفز على ظهر حصانه. ورفع أراجورن بيبين ووضعه بين ذراعي جندلف، وهو ملفوف في معطف وبطانية.

وصاح جندلف: «الوداع! اتبعوني سريعًا! بعيدًا، انطلق يا شادوفاكس!».

ورفع الحصان العظيم رأسه في حركة مفاجئة. وراح ذيله المنساب يومض في نور القمر. بعد ذلك قفز للأمام، وهو يطأ الأرض بكل قوة، وذهب مثل ريح الشمال من الجبال.

وقال ميري لأراجورن: «ليلة جميلة مريحة هادئة! بعض الأشخاص حظهم رائع. إنه لم يرد أن ينام، وكان يريد أن يركب مع جندلف ــ وها هو ذا! بدلاً من تحويله هو نفسه إلى حجر ليقف هنا للأبد كتحذير».

فقال له أراجورن: «لو كنتَ أول من رفع حجر أورثانك، وليس هو، كيف سيكون الأمر الآن؟ ربما كنت قد فعلت أسوأ من ذلك. من يمكنه القول؟ ولكن الآن هو حظك أن تأتي معي، فيما أخشى. اذهب واستعد، في الحال، وأحضر أي شيء تركه بيبين ولم يأخذه. أسرع!».

فوق السهول كان شادوفاكس يطير، لم يكن بحاجة إلى أي نغز أو تحفيز أو أي

توجيه. مضت أقل من ساعة، وقد وصلوا إلى مخاضات الآيزن وعبروها. رابية الخيالة وحرابها الباردة ترقد رمادية وراءهم.

كان بيبين يشفى. كان دافئًا، ولكن الريح في وجهه كانت شديدة ومنعشة. كان مع جندلف. كان رعب الحجر والظل المخيف فوق القمر يتلاشى، أشياء تركوها وراءهم في سُدم الجبال أو في حلم عابر. وأخذ نفسًا عميقًا، وقال:

«لم أكن أعرف أنك تركب الحصان دون سرج يا جندلف. ليس لديك سرج ولا لجام!».

فقال جندلف: «إنني لا أركب الخيل على طريقة الجن، إلا على شادوفاكس. ولكن شادوفاكس لن يكون به سرج أو لجام. إنك لا تركب شادوفاكس؛ إنه يرغب في حملك أو لا يرغب. إذا كان يرغب، فهذا يكفي. الأمر عليه عندئذ؛ أن يهتم بأن تظل على ظهره، ما لم تقفز في الهواء».

وسأل بيبين: «وما مدى سرعته في السير؟ سريع مثل الريح، ولكن غير مصحوب بارتجاج أو نخع أو جلبة. وكم هو خفيف وقع أقدامه!».

وأجابه جندلف بقوله: «إنه يجري الآن سريعًا مثلما يستطيع أسرع حصان أن يعدو، ولكن هذا ليس سريعًا بالنسبة له. الأرض مرتفعة قليلة هنا، وأكثر تكسرًا مما كانت عليه وراء النهر. ولكن انظر كيف تقترب الجبال البيضاء تحت النجوم! هنالك قمم ثريهيرن مثل الحراب السوداء. لن يستغرق الأمر طويلاً قبل أن نصل إلى الطرق المتفرعة ونصل إلى وادي ديبينج الضيق الذي يقود إلى وادي هيلم، حيث وقعت المعركة منذ ليلتين».

وصمت بيبين مرة أخرى بعض الوقت. سمع جندلف يغني في صوت رقيق مع نفسه، يدندن بمقطوعات صغيرة من الأغاني بلغات كثيرة، بينما كانت الأميال تجري تحتهما. وأخيرًا انتقل الساحر إلى أغنية استطاع الهوبيتي أن يلتقط كلماتها، وجاءت أبيات قليلة منها واضحة لأذنيه خلال الريح المندفعة:

سفن شاهقة، وملوك طوال القامة
ثلاث مرات ثلاث،
ما الذي جلبوه من الأرض الغارقة
فوق البحر المتدفق؟
سبع نجوم وسبعة حجارة
وشجرة واحدة بيضاء.

وسأله بيبين: «ما الذي تقوله يا جندلف؟».

وأجابه الساحر قائلاً: «كنتُ فقط أمر على بعض القصائد التقليدية في عقلي. أعتقد أن الهوبيتيين قد نسوها، حتى تلك القصائد التي كانوا يعرفونها دائمًا».

فقال بيبين: «كلا، ليس هذا على الإطلاق. ولدينا الكثير من القصائد الخاصة بنا، التي لن تعجبك، فيما يحتمل. ولكني لم أسمع هذه القصيدة أبدًا. عم تتحدث ـ النجوم السبعة والحجارة السبعة؟».

فقال جندلف: «عن حجارة البالانتير ـ حجر الملوك القدماء».

«وماذا هي؟».

«الاسم يعني ذلك الذي ينظر بعيدًا. حجر أورثانك كان واحدًا».

«إذن لم يصنعه، لم يصنعه» ـ وتلعثم بيبين وقال ـ «العدو؟».

فقال جندلف: «كلا. ولا سارومان. إنه يفوق مهارته، ويفوق مهارة سارون أيضًا. حجارة البالانتير جاءت من وراء البلاد الغربية، من إلدامار. صنعه النولدوريون[1]. ربما يكون قد صنعها فيونور[2] نفسه، في أيام مضت منذ أزمان طويلة لدرجة أنه لا يمكن قياس الزمن بالسنين. ولكن ليس هناك شيء لا يستطيع ساورون أن يحيله إلى استعمالات شريرة. واحسرتاه على سارومان! لقد كانت سقطته، كما أدرك أنا الآن. خطيرة علينا جميعًا مهارات وحيل أكثر عمقًا من تلك التي نملكها نحن أنفسنا. ولكن لا بد أن يتحمل اللوم. أحمق! لأنه يحتفظ به سرًا، لمصلحته هو فقط. لم يتفوه بكلمة واحدة قط عن ذلك لأى واحد في المجلس. إننا لم نفكر بعد في مصير حجارة بالانتير جوندور في حروبها المدمرة. لقد نسيها البشر تقريبًا. حتى في جوندور فقد كانت سرًا لا يعرفه سوى قليلين؛ وكانوا يتذكرونها في آرنور في قصيدة من فنهم الشعبي فقط بين الدونادانيين».

«وفيم كان البشر القدماء يستخدمونها؟». ـ وسأل بيبين وهو مبتهج ومندهش للحصول على إجابات لأسئلة كثيرة جدًا ومتعجبًا كم من الوقت سوف يطول ذلك.

فقال جندلف: «أن يروا بعيدًا وأن يتحاوروا بالفكر مع بعضهم البعض. بهذه الطريقة حرسوا ووحدوا مملكة جوندور طويلًا. لقد وضعوا حجارة في ميناس آنور، وفي ميناس إيثيل، وفي أورثانك في حلقة آيزنجارد. كان رئيس وسيد كل هؤلاء تحت قبة النجوم في أوسجيلياث قبل دمارها. وكانت الثلاث الأخريات بعيدًا في الشمال. في

---

(1) The Noldor ـ تعني أولئك الذين يملكون الخبرة والمعرفة وهم من العشيرة الثانية من الجن. (موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Noldor) (المترجم)

(2) Fëanor ـ الابن الأكبر لـ [Finwë] الملك الأكبر للنولدوريين. (موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Feanor) (المترجم)

منزل إلروند يُحكَى أنها كانت في أنوميناس، وأمون سول، وكان حجر إلنديل في تلال البرج التي تنظر باتجاه ميثلوند في خليج لُون حيث ترقد السفن الرمادية.

«كان كل حجر بالانتير يرد على الآخر، ولكن كل أولئك الذين كانوا في جوندور كانوا مفتوحين دائمًا على مشهد أوسجيلياث. والآن فيما يبدو، حيث إن حجر أورثانك قد صمد أمام عواصف الزمن، لذلك فهناك قد ظل حجر بالانتير ذلك البرج. ولكن لا يمكنه أن يفعل أي شيء بمفرده سوى أن يرى صورًا صغيرة من أشياء بعيدة جدًا ودهور نائية. مفيد جدًا، بلا شك، كان ذلك بالنسبة لسارومان؛ ولكن يبدو أنه لم يكن راضيًا. وعلى مسافات أبعد وأبعد للخارج كان يحدق حتى وقع بصره على باراددور. عندئذ أمسك به!

«من يدري أين ترقد الآن حجارة أرنور المفقودة، مدفونة أو غارقة في الأعماق؟ ولكن واحدًا على الأقل لا بد أن يكون ساورون قد حصل عليه واستخدمه جيدًا لأغراضه. أظن أنه كان حجر الإيثيل؛ لأنه أخذ ميناس إيثيل منذ زمن طويل وحولها إلى مكان شرير؛ فقد أصبحت ميناس مورجول.

«من السهل الآن أن تخمن كيف تم الإيقاع بعين سارومان الطوافة والإمساك بها بسرعة؛ وكيف تم إقناعه منذ ذلك الحين من بعيد، وترويعه عندما لم يكن الإقناع يجدي. وإنني أتساءل عن طول المدة التي كان مجبرًا خلالها على المجيء غالبًا إلى زجاجته للفحص والتعليمات، وحجر أورثانك ميال على هذا النحو تجاه باراددور لدرجة أنها، إذا نظر فيه أي أحد سوى إرادة من الصلب، سوف يحمل عقله وبصره سريعًا إلى هناك، وكيف يسحب الواحد إلى نفسه! ألم أكن أنا قد شعرتُ بها؟ بل وحتى الآن يرغب قلبي في أن يختبر إرادتي عليه، ليرى إذا لم أستطع أن أنتزعه منه وأحوله إلى حيث أريد لأنظر عبر بحار المياه الواسعة وعبر الوقت إلى مدينة تيريون الجميلة، وأرى اليد التي لا يمكن تخيلها وعقل فينور وهما تعملان، في حين أن كلاً من الشجرة البيضاء والذهبية كانتا مزهرتين!» وتنهد وراح في صمت.

وقال بيبين: «أتمنى أن لو عرفتُ كل هذا من قبل. ليس لدى أي فكرة عما كنتُ أفعله».

ورد عليه جندلف بقوله: «أوه، نعم، لقد كنتَ تعرف أنك تتصرف تصرفًا خاطئًا وعلى نحو أحمق؛ وقد أخبرتَ نفسك بذلك، على الرغم من أنك لم تصغ. إنني لم أخبرك بهذا كله من قبل؛ لأنه بالاستغراق الشديد في التفكير فقط في كل ما كان يحدث استطعتُ أن أفهم أخيرًا، حتى ونحن نركب على حصان واحد معًا. ولكني لو كنتُ قد تكلمتُ قبل ذلك، فإن ذلك لم يكن ليخفف من رغبتك، أو يجعل الأمر أسهل في المقاومة. على العكس! كلا، اليد المحروقة تعلم أفضل. بعد ذلك فإن النصيحة بشأن النار تذهب إلى القلب».

فقال بيبين: «وهي كذلك. لو أن كل الحجارة السبعة قد وضعت أمامي الآن، فإنني سأغلق عيني وأضع يديَّ في جيوبي».

فقال جندلف: «جيد! هذا ما كنت أتمناه».

وبدأ بيبين يقول: «ولكني أود أن أعرف ــــــ».

وصاح جندلف: «الرحمة! إذا كان إعطاء المعلومات هو شفاء فضولك، فسوف أمضي كل ما تبقى من أيامي في الرد على أسئلتك. ماذا أيضًا تريد معرفته؟».

«أسماء جميع النجوم، وجميع الكائنات الحية، وكل تاريخ الأرض الوسطى والسماء العلوية وتاريخ البحار الفاصلة التي لا حدود لها»، وضحك بيبين. «بالطبع! ماذا أقول من ذلك؟ ولكني لستُ مستعجلاً الليلة. في هذه اللحظة كنتُ فقط أتساءل عن الظل الأسود. سمعتُك تصيح «رسول موردور». ماذا كان ذلك؟ ما الذي يمكن أن يفعله في آيزنجارد؟».

فقال جندلف مجيبًا إياه: «لقد كان خيالاً أسود على أجنحة، نازجول. كان من الممكن أن يأخذك بعيدًا إلى برج الظلام».

وقال بيبين متلعثمًا: «ولكنه لم يكن قادمًا من أجلي، أليس كذلك؟ أقصد، إنه لم يكن يعرف أنني قد ....».

فقال جندلف: «بالطبـــع لا. المســافة مائتا فرسـخ أو أكثر فيٍ خط مسـتقيم من باراد دور إلى أورثانك، بل وإن أي نازجول سوف يستغرق عدة ساعات قليلة ليطير بينهما. ولكن سارومان بكل تأكيد كان ينظر في الحجر منذ غارة الأوركيين، وقد قُرئ الكثير من أفكاره السرية، لا أشك في ذلك، أكثر مما كان يعتزم. تم إرسال رسول ليعرف ما كان يفعله. وبعدما حدث الليلة سوف يأتي رسول آخر، في اعتقادي، وسريعًا. ولذلك فإن سارومان سوف يأتي إلى آخر جزء من الرذيلة التي وضع يده فيها. ليس لديه أي أسير ليرسله. ليس لديه أي حجر ليرى به، ولا يمكنه الرد على الاستدعاءات. سوف يعتقد ساورون فقط أنه يمسك بالأسير ويرفض استعمال الحجر. لن يكون مجديًا لسارومان أن يقول الحقيقة للرسول؛ لأن آيزنجارد سوف تُدمَّر، ولكنه لا يزال آمنًا في أورثانك. ولذلك سواء كان يريد أو لا، فسوف يظهر متمردًا. ومع ذلك فإنه رفضنا، من أجل تجنب ذلك الشيء ذاته! ما الذي سيفعله في هذه المحنة، لا يمكنني تخمينه. لا يزال لديه القوة ـ في اعتقادى ـ وهو لا يزال في أورثانك، ليقاوم الخيالة التسعة. قد يحاول أن يفعل ذلك. قد يحاول الإيقاع بالنازجول، أو على الأقل ذبح الشيء الذي يركب عليه الهواء الآن. في تلك الحالة لتدع روهان تضع خيلها نصب أعينها!

«ولكني لا أستطيع أن أخبر كيف سيحدث ذلك، جيدًا أم سيئًا بالنسبة لنا. قد يكون أن مستشاري العدو سوف يرتبكون ويتحيرون، أو يعوقهم حنقه وغضبه من سارومان. قد

يكون أنه سوف يعلم أنني كنتُ هناك ووقفتُ فوق درجات سلالم أورثانك ـ وهناك هوبيتيون في ذيلي. أو أن وريث إلنديل يعيش ووقف إلى جانبي. إذا لم يكن وورمتونج قد خدع بدرع روهان، فإنه سوف يتذكر أراجورن واللقب الذي كان يستحقه. هذا هو ما أخشاه. ولذلك فإننا نطير من خطر إلى خطر أعظم. كل خطوة من خطوات شادوفاكس الواسعة تقربك من أرض الظل، يا برجرين التووكلي».

ولم يحر بيبين جوابًا، ولكنه تشبث بمعطفه، كما لو أن قشعريرة مفاجئة قد ألمت به. كانت الأرض الرمادية تمر تحتهما.

وقال جندلف: «انظر الآن! وديان ويستفولد تُفتح أمامنا. هنا نعود إلى الطريق الشرقي. الظل الأسود هناك هو مدخل وادي دييينج الضيق الذي يقود إلى وادي هيلم. في هذا الطريق يقع كهف أجلاروند والكهوف المتوهجة. لا تسألني عنها. اسأل جيملي، إذا قابلتَه مرة أخرى، وللمرة الأولى قد تحصل على إجابة أطول مما ترغب. لن ترى الكهوف بنفسك، ليس في هذه الرحلة. سوف تختفي وراءنا في الحال».

وقال بيبين: «ظننتُ أنك ستتوقف في وادي هيلم العميق! أين تذهب إذن؟».

«إلى ميناس تيريث، قبل أن تحيط بها بحار الحرب».

«أوه! وكم تبعد هذه؟».

وأجابه جندلف قائلاً: «فراسخ كثيرة. ثلاثة أضعاف المسافة إلى ديار الملك ثيودن، وهي على بعد مسافة تزيد على مائة ميل نحو الشرق من هنا، كما يطير رسل موردور. يجب أن يجري شادوفاكس طريقًا أكثر طولاً. أيها سيثبت أنه الأكثر سرعة؟».

«سوف نسير الآن حتى مطلع الفجر، وبيننا وبين هذا بضع ساعات. عندئذ يجب أن يستريح شادوفاكس، في تجويف ما في التلال؛ في إدوراس، حسبما أتمنى. ثم، إذا استطعت! قد ترى الوهج الأول للفجر فوق السقف الذهبي لمنزل إيورل. وفي خلال يومين من ذلك الوقت سوف ترى الظل الأرجواني لجبل ميندولوين وجدران برج دنِثور بيضاء في الصباح.

«انطلق بعيدًا الآن يا شادوفاكس! اجر، أيها القلب العظيم، اجر كما لم تجر من قبل قط! الآن وصلنا إلى الأراضي التي ولدتَ فيها، وتعرف كل حجر فيها. اجر الآن! الأمل في السرعة!».

ورفع شادوفاكس رأسه عاليًا وصاح بصوت عال، كما لو أن بوقًا قد استدعاه للمعركة. بعد ذلك قفز مندفعًا للأمام. كانت النار تطير من أقدامه؛ وتدافع الليل فوقه.

وبينما كان بيبين يروح بطيئًا في النوم، ساوره إحساس غريب: كان هو وجندلف ساكنين مثل الحجر، جالسين فوق تمثال حصان يجري، بينما كان العالم ينطوي بعيدًا تحت قدميه مع ضوضاء الريح الهائلة.

الكتـــاب الرابـــع

الفصل الأول
ترويــض سمـيجــول

وقال سام جامجي: «حسنًا يا سيدي، إننا في ورطة دون شك». ووقف في قنوط وكتفاه محنيتان إلى جوار فرودو، وحدق بعينين مغضنتين إلى الظلمة.

كان ذلك هو المساء الثالث منذ أن فرًا من الصحبة، بقدر ما يستطيعان أن يتذكرا، لقد فقدا تقريبًا عدد الساعات التي صعدا خلالها وكدًا وكدحا بين المنحدرات الشاهقة الجرداء وصخور إمين مويل، وأحيانًا كانا يعودان أدراجهما؛ لأنهما لم يكونا يجدان أي طريق للأمام، مكتشفين أحيانًا أنهما قد دارا في دائرة عائدين إلى حيث كانا منذ ساعات مضت. ولكن على وجه الإجمال، كانا يسيران باطراد نحو الشرق، مقاربين قدر ما يجدان طريقًا للحافة الخارجية لهذه المجموعة الغريبة الملتفة من التلال. ولكن كانا دائمًا يجدان سطحها الخارجي شديد التحدر، ومرتفعًا ومتعذرًا اجتيازه، عابسًا في وجه السهل أسفل منه، وكانت ترقد على ضواحيها المتداعية مستنقعات شاحبة فاسدة حيث لم يكن هناك أي شيء يتحرك فيها أو يمكن رؤيته ولا حتى طائر.

ووقف الهوبيتيان الآن على حافة جرف عال، أجرد وكئيب، كانت سفوحه ملفوفة في السديم، ووراءهما كانت ترتفع نجود مكسرة متوجة بسحب مندفعة. راحت تهب ريح باردة من الشرق. كان الليل يتجمع فوق الأراضي التي لا شكل لها أمامهما، كان لونها الأخضر الشاحب يتلاشى متحولًا إلى لون بني كئيب. وبعيدًا إلى اليمين نهر أندوين الذي كان يتوهج في نوبات في فترات سطوع الشمس المتقطعة خلال اليوم، اختفى في الظل. ولكن أعينهما لم تنظر فيما وراء النهر، إلى الوراء إلى جوندور، إلى أصدقائهما، إلى أرض البشر. راحا يحدقان جنوبًا وشرقًا عند حافة الليل القادم حيث كان يتعلق خط مظلم، مثل جبال بعيدة من دخان ساكن لا يتحرك. كان يتوهج من وقت لآخر وهج أحمر ضئيل صاعدًا على حافة الأرض والسماء.

وقال سام: «يا لها من ورطة! ذلك هو المكان، في جميع الأراضي والبلدان، والذي سبق أن سمعنا عنه، والذي لا نريد أن نراه على نحو أكثر قربًا؛ وذلك هو المكان الذي نحاول أن نصل إليه! وهذا هو المكان المحدد الذي لا يمكن أن نصل إليه بأي حال من الأحوال. لقد سرنا في الطريق الخاطئ معًا، فيما يبدو. لا يمكننا النزول؛ وإذا نزلنا فسوف نجد كل تلك الأرض الخضراء مستنقعًا قذرًا، إنني متأكد من ذلك. أُف! هل تشم هذه الرائحة؟». وراح يتشمم الهواء.

فقال فرودو: «نعم، إنني أشمها»، ولكنه لم يتحرك، وظلت عيناه ثابتتين، محدقًا للخارج باتجاه الخط المظلم واللهب المتوهج. وغمغم في همس قائلًا: «موردور! إذا كان يتحتم عليَّ أن أذهب إلى هناك، فإنني أتمنى أن لو أستطيع أن أصل إلى هناك سريعًا وأضع حدًّا لهذا الأمر!» وكان يرتجف. كانت الريح قارسة البرودة ومع ذلك مثقلة برائحة العفن البارد، وقال: «حسنًا» حيث سحب عينيه أخيرًا «لا يمكننا البقاء هنا طوال الليل، سواء كنا في ورطة أو لم نكن. يجب أن نعثر على بقعة أكثر حماية ونعسكر مرة أخرى، وربما نهتدي إلى طريق للعودة في يوم آخر».

وغمغم سام قائلًا: «أو آخر وآخر وآخر. أو ربما لن يأتي يوم. لقد سرنا في الطريق الخاطئ».

فقال فرودو: «إنني لأعجب أنه قدري، حسب اعتقادي، أن أذهب إلى ذلك الظل هناك، حتى يمكن العثور على طريق. ولكن هل سيظهر لي الخير أو الشر؟ أي أمل كان لدينا كان في السرعة. التأخير من مصلحة العدو وهأنذا تأخرت. هل هي إرادة برج الظلام التي توجهنا؟ لقد ثبت خطأ كل خياراتي. كان ينبغي أن أترك الصحبة منذ وقت طويل، وأذهب هابطًا من الشمال، شرق النهر وإمين مويل، وهكذا فوق الأرض الصعبة لسهل المعركة إلى ممرات موردور. ولكن الآن ليس بالإمكان بالنسبة لك ولي بمفردنا أن نجد طريقًا للعودة، والأوركيون يجوسون في الضفة الشرقية. كل يوم يمر إنما هو وقت ثمين نفقده. إنني متعب يا سام. إنني لا أعرف ما الذي يجب أن نفعله. أي طعام متبقٍ لدينا؟».

«ليس سوى هذه، ما يمكن أن تسميه ليمباس يا سيد فرودو، وهو قدر جيد بعض الشيء، وأفضل كثيرًا من لا شيء. إنني لم أفكر قط، على الرغم من ذلك، عندما وضعت أسناني عليها أول مرة أنني سأتمنى أن أغيرها على الإطلاق. ولكني أرغب في ذلك الآن، أرغب في قضمة من خبز عادي، وكأس، بل نصف كأس من بيرة ينزلان إلى جوفي هنيئًا مريئًا. لقد حملت معدات الطهي طوال ذلك الطريق من المعسكر الأخير، وأي فائدة كانت في ذلك؟ ليس هناك شيء نصنع النار به، هذا بادئ ذي بدء، وليس هناك شيء نطبخه، ولا حتى الكلأ!».

ودارا بعيدًا وهبطا إلى واد مجوف صخري. وحبست الشمس الغاربة السحب، وجاء الليل سريعًا. ناما جيدًا بقدر المستطاع في البرد، نوبة ونوبة، في ركن منعزل بين قمم مستدقة مثلمة من صخر تعرض لآثار العوامل الجوية؛ وعلى الأقل فقد وجدا لهما مأوى من الريح الشرقية.

وقال سام متسائلًا وهما يجلسان متصلبين مرتجفين بردًا يأكلان شرائح من الليمباس في برد الصبح المبكر القارس: «هل رأيتهم مرة أخرى يا سيد فرودو؟».

فقال فرودو: «كلا. إنني لم أسمع أي شيء، ولم أر أي شيء، على مدار ليلتين الآن».

وقال سام: «ولا أنا. إن تلك الأعين تصيبني بالدوار! ولكن ربما نكون قد تخلصنا منه أخيرًا، هذا النحيل التعيس، جولام! سوف أقطع عنقه لو أنني وضعتُ يدي على رقبته مرة أخرى».

فقال فرودو: «أتمنى ألا تكون بحاجة إلى ذلك أبدًا. لا أدري كيف تبعنا؛ ولكن ربما يكون قد ضــل أثرنا مرة أخرى، كما تقول. في هذه الأرض الجافــة القاتمــة لا يمكننا أن نترك آثار أقدام كثيرة، ولا رائحة، حتى لأنفه المتشمم».

فقال سام: «أتمنى أن تكون هذه هي الطريقة المناسبة. أتمنى أن نتخلص منه إلى الأبد!».

وقال فرودو: «وأنا كذلك، ولكنه ليس مصدر قلقي الرئيسي. أتمنى أن نستطيع أن نبعد عن هذه التلال! إنني أكرهها. إنني أشعر بالعري تمامًا في الجانب الشرقي، وقد حُشرتُ هنا وليس هناك أي شيء سوى السهول الميتة بيني وبين ذلك الظل هناك. هناك عين في ذلك المكان. هيا بنا! يجب علينا أن نهبط من هنا اليوم بأي حال من الأحوال».

ولكن انقضى ذلك اليوم، وعندما تلاشت فترة ما بعد الظهيرة باتجاه المساء كانا لا يزالان يصعدان عبر سلسلة التلال ولم يجدا أي طريق للهرب.

وفي بعض الأحيان، في صمت ذلك المكان القاحل، كانا يتخيلان أنهما قد سمعا أصواتًا خافتة وراءهما؛ حجر يسقط، أو خطوة متخيلة لقدم عريضة تضرب على الصخر. ولكن إذا توقفا ووقفا ينصتان لا يسمعان أي شيء سوى الريح تدوي فوق حواف الصخور، ولكن حتى ذلك كان يذكرهم بنفس يهس بصوت خفيض عبر أسنان حادة.

طوال ذلك اليوم كانت الحافة الخارجية لإمين مويل تميل تدريجيًا باتجاه الشمال، وهما يواصلان نضالهما في السير. وعبر الحافة امتد الآن سهل متهاوٍ من صخر محزز عليه آثار العوامل الجوية، تقطعه من وقت لآخر أخاديد مثل الخنادق كانت تنحدر بشكل كبير هابطة إلى شعاب عميقة في سطح الجرف. وللعثور على ممر في تلك الشقوق، والتي صارت أكثر عمقًا وتعددًا، فقد دُفع فرودو وسام إلى اليسار، بعيدًا جدًا عن الحافة، ولم يلاحظا أنه لمسافة عدة أميال كانا يسيران ببطء ولكن باطراد هابطين التل: كانت قمة الجرف تغوص باتجاه مستوى الأراضي المنخفضة.

وأخيرًا توقفا. أخذت مجموعة التلال منحنًى أكثر حدة باتجاه الشمال قطعها واد صغير أكثر عمقًا. وعلى الجانب البعيد، ارتفعت عاليًا مرة أخرى قامات[1] كثيرة فجأةً لاح أمامهما جرف رمادي عظيم مقطوع بشكل منحدر بشدة إلى أسفل كما لو كان

(1) مفردها قامة، وهي: مقياس للعمق يساوي 6 أقدام. (المترجم)

مقطوعًا بضربة سكين. لَمْ يستطيعا أن يتقدما أكثر من ذلك، ولابد أن يدورا الآن إما غربًا وإما شرقًا. ولكن الغرب سوف يقودهما فقط إلى المزيد من الكد والتأخير، إلى الوراء باتجاه قلب التلال؛ أما الشرق فسوف يأخذهما إلى الجرف الخارجية.

وقال فرودو: «ليس هناك شيء أمامنا لنفعله سوى أن نتسلق هابطين هذا الأخدود يا سام، هيا بنا نرى إلى أين يقودنا!».

فقال سام: «منطقة قذرة، أراهنك على ذلك».

كان الشق أكثر طولًا وعمقًا مما كان يبدو. وعلى بعد مسافة ما لأسفل وجدا مجموعة أشجار قليلة مشوهة أو ميتة، هي التي رأوها أولًا على مدار أيام؛ عبارة عن شجر القضبان الملتوي في معظمه، مع وجود شجرة تلوح هنا وهناك. كان الكثير منها ميتًا وذابلًا، ضربتها الرياح الشرقية عن آخرها. لابد أنه كان في وقت من الأوقات في الأيام الأكثر اعتدالًا أجمة جميلة في الوادي، ولكن الآن، بعد خمسين ياردة تقريبًا، انتهت الأشجار، على الرغم من أن جذوع أشجار قديمة مكسرة كانت منتشرة إلى حافة الجرف تقريبًا. أما قاع الأخدود الذي كان يقع عبر حافة صدع صخري، فقد كان خشنًا به حجارة مكسرة وكان منحدرًا بشدة لأسفل. عندما وصلا أخيرًا إلى نهايته، انحنى فرودو ومال للخارج، وقال:

«انظر! لابد أننا قد هبطنا طريقًا طويلًا، وإلا فقد يكون الجرف قد غار. إنه أكثر انخفاضًا مما كان، كما أنه يبدو أكثر سهولة أيضًا».

وانحنى سام إلى جواره وراح يحدق على مضض فوق الحافة، بعد ذلك نظر لأعلى إلى الجرف العظيم وهو يرتفع، بعيدًا على يسارهما، وقال في صوت متذمر: «أكثر سهولة! حسنًا، أعتقد أن الهبوط دائمًا أكثر سهولة من الصعود. أولئك الذين لا يستطيعون الطيران، ويمكنهم القفز!».

فقال فرودو: «سوف تكون قفزة كبيرة مع ذلك. حوالي...، حسنًا» ووقف للحظة يقيسها بعينيه «حوالي ثماني عشرة قامة، في ظني. ليس أكثر من ذلك».

وقال سام: «وهذا يكفي! آخ! كم أكره النظر إلى الأسفل من على مرتفع! ولكن النظر أفضل من الصعود».

فقال فرودو: «الأمر سيان. أعتقد أننا نستطيع الصعود هنا، وأعتقد أنه سيتحتم علينا أن نحاول. انظر! الحجر مختلف تمامًا عما كان عليه على بعد أميال قليلة للوراء. لقد أصبح منزلقًا ومشروخًا».

لم يعد المنحدر الخارجي حقًا منحدرًا مثلما كان، ولكنه أصبح منحدرًا نحو الخارج قليلًا. كان يبدو مثل سور واق عظيم أو حائط صد بحري تحولت أساساته، وهكذا فإن مساراته كانت جميعًا ملتوية ومضطربة، تاركة شقوقًا كبيرة وحواف منحدرة طويلة كانت في بعض الأماكن واسعة مثل درجات السلم تقريبًا.

«وإذا كنا سنحاول الهبوط، فمن الأفضل لنا أن نحاول في الحال. الدنيا تصبح مظلمة مبكرًا. أظن أن هناك ريحًا قادمة».

ضاعت ضبابية الجبال الدخانية في الشرق في ظلمة أشد عمقًا كانت تمتد بالفعل نحو الغرب بأذرع طويلة. كانت هناك دمدمة رعدية يحملها النسيم المرتفع. استنشق فرودو الهواء ونظر لأعلى في شك إلى السماء. وشد حزامه خارج معطفه وضيقه، وسوى حزمة متاعه الخفيفة على ظهره.. بعد ذلك سار نحو الحافة، وقال: «سوف أحاول».

فقال سام في كآبة: «جيد جدًا! ولكني سوف أحاول أولًا».

فقال فرودو: «أنت؟ ما الذي جعلك تغير رأيك بشأن التسلق؟».

«إنني لم أغير رأيي، ولكنه إحساس فقط؛ أن تضع الشخص الذي يكون احتمال انزلاقه كبيرًا في أدنى مكان. إنني لا أريد أن أقع فوقك وأصرعك، ليس هناك معنى في قتل اثنين بسقطة واحدة».

وقبل أن يتمكن فرودو من إيقافه، فإنه جلس، وطوح رجليه فوق الحافة، وتحرك حركة دائرية باحثًا بأصابع قدميه عن موطئ قدم. من المشكوك فيه أن يكون قد فعل أي شيء على الإطلاق أكثر شجاعة بهدوء ورباطة جأش، أو أكثر طيشًا من ذلك.

فقال فرودو: «لا، لا! سام، أنت أيها الأحمق العجوز! سوف تقتل نفسك، بكل تأكيد، بالذهاب على هذا النحو دون حتى النظر إلى ما تتجه نحوه. عُدْ!»، وأخذ سام تحت إبطيه ورفعه لأعلى مرة أخرى، وقال له: «الآن، انتظر لحظة واصبر!» بعد ذلك رقد على الأرض، منحنيًا نحو الخارج ناظرًا لأسفل، لكن بدا أن الضوء يتلاشى سريعًا، على الرغم من أن الشمس لم تكن قد غربت بعد، وقال في الحال: «أعتقد أنني سأتمكن من ذلك. أستطيع على أية حال، وأنت تستطيع أيضًا، إذا حافظت على رباطة جأشك وتبعتني بكل دقة».

فقال سام: «إنني لا أدري كيف يمكنك أن تكون متأكدًا كل هذا التأكد. لماذا لا يمكنك أن ترى حتى القاع في هذا الضوء؟! ماذا لو وصلت إلى مكان حيث لا تجد مكانًا تضع فيه قدميك أو يديك؟».

فقال فرودو: «أتسلق عائدًا، حسب ظني...».

وعارضه سام قائلًا: «من السهل القول. من الأفضل الانتظار حتى الصباح وحتى المزيد من الضوء».

فرد عليه فرودو في حماس غريب مفاجئ: «لا! لا إذا كان بإمكاني ذلك. إنني أضن بكل ساعة، كل دقيقة. إنني سأنزل حتى أجرب. لا تتبعني حتى أعود أو أنادي عليك!»

وترك نفسه يتدلى برفق لأسفل وهو ممسك بالشفة الصخرية للمنحدر بأصابعه،

حتى ذراعاه كانتا على كامل امتدادهما تقريباً، ووجدت أصابع قدميه رفًّا صخريًا ناتئًا، وقال: «خطوة واحدة لأسفل! وهذا الرف الصخري الناتئ يتسع إلى اليمين. يمكنني الوقوف هنالك بدون إمساك. سوف. . .» وتوقفت كلماته.

واندفعت الظلمة المتسارعة، وقد تجمعت الآن بسرعة كبيرة، من الشرق وابتلعت السماء، وكانت هناك فرقعة قوية من الرعد تمزق المكان فوق رأسه مباشرة. راح البرق الذابل يضرب بقوة في التلال. وبعد ذلك جاءت هبة من ريح ضارية شرسة، ومعها، ممتزجًا بزئيرها، جاءت صرخة شديدة عالية. لقد سمع الهوبيتيون تلك الصرخة بعيدًا في المستنقع[1] وهم يفرون من قرية الهوبيتيين، بل وحتى هناك في غابة المقاطعة قد جمد الدم في عروقهم. وهنا في الأرض القفر فإن رعبه كان أكبر: لقد اخترقهم بنصال باردة من الرعب واليأس، مُوقفًا القلب والتنفس. سقط سام على وجهه منبطحًا. وبشكل اختياري فك فرودو قبضته ووضع يديه على رأسه وأذنيه، وتأرجح وانزلق، انزلق لأسفل وهو يصرخ صرخة منتحبة عالية.

وسمعه سام وراح يزحف بجهد شديد نحو الحافة، وهو ينادي: «سيدي، سيدي، سيدي!».

ولم يسمع أي رد. ووجد جسده كله يرتعش، ولكنه استجمع أنفاسه، وراح يصيح مرة أخرى: «سيدي!». وبدا أن الريح تنفخ صوته مرة أخرى إلى حلقه، ولكن وهو يمر، وهو يدوي عاليًا في الوادي وبعيدًا فوق التلال، جاءت إلى أذنيه صرخة خافتة تجيبه:

«حسنًا، حسنًا! أنا هنا. ولكني لا أستطيع أن أرى».

كان فرودو ينادي بصوت ضعيف. لم يكن فعلًا بعيدًا جدًا. لقد انزلق ولم يقع، وقد سقط بحركة سريعة على قدميه على رف صخري ناتئ لا يبعد ياردات كثيرة إلى أسفل. ولحسن الحظ، فإن وجه الصخر عند سنه المدببة كان منحنيًا جيدًا للوراء وقد ضغطت الريح عليه مقابل الجرف؛ ولذلك فإنه لم يقع. وثبت نفسه قليلًا، وهو يرقد ووجهه على الصخر البارد، وهو يشعر بقلبه يدق بقوة. ولكن إما أن تكون الظلمة قد زادت، وإما أن عينيه قد فقدتا قدرة الإبصار. كان كل شيء أسود من حوله. وتساءل إن كان قد أصيب بالعمى من جراء السقوط. وتنفس نفسًا عميقًا.

وسمع صوت سام يأتي من السواد من فوقه: «ارجع! ارجع!».

فقال: «لا أستطيع. لا أستطيع أن أرى. لا أستطيع أن أجد لي موطئ قدم. لا يمكنني أن أتحرك بعد».

---

(1) المستنقع: الكلمة الأصلية التي استخدمها المؤلف وهي (Marish) ومعناها في الإنجليزية المستخدم هو (marsh) وتعني بالعربية «مستنقع أو سبخة». (المترجم)

وصاح سام وهو ينحني للأمام بعيداً بشكل خطير: «ما الذي يمكنني أن أفعله يا سيد فرودو؟ ما الذي يمكنني أن أفعله؟». لماذا-لم يكن سيده يستطيع أن يرى؟ كانت الدنيا معتمة، بكل تأكيد، ولكنها لم تكن معتمة بهذا القدر الكبير. كان يستطيع أن يرى فرودو أسفل منه، ثمة شكل بائس رمادي منبسط على الجرف، لكنه كان بعيداً عن متناول أي يد يمكن أن تمتد لمساعدته.

وجاءت هبة رعد أخرى مدوية، وبعدها هطل المطر، في طبقة تحجب الرؤية، ممتزجة بالبَرَد، قد ساق قبالة الجرف برداً قارساً.

وصاح سام: «سوف أنزل إليك»، على الرغم من أنه لم يكن ليعرف كيف كان يأمل أن يساعده بهذه الطريقة.

وصاح فرودو يرد عليه بقوة أكبر هذه المرة: «لا، لا! انتظر! سوف أكون أفضل. بل أشعر الآن أنني أفضل بالفعل. انتظر! لا يمكنك أن تفعل أي شيء بدون حبل».

وصاح سام: «حبل!»، وهو يتكلم بعصبية سواء في ابتهاجه أو ارتياحه، «حسناً، إذا لم أكن أستحق أن أعلق في نهاية حبل كتحذير للحمقى والمغفلين! إنك لست أي شيء سوى مغفل ساذج، يا سام جامجي، هذا ما كان العجوز (الجافر) يقوله لي كثيراً بشكل كاف، إنها كلمة من كلماته. حبل!».

وصاح فيه فرودو: «توقف عن الثرثرة!»، وقد استعاد نفسه الآن بشكل كاف بحيث صار يشعر بالمتعة والانزعاج في أن «لا تبال بعجوزك! هل تحاول أن تخبر نفسك أن لديك حبلاً في جيبك؟ إذا كان الأمر كذلك فأخرجه!».

«نعم، يا سيد فرودو، إن حزمتي فيها كل شيء أيضاً. حملتها لمسافة مئات الأميال، وقد نسيتها تماماً!».

«عندئذ لتشغل نفسك بالعمل وأنزل لي طرف الحبل!».

وسريعاً نزع سام حزمته وراح يعبث ويفتش فيها. وهناك، حقاً، في القاع كانت توجد لفافة من حبل رمادي حريري صنعه أهل لورين. ورمى بطرف الحبل لسيده. وبدت الظلمة تزول من عيني فرودو، وإلا فإن بصره قد عاد إليه. كان يرى الحبل الرمادي وهو يتدلى لأسفل، ورأى أن فيه بريقاً فضياً ضعيفاً. والآن وقد أصبح لديه نقطة في الظلمة يركز عينيه عليها فإنه شعر بقدر أقل من الدوار. ومال بثقله للأمام، ولف طرف الحبل بإحكام حول وسطه، وبعد ذلك أمسك بالحبل بكلتا يديه.

وتراجع سام للوراء وثبت قدميه بإحكام في جذع شجرة على بعد ياردة أو ياردتين من الحافة. وصعد فرودو، وهو يناضل ما بين صعود وزحف، وألقى بنفسه على الأرض.

وراح الرعد يدوي ويزمجر على البعد، وكان المطر لا يزال يهطل بغزارة. وراح الهوبيتيان يزحفان بعيداً عائدين إلى الوادي، لكنهما لم يجدا لهما مأوى جيداً هناك. بدأت

جداول الماء تجري هابطة، وسرعان ما تحولت هذه الجداول إلى فيضان راح يتناثر ويزبد على الصخور، وينبجس بعيدًا فوق الجرف مثل مزاريب سطح شاسع.

وقال فرودو: «لقد كنتُ سأغرق تقريبًا هناك في الأسفل، أو كانت الفيضانات ستجرفني بعيدًا. أي حظ جميل، أن كان مع ذلك الحبل!».

وقال سام: «كان من الممكن أن يكون الحظ أفضل لو أنني فكرتُ فيه قبل ذلك بشكل أسرع. ربما تتذكر وهم يضعون الحبال في المراكب، بينما كنا نبدأ رحلتنا في بلد الجن.

وأعجبتني الفكرة، فدسستُ لفافة في حزمة أمتعتي منذ سنوات مضت، فيما يبدو. «قد يكون نافعًا في احتياجات كثيرة» هذا ما قاله هولدير، أو واحد من أولئك القوم. وكان يقول الصواب».

وقال فرودو: «للأسف! إنني لم أفكر في إحضار حبل آخر، ولكني تركتُ الصحبة في عجلة شديدة وفوضى. لو كان معنا قدر كافٍ من الحبال لكنا استخدمناها في النزول. كم يبلغ طول حبلك؟ إنني أتساءل».

وراح سام يمده ببطء وهو يقيسه بذراعيه ويقول: «خمسة، عشرة، عشرون، ثلاثون ذراعًا تقريبًا».

وقال فرودو متعجبًا: «من كان سيفكر في ذلك؟!».

فقال سام: «آه! من كان سيفعل؟ الجن قوم رائعون. إنه يبدو رفيعًا بعض الشيء، لكنه شديد ومتين، وناعم مثل اللبن على اليد. وأمتعتنا متراصة أيضًا، وخفيفة جدًا. إنهم قوم رائعون بكل تأكيد!».

وقال فرودو متمعنًا: «ثلاثون ذراعًا! أعتقد أن ذلك سيكون كافيًا. لو مرت العاصفة قبل حلول الليل فسوف أجرب ذلك».

فقال سام: «يوشك المطر أن يكون توقف بالفعل، ولكن لا تفعل أي شيء خطير في العتمة مرة أخرى يا سيد فرودو! كما أنني لم أنسَ بعد هذه الصرخة التي حملتها الريح حتى الآن إذا كنت أنت قد نسيتها. بدا لي كخيال خيال أسود ولكن خيالًا في الفضاء، إذا كان باستطاعتهم الطيران. إنني أرى أن من الأفضل أن نرقد عاليًا في هذا الشرخ حتى ينقضي الليل».

وقال فرودو: «وأعتقد أنني لن أقضي لحظة فوق ما أحتاج إليه، محشورًا على هذه الحافة وعيون بلاد الظلام تطل على المستنقعات».

وبهذه الكلمات وقف وهبط إلى قاع الوادي مرة أخرى، ونظر إلى الخارج. كانت السماء الصافية تنبسط في الشرق مرة أخرى. كانت جنبات الريح ترتفع، مهلهلة ومبللة، وقد مرت المعركة الرئيسية لتنشر أجنحتها العظيمة فوق قمة إمين مويل التي كان الفكر الأسود لسارومان يتأمل فيها لبعض الوقت. ومن ذلك المكان استدارت تدك

وادي أندوين بالبَرَد والبرق، وتلقي بظلالها على ميناس تيريث مع تهديد بالحرب. وبعد ذلك، تنخفض في الجبال، جامعة قِممها العظيمة، وتسير منطلقة ببطء فوق جوندور وضواحي روهان، حتى رأى الخيالة بعيدًا على السهل أبراجها السوداء تتحرك وراء الشمس، وساروا نحو الغرب. ولكن هنا، فوق الصحراء والمستنقعات المدخنة، انكشفت سماء المساء الزرقاء مرة أخرى، وظهرت مجموعة قليلة من النجوم الشاحبة، مثل فتحات بيضاء صغيرة في السماء فوق القمر هلالي الشكل.

وقال فرودو وهو يتنفس بعمق: «من الجيد أن تكون قادرًا على الرؤية مرة أخرى. هل تعلم؟ لقد فكرتُ للحظة أنني قد فقدتُ بصري! وذلك من البرق أو من شيء آخر أسوأ منه. لم أكن أرى أي شيء، لا شيء على الإطلاق، إلى أن نزل الحبل الرمادي إليَّ. وقد بدا أنه يومض بطريقة ما».

وقال سام: «إنه يبدو في الظلمة مثل الفضة نوعًا ما، إنني لم ألاحظ ذلك من قبل، على الرغم من أنني لا أتذكر أني قد أخرجتُه على الإطلاق منذ أن وضعته في حزمة أمتعتي في المرة الأولى. ولكن إذا كنتَ مصرًا على التسلق يا سيد فرودو، فكيف ستستخدمه؟ ثلاثون ذراعًا، حوالي ثماني عشرة قامة.. هذا ليس أكثر من تخمينك لارتفاع الجرف».

وفكر فرودو لبعض الوقت، وقال: «اربطه بسرعة بهذا الجذع يا سام! بعد ذلك أعتقد أن أمنيتك ستتحقق وتذهب أولًا. سوف أنزلك، ولن تحتاج إلى أكثر من استخدام قدميك ويديك لإبعاد نفسك عن الصخر. على الرغم من ذلك، إذا وضعت ثقلك على بعض الأرفف الصخرية الناتئة وأعطيتني بعض الراحة، فسوف يساعد ذلك. وعندما تصل إلى القاع فسوف أتبعك، وأشعر أنني قد استعدت خلجات نفسي مرة أخرى الآن».

وقال سام في كآبة: «حسنًا جدًا. إذا كان لابد من ذلك، دعنا ننهي ذلك الأمر!»، وأخذ الحبل وربطه بإحكام حول الجذع في أقرب نقطة إلى الحافة، بعد ذلك ربط طرفه الآخر حول وسطه. وعلى مضض استدار واستعد للذهاب إلى الحافة للمرة الثانية.

ومع ذلك، لم يتضح أن الأمر كان سيئًا بمقدار نصف ما كان يتوقعه. بدا أن الحبل يمنحه ثقة، على الرغم من أنه أغلق عينيه أكثر من مرة عندما كان ينظر إلى أسفل بين قدميه. كانت هناك بقعة واحدة مربكة غير ملائمة، حيث لم يكن هناك رف صخري ناتئ وكان الجدار شديد التحدر، بل كان مقطوعًا من أسفل لمسافة قصيرة، وهناك انزلق وتأرجح نحو الخارج وهو معلق من الحبل الفضي. ولكن فرودو راح ينزله ببطء وبثبات، وأخيرًا انتهى الأمر. وكان مصدر خوفه الرئيسي أن طول الحبل سوف ينتهي وهو لا يزال معلقًا عاليًا، ولكن كانت، ولاتزال، هناك أنشوطة كبيرة في يدي فرودو، عندما

وصل سام إلى القائع وصاح لأعلى: «لقد وصلتُ إلى القاع!» وجاء صوته من أسفل إلى أعلى واضحًا، ولكن فرودو لم يستطع سماعه؛ لقد ذاب معطفه الجني الرمادي في الشفق.

واستغرق الأمر وقتًا أطول بعض الشيء من فرودو ليتبعه. كان الحبل حول وسطه وكان أعلى منه بإحكام، وقد قصره؛ بحيث يمكن أن يجذبه إلى أعلى قبل أن يصل إلى الأرض، لم يكن يريد أن يخاطر بالوقوع على الأرض، ولم يكن لديه إلى حد بعيد ثقة سام في هذا الحبل الرمادي الرفيع. ووجد مكانين، على الرغم من ذلك، حيث كان يمكنه أن يثق بالأمر كلية؛ أسطح ملساء حيث لم يكن هناك مكان يمسك به حتى لأصابع الهوبيتي القوية وكانت الأرفف الصخرية الناتئة متباعدة. ولكن أخيرًا وصل هو أيضًا إلى القاع، وصاح قائلًا:

«حسنًا.. لقد قمنا بها.. لقد هربنا من إمين مويل! والآن ماذا بعد؟ هذا ما أتساءل عنه.. ربما سوف نكون نبحث عن صخرة صلبة جيدة تحت أقدامنا مرة أخرى».

ولكن سام لم يجبه: كان يحدق للوراء إلى أعلى الجرف، وقال: «المغفلون! السذج! حبلي الجميل! هناك مربوط بجذع شجرة ميت، ونحن في القاع. إنه سلم صغير جميل يوافق ذلك الجولام المتسلل، يمكن أن نتركه له. لا ينقص إلا أن نضع لافتة تقول أي طريق سلكناه! ظننتُ أن الأمر يبدو سهلًا للغاية بعض الشيء».

فقال فرودو: «إذا كنت تستطيع أن تفكر في أي طريقة حيث يمكن لكلينا أن يستخدم الحبل، ومع ذلك نحضره معنا إلى أسفل، عندئذ يمكنك أن تطلق عليَّ اسم المغفل، أو أي اسم آخر كان يطلقه عليك الجافر العجوز. لتصعد إلى أعلى لتقوم بفكه وتدلي نفسك وتنزل، إذا كنت تريد ذلك!».

وحك سام رأسه وقال: «كلا، لا يمكنني أن أفكر كيف يمكن ذلك، اعذرني. ولكني لا أحب أن نتركه، وهذه حقيقة». وضرب طرف الحبل وهزه برفق. «إن الأمر لصعب أن أترك أي شيء أحضرته معي من بلد الجن. صنعته جَلَدْريل نفسها، جَلَدْريل أيضًا حسبما أظن» قال ذلك مغمغمًا وهو يهز رأسه في حزن. ونظر لأعلى وشد الحبل شدة أخيرة كما لو كان يودعه.

ولدهشة الهوبيتيين الاثنين الكاملة فإن الحبل انفك. وسقط سام على الأرض، وانزلقت لفائف الحبل الرمادي الطويل في صمت فوقه. وضحك فرودو وقال: «من الذي ربط الحبل؟ إنه لشيء جيد أنه ظل متماسكًا حتى نزلنا عليه! أن أفكر أنني اعتمدتُ بكل وزني على تلك العقدة التي عقدتَها!».

ولم يضحك سام وقال بنبرات مجروحة: «ربما لا أكون جيدًا في التسلق يا سيد فرودو، لكنني أعرف شيئًا ما عن الحبال وعن العقد. إنه عمل العائلة، إذا جاز لك القول؛ ذلك لأن جدي وعمي آندي من بعده، حيث كان هو الأخ الأكبر العجوز، كان لديهم مصنع للحبال إلى جوار منزل تايفييلد منذ سنوات طويلة. وقد أحكمت ربط العقدة

على جذع الشجرة تمامًا كما كان يمكن لأي شخص أن يفعل في المقاطعة أو في أي مكان خارجها».

فقال فرودو: «إذن، لابد أن الحبل قد قُطع حكًا على حافة الصخر، حسب توقعي».

وقال سام بصوت مجروح أكثر: «أراهن أن ذلك لم يحدث!» وانحنى وفحص طرفي الحبل. «ولم يحدث فيه أي شيء قط. ولا حتى جديلة واحدة مقطوعة منه!».

فقال فرودو: «إذن، أخشى أن الأمر لابد أن يكون بسبب العقدة».

وهز سام رأسه ولم يجبه. كان يمرر الحبل عبر أصابعه وهو مستغرق في التفكير، وقال أخيرًا: «لتفسر الأمر بطريقتك يا سيد فرودو، ولكنني أعتقد أن الحبل انفك من تلقاء نفسه عندما ناديتُ عليه»، ولفه ووضعه في حب وإعزاز في حزمة أمتعته.

فقال فرودو: «بكل تأكيد أنه انفك، وهذا هو الشيء الأساسي. ولكن الآن علينا أن نفكر في خطوتنا التالية. سوف يدهمنا الليل قريبًا. كم هي جميلة النجوم! والقمر!».

فقال سام وهو ينظر إلى أعلى: «إنها تبهج القلب، أليست كذلك؟ إنها جنية على كل حال. والقمر يكبر. إننا لم نره لليلة أو ليلتين في هذا الطقس الملبد بالغيوم. إنه يبدأ في إشعاع نور كبير».

فقال فرودو: «نعم، ولكن لن يكون بدرًا قبل بضعة أيام. لا أظن أننا سنحاول السير في المستنقعات على نور الهلال».

تحت الظلال الأولى من الليل بدءا من المرحلة التالية في رحلتهما. بعد بعض من الوقت التفت سام ونظر وراءه إلى الطريق الذي قطعاه. كان مدخل الوادي بقعة سوداء في الجرف المعتم. وتحدث قائلًا: «إنني سعيد أنه كان لدينا الحبل. لقد وضعنا لغزًا صغيرًا لقاطع الطريق ذلك، على أية حال. يمكنه أن يجرب قدميه المفلطحتين القذرتين على تلك الأرفف الصخرية الناتئة!».

وراحا يمشيان في حذر واحتراس بعيدًا عن جنبات الجرف، بين تيه من الجلاميد والحجارة الوعرة التي كانت رطبة وزلقة من فعل المطر الغزير. كانت الأرض لا تزال تنحدر بشكل حاد. لم يكونا قد ذهبا بعيدًا جدًا عندما وصلا إلى شق كبير مظلم فُتح فجأة أمام أقدامهم. لم يكن واسعًا فحسب بل كان واسعًا أكثر من اللازم؛ بحيث لا يمكن اجتيازه قفزًا في الضوء الخافت. ظنا أنهما يسمعان خرير الماء في الأعماق. انحنى الشق بعيدًا على يسارهما باتجاه الشمال، عائدًا باتجاه التلال، وهكذا سدَّ طريقهما في ذلك الاتجاه على كل حال بينما كانت الظلمة شديدة.

وقال سام: «من الأفضل أن نجرب طريقًا للعودة باتجاه الجنوب عبر خط الجرف، ربما، في اعتقادي، نجد ركنًا هناك أو حتى كهفًا أو شيئًا ما».

فقال فرودو: «وأنا أظن ذلك. إنني متعب، ولا أعتقد أن بإمكاني التسلق بين الصخور أكثر من ذلك هذه الليلة على الرغم من أنني أخشى التأخير. أتمنى أن لو كان هناك طريق واضح أمامنا؛ ففي هذه الحالة كنتُ سأواصل السير حتى تنهار قدماي».

لم يجدا الذهاب أسهل بأي حال من الأحوال في سفوح إمين مويل المكسرة. كما أن سام لم يجد أي ركن أو فجوة ليحتميا بها؛ فقط منحدرات صخرية جرداء يظهر الجرف متجهمًا من فوقها، والتي راحت ترتفع الآن مرة أخرى، أعلى وأكثر تحدرًا وهما يرجعان للوراء. وفي النهاية، وقد تعبا وأصابهما الإرهاق، ألقيا بأنفسهما على الأرض تحت جانب جلمود لا يقع بعيدًا عن سفح الجرف. وهناك لبعض الوقت جلسا منكمشين معًا في حزن في الليلة المروعة الباردة، بينما راح النوم يزحف عليهما على الرغم مما فعلاه حتى يمنعاه. راح القمر الآن يصعد عاليًا وصافيًا. أضاء ضوءُه الأبيض الرقيق أسطح الصخور وغطى جدران الجرف الباردة المتجهمة، محولًا كل الظلمة الشاسعة التي كانت تلوح أمامهما إلى لون رمادي شاحب قارس البرودة، محززة بظلال سوداء.

«حسنًا!»، قال ذلك فرودو، وهو يقف ويلملم معطفه بشكل أكثر دقة حوله. «لتنم قليلًا يا سام وخذ بطانيتي. سوف أستيقظ في نوبة حراسة لبعض الوقت». وفجأة تصلب، وقبض، وهو منحنٍ، على ذراع سام، وقال له هامسًا: «ما هذا؟ انظر هناك فوق الجرف!».

ونظر سام وتنفس في حدة عبر أسنانه، وقال: «سسسس! هذا ما عساه أن يكون. إنه ذلك الجولام! ثعابين وأفاعٍ! وقد ظننا أننا سنربكه بما قمنا من تسلق! انظر إليه! مثل عنكبوت قذرة زاحفة على جدار».

وعبر سطح الجرف، بدا وهو يهبط شفافًا وأملس تقريبًا في نور القمر الشاحب؛ شكلًا أسود صغيرًا كان يتحرك وأطرافه الرفيعة ممتدة نحو الخارج، ربما كانت يداه وأصابع قدميه الناعمة المتشبثة تحاول العثور على شقوق وأماكن تتشبث بها، لم يكن يمكن لأي هوبيتي أن يراها أو يستخدمها، ولكنه بدا وكأنه كان يزحف هابطًا على وسائد لزجة، مثل شيء ضخم من أنواع الحشرات يطوف مختلسًا. وكان ينزل ورأسه في المقدمة، كما لو كان يتشمم طريقه. وكان من وقت لآخر، ببطء، يديرها للوراء مباشرة على رقبته الطويلة النحيفة، ولمح الهوبيتيان ضوءين صغيرين متوهجين؛ عينيه اللتين كانتا تومضان في نور القمر للحظة وبعد ذلك تقفلان مرة أخرى.

قال سام: «هل تعتقد أنه يستطيع أن يرانا؟».

ورد عليه فرودو في هدوء قائلًا: «لا أدري، لكني لا أظن ذلك.. إنه من الصعب

حتى بالنسبة للأعين الصديقة أن ترى هذه المعاطف الجنية، لا أستطيع أنا أن أراك في الظل حتى على بعد عدة خطوات، وقد سمعتُ أنه لا يحب الشمس أو القمر».

وسأل سام قائلًا: «إذن، لماذا يهبط هنا تحديدًا؟».

وأجابه فرودو بقوله: «في هدوء يا سام! إن بإمكانه أن يشمنا، ربما، ويمكنه أن يسمع بنفس الحدة مثل الجن، في اعتقادي، أعتقد أنه سمع شيئًا ما الآن: أصواتنا على ما يحتمل. لقد صحنا كثيرًا قبل أن نصل إلى هنا، وكنا نتحدث بصوت عال أكثر من اللازم حتى دقيقة مضت».

فقال سام: «حسنًا، لقد سئمتُ منه. إنه بات يأتي كثيرًا أكثر من اللازم، وسوف أتحدث معه، إذا استطعتُ. إنني لا أفترض أن بإمكاننا أن نهرب منه بأي حال من الأحوال الآن».

وشد سام غطاء رأسه الرمادي فوق وجهه جيدًا، وراح يزحف خلسة باتجاه الجرف.

وهمس فرودو وهو يأتي وراءه: «كن حذرًا! لا تنبهه أو تثره! إنه أكثر خطرًا بكثير مما يبدو عليه».

كان الشكل الزاحف الأسود الآن قد قطع ثلاثة أرباع المسافة إلى أسفل، وربما كان على بعد خمسين قدمًا أو أقل فوق سفح الجرف. وراح الهوبيتيان يشاهدانه وهما جاثمان في سكون مثل الحجر في ظل جلمود ضخم. كان يبدو أنه قد وصل إلى ممر صعب أو أنه في ورطة بشأن شيء ما. كانا يسمعانه يتنشق بصوت عال، وكان هناك من وقت لآخر صوت هسيس نَفَس أجش كان يبدو مثل السب واللعن. ورفع رأسه، وفكرا أنهما سمعاه يبصق. وبعد ذلك راح يتحرك مرة أخرى. كانا الآن يسمعان صوته يصر ويصفر.

«آآتش، سسسس! انتبه، شيئي الثمين؟ كلا، شيئي الثمين جولام[1]!»، ورفع رأسه مرة أخرى ونظر بعينين نصف مفتوحتين إلى القمر، وأغلق عينيه سريعًا. «إننا نكرهه» وجاء صوته وله هسيس. «ضوء قذر، قذر، مسبب للارتجاف ـ سسسس ـ إنه يتجسس علينا، يا شيئي الثمين إنه يؤذي أعيننا[2]».

وكان الآن ينزل أكثر وأكثر، وأصبح صوت هسيسه أكثر حدة ووضوحًا. «أين هو، أين هو؛ شيئي الثمين، شيئي الثمين؟ إنه ملك لنا، ونحن نريده. اللصوص، اللصوص، اللصوص الصغار القذرون. أين ذهبوا بشيئي الثمين؟ اللعنة عليهم! إننا نكرههم».

---

(1) جولام هنا ليست إشارة إلى اسمه، وإنما إشارة إلى صوت الحشرجة الحلقية الذي يصدر عنه، والذي سمي باسم جولام نسبة إليه. (المترجم)

(2) كما وردت الملاحظة في المجلد الأول، فإن سميجول أو جولام يستخدم ضمير المخاطب عند التحدث عن نفسه، كما أن له طريقة خاصة وغريبة في نطق الحروف والكلمات، بل إنه يحرف الكلمات أحيانًا، ويحرف قواعد اللغة. أما عبارة (شيئي الثمين) فتشير إلى الخاتم؛ فهو يطلق عليه (precious) أو (my precious) وقد آثرت ترجمة الكلمة/العبارة (الثمين) أو (الشيء الثمين) حسبما يسمح به السياق، ولم أترجمها (الخاتم الثمين، أو الغالي)؛ حتى أحافظ على نفس الدرجة من الإبهام التي قصدها المؤلف، كان أحيانًا لا لم يذكر الخاتم صراحة. (المترجم)

وهمس سام قائلًا: «يبدو أنه لا يعرف أننا هنا، أليس كذلك؟ وما هو شيئه الثمين؟ هل يقصد الـ. . .».

وهمس فرودو: «هشش! إنه أصبح قريبًا منا الآن، قريبًا بالشكل الكافي بحيث يمكنه أن يسمع همسنا».

وبالفعل توقف جولام فجأة مرة أخرى، وكان رأسه الضخم على رقبته المهزولة يتدلى من جانب إلى آخر كما لو كان يتنصت. كانت عيناه الشاحبتان نصف مغطاتين بالجفون. وسيطر سام على نفسه على الرغم من أن أصابعه كانت ترتعش. كانت عيناه، وقد ملأهما الغضب والاشمئزاز، مثبتتين على المخلوق التعيس عندما بدأ يتحرك الآن مرة أخرى، ولا يزال يهمس ويهس بينه وبين نفسه.

وأخيرًا كان على بعد لا يزيد على عشرة أقدام من الأرض، فوق رأسيهما مباشرة. ومن تلك النقطة كان هناك هبوط حاد الانحدار؛ لأن الجرف كان مقطوعًا من أسفل قليلًا، وحتى جولام لم يستطع أن يعثر على موطئ قدم يتشبث به من أي نوع. كان يبدو أنه يحاول الالتواء دائريًا؛ حتى يمكنه السير ورجلاه في المقدمة بدلًا من رأسه، عندما سقط فجأة وهو يصرخ صرخة حادة مدوية. وبينما كان يفعل ذلك، لف رجليه وذراعيه حول نفسه، مثل عنكبوت قطعت الخيط الذي تنزل عليه فجأة.

وخرج سام من مخبئه في طرفة عين وعبر المسافة بينه وبين سفح الجرف في قفزتين. وقبل أن يتمكن جولام من النهوض كان هو فوقه. ولكنه وجد جولام أكثر مما توقع، حتى وقد بوغت على ذلك النحو فجأة، على حين غرة بعد سقوطه. وقبل أن يمسك سام به، كانت الرجلان والذراعان الطويلتان تلتفان حوله تثبتان ذراعيه، وكانت قبضة متشبثة، ناعمة بيد أنها قوية بشكل فظيع، تعصره مثل حبال يحكم ربطها وتضييقها ببطء، وكانت أصابع باردة ولزجة تتحسس بحثًا عن زوره. وبعد ذلك عضة أسنان حادة في كتفه. كل ما كان بإمكانه أن يفعله هو أن يضرب برأسه الصلب المدور من الجنب في وجه المخلوق، وراح جولام يهس ويبصق، ولكنه لم يفلته.

كان من الممكن أن تسير الأمور إلى وضع سيئ لو أنه كان وحده. ولكن فرودو قفز واقفًا واستل ستينج سيفه من غمده. وبيده اليسرى جر رأس جولام للوراء من شعره النحيل الخفيف، مادًا رقبته الطويلة، مجبرًا عينيه السامتين الشاحبتين على النظر إلى السماء، وقال:

«اتركه يا جولام. هذا هو سيفي ستينج. لقد رأيته من قبل ذات مرة. اتركه وإلا سوف تحس به هذه المرة! سوف أستأصل رقبتك».

وانهار جولام وأصبح ضعيفًا رخوًا مثل خيط مبتل. ونهض سام، وراح يتحسس كتفه بأصابعه. كانت عيناه تتوهجان غضبًا، ولكنه لم يستطع أن ينتقم لنفسه، ورقد عدوه التعيس منبطحًا على الأرض يعفر وجهه بالتراب في نشيج وأنين.

«لا تؤذنا! لا تدعهم يؤذوننا أيها الثمين! إنهم لن يؤذونا، أليس كذلك؟ الهوبيتيون الصغار الطيبون! إننا لم نقصد أي إيذاء، ولكنهم قفزوا علينا مثل القطط على الفئران المسكينة، نعم أيها الثمين. ونحن وحيدون تماماً، جولام. سوف نكون طيبين معهم، طيبين جداً، إذا هم كانوا طيبين معنا، أليس كذلك؟ بلى، بلى».

فقال سام: «حسناً، ما الذي يجب أن نفعله معه؟ نربطه؛ حتى لا يأتي متسللاً خلسة وراءنا بعد ذلك، حسب رأيي».

فقال جولام في نشيج وأنين: «ولكن ذلك سوف يقتلنا، يقتلنا. أيها الهوبيتيون الصغار القساة. تربطوننا في الأرض القاسية الباردة وتتركوننا، جولام، جولام». وتفجر النشيج في حلقه الذي يصدر صوت قرقرة.

فقال فرودو: «كلا، إذا نحن قتلناه، فيجب علينا أن نقتله في الحال. ولكن لا يمكننا أن نفعل ذلك، ليس والأشياء على ما هي عليه. التعس المسكين! إنه لم يؤذنا في شيء».

فقال سام وهو يحك كتفه: «أوه! ألم يؤذنا؟ على أية حال إنه كان ينوي إيذاءنا، وهو ينوي ويقصد إيذاءنا، أنا متأكد من ذلك. يخنقنا ونحن نائمون، هذه هي خطته».

فقال فرودو: «في اعتقادي. ولكن الذي ينوي أن يفعله أمر آخر». وتوقف لبرهة مفكراً. كان جولام يرقد ساكناً، لكنه توقف عن النشيج والأنين. ووقف سام يحملق فيه.

بدا لفرودو عندئذ أنه سمع، بوضوح تام ولكن عن بعد، أصواتاً تأتي من الماضي: للأسف! أن بيلبو لم يطعن ذلك المخلوق الحقير، عندما كانت الفرصة سانحة أمامه!

يا للأسف! لقد كانت الشفقة هي التي منعت يده. الشفقة، والرحمة؛ عدم الضرب بلا داع.

لا أشعر بأي شفقة تجاه جولام.. إنه يستحق الموت.

يستحقه! يمكنني القول بأنه يستحقه فعلاً. الكثيرون ممن يعيشون يستحقون الموت. وبعض أولئك الذين يموتون يستحقون الحياة. هل يمكنك أن تعطيهم إياها؟ في هذه الحال، لا تكن متلهفاً أكثر من اللازم على إعطاء الموت باسم العدالة، خائفاً على سلامتك أنت؛ لأنه حتى الحكماء لا يمكنهم أن يروا كل النهايات.

وأجاب بصوت عال وقد أنزل سيفه: «حسناً جداً. ولكني لا أزال خائفاً. ومع ذلك، كما ترى، فإنني لن أمس المخلوق؛ لأنني الآن وحسبما أراه، أرثي لحاله».

وحدق سام سيده الذي كان يبدو أنه يتحدث لشخص آخر لم يكن موجوداً، ورفع جولام رأسه.

وقال في نحيبٍ وأنين: «نعم، إننا تعساء أيها الثمين. التعاسة التعاسة! الهوبيتيون لن يقتلونا، هوبيتيون طيبون».

فقال فرودو: «كلا، إننا لن نفعل. ولكننا لن نتركك تمضي أيضًا. إنك مليء بالشر والأذى يا جولام. سوف يكون لزامًا عليك أن تأتي معنا، هذا كل ما في الأمر، بينما نضع أعيننا عليك. ولكن يجب أن تساعدنا، ما استطعت، فإن المعروف يُرد بالمعروف».

فقال جولام وقد جلس في مكانه: «نعم، نعم حقًا. أيها الهوبيتي الطيب! سوف نأتي معهم، ومن ثم نجد لهم طرقًا آمنة في الظلمة، نعم سوف نفعل ذلك. وأين هم ذاهبون في هذه الأرض الصعبة الباردة، إننا نتساءل، نعم إننا نتساءل». ونظر إلى أعلى إليهما، وومض في عينيه الشاحبتين الطارفتين ضوء خافت بين مكر ولهفة.

وعبس سام وهو ينظر إليه، ومص أسنانه، ولكن كان يبدو أنه يحس أنه كان هناك شيء غريب بشأن حالة سيده المزاجية وأن المسألة كانت خارج كل جدل. كما كان مندهشًا بذات القدر من رد فرودو.

ونظر فرودو في عيني جولام مباشرة اللتين جفلتا والتوتا بعيدًا. وقال له في هدوء وصرامة: «هل تعلم أو تخمن جيدًا بالشكل الكافي يا سميجول؟ إننا ذاهبان إلى موردور، بالطبع. وأنت، في اعتقادي، تعرف الطريق هناك».

«آتش! سسسس!» قال ذلك جولام، وقد غطى عينيه بيديه، كما لو أن تلك الصراحة، وذكر الأسماء بتلك الصراحة، قد تسببت في أذاه. وقال هامسًا: «لقد خمنا، نعم لقد خمنا، ولا نريدهم أن يذهبوا، هل نريدهم؟ كلا أيها الثمين، ليس الهوبيتيون الطيبون. رماد، رماد، وغبار، وعطش هناك، وحفر، حفر، حفر، وأوركيون، وآلاف الأوركيين. الهوبيتيون الطيبون يجب ألا يذهبوا إلى هذه الأماكن».

وأصر فرودو قائلًا: «إذن فقد كنتَ هناك؟ ويتم سحبك إلى هناك، هل هذا صحيح؟».

وزعق جولام قائلًا: «نعم. نعم. لا! ذات مرة، كانت عن طريق المصادفة، أليس كذلك أيها الثمين؟ بلى، عن طريق المصادفة. ولكننا لن نعود، لا، لا!» وعندئذ فجأة تغير صوته وتغيرت لغته، وراح ينشج في حلقه، ويتحدث ولكن ليس معهما. «اتركني وشأني جولام! إنك تؤذيني. كم هما مسكينتان؛ يداي، جولام! أنا، نحن، أنا لا أريد أن أعود. لا أستطيع أن أجده. إنني متعب. أنا، نحن لا نستطيع أن نجده، جولام، جولام، لا، ليس في أي مكان. إنهم مستيقظون دائمًا. الأقزام، والإنس، والجن، جن رهيبون لهم أعين براقة. لا أستطيع أن أجده. آتش!» ونهض من مكانه وأطبق يده الطويلة في عقدة عظمية لا لحم فيها، وهو يهزها نحو الشرق، وصاح قائلًا: «لن نفعل. ليس من أجلك». وبعد ذلك انهار وسقط مرة أخرى. وراح ينشج ويئن ووجهه للأرض: «جولام، جولام. لا تنظر إلينا! اذهب. اذهب لتنام!».

وقال فرودو: «إنه لن يذهب أو يذهب لينام بأمرك يا سميجول. ولكن إذا كنتَ ترغب حقًّا أن تتحرر منه مرة أخرى، ففي هذه الحالة يجب أن تساعدني. وهذا فيما أخشى يعني أن تجد لنا طريقًا نحوه. ولكنك لستَ بحاجة لأن تسير كل الطريق، لا أن تذهب فيما وراء بوابات أرضه».

وجلس جولام في مكانه مرة أخرى ونظر إليه من تحت جفنيه. وراح يقول في ثرثرة: «إنه هناك. دائمًا هناك. سوف يأخذكم الأوركيون طوال الطريق مباشرة. من السهل العثور على أوركيين شرق النهر. لا تسأل سميجول. سميجول المسكين، المسكين، لقد مضى بعيدًا منذ زمن طويل. لقد أخذوا شيئه الثمين، وقد ضاع هو الآن».

فقال له فرودو: «ربما نعثر عليه مرة أخرى، إذا أنت أتيتَ معنا».

فرد عليه جولام بقوله: «لا، لا، أبدًا! لقد فقد شيئه الثمين».

وقال له فرودو: «انهض!».

ووقف جولام وتراجع وظهره إلى الجرف.

وقال فرودو: «والآن، هل يمكنك أن تجد طريقًا أيسر في النهار أو في الليل؟ إننا متعبان؛ ولكنك إذا اخترت الليل، فإننا سنبدأ المسير الليلة».

وقال جولام منتحبًا: «الأضواء الشديدة تؤذي أعيننا، نعم إنها كذلك. ليس تحت الوجه الأبيض، ليس بعد. سوف تغيب وراء التلال قريبًا، نعم. نستريح لبعض الوقت أولًا، أيها الهوبيتيون الطيبون!».

وقال له فرودو: «إذن اجلس، ولا تتحرك!».

وجلس الهوبيتيان إلى جواره، كل واحد على جانب منه، وظهورهم للجدار الحجري، مريحين أرجلهم. لم تكن هناك حاجة إلى أي ترتيب صريح؛ كانا يعرفان أنهما يجب ألا يناما للحظة. واختفى القمر ببطء. ونزلت الظلال من التلال، وأصبح كل شيء مظلمًا أمامهم. أصبحت النجوم كثيفة ولامعة في السماء فوقهم. لم يتحرك منهم أحد. جلس جولام منكمشًا، وركبتاه تحت ذقنه، ويداه، وقدماه المفلطحتان ممدودتان على الأرض، وعيناه مغلقتان، ولكن كان يبدو متوترًا كما لو كان يفكر أو يتنصت.

ونظر فرودو إلى سام. وتقابلت أعينهما وفهما الأمر. واسترخيا، يميلان رأسيهما للوراء، ويغلقان أعينهما أو هكذا كانا يبدوان. وسريعًا كان بالإمكان سماع صوت أنفاسهما الضعيف. وارتعشت يدا جولام قليلًا. وتحرك رأسه على نحو لا يكاد يُلحظ إلى اليسار وإلى اليمين، وبعد ذلك فُتحت عين وبعدها فُتحت الأخرى قليلًا. لم تظهر على الهوبيتيين أي إشارة أو علامة.

وفجأة، في رشاقة وسرعة مذهلة، قفز جولام إلى الأمام، حيث الظلمة، منطلقًا

في خط مستقيم من الأرض في قفزة مثل جُندُب أو ضفدع. ولكن ذلك كان تمامًا ما توقعه فرودو وسام. وكان سام فوقه قبل أن يذهب خطوتين بعد هذه القفزة. وجاء فرودو وراءه وقبض على رجله ورماه على الأرض وقال:

«قد يكون حبلك مفيدًا مرة أخرى يا سام».

وأخرج سام الحبل، وقال بصوت راعد: «وأين كنت ستذهب في تلك الأراضي الصعبة الباردة يا سيد جولام؟ إننا نتعجب! نعم إننا نتعجب. أن تجد بعضًا من أصدقائك الأوركيين، أنا واثق من ذلك. أيها المخلوق الخائن القذر. إن هذا الحبل يجب أن يلتف حول رقبتك، وأنشوطة ضيقة كذلك».

ورقد جولام في هدوء ولم يحاول أن يقوم بأي خدع أو حيل أخرى. ولم يرد على سام لكنه نظر إليه نظرة خاطفة مسمومة.

وقال فرودو: «كل ما نحتاج إليه هو شيء ما لنسيطر عليه. إننا نريده أن يمشي؛ ولذلك فمن غير النافع أن نربط رجليه أو ذراعيه، يبدو أنه يستعملهما بنفس الدرجة. اربط إحدى نهايتي الحبل بكاحله، وأمسك بالنهاية الأخرى بإحكام».

ووقف فوق جولام، بينما قام سام بربط العقدة، وقد أدهشتهما النتيجة هما الاثنين. بدأ جولام يصرخ، صوت رفيع شديد ممزق، رهيب جدًا عند سماعه. وراح يتلوى، وحاول أن يصل بفمه إلى كاحله ويعض الحبل، وظل يصرخ.

وأخيرًا اقتنع فرودو أنه كان يتألم، ولكن لا يمكن أن يكون ذلك من العقدة. وفحصها ووجد أنها لم تكن ضيقة أكثر من اللازم، في الواقع لا تكاد تكون ضيقة بالشكل الكافي. وكان سام أكثر لطفًا من كلماته؛ حيث قال: «ماذا دهاك؟ إذا حاولت أن تهرب فيجب أن تُربط، ولكننا لا نريد أن نؤلمك أو نؤذيك».

وقال جولام في هسيس: «إنه يؤلمنا. إنه يجمدنا، إنه يعض! الجن هم الذين حبكوه، اللعنة عليهم! الهوبيتيون القساة القذرون! هذا هو السبب الذي جعلنا نحاول الهرب، بالطبع هو السبب، أيها الثمين. لقد خمنا أنهم كانوا هوبيتيين قساة. إنهم يزورون الجن؛ الجن الشرسين الذين لهم أعين براقة. فك عنا الحبل! إنه يؤلمنا».

فقال فرودو: «لا لن أخلعه عنك، ما لم «وتوقف للحظة مفكرًا» يكن هناك وعد تقطعه على نفسك يمكنني أن أثق به».

فقال جولام، وهو لا يزال يتلوى ويتحسس كاحله: «إننا سوف نقسم أن نفعل ما تريده، نعم، نعم. إنه يؤلمنا».

فقال له فرودو: «تقسم؟».

«سميجول»، قال ذلك جولام فجأة وبوضوح، وقد فتح عينيه الواسعتين وهو يحدق في فرودو بوميض غريب. «سميجول سوف يقسم على الثمين».

واستجمع فرودو نفسه، وأصاب الذهول سام مرة أخرى من جراء كلماته وصوته الصارم، وقال: «على الثمين؟ كيف تجرؤ على ذلك؟ فكر!».

خاتم واحد يجمعها جميعًا وفي الظلمة يوحدها.

هل ستلزم نفسك بهذا الوعد يا سميجول؟ إنه سيسيطر عليك. ولكنه أكثر خيانة منك. ربما يلوي كلماتك. كن حذرًا!».

وانكمش جولام في رعب، وكرر قائلًا: «على الثمين، على الثمين!».

وسأله فرودو: «وما الذي ستقسمه؟».

فقال جولام: «أن أكون جيدًا جدًا». بعد ذلك حبا على قدمي فرودو منبطحًا على الأرض متذللًا أمامه، وهو يهمس بصوت أجش، وألمت به رعدة، كما لو أن الكلمات قد هزت كل عظامه بالخوف: «سميجول سوف يقسم ألا يدعه يأخذه أبدًا. أبدًا! سميجول سوف ينقذه. ولكنه يجب أن يقسم على الثمين».

فقال له فرودو، وهو ينظر لأسفل إليه في شفقة صارمة: «لا! ليس به. كل ما تتمناه هو أن تراه وتلمسه، إذا استطعت، على الرغم من أنك تعرف أنه سيقودك إلى الجنون. ليس عليه. لتقسم به، إذا كنت ستقسم؛ لأنك تعلم أين هو. نعم، أنت تعلم، يا سميجول. إنه أمامك».

وللحظة بدا لسام أن سيده قد كبر وأن جولام قد انكمش، ظلٌّ طويلًا متجهمًا، سيدًا عظيمًا أخفى إشراقه في سحابة رمادية، وعند قدميه كلب صغير ينبح ويعوي. ولكنَّ الاثنين كانا، بأي حال من الأحوال، متشابهين وليسا متغايرين؛ كان يمكن لكل منهما أن يصل إلى عقل الآخر. ورفع جولام نفسه وبدأ يضرب فرودو وكأنه يضربه بمخالب، ويتزلف إليه عند ركبتيه.

وقال فرودو: «إلى أسفل! إلى أسفل! والآن لتقل وعدك!».

فقال جولام: «إننا نعد، نعم إنني أعد! أنني سوف أخدم سيد الثمين. سيد الجيد، سميجول الجيد، جولام، جولام!» وفجأة بدأ يبكي ويعض كاحله مرة أخرى.

فقال فرودو: «اخلع الحبل عنه يا سام!».

وأطاعه سام على مضض. وفي حال نهض جولام وبدأ يقفز حوله، مثل كلب هجين ضرب بالسوط ربت سيده عليه. ومن تلك اللحظة، حدث تغيير فيه دام لبعض الوقت. راح يتحدث بهسيس ونشيج وأنين أقل، وراح يتحدث إلى رفاقه مباشرة، ليس إلى ثمينه نفسه. كان ينكمش ويجفل، إذا هما اقتربا منه أو أتيا بأي حركة مفاجئة، وكان يتجنب لمس معاطفهما الجنية لكنه كان ودودًا، وحقًا كان تواقًا بشكل يرثى له إلى الإرضاء. كان يثرثر بالضحك والقفز مرحًا وفرحًا إذا صدرت أي مزحة أو حتى

إذا تحدث فرودو معه بشكل لطيف طيب، وكان يبكي إذا وبخه فرودو. كان سام يتحدث معه قليلًا من أي نوع. كان يشك فيه بعمق أكثر من ذي قبل، وإذا كان بالإمكان فإنه أحب جولام، سميجول، الجديد، أقل من القديم، وقال:

«حسنًا يا جولام، أو أيًا كان الاسم الذي تناديك به، والآن إلى المهم! لقد غاب القمر، والليل ينقضي، من الأفضل أن نبدأ السير».

وقال جولام موافقًا وهو يطفر ويثب في المكان: «نعم، نعم. لننطلق! هناك طريق واحد فقط للعبور بين النهاية الشمالية والنهاية الجنوبية. لقد وجدته، لقد وجدته. لا يستخدمه الأوركيون، لا يعرفه الأوركيون. الأوركيون لا يعبرون المستنقعات، إنهم يدورون لمسافة أميال وأميال. من حسن الحظ جدًا، أنكما جئتما من هذا الطريق. إنكما محظوظان جدًا أن وجدتما سميجول، نعم. اتبعا سميجول!».

وخطا عدة خطوات بعيدًا ونظر للوراء متفحصًا مثل كلب يدعوهما للمشي. وصاح سام: «انتظر قليلًا يا جولام! ليس بعيدًا جدًا في المقدمة الآن! سوف اتبعك، ولَدَيَّ الحَبْلُ في المتناول».

فقال جولام: «لا، لا! لقد وعد سميجول».

وفي هدأة الليل تحت النجوم الصافية الشديدة بدءوا رحلتهم، وقادهما جولام رجوعًا نحو الشمال لبعض الوقت عبر الطريق الذي أتوا فيه؛ بعد ذلك مال إلى اليمين بعيدًا عن الحافة شديدة التحدر في إمين مويل، هابطين المنحدرات الحجرية المتكسرة باتجاه المستنقعات الشاسعة أسفل منهم. وتلاشوا في الظلمة سريعًا. وفوق كل الفراسخ من القفار أمام بوابات موردور كان هناك صمت مطبق كئيب.

الفصل الثاني
طريــق المســتـنقـعـات

وراح جولام يتقدم سريعًا، ورأسه ورقبته ممتدتان للأمام، مستخدمًا يديه كثيرًا بالإضافة إلى قدميه. كان الأمر شاقًا جدًا بالنسبة لفرودو وسام في اللحاق به، ولكن لم يعد يبدو عليه أن لديه أي تفكير في الهرب.. وعندما كانا يتأخران وراءه، كان يستدير وينتظرهما. وبعد وقت أحضرهما إلى حافة الوادي الضيق الذي كانا قد طرقاه من قبل، لكنهما كانا أكثر بعدًا الآن عن التلال.

وصاح عليهما: «ها هو ذا! هناك طريق في الداخل، إلى أسفل، نعم. والآن سوف نتبعه نحو الخارج، نحو الخارج هناك». وأشار جنوبًا وشرقًا باتجاه المستنقعات. وجاءت رائحتها إلى أنوفهم ثقيلة وكريهة حتى في هواء الليل البارد.

وراح جولام يدور صعودًا وهبوطًا عبر الحافة، وأخيرًا نادى عليهما: «هنا.. يمكننا الهبوط هنا.. سار سميجول في هذا الطريق ذات مرة.. ذهبتُ في هذا الطريق مختبئًا من الأوركيين».

وتقدمهما في المسير يقود الطريق، وتبعه الهوبيتيان وهبطا إلى الظلمة. لم يكن الأمر صعبًا؛ لأن الصدع كان عند هذه النقطة بعمق حوالي خمسة عشر قدمًا فقط وحوالي عشرة أقدام عرضًا. كانت هناك مياه جارية في القاع؛ كان ذلك في حقيقة الأمر قاعًا واحدًا من الأنهار الصغيرة الكثيرة التي كانت تنساب هابطة من التلال لتغذي أحواض المياه الراكدة والمستنقعات وراءها. ودار جولام يمينًا باتجاه الجنوب تقريبًا، وراح يخوض بقدميه في الجدول الصخري الضحل. كان يبدو مسرورًا بشكل كبير وهو يشعر بالماء، وكان يضحك بينه وبين نفسه، بل كان أحيانًا يتكلم بصوت خفيض على هيئة أغنية ما:

الأراضي الصلبة الباردة
إنها تعض أيدينا،
وتقرص أقدامنا.
الصخور والحجارة
مثل العظام القديمة
كلها خالية من اللحم.
ولكن الجدول وحوض الماء
رطبان وباردان..

لطيفان جدًا على القدمين!
والآن فإننا نتمنى. . .

«ها! ها! ما الذي نتمناه؟»؛ قال ذلك وهو ينظر جانبًا بطرف عينه إلى الهوبيتيين. وقال بصوت أجش: «سوف نخبرك. لقد خمن ذلك منذ زمن طويل، الباجينزي خمن ذلك».

وجاء في عينيه وميض، ولما رأى سام الوهج في الظلمة شعر أنه أبعد ما يكون عن السرور.

حي بدون نَفَس. .
بارد مثل الموت. .
لا يعطش أبدًا، ولا يشرب أبدًا؛
يرتدي درعًا، لا يخشخش أبدًا.
يغرق في أرض جافة،
يظن الجزيرة
جبلًا. .
يظن النافورة
هَبّة من هواء.
أنيق جدًا، جميل جدًا!
يا للفرحة أن تلقاه!
إننا فقط نتمنى
أن نصطاد سمكة،
حلوة مليئة بالعصارة!

ما كان من هذه الكلمات إلا أنها جعلت مشكلة بالنسبة لعقل سام أكثر إلحاحًا؛ مشكلة كانت تقلقه منذ اللحظة التي فهم فيها أن سيده كان سيستخدم جولام مرشدًا لهما؛ مشكلة الطعام. لم يخطر بباله أن سيده قد يكون فكر فيها أيضًا، لكنه ظن أن جولام فكر فيها. حقًا، كيف احتفظ جولام بنفسه في كل تجواله وحيدًا؟ وفكر سام قائلًا: «ليس جيدًا جدًا. يبدو أنه قد جُوِّع تمامًا. ليس صعبًا للغاية أن يجرب مذاق لحم الهوبيتيين، إذا لم يكن هناك أي سمك، إنني أراهن على ذلك بفرض أنه أمسك بنا ونحن نائمون. حسنًا، لن يتمكن من ذلك. . ليس سام جامجي واحدًا من هؤلاء».

وراحا يتخبطان طوال الطريق في الوادي المتعرج المظلم لوقت طويل، أو هكذا بدا لأقدام فرودو وسام المتعبة. ودار الوادي شرقًا، وبينما كانوا يواصلون سيرهم كان يتسع ويصبح أكثر ضحالة تدريجيًا. وأخيرًا، أصبحت السماء فوقهم باهتة بأول ضوء رمادي للصباح. لم يظهر جولام أي علامات على التعب، ولكن الآن نظر لأعلى وتوقف.

«النهار قريب»، قال ذلك همسًا، كما لو كان النهار شيئًا قد يسترق السمع ويقفز عليه. «سميجول سوف يبقى هنا؛ سوف أبقى هنا، والوجه الأصفر لن يراني».

وقال فرودو: «سوف نكون سعداء لرؤية الشمس، ولكن سوف نبقى هنا؛ إننا متعبون للغاية بحيث لا يمكننا الذهاب أكثر من ذلك في الوقت الحالي».

فقال جولام: «إنك لست حكيمًا لكونك سعيدًا بالوجه الأصفر. إنه يكشفك. الهوبيتيون الطيبون العقلاء يبقون مع سميجول. الأوركيون وتلك الأشياء القذرة من حولنا. إنهم يستطيعون الرؤية لمسافة طويلة. ابقوا هنا واختبئوا معي!».

واستقر ثلاثتهم للراحة عند سفح الجدار الصخري للوادي. لم يكن ارتفاعه الآن أكثر من قامة رجل طويل، وعند قاعدته كانت هناك رفوف مسطحة من حجر جاف.. كانت المياه تجري في قناة بالجانب الآخر. جلس فرودو وسام على واحد من الرفوف المسطحة يريحان ظهريهما. راح جولام يجدف ويخربش في جدول الماء.

وقال فرودو: «لابد أن نتناول قليلًا من الطعام. هل أنت جائع يا سميجول؟ لدينا القليل جدًا لنتقاسمه، ولكن سوف نبقي لك ما نستطيع».

وعند سماع كلمة (جائع)؛ توهج ضوء ضارب إلى الخضرة في عيني جولام الشاحبتين وبدتا أنهما تجحظان أكثر من ذي قبل من وجهه الشاحب الهزيل. وللحظة، عاد إلى طريقة جولام القديمة وقال: «إننا جائعون، نعم نحن جائعون أيها الثمين. ماذا يأكلون؟ هل لديهم سمك طازج؟»، وتدلى لسانه خارجًا بين أسنانه الصفراء الحادة وهو يلعق شفاها عديمة اللون.

فقال فرودو: «لا، ليس لدينا أي سمك. كل ما لدينا هو هذا» وأمسك ببسكوتة من الليمباس «والماء، إذا كانت المياه هنا صالحة للشرب».

فقال جولام: «نعم، نعم، مياه عذبة. نشربها، نشربها، بينما نستطيع ذلك! ولكن ما هذا الذي لديهم أيها الثمين؟ هل هو شيء يمكن طحنه ومضغه؟ هل هو لذيذ المذاق؟».

وكسر فرودو قطعة من بسكوتة وأعطاها له في غلافها الورقي الملفوفة به. وتشمم جولام الورقة وتغير وجهه وانتابته حالة من الاشمئزاز، ولمحة من حقده القديم، وقال: «سميجول يشمها! أوراق من بلد الجن، أف! رائحتها عفنة. وتسلق تلك الأشجار، ولم يستطع أن يزيل الرائحة من يديه، يديه الجميلتين». ورمى الورقة، وأخذ زاوية من الليمباس وراح يقضمها برفق. وبصق، وانتابته نوبة كحة، وغمغم قائلًا:

«آتش! لا. . أنتم تحاولون خنق سميجول المسكين، تراب ورماد، إنه لا يستطيع أن يأكل ذلك. يجب أن يموت جوعًا. ولكن سميجول ليس لديه مانع، أيها الهوبيتيون الطيبون. . لقد وعد سميجول أنه سيموت جوعًا. فهو لا يستطيع أن يأكل طعام الهوبيتيين، وسوف يموت جوعًا: سميجول النحيل المسكين!».

فقال فرودو: «إنني آسف، ولكن لا يمكنني مساعدتك بكل أسف. أظن أن هذا الطعام سيكون جيدًا بالنسبة لك إذا أنت جربته. لكن ربما حتى لا يكون بإمكانك أن تجربه، ليس بعد على أي حال».

والتهم الهوبيتيان رقائق الليمباس في صمت. رأى سام أن مذاقها كان أفضل بكثير، بطريقة أو بأخرى، مما كانت عليه منذ بعض الوقت؛ لقد جعله تصرف جولام ينتبه لنكهتها مرة أخرى، لكنه لم يشعر بالارتياح. كان جولام يتتبع كل لقمة من اليد إلى الفم ككلب مترقب إلى جوار مقعد شخص يتناول غداءه. ولم يتحدث إلا بعد أن انتهيا من طعامهما وكانا يستعدان للراحة، واتضح أنه اقتنع بأنه لم يكن لديه أي أطعمة لذيذة مخبأة يمكن تناولها معهم. بعد ذلك ذهب وجلس مع نفسه على بعد عدة خطوات قليلة، وتذمر قليلًا.

«انظر هنا!» همس سام بهذه الكلمات لفرودو، لم يكن صوته خفيضًا جدًا، لم يكن في واقع الأمر يأبه بما إذا كان جولام قد سمعه أم لا. «ينبغي علينا أن ننال قسطًا من النوم، ولكن ليس كلانا معًا وهذا الوغد الجائع قريب منا، سواء كان هناك وعد أو لم يكن. سميجول أو جولام، إنه لن يغير عاداته في عجالة، إنني واثق من ذلك. اذهب أنت لتنام يا سيد فرودو وسوف أنادي عليك عندما أعجز عن الإبقاء على جفنيَّ مفتوحين. إنه يروغ ويهرب، مثلما حدث من قبل، وهو مسرح، حر، طليق».

فقال فرودو متحدثًا بصراحة: «قد تكون على صواب يا سام. هناك تغيير فيه، ولكن، وعلى وجه الدقة، أي نوع من التغيير وما مدى عمقه، إنني غير متأكد بعد. ومع ذلك وبشكل جاد، فإنني لا أعتقد أن هناك أي داع للخوف في الوقت الحالي. واصل الحراسة إذا كنت تريد. اتركني حوالي ساعتين، ليس أكثر، وبعد ذلك نادِ عليَّ».

كان فرودو متعبًا للغاية، لدرجة أن رأسه تدلَّى على صدره ونام، بمجرد أن تحدث بالكلمات تقريبًا. لم يعد يبدو أن لدى جولام أية مخاوف. انكمش وغطَّ سريعًا في النوم، مطمئنًا تمامًا. في هذا الوقت كان نَفَسُه يهس هسيسًا خفيضًا عبر أسنانه المطبقة، لكنه كان يرقد ساكنًا مثل حجر. وبعد وقت قصير، خشية أن ينعس هو نفسه، إذا هو جالس يستمع إلى نَفَس رفيقيه، قام سام من مكانه ونخز جولام برفق. انفكت

يداه وارتعشتا، لكنه لم يأتِ بأي حركة أخرى. وانحنى سام وقال (سمك)[1] قريبًا من أذنه ولكن لم تكن هناك أي استجابة ولا-حتى توقف مؤقت في تنفس جولام.

وحك سام رأسه وقال مغمغمًا: «لابد أنه نائم حقًا. وإذا كنتُ أنا مثل جولام، فإنه لن يستيقظ أبدًا مرة أخرى». وراح يكبح أفكار سيفه والحبل التي قفزت إلى عقله، وذهب وجلس إلى جوار سيده.

وعندما استيقظ كانت السماء فوقه معتمة، ليست أكثر ضوءًا بل أكثر ظلمةً مما كانت عليه عندما تناولا إفطارهما. وهبَّ سام واقفًا. ليس على أقل تقدير من شعوره هو بالنشاط والجوع، لقد فهم فجأة أنه نام طوال فترة ضوء النهار، تسع ساعات على الأقل. كان فرودو لا يزال نائمًا، يرقد الآن متمددًا على جنبه. لم يكن جولام ليُرى. وراح سام يوبخ نفسه بالكثير من الأسماء التأنيبية التي خطرت بعقله، استقاها من مخزون الكلمات الأبوي للعجوز الجافر، كما خطر بباله أيضًا أن سيده كان على صواب؛ لم يكن هناك بالنسبة للوقت الحالي أي شيء للاحتراس منه. لقد كانا، على أية حال، كلاهما حيَّيْن ولم يُخنقا.

وقال شبه نادم: «تعس مسكين.. والآن فإنني أتساءل أين ذهب؟».

فجاء صوت من فوقه: «ليس بعيدًا، ليس بعيدًا!» ونظر إلى أعلى لا رأى شكل رأس وأذني جولام الكبيرة تظهر في ضوء سماء المساء.

وصاح سام حيث عاد إليه شكه وريبته بمجرد أن رأى ذلك الشكل: «هنا، ما الذي تفعله؟».

فرد عليه سميجول قائلًا: «سميجول جائع.. سوف أعود سريعًا».

وصاح فيه سام: «ارجع الآن! أنت! ارجع!» ولكن جولام كان قد اختفى.

واستيقظ فرودو على صوت صراخ سام وجلس في مكانه، وفرك عينيه، وقال: «ماذا! ما الذي حدث؟ كم الساعة؟».

فرد عليه سام قائلًا: «لا أدري، بعد غروب الشمس، حسب اعتقادي. واختفى هو. يقول إنه جائع».

فقال له فرودو: «لا تقلق! لا يمكننا منع ذلك لكنه سيرجع، وسوف ترى. سوف يستمر الوعد لبعض الوقت؛ ولن يترك شيئه الثمين على كل حال».

استهان فرودو بالأمر عندما علم أنهما ناما نومًا عميقًا لمدة ساعات ومعهما جولام، وجولام جائع جدًا أيضًا، مفكوكًا حرًّا طليقًا إلى جوارهما، وقال: «لا تفكر في أي اسم

(1) نلاحظ هنا أن سام قلد جولام تمامًا في نطقه لكلمة سمك (fish) مثل جولام (fissh). (المترجم)

من الأسماء الصعبة التي كان يطلقها عجوزك الجافر. لقد هُزمتَ، وكل شيء سار على ما يرام؛ إننا مستريحان الآن. كما أن أمامنا طريقًا صعبًا؛ أسوأ الطرق جميعًا على الإطلاق».

وقال سام: «وعن الطعام. كم سنستغرق من الوقت في إنجاز هذه المهمة؟ وعندما ننتهي، ماذا سنفعل عندئذ؟ زاد المسافر: هذا الليمباس يبقيك حيًا صامدًا على قدميك بطريقة مذهلة، بيد أنه لا يشبع الأحشاء بشكل كاف، إذا جاز لك القول: إنه ليس ما أحب على أية حال، ولا أقصد بذلك أي ازدراء له كما قد يبدو من كلماتي. ولكن يجب عليك أن تأكل بعضًا منه كل يوم، وهو لا يكبر. أعتقد أن لدينا ما يكفي منه ليدوم مثلًا لمدة ثلاثة أسابيع تقريبًا، وذلك مع ربط الحزام والاقتصاد الشديد، لعلك تفهمني. لقد كنا نتعامل معه ببعض التحرر حتى الآن».

فقال فرودو: «لا أعلم كم المدة التي سنستغرقها حتى ننتهي، لقد تأخرنا بشكل بائس في التلال. ولكن يا ساموايز جامجي، أيها الهوبيتي العزيز، يا سام يا أعز هوبيتي عندي، يا أصدق الأصدقاء، لا أعتقد أننا بحاجة إلى التفكير فيما سيأتي بعد ذلك، حتى نقوم بـ «إنجاز هذه المهمة» كما خططت لها، فأي أمل هناك سيكون أمامنا؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن يعلم ماذا سيترتب على ذلك إذا ذهب الفريد النادر[1] إلى النار، وكنا نحن قريبين؟ إنني أسألك يا سام هل سنحتاج إلى خبز مرة أخرى؟ لا أظن ذلك. إذا استطعنا أن نحافظ على أطرافنا لتصل بنا إلى جبل الهلاك، فإن هذا كل ما نستطيع أن نفعله بل أكثر مما نستطيع، بهذا بدأت أشعر».

أومأ سام في صمت. وأخذ يد سيده وانحنى عليها. لم يقبلها، على الرغم من أن دموعه نزلت عليها. بعد ذلك التفت بعيدًا، وسحب كمه فوق أنفه، ونهض، وراح يضرب الأرض بقدميه، محاولًا الصفير، وهو يقول بين محاولاته: «أين ذلك المخلوق الملعون؟».

في حقيقة الأمر لم يمض وقت طويل عندما عاد جولام لكنه جاء في هدوء شديد لدرجة أنهما لم يسمعاه حتى صار واقفًا أمامهما. كان وجهه وأصابعه ملطخة بالوحل الأسود. كان لا يزال يمضغ ويسيل لعابه. ما الذي كان يمضغه، لم يسألاه عن ذلك ولم يحبا أن يفكرا.

وفكر سام: «ديدان أو خنافس أو شيء ما قذر مما يخرج من الحفر. يا للقذارة! المخلوق القذر؛ هذا التعس المسكين!».

ولم يقل جولام شيئًا لهما، حتى كان قد شرب كثيرًا وغسل نفسه في جدول الماء. بعد ذلك جاء إليهما وهو يلعق شفتيه وقال: «أفضل الآن. هل استرحنا؟ هل نحن

(1) الفريد النادر: الإشارة هنا إلى الخاتم الذي يريد فرودو أن يلقيه في النار في موردور. (المترجم)

جاهزون لمواصلة السير؟ أيها الهوبيتيان الطيبان، إنهما ينامان نومًا عميقًا. أتثقان في سميجول الآن؟ جيد جدًا جدًا».

كانت المرحلة التالية من رحلتهم تشبه المرحلة الأخيرة كثيرًا. وبينما كانوا يواصلون سيرهم، أصبح الوادي أكثر ضحالة وصار انحدار أرضه أكثر تدريجًا. كان قاعه صخريًا بقدر أقل وترابيًا بقدر أكثر. وبطيئًا تضاءلت جوانبه إلى مجرد ضفاف. وبدأ يتعرج ويتلوى. اقتربت تلك الليلة من نهايتها، ولكن السحب كانت الآن فوق القمر والنجوم، ولم يعلما بقدوم النهار إلا بالانتشار البطيء للضوء الرمادي الخافت.

وفي ساعة باردة جاءوا إلى نهاية المجرى المائي. أصبحت الضفاف روابيَ نمت فيها الطحالب. فوق آخر رف من الحجر المتعفن راح الجدول يتدفق مترقرقًا ويسقط إلى مستنقع بني اللون ويتلاشى. راحت عيدان نبات القصب تهس وتخشخش على الرغم من أنهما لم يكونا يشعران بأي ريح.

على كل جانب وفي المقدمة كانت توجد مستنقعات كثيرة، تمتد بعيدًا باتجاه الجنوب وباتجاه الشرق في شبه الضوء المعتم. وتلوى السديم ودخن من برك المياه المظلمة الصاخبة. وتعلق بخارها خانقًا في الهواء الساكن. وبعيدًا، باتجاه الجنوب تقريبًا الآن، لاحت جدران موردور الجبلية، مثل حاجز أسود من سحب كثيرة كالِلُجة تطفو فوق بحر خطيرٍ محاط بالضباب.

كان الهوبيتيان الآن في يديّ جولام تمامًا. إنهما لم يعرفا، ولم يستطيعا أن يخمنا، في ذلك الضوء السديمي، أنهما كانا في الحقيقة داخل الحدود الشمالية للمستنقعات تمامًا، والتي كان الامتداد الوحيد لها يقع جنوبهما. كان بإمكانهما لو أنهما كانا قد عرفا الأرض مع بعض من التأخير قد تتبعا خطواتهما قليلًا، وبعد ذلك بالالتفات شرقًا يأتيان إلى طرق صلبة إلى سهل داجورالد[1] القفر؛ ميدان المعركة القديمة أمام بوابات موردور. ليس لأنه لم يكن هناك أمل كبير في ذلك المسار. في هذا السهل الصخري لم يكن هناك أي غطاء، وعبر السهل كانت تسير طرق الأوركيين وجنود العدو. لم يكن بالإمكان حتى أن تخفيهم معاطف لورين هناك.

وسأل فرودو: «كيف نرسم طريقنا الآن يا سميجول؟ هل يجب علينا أن نعبر هذه المستنقعات ذات الرائحة الشريرة العفنة؟».

فقال جولام: «ليست هناك حاجة إلى ذلك، ليست هناك حاجة على الإطلاق.

(1) Dagorlad ومعناها Battle Plain أي سهل المعركة. (المترجم)

ليست هناك حاجة إذًا كان الهوبيتيون يريدون أن يصلوا إلى الجبال المظلمة ويذهبوا إليه سريعًا جدًا. للوراء قليلًا، والـدوران قليلًا. «ولوحت ذراعه النحيلة شمالًا وشرقًا.. ويمكنكم أن تأتوا على طرق صعبة باردة إلى بوابات بلاده مباشرة. سوف يكون الكثيرون من شعبه هناك يشاهدون الضيوف مسرورين جدًا ليأخذوهم إليه مباشرة، أوه! نعم. إن عينيه تراقبان هذا الطريق طوال الوقت. لقد أمسك بسميجول هناك، منذ زمن طويل». وارتجف جولام. «ولكن سميجول كان يستخدم عينيه منذ ذلك الحين، نعم، نعم: لقد كنتُ أستخدم عينيّ وقدميّ وأنفي منذ ذلك الحين. إنني أعرف طرقًا أخرى أكثر صعوبة، ليست سريعة جدًا؛ ولكن أفضل، إذا كنا لا نريده أن يرانا. اتبعوا سميجول! يمكنه أن يأخذكم عبر المستنقعات، وقد تسيرون مسافة طويلة، مسافة طويلة جدًا، قبل أن يمسك بكما، نعم من المحتمل».

كانت الدنيا بالفعل نهارًا؛ صباحًا متجهمًا لا ريح فيه، وكان ضباب المستنقعات يرقد في ضفاف ثقيلة. لم تكن هناك شمس تخترق السماء ذات السحب المنخفضة، وكان جولام يبدو قلقًا لمواصلة الرحلة في الحال؛ ولذلك بعد فترة راحة قصيرة بدءوا رحلتهم مرة أخرى وسرعان ما تاهوا في عالم ظلالي مظلم منعزل عن كل مشاهد للأرض حولهم، سواء التلال التي كانوا قد تركوها أو الجبال التي كانوا يسعون إليها. وساروا بطيئًا في طابور واحد: جولام، سام، فرودو.

كان فرودو يبدو أكثر الثلاثة تعبًا وإعياءً، ومع ذلك كانوا يسيرون ببطء، وكان غالبًا ما يتأخر وراءهما. وسريعًا وجد الهوبيتيان أن ما كان يبدو مثل مستنقع شاسع كان في حقيقة الأمر شبكة لانهائية من أحواض المياه، والمستنقعات الصغيرة الرخوة، ومجاري المياه المتعرجة شبه المخنوقة. بين كل هذه الأشياء، فإن عينًا وقدمًا بارعتين ماكرتين يمكن أن تشقا بكل حذر طريقًا متعرجًا. وكان لجولام بكل تأكيد هذه البراعة وذلك المكر، وكانت هناك حاجة إلى ذلك كله. كان رأسه على رقبته الطويلة يدور طوال الوقت في هذا الاتجاه وذاك، بينما كان يتشمم ويغمغم طوال الوقت مع نفسه. وكان أحيانًا يرفع يديه عاليًا ويوقفهما، في حين كان هو يتقدم للأمام قليلًا، جاثمًا يختبر الأرض بأصابع يديه أو أصابع رجليه أو فقط يتنصت بأذن واحدة ملتصقة بالأرض.

كان الجو من حولهم كئيبًا ومرهقًا. كان الشتاء البارد الرطب لا يزال له تأثير كبير في هذه الأراضي المهجورة. كانت النباتات الخضراء الوحيدة الموجودة عبارة عن حثالة النباتات والأعشاب المائية على أسطح المياه الكئيبة المظلمة الملوثة. كانت الحشائش الميتة وعيدان القصب المتعفنة تلوح في السديم مثل ظلال متقطعة في صيف نُسي منذ زمن طويل.

وبينما راح النهار ينقضي ببطء ازداد الضوء قليلًا، وارتفع السديم، وأصبح أخف

وأكثر شفافية. وفوق تعفن وأبخرة العالم بكثير كانت الشمس مرتفعة عاليًا وكانت ذهبية في الأراضي الهادئة وأرضيتها المكونة من زَبد متألق، ولكن لم يكونوا يرون سوى شبح عابر منها في الأسفل، غائم وشاحب ليس له لون ولا يمنح أي دفء. ولكن حتى في تلك القلة القليلة المتبقية من وجودها كان جولام يقطب جبينه ويجفل. أوقف رحلتهم، واستراحوا، جاثمين مثل حيوانات صغيرة مطاردة، على حدود أجمة كبيرة بنية من القصب. وكان هناك صمت عميق، لم يكن يخدشه عند أسطحه سوى ارتعاش ضعيف لبعض الأعشاب الخالية من البذور، وأوراق الأعشاب المكسرة ترتعش في حركات الهواء الصغيرة لم يكونوا يحسون بها.

فقال سام في حزن: «ليس طائرًا».

ورد عليه جولام بقوله: «لا، ليست طيورًا. طيور جميلة!» ولعق أسنانه. «لا توجد طيور هنا. هناك ثعابين وديدان وأشياء في البرك. الكثير من الأشياء، الكثير من الأشياء القذرة. لا توجد طيور» وأنهي كلامه في حزن. ونظر سام إليه في نفور.

وهكذا مر اليوم الثالث من رحلتهما مع جولام. قبل أن تصبح ظلال المساء طويلة في أراض أكثر سعادة، واصلوا سيرهم مرة أخرى، دائمًا يسيرون ولا يتوقفون إلا وقفات قصيرة فقط. ولم يكونوا يفعلونها للراحة بقدر ما كانت لمساعدة جولام؛ لأنه حتى الآن كان يجب عليه أن يتقدم بحذر شديد، وكان يتوه أحيانًا لبعض الوقت.. لقد وصلوا إلى وسط المستنقعات الميتة وكانت مظلمة.

وراحا يمشيان ببطء، منحنيين، متاخمين للخط، يتبعان في دقة وتركيز كل حركة يأتيها جولام. أصبحت المستنقعات أكثر رطوبة، متسعة لتصبح مستنقعات كبيرة راكدة، أصبح من الأكثر صعوبة بشكل متزايد بينها العثور على أماكن أكثر ثباتًا حيث يمكن للقدمين أن تدوسا بدون أن تغوصا في وحل متدفق. كان المسافرون خِفافًا، وإلا فربما لم يكن بإمكان أي منهما أن يشق طريقه.

وفي الوقت الحالي أصبحت الدنيا مظلمة تمامًا، بدا الهواء نفسه أسود وثقيلًا في التنفس. وعندما ظهر الضوء حك سام عينيه: ظن أن رأسه أصابه هوس. رأى أولًا ضوءًا بطرف عينه اليسرى؛ أثرًا ضئيلًا من بريق شاحب تلاشى، ولكن ظهرت أشياء أخرى بعد ذلك مباشرة؛ بعضها كان دخانًا مضيئًا على نحو معتم، وبعضها مثل ألسنة لهب تتوهج ببطء فوق شموع غير مرئية؛ وراحت تتلوى هنا وهناك مثل صفائح طيفية تنشرها أيد خفية. ولكن لم يتحدث أي من رفاقه بكلمة.

وأخيرًا لم يعد سام يسمع أي شيء، وقال في همس: «ما كل هذا يا جولام؟ هذه الأضواء؟ إنها تحيط بنا جميعًا من كل مكان. هل وقعنا في فخ؟ من هم؟».

ونظر جولأم لأعلى. كانت أمامهم مياه سوداء، وكان هو يزحف على الأرض، هنا وهناك، غير متيقن من الطريق. وقال هامسًا: «نعم إنها حولنا في كل مكان. الأضواء الخادعة. شموع الجثث، نعم، نعم. لا تعرها انتباهًا! لا تنظر! لا تتبعها! أين السيد؟».

ونظر سام للوراء ووجد أن فرودو تخلف وراءهما مرة أخرى. لم يكن يراه. وعاد بعض الخطوات للوراء في الظلمة، غير متجرئ على أن يذهب أكثر من ذلك، أو أن ينادي بصوت أعلى من همس أجش. وفجأة تعثر في فرودو الذي كان يقف تائهًا في الفكر، ينظر إلى الأضواء الشاحبة. كانت يداه معلقتين متصلبتين إلى جواره؛ كان الماء والوحل يتقاطران منهما.

وقال له سام: «تعال يا سيد فرودو! لا تنظر إليها! جولام يقول إنه لا يجوز لنا النظر إليها. هيا بنا نلتصق به ونخرج من ذلك المكان الملعون سريعًا قدر الإمكان إذا استطعنا ذلك!».

فقال فرودو كما لو كان عائدًا من حلم: «حسنًا. إنني قادم. واصل السير!».

ولما كان سام يسرع في خطاه للأمام، تعثر ووقع، حيث تعثرت قدمه ببعض الجذور أو كتلة من الأعشاب. وسقط متكومًا بكل ثقله على يديه اللتين غارتا في أعماق الوحل اللزج، وهكذا فإن وجهه كان ملاصقًا بشكل كبير لسطح البركة المظلمة. وكان هناك هسيس خافت، رائحة مثيرة للاشمئزاز تصعد، وتوهجت الأضواء ورقصت وتلوت. وبدت المياه أسفل منه لبعض الوقت مثل نافذة مكسوة بزجاج متسخ. كان ينظر خلاله. ولما انتزع يده من الوحل، قفز للوراء وصرخ، وقال في رعب: «هناك أشياء ميتة، وجوه ميتة في الماء. وجوه ميتة!» وضحك جولام، وقال وهو يضحك: «المستنقعات الميتة، نعم، نعم: هذا هو اسمها. يجب ألا ننظر عندما تضاء الشموع».

«من هم؟ ما هم؟». سأله سام وهو يرتعش، وقد التفت إلى فرودو الذي كان الآن وراءه.

فقال فرودو في صوت شبيه بالحلم: «لا أدري. ولكنني رأيتها أيضًا. في البرك عندما أضيئت الشموع. إنها موجودة في جميع البرك، وجوه شاحبة، في أعماق الأعماق تحت المياه المظلمة. لقد رأيتها: وجوه كالحة وشريرة، ووجوه نبيلة وحزينة. وجوه كثيرة فخورة وجميلة، وأعشاب في شعرهم الفضي. ولكن كل شيء كريه الرائحة، كل شيء متعفن، كل شيء ميت. هناك ضوء رهيب فيها». وخبأ فرودو عينيه بين يديه. «لا أدري من هم؛ ولكنني ظننتُ أنني رأيتُ هناك إنسًا وجنًا، وأوركيين إلى جوارهم».

وقال جولام: «نعم، نعم. كل شيء ميت، كل شيء متعفن. جن وإنس وأوركيون. المستنقعات الميتة. كانت هناك معركة كبيرة منذ زمن طويل، نعم، هكذا أخبروه عندما كان سميجول صغيرًا، عندما كنتُ صغيرًا قبل أن يأتي الثمين. كانت معركة عظيمة.

رجال طوال معهم سيوف طويلة، وجن رهيبو المنظر، وأوركيون يصرخون ويزعقون. حاربوا في السهل لمدة أيام وشهور عند البوابات السوداء. ولكن المستنقعات اتسعت منذ ذلك الحين، وابتلعت القبور، وراحت تزحف وتزحف».

وقال سام: «ولكن هذا كان منذ زمن كبير مضى. لا يمكن أن يكون الموتى هناك في حقيقة الأمر! هل هذا سحر معين خرج في أرض الظلام؟».

وأجابه جولام قائلًا: «من يعلم؟ سميجول لا يعرف. لا يمكنك الوصول إليهم، لا يمكنك لمسهم. لقد حاولنا ذات مرة، نعم، الثمين. حاولتُ مرة.. ولكن لا يمكنك أن تصل إليهم. ترى أشكالًا فحسب، من المحتمل، ولكن لا تلمسها. ليس الثمين! كلهم أموات».

ونظر سام إليه في ريبة وارتعش مرة أخرى، مفكرًا أنه خمن السبب الذي يجعل سميجول يحاول لمسهم، وقال: «حسنًا، لا أريد أن أراهم. لا أريد مرة أخرى على الإطلاق! أليس بإمكاننا أن نواصل سيرنا ونذهب بعيدًا؟».

فقال جولام: «بلى، بلى. ولكن ببطء، ببطء شديد. بحذر شديد! وإلا فسوف يغوص الهوبيتيون وينضمون للموتى ويضيئون شموعًا صغيرة. اتبعوا سميجول! لا تنظروا إلى الأضواء!».

وحَبَا بعيدًا إلى اليمين؛ باحثًا عن طريق حول المستنقع. وجاءا وراءه ملاصقين له، منحنيين، بل كانا كثيرًا ما يستخدمان أيديهما مثله. وفكر سام: «سوف نكون ثلاثة جولام ثمينين في صف واحد، لو أن هذا دام طويلًا».

وأخيرًا وصلوا إلى نهاية المستنقع الأسود وعبروه، على نحو محفوف بالمخاطر، يزحفون أو يقفزون من كتلة خادعة من عشب كأنها جزيرة إلى أخرى. وغالبًا ما كانوا يتعثرون ويتخبطون أو يسقطون على أيديهم أولًا في مياه متسخة مثل حمأة قذرة، حتى إن الوحل قد لطخهم وغمرهم حتى رقابهم وراحوا يشمون بأنوفهم الرائحة القذرة المنبعثة من كلٍّ منهم.

وفي وقت متأخر من الليل، وصلوا أخيرًا إلى أرض أكثر صلابة مرة أخرى. وهس جولام وهمس مع نفسه، ولكن بدا أنه كان مسرورًا، بطريقة ما غامضة غريبة، بإحساس ممتزج من شعور، وشم، وذاكرة غريبة للأشياء في الظلمة، كان يبدو أنه يعرف تمامًا أين كان مرة أخرى، وأنه متأكد من طريقه الذي يقع أمامه، وقال:

«والآن فإننا نواصل المسير! أيها الهوبيتيون الطيبون! أيها الهوبيتيون الشجعان! بحذر شديد جدًّا جدًا بالطبع؛ وهكذا نحن، يا ثميني، كلنا. ولكن يجب أن نأخذ السيد بعيدًا عن الأضواء الشريرة، نعم، نعم، يجب علينا ذلك». وبهذه الكلمات انطلق في السير مجددًا، كان تقريبًا يهرول عبر ما كان يبدو أنه ممر ضيق بين نباتات البوص الطويلة،

وراحا يتخبطان مسرعين وراءه بكل ما أوتيا من قوة. ولكن في وقت قصير عندما توقف فجأة وتشمم الهواء في شك، وله هسيس كما لو كان متضايقًا أو مستاءً مرة أخرى.

وقال سام في تذمر، وقد أخطأ تفسير العلامات: «ماذا حدث؟ ما الحاجة إلى التشمم؟ الرائحة تكاد تقضي عليَّ حتى وأنفي مقفل. رائحتك نتنة، ورائحة سيدي نتنة؛ المكان كله رائحته نتنة».

وأجابه جولام بقوله: «نعم، نعم، وسام رائحته نتنة! سميجول المسكين يشم الرائحة، ولكن سميجول الطيب يتحملها. ولكن هذا لا يهم. الهواء يتحرك، هناك تغيير قادم. سميجول يتعجب ويتساءل عمًا لو كان مبتئسًا».

وواصل السير مرة أخرى، ولكن قلقه زاد، وكان يقف من وقت لآخر بكامل طول قامته، مادًا رقبته نحو الشرق ونحو الجنوب. ولم يستطع الهوبيتيان لبعض الوقت أن يسمعا أو يشعرا بما كان يضايقه ويقلقه. وعندئذ توقف الثلاثة فجأة، وقد تصلبوا وراحوا يتنصتون. بدا لفرودو وسام أنهما قد سمعا، من مسافة بعيدة، صرخة طويلة منتحبة عالية وحادة وشرسة. وارتعشا. وفي نفس اللحظة أصبحت حركة الهواء مدركة بالنسبة لهما.. وأصبح الجو قارس البرودة. وبينما كانا يقفان مرهفين آذانهما، سمعا ضوضاء مثل ريح قادمة من بعيد. وارتعشت الأضواء الضبابية، وبهتت، وانطفأت.

لم يتحرك جولام. وقف يرتعش يثرثر مع نفسه، حتى غمرتهم الريح في اندفاع مفاجئ، وهي تهس وتزمجر فوق المستنقعات. أصبح الليل أقل ظلمة، كان مضيئًا بما يكفي لأن يروا، أو يروا تقريبًا كتلًا من الضباب عديمة الأشكال، تتلوى وتلتف وهي تدور فوقهم وتمر عبرهم. ولما نظروا إلى أعلى رأوا السحب تتكسر وتتمزق، وبعد ذلك عاليًا في الجنوب توهج القمر، وهو يسير فوق الحطام الطائر.

وأدخل منظره للحظة السرور على قلبي الهوبيتيين، لكن جولام جثم من الخوف والرعب، وراح يتمتم باللعنات على الوجه الأبيض. وبعد ذلك رآه فرودو وسام وهما يحدقان في السماء، ويتنفسان بعمق من الهواء الأكثر نقاءً، وسحابة صغيرة تطير من التلال الملعونة، وظل أسود انفلت من موردور، وشكل كبير مجنح منذر بالشؤم اندفع منطلقًا عبر القمر، وبصيحة مميتة انطلق بعيدًا باتجاه الغرب، يفوق الريح في سرعتها الرهيبة.

ووقعوا منبطحين، يتحسسون دون هدف الأرض الباردة. ولكن ظلّ الرعب انطلق واستدار، وراح يمر أكثر انخفاضًا الآن، فوقهم مباشرة، جارفًا بخار وضباب المستنقعات بأجنحته المروعة. وبعد ذلك اختفى طائرًا في طريق عودته إلى موردور بسرعة غضب وحنق ساورون.. ووراءه انطلقت الريح مدوية، تاركة المستنقعات

الميتة جرداء وقاتمة. كان الخراب الواضح بعيداً إلى حيث يمكن للعين أن ترى، حتى إلى حد الجبال البعيدة، ملتحفة بنور القمر المتقطع.

ونهض فرودو وسام، وفركا أعينهما، مثل طفلين استيقظا من حلم شرير ليجدا الليل المألوف لا يزال يغمر الدنيا من حولهما. ولكن جولام رقد على الأرض كما لو كان مصعوقاً. وأيقظاه بصعوبة، ولبعض الوقت لم يرفع وجهه، ولكنه ركع للأمام على كوعيه، مغطياً مؤخرة رأسه بيديه المفلطحتين الكبيرتين.

وصاح مولولاً: «الأطياف! الأطياف على أجنحة! الثمين سيدهم. إنهم يرون كل شيء، كل شيء. لا شيء يمكن أن يخفى عنهم. اللعنة على الوجه الأبيض! إنهم يخبرونه بكل شيء. إنه يرى، إنه يعرف. آتش، جولام، جولام، جولام!» ولم ينهض أو يتحرك إلا بعد أن غاب القمر، متجهاً غرباً بعيداً فيما وراء تول براندير.

ومن ذلك الوقت فصاعداً، ظن سام أنه أحس بتغيير في جولام مرة أخرى. كان أكثر تودداً وتملقاً وصديقاً صداقة زائفة؛ ولكن سام شاهد على حين غرة بعض نظرات غريبة في عينيه بعض الأوقات، وخاصة باتجاه فرودو.. وعاد أكثر وأكثر إلى طريقة كلامه القديمة. وانتاب «سام» قلق متزايد آخر. بدا فرودو مرهقاً، مرهقاً لدرجة الإعياء. ولم يقل شيئاً، في حقيقة الأمر لم يكد يتكلم على الإطلاق؛ ولم يكد يشكو، ولكنه كان يمشي كشخص يحمل حملاً، يتزايد وزنه بشكل دائم، وراح يجر نفسه عبر الطريق، سائراً أبطأ وأبطأ، لدرجة أن سام طلب كثيراً من جولام أن ينتظر وألا يتركا سيدهما يتخلف وراءهما.

في الواقع، مع كل خطوة باتجاه بوابات موردور، كان فرودو يحس بالخاتم الموضوع في القلادة حول رقبته أنه أصبح أكثر ثقلاً وإرهاقاً. بدأ الآن يشعر به وكأنه ثقل فعلي يجره باتجاه الأرض. ولكن فيما بعد ذلك فإن ما كان يقلقه هو العين؛ هكذا كان يسميه بينه وبين نفسه. لقد كان ذلك هو ما جعله يرتعد وينحني، وهو يمشي، أكثر من حمل الخاتم. العين، هذا الإحساس الرهيب المتزايد بإرادة معادية تحاول بقوة كبيرة اختراق جميع ظلال السحب، والأرض، واللحم، وأن تراك، أن تثبتك تحت نظرتها المميتة، عارياً، جامد الشعور. لقد أصبحت الحجب رقيقة جداً، ضعيفة جداً ورقيقة، والتي كانت لا تزال تحجبها عنه. لقد عرف فرودو تماماً أين يقع المسكن الحالي ومركز تلك الإرادة الآن؛ بالتأكيد مثلما يمكن لشخص أن يعرف اتجاه الشمس وعيناه مغلقتان. كان يواجهها، وكانت قوتها ونفوذها تضربان على جبينه.

من المحتمل أن يكون فرودو قد أحس بشيء من نفس النوع، ولكن ما الذي كان يدور في صدره الشرير بين ضغط العين، والرغبة في الخاتم الذي كان قريباً للغاية،

وَوعده المتذلل الذي قطعه على نفسه تحت الخطر والخوف، لم يستطع الهوبيتيان تخمينه. لم يفكر فرودو في الأمر. كان ذهن سام منشغلًا في معظمه بسيده، بحيث لم يكد يلاحظ السحابة السوداء التي كانت قد سقطت على قلبه هو. لقد وضع فرودو أمامه الآن، وراح يراقب كل حركة من حركاته، ساندًا إياه إن هو تعثر، ومحاولًا تشجيعه بالكلمات الخرقاء.

عندما طلع النهار أخيرًا كان الهوبيتيان مندهشين لرؤيتهما كيف كانت الجبال المشئومة أكثر قربًا بالفعل. كان الهواء الآن أكثر صفاء وبرودة، وعلى الرغم من أن جدران موردور كانت لا تزال بعيدة فإنها لم تعد خطرًا مبهمًا على مرمى البصر، لكنها كانت تلوح عابسة مثل الأبراج السوداء المتجهمة عبر خراب موحش كئيب. كانت المستنقعات عند نهايتها، تتلاشى بعيدًا إلى أنسجة نباتية ميتة ومسطحات واسعة من الوحل الجاف المتشقق باتجاه الصحراء التي كانت تقع عند بوابة ساورون.

وبينما كان الضوء الرمادي موجودًا، جثما مختبئين تحت حجر أسود مثل الديدان، منكمشين؛ خشية أن يمر الرعب المجنح ويتجسس عليهما بعيونه الشرسة. كان الجزء المتبقي من تلك الرحلة ظلًا من خوف متزايد لم تكن الذاكرة تجد فيه أي شيء تستند إليه. ظلًا على مدار ليلتين أخريين يكدحان في سيرهما عبر الأرض المرهقة الكئيبة التي لم تكن بها طرق أو ممرات. أصبح الهواء كما بدا لهم ثقيلًا ومليئًا بدخان مر فحبس أنفاسهم وجفف حلوقهم.

وأخيرًا، في صباح اليوم الخامس منذ أن أخذوا الطريق مع جولام، توقفوا مرة أخرى. ارتفعت الجبال الكبيرة عالية أمامهم مظلمة كأسقف من دخان وسحاب. ومن سفوحها تعلقت أكتاف ضخمة وتلال مكسورة كانت الآن أقرب ما يكون على بعد اثني عشر ميلًا بالكاد. ونظر فرودو حوله في رعب. لقد كانت مخيفة مثل المستنقعات الميتة، والأراضي السبخة الجافة في بلاد تومان، كانت أكثر قذارة بكثير تلك البلاد التي راح النهار زاحفًا يكشف عنها الآن بطيئًا أمام عينيه المنكمشتين. حتى بالنسبة لمستنقع الوجوه الميتة فإنه يمكن أن يأتي شبح مهزول من ربيع أخضر، ولكن هنا لم يكن ليأتي ربيع أو صيف مرة أخرى. هنا لم يكن شيء يعيش، ولا حتى الكائنات القشرية التي تتغذى على العفن. كانت البرك فاغرة الأفواه مخنوقة بالرماد والوحل الزاحف، الأبيض بياضًا شاحبًا والرمادي، كما لو أن الجبال كانت قد لفظت قذارة الأحشاء فوق الأراضي من حولها؛ روابي عالية من صخور مسحوقة ومطحونة، مخاريط كبيرة من التراب سفعتها النار ولطخها السم، كانت تقف مثل جبانة قذرة في صفوف لانهائية تتكشف بطيئًا في الضوء الكاره.

لقد جاءوا إلى المكان المهجور والدمار الذي كان يوجد قبل موردور؛ الأثر الدائم للعمل المظلم الشرير لخدامه الذي سيبقى عندما تصبح كل أغراضهم عقيمة لا جدوى لها، أرض مدنسة، أصابها المرض على نحو يفوق كل علاج ما لم يدخل البحر العظيم فيها ويغسلها بالسلوان والنسيان. وقال سام: «إنني أشعر بالغثيان».
ولم ينبس فرودو بكلمة.

وقفوا هناك لبعض الوقت، مثل رجال على حافة النوم حيث يتنابه كابوس، يمسكه، على الرغم من أنهم يعرفون أنه لا يمكنهم الوصول إلى الصباح إلا من خلال الظلال. واتسع الضوء وتصلب. أصبحت الحفر فاغرة الأفواه والروابي السامة واضحة بشكل مخيف. أشرقت الشمس وارتفعت، وراحت تمشي بين السحب وأشرطة الدخان الطويلة، ولكن حتى ضوء الشمس كان مشوهاً. لم يرحب الهوبيتيان بذلك الضوء؛ كان يبدو غير ودي، يكشفهما في عجزهما وقلة حيلتهما كأشباح صغيرة لها صرير تتجول بين أكوام رماد سيد الظلام.

ولما كانوا متعبين للغاية بحيث لم يكن بإمكانهم السير أكثر من ذلك، راحوا يبحثون عن مكان يمكنهم أن يستريحوا فيه. وجلسوا لبعض الوقت دون حديث تحت ظل رابية من الخَبث، ولكن تسربت منها أبخرة كريهة، نفذت إلى حلوقهم وراحت تخنقهم. كان جولام أول من نهض. نهض وهو يغمغم ويسبُّ ويلعن، وبدون أن ينبس بكلمة أو يلقي نظرة على الهوبيتيين راح يحبو بعيداً على أربعته. وأخذ فرودو وسام يزحفان وراءه حتى وصلوا إلى حفرة واسعة تكاد تكون دائرية، لها جوانب عالية في الغرب. كانت باردة وميتة، وكان يقع في قاعها مستنقع كريه من رواسب زيتية كثيرة الألوان. في هذه الحفرة الشريرة جثموا، آملين أن يهربوا في ظلها من انتباه العين.

وانقضى اليوم بطيئاً. وراح عطش عظيم يقلقهم، لكنهم لم يشربوا سوى قطرات قليلة من قاروراتهم التي ملئوها آخر مرة في الوادي، والذي كان يبدو الآن لهم وهم ينظرون إلى الوراء في أفكارهم مكان سلام وجمال. وتعاقب الهوبيتيان في الحراسة. أولاً، ورغم ما كانا فيه من التعب، لم يستطع أحد منهما أن ينام على الإطلاق.. ولكن بينما كانت الشمس آخذة في غروبها بعيداً في سحابة كانت تتحرك بطيئاً، غلب سام النعاس. وكانت نوبة فرودو في الحراسة. ورقد على منحدر الحفرة، لكنه لم يتخفف من إحساس العبء الذي كان عليه. ونظر إلى أعلى في السماء التي كانت مخططة بالدخان ورأى أشباحاً غريبة؛ أشكالاً سوداء راكبة، ووجوهاً من الماضي. وفقد حساب الزمن، وهو يحلق بين النوم واليقظة، حتى استولى عليه النسيان.

واستيقظ سام فجأة ظانًا أنه سمع سيده ينادي. كانت الدنيا مساء. لم يكن بإمكان فرودو أن ينادي؛ لأنه كان قد نام، وقد انزلق تقريبًا إلى قاع الحفرة. كان جولام إلى جواره. ظن سام للحظة أنه كان يحاول إيقاظ فرودو؛ وعندئذ رأى أن الأمر لم يكن كذلك. كان جولام يتحدث مع نفسه. كان سميجول يعقد حوارًا مع ذهن آخر كان يستخدم نفس الصوت ولكن جعله يَصِر ويهس. وتبادل في عينيه ضوء شاحب وضوء أخضر وهو يتحدث.

قال الذهن الأول: «لقد وعد سميجول».

وجاءته الإجابة: «نعم، نعم، يا ثميني، لقد وعدنا لننقذنّ شيئنا الثمين، ليس لندعه يأخذه[1] أبدًا. ولكنه ذاهب إليه[2]، نعم، أكثر قربًا مع كل خطوة. ما الذي سيفعله الهوبيتيون به، إننا نتساءل، نعم إننا نتساءل».

«لا أدري. لا يمكنني أن أمنع ذلك. إنه مع السيد. لقد وعد سميجول أن يساعد السيد».

«نعم، نعم، أن يساعد السيد؛ سيد الثمين. ولكن لو كنا نحن السيد، ففي هذه الحالة يمكننا أن نساعد أنفسنا، نعم، ومع ذلك نحافظ على الوعد».

«ولكن سميجول قال إنه سيكون جيدًا جدًا جدًا. الهوبيتي الطيب! لقد فك حبلًا قاسيًا من رجل سميجول. إنه يتحدث كلامًا طيبًا معي».

«جيد جدًا جدًا، أصحيح يا ثميني؟ دعنا نكن طيبين؛ طيبين مثل سمكة جميلة، ولكن لأنفسنا. لا نؤذي الهوبيتي الطيب، بالطبع لا، لا».

وعارض صوت سميجول قائلًا: «ولكن الثمين يحافظ على الوعد».

فقال الآخر: «عندئذ خذه، ودعنا نحتفظ به نحن أنفسنا! عندئذ فسوف نكون نحن السيد، جولام! اجعل الهوبيتي الآخر، الهوبيتي القذر الشكاك، اجعله يزحف، نعم، جولام!».

«ولكن ليس الهوبيتي الطيب!».

«أوه! لا، ليس إذا لم يعجبنا ذلك. فهو لا يزال مع ذلك الباجينزي، يا ثميني، نعم، الباجينزي. لقد سرقه باجينزي. لقد وجده، ولم يقل شيئًا، لم يقل أي شيء. إننا نكره الباجينزيين».

«كلا، ليس هذا الباجينزي».

«نعم، كل باجينزي يجب أن نأخذه. كل الأشخاص الذين يحتفظون بالثمين يجب أن نأخذهم!».

---

(1) الضمير هنا يعود إلى سيد الظلام سارورن. (المترجم)

(2) الضمير هنا يعود إلى سيد الظلام سارورن. (المترجم)

«ولكنه سوف يرى، سوف يعرف. سوف يأخذه منا[1]!»

«إنه يرى. إنه يعرف. لقد سمعنا يقطع وعودًا سخيفة ضد أوامره، نعم. يجب أن نأخذه. الأطياف يبحثون. يجب أن نأخذه».

«ليس له!».

«كلا، أيها الجميل. انظر، يا ثميني؛ إذا نحن أخذناه فعندئذ يمكننا أن نهرب، حتى منه، أليس هذا صحيحًا؟ ربما نصبح أقوياء جدًا، أقوى من الأطياف. الملك سميجول؟ جولام العظيم؟ الجولام! يأكل سمكًا كل يوم، ثلاث مرات في اليوم، طازجًا من البحر. جولام الثمين الغالي! يجب أن نأخذه. إننا نريده، إننا نريده، إننا نريده!».

«ولكن هناك اثنان منهما. سوف يستيقظان سريعًا جدًا ويقتلاننا». قال ذلك سميجول في نحيب في محاولة أخيرة. «ليس الآن. ليس بعد».

«إننا نريده ولكن!» وهنا جاءت وقفة طويلة، كما لو أن فكرة جديدة قد استيقظت.

«ليس الآن، صحيح؟ ربما لا. إنها قد تساعد. قد تساعد، نعم».

وقال سميجول في نحيب: «لا، لا! ليس بهذه الطريقة!».

«نعم! إننا نريده! إننا نريده!».

كلما تحدث الذهن الآخر، كانت يدُ جولام الطويلة تزحف ببطء، وتنبش باتجاه فرودو، وبعد ذلك تُسحب للالتواء في حركة مفاجئة عندما يتحدث جولام مرة أخرى. وأخيرًا راحت كلتا الذراعين، ذواتي الأصابع الطويلة الملتوية والمرتعشة، يخدشان حوالي رقبته.

كان سام قد رقد ساكنًا، مذهولًا بهذا الحوار، لكنه كان يراقب كل حركة كان يأتيها جولام من أسفل جفني عينيه شبه المغمضتين. وقد بدا لعقله البسيط أن الجوع العادي، والرغبة في أكل الهوبيتيين، هو الخطر الرئيسي في جولام. لقد أدرك الآن أن الأمر لم يكن كذلك.. كان جولام يحس بالنداء الرهيب للخاتم. لقد كان سيد الظلام هو[2] بالطبع.. لكن سام تعجب من تكون (هي)[3]. واحدة من الأصدقاء القذرين الذين صادقهم التعس الصغير في شطحاته وتطوافه، حسب افتراضه. عندئذ نسي الأمر؛ لأن الأشياء من الواضح أنها ذهبت بعيدًا بما يكفي، وقد أصبحت خطيرة. كان هناك ثقل كبير في كل أطرافه، ولكنه رفع نفسه بجهد وجلس في مكانه. شيء ما حذره أن يكون حريصًا وألا يفصح أنه قد سمع المناقشة مصادفة. وتنهد تنهيدة عالية وتثاءب فاغرًا فاه بشكل كبير.

وقال وهو يتثاءب: «كم الساعة؟».

---

(1) ضمير الغائب في كل هذه العبارات يعود إلى (سيد الظلام) (المترجم)

(2) مثل السابق، حيث إن ضمير الغائب في عبارات كثيرة في هذا الفصل ورد على لسان جولام يعود إلى سيد الظلام (المترجم)

(3) الضمير الغائب المؤنث هنا وفي الجملة السابقة (إنها قد تساعد. قد تساعد، نعم.) (المترجم)

وهسَّ جولاّم هسيسًا طويلًا عبر أسنانه. ووقف للحظة، متوترًا ومهددًا، وبعد ذلك انهار ساقطًا للأمام على أطرافه الأربعة وراح يتسلق صاعدًا حافة الحفرة، وقال: «هوبيتيون طيبون! سام الطيب! رءوس نائمة، نعم، رءوس نائمة! اترك سميجول الجيد للحراسة! ولكن الدنيا مساء. الغسق يزحف علينا. حان الوقت للذهاب».

وفكر سام: «حان الوقت! وحان الوقت لأن نفترق أيضًا». ولكن خطر بباله أن يتساءل إذا لم يكن جولام في الحقيقة الآن خطيرًا في تركه حرًا طليقًا مثل تركه معهم. وقام مغمغمًا: «اللعنة عليه! أتمنى أن لو كان قد اختنق!» ومضى باضطراب عبر حافة الحفرة وأيقظ سيده.

ومن الغريب بشكل كاف، أحس فرودو بالانتعاش. لقد كان يحلم. لقد مر الظل الأسود، وزارته رؤيا جميلة في أرض المرض هذه. لم يظل منها شيء في ذاكرته، ولكن بسببها أحس أنه سعيد وأن قلبه قد تخفف أكثر من قلقه. كان حمله أقل ثقلًا عليه. رحب به جولام بسرور شبيه بفرحة الكلاب. راح يضحك بخفوت ويثرثر ويطقطق أصابعه الطويلة، ويخربش في ركبتي فرودو. وابتسم فرودو له، وقال:

«تعال. لقد قدتنا وأرشدتنا جيدًا وبإخلاص. هذه هي المرحلة الأخيرة. خذنا إلى البوابة، وبعد ذلك لن أطلب منك أن تذهب إلى أبعد من ذلك. خذنا إلى البوابة، وبعدها يمكنك أن تذهب إلى حيث تريد، فقط ليس إلى أعدائنا».

«إلى البوابة، صحيح؟». قال ذلك جولام بصوت صرير، وقد بدا مندهشًا ومرعوبًا. «إلى البوابة، سيدي يقول! نعم، هو يقول ذلك. وسميجول الطيب يفعل ما يطلبه، أوه! نعم. ولكن عندما نصبح أكثر قربًا، فسوف نرى من المحتمل، سوف نرى إذن. لن يبدو الأمر لطيفًا على الإطلاق. أوه لا! أوه لا!».

وقال سام: «سوف نذهب معك! دعونا ننه هذا الأمر!».

في الغسق الذي كان يعم الكون من حولهم راحوا يتخبطون خارجين من الحفرة شاقين طريقهم ببطء عبر الأرض الميتة. لم يكونوا قد ذهبوا بعيدًا عندما شعروا مرة أخرى بالخوف الذي كان قد حل بهم عندما ظهر الشكل المجنح فوق المستنقعات. وتوقفوا جاثمين على الأرض ذات الرائحة الشريرة، لكنهم لم يروا شيئًا في سماء المساء الكئيبة فوقهم، وسريعًا مر الخطر، عاليًا فوق رءوسهم، ذاهبًا ـ فيما يحتمل ـ في مهمة سريعة من باراددور. بعد وقت قصير، نهض جولام وراح يزحف متقدمًا مرة أخرى، متمتمًا ومرتعشًا.

بعد منتصف الليل بحوالي الساعة انتابهم الخوف مرة ثالثة، لكنه بدا الآن أكثر بعدًا، كما لو كان يمر بعيدًا جدًا فوق السحاب، مندفعًا بسرعة مروعة إلى الغرب. كان

جولام رغمًا عن ذلك عاجزًا عديم الحيلة من الخوف والرعب، واقتنع بأنهم كانوا مطاردين، وأن طريقهم كان معروفًا.

وقال في تذمر: «ثلاث مرات! ثلاث مرات تمثل خطرًا وتهديدًا. إنهم يحسون بنا هنا، إنهم يحسون بالثمين. الثمين هو سيذهم. لا يمكننا أن نذهب أكثر من ذلك في هذا الطريق، لا. ليست هناك فائدة، ليست هناك فائدة!».

لم تعد كلمات الرجاء والكلمات الطيبة ذات قيمة أو جدوى. لم ينهض جولام مرة أخرى إلا عندما أمره فرودو بغضب ووضع يده على مقبض سيفه. عندئذ نهض وهو يزمجر ويتكلم بغضب شديد، وسار أمامهما ككلب مضروب.

وهكذا راحوا يتخبطون عبر نهاية الليلة المرهقة الكئيبة، وحتى طلوع نهار آخر من الخوف راحوا يمشون في صمت مطأطئي الرءوس، لم يكونوا يرون شيئًا، ولم يكونوا يسمعون شيئًا سوى هسيس الريح في آذانهم.

الفصل الثالث
البوابة السوداء مغلقة

قبل أن يطلع فجر اليوم التالي انتهت رحلتهم إلى موردور. كانت المستنقعات والصحراء وراءهم. أما أمامهم، فقد رفعت الجبال الهائلة رءوسها المهددة الخطيرة، مظلمة قبالة السماء الشاحبة.

إلى الغرب من موردور، كانت سلسلة جبال إيفل دُواث، جبال الظل، تسير.. وفي الشمال القمم المكسرة وسلاسل إريد ليثوى[1] القاحلة، رمادية مثل الرماد. ولكن بينما كانت تلك السلاسل الجبلية تقترب كل منها من الأخرى؛ حيث لم تكن في حقيقة الأمر سوى أجزاء من جدار هائل حول سهول ليثلاد[2] وجبال جورجوروث[3] الحزينة، وبحر نورنين الداخلي الحاد في أقصى الوسط، وكانت تمد نحو الخارج أذرعًا طويلة باتجاه الشمال.. وبين تلك الأذرع كان هناك ممر ضيق. كان ذلك سيريث جورجور، الممر المسكون، المدخل إلى أرض العدو. انخفضت الجرف العالية على كلا الجانبين، وبرز للأمام من مدخلها تلان شديدا الانحدار، أسودان وقاحلان. وكانت تقف فوقها أسنان موردور، برجان قويان وطويلان. في أيام مضت منذ زمن طويل بناها إنس جوندور في زهوهم وقوتهم، بعد خلع ساورون وبعد فراره، خشية أن يحاول الرجوع إلى مملكته القديمة. ولكن قوة جوندور خارت، ونام البشر، ولسنوات طويلة كان البرجان خاويين. وبعد ذلك عاد ساورون. وعندئذ تم إصلاح أبراج المراقبة التي كان قد أُتلفت، وملئت بالسلام، وقامت فيها حامية بحماسة ويقظة لا تنقطع. كانت أسطحهما حجرية، بفتحات نوافذ مظلمة تطل نحو الشمال والشرق والغرب، وكانت كل نافذة مليئة بأعين يقظة لا تنام.

عبر مدخل الممر، من جرف إلى جرف، بنىً سيد الظلام متراسًا من الحجر. كانت فيه بوابة واحدة من حديد، وفوق شرفاته المفرجة كان الحراس يتحركون دون انقطاع أو توقف. أسفل التلال على كلا الجانبين كان الصخر مثقوبًا إلى مئات الكهوف والفتحات، هناك كانت تختبئ جماعة من الأوركيين، جاهزة عند تلقي أي إشارة لتنطلق مثل نمل أسود ذاهب إلى الحرب. لم يكن يستطيع أحد أن يعبر أسنان موردور دون أن يشعر بلدغتها، ما لم يكن قد استدعاهم ساورون، أو كان يعلم كلمات المرور السرية التي ستفتح مورانون؛ البوابة السوداء لبلاده.

---

(1) Ered Lithui الجبال الرمادية في شمال موردور (المترجم)

(2) Lithlad سهل الرمادي الشمالي في موردور (المترجم)

(3) Gorgoroth = Ered Gorgoroth ومعناها ['Mountains of Terror'] أي جبال الرعب (المترجم)

حدق الهوبيتيان في البرجين والجدار في يأس. حتى إنهما من بُعد كانا يريان في الضوء المعتم حركة الحراس السود فوق الجدار، ودوريات الحراسة أمام البوابة. كانوا الآن يرقدون محدقين فوق حافة تجويف صخري أسفل الظل الممتد لأكتاف جبال إيفل دُواث التي تقع في أقصى الشمال. وكان يخترق الهواء بأجنحته، في طيران مستقيم، غرابٌ ربما يكون قد طار فرسخًا فقط من مخبئهم إلى القمة السوداء للبرج الأقرب. راح دخان ضعيف يتلوى فوقه، كما لو أن نارًا كانت تحترق في التل تحته.

وطلع النهار وراحت الشمس السمراء الضاربة للصفرة تومض فوق سلاسل جبال إريدليثوي المجدبة فاقدة الحياة. وبعد ذلك فجأة سُمعت صرخة من أبواق ذات تجاويف نحاسية، جاءت مدوية من أبراج المراقبة، وبعيدًا عن معاقل ونقاط خفية في التلال جاءت نداءات مجيبة وأبعد من ذلك بكثير، بعيدة، بيد أنها عميقة ومنذرة بالسوء، انتشر صداها في الأرض الجوفاء فيما وراء أبواق وطبول باراد دُور الضخمة؛ وتم استدعاء الحراس الليليين لأبراجهم المحصنة وحجراتهم العميقة، وكان حراس النهار الشرسون وذوو العيون الشريرة، يسيرون إلى مواقعهم. . راح الحديد الصلب يومض وميضًا ضعيفًا على الشرفة المفرجة.

وقال سام: «حسنًا، ها قد وصلنا! ها هي البوابة، وهي تبدو لي كما لو أن ذلك المكان هو آخر نقطة سوف نصل إليها على الإطلاق تقريبًا. هذه هي كلمتي، ولكن العجوز الجافر سيكون لديه شيء يقوله أو اثنان، لو أنه رآني الآن! كان كثيرًا ما يقول إنني سأنتهي نهاية سيئة، إذا لم أحاذر في خطواتي، هذا ما كان يقوله. ولكنني الآن لا أظن أنني سأرى العجوز مرة أخرى. سوف تفوت عليه فرصته ليقول (لقد أخبرتك بذلك يا سام): يا للشفقة والأسى. وسوف يواصل قوله لي طويلًا كلما كان يستطيع أن يتنفس، لو أنني أستطيع أن أرى وجهه العجوز مرة أخرى فقط. ولكن يجب عليَّ أن أستحم أولًا، وإلا فإنه لن يعرفني.

أظن أنه ليست هناك فائدة في السؤال «أي طريق نسير فيه الآن؟» لا يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك إلا إذا كنا نريد أن نطلب من الأوركيين توصيلنا».

فقال جولام: «لا، لا! لا فائدة. لا يمكننا أن نذهب أكثر من ذلك. سميجول ذكر ذلك؛ حيث قال: سوف نذهب إلى البوابة، وبعد ذلك سوف نرى. ونحن نرى الآن. أوه نعم! يا ثميني، نحن نرى الآن. سميجول كان يعرف أن الهوبيتيين لا يمكن أن يذهبوا في هذا الطريق. أوه نعم، سميجول كان يعرف».

فقال سام، ولم يكن في حالة مزاجية تسمح له بأن يكون عادلًا أو معقولًا: «إذن فلماذا جئت بنا إلى هنا؟».

«السيد قال ذلك. السيد يقول: خذنا إلى البوابة؛ ولذلك فإن سميجول الطيب يفعل ذلك. السيد قال ذلك، السيد الحكيم».

فقال فرودو: «لقد فعلتُ ذلك». وكان وجهه مكتئبًا وعنيفًا، بيد أنه كان مصممًا. لقد كان متسخًا ومهلهلًا ومتضايقًا من الإرهاق والإعياء، لكنه لم يعد خائفًا، وكانت عيناه صافيتين. «لقد قلتُ؛ لأنني أريد أن أدخل موردور، ولا أعرف طريقًا آخر غير ذلك. ومن ثم فإنني سأذهب في هذا الطريق. إنني لا أطلب من أي أحد أن يذهب معي».

«لا، لا، يا سيدي!» قال ذلك جولام وهو ينتحب، ويخربشه، وهو يبدو في كرب كبير. «لا فائدة من ذلك الطريق! لا فائدة! لا تأخذ الثمين إليه[1]! إنه سوف يأكلنا جميعًا، إذا هو أخذه، سوف يأكل كل العالم. احتفظ به، أيها السيد الطيب، وكن عطوفًا مع سميجول. لا تدعه يأخذه. أو اهرب بعيدًا، اهرب إلى أماكن لطيفة، وأعطه لسميجول الصغير مرة أخرى. نعم، نعم، أيها السيد أعطه له، لم لا؟ سميجول سوف يحتفظ به في أمان، سوف يفعل أشياء جيدة كثيرة، وخاصة مع الهوبيتيين الطيبين. الهوبيتيون يذهبون إلى موطنهم. لا تذهبوا إلى البوابة!».

فقال فرودو: «إنني مأمور أن أذهب إلى أرض موردور، وبناء عليه سوف أذهب. إذا لم يكن هناك سوى طريق واحد، ففي هذه الحالة يجب عليّ أن أسلكه. وما يأتي بعد ذلك يجب أن يأتي».

لم يقل سام شيئًا. النظرة التي كانت على وجه فرودو كانت كافية له.. علم أن أية كلمات منه كانت عديمة الجدوى. وفوق ذلك كله فإنه لم يكن لديه قط أي أمل حقيقي في المسألة من البداية؛ ولكن نظرًا لكونه هوبيتيًا مرحًا فلم يكن يحتاج إلى أمل، مادام بالإمكان تأخير اليأس. والآن كانوا قد وصلوا إلى النهاية المُرة.. لكنه كان ملتصقًا بسيده على طول الطريق.. كان هذا ما جاء من أجله بصفة رئيسية، وسوف يظل ملتصقًا به. لن يذهب سيده إلى موردور وحده. سوف يذهب سام معه وعلى أية حال سوف يتخلصان من جولام.

ومع ذلك، فإن جولام لم يكن ينوي أن يتم التخلص منه. وركع عند قدمي فرودو، وهو يعصر يديه ويصرخ راجيًا: «ليس هذا الطريق يا سيدي! هناك طريق آخر. أوه! نعم، حقًا، هناك طريق آخر. طريق آخر، أكثر ظلمة، العثور عليه أكثر صعوبة، وأكثر سرية. ولكن سميجول يعرفه. اترك سميجول يريك!».

«طريق آخر!» قال ذلك فرودو في شك، وهو ينظر لأسفل إلى جولام بعينين متفحصتين.

(1) ضمير الغائب في هذه العبارة، والفقرة كلها يعود إلى (سيد الظلام) (المترجم).

«نعم! نعم حقًا! كان هناك طريق آخر. وجده سميجول. هيا بنا نذهب لنرى إن كان لا يزال موجودًا!».

«إنك لم تتحدث عن ذلك من قبل».

«كلا. سيدي لم يسأل. سيدي لم يقل ماذا ينوي أن يفعل. إنه لم يخبر سميجول المسكين. إنه يقول: سميجول، خذني إلى البوابة وبعد ذلك إلى اللقاء! سميجول يمكن أن يهرب ويكون طيبًا، لكنه الآن يقول: إنني أعتزم دخول موردور من هذا الطريق؛ ولذلك فإن سميجول خائف جدًا. إنه لا يريد أن يخسر سيده الطيب. وقد وعد، لقد جعله السيد يعد بأن ينقذ الثمين. ولكن السيد سوف يأخذه إليه[1] مباشرة إلى اليد السوداء، إذا ذهب السيد في هذا الطريق. وهكذا فإن سميجول يجب أن ينقذهما هما الاثنين، وهو يفكر في طريق آخر كان موجودًا، في وقت من الأوقات. أيها السيد الطيب. سميجول طيب جدًا، ودائمًا يساعد».

وقطب جبين سام، لو أنه كان يستطيع أن يثقب حُفَرًا في عيني جولام لكان قد فعل ذلك. كان عقله مليئًا بالشك. بالنسبة لكل الظواهر كان جولام مستاء وقلقًا حقًا لمساعدة فرودو. ولكن سام، متذكرًا الحوار الذي سمع مصادفة، وجد من الصعب تصديق أن سميجول الذي غُمر طويلًا قد جاء إلى السطح؛ ذلك الصوت، على أية حال، لم يكن الكلمة الأخيرة في الحوار. وكان تخمين سام أن نصفي سميجول وجولام (أو ما كان يسميه هو في عقله المتسلل والمتشمم) قد عقدا هدنة وتحالفًا مؤقتًا، لم يكن أي منهما يريد أن يأخذ العدو الخاتم.. كان كل منهما يرغب في الحفاظ على فرودو من الأسر، وتحت أعينهم، لأطول وقت ممكن وعلى كل حال مادام لدى المتشمم فرصة لوضع يده على «ثمينه». وكان سام يشك فيما إذا كان هناك طريق آخر إلى موردور، وقال مفكرًا:

«شيء جيد أن ما ينوي السيد أن يفعله لا يعرفه أي من نصفي[2] الوغد العجوز. لو أنه علم أن السيد فرودو يحاول أن ينهي ثمينه للأبد، فسوف تكون هناك مشكلة سريعًا جدًا، إنني أراهن على ذلك. على أية حال، المتشمم العجوز خائف جدًا من العدو ـ وهو تحت أوامر منه ـ لدرجة أنه كان يفضل أن يخوننا ويفشي سرنا على أن يقبض عليه وهو يساعدنا. وأن يترك ثمينه يذوب، ربما. على الأقل هذه فكرتي. وأتمنى أن يفكر السيد في الأمر ويتدبره بعناية. إنه حكيم مثل أي حكيم، ولكن قلبه رقيق، هذا ما هو عليه. إن ما سيفعله بعد ذلك وراء أي شيء يمكن أن يخمنه أي جامجي».

لم يرد فرودو على جولام في الحال. وبينما كانت تلك الشكوك تمر عبر عقل سام الداهية على بطئه، فإنه وقف يحدق باتجاه جرف سيريث جورجور المظلم. التجويف

(1) ضمير الغائب في هذه العبارة (إليه) يعود إلى (سيد الظلام) (المترجم)

(2) إشارة إلى الشخصيتين المتصارعتين بداخل سميجول.

الذي لاذوا به واختبئوا فيه كان محفورًا في جانب تل منخفض، على ارتفاع صغير فوق واد طويل شبيه بالخندق كان يقع بينه وبين أكتاف جدران الجبال. وفي وسط الوادي كانت تقع الأسس السوداء لبرج المراقبة الغربي. ومع ضوء الصباح، فإن الطرق التي كانت تتركز عند بوابة موردور كان يمكن رؤيتها بوضوح الآن، شاحبة ومتربة، كان أحدها متعرجًا باتجاه الشمال وآخر متعرجًا باتجاه الشرق إلى السديم الذي كان عالقًا حول سفوح إريد ليثوي وثالثًا كان يجري باتجاهه. وبينما كان ينحني انحناءً شديدًا حول البرج، فإنه دخل ممرًا ضيقًا ومر، ليس بعيدًا، تحت التجويف الذي كان يقف فيه. وباتجاه الغرب، إلى يمينه، دار الطريق، ملتفًا حول أكتاف الجبال، وسار باتجاه الجنوب مختفيًا في الظلال العميقة التي كانت تغطي كل الجوانب الغربية لجبال إيفل دُواث.. وفيما وراء إبصاره سار الطريق إلى الأرض الضيقة بين الجبال والنهر العظيم.

وبينما كان فرودو يمعن النظر لاحظ هناك حركة كبيرة على السهل؛ بدا كما لو أن جيوشًا بأكملها كانت تزحف، على الرغم من أن الأجزاء العظمى كانت يخفيها الضباب والأدخنة القادمة من المستنقعات والخرائب وراءها. لكنه لمح هنا وهناك وهج الحراب والخوذات.. وفوق المناطق المستوية إلى جوار الطرق كان خيالة راكبون يلوحون في مجموعات كبيرة. وتصور رؤيته من بعيد فوق آمون هين، منذ أيام قليلة من قبل، على الرغم من أنها بدت الآن كما لو كانت منذ سنوات كثيرة. عندئذ عرف أن الأمل الذي كان قد تحرك للحظة جامحة في قلبه كان سرابًا. لم تدوِ الأبواق تحديًا لكن تحية. لم يكن ذلك أي هجوم على سيد الظلام من جانب رجال جوندور الذين نهضوا مثل الأشباح المنتقمة من مقابر الشجاعة التي مضت منذ زمن طويل. كان هؤلاء رجال من جنس آخر، من خارج الأراضي الشرقية الواسعة، تجمعوا بناء على دعوة من سيدهم الأعلى.. جيوش عسكرت أمام بوابته ليلًا، والآن تزحف لتزيد من قوته المتزايدة أصلًا. كما لو أنه أصبح مدركًا تمام الإدراك فجأة لخطر موقفهم، وحدهم، في ضوء النهار المتزايد، والذي كان قريبًا جدًا لذلك الخطر الكبير، وشد فرودو سريعًا غطاء الرأس الرمادي الضئيل فوق رأسه بإحكام، ونزل إلى الوهدة. وبعد ذلك التفت إلى جولام، وقال:

«سميجول. سوف أثق بك مرة أخرى. في واقع الأمر يبدو أنه يجب عليَّ أن أفعل ذلك، وهذا هو قدري؛ أن أحصل على المساعدة منك، حيث التمستها على الأقل، وقدرك أن تساعدني أنا الذي طاردته كثيرًا لغرض شرير. حتى الآن لقد استحققت ثقتي فيك وقد حافظت على وعدك حقًا. حقًا أقول وأقصد ما أقول». وأضاف وهو يلقي نظرة على سام: «لأننا كنا مرتين حتى الآن في قبضتك، ولم تفعل أي شيء يؤذينا. كما أنك لم تحاول أن تأخذ مني ما كنتَ في وقت من الأوقات تبحث عنه. لعل المرة الثالثة تثبت أنها هي الأفضل! ولكنني أحذرك يا سميجول: إنك في خطر».

فقال جولام: «نعم، نعم، يا سيدي! خطر مخيف! عظام سميجول ترتعش عندما تفكر في ذلك، ولكنه لا يهرب.-يجب عليه أن يساعدَ سيده الطيب».

فقال فرودو: «إنني لم أقصد الخطر الذي نشترك فيه جميعًا. إنني أقصد خطرًا عليك وحدك. لقد قطعت على نفسك عهدًا بما تسميه «الثمين». تذكر ذلك! سوف يلزمك به، لكنه سوف يبحث عن طريقة ليَلْوِيَهُ لينقلب عليك ويدمرك. إنك بالفعل يتم ليِّك. لقد كشفتَ عن نفسك لي الآن مباشرة، في حماقة. لقد قلتَ أعطه لسميجول. لا تقل ذلك مرة أخرى! لا تدع هذه الفكرة تكبر بداخلك! لن تأخذه على الإطلاق. ولكن الرغبة فيه قد تخونك وتؤدي بك إلى نهاية مرة. لن تأخذه أبدًا. في أقسى الظروف، يا سميجول، سوف يتحتم عليَّ أن ألبس الثمين؛ وقد قهرك الثمين منذ زمن طويل. وإذا كان لي، وأنا ألبسه أن آمرك، فإنك سوف تطيع، حتى لو أمرتك أن تقفز من فوق جرف أو ترمي نفسك في النار. وهذا سيكون أمري لك. ولهذا احذر يا سميجول!».

ونظر سام إلى سيده باستحسان، ولكن أيضًا في دهشة؛ كانت هناك نظرة في وجهه ونبرة في صوته لم يعرفها من قبل. لقد كان لديه دائمًا انطباع شخصي خاص به أن عطف السيد فرودو العزيز كان عالي الدرجة، لدرجة أنه يجب أن ينطوي بالطبع على قدر كبير من العمى، كما أنه كان يعتنق بشدة الاعتقاد المتضارب أن السيد فرودو كان أحكم شخص في العالم (مع استثناء محتمل للسيد بيلبو العجوز وجَنْدَلْف). جولام بطريقته الخاصة، وبمزيد من الاعتذار حيث إن معرفته كانت أكثر إيجازًا بكثير، ربما كان سيرتكب خطأً مشابهًا، خالطًا بين العطف والعمى. على أية حال، فإن هذا الحديث أربكه وأرعبه. وانبطح على الأرض متذللًا ولم يستطع أن يتكلم أية كلمات واضحة سوى «سيدي الطيب».

وانتظر فرودو في صبر لبعض الوقت، بعد ذلك تحدث مرة أخرى بصرامة أقل. «هيا الآن، يا جولام أو سميجول إذا كنت تريد، أخبرني عن هذا الطريق الآخر، وأرني ـ إذا كنت تستطيع، أي أمل هناك فيه ـ بما يكفي لأن يبرر لي العدول عن طريقي الواضح. إنني في عجلة».

ولكن جولام كان في حالة يرثى لها، وقد أثار تهديد فرودو له أعصابه تمامًا. لم يكن سهلًا الحصول على أي شرح واضح منه، لكل غمغماته وصرخاته، والمقاطعات المتكررة وهو يزحف منبطحًا على الأرض ويرجوهما أن يكونا لطيفين مع «سميجول الصغير المسكين». بعد فترة من الوقت أصبح أكثر هدوءًا قليلًا، واستنتج فرودو تدريجيًا أنه، لو أن مسافرًا تبع الطريق الذي دار غرب جبال إيفل دُواث، فإنه سوف يصل في الوقت المناسب إلى معبر في دائرة من أشجار مظلمة. على اليمين راح

طريق يسير هابطًا إلى مدينة أوسجيلياث[1] وجسور نهر أندوين. . في الوسط واصل الطريق سيره باتجاه الجنوب.

وقال جولام: «سِرْ، سِرْ، سِرْ. إننا لم نسر بهذه الطريقة قطُّ، ولكنهم يقولون إنْ الطريق طوله مائة فرسخ حتى يمكنك أن ترى البحر العظيم الذي لا يركد أبدًا. توجد الكثير من الأسماك هناك، والطيور الكبيرة تأكل الأسماك؛ الطيور اللطيفة، لكننا لم نذهب إلى هناك قطُّ، للأسف لا! لم تتح لنا فرصة قطُّ. وفيما وراء ذلك هناك أراض كثيرة أخرى، حسب قولهم، ولكن الوجه الأصفر حار جدًّا هناك، ونادرًا ما توجد هناك أي سحب، والرجال شرسون ووجوههم سمراء. . إننا لا نريد أن نرى تلك الأرض».

فقال فرودو: «لا! ولكن لا تحد عن طريقك. ماذا عن المنعطف الثالث؟».

ورد عليه جولام بقوله: «أوه! نعم، أوه نعم، هناك طريق آخر. هذا هو الطريق إلى الشمال. في الحال يبدأ الصعود إلى أعلى، متعرجًا وصاعدًا للوراء باتجاه الظلال الطويلة. عندما يدور حول الصخرة السوداء، سوف تراه، فجأة سوف تراه فوقك، وسوف تريد أن تختفي».

«تراه، تراه؟ ما الذي ستراه؟».

«الحصن القديم، قديم جدًّا، فظيع جدًّا الآن. كنا نسمع حكايات من الجنوب، عندما كان سميجول صغيرًا، منذ زمن طويل. أوه نعم! كنا نحكي الكثير من الحكايات في المساء، ونحن جالسون عند ضفاف النهر العظيم، في أراضي الصفصاف، عندما كان النهر أصغر سنًّا أيضًا، جولام، جولام». وبدأ يبكي ويدمدم. وانتظر الهوبيتيان في صبر.

وواصل جولام كلامه مرة أخرى: «حكاياتٍ من الجنوب عن البشر الطوال الذين لهم أعين ساطعة، وبيوتهم مثل تلال صخرية، والتاج الفضي لملكهم وشجرته البيضاء: حكايات رائعة. بنوا أبراجًا عالية جدًّا، وكان أحد الأبراج التي شيدوها أبيض فضيًّا، وكان فيه حجر مثل القمر، وكانت هناك حوله جدران بيضاء كبيرة. أوه نعم! كانت هناك حكايات كثيرة عن برج القمر».

فقال فرودو: «ذلك هو برج ميناس إيثيل الذي بناه إسيلدور ابن إلينديل. لقد كان إسيلدور هو من قطع إصبع العدو».

فقال جولام وهو يرتعش: «نعم، إن لديه[2] أربعة فقط في اليد السوداء، ولكنها تكفي. وكان يكره مدينة إسيلدور».

وقال فرودو: «ما الذي لا يكرهه؟ ولكن ما شأن برج القمر بنا؟».

---

(1) Osgiliath ومعناها [Fortress of the Stars] أي قلعة/حصن النجوم وهي عاصمة جوندور ومدينتها الرئيسية وتقع على كلا جانبي نهر أندوين. (المترجم)

(2) ضمير الغائب في هذه العبارة يعود إلى (سيد الظلام) (المترجم)

«حسنًا، يا سيدي، هكذا كان وهكذا يكون؛ البرج المرتفع والبيوت البيضاء الجدار، ولكنها ليست لطيفة الآن، ليست جميلة. لقد غزاها منذ زمن طويل. المسافرون يرتعشون عندما يرونه، إنهم يزحفون حتى لا يراهم أحد، ويتفادون ظله. ولكن السيد[1] سوف يتحتم عليه أن يذهب في ذلك الطريق. هذا هو الطريق الآخر الوحيد؛ لأن الجبال أكثر انخفاضًا هناك، ويصعد الطريق القديم ويصعد، حتى يصل إلى ممر مظلم عند القمة، وبعد ذلك يسير هابطًا، ويهبط ويهبط، مرة أخرى إلى جبال جورجوروث». وانخفض صوته حتى أصبح همسًا وراح يرتعش.

وتساءل سام: «ولكن كيف سيساعدنا ذلك؟ بكل تأكيد العدو يعرف كل شيء عن جباله، وذلك الطريق سوف يكون محروسًا بعناية مثله مثل هذا البرج غير الخالي، أليس كذلك؟».

وهمس جولام قائلًا: «أوه! لا، ليس خاليًا! إنه يبدو خاليًا، ولكنه ليس كذلك، أوه لا! أشياء مخيفة جدًا تعيش هناك أيضًا. الطريق يصعد مباشرة أسفل ظل الجدران ويمر عابرًا البوابة. ليس من شيء يتحرك على الطريق لا يعلمون به. الأشياء التي بالداخل تعرف الحراس الصامتين».

فقال سام: «إذن هل نصيحتك أنه يجب علينا أن نسير مسيرة طويلة أخرى جنوبًا، لنجد أنفسنا في نفس الورطة أو في ورطة أسوأ منها، عندما نصل إلى هناك، إذا وصلنا على الإطلاق؟».

فقال جولام: «لا، لا، حقًا. الهوبيتيون يجب أن يروا، يجب أن يحاولوا أن يفهموا. إنه[2] لا يتوقع الهجوم من هذا الطريق. إن عينه في كل مكان حولنا، ولكنها تركز على بعض الأماكن أكثر من أماكن أخرى. إنه لا يستطيع أن يرى كل شيء في نفس الوقت، ليس بعد. تفهمون ما أقول، لقد تغلب على كل البلاد إلى الغرب من الجبال الظلالية عبر النهر، وهو يسيطر على الجسر الآن. إنه يعتقد أنه ليس من أحد يستطيع أن يأتي إلى برج القمر بدون أن يخوض معركة كبيرة عند الجسور، أو بدون امتلاك مراكب وسفن كثيرة ولا يمكن إخفاؤها وسوف يعرف هو[3] بشأنها».

وقال سام: «يبدو أنك تعرف الكثير عما يفعله ويفكر فيه. هل تحدثت معه مؤخرًا، أم أنك فقط كنت تخالط الأوركيين وتعاشرهم؟».

فقال جولام، وهو ينظر إلى سام نظرة غاضبة ويلتفت إلى فرودو: «ليس هوبيتيًا لطيفًا، ليس عاقلًا. لقد تحدث سميجول مع الأوركيين، نعم بالطبع، قبل أن يقابل

(1) كلمة السيد/ سيدي تشير إلى فرودو حيث يخاطبه جولام بهذا الاسم (master) (المترجم)

(2) ضمير الغائب في هذه العبارة يعود إلى (سيد الظلام) (المترجم)

(3) ضمير الغائب في هذه العبارة يعود إلى (سيد الظلام) (المترجم)

السيد، وتحدث معً الكثير من الأشخاص؛ لقد سار في أماكنَ بعيدة جدًا. وما يقوله الآن الكثير من الأشخاص يقولونه. إن الخطر الكبير بالنسبة له[1]، وبالنسبة لنا، يكمن هنا في الشمال. سوف يخرج من البوابة السوداء ذات يوم، في يوم من الأيام قريبًا. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن للجيوش الكبيرة أن تأتي بها. ولكن بعيدًا عبر الغرب فإنه ليس بخائف، وهناك الحراس الصامتون».

فقال سام، وهو لا يريد أن يسكت أو يؤجل ما يقول: «وإذن هذا هو الأمر على وجه الدقة! وهكذا يتحتم علينا أن نسير ونطرق على بوابتهم ونسأل إذا كنا على الطريق الصحيح الذي يوصل إلى موردور، أم أنهم صامتون صمتًا لا يمكنهم معه الإجابة والرد، وهذا ليس معقولًا. ربما يكون بإمكاننا أيضًا أن نفعله هنا، ونوفر على أنفسنا مسيرة طويلة».

فهسَّ جولام: «لا تمزح بهذا الشأن. الأمر ليس مزحة، أوه لا! ليس مسليًا أو ممتعًا. من غير المعقول أن تحاول وتصل إلى موردور على الإطلاق. ولكن إذا قال السيد يجب عليَّ أن أذهب أو سوف أذهب، ففي هذه الحالة يجب عليه أن يجرب طريقًا ما. ولكنه يجب عليه ألا يذهب إلى المدينة المروعة، أوه! كلا، بالطبع لا. هذه هي مساعدة سميجول، سميجول الطيب على الرغم من أنه لم يخبره أحد عن كنه ذلك كله. سميجول يقدم المساعدة مرة أخرى. لقد وجدها. وهو يعرفها».

وسأله فرودو: «ما الذي وجدته؟».

وجثم جولام على الأرض وانخفض صوته حتى صار همسًا: «طريق صغير يقود إلى الجبال، وبعد ذلك سُلم؛ سلم ضيق، أوه نعم! طويل جدًا وضيق. وبعد ذلك المزيد من السلالم. وبعد ذلك» وأصبح صوته أكثر انخفاضًا «نفق، نفق مظلم؛ وأخيرًا جرف صغير، وطريق عالٍ فوق الممر الرئيسي. لقد كان هذا هو الطريق الذي خرج سميجول عبره من الظلمة. ولكن ذلك كان منذ سنوات مضت. ربما يكون الطريق قد تلاشى الآن، ولكن ربما لا يكون، ربما لا يكون».

فقال سام: «إنني لا أحب ذكر ذلك على الإطلاق. الأمر يبدو سهلًا للغاية في الإخبار به. إذا كان هذا الطريق لا يزال موجودًا، فإنه ستكون عليه حراسة أيضًا. ألم تكن عليه حراسة يا جولام؟». وبينما كان يقول ذلك، لمح أو تخيل أنه لمح ومضة خضراء في عيني جولام. وغمغم جولام بيد أنه لم يرد.

وسأله فرودو في صرامة: «أليست عليه حراسة؟ وهل هربت من الظلمة يا سميجول؟ ألم يكن من الأحرى أنه قد سُمح لك بالرحيل، في مهمة؟ هذا هو على الأقل ما فكر فيه أراجورن الذي وجدك عند المستنقعات الميتة منذ بضع سنوات».

(1) ضمير الغائب في هذه العبارة يعود إلى (سيد الظلام) (المترجم)

«إنها كذبة!» قال ذلك جولام في هسيس، وجاء في عينيه ضوء شرير عند ذكر اسم أراجورن. «لقد كذب عليّ، نعم كذب عليّ. لقد هربتُ، هربتُ مع نفسي المسكينة وحدي. حقًا لقد طُلب مني أن أبحث عن الثمين، وقد بحثتُ وبحثتُ، بالطبع بحثتُ. ولكن ليس من أجل الأسود. إن الثمين كان ملكنا، لقد كان ملكي، إنني أقول لك ذلك. لقد هربتُ».

أحس فرودو بيقين غريب أن جولام في هذا الشأن كان غير بعيد جدًا من الحقيقة حسبما قد يُشك فيه، وأنه قد وجد بطريقة أو بأخرى طريقًا للخروج من موردور، وأنه على الأقل صدق أن ذلك كان بفعل دهائه هو؛ وذلك لشيء واحد هو أنه لاحظ أن جولام استخدم الضمير (أنا)[1]، وكان ذلك يبدو في العادة كعلامة، على الرغم من مرات ظهوره النادرة، على أن بعض بقايا من الحقيقة القديمة والصدق القديم كانت في تلك اللحظة فوق القمة. ولكن حتى لو أنه كان بالإمكان الوثوق بجولام، فإن فرودو لم ينس خدع العدو؛ إذ إن «الهرب» ربما يكون قد سُمح به أو رُتب له، ومعروف أمره لسيد الظلام. وبأية حال، فإن جولام كان بكل وضوح يستبقي قدرًا كبيرًا جدًا لا يتحدث عنه.

وقال له فرودو: «إنني أسألك مرة أخرى، أليست هناك حراسة على هذا الطريق السري؟».

ولكن اسم أراجورن وضع جولام في حالة مزاجية كئيبة. كان لديه الإحساس التام لشخص كاذب شك الآخرون فيه عندما قال الحقيقة أو جزءًا منها مرة واحدة. ولم يرد أو يجيبني.

وكرر فرودو سؤاله: «أليست هناك حراسة عليه؟».

فقال جولام بتجهم وكآبة: «نعم، نعم، ربما. ليست هناك أماكن آمنة في هذه البلاد. ليست هناك أماكن آمنة. ولكن السيد يجب أن يجربه أو يعود إلى بلاده. ليس هناك طريق آخر». ولم يستطيعا أن يجعلاه يقول أكثر من ذلك. أما اسم المكان الخطير أو الطريق الحرج فلم يستطع أن يقوله ولن يقوله.

كان اسمه سيريث أنجول[2]، اسم تشيع حوله شائعات مروعة.. ربما كان بإمكان أراجورن أن يخبرهما بذلك الاسم وما له من مغزى.. كان جَنْدَلْف سيحذرهما، ولكنهما كانا بمفردهما، وكان أراجورن بعيدًا، وكان جَنْدَلْف يقف بين أطلال آيزنجارد ويناضل مع سارومان، وقد أخرته الخيانة. ولكن مع ذلك وبينما هو يتحدث كلماته الأخيرة مع سارومان، تحطم حجر البالانتير في النار على درجات أورثانك، كان

(1) يميل جولام في حديثه عن نفسه إلى استخدام ضمير المتكلم الجمع، والإشارة هنا إلى العبارة السابقة (لقد كان ملكي أنا أخبرك بذلك) (المترجم)

(2) Cirith Ungol ومعناها [Spiders Cleft] أي شق العناكب، وهي مجاز على إيفل دُواث فوق ميناس مورجول وتسكن في شيلوب (أنثى العنكبوت) (والتي سيرد ذكرها تفصيلاً في مكان لاحق) (المترجم)

تفكيره دائمًا منصبًا علَى فرودو وساموايز، على الفراسخ الطويلة التي كان عقله يبحث عنها لهما؛ أملًا وشفقة.

ربما يكون فرودو قد أحس بذلك، دون أن يعرفه، كما حدث معه فوق أمون هين، حتى وإن كان يعتقد أن جَنْدَلْف قد ذهب؛ ذهب إلى الأبد؛ إلى الظل في موريا بعيدًا جدًا. جلس على الأرض لفترة طويلة، صامتًا، ورأسه محنيّ، محاولًا استرجاع كل ما كان جَنْدَلْف قد قاله له. ولكن لهذا الخيار لم يستطع أن يسترجع أي نصيحة. حقًا لقد أُخذ توجيه وإرشاد جَنْدَلْف منهما سريعًا جدًا، سريعًا أكثر من اللازم، في حين كانت أرض الظلام لا تزال بعيدة جدًا. كيف سيتمكنون من دخولها أخيرًا، هذا ما لم يقله جَنْدَلْف. ربما لم يستطع أن يقول ذلك. إلى معقل العدو في الشمال، إلى دُول جولدور، كان قد ذهب ذات مرة. ولكن إلى موردور، إلى جبل النار وإلى باراد دُور، منذ أن أصبح سيد الظلام قويًا مرة أخرى وذا سلطة، هل حدث وذهب إلى هناك على الإطلاق؟ لم يكن فرودو يعتقد ذلك. وها هو ذا هنا نصف[1] صغير من المقاطعة، هوبيتي بسيط من الريف الهادئ البسيط، توقع أن يجد طريقًا حيث لا يمكن للعظماء أن يذهبوا، أو لا يجرءون على الذهاب. لقد كان قدرًا صعبًا، لكنه أخذه على كاهله في غرفة جلوسه هو في الربيع البعيد من سنة أخرى، إنها نائية جدًا الآن لدرجة أنها كانت مثل فصل في قصة من شباب العالم، عندما كانت أشجار الفضة والذهب لاتزال يانعة مزهرة. لقد كان هذا الاختيار اختيارًا مشئومًا. أي طريق عليه أن يختاره؟ وإذا كان الاثنان يقودان إلى الرعب والموت، فأي خير يكمن في الخيار؟

واصل النهار تقدمه، وخيم صمت عميق بالوادي الرمادي الصغير حيث كانوا يرقدون قريبًا جدًا من حدود أرض الخوف؛ صمت كان يمكن الإحساس به، كما لو كان حجابًا كثيفًا عزلهم عن العالم كله من حولهم. وكانت فوقهم قبة من سماء شاحبة مخططة بدخان طائر، لكنها كانت تبدو بعيدة وعالية، كما لو أنها كانت تُرى من خلال أعماق عظيمة من هواء مثقل بفكر كئيب.

لم يكن بالإمكان حتى لنسر يرفرف قبالة الشمس أن يلحظ الهوبيتيين وهما جالسان هناك، تحت وزن القبة، صامتين، لا يتحركان، تغطيهما معاطفهما الرمادية الرقيقة. ربما يكون قد توقف للحظة ليفكر في جولام، شكل دقيق منبطح على الأرض؛ هناك، ربما، كان يرقد الهيكل الجائع لطفل من الإنس، ولا تزال ثيابه المهلهلة عالقة على جسمه، وذراعاه ورجلاه الطويلتان تكاد تكون بيضاء ونحيلة كالعظام؛ ليس هناك لحم يستحق التقاطه.

(1) النصف، والأنصاف، تسمية كانت تطلق على الهوبيتيين لصغر حجمهم. (المترجم)

كان رأس فرودو محنيًا فوق ركبتيه، ولكن سام كان متكئًا للوراء، ويداه خلف رأسه، يحدق من غطاء رأسه في السماء الخالية. عندئذ في اللحظة الحالية ظن سام أنه رأى شكلًا أسود شبيهًا بطائر يسير مندفعًا في دائرة إبصاره، ويحلق عاليًا، وبعد ذلك يدور بعيدًا وينطلق مرة أخرى. وتبعه اثنان آخران، وبعد ذلك رابع. كانت جميعها صغيرة جدًا عند النظر إليها، ولكنه عرف، بحال من الأحوال، أنها كانت كبيرة، وكان امتداد أجنحتها كبيرًا، تطير على ارتفاع كبير. وغطى عينيه وانحنى للأمام، وهو جاثم على الأرض. وحل به نفس الخوف المنذر تمامًا كما أحس به في وجود الخيالة السود، الرعب البائس الذي كان قد جاء مع الصيحة في الريح والظل على القمر، على الرغم من أنه لم يكن الآن ساحقًا أو جبريًا للغاية؛ كان الخطر أكثر بعدًا، ولكنه كان خطرًا وتهديدًا. وأحس به فرودو أيضًا. وكان تفكيره مقطعًا. وتحرك وارتجف، ولكنه لم ينظر إلى أعلى. وجثم جولام ململمًا نفسه مثل عنكبوت حُشر في أحد الأركان. ودارت الأشكال المجنحة مندفعة، ومالت مندفعة بسرعة إلى الأسفل، مسرعة في طريق عودتها إلى موردور.

وتنفس سام نفسًا عميقًا، وقال بصوت هامس أجش: «الخيالة من حولنا مرة أخرى، طائرين عاليًا في الهواء، لقد رأيتهم. هل تظن أنهم يستطيعون رؤيتنا؟ لقد كانوا على ارتفاع عال جدًا. وإذا كانوا خيالة سودًا، مثلما كان من قبل، ففي هذه الحالة لا يمكنهم أن يروا كثيرًا في ضوء النهار، أليس كذلك؟».

ورد عليه فرودو بقوله: «نعم، ربما نعم. ولكن جيادهم المطهمة يمكن أن ترى. وهذه المخلوقات المجنحة التي يركبونها الآن، من المحتمل أنها تستطيع أن ترى أكثر من أي مخلوق آخر. إنها مثل طيور الجيف الكبيرة. إنها تبحث عن شيء ما، والعدو يقوم بالمراقبة، هذا ما أخشاه».

ومرت مشاعر الرعب، ولكن الصمت المطبق انكسر. لقد انفصلوا عن العالم لبعض الوقت، كما لو كانوا في أرض غير مرئية؛ والآن أصبحوا مكشوفين مرة أخرى، لقد عاد الخطر. ولكن فرودو لم يزل لا يتكلم مع جولام أو يأخذ اختياره. كانت عيناه مغلقتين، كما لو كان يحلم، أو ينظر نحو الداخل إلى قلبه وذاكرته. أخيرًا تحرك ونهض واقفًا، وبدا أنه كان على وشك الحديث واتخاذ القرار. ولكنه قال: «أنصتوا! ما هذا؟».

وحل بهم خوف جديد. لقد سمعوا غناء وصراخًا أجش الصوت. في البداية بدا بعيدًا جدًا، ولكنه راح يقترب؛ كان يأتي باتجاههم. وقفز إلى جميع عقولهم أن الأجنحة السوداء قد تجسست عليهم وقد أرسلت جنودًا مسلحين للإمساك بهم؛ ليست من سرعة كانت تبدو كبيرة أكثر من اللازم بالنسبة لهؤلاء الخدام، خدام ساورون المرعبين.

وربضوا على الأرض، ينصتون. كانت الأصوات وصليل الأسلحة والسروج قريبة جداً. فك فرودو وسام سيفيهما من غمديهما. كان الفرار مستحيلًا.

ونهض جولام بطيئًا وراح يزحف مثل حشرة إلى حافة التجويف الذي كانوا فيه. وراح يرفع نفسه في حذر شديد قليلًا قليلًا، حتى استطاع أن يرى فوق الحافة بين نقطتين مكسورتين من الحجر. وظل هناك دون أن يتحرك لبعض الوقت، دون أن يصدر أي صوت. وبدأت الأصوات في الوقت الحالي تتراجع وتتقلص مرة أخرى، وبعد ذلك تلاشت بطيئًا. وعلى بعد كبير دوى بوق على متاريس مورانون[1]. وبعد ذلك تراجع جولام في هدوء وانسل هابطًا إلى التجويف.

وقال في صوت منخفض: «المزيد من البشر ذاهبون إلى موردور. وجوه سوداء. إننا لم نر بشرًا مثل هؤلاء من قبل، لا، سميجول لم ير. إنهم شرسون. أعينهم سوداء، وشعرهم أسود طويل، ويلبسون خواتم ذهبية في آذانهم؛ نعم، الكثير من الذهب الجميل. وبعضهم خدودهم مطلية بطلاء أحمر، وعليهم معاطف حمراء؛ وأعلامهم حمراء، أسنة حرابهم؛ ولديهم دروع دائرية، صفراء وسوداء وبها مسامير كبيرة. ليسوا لطفاء؛ يبدون بشرًا قساة شرسين جداً، سيئين مثلهم مثل الأوركيين تقريباً، وأكبر كثيرًا. يعتقد سميجول أنهم جاءوا من الجنوب فيما وراء نهاية النهر العظيم؛ لقد جاءوا من هذا الطريق. لقد عبروا إلى البوابة السوداء؛ ولكن المزيد قد يأتي بعد ذلك. دائمًا هناك الكثيرون يأتون إلى موردور. ذات يوم ستكون جميع الشعوب بالداخل».

وقال سام، ناسياً خوفه في تلهفه على أخبار الأماكن الغريبة: «هل كانت هناك أي فيلة عملاقة[2]؟».

فأجابه جولام قائلًا: «لا، لم تكن هناك فيلة عملاقة. ما هي الفيلة العملاقة؟».

ووقف سام، ووضع يديه وراء رقبته (كما كان يفعل دائمًا عندما «يلقي الشعر»)، وبدأ:

رمادية مثل فأر،
كبيرة مثل بيت،
الأنف مثل ثعبان،
إنني أجعل الأرض تهتز،

(1) Morannon البوابة السوداء، أو بوابات موردور (المترجم)

(2) فيلة عملاقة oliphaunt، أفيال ضخمة جداً من العصر الثالث. ومعروفة أيضًا باسم (موماكيل: Mûmak)، وهي أبناء عمومة عملاقة للأفيال الحالية. (المترجم)

وأنا أمشي عبر العشب؛
الأشجار تتكسر وأنا أمر.
وبقرون في فمي
أمشي في الجنوب،
آذان كبيرة عريضة.
وبما يتجاوز عدد السنين
فإنني أتجول في كل مكان،
لا أرقد أبدًا على الأرض،
ولا حتى أموت.
أنا الفيل العملاق،
أكبرها جميعًا،
ضخم، كبير، وطويل.
لو حدث وقابلتني إطلاقًا
فإنك لن تنساني.
إذا لم ترني قط،
فلن تصدق أنني حقيقي؛
ولكنني أنا الفيل العملاق العجوز،
ولا أكذب أبدًا.

وواصل سام كلامه عندما انتهى من إلقاء قصيدته: «هذه قصيدة لدينا في المقاطعة. قد تكون عديمة المعنى، وربما لا. ولكن لدينا حكايتنا أيضًا، وأخبار من الجنوب، كما تعرف ذلك. في الأيام الخوالي اعتاد الهوبيتيون الخروج في أسفارهم من آن لآخر. ليس لأنه لم يكن يرجع منهم الكثير، وليس لأن كل ما كانوا يقولونه كان يُصدق؛ أخبار من البري، وليست أكيدة مثل أحاديث المقاطعة، حسبما تقول الأمثال. ولكني سمعتُ حكايات عن الكبار بعيدًا في بلاد الشمس. نسميهم في حكاياتنا السورتينجيين[1]؛ وهم يركبون الفيلة العملاقة، حسبما يقال، عندما يقاتلون. إنهم يضعون منازل وأبراجًا على ظهور الفيلة العملاقة وكل شيء غير ذلك، كما أن الفيلة العملاقة ترمي بالصخور والأشجار على بعضها البعض؛ ولذلك فعندما قلتَ: «بشر من الجنوب، عليهم ثياب حمراء ويلبسون أشياء ذهبية». قلتُ أنا: «هل كانت هناك أي فيلة عملاقة؟» لأنه لو

(1) Swertings

كان هناك أي فِّيل عملاق، فإنني كنتُ سأذهب وألقي نظرة، سواء كان في ذلك خطورة أم لا. ولكن الآن لا أظن أنني سأرى فيلًا عملاقًا على الإطلاق. ربما لا يكون هناك ذلك الحيوان». وتنهد.

وقال جولام مرة أخرى: «لا، ليست هناك أي فيلة عملاقة. سميجول لم يسمع عنها. لا يريد أن يراها. لا يريدها أن تكون. سميجول يريد أن يهرب من هنا ويختبئ في مكان ما أكثر أمانًا. سميجول يريد السيد أن يذهب. أيها السيد الطيب، ألن تأتي مع سميجول؟».

ووقف فرودو. وضحك في وسط همومه عندما ألقى سام قصيدة الفيل العملاق القديمة التي تُحكى إلى جوار المدفأة، وقد حررته الضحكة من التردد، وقال: «أتمنى أن لو كان لدينا ألف فيل عملاق وجَنْدَلْف على فيل عملاق أبيض في مقدمتها. عندئذ فإننا، ربما، سنشق طريقًا إلى هذه الأرض الشريرة. ولكن ليس لدينا؛ ليس لدينا سوى أرجلنا المتعبة، هذا كل شيء. حسنًا، يا سميجول، قد يكون الطريق الثالث هو الأفضل. سوف آتي معك».

وصاح جولام في فرح وهو يربت على ركبتي فرودو: «أيها السيد الصالح، أيها السيد الحكيم، أيها السيد الطيب! أيها السيد الصالح! إذن استريحا الآن أيها الهوبيتيان الطيبان، تحت ظل الحجارة، قريبًا تحت الحجارة! استريحا وناما في هدوء، حتى يذهب الوجه الأصفر بعيدًا. عندئذ يمكننا الذهاب سريعًا. علينا أن نكون سريعين مثل الظلال!».

الفصل الرابع
عن الأعشاب والأرنب المطهو

استراحا في الساعات القليلة من ضوء النهار التي كانت متبقية، متحولين إلى الظل عندما تتحرك الشمس، حتى أصبح أخيرًا ظل الحافة الغربية للوهدة التي كانا فيها طويلًا، وعمَّ الظلام كل الوادي. بعد ذلك أكلا قليلًا، وشربا باقتصاد. لم يأكل جولام شيئًا، ولكنه قبل الماء بكل سرور، وقال وهو يلعق شفتيه:

«سوف أجلب المزيد حالًا، المياه الجيدة تجري في الأسفل في ينابيع إلى النهر العظيم، مياه طيبة في الأراضي التي نذهب إليها. سوف يحصل سميجول على الطعام هناك أيضًا، ربما. إنه جائع جدًا، نعم، جولام!» ووضع يديه الكبيرتين المفلطحتين على بطنه المنكمش، وظهر في عينيه ضوء أخضر باهت.

كان الغسق عميقًا عندما بدءوا رحلتهم أخيرًا، يزحف على الحافة الغربية للوهدة، ويتلاشى مثل أشباح إلى الريف المتكسر على حدود الطريق. كان القمر عندئذ ثلاث ليال من البدر، ولكنه لم يصعد فوق الجبال حتى منتصف الليل تقريبًا، وكان الليل المبكر مظلمًا للغاية. راح ضوء مفرد أحمر يضيء عاليًا في برجي الأسنان، ولكن خلاف ذلك لم تكن هناك أي علامة ترى أو تسمع عن الحراسة التي لا تنام في مورانون.

لمسافة أميال كانت العين الحمراء تبدو تحدق فيهما وهما يفران ويسيران متعثرين عبر أراض حجرية قاحلة. إنهم لم يجرءوا على أخذ الطريق، ولكن جعلوه على يسارهم، متبعين خطه بشكل جيد قدر استطاعتهم على بعد مسافة صغيرة. وأخيرًا، عندما تقدم الليل وأصابهم الإرهاق بالفعل؛ لأنهم لم يأخذوا سوى استراحة قصيرة، وتضاءلت العين إلى نقطة صغيرة متقدة وبعد ذلك تلاشت ـ كانا قد دارا حول الكتف الشمالي المظلم للجبال الأكثر انخفاضًا وكانوا متجهين نحو الجنوب.

بقلوب أصبحت مبتهجة بشكل غريب استراحا الآن مرة أخرى، ولكن ليس لفترة طويلة. لم يكونا يسيران سريعًا بالشكل الكافي بالنسبة لجولام. وحسب تقديره كانت المسافة حوالي ثلاثين فرسخًا من مورانون إلى تقاطع الطرق فوق أوسجيلياث، وكان يأمل في أن يقطع تلك المسافة في أربع رحلات. وفي الحال سريعًا راحا يواصلان كدهما في السير مرة أخرى، حتى بدأ الفجر ينتشر بطيئًا في العزلة الرمادية الواسعة. كانا قد مشيا عندئذ لمسافة ثمانية فراسخ تقريبًا، ولم يكن بإمكان الهوبيتيين أن يسيرا أكثر من ذلك، حتى ولو كانا قد جرأا على ذلك.

كشف الضّوء المتزايد لهم أرضًا كانت بالفعل أقل جدبًا وخرابًا. كانت الجبال لا تزال تلوح بشكل منذر بالشؤم على يسارهما، ولكنهما كانا يريان قريبًا منهما الطريق الجنوبي، وكان عندئذ يتجه بعيدًا عن الجذور السوداء للتلال وينحدر باتجاه الغرب. وفيما وراءه كانت المنحدرات مغطاة بأشجار كئيبة مثل السحب المظلمة، ولكن في كل مكان حولهم كانت هناك أرض بور متهاوية، بها نباتات الخلنج والزان والقرانيا، وغيرها من الشجيرات القصيرة التي لم يكونا يعرفانها. كانا يريان هنا وهناك عقدًا من أشجار الصنوبر الطويلة. ابتهج قلبا الهوبيتيين مرة أخرى على الرغم من الإرهاق والإعياء؛ كان الهواء نقيًا وذكي الرائحة، وقد ذكرهما بالنجود في الربع الشمالي[1] هناك بعيدًا. بدا من الجيد أنهما أُنقذا من البلاء والشر، أن يمشيا في أرض كانت لعدة سنوات قليلة تحت سيطرة سيد الظلام مباشرة ولم ينته بها المآل بعد إلى الدمار النهائي. ولكنهما لم ينسيا خطرهم، ولا البوابة السوداء التي كانت لا تزال قريبة جدًا، على الرغم من أنها كانت مختفية وراء المرتفعات المظلمة الكئيبة. نظرا فيما حولهما بحثًا عن مكان يختبئان فيه حيث يمكنهما أن يجدا لهما ملاذًا من الأعين الشريرة في أثناء وجود الضوء.

ومر اليوم بصعوبة. ناما في مكان عميق بين نباتات الخلنج، وراحا يعدان الساعات البطيئة التي لم يكن فيها سوى تغيير صغير؛ لأنهما كانا لايزالان تحت ظلال إيفيل دُواث، وكانت الشمس محجوبة. نام فرودو، في بعض الأوقات، بعمق وطمأنينة؛ إما وثوقًا منه بجولام وإما لأنه كان متعبًا للغاية بحيث لم يكن ليأبه به؛ ولكن سام وجد من الصعب أن ينال أكثر من إغفاءة، حتى وعندما كان جولام بوضوح نائمًا نومًا عميقًا، يتخبط ويرتعش في أحلامه السرية. ربما كان الجوع، أكثر من انعدام الثقة، هو الذي جعله يظل مستيقظًا؛ لقد بدأ يتوق إلى وجبة منزلية جيدة، «شيء ساخن من القِدر».

وبمجرد أن تلاشت الأرض متحولة إلى لون رمادي عديم الشكل تحت الليل القادم، بدأا سيرهما مرة أخرى. وفي وقت قصير راح جولام يقودهما هابطًا بهما إلى الطريق الجنوبي؛ وبعد ذلك راحا يواصلان سيرهما بسرعة أكبر، على الرغم من أن الخطر كان أكبر. كانت آذانهما مركزة لالتقاط أي صوت لحافر أو لقدم على الطريق أمامهما، أو يكون متتبعًا إياهما؛ ولكن مرت الليلة، ولم يسمعا صوت راجل ولا راكب.

(1) نورثفارذينج Northfarthing المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Northfarthing تعني الربع الشمالي. (المترجم).

كان الطريق قد صُنع في وقت ضاع منذ زمن طويل، وربما لمسافة ثلاثين ميلًا أسفل مورانون تم إصلاحه من جديد، ولكن بينما كان يسير جنوبًا كانت البرية تطبق عليه. كان لا يزال بالإمكان رؤية الأعمال اليدوية للبشر في الماضي في السلالم المستقيمة القوية والمجرى المستوي، ومن وقت لآخر كان يقطع طريقه عبر منحدرات جوانب التلال، أو يقفز فوق نبع فوق قنطرة حسنة الشكل من الطوب شديد التحمل؛ ولكن أخيرًا تلاشت جميع علامات الأعمال الحجرية، باستثناء عمود مكسور هنا وهناك، يطل خارجًا من الشجيرات القصيرة في الجانب، أو حجارة الرصف القديمة التي لا تزال مختفية وسط الأعشاب والطحالب. كانت نباتات الخلنج والأشجار والسراخس تتسلق هابطة ومعلقة فوق الضفاف، أو منتشرة فوق السطح. وتضاءل الطريق أخيرًا ليصبح طريق عربات كان يستخدم قليلًا؛ ولكنه لم يتعرج، وراح يسير في مساره القوي موجهًا إياهم خلال أسرع الطرق.

وهكذا مروا إلى المستنقعات الشمالية لتلك الأرض التي كان البشر يسمونها في وقت من الأوقات إثيلين[1]، ريف جميل من أشجار متسلقة وينابيع سريعة متساقطة. وأصبح الليل جميلًا تحت النجوم والبدر المكتمل، وكان يبدو للهوبيتيين أن رائحة الهواء زادت وهما يتقدمان في سيرهما؛ كما بدا من نفخ وغمغمة جولام أنه لاحظ ذلك أيضًا، ولم يستسغ ذلك. مع أول علامات النهار توقفا مرة أخرى. لقد وصلا إلى نهاية نفق غير مسقوف، عميق ومنحدر الجوانب في المنتصف، شق الطريق به طريقه عبر قمة حجرية. والآن تسلقا صاعدين الضفة الغربية ونظرا نحو الخارج.

كان النهار يتفتح في السماء، ورأيا أن الجبال كانت عندئذ أكثر بعدًا، متراجعة نحو الشرق في منحنى كبير ضاع في المسافة البعيدة. وأمامهما وهما يدوران غربًا، راحت منحدرات تدريجية تسير إلى ضباب معتم أسفل منهم بكثير. وكانت حولهما في كل مكان غابات من أشجار راتينجية، وأشجار التنوب والأرز والسرو، وأنواع أخرى غير معروفة في المقاطعة، وبينها مساحات مكشوفة؛ وكانت في كل مكان حولهم كميات وفيرة من أعشاب وشجيرات حلوة الرائحة. لقد أخذتهما الرحلة الطويلة من ريفنديل بعيدًا إلى الجنوب من أرضهم، ولكن لم يحس الهوبيتيان إلا الآن ـ في هذه المنطقة الأكثر تغطية ـ بتغير المناخ. وهنا كان الربيع بالفعل باديًا من حولهم؛ راحت أوراق الشجر تخترق الطحالب والفطر، وكانت أشجار اللاركس ذات أصابع خضراء، وكانت الزهور الصغيرة متفتحة في المروج، وكانت الطيور تغني. إثيلين، حديقة جوندور وقد أصبحت الآن مهجورة وكان لا يزال بها جمال حوري أشعث.

---

(1) Ithilien ومعناها Land of the Moon أي أرض القمر، وهي أراضي جوندور، وتقع إلى شرق نهر الإندوين. (المترجم).

وكانت تطل جنوبًا وغربًا باتجاه وديان أندوين الدافئة الأكثر انخفاضًا، تغطيها من الشرق إيفيل دواث ومع ذلك لم تكن تحت ظل الجبل، تحميها من الشمال إمين مويل، ومفتوحة على الأجواء الجنوبية والرياح الرطبة من البحر بعيدًا. كانت الكثير من الأشجار الكبيرة نامية هناك، مزروعة منذ زمن طويل، وصل بها الأمر إلى عمر لم تعد تلقى فيه أي رعاية وسط فوضى من أبناء غير مبالين؛ وكانت الأيكات والأجمات هناك من شجر الطرفاء ونباتات البُطْم مستدقة الرأس، ومن الزيتون والغار؛ وكانت هناك أشجار العرعر ونباتات الآس العطرية؛ ونباتات الزعتر التي كانت نامية في الأجمات، أو التي كانت سوقها الخشبية الزاحفة راحت تغطي في نسيج مزدان عميق الحجارة المختفية؛ نباتات القعصين من أنواع كثيرة تخرج زهورًا زرقاء أو حمراء أو خضراء باهتة؛ ونبات السُمسُق العطري ونباتات البقدونس المزهرة حديثًا، والكثير من الأعشاب بأشكال وروائح تفوق ما كان لدى سام من علم بالحدائق. كانت الكهوف والجدران الصخرية بالفعل مغطاة بزهور كاسر الحجر والسِيدوم. كانت زهور شقائق النعمان مستيقظة في أجمات شجر البندق؛ وكانت نباتات البَرْوَق والكثير من زهور الزنبق تهز رءوسها نصف المفتحة في الحشائش؛ عشب أخضر عميق إلى جوار أحواض الماء؛ حيث كانت الينابيع المتساقطة تتوقف في تجاويف باردة في رحلة هبوطها إلى نهر أندوين.

واستدار المسافرون معطين ظهورهم للطريق وساروا هابطين التل. وبينما كانوا يمشون، شاقين طريقهم عبر الأجمات والأعشاب، كانت ترتفع روائح ذكية من حولهم. راح جولام يكح ويتقيأ؛ ولكن الهوبيتيين كانا يتنفسان بعمق، وفجأة ضحك سام، لراحة القلب وليس للمرح. وراحوا يتبعون جدولًا كان يهبط سريعًا أمامهم. وفي الوقت الحالي أخذهم إلى بحيرة صغيرة صافية في وهدة ضحلة، كانت ترقد بين الأطلال المكسرة لحوض حجري قديم، كانت حافتها المنحوتة مغطاة كلها تقريبًا بالطحالب وعليق الورد؛ كانت زهور السوسن المسيفة تقف في صفوف من حولها، أوراق زنبق الماء كانت تطفو على سطحها المظلم الذي كان يترقرق في لطف؛ ولكنها كانت عميقة ونقية، وكانت المياه تتدفق منها دومًا في عذوبة فوق شفة صخرية عند النهاية البعيدة.

وهنا اغتسلوا وشربوا حتى ارتووا عند شلال الماء المتساقط. بعد ذلك بحثوا عن مكان يستريحون فيه، ومكان يختبئون فيه؛ لأن هذه الأرض، على الرغم من أنها كانت تبدو جميلة، كانت مع ذلك إلى الآن أراضي العدو. إنهم لم يبعدوا كثيرًا عن الطريق، ومع ذلك حتى في هذه المسافة القصيرة للغاية فقد رأوا آثارًا للحروب القديمة، والجروح الأحدث التي سببها الأوركيون وغيرهم من خدام سيد الظلام الأشرار؛ حفرة مكشوفة من قذارة ونفايات؛ أشجار قطعت دون مبرر وتركت لتموت،

مع وجود حروف رونية شريرة أو علامة الشر الخاصة بالعين محفورة بضربات فجة على لحاء هذه الأشجار.

وبينما كان سام جاثمًا أسفل مصب البحيرة، يشم ويتلمس النباتات والأشجار غير المألوفة له، ناسيًا موردور في هذه اللحظة، تذكر فجأة خطرهم الموجود دائمًا. وتعثر في حلقة لا تزال محترقة بالنار، وفي وسطها وجد كومة من العظام والجماجم المتفحمة والمكسرة. لقد كان النمو السريع للبرية وانتشار الورد البري بها ونبات نسرين الكلب وياسمين البر المعترش ينشر بالفعل غطاء على هذا المكان للمأدبة المروعة والمذبحة الشنيعة؛ ولكنها لم تكن قديمًا. وأسرع عائدًا إلى رفيقيه، ولكنه لم يقل شيئًا، كان من الأفضل ترك العظام في سلام وعدم تعرض جولام لها بالنبش والحفر، وقال:

«هيا بنا نجد مكانًا نستريح فيه عاليًا، وليس واطئًا؛ مكان أكثر علوًا بالنسبة لي».

وللوراء لمسافة صغيرة فوق البحيرة وجدوا قاعًا بنيًا عميقًا من سرخس العام الماضي. وفيما وراءه كانت هناك أجمة من أشجار الغار ذات الأوراق الداكنة تتسلق ضفة شديدة الانحدار كان على قمتها شجر الأرز العجوز. وهنا قرروا أن يستريحوا ويمضوا النهار، والذي كان واعدًا بالفعل بأنه سيكون مشرقًا ودافئًا. يوم جيد للمشي في طريقهم عبر أجمات إثيلين والمساحات المكشوفة فيها، ولكن على الرغم من أن الأوركيين قد يمقتون ضوء الشمس، فقد كانت هناك أماكن كثيرة جدًا هنا يمكنهم الهجوع فيها ويختبئون ويراقبون، وكانت هناك أعين شريرة أخرى بالخارج، إن لدى ساورون خدامًا كثيرين. لم يكن جولام بأي حال من الأحوال ليتحرك تحت الوجه الأصفر. في الحال سوف ينظر فوق سلاسل الجبال المظلمة في إيفل دُواث، وسوف يغمى عليه ويجثم في الضوء والحرارة.

لقد فكر سام كثيرًا في الطعام وهم يمشون. وقد خَلَّف اليأس من البوابة المنيعة وراءه، لم يخالجه شعور مُلِحّ مثل سيده لأن يضرب عن التفكير في قوتهم فيما وراء نهاية المهمة؛ وعلى أية حال بدا من الأكثر حكمة بالنسبة له أن يوفر طعام الطريق (الليمباس) طعام الجن لأوقات أسوأ تنتظرهم. كانت قد مرت ستة أيام أو أكثر منذ أن قدر أنه كان لديهم مخزون ضئيل جدًا لثلاثة أسابيع، وفكر قائلًا:

«إذا نحن وصلنا إلى النار في ذلك الوقت، فسوف نكون محظوظين إذا سارت الأمور على هذا النحو! وربما نكون بحاجة للرجوع. ربما!»

علاوة على ذلك، في نهاية مسيرة ليلية طويلة وبعد الاغتسال والشرب، فإنه شعر بأنه أكثر جوعًا من المعتاد. إن ما كان يريده حقًا هو عشاء أو إفطار إلى جوار النار في

المطبخ في باجشوت رو[1]. فكرة خطرت بباله والتفت إلى جولام. كان جولام قد بدأ من توه في التسلل مع نفسه، وكان يزحف بعيدًا على أطرافه الأربعة عبر أشجار السرخس.

وقال له سام: «مرحبًا! يا جولام! إلى أين أنت ذاهب؟ للصيد؟ حسنًا، انظر هنا، أيها الشمام العجوز، إنك لا تحب طعامنا، ولن أكون أنا نفسي آسفًا على التغيير. شعارك الجديد دائمًا مستعد للمساعدة. هل بإمكانك العثور على أي شيء مناسب لهوبيتي جائع؟».

فقال جولام: «نعم، ربما، نعم. سميجول يساعد دائمًا، إذا هم طلبوا مساعدته؛ إذا هم طلبوا منه المساعدة بلطف».

فقال سام: «حسنًا! إنني أطلب منك المساعدة. وإذا لم يكن ذلك لطفًا بالشكل الكافي، فإنني أرجوك».

واختفى جولام. وغاب بعض الوقت، وبعد قضمات قليلة من الليمباس استقر فرودو عميقًا في السرخس البني وراح في النوم. ونظر سام إليه. كان ضوء النهار المبكر يزحف هابطًا إلى الظلال تحت الأشجار، ولكنه رأى وجه سيده بوضوح شديد، ورأى يديه أيضًا مسترخيتين على الأرض إلى جواره. وقد تذكر فجأة فرودو وهو يرقد، نائمًا في منزل إلروند، بعد جرحه المميت. وبعد ذلك، وبينما كان يقوم بالحراسة، لاحظ سام أن ضوءًا في بعض الأوقات كان يلمع خافتًا في عينيه؛ ولكن الآن أصبح الضوء أكثر وضوحًا وأكثر قوة. كان وجه فرودو مطمئنًا، كانت علامات الخوف والهم قد فارقته؛ ولكنه كان يبدو كبير السن، كبيرًا وجميلًا، كما لو أن نقش سنوات التشكيل كان قد ظهر الآن في الكثير من الخطوط الجميلة التي كانت مختفية قبل ذلك، على الرغم من أن هوية الوجه لم تتغير. ليس لأن سام جامجي فسر الأمر لنفسه على هذا النحو. وهز رأسه، كما لو كان قد وجد الكلمات لا جدوى لها، وغمغم قائلًا: «إنني أحبه. إنه كهذا، وأحيانًا يشرق الضوء ساطعًا، بحال من الأحوال. ولكني أحبه، سواء كان الضوء ساطعًا أو لم يكن».

وعاد جولام في هدوء ونظر من فوق كتف سام. ولما نظر إلى فرودو، أغلق عينيه وراح يحبو بعيدًا دون صوت. وجاء سام إليه بعد لحظة ووجده يمضغ شيئًا ما ويغمغم مع نفسه. وعلى الأرض إلى جواره كان يرقد أرنبان صغيران، كان قد بدأ ينظر إليهما في نهم، وقال: «سميجول يساعد دائمًا. لقد أحضر أرانب، أرانب لطيفة. ولكن السيد نام، وربما يكون سام يريد النوم. لا يريد الأرانب الآن؟ سميجول يحاول أن يساعد، ولكنه لا يستطيع أن يصطاد الأشياء كلها في دقيقة».

(1) Bagshot Row صف حفر الهوبيتيين التي كانوا يعيشون فيها، وكانت محفورة أسفل منزل باج إيند (المترجم)

ليس لدى سام مع ذلك أي اعتراض على الأرانب على الإطلاق، وقد أعرب عن ذلك. على الأقل ليس على الأرنب المطهو. كل الهوبيتيين بالطبع يمكنهم الطهي؛ لأنهم يبدءون تعلم الفن قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة (وقد لا يتعلمون ذلك على الإطلاق)؛ ولكن سام كان طاهيًا جيدًا، حتى بتقدير الهوبيتيين، وقد قام بالكثير من الطهي في المخيم في سفرياتهم، عندما كانت هناك الفرصة لذلك. وهو لا يزال ـ نتمنى ذلك ـ يحمل بعضًا من معداته في حزمة أمتعته؛ كان مخزنًا معه علبة قدح صغيرة، مقلاتان صغيرتان مسطحتان، الصغيرة تدخل في الكبيرة؛ وبداخلهما ملعقة خشبية، وشوكة قصيرة ذات شعبتين وبعض الأسياخ؛ وقد خبأ في قاع حزمة الأمتعة في صندوق خشبي مسطح كنزًا ضئيلًا، بعض الملح. ولكنه يحتاج إلى النار، وأشياء أخرى بالإضافة إلى ذلك. فكر قليلًا، بينما أخرج سكينه، ونظفها وشحذها، وبدأ يذبح الأرنبين. لم يكن سيترك فرودو ينام وحيدًا حتى ولو لعدة دقائق قليلة، وقال:

«الآن يا جولام لديَّ مهمة أخرى لك. اذهب واملأ هاتين المقلاتين بالماء، وعد بهما!»

وقال جولام: «سميجول سوف يجلب الماء، نعم. ولكن لماذا يريد الهوبيتي كل هذا الماء؟ لقد شرب، وقد اغتسل».

فقال له سام: «لا تبالِ. إذا لم تستطع أن تخمن، فسوف تكتشف ذلك حالًا. وكلما أسرعت في جلب الماء عرفت الأمر أسرع. لا تتلف أي واحدة من المقلاتين، وإلا فإنني سوف أقطعك إلى لحم مفروم».

بينما كان جولام بعيدًا ألقى سام نظرة أخرى على فرودو. كان لا يزال نائمًا في هدوء، ولكن سام كان الآن أكثر ذهولًا لنحالة وجهه ويديه، وغمغم قائلًا: «إنه نحيل ومسحوب الوجه للغاية. ليس هذا جيدًا بالنسبة لهوبيتي. إذا استطعتُ أن أطهو هذين الأرنبين، فإنني سوف أوقظه».

وجمع سام كومة من السرخس الأكثر جفافًا، وبعد ذلك راح يطوف على الضفة يجمع حزمة من الأغصان والأخشاب المكسرة؛ وجود فرع متساقط من شجرة أرز فوق القمة أعطاه موردًا جيدًا. وقام بقطع بعض الأعشاب عند سفح الضفة إلى الخارج من أجمة السرخس، وصنع حفرة ضحلة ووضع وقوده فيها. ولما كان ماهرًا في القدح وإشعال النار فإنه سريعًا كانت لديه نار صغيرة ملتهبة. صدر عنها دخان قليل أو لم يصدر عنها دخان أبدًا ولكن كان يخرج منها رائحة عطرية. كان منحنيًا فوق ناره مباشرة، يحميها ويزودها بأخشاب أكثر ثقلًا، عندما عاد جولام يحمل المقلاتين بحرص ويدمدم مع نفسه.

وأنزل المقلاتين، وبعد ذلك رأى فجأة ما كان سام يفعله. وصدرت منه صرخة

هسيسية ضعيفة، وبدا مرعوبًا مثلما بدا غاضبًا، وصاح قائلًا: «آتش! سسس لا! لا! أيها الهوبيتيان السخيفان، الأحمقان، نعم، الأحمقان! يجب ألا تفعلا هذا!».

وسأله سام في اندهاش: «يجب ألا يفعلا ماذا؟».

وهسهس جولام قائلًا: «لا تصنع الألسنة الحمراء القذرة. النار، النار! إنها خطرة، نعم هي كذلك. إنها تحرق، إنها تقتل. وسوف تجلب الأعداء، نعم سوف تجلبهم».

فقال له سام: «لا أعتقد ذلك. ألا ترى لماذا ينبغي أن يكون ذلك، ما لم تضع موادَّ رطبة فيها تجعلها تطلق دخانًا كثيفًا. ولكنها إن تفعل، تفعل سوف أخاطر وأوقد النار على أية حالة. سوف أقوم بطهي هذين الأرنبين».

وصرخ جولام في اشمئزاز: «تطهو الأرنبين! تفسد اللحم الجميل الذي جلبه لك سميجول، سميجول المسكين الجائع! لماذا أيها الهوبيتي السخيف؟ إنهما صغيران، إنهما طريان، إنهما لطيفان. كلهما، كلهما!» ومد يده كالمخلب وأمسك بالأرنب الأقرب منه، وكان قد سُلخ بالفعل وموضوعًا إلى جوار النار.

فقال سام: «الآن، الآن! كل على طريقته. خبزنا يخنقك، والأرنب النِّيء يخنقني. إذا أعطيتني أرنبًا، فالأرنب لي، انظر، لأطهوه، إذا أردتُ ذلك. وأنا أريد ذلك. ليس من الضروري أن تشاهدني. اذهب واصطد أرنبًا آخر لتأكله بالطريقة التي تحبها في مكان خاص بك وعلى غير مرأى مني. عندئذ لن ترى النار، ولن أراك، وسوف نكون كلانا أكثر سعادة. سوف أحرص على ألا ينطلق دخان من النار، إذا كان ذلك يريحك».

وانسحب جولام وهو يدمدم، وراح يحبو إلى أشجار السرخس. وشغل سام نفسه بمقلاتيه، وقال لنفسه: «ما الذي يحتاج إليه الهوبيتي مع الأرنب هو بعض الأعشاب والجذور، وخاصة البطاطس ناهيك عن الخبز.. الأعشاب يمكن التصرف فيها، فيما يبدو».

ونادى بصوت واطئ: «جولام! المرة الثالثة تعادل ثمن كل شيء. أريد بعض الأعشاب». وأطلت رأس جولام من وسط أشجار السرخس، ولكن نظراته لم تكن مساعدة ولا ودودة. وقال له سام: «بعض أوراق نبات الغار، وبعض الزعتر والمرْيَمية، سوف يفي ذلك بالغرض قبل أن يغلي الماء».

وقال جولام: «لا! سميجول ليس سعيدًا. وسميجول لا يحب الأوراق ذات الرائحة. وهو لا يأكل الحشائش أو الجذور، ليس الثمين، إلا إذا كان جائعًا جدًّا إلى درجة الموت، يالسميجول المسكين».

ودمدم سام قائلًا: «سميجول سوف يلقى في نار حامية حقًّا، عندما يغلي هذا الماء، إذا لم يفعل مثلما طلبتُ منه. سوف يضع سام رأسه فيها، نعم أيها الثمين. وسوف أجعله يبحث عن اللفت والجزر، والبطاطس أيضًا، إذا كان ذلك الوقت من السنة هو

أوانها. إنني أراهن أن هناك كل أنواع الأشياء الجيدة تجري في جموح في هذا البلد. سوف أدفع الكثير لقاء نصف دستة من البطاطس».

وقال سميجول في هسيس: «سميجول لن يذهب، أوه.. كلا الثمين، ليس هذه المرة. إنه خائف، وهو متعب جداً، وهذا الهوبيتي ليس طيباً، ليس طيباً على الإطلاق. سميجول لن ينبش الأرض بحثاً عن الجذور والجزر و البطاطس. ما هي البطاطس، أيها الثمين، إيه، ما هي البطاطس؟».

فقال له سام: «ال بـ طا طس[1]. بهجة الجافر، وحشو جيد نادر لمعدة خاوية. ولكنك لن تجد أياً منها، ولهذا فليس هناك حاجة للبحث. ولكن لتكن جيداً يا سميجول واجلب لي الأعشاب، وسوف أظن بك ظناً جيداً. والأكثر من ذلك، إذا فتحتَ صفحة جديدة، وظللت فاتحاً إياها، فإنني سأطهو لك بعض البطاطس في أحد الأيام. سوف أفعل؛ سمك مقلي ورقائق بطاطس يقدمها سام جامجي. لا يمكنك أن تقول لا لذلك».

«نعم، نعم يمكننا ذلك. إفساد السمك اللطيف، تشييطه. أعطني سمكاً الآن، واحتفظ برقائق البطاطس القذرة!».

فقال سام: «أوه، أنت ميئوس منه. اذهب للنوم!».

في النهاية كان ينبغي عليه أن يجد ما كان يريده لنفسه؛ ولكن ما كان عليه أن يذهب بعيداً، ليس خارج نطاق رؤية المكان حيث ينام سيده، وهو لا يزال نائماً. وجلس سام ممعن التفكير لبعض الوقت، ويعتني بالنار حتى غلى الماء. وازداد ضوء النهار وأصبح الهواء دافئاً؛ وانقشع الندى عن الحشائش والأوراق. وسريعاً بدأت الأرانب المقطعة تغلي في المقلاتين مع الأعشاب المضافة إليها. كاد سام أن ينام مع مرور الوقت. ترك الأرانب تنضج لمدة قاربت الساعة، وكان يقوم بتذوقها من وقت لآخر بشوكته، وكان يتذوق المرق.

عندما رأى أن كل شيء كان جاهزاً، رفع المقلاتين من على النار، وزحف إلى جوار فرودو. فتح فرودو عينيه نصف فتحة عندما كان سام يقف فوقه، وبعد ذلك استيقظ من حلمه؛ إنه حلم رقيق آخر لا يمكن استرجاعه بالطمأنينة والسلم، وقال:

«مرحباً يا سام! ألم تسترح؟ هل هناك أي مشكلة؟ كم الساعة؟».

فرد عليه سام بقوله: «حوالي ساعتين بعد الفجر، وقرابة الثامنة والنصف حسب ساعات المقاطعة، ربما. ولكن ليست هناك أي مشكلة. على الرغم من أن الأمور ليست كما يمكن أن نقول على ما يرام؛ ليس لدينا أي مخزون، ولا بصل،

(1) استخدم سام كلمة [taters] للبطاطس في إشاراته السابقة، ولكن نظراً لأن جولام لم يكن يعرفها، فقد استخدم هذه المرة الكلمة المألوفة وقطعها له مقاطعاً [po – ta - toes] (المترجم)

ولا بطاطس. لقد صنعت بعض الطعام لك، وبعض الحساء، يا سيد فرودو. سوف تحبها. سوف يتحتم عليك أن تشربها في إبريقك؛ أو من المقلاة مباشرة، عندما تبرد قليلًا. إنني لم أحضر أي أوانٍ، ولا أي شيء مناسب».

وتثاءب فرودو وتمطى، وقال: «كان يجب أن تستريح يا سام. وإشعال النار كان خطرًا في هذه الأجزاء. ولكني أشعر بالجوع. هممم! هل يمكن أن أشمه من هنا؟ ما الذي طبخته؟».

وقال سام: «هدية من سميجول، زوج من الأرانب الصغيرة؛ على الرغم من أنني أظن أن جولام نادم عليهما الآن. ولكن ليس هناك شيء معهما سوى قليل من الأعشاب».

وجلس سام وسيده في أجمة السرخس وأكلا طعامهما من المقلاتين، مشتركين في الشوكة والملعقة القديمتين. وسمحا لأنفسهما بتناول نصف قطعة من الخبز الجني (الليمباس) لكل منهما. كانت تبدو كوليمة.

وراح سام ينادي على جولام ويصفر بصوت منخفض: «جولام! تعال! لا يزال هناك متسع من الوقت لتغير رأيك. لايزال البعض باقيًا، إذا أردت أن تجرب الأرانب المطبوخة». ولم تأته أي إجابة، وواصل سام كلامه:

«أوه، حسنًا، أظن أنه انطلق ليجد شيئًا لنفسه. سوف نأتي نحن عليها».

فقال فرودو: «وبعد ذلك يجب أن تنام بعض الشيء».

«لا تغفل وأنا نائم يا سيد فرودو. إنني لا أشعر باطمئنان كبير تجاهه. هناك قدر كبير من المتشمم جولام السيئ، أظنك تفهم ما أقول لا يزال فيه، وهو الآن يصبح أكثر قوة. إننا لا نرى عينًا لعين، وهو غير سعيد من سام، أوه، لا، أيها الثمين، ليس سعيدًا على الإطلاق».

وانتهيا من تناول الطعام، وذهب سام إلى النبع ليغسل أدواته. وبينما كان يقف ليعود، نظر للوراء لأعلى إلى المنحدر. في تلك اللحظة رأى الشمس تشرق من بين الضباب أو الغيم أو الظل الأسود أو أيًا كان ذلك، الذي كان يوجد دائمًا في الشرق، وأرسلت أشعتها الذهبية إلى أسفل فوق الأشجار والمساحات الفضاء من حولها. بعد ذلك لاحظ شريطًا رقيقًا من دخان أزرق رمادي، يُرى بوضوح وضوء الشمس يقع عليه، يرتفع من أجمة فوقه. وأدرك في صدمة أن هذا كان الدخان الذي صدر من ناره الصغيرة التي طها عليها الطعام، والتي أهملها فلم يطفئها.

«هذا غير معقول! لم أفكر أبدًا أنها ستظهر مثل ذلك!» غمغم بذلك، وبدأ يسرع

عائدًا. وفجأة توقف وأنصت. هل سمع صوت صفير أم لا؟ أم أن ذلك كان صوت طائر غريب؟ لو أن ذلك كان صوت صفير، فإنه لم يأتِ من اتجاه فرودو. وجاء مرة أخرى من مكان آخر! وبدأ سام يجري بسرعة قدر استطاعته صاعدًا التل.

لقد وجد أن جمرة صغيرة كانت تحترق في أقصى نهايتها، قد أشعلت بعض أخشاب السرخس عند حافة النار، وقد عملت أخشاب السرخس التي كانت تتوهج عاليًا على إشعال العشب وجعله يدخن. وسريعًا داس على ما كان قد تبقى من النار، وبعثر الرماد، ووضع الأعشاب والتراب على الفتحة. بعد ذلك زحف عائدًا إلى فرودو، وسأله قائلًا:

«هل سمعتَ صوت صفير، وما كان يبدو كرد عليه؟ منذ دقائق قليلة مضت. أتمنى أن ذلك كان صوت طائر وحسب، ولكنه لم يكن يبدوا أبدًا كهذا: كان يشبه بدرجة أكثر شخصًا يحاكي صوت الطائر، هكذا ظننتُ الأمر. وإنني خائف أن النار التي أشعلتها تكون قد أصدرت دخانًا. والآن إذا أنا ذهبتُ وجلبت المتاعب، فإنني لن أسامح نفسي أبدًا. ولن تكون لدى الفرصة، ربما!».

وهمس فرودو فيه: «هشش! أعتقد أنني سمعتُ أصواتًا».

وحزم الهوبيتيان حزمتي أمتعتهما الصغيرة، وجعلاهما في وضع الاستعداد للهرب، وبعد ذلك راحا يزحفان إلى أعماق أكثر في السرخس. وهناك جثما ينصتان.

لم يكن هناك أي شك في الأصوات. كانوا يتحدثون بصوت منخفض ومسترق، ولكنهم كانوا قريبين، وكانوا يقتربون أكثر. بعد ذلك وفجأة تحدث واحد منهم بوضوح عن قرب، وقال:

«هنا! هذا هو المكان الذي جاء منه الدخان! سوف يكون قريبًا في المتناول. في السرخس، بلا شك. سوف نمسك به مثل أرنب. بعد ذلك سوف نعرف أي نوع من الأشياء هو».

وقال صوت ثانٍ: «نعم، وماذا يعرف!».

وفي الحال جاء أربعة رجال يمشون بخطوات واسعة عبر السرخس من اتجاهات مختلفة. حيث إن الاختفاء والهروب لم يعودا ممكنين، فإن فرودو وسام قفزا على أقدامهما، وظهر كل منهما للآخر ولوحا بسيفيهما الصغيرين.

وإذا كانا مندهشين لما رأيا، فإن آسرهما كان أكثر اندهاشًا. وقف أمامهما أربعة من البشر الطوال. كانت مع اثنين منهما حراب في أيديهما ورأساهما عريضان لامعان. وكان مع اثنين أقواس كبيرة، مثل طولهما تقريبًا، وجعب كبيرة من أسهم طويلة خضر مريشة. كان لديهم جميعًا سيوف في أجنابهم، وكانوا مرتدين ثيابًا خُضْرًا

ورمادية ذات أشكال مختلفة، كما لو أن ذلك كان هو الأفضل للمشي في المناطق المكشوفة في إثيلين دون أن يُروا. كانت تغطي أيديهم قفازات خضراء، وكانت وجوههم مغطاة ومقنعة بأشياء خضراء، باستثناء أعينهم، التي كانت حادة وبراقة جدًا. وفي الحال فكر فرودو في بوروميرِ؛ لأن هؤلاء الرجال كانوا مثله في هيئتهم وملامحهم، وفي طريقة كلامهم.

قال واحد منهم: «لم نجد ما كنا نبحث عنه. ولكن ما الذي وجدناه؟».

«ليسوا أروكيين» قال ذلك آخر، وهو يترك مقبض سيفه، الذي كان ممسكًا به عندما رأى وميض سيف ستينج في يد فرودو.

وقال ثالث في شك: «جن؟».

«كلا! ليسوا جنًا» قال ذلك الرابع، الذي كان أطولهم، وكما كان يبدو كان الزعيم بينهم. «الجن لا يمشون في إثيلين في هذه الأيام. والجن جميلون بشكل رائع عند النظر إليهم، أو هكذا قيل».

فقال سام: «معنى ذلك أننا لسنا نحن، حسب فهمي. شكرًا لكم من صميم القلب. وعندما تنتهون من مناقشة أمرنا، ربما تقولون لنا من أنتم، ولماذا لا تتركون مسافرين متعبين يستريحان».

وضحك الرجل الأخضر الطويل في تجهم، وقال: «أنا فارامير، قائد جوندور. ولكن ليس هناك أي مسافرين في هذه الأرض: ليس هناك سوى خدام برج الظلام، أو خدام الأبيض».

فقال فرودو: «ولكننا لسنا أيًا من ذلك. ونحن مسافران، مهما يكن ما قد يقوله القائد فارامير».

فقال فارامير: «إذن أسرعا وأعلنا عن هويتكما وعن مهمتكما. لدينا عملنا لابد أن ننجزه، وليس هذا وقتًا أو مكانًا للألغاز أو المناقشة. هيا! أين ثالث صحبتكم؟».

«الثالث؟».

«نعم، ذلك المتسلل الذي رأيناه وأنفه في حوض الماء هناك. منظره غير مرغوب فيه. إنه سلالة جاسوسية من الأوركيين، حسب ظني، أو مخلوق من مخلوقاتهم. ولكنه هرب منا بحيلة ثعلب».

فقال فرودو: «إنني لا أعلم أين هو. إنه فقط رفيق، قابلنا مصادفة في طريقنا، وأنا غير مسئول عنه. إذا أنتم وجدتموه، فأبقوا عليه. أحضروه أو أرسلوه إلينا. إنه ليس سوى مخلوق متشرد تعس، ولكنه تحت رعايتي لبعض الوقت. ولكن فيما يخصنا نحن، فنحن هوبيتيان من المقاطعة، بعيدًا إلى الشمال والغرب، فيما وراء أنهار كثيرة. اسمي فرودو بن دروجو، ومعي ساموايز بن هامفاست، هوبيتي فاضل في

خدمتي. لقد جئنا عبر طرق طويلة من ريفنديل، أو إملادريس كما يطلق عليها البعض». وهنا فزع فارامير وأصبح منتبهًا. «كانَ لدينا سبعة رفاق؛ واحد فقدناه في موريا، وتركنا الآخرين في بارث جالين فوق مساقط راوروس، اثنان من أقاربي؛ كما كان هناك قزم أيضًا، وجني، واثنان من البشر. وهما أراجورن، وبورومير، الذي كان يقول إنه من ميناس تيريث، مدينة في الجنوب».

وصاح الرجال الأربعة متعجبين: «بورومير!».

«بورومير بن سيد دنثور؟». قال ذلك فارامير، وظهرت على وجهه نظرة صارمة غريبة. «هل جئت معه؟ إنها لأخبار بحقٍّ لو تصدق. تعرفان، أيها الصغيران الغريبان، أن بورومير بن دنثور كان الحاكم الأعلى للبرج الأبيض، وكان قائدنا العام؛ إننا نفتقده جدًا. من أنتما إذن، وما شأنكما به؟ بسرعة؛ لأن الشمس ترتفع!».

ورد عليه فرودو بقوله: «هل عرَفت لكم الكلمات الملغزة أن بورومير أحضر إلى ريفنديل؟».

ابحثوا عن السيف الذي كُسر:
إنه في إملادريس؛

فقال فارامير في ذهول: «هذه الكلمات معروفة حقًّا. إنها علامة معينة على صدقكم، وإنكم تعرفونها أيضًا».

وقال فرودو: «أراجورن الذي ذكرته هو حامل السيف الذي كُسر. ونحن الأنصاف الذين تحدثت عنهم الأغنية».

وقال فارامير في استغراق في التفكير: «هذا أراه. أو أرى أنه قد يكون كذلك. وما هي لعنة إسيلدور؟».

وأجابه فرودو: «ذلك مخفي. مما لا شك فيه أنه سيتضح في حينه».

فقال فارامير: «لابد أن نعرف المزيد عن هذا، ونعرف ما الذي جاء بكم بعيدًا جدًّا إلى الشرق تحت الظل هناك...» وأشار بيده ولم يذكر اسمًا. «ولكن ليس الآن. لدينا عمل يجب علينا القيام به. إننا في خطر، ولم يكن يجب عليكما أن تذهبا بعيدًا في الحقول أو عبر الطريق في هذا اليوم. سوف تكون هناك ضربات كثيرة قريبًا قبل أن يكتمل النهار. بعد ذلك الهلاك، أو الهروب سريعًا إلى نهر أندوين. سوف أترك اثنين لحراستكما، لمصلحتكما ولمصلحتي. الرجل الحكيم لا يثق بالمقابلات التي تحدث مصادفة على الطريق في هذه الأرض. إذا أنا عدتُ، سوف أتحدث أكثر من ذلك معكما».

وقال له فرودو وهو ينحني واطئًا: «الوداع! لتفكر حسبما تشاء، إنني صديق لكل

أعداء العدو الأوحد. كنا سنذهب معكم، لو أننا الأنصاف نستطيع خدمتكم، مثل هؤلاء الرجال البواسل والأقوياء حسبما يبدو عليكم، ولو أن مهمتي كانت تسمح بذلك. ليشرق الضوء على سيوفكم!»

وقال فارامير: «الأنصاف قوم مجاملون، أيًا ما تكون صفاتهم الأخرى. الوداع!».

وجلس الهوبيتيان مرة أخرى، ولكنهما لم يقولا شيئًا لبعضهما البعض عن أفكارهما وشكوكهما. وقريبًا منهما، أسفل ظل أشجار الغار المنقطة المظلمة مباشرة، ظل اثنان من الرجال في حراستهما. كانا يخلعان أقنعتهما من وقت لآخر ليروحا عن أنفسهما، بينما كانت درجة حرارة النهار تتزايد، ورأى فرودو أنهما كانا رجلين وسيمين، بشرتهما شاحبة، شعرهما أسود، عيونهما رمادية ووجوههما حزينة وبها كبرياء. راحا يتحدثان معًا بأصوات منخفضة، أولًا مستخدمين اللغة الدارجة، ولكن على طريقة الأيام الخوالي، وبعد ذلك تحولا إلى لغة أخرى خاصة بهما. ولدهشة فرودو وهو ينصت فإنه أدرك أنها كانت لغة الجن التي كانا يتحدثان بها، أو لغة مختلفة قليلًا؛ ونظر إليهما في دهشة؛ لأنه عرف عندئذ أنه لابد أنهما دوانادانيين من الجنوب، رجال من سلالة سادة الأراضي الغربية.

بعد فترة من الوقت تحدث إليهما؛ ولكن إجاباتهما كانت بطيئة وحذرة. أطلقا على أنفسهما اسم مابلونج و دامرود، جنود جوندور، وكانا جوالة من إثيلين؛ لأنهما كانا منحدرين من قوم كانوا يعيشون في إثيلين في وقت من الأوقات، قبل أن يتم الاستيلاء عليها. ومن أولئك الرجال اختار السيد دنثور محاربيه الذين عبروا نهر أندوين سرًا (كيف وأين، فإنهما لم يقولا) للإغارة على الأوركيين أعداء آخرون كانوا يتجولون بين جبال إيفيل دُواث والنهر.

وقال مابلونج: «المسافة الآن قرابة عشرة فراسخ إلى الشاطئ الشرقي لنهر أندوين، وإننا نادرًا ما نصل إلى تلك المسافة البعيدة خارج البلاد. لكن لدينا مهمة جديدة في هذه الرحلة؛ إننا جئنا لننصب كمينًا لبشر هاراد. اللعنة عليهم!».

وقال دامرود: «نعم، اللعنة على الجنوبيين! يُقال إنه كانت هناك تعاملات في الماضي بين جوندور وممالك هاراد في الجنوب البعيد؛ على الرغم من أنه لم تكن هناك صداقة. في تلك الأيام كانت حدودنا بعيدة إلى الجنوب وراء مصابِّ نهر أندوين، وقد أقرت أومبار أقرب ممالكهم بسيطرتنا. ولكن ذلك كان منذ زمن طويل. لقد مضت أعمار رجال كثيرة إلى أن عبره أحدهم جيئة أو ذهابًا. والآن مؤخرًا علمنا أن العدو كان بينهم، وكانوا يذهبون إليه، أو يعودون من عنده كما فعل الكثيرون في الشرق

أيضًا. لا أشك أن أيام جوندور معدودة، وجدران ميناس تيريث محكوم عليها بالإخفاق، قوته عظيمة وكذلك خبثه».

وقال مابلونج: «ولكن مع ذلك لن نقف مكتوفي الأيدي ونتركه يفعل ما يشاء. هؤلاء الجنوبيون الملعونون يأتون الآن زاحفين عبر الطرق القديمة ليزيدوا جيوش سيد الظلام. نعم، عبر ذات الطرق التي صنعتها جوندور. وهم يذهبون في طيش متزايد دائمًا، إننا نعلم ذلك، معتقدين أن قوة سيدهم الجديد عظيمة بالشكل الكافي، بحيث يمكن لمجرد ظل تلاله أن يحميهم. لقد جئنا لنعلمهم درسًا جديدًا. لقد وصلتنا أخبار قوتهم منذ بضعة أيام، تزحف شمالًا. من المقدر وَفْق تقديرنا أن يمر أحد أفواجهم، قبل الظهيرة بقليل على الطريق الذي يسير فوقنا حيث يمر عبر الطريق المشقوق. قد يمر الطريق، ولكنهم لن يمروا! ما دام فارامير قائدًا. إنه يقود الآن جميع المغامرات والمجازفات الخطيرة. ولكن حياته مسحورة، أو أن القدر يدخره لغرض آخر».

وانخفض حديثهم حتى صار صمتًا متنصتًا. كل شيء بدا ساكنًا ويقظًا. ونظر سام للخارج، وقد كان جاثمًا بجوار حافة أجمة السرخس. وبعيني الهوبيتي الحادتين، رأى أن المزيد من البشر كانوا قادمين. كان يراهم يأتون متسللين صاعدي المنحدرات، فرادى أو في صفوف طويلة، ملتزمين دائمًا ظل الأجمة أو الأيكة، أو زاحفين، ولا يكادون يرون في ملابسهم البنية والخضراء، عبر المروج والأجمة. كانوا مقنعين وكانت رءوسهم مغطاة، وكانوا يلبسون قفازات في أيديهم، وكانوا مسلحين مثل فارامير ورفاقه. قبل أن يمضي وقت طويل كانوا جميعًا قد عبروا واختفوا. وارتفعت الشمس حتى اقتربت من الجنوب. وانكمشت الظلال.

وفكر سام، وهو يزحف عائدًا إلى ظل أكثر عمقًا: «إنني لأعجب أين ذهب ذلك الجولام الملعون؟ إنه يعرض نفسه بشكل كبير للشك فيه والتعرف عليه على أنه أوركي، أو لأن يحرقه الوجه الأصفر[1]. ولكني أظن أنه سيعتني بنفسه». ورقد إلى جوار فرودو وبدأ ينعس.

واستيقظ ظانًا أنه سمع صوت أبواق. وجلس في مكانه. كان الوقت عندها وقت الظهيرة تمامًا. وقف الحراس متيقظين ومتوترين في ظل الأشجار. وفجأة دوت الأبواق في الأعلى وفيما وراء أي خطأ من فوقهم، فوق قمة المنحدر. ظن سام أنه سمع صيحات وصراخًا جامحًا أيضًا، ولكن الصوت كان ضعيفًا، كما لو كان يأتي من كهف بعيد. وبعد ذلك في الحال اندلعت ضوضاء قتال قريبًا منهم، فوق مخبئهم

(1) إشارة إلى الشمس(Yellow face) .

مباشرة. كان يسمع بوضوح القعقعة المدوية للحديد على الحديد، وصليل السيف على القبعة الحديدية، وضرب النصال على الدروع؛ كان الرجال يصرخون ويتصايحون، وكان هناك صوت آخر عالٍ واضح ينادي: جوندور! جوندور!

وقال سام لفرودو: «يبدو وكأن مائة حداد يقومون بالحدادة معًا. إنهم قريبون مثلما أريدهم الآن».

ولكن الضوضاء أصبحت أكثر قربًا. وصاح دامرود: «إنهم قادمون! انظر! بعض الجنوبيين هربوا من المصيدة وهم يفرون من الطريق. وهاهم يذهبون هناك! رجالنا وراءهم، والقائد في مقدمتهم».

وذهب سام عندئذ وهو متلهف ليرى المزيد وانضم للحراس. وصعد مسافة قصيرة لأعلى إلى واحدة من أكبر أشجار الغار. ووقعت عينه للحظة على رجال داكني البشرة يلبسون ملابس حمرًا، يجرون هابطي المنحدر على بعد مسافة عنهم وكان يجري وراءهم محاربون مرتدون ثيابًا خُضْرًا، يقضون عليهم وهم يفرون. كانت الرماح كثيفة في الهواء. بعد ذلك فجأة وبشكل مستقيم فوق حافة الضفة التي كانوا يحتمون بها، وسقط رجل، متخبطًا ومرتطمًا عبر الأشجار المتناثرة، ساقطًا فوقهم تقريبًا. واستقر في أجمة السرخس على بعد أقدام قليلة، ووجهه للأرض، والرماح الخضر المريشة ظاهرة من رقبته من تحت ياقة ذهبية. كانت ملابسه القرمزية ممزقة، أما درعه الذي كان مصنوعًا من طبقات نحاسية متداخلة فكان ممزقًا ومشقوقًا، وكانت خصل شعره المضفرة بالذهب مضرجة بالدم. كانت يده السمراء لا تزال قابضة على مقبض سيفه المكسور.

كانت هذه أول معركة للبشر ضد البشر يراها سام، ولم تعجبه كثيرًا. كان مسرورًا أنه لم ير الوجه الميت. وتساءل ما عسى أن يكون اسم الميت ومن أين عساه أن يكون؛ وعما إذا كان شريرًا حقًا في قلبه، أو ما الأكاذيب أو التهديدات التي قادته في الزحف الطويل من بلاده؛ وعما إذا كان من الأفضل حقًا أن يظل هناك في سلام؛ كل ذلك في ومضة من تفكير، والتى طُردت سريعًا من عقله؛ لأنه بمجرد أن تقدم مابلونج باتجاه الجسم الذي هوى على الأرض، كانت هناك ضوضاء جديدة. صراخ وصياح عظيم. سمع سام وسط ذلك كله زعقة تخور بصوت عالٍ أو تدوي مثل بوق. وبعد ذلك ارتطام واصطدام هائل، كما لو كانت مجانيق ضخمة تضرب على الأرض.

وصاح دامرود على رفاقه: «احترسوا! احترسوا! لعل القوى الحارسة تقلبه جانبًا! موماك! موماك[1]!».

---

(1) Mûmak الاسم الذي يطلقه الهوبيتيون عليها هو الفيلة العملاقة oliphaunt، أفيال ضخمة جدًا من العصر الثالث، وهي أبناء عمومة عملاقة للأفيال الحالية (المترجم)

ولدهشته وذهوله ورعبه، وسعادته الدائمة، فإن سام رأى شكلًا كبيرًا يأتي مندفعًا من الأشجار ويهبط زاحفًا عبر المنحدر. بدا له كبيرًا مثل منزل، أكبر بكثير من منزل، تلًا متحركًا مكسوًا باللون الرمادي. وزاد الخوف والدهشة، ربما، في عيني الهوبيتي، ولكن الموموك الهارادي كان حقًا حيوانًا ضخم الجسم، كما أن أشباهه لم تكن تمشي الآن في الأرض الوسطى؛ أقرباؤه الذين كانوا لا يزالون يعيشون في أيام تالية ليسوا سوى ذكريات من ضخامته وعظمته. وجاء مندفعًا، في خط مستقيم باتجاه الحراس، وبعد ذلك مال جانبًا في آخر لحظة، مارًا على بعد ياردات قليلة فقط، مرتطمًا بالأرض تحت أقدامهم، كانت رجلاه العظيمتان مثل شجرة، انتشرت آذان هائلة مثل الأشرعة، وارتفع أنف طويل مثل حية ضخمة على وشك أن تهاجم، وكانت عيناه الحمراوان ثائرتين. كانت أنيابه المقلوبة الشبيهة بالقرون محاطة بأربطة من ذهب ويتقاطر منها الدم. كانت حليه القرمزية والمصنوعة من الذهب ترفرف حوله في حركات جامحة. ورقدت أطلال ما كان يبدو أنه برج حربي فوق ظهره المتهاوي، مهشمة في مروره المهتاج القوي عبر الأشجار؛ وكان لا يزال متشبثًا عاليًا في رقبته في يأس شكل ضئيل؛ جسد محارب عظيم، عملاق بين السُمر في بلاد الشمس.

وراح الحيوان الضخم يدوي ويتخبط في غضب وحنق أعمى عبر البركة والأجمة. راحت السهام تهرب وتنطلق دون أذى حول جلد أجنابه المضاعف. وفر الرجال من كلا الجانبين أمامه، ولكن الكثيرين منهم قد تغلب عليهم وسحقهم في الأرض. وفي الحال ضاع ولم يعد بالإمكان رؤيته، ولا يزال يدوي مثل البوق ويطأ الأرض بقوة بعيدًا. لم يسمع سام أبدًا عما حل به بعد ذلك؛ وما إذا كان قد هرب ليهيم في البرية لبعض الوقت، حتى يهلك بعيدًا عن موطنه أو أنه وقع في شرك؛ في حفرة عميقة، أو ما إذا كان قد استمر في غضبه الشديد حتى قفز في النهر العظيم وابتلعه النهر.

وتنفس سام نفسًا عميقًا، وقال: «لقد كان فيلًا عملاقًا! إذن فإن هناك فيلة عملاقة، وقد رأيتُ إحداها. فإذا كان الأمر قد انتهى، فإنني سأنال قسطًا قليلًا من النوم».

وقال مابلونج: «لتنم مادام بإمكانك ذلك. ولكن القائد سيعود، إذا كان لم يُصب بأذى؛ وعندما يأتي فسوف نرحل سريعًا. سوف تجري مطاردتنا بمجرد أن تصل أخبار أعمالنا إلى العدو، ولن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا».

وقال سام: «لتذهبوا سريعًا عندما يتحتم عليكم الذهاب! لا تقلقوني في نومي. لقد كنتُ أمشي طوال الليل».

وضحك مابلونج وقال: «لا أظن أن القائد سيتركك هنا أيها السيد ساموايز. ولكنك سوف ترى».

الفصل الخامس
النـافــذة علــى الغــرب

بدا لسام أنه لم ينم سوى دقائق قليلة عندما استيقظ ليجد أنه في وقت متأخر بعد الظهيرة ووجد أن فارامير قد عاد. لقد أحضر رجالًا كثيرين معه؛ في الواقع كان كل الناجين من الغزوة الآن قد تجمعوا على المنحدر القريب، مائتان أو ثلاثمائة بكل قوة. جلسوا في نصف دائرة كبيرة، جلس فارامير بين ذراعيها على الأرض، في حين وقف فرودو أمامه. بدا المشهد بشكل غريب كمحاكمة لسجين.

وزحف سام من خارج أجمة السرخس، ولكن لم يعره أحد أي انتباه، ووضع نفسه في نهاية صفوف الرجال، حيث كان يمكنه أن يرى ويسمع كل ما كان يجري. وراح يشاهد وينصت في انتباه مستعدًا للاندفاع لمساعدة سيده عند الحاجة. كان يرى وجه فارامير، والذي كان الآن بدون قناع، كان صارمًا وآمرًا، وكانت تكمن وراء نظرته الفاحصة فطنة حادة. كان هناك شك في العينين الرماديتين اللتين كانتا تحدقان باستمرار في فرودو.

وسريعًا أدرك سام أن القائد لم يكن راضيًا عن حكاية فرودو عن نفسه في عدة نقاط؛ أي دور كان يتحتم عليه أن يؤديه في الصحبة التي خرجت من ريفنديل؛ ولماذا ترك بورومير؟ وأين كان ذاهبًا؟ وعلى وجه الخصوص عاد مرات كثيرة إلى لعنة إسيلدور. من الواضح أنه رأى أن فرودو كان يخفي عنه مسألة ما ذات أهمية كبيرة.

وأصر قائلًا: «ولكن لعنة إسيلدور كانت ستستيقظ عند مجيء النصف، أو هكذا تقول الكلمات. إذا كنتَ أنت إذن هو النصف الذي جاء ذكره، فمما لا شك فيه أنك أحضرت معك هذا الشيء، مهما يكن ذلك، إلى المجلس الذي تحدثت عنه، وهناك رآه بورومير. هل تنكر ذلك؟».

ولم يدر فرودو جوابًا. وقال فارامير: «وهكذا أرغب إذن أن أعرف منك الكثير عنه؛ لأن ما يهم بورومير يهمني. لقد قُتل إسيلدور بسهم أوركي، حسبما تروي الحكايات القديمة. ولكن السهام الأوركية كثيرة، ورؤية واحد منها لا يمكن أن يؤخذ كعلامة على الهلاك من جانب بورومير الجوندوري[1]. هل هذا الشيء موجود معك وتحتفظ به؟ إنه مختبئ، كما تقول؛ ولكن أليس ذلك لأنك اخترت أن تخفيه؟».

وأجابه فرودو قائلًا: «لا، ليس لأنني اخترتُ ذلك. إنه لا يخصني. إنه لا يخص أي شخص فانٍ، كبيرًا كان أو صغيرًا؛ على الرغم من أنه لو كان لأي أحد أن يدعي

(1) نسبة إلى جوندور (المترجم)

ملكيته له، فإن ذلك سيكون أراجورن بن أراثورن الذي ذكرتُه له؛ قائد صحبتنا من موريا إلى راوروس».

«ولماذا ليس بورومير، أمير المدينة التي أسسها أبناء إلنديل؟».

«لأن أراجورن منحدر من سلالة مباشرة، أب إلى أب، من ابن إسيلدور إلينديل نفسه. والسيف الذي يحمله كان سيف إلينديل».

وسرت غمغمة ذهول عبر حلقة الرجال. وصاح بعضهم بصوت عال: «سيف إلينديل! سيف إلينديل يأتي إلى ميناس تيريث! أخبار عظيمة!» ولكن وجه فارامير كان هادئًا، وقال:

«ربما. ولكن لابد من إثبات هذا الادعاء الكبير للغاية، وستكون هناك حاجة إلى براهين واضحة، إذا حدث وجاء ذلك المدعو أراجورن إلى ميناس تيريث. ولكنه لم يأت، كما لم يأت أي من صحبتك عندما بدأت المسير منذ ستة أيام مضت».

وقال فرودو: «كان بورومير مقتنعًا بذلك الادعاء. حقًّا، لو أن بورومير كان موجودًا، لأجاب عن كل أسئلتك. وحيث إنه كان بالفعل في راوروس منذ عدة أيام مضت، وكان ينوي عندئذ أن يذهب مباشرة إلى مدينتكم، فإذا رجعتم فإنك قد تعرف الأجوبة عن ذلك قريبًا. لقد كان دوري في الصحبة معروفًا له، مثلما كان معروفًا لكل الآخرين؛ لأنه كان قد أسنده لي إلروند من إملادريس نفسه أمام المجلس بكامله. في تلك المهمة جئتُ إلى هذه البلاد، ولكن ليس من حقي أن أكشف عنها لأي شخص خارج الصُّحبة. ولكن أولئك الذين يزعمون أنهم يعارضون العدو سوف يحسنون صنعًا إذا هم لم يعيقوها».

كانت نبرة صوت فرودو بها إباء وكبرياء، أيًّا ما كان شعوره، وقد أعجبت سام؛ ولكنها لم ترض فارامير.

وقال: «إذن فأنت تطلب مني أن أعني بشئوني، وأعود إلى دياري، وأدعك وشأنك. سوف يخبرك بورومير بكل شيء، عندما يأتي. عندما يأتي، حسب زعمك! هل كنتَ صديق بورومير؟».

وجاءت حية أمام عقل فرودو ذكرى هجوم بورومير عليه، وتردد للحظة. وأصبحت عينا فارامير وهو يشاهده أكثر صلابة. وقال فرودو أخيرًا: «لقد كان بورومير عضوًا باسلًا في صحبتنا. نعم، لقد كنتُ صديقه، هذا من ناحيتي».

وابتسم فارامير في تجهم وقال: «إذن فسوف تحزن لو علمتَ أن بورومير مات؟».

فقال له فرودو: «سوف أحزن حقًّا». وبعد ذلك، وقد لاحظ النظرة التي كانت في عيني فارامير، قال متلعثمًا: «مات؟ هل تعني أنه مات، وأنك كنت تعرف ذلك؟ لقد كنت تحاول الإيقاع بي بالكلمات، تلعب معي؟ أم أنك الآن تحاول أن توقعني بكذبة؟».

فقال فارامير: «إنني لن أوقع حتى أوركي بكذبة».

«كيف مات إذن، وكيف عرفت بذلك؟ حيث إنك تقول إنه لم يكن قد وصل أحد من الصحبة إلى المدينة عند مغادرتك لها».

«أما بالنسبة لطريقة الموت، فقد كنتُ أتمنى أن لو أخبرني صديقه ورفيقه كيف كان ذلك».

«ولكنه كان حيًا وقويًا عندما افترقنا. وهو لا يزال يعيش على قدر علمي. على الرغم من أنه هناك بكل تأكيد الكثير من المخاطر في العالم».

وقال فارامير: «كثيرة هي حقًا والخيانة ليست أقل منها شأنًا».

راح صبر سام ينفد ويصبح غاضبًا أكثر وأكثر من هذا الحوار. كانت هذه الكلمات الأخيرة أكثر مما يحتمل، واندفع إلى وسط الحلقة، وخطا بخطوات واسعة إلى جانب سيده، وقال:

«أستميحك عذرًا يا سيد فرودو، ولكن هذا استغرق وقتًا طويلًا بالشكل الكافي. ليس له أي حق أن يتحدث معك بهذه الطريقة. بعد كل ما مررتَ به، لصلاح أولئك البشر العظام مثلما هو لصالح أي شخص آخر.

«انظر هنا أيها القائد»، وغرس نفسه أمام القائد بثبات أمام فارامير، واضعًا يديه على وركيه، ونظرة على وجهه كما لو كان يخاطب هوبيتيًا صغيرًا كان قد عرض عليه ما يسميه «وقاحة» عند سؤاله عن زياراته للبستان. كانت هناك بعض الغمغمة، ولكن كانت هناك أيضًا بعض التكشيرات على وجوه الرجال الذين كانوا ينظرون؛ إن منظر قائدهم وهو جالس على الأرض وعينه في عين هوبيتي صغير، ورجلاه متباعدتان كثيرًا، وشعره منتصب من شدة الغضب، كان منظرًا لم يروه أبدًا. وقال له: «انظر هنا! ما الذي ترمي إليه؟ لنصل إلى بيت القصيد قبل أن يهجم علينا جميع أوركيي موردور! إذا كنت تظن أن سيدي قتل هذا البورومير وبعدها فر هاربًا، فإنك مجنون؛ قلها، وافعل ما شئت! وبعد ذلك لنعرف ما الذي تنوى أن تفعله في ذلك. إنه لشيء يدعو للأسف والرثاء أن أشخاصًا يتكلمون عن قتال العدو لا يمكنهم أن يدعوا الآخرين يقومون بدورهم بطريقتهم بدون تدخل منهم. إنه سيكون سعيدًا إلى أبعد الحدود، إذا رآك الآن. سيظن أنه كسب صديقًا جديدًا، ولسوف يحدث».

فقال له فارامير، ولكن بدون غضب: «الصبر! لا تتحدث أمام سيدك، فذكاؤه أكبر من ذكائك. وإنني لا أحتاج إلى أحد ليخبرني عن خطرنا. حتى والأمر كذلك، فإنني أحتاج إلى وقت قصير، حتى أحكم في أمر صعب. لو أنني كنتُ متعجلًا مثلك، فلربما كنتُ قد ذبحتك منذ فترة طويلة؛ لأنني مأمور أن أذبح كل من أجدهم في هذه الأرض بدون إذن من ملك جوندور. ولكني لا أذبح رجلًا أو حيوانًا دونما حاجة لذلك،

ولا حتى بسرور عندما تكون هناك حاجة لذلك. كما أنني لا أتحدث عبثًا. ولذلك استرح. اجلس إلى جوار سيدك، والزم الصمت!»

وجلس سام في كآبة وعلى وجهه حمرة. والتفت فارامير إلى فرودو مرة أخرى. «سألت كيف عرفت أن ابن دنثور قد مات. أخبار الموت لها أجنحة كثيرة. الليل غالبًا ما يجلب الأخبار لذوي القربى، هكذا يقال. كان بورومير أخي».

وظهرت على وجهه سحابة من حزن. «هل تتذكر أي علامة خاصة كان يحملها اللورد بورومير معه بين عدته وحاجياته؟».

وفكر فرودو للحظة، خائفًا من الوقوع في مصيدة أخرى، ومتسائلًا إلام سينتهي هذا الحوار في النهاية. لقد نجح بالكاد في إنقاذ الخاتم من قبضة بورومير الأبية، وكيف ستصير حاله الآن بين رجال كثيرين جدا، محاربين وأقوياء، فإنه لم يكن يعلم. ولكنه شعر في قلبه أن فارامير، على الرغم من أنه كان مثل أخيه في ملامحه، إلا أنه كان رجلًا أقل اهتمامًا بالمصالح الشخصية، وكان أكثر صرامة وأكثر حكمة على السواء. «إنني أذكر أن بورومير كان يحمل بوقًا» قال ذلك فرودو أخيرًا.

فقال فارامير: إنك تتذكر جيدًا، وكشخص قد رآه فعلًا في حقيقة الأمر.

إذن ربما يكون بإمكانك أن تراه بعين عقلك؛ بوق عظيم من ثور الشرق البري، مرصع بالفضة، ومكتوب عليه بحروف قديمة. ذلك البوق كان يحمله أكبر أبناء منزلنا على مدار أجيال كثيرة؛ ويقال إنه في حالة النفخ فيه عند الحاجة في أي مكان في نطاق حدود جوندور، كما كانت المملكة في الماضي، فإن صوته لن يمر دون أن يتم الانتباه إليه.

قبل خمسة أيام من خروجي في هذه المهمة، منذ أحد عشر يومًا مضت في هذه الساعة تقريبًا من اليوم، سمعت صوت ذلك البوق؛ كان يبدو أنه يأتي من الشمال، ولكنه كان ضعيفًا، كما لو كان مجرد صدى في العقل. خلناه نذير شر، أنا وأبي؛ لأننا لم نكن قد سمعنا أي أخبار عن بورومير منذ خروجه، كما لم يره أي مراقب على حدودنا يعبر. وفي الليلة الثالثة بعد ذلك أصابني شيء آخر وغريب.

كنتُ أجلس في الليل إلى جوار نهر أندوين، في الظلمة المعتمة تحت القمر الصغير الشاحب، أشاهد النبع دائم الحركة؛ وكنتُ أسمع حفيف نباتات البوص الحزينة. هكذا نفعل دائمًا؛ نشاهد الشواطئ بالقرب من أوسجيلياث التي سيطر أعداؤنا الآن على أجزاء منها، وينطلقون منها لغزو بلادنا. ولكن في تلك الليلة نام العالم كله في ساعة منتصف الليل. عندئذ رأيتُ، أو بدا أنني رأيتُ، قاربًا يطفو على الماء، يتوهج بلون رمادي، قاربًا صغيرًا من نوع غريب مقدمته عالية، ولم يكن فيه أحد يقوم بالتجديف أو التوجيه.

وتملكني رعب، حيث كان هناك ضوء شاحب حوله. ولكني نهضتُ وذهبتُ إلى الضفة، وبدأتُ أمشي في نبع الماء؛ لأنني كنتُ مشدودًا باتجاهه. بعد ذلك دار القارب

باتجاهي، وقلل سرعته، وراح يطفو بطيئًا في متناول يدي، ولكني لم أجرؤ على التعامل معه. وراح يخوض بعمق، كما لو كان محملًا بحمل ثقيل، وبدا لي وهو يمر أمام ناظري أنه كان ممتلئًا تقريبًا بماء صاف، كان الضوء يأتي منه؛ وكان ملفوفًا في الماء محارب يرقد نائمًا.

«وكان على ركبته سيف مكسور. رأيتُ جروحًا كثيرة في جسمه. لقد كان بورومير، أخي، ميتًا. عرفتُ عدته، سيفه، ووجهه المحبوب. شيء واحد فقط افتقدته: بوقه. شيء واحد فقط لم أعرفه: حزام جميل، كما لو كان من أوراق ذهبية مترابطة، حول وسطه. وصحتُ قائلًا بورومير! أين بوقك؟ إلى أين تذهب؟ أوه يا بورومير! ولكنه مضى. استدار القارب إلى النبع ومر متوهجًا مواصلًا سيره عبر الليل. كان شيئًا شبيهًا بالحلم، ولكنه لم يكن حلمًا؛ لأنه لم يكن هناك أي استيقاظ. وإنني لا أشك أنه مات وأنه مر عبر النهر إلى البحر».

فقال فرودو: «واحسرتاه! لقد كان ذلك بورومير حقًّا كما عرفتُه؛ لأن الحزام الذهبي كانت قد أعطته له السيدة جَلَدْرِيلْ في لوثلورين. لقد كانت هي التي ألبستنا كما ترى، ملابس رمادية جنية. وهذا الدبوس من نفس الصنعة». ولمس الورقة الخضراء والفضية التي كانت تربط معطفه تحت زوره.

ونظر فارامير إليه مدققًا وقال: «إنه جميل. نعم، إنه عمل من نفس الصنعة والمهارة. وهكذا إذن فقد مررتَ عبر أرض لورين؟ وكانت تسمى في الماضي لورلِيندورِنان[1]، ولكنه مضى زمن طويل الآن منذ أن أصبحت خارج نطاق كل معرفة لدى البشر» وأضاف في صوت منخفض، وهو ينظر إلى فرودو بعجب جديد في عينيه. «أبدأ الآن أفهم الكثير مما كان غريبًا بشأنك. ألا أخبرتني بالمزيد؟ لأن فكرة أن بورومير قد مات فكرة مريرة، في حدود أراضي موطنه».

وأجابه فرودو بقوله: «ليس هناك أكثر مما قلتُ يمكنني قوله. على الرغم من أن حكايتك تملؤني بالهواجس الشريرة. لقد كان ما رأيتَه رؤيا، في اعتقادي، ليس أكثر من ذلك، ظل لحظ تعس كان أو سيكون. ما لم تكن حقًّا خدعة كاذبة من خدع العدو. لقد رأيتُ وجوه المحاربين الجميلة في الماضي في وضع النوم أسفل برك المستنقعات الميتة، أو التي هكذا تبدو من جراء حيله البشعة».

وقال فارامير: «كلا، لم يكن الأمر كذلك؛ لأن أعماله تملأ القلب بالاشمئزاز، ولكن قلبي كان مملوءًا بالحزن والرثاء».

وسأله فرودو بقوله: «ولكن كيف كان يمكن لشيء كهذا أن يحدث في الواقع؟ ألأنه

(1) Laurelindorenan = Valley of Singing Gold أي وادي الذهب المغني، أو Lórien أي لورين. (المترجم)

لم يكن بالإمكان نقل أي قارب على تلال صخرية من تُول براندير؛ وكان بورومير ينوي العودة إلى وطنه عبر نهر إنتووش وعبر حقول روهان؟ ولكن كيف يمكن لأي مركب أن يمر عبر زبد المساقط العظيمة ولا يغرق في برك المياه التي تغلي، على الرغم من أنه محمل بالماء؟».

ورد عليه فارامير بقوله: «لا أدري. ولكن من أين أتى القارب؟».

فقال فرودو: «من لورين. في ثلاثة قوارب من تلك القوارب رحنا نجدف عبر نهر أندوين إلى المساقط. وكانت هي أيضًا من صنع الجن».

وقال فارامير: «لقد مررتم عبر الأرض الخفية، ولكن يبدو أنك فهمت قوتها فهمًا قليلًا. إذا كان للبشر تعاملات مع سيدة السحر التي تسكن في الغابة الذهبية، ففي هذه الحالة قد يبحثون عن أشياء غريبة يتبعونها؛ لأنه من الخطر بالنسبة لرجل فانٍ أن يخرج من عالم هذه الشمس، وقليلون هم في الماضي الذين أتوا من هناك دون أن يتغيروا، هكذا يقال.

وصاح قائلًا: «بورومير، يا بورومير! ما الذي قالته لك السيدة التي لا تموت؟ ما الذي تراه هي؟ ما الذي استيقظ في صدرك عندئذ؟ لماذا ذهبت مطلقًا إلى لورليندورنان، ولم تأت عبر طريقك الخاص بك، على جياد روهان راكبًا في طريق عودتك لديارك في الصباح؟».

وبعد ذلك التفت مرة أخرى إلى فرودو، وتحدث في صوت هادئ مرة أخرى. «أظن أن بإمكانك أن تقدم بعض الإجابة عن تلك الأسئلة، يا فرودو بن دروجو. ولكن ليس هنا أو الآن، ربما. ولكن خشية أنك لا تزال تعتقد أن حكايتي رؤيا، فإنني أخبرك بهذه. لقد أتى البوق، ولكنه كان مشقوقًا نصفين، كما لو كان قد شُق ببلطة أو سيف. جاء النصفان كل واحد بمفرده إلى الشاطئ؛ وُجد أحدهما بين أعواد القصب حيث يوجد حراس جوندور، باتجاه الشمال أسفل مساقط نهر إنتووش؛ ووجد النصف الآخر يدور في فيضان الماء، وجده واحد كان في مهمة في الماء. مصادفات غريبة، ولكن القتل سوف ينكشف، هكذا يقال.

«والآن فإن بوق الابن الأكبر في قطعتين يرقد في حجر دنثور، وهو يجلس في مقعد عال، ينتظر الأخبار. ولا يمكنك أن تخبرني بأى شيء عن كسر البوق نصفين؟».

وأجابه فرودو قائلًا: «لا، إنني لم أعرف شيئًا عن ذلك. ولكن اليوم الذي سمعته يُنفخ فيه، إذا كان ما قلته صحيحًا، كان هو اليوم الذي افترقنا فيه، عندما تركتُ أنا وخادمي الصحبة. والآن فإن حكايتك تملؤني بالرعب؛ لأنه لو أن بورومير كان عندئذ في خطر وذُبح، لابد أن أخشى أن جميع رفاقي هلكوا أيضًا. وقد كانوا أشقائي وأصدقائي.

«ألـن تنحي جانبًا شكك فيَّ وتتركني أذهـب؟ إنني متعب، ويملؤني الحزن، وخائف. ولكنْ لديَّ عمل يجب أن أقوم به، أو أن أحاول، قبل أن أُذبح أنا أيضًا. وهناك حاجة أكبر إلى العجلة والسرعة، إذا كنا نحن النصفين[1] كل ما تبقى من صحبتنا.

«عد يا فارامير أيها القائد الشجاع ودافع عن مدينتك مادام باستطاعتك، واتركني أذهب إلى حيث يأخذني قدري».

فقال فارامير: بالنسبة لي ليست هناك أي راحة في حديثنا معًا، ولكنك بكل تأكيد استخلصت منه رعبًا أكثر مما ينبغي. ما لم يكن قوم لورين أنفسهم قد أتوا إليه، من الذي ألبس بورومير مثلما يكون اللبس للجنازة؟ ليس الأوركيين أو خدام ذلك المجهول[2]. في ظني أن بعضًا من صحبتك لا يزالون أحياء.

«ولكن أيًا ما كان الذي يحدث في المستنقع الشمالي، فإنني لم أعد أشك فيك أنت يا فرودو. إذا كانت الأيام الصعبة جعلتني حكمًا على كلمات ووجوه البشر، فإنني إذن قد أخمن بشأن الأنصاف! مع ذلك» وبعدها ابتسم وواصل كلامه «هناك شيء غريب بشأنك، يا فرودو، مسحة جنية، ربما. ولكن هناك الكثير مما يكمن في كلماتنا معًا أكثر مما خلته في بداية الأمر. ينبغي أن آخذك الآن ونعود إلى ميناس تيريث للرد هناك على دنثور، وسوف تكون حياتي الآن عرضة للإهدار بعدل إذا أنا الآن اخترتُ نهجًا يثبت أنه سيئ وغير صحيح بالنسبة لمدينتي. ولذلك فإنني لن أقرر في عجلة ما الذي يجب فعله. ولكن يجب أن نتحرك من هناك بدون أي تأخير أكثر من ذلك».

وقفز على قدميه وأصدر بعض الأوامر. وفي الحال انقسم الرجال الذين تجمعوا حوله إلى مجموعات صغيرة، وانطلقوا في هذا الطريق وذاك، وتلاشوا سريعًا في ظلال الصخور والأشجار. وفي الحال لم يبق سوى مابلونج و دامرود.

وقال فارامير: «والآن فإنكما، يا فرودو ويا ساموايز، سوف تأتيان معي ومع حراسي. لا يمكنكما السير عبر الطريق باتجاه الجنوب، إذا كان ذلك هو ما تنويانه. فسوف يكون غير آمن لبعض الأيام، ودائمًا ستكون الحراسة عليه أكثر دقة بعد هذه الغزوة مما كانت عليه حتى الآن. وفي رأيي لا يمكنكما أن تذهبا بعيدًا اليوم على أية حال؛ لأنكما متعبان. ونحن كذلك متعبون. إننا ذاهبون الآن إلى مكان سري لدينا، على بعد مسافة لا تقل عن عشرة أميال من هنا بأي حال. لم يعثر الأوركيون أو جواسيس العدو عليه بعد، وإذا هم عثروا عليه، فإننا نستطيع السيطرة عليه طويلًا حتى

---

(1) الإشارة إليه هو وإلى سام (المترجم)

(2) الإشارة هنا إلى ساورون لم يشر فارامير إلى ساورون صراحة في كلامه: فمرة يقول عنه (the Nameless) وأخرى (whom we do not name) وثالثة (the Unnamed) الإشارة هنا إلى ساورون (المترجم)

ضد عدد كبير. هناك قد نرقد ونستريح لبعض الوقت، وأنتما معنا. في الصباح سوف أقرر ما هو الأفضل بالنسبة لي أن أفعله، وبالنسبة لكما».

لم يكن هناك شيء أمام فرودو ليفعله سوى أن يستجيب لهذا الطلب أو الأمر ويوافق عليه. بدا على أية حال أنه نهج حكيم بالنسبة لهذه المرحلة، حيث إن تلك الغزوة التي شنها رجال جوندور قد جعلت الرحلة في إثيلين أكثر خطرًا من أي وقت مضى.

وانطلقوا في سيرهم في الحال؛ مابلونج و دامرود في المقدمة قليلًا وفارامير ومعه فرودو وسام وراءهما. وداروا حول جانب البحيرة القريب الذي كان الهوبيتيان قد اغتسلا فيه، وعبروا نبع الماء، متسلقين ضفة طويلة، وعبروا إلى غابات خضراء الظلال راحت تسير دومًا لأسفل وباتجاه الغرب. وبينما كانوا يمشون، سريعًا قدر استطاعة الهوبيتيين، راحوا يتحدثون بأصوات هامسة.

وقال فارامير: «لقد قطعتُ حديثنا معًا، ليس فقط لأن الوقت كان ملحًا، كما ذكرني سيدي ساموايز، ولكن أيضًا لأننا كنا نقترب من مسائل كان من الأفضل عدم مناقشتها على نحو صريح أمام رجال كثيرين. كان ذلك هو السبب الذي جعلني أتحول إلى مسألة أخي وأترك لعنة إسيلدور. إنك لم تكن صريحًا كلية معي يا فرودو».

فقال له فرودو: «إنني لم أكذب عليك، وقد أخبرتك الحقيقة قدر استطاعتي».

وقال له فارامير: «إنني لا ألومك. لقد تكلمت بمهارة في مكان صعب، وبحكمة، هكذا بدا لي. ولكني عرفت أو خمنت منك أكثر مما قالت كلماتك. إنك لم تكن محبًا لبورومير، أو أنكما لم تفترقا وأنتما أصدقاء. أنت، وسيدي ساموايز، أيضًا، في تخميني لديكما مظلمة ما. والآن فإنني كنتُ أحبه حبًا جمًا، وسوف أنتقم لموته في سعادة، ولكني عرفتُه جيدًا. لعنة إسيلدور إنني سأتجرأ وأقول إن لعنة إسيلدور وقعت بينكما وكانت سببًا للشقاق في صحبتكما. من الواضح أنها إرث عظيم من نوع ما، وتلك الأشياء لا تولد السلام بين المتحالفين، ما لم يُعلم أي شيء من القصص القديمة. ألستُ أقترب من لب الموضوع؟».

فقال فرودو: «قريبًا، ولكن ليس في الصميم مباشرة. لم يكن هناك أي شقاق في صحبتنا، على الرغم من أنه كان هناك شك؛ شك بشأن الطريق الذي يجب أن نسلكه من إمين مويل. ولكن ليكن ذلك ما قد يكون، فإن الحكايات القديمة تعلمنا أيضًا خطر الكلمات المتهورة فيما يخص تلك الأشياء من قبيل الموروثات».

«آه، إذن فالأمر كما ظننتُ: كانت مشكلتك مع بورومير وحده. كان يتمنى أن يحضر ذلك الشيء إلى ميناس تيريث. واحسرتاه! إنه قدر ملتو ذلك الذي يغلق شفتيك ويمنعك من قول من كان آخر من رآه، وتمنع عني ذلك الذي أتوق إلى معرفته؛

ما الذي كان في صدره وفكره في ساعاته الأخيرة؟ سواء كان قد أخطأ أم لا، فإنني متأكد من ذلك؛ لقد مات في الواقع على نحو مبرر، محققًا شيئًا ما جيدًا. كان وجهه أكثر جمالًا حتى مما كان عليه في حياته.

ولكني يا فرودو ضغطتُ عليك بشدة بشأن لعنة إسيلدو. سامحني! لم يكن ذلك من الحكمة في تلك الساعة وذلك المكان. لم يكن لدي وقت للتفكير. لقد خضنا معركة شديدة، وكان هناك أكثر مما هو كاف ليملأ ذهني. ولكن حتى وأنا أتحدث معك، أصبحت أكثر قربًا من لب الموضوع، وقد رميتُ رمية أكثر اتساعًا بشكل مترو ومتعمد؛ لأنه يجب أن تعرف أنه لا يزال هناك الكثير محفوظًا من معارف الماضي بين حكام المدينة لم يُنشر في الخارج. إننا من منزلنا لسنا من سلالة إلنديل على الرغم من أن دم نومينور فينا؛ لأننا نرجع سلالتنا إلى مارديل، القهرمان الجيد الذي حكم بدلًا من الملك عندما خرج للحرب. وكان هذا هو الملك إيرانور، آخر واحد في سلالة أناريون، ولم يكن له أطفال، ولم يعد أبدًا. وقد حكم القهرمانات المدينة من ذلك اليوم، على الرغم من أن ذلك كان منذ أجيال كثيرة مضت من البشر.

«وهذا أتذكره عن بورومير عندما كان صبيًا، عندما علمنا معًا قصة آبائنا وتاريخ مدينتنا، الأمر الذي كان لا يسعده دائمًا أن والده لم يكن ملكًا. وسأل: «كم من مئات السنين يحتاج الأمر إليها لجعل قهرمان ملكًا، إذا لم يعد الملك؟» وأجابه والدي: «سنوات قليلة، ربما، في أماكن أخرى أقل ملكية. في جوندور لن تكفي عشرة آلاف سنة». واحسرتاه! بورومير المسكين. ألا يخبرك ذلك بشيء عنه؟».

فقال فرودو: «إنه يخبرني. ولكن كان يعامل أراجورن دائمًا بإجلال».

قال فارامير: «لا أشك في ذلك. لو أنه كان مقتنعًا بادعاء أراجورن، كما تقول، فإنه سيبجله كثيرًا. ولكن المأزق لم يكن قد أتى بعد. إنهما لم يصلا إلى ميناس تيريث أو يصبحا متنافسين في حروبها.

«ولكني ضللتُ. نحن في منزل دِنثور نعرف كثيرًا من المعرفة القديمة عن طريق التقاليد الطويلة، وهناك، علاوة على ذلك، في كنوزنا أشياء كثيرة محفوظة؛ كتب وصحف مكتوبة على رقع جلدية ذابلة، نعم، وعلى الحجر، وعلى أوراق من فضة ومن ذهب، بحروف مختلفة. بعضها لا يمكن لأحد أن يقرأها الآن؛ وبالنسبة للحروف الباقية، فإن قليلين فكوا شفرتها على الإطلاق. يمكنني أن أقرأ قليلًا فيها؛ لأنني كنت متعلمًا. لقد كانت هذه السجلات التي أحضرت الحاج الأشيب[1] إلينا. كانت أول مرة رأيته فيها عندما كنتُ طفلًا، وقد جاء هو مرتين أو ثلاثًا منذ ذلك الحين».

---

(1) اسم من أسماء جَنْدَلْف (المترجم)

وقال فرودو: «الحاج الأشيب؟ أكان له اسم؟».

ورد فارامير قائلًا: «كنا نطلق عليه اسم ميثرانديرعلى الطريقة الجنية، وكان راضيًا عن ذلك. كان يقول كثيرة هي أسمائي في بلدان كثيرة. ميثرانديربين الجن، ثاركون للأقزام؛ أولورين كنتُ في شبابي في الغرب الذي لم يعد يُذكر، في الجنوب إنكانَس، في الشمال جَنْدَلْف؛ لم أذهب إلى الشرق».

فقال فرودو: «جَنْدَلْف! ظننتُ أنه هو. جَنْدَلْف الأشيب، أعز المستشارين لدى. قائد صحبتنا. ضاع في موريا».

فقال فارامير: «ميثرانديرضاع! يبدو أن قدرًا شريرًا كان يلاحق صحبتكم. إنه من الصعب حقًا الاعتقاد أن واحدًا بهذه الحكمة الكبيرة، والقوة بالنظر للأشياء الكثيرة الرائعة التي فعلها بيننا يمكن أن يهلك، وأن يؤخذ من العالم كل هذا الكم من المعرفة. هل أنت واثق من ذلك، وأن ما حدث فقط هو أنه ترككم ورحل إلى حيث شاء؟».

وقال فرودو: «واحسرتاه! نعم. رأيته يسقط في الهاوية».

وقال فارامير: «أرى أن هناك قصة عظيمة من الرعب في هذا، والتي ربما تقصها عليّ في وقت المساء. هذا الميثرانديركان، في ظني الآن، أكثر من كونه أحد أساطين المعرفة؛ محرك عظيم للأعمال التي تتم في وقتنا. لو أنه كان بيننا لنستشيره بخصوص كلمات حلمنا الصعبة، لكان قد أوضحها لنا دونما حاجة إلى رسول. ولكن، ربما، لم يكن ليفعل ذلك، وكانت رحلة بوروميرمحتومة ومقدرة عليه. لم يتحدث ميثرانديرقط معنا عما كان سيأتي، كما إنه لم يكشف عن أغراضه. استأذن من دنثور، كيف؟ لا أدري، لينظر إلى أسرار كنزنا، وتعلمتُ منه الكثير، عندما كان يُعلم (وكان ذلك نادرًا). كان دائمًا ما يبحث ويسألنا فوق كل شيء آخر بشأن المعركة العظيمة التي جرت حربها فوق سهل داجورلاد في بداية جوندور، عندما هُزم ذلك الذي لا نذكر اسمه[1]. وكان متلهفًا لسماع قصص إسيلدور، على الرغم من أن لدينا الكثير لنرويه عنه؛ لأنه لم يُعرف أي شيء على وجه اليقين أبدًا بيننا عن نهايته».

وعندئذ انخفض صوت فارامير حتى أصبح همسًا. «ولكن هذا الكثير الذي تعلمته، أو خمنته، وقد احتفظتُ به سرًا في قلبي منذ ذلك الحين؛ أن إسيلدور أخذ شيئًا ما من يد ذلك الذي لا نذكر اسمه[2]، قبل أن يرحل بعيدًا من جوندور، ولم يُر بعد ذلك أبدًا بين البشر الفانين مرة أخرى. كانت تكمن هنا حسب اعتقادي الإجابة على أسئلة ميثراندير. ولكن بدت عندئذ مسألة كانت تتعلق فقط بالباحثين عن المعرفة القديمة. وعندما تمت مناقشة كلمات حلمنا الملغزة فيما بيننا، فكرتُ في لعنة إسيلدور وكونها هي ذات الشيء.

---

(1) الإشارة هنا إلى ساورون (المترجم).

(2) الإشارة هنا إلى ساورون (المترجم).

لأن إسيلدورَ وقع في كمين وذبحته سهام الأوركيين، حسب الأسطورة الوحيدة التي عرفناها، ولم يخبرني ميثراندير أبدًا بأكثر من ذلك.

ما هو ذلك الشيء في الحقيقة، لا يمكنني أن أخمن ذلك؛ ولكن لابد أنه إرث معين من القوة والخطر، سلاح رهيب مهلك، ربما، صممه سيد الظلام. لو أنه كان شيئًا كان يعطي ميزة في المعركة، فيمكنني أن أعتقد بشكل كبير أن بورومير، الفخور الجسور، المتهور في الغالب، المتلهف أبدًا على انتصار ميناس تيريث (ومجده هو في ذلك)، قد يرغب في ذلك الشيء ويفتن به. واحسرتاه أنه ذهب في تلك المهمة من الأساس! كان ينبغي اختياري أنا من جانب والدي ومن جانب الزعماء، ولكنه هو الذي تقدم، لكونه الأكبر والأكثر جرأة وجسارة (وكل ذلك صحيح)، ولا يمكن استبقاؤه ولا منعه.

«ولكن لا تخف بعد ذلك! إنني لن آخذ هذا الشيء، حتى إذا كان ملقى على الطريق. لا ولا حتى إذا كانت ميناس تيريث تتداعى وتنهار وأنا وحدي الذي بإمكاني إنقاذها، على هذا النحو، مستخدمًا خاتم سيد الظلام لصالحها ولمجدي. لا، إنني لا أرغب في تلك الانتصارات، يا فرودو بن دروجو».

وقال فرودو: «كما أن المجلس لم يكن يرغب في ذلك أيضًا. ولا أنا كذلك. كان ينبغي عليَّ ألا أتدخل في تلك المسائل».

وقال فارامير: بالنسبة لنفسي، أتمنى أن أرى الشجرة البيضاء مزهرة مرة أخرى في أبهاء الملوك، والتاج الفضي يعود، وميناس تيريث في سلام؛ «ميناس أنور» مرة أخرى كما كانت في الماضي، مليئة بالضوء، عالية وجميلة، جميلة كملكة بين الملكات الأخريات: ليست سيدة لخدم كثيرين، كلا، ولا حتى سيدة لطيفة لخدم راغبين مطيعين. الحرب لابد أن تكون، بينما نحن ندافع عن حياتنا ضد مدمر سوف يلتهم كل شيء؛ ولكني لا أحب السيف البراق لمضائه، ولا السهم لسرعته، ولا المحارب لمجده. إنني أحب فقط ذلك الذي يدافعون عنه؛ مدينة بشر نومينور؛ وإنني لأتمنى أن يكون الحب لها لذكراها ولقدمها وعراقتها ولجمالها ولحكمتها الحاضرة. لا يخافني أحد، باستثناء ما يكون عندما يخشى الرجال منزلة رجل ومقامه، لكبر سنه وحكمته.

«ولذلك فلا تخشاني! إنني لا أسألك أن تخبرني بأكثر من ذلك. بل إنني لا أسألك أن تخبرني إذا ما كنتُ الآن أتحدث بشكل أكثر قربًا من لب الموضوع. ولكن إذا كنتَ ستثق بي، فإنه قد يكون بإمكاني أن أنصحك بشأن مهمتك الحالية، مهما تكن تلك المهمة نعم، بل وحتى أساعدك».

ولم يُحر فرودو جوابًا. لقد خضع تقريبًا لرغبة المساعدة والمشاورة، ليخبر هذا الشاب الجاد، الذي بدت كلماته حكيمة وجميلة للغاية، كل ذلك في عقله. ولكن شيئًا ما منعه. كان قلبه مفعمًا بالخوف والحزن، إذا كان هو وسام حقًا، كما يبدو هما، كل من

تبقى من الماشين التسعة، فإنه كان إذن المتحكم الوحيد في سر مهمتهم. عدم الثقة فيمن لا يستحق الثقة أفضل من الكلمات المتهورة. وذكرى بورومير، والتغير المخيف الذي أحدثه إغراء الخاتم فيه، كان حاضرًا تمامًا في عقله عندما نظر إلى فارامير وأنصت إلى صوته؛ لقد كانا مختلفين، ومع ذلك كانا متشابهين كثيرًا.

وواصلوا سيرهم في صمت لبعض الوقت، مارين مثل ظلال رمادية وخضراء أسفل الأشجار العجوزة، لم تكن أقدامهم تصدر أي صوت؛ كانت فوقهم الكثير من الطيور تغني، وكانت الشمس تلمع على سقف الأوراق المظلمة المصقول في غابات إثيلين دائمة الخضرة.

لم يكن لسام أي دور في المحادثة، على الرغم من أنه كان ينصت؛ وفي نفس الوقت فقد أصغى بأذنيه الهوبيتيتين الحادتين لكل الأصوات المنخفضة التي كانت في الغابة من حولهم. هناك شيء واحد كان قد لاحظه، وهو أنه في كل ذلك الحديث لم يأت ذكر اسم جولام. كان سعيدًا على الرغم من أنه شعر أنه كان كثيرًا جدًا يتمنى ألا يسمعه أبدًا مرة أخرى. وفي الحال أدرك أيضًا، على الرغم من أنهم كانوا يمشون وحدهم، أن هناك الكثير من الرجال قريبون منهم؛ ليس فقط دامرود و مابلونج ينتقلان من مكان إلى مكان خلال الظلال التي كانت أمامهم، ولكن كان هناك آخرون على كلا الجانبين، الجميع يشقون طريقهم السري السريع إلى مكان ما محدد.

ذات مرة، حيث نظر فجأة للوراء، كما لو أن وخزة في جلده أخبرته أنه مراقب من الخلف، فكر أنه لمح سريعًا شكلًا أسود صغيرًا يتسلل خلف جذع شجرة. وفتح فمه ليتحدث وأغلقه مرة أخرى. وقال لنفسه: «إنني لست متأكدًا من ذلك ولم أذكرهم بذلك الوغد العجوز، إذا هم اختاروا أن ينسوه؟ أتمنى أن لو أستطيع ذلك!»

ولذلك واصلوا مرورهم، حتى أصبحت الغابات أقل كثافة وبدأت الأرض تنخفض بشكل أكثر حدة وانحدارًا. بعد ذلك داروا جانبًا، إلى اليمين، وجاءوا سريعًا إلى نهر صغير في ممر ضيق، كان هو نفس نبع الماء الذي كان يتقاطر من فوقهم خارجًا من البركة، حيث أصبح الآن سيلًا جارفًا، يقفز هابطًا فوق صخور كثيرة في قاع مشقوق بعمق، تتدلى معلقة عليه أشجار البلوط الأخضر وأشجار البقس السوداء. ولما نظروا إلى الغرب رأوا، من تحتهم في سحابة ضبابية من الضوء، أراضيَ منخفضة ومروجا واسعة، وكانت تتوهج على بعد منهم في الشمس التي تأخذ طريقها للغروب مياه نهر أندوين الشاسعة.

وقال فارامير: «هنا، واحسرتاه! يجب عليّ أن أقوم معكم بعمل فظ غير مهذب. أتمنى أن تسامحوا عليه شخصًا جعل حتى الآن أوامره تخضع وتفسح المجال للطفه

وكياسته بحَيْث لم يقم بذبحكما أو بتقييدكما. ولكن ذلك أمر بأنه لا غريب ولا حتى واحد ممن يحاربون معنا من روهـان سوف يرى الطريق الذي نسير فيه الآن ومفتح العينين. يجب أن أعصب عيونكما».

فقال له فرودو: «أنت وما تريد. حتى الجن يفعلون مثل ذلك عند الحاجة، وعبرنا حدود لوثلورين الجميلة ونحن معصوبو الأعين. حمل جيملي القزم ذلك على محمل السوء ولم يرض عنه، بينما تحمله الهوبيتيون وقبلوه».

فقال فارامير: «إنني لن أقودكما إلى مكان جميل للغاية. ولكني سعيد أنكما ستقبلان ذلك طواعية وليس بأي قوة».

ونادى بصوت رقيق، وفي الحال خرج مالونج و دامرود من بين الأشجار وجاءا عائدين إليه. وقال فارامير: «اعصبوا أعين هذين الضيفين بإحكام، ولكن ليس بطريقة تزعجهما وتضايقهما. لا تربطوا أيديهما. سوف يعدان بألا يحاولا أن ينظرا ويريا. إنني واثق أنهما سيغلقان أعينهما من تلقاء أنفسهما، ولكن الأعين سوف تومض إذا تعثرت الأقدام. لتقوداهما حتى لا يتعثرا».

بأوشحة خضراء قام الحارسان عندئذ بعصب أعين الهوبيتيين، وسحبوا غطاءي رأسيهما إلى أسفل فيهما تقريباً؛ بعد ذلك أخذا سريعاً كل واحد منهما من يده وواصلا سيرهما. كل ما عرفه فرودو وسام عن هذا الميل الأخير من الطريق علماه من التخمين في الظلام. بعد وقت قليل وجدا أنهما كانا على طريق هابط بشكل حاد؛ وسريعاً أصبح ضيقًا للغاية لدرجة أنهم كانوا يسيرون صفًّا واحدًا، وهم يحكون جدارًا حجريًا على كلا الجانبين؛ وكان قائداهما يوجهانهما من الخلف بالأيدي التي وضعت بإحكام على كتفيهما. ومن وقت لآخر كانا يأتيان إلى أماكن وعرة فكانا يُرفعان من على الأرض لبعض الوقت، وبعد ذلك يُنزلان مرة أخرى. كانت ضوضاء المياه الجارية دائمًا على يمينهم وراحت تصبح أكثر قربًا وعلوًا. وأخيرًا أوقفوا. وسريعًا قام مابلونج ودامرود بتدويرهما، عدة مرات ففقدا كل إحساس بالاتجاهات. صعدا لأعلى قليلًا؛ بدا الجو باردًا وأصبحت ضوضاء النهر ضعيفة. بعد ذلك أخذا وتم حملهما هبوطًا عبر عدة درجات، ثم داروا بهما في زاوية قريبًا. وفجأة سمعا صوت مياه مرة أخرى، وكان عاليًا الآن، المياه تندفع وتتناثر، كانت تبدو أنها حولهما في كل مكان، وأحسا بمطر دقيق على أيديهما وخديهما. وأخيرًا وضعا على قدميهما مرة أخرى. ووقفا على هذا الوضع لبعض الوقت، نصف خائفين، معصوبي العينين، لا يعرفان أين هما؛ ولم يكن أحد يتحدث.

بعد ذلك أتى صوت فارامير قريبًا من ورائهما، حيث قال: «دعوهما ينظرا ويريا». ورفعت عصابات الأعين وأزيحت أغطية رأسيهما إلى الوراء، وطرفت أعينهما سريعًا وفغرا فاهُمَا لاهثَيْن.

وقفا على أرض رطبة من حجر مصقول، وكانت عتبة الباب، كما كانت، من بوابة مقطوعة من حجر غير مصقول فتحتها مظلمة وراءهما. ولكن في الأمام كان معلقًا ستار من ماء، كان قريبًا جدًا من فرودو ولو مد يده لكان بإمكانه أن يضعها فيه. كان وجهه متجهًا نحو الغرب. كانت الأشعة المستوية للشمس الغاربة وراءه تضرب فوقه، وكان الضوء الأحمر مكسورًا إلى عدة أشعة وامضة ذات لون دائم التغيير. كانا كما لو أنهما انتصبا نافذة لبرج جني، مكسو بستائر من مجوهرات منظومة من فضة وذهب، وياقوت، وياقوت أزرق جمشت، كانت كلها تتوهج بنار لا تذبل.

وقال فارامير: «على الأقل وبمصادفة طيبة جئنا في الساعة المناسبة لمكافأتكما على صبركما. هذه هي نافذة غروب الشمس، هينيث أنون، أجمل مساقط إثيلين، أرض الفسقيات الكثيرة. قليلون جدًا هم الغرباء الذين رأوها على الإطلاق. ولكن ليس هناك أي بهو ملكي وراءها ليضاهيها. ادخلا الآن وانظرا!»

بينما كان يتكلم غابت الشمس، وتلاشت النار في المياه المتدفقة المنسابة. واستداروا ومروا تحت القنطرة الواطئة الوعرة. في الحال وجدوا أنفسهم في غرفة حجرية، واسعة وخشنة، ولها سقف منحن غير متساو. تم إشعال عدة مشاعل قليلة وألقت بضوء باهت على الجدران المتلألئة. كان هناك الكثير من الرجال بالفعل. كان هناك آخرون لا يزالون يأتون اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة عبر باب ضيق أسود في أحد الجانبين. ولما اعتادت أعين الهوبيتيين على الظلام رأيا أن الكهف كان أكبر مما كانا قد خمنا وكان مليئًا بمخزون كبير من الأسلحة والمؤن.

وقال فارامير: «حسنًا، ها هو ملاذنا. ليس مكانًا مريحًا جدًا، ولكن هنا يمكنك أن تمضي الليلة في سلام وطمأنينة. إنه جاف على الأقل، وهناك طعام، مع أنه ليست هناك نار. في وقت من الأوقات تدفقت المياه هابطة عبر ذلك الكهف ومن القنطرة، ولكن مجراها تغير كثيرًا لأعلى الممر الضيق، غيره العمال فيما مضى، وانطلق نبع الماء هابطًا في صورة شلال له ضعف الارتفاع فوق الصخور التي توجد بعيدًا عاليًا. كل الطرق إلى هذا الغار أغلقت عندئذ أمام دخول الماء أو أي شيء آخر؛ جميعها ما عدا طريقًا واحدًا. هناك الآن طريقان اثنان فقط للخروج؛ ذلك الممر هنالك الذي دخلتما من خلاله معصوبي الأعين، وعبر ستارة النافذة في تجويف عميق مليء بسكاكين من حجارة. والآن استريحا لبعض الوقت، حتى يتم إعداد وجبة المساء.

وأُخذ الهوبيتيان إلى ركن وأُعطيا فراشًا واطئًا للنوم فيه، إذا رغبا في ذلك. وفي ذات الوقت انشغل الرجال حول الكهف، في هدوء وبسرعة منظمة. أُخذت طاولات خفيفة من

الجدران ووُضعت على الحوامل وحُملت بـالأدوات. كانت كلها أدوات بسيطة وغير مزخرفة في الجزء الأعظم منها، ولكنها كانت جميعها حسنة الصنع وجميلة؛ أطباق كبيرة دائرية، وسلطانيات وأطباق من فخار بني مزجج أو خشب البقس المدور، المصقول والنظيف. وكان متناثرا هنا وهناك كوب أو حوض من البرونز المصقول؛ ووضع كأس من فضة خالصة إلى جوار مقعد القائد في وسط الطاولة الكائنة في المنتصف.

وراح فارامير يتجول في المكان بين الرجال، يسأل كل واحد عندما يدخل، بصوت منخفض. عاد بعضهم من مطاردة الجنوبيين؛ وأخيرًا جاء آخرون ممن كانوا قد تُركوا كحراس وكشافة قريباً من الطريق. وجاءت تقارير عن جميع الجنوبيين، باستثناء الماموك العظيم؛ ما الذي حدث له، لم يكن بإمكان أحد أن يقول لم تكن تُرى أي حركة للعدو؛ ولم يكن حتى هناك جاسوس أوركي بالخارج.

وسأل فارامير آخر الذين جاءوا قائلًا: «ألم تر أو تسمع أي شيء يا أنبورن؟».

ورد عليه الرجل بقوله: «لا يا سيدي. ليس هناك أي أوركي على الأقل. ولكني رأيتُ، أو ظننتُ أنني رأيتُ، شيئًا ما غريبًا قليلًا. كانت الدنيا تزداد ظلمة، عندما تجعل الأعين الأشياء أكبر مما ينبغي أن تكون. ولذلك ربما لم يكن أي شيء أكثر من سنجاب». وشرع سام أذنيه عند سماعه لذلك. «ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإنه كان سنجابًا أسود، ولم أر أي ذيل. كان مثل ظل على الأرض، وكان يتحـرك بخفـة ورشاقة وراء جذع شجرة عندما اقتربتُ وصعدتُ سريعًا مثلما يمكن لأي سنجاب أن يفعل. إنك لن تجعلنا نذبح الحيوانات البرية دونما أي غرض، ولم يبد الأمر أكثر من ذلك، ولهذا فلم أحـاول إطلاق أي سهم. كانت الدنيا مظلمة للغاية بحيث لا يمكن الوثوق من الرمي على أي حال، واختفي المخلوق في ظلمة الأوراق في طرفة عين. ولكني بقيتُ لبعض الوقت؛ لأن ذلك بدا غريبًا، وبعد ذلك أسرعتُ عائدًا. خلتُ أنني سمعت أن ذلك الشيء يهس باتجاهي من مكان عال فوقي بينما أنا أنصرف. سنجاب كبير، ربما. ربما تحت ظل الذي لا نذكر اسمه هناك بعض حيوانات غابة ميركوود تتجول حتى هنا في غاباتنا. ولديهم سناجب سوداء هناك، هكذا يقال».

وقال فارامير: «ربما. ولكن سوف يكون ذلك نذير شؤم، إذا كان الأمر كذلك. إننا لا نريد الهاربين من غابة ميركوود في إثيلين». وتصور سام أنه نظر نظرة سريعة باتجاه الهوبيتيين وهو يتحدث؛ ولكن سام لم يقل شيئًا. اتكأ هو وفرودو لبعض الوقت وراحا يشاهدان ضوء المشعل، وكان الرجال يذرعون المكان جيئة وذهابًا ويتحدثون بصوت هامس منخفض. وبعد ذلك راح فرودو في النوم فجأة.

وراح سام يجاهد مع نفسه، يناقش هذه الطريقة وتلك، مفكرًا: «قد يكون على ما يرام، وبعد ذلك ربما لا يكون. الكلام الجميل قد يخفي قلبًا شريرًا». وتثاءب.

«يمكنني النوم لمدة أسبوع، وسوف يكون ذلك أفضل ما أفعله. وما الذي يمكن أن أفعله إذا أنا ظللتُ مستيقظًا، أنا وحدي تمامًا، ومن حولي كل أولئك الرجال العظام؟ لا شيء، يا سام جامجي؛ ولكن ينبغي عليك، مع ذلك، أن تظل مستيقظًا». وتمكن من ذلك بحال من الأحوال. وتلاشى الضوء من باب الكهف، وأصبح ستار المياه المتساقطة الرمادي معتمًا وضاع في الظل المتجمع. وواصل صوت الماء صدوره، لم يغير من نغمته أبدًا، في الصباح أو المساء أو الليل. كانت تخر وتهمس بالنوم. حشر سام براجمه في عينيه.

والآن تم إشعال المزيد من المشاعل. وفُتح برميل من النبيذ. تم فتح براميل المخزون. كان الرجال يحضرون الماء من الشلال. كان بعضهم يغسلون أيديهم في طشوت. تم إحضار وعاء نحاسي واسع وقطعة قماش بيضاء لفارامير واغتسل، وقال:

«أيقظوا ضيفينا، وخذوا لهما ماء. حان وقت الأكل». جلس فرودو في مكانه وتثاءب وتمطى. أما سام، ولم يكن معتادًا على أن يخدمه أحد، فنظر ببعض الدهشة إلى الرجل الطويل الذي كان منحنيًا، يمسك بطشت ماء أمامه.

وقال: «ضعـــه على الأرض، يا سيدي، من فضلك! أيسر لي ولك». بعد ذلك ولدهشة ومتعة الرجال غمر رأسه في الماء البارد وغسل رقبته وأذنيه.

قال له الرجل الذي كان يقوم بخدمة الهوبيتيين: «هل هي العادة في بلادكم أن تغسلوا الرأس قبل العشاء؟».

فقال له سام: «لا، قبل الإفطار. ولكنك إذا لم تكن قد نمت جيدًا فإن الماء البارد على الرقبة مثل المطر على الخس الذابل. تفضل! الآن يمكنني أن أظل مستيقظًا طويلًا بما يكفي لتناول بعض الطعام».

وبعد ذلك قادوهما إلى مقاعد إلى جوار فارامير؛ براميل مغطاة بالجلد وعالية بما يكفي فوق مقاعد الرجال بحيث تكون مناسبة ومريحة لهم. وقبل أن يأكلوا، استدار فارامير وجميع رجاله واستقبلوا جهة الغرب في لحظة من صمت. وأومأ فارامير لفرودو وسام أنه ينبغي عليهما أن يفعلا ذات الشيء.

وقال وهم يجلسون: «هكذا نفعل دائمًا، إننا ننظر باتجاه نومينور التي كانت، وفيما وراء ذلك إلى أرض الجن التي هي كائنة، وإلى ذلك الذي هو فيما وراء أرض الجن وسوف يكون إلى الأبد. أليست لديكم مثل تلك العادة عند تناول الطعام؟».

فقال له فرودو، وقد شعر أنه ساذج وغير مثقف بشكل غريب: «لا. ولكننا إذا كنا ضيوفًا، فإننا ننحني لمُضيفنا، وبعد أن نكون قد أكلنا ننهض ونشكره».

قال له فارامير: «هذا ما نفعله نحن أيضًا».

بعد كثير جدًا من الارتحال والتخييم، وبعد أيام أمضيت في البرية الموحشة، بدت وجبة المساء وليمة للهوبيتيين؛ أن يشربا نبيذًا أصفر، باردًا وحلو الرائحة، ويأكلا خبزًا وزبدًا، ولحومًا مملحة، وفواكه مجففة، وجبنًا أحمر جيدًا، بأيد نظيفة وسكاكين وأطباق نظيفة. لم يرفض لا فرودو ولا سام أي شيء قُدم لهما، ولا للحصة الثانية، ولا للحصة الثالثة من الطعام في حقيقة الأمر. سار النبيذ في عروقهم وفي أطرافهم المتعبة، وأحسا بالسعادة وراحة القلب مثلما لم يشعرا بذلك من قبل منذ أن تركوا أرض لورين.

عندما كان كل شيء قد انتهي، قادهما فارامير إلى مكان منعزل في آخر الكهف، مغطى في جزء منه بستائر؛ وأُحضر إلى هناك مقعد وكرسيان بلا ظهر. وكان هناك مصباح من خزف يشتعل في كوة.

وقال لهما: «قد ترغبان حالًا في النوم، وخاصة ساموايز الطيب، الذي لم يغمض عينيه قبل أن يأكل سواء كان ذلك خوفًا من كسر حدة الجوع النبيل، أو خوفًا مني، لا أدري. ولكن ليس من الجيد أن تنام سريعًا بعد الطعام، وأن يكون ذلك بعد صيام. دعونا نتحدث لبعض الوقت. في رحلتكما من ريفنديل لابد أنه كانت هناك أشياء كثيرة لتحكيا لنا عنها. وأنتما أيضًا قد ترغبان في أن تعلما شيئًا عنا وعن البلاد التي أنتما فيها الآن. أخبراني عن بورومير أخي، وعن ميثراندير العجوز، وعن شعب لوثلورين الجميل.

لم يعد فرودو يشعر بالنعاس وكان مستعدًا وراغبًا في الكلام. ولكن على الرغم من أن الطعام والنبيذ قد أراحاه، فإنه لم يفقد كل ما لديه من حذر. كان سام يبتسم ويدندن مع نفسه، ولكن عندما تحدث فرودو كان في البداية قانعًا بالإنصات، ولم يكن يتجرأ إلا من وقت لآخر مصدرًا صيحة تعجب دلالة على الموافقة.

حكى فرودو حكايات كثيرة، ولكنه كان يوجه المسألة دائمًا بعيدًا عن مهمة الصحبة وبعيدًا عن الخاتم، مضخمًا، فضلًا عن ذلك، الدور الباسل الذي قام به بورومير في جميع مغامراتهم، مع ذئاب البرية، في الجليد تحت قمة كارادراس[1]، وفي أنفاق موريا حيث سقط جَنْدَلْف. وتأثر فارامير أكثر ما تأثر بقصة المعركة التي وقعت فوق الجسر، وقال:

«لابد أن الهروب من الأوركيين قد ضايق بورومير، أو حتى من ذلك الشيء الشرس الشرير الذي ذكرته، البالروج[2] حتى ولو كان هو الأخير الذي غادر المكان».

فقال فرودو: «كان هو الأخير، ولكن أراجورن أجبر على أن يقودنا. هو وحده كان يعرف الطريق بعد سقوط جَنْدَلْف. ولكن لو لم نكن نحن القوم الأصغر حجمًا الذين كان من اللازم العناية بنا، ما كنت أعتقد أنه كان سيفر هو أو بورومير».

---

(1) Caradhras قمة القرن الأحمر إحدى أعظم القمم في الجبال الضبابية (المترجم) *

(2) Balrog معناها (Demon of Might) أي عفريت عظيم [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Balrog] (المترجم)

فقال فارامير: «ربما، كان سيكون من الأفضل لو أن بورومير قد وقع هناك مع ميثراندير، ولم يذهب إلى القدر الذي كان ينتظره فوق مساقط نهر راوروس».

فقال فرودو وقد حول الموضوع مرة أخرى: «ربما. ولكن أخبرني الآن عن مصائركم؛ لأنني أود أن أعرف المزيد عن ميناس إثيل و أوسجيلياث و ميناس تيريث التي ثبتت وصمدت طويلاً. أي أمل لديكم لتلك المدينة في حربكم الطويلة؟».

وقال فارامير: «أي أمل لدينا؟ لقد مضى زمن طويل منذ أن كان لدينا أي أمل. سيف إليينديل، إذا عاد حقاً، ربما يضيئها من جديد، ولكني لا أعتقد أنه سوف يفعل أي شيء أكثر من إرجاء اليوم الشرير، ما لم تأت مساعدة أخرى غير متوقعة، من الجن أو الإنس؛ لأن العدو يزداد ونحن نقل. إننا شعب آخذ في الضعف، خريف بلا ربيع.

لقد استقر بشر نومينور بعيداً وفي أماكن شاسعة متفرقة على الشواطئ ومناطق الأراضي العظمى المواجهة للبحر، ولكنهم في الجزء الأعظم منهم سقطوا في الأعمال الشريرة والحماقات. استهوت الظلمة والفنون السوداء الكثيرين منهم؛ استكان بعضهم كليةً للتبطل والراحة، وراح بعض آخر منهم يتقاتلون فيما بينهم، حتى غُلبوا في ضعفهم من جانب الرجال الهمجيين الجامحين الشرسين.

«إنه لم يُقل إن الفنون الشريرة قد مورست على الإطلاق في جوندور، أو أن ذلك الذي يتعذر وصفه[1] حدث أن ذكر بإجلال واحترام هناك؛ والحكمة والجمال القديمان اللذان جُلبا من الغرب ظلا طويلاً في مملكة أبناء إليينديل الجميل، ولا تزال موجودة هناك. ولكن حتى مع ذلك فقد كانت جوندور هي التي أحدثت تدهورها وانحطاطها بنفسها، حيث أصبحت خرفة تدريجياً، حيث كانت تظن أن العدو نائم، والذي كان فقط منفياً ولم يتم تدميره.

«كان الموت حاضراً دائماً؛ لأن النومينوريين كانوا لا يزالون ـ كما كانوا، في مملكتهم القديمة، وهكذا فقدوها ـ يتوقون لحياة أبدية لا تتغير. صنع الملوك قبوراً أكثر روعة من منازل الأحياء، وكانوا يحصون أسماء قديمة في مطويات أنسابهم أعز من أسماء الأبناء. كان السادة الذين لم يكن لديهم أولاد يجلسون في قاعات عتيقة مستغرقين في التفكير في النبالة والأنساب النبيلة؛ وفي غرف سرية كان رجال ذابلون يقومون بتحضير الإكسيرات القوية، أو في الأبراج الباردة العالية يسألون أسئلة عن النجوم. ولم يكن للملك الأخير من سلالة أناريون وريث.

«ولكن القهرمانات كانت أكثر حكمة وحظاً. أكثر حكمة، لأنهم استجمعوا قوة شعبنا من شعب ساحل البحر القوي، ومن سكان جبال إريد نيمرايس[2] الجسورين. وأبرموا

(1) الإشارة هنا إلى ساورون (المترجم)

(2) Ered Nimrais الجبال البيضاء، وهي تلك السلسلة من الشرق إلى الغرب جنوب الجبال الضبابية. (المترجم)

هدنة مع شعوبِ الشمال القوية الأبية، والذين كانوا غالبًا ما يهاجموننا، رجال فيهم بسالة شرسة، ولكن أقاربنا من أماكنَ بعيدة، على عكس الشرقيين الهمجيين أو الهارادريين[1].

وهكذا حدث في أيام سيريون القهرمان الثاني عشر (وأبي هو السادس والعشرون)؛ إنهم خرجوا لمساعدتنا وفي معركة نهر سيليبرانت دمروا أعداءنا الذين كانوا قد استولوا على مقاطعاتنا الشمالية. هؤلاء هم الروهيريميون، كما نطلق نحن عليهم، سادة الخيل، وقد تنازلنا لهم عن حقول كاليناردهورن[2] التي أطلق عليها منذ ذلك الحين اسم روهان؛ لأن تلك المقاطعة كانت لزمن طويل نادرة السكان. وأصبحوا حلفاءنا، وقد أثبتوا دائمًا أنهم مخلصون لنا، يساعدوننا في وقت الحاجة، ويحرسون حدودنا الشمالية وفجوة روهان.

لقد تعلموا من معارفنا وطرائقنا ما أرادوا، ويتحدث ساداتهم لغتنا عند الحاجة؛ ولكن بالنسبة للجزء الأعظم فإنهم يملكونه على طرق آبائهم ووفق ذكرياتهم الخاصة، وهم يتحدثون فيما بينهم بلغتهم الشمالية الخاصة بهم. ونحن نحبهم؛ رجالًا طوالًا ونساء جميلات، بواسل على السواء، شعرهم ذهبي، وعيونهم براقة لامعة، وأقوياء؛ إنهم يذكروننا بشباب الإنس، كما كانوا في الأيام الخوالي. حقًّا يُقال على ألسنة سادة المعارف لدينا أنهم يملكون منذ القدم هذه الصلة والقرابة بنا بحيث يمكن القول أنهم أتوا من نفس المنازل الثلاثة للبشر كما كان النومينوريون في بدايتهم؛ وليس من هادور ذهبي الشعر، صديق الجن، ربما، ولكن من أبنائه ومن الأشخاص الذين لم يذهبوا عبر البحر إلى الغرب، رافضين النداء.

لأننا هكذا نعتبر كالبشر في معارفنا، ندعوهم النبلاء أو بشر الغرب، والذين كانوا النومينوريين؛ والشعوب المتوسطة، وبشر الفجر[3]، كما هي الحال مع الروهيريميين وعشيرتهم الذين لا يزالون يسكنون في الشمال؛ والهمجيين، بشر الظلام.

«ولكن الآن، إذا كان الروهيريميون قد نشئوا في بعض الطرق أكثر شبهًا بنا، يتحلون بالمهارات وبالدماثة، فإننا نحن أيضًا أصبحنا أكثر شبهًا بهم، ولم يكن يعد بإمكاننا أن ندعي لقب النبلاء. لقد أصبحنا بشرًا متوسطين، بشر الفجر، ولكن مع ذكرى لأشياء أخرى؛ لأنه كما يفعل الروهيريميون، فإننا الآن نحب الحرب والشجاعة كأشياء جيدة في حد ذاتها، كرياضة وكغاية على السواء؛ وعلى الرغم من أننا لا نزال نعتقد أن المحارب ينبغي أن يكون لديه مهارات ومعرفة أكثر من مجرد حرفة الأسلحة والذبح، إننا نقدر المحارب، مع ذلك، فوق أصحاب الحرف الأخرى. تلك هي حاجة

---

(1) Haradrim وهم (The Men of Harad) أي بشر هارارد، وهي البلاد الكائنة إلى الجنوب من موردور. (المترجم)

(2) Calenardhon أي [The Green Province] ومعناه [المقاطعة الخضراء] وهي اسم يطلق على روهان (المترجم)

(3) Men of the Twilight كلمة Twilight معناها الفجر الكاذب، أو الفجر [وتطلق على فترة موغلة في القدم]، وكذلك فترة انحطاط (المترجم)

أيامنا. وهكذا كان الآمر حتى مع أخي بورومير؛ رجل شجاع، ومن أجل هذا فقد عُد أفضل رجل في جوندور. وكان باسلًا جدًا حقًا، فلم يكن هناك أي وريث لميناس تيريث على مدار سنوات طويلة بهذا القدر من الجرأة في الكد والكدح، أو بهذا الاندفاع في المعركة والقتال، أو عزف نغمة أكثر عظمة على البوق العظيم». وتنهد فارامير وصمت لبعض الوقت.

وقال له سام، وقد استجمع شجاعته فجأة: «إنك لا تقول الكثير في حكايات كلها عن الجن يا سيدي». لقد لاحظ أن فارامير كان يبدو أنه يشير إلى الجن بتبجيل، بل وهذا أيضًا قد كسب احترام سام أكثر من لطفه وكياسته وطعامه ونبيذه وسكن شكوكه.

وقال فارامير: «كلاً في الواقع أيها السيد ساموايز؛ لأنني لستُ على علم بمعارف الجن. ولكنك هكذا تلمس نقطة أخرى تغيرنا فيها، منحرفين من نومينور إلى الأرض الوسطى؛ لأنه ربما، كما تعلم، كان ميثراندير رفيقكما وأنت قد تحدثتما مع إلروند، فإن الإيدين، آباء النومينوريين، حاربوا إلى جوار الجن في الحروب الأولى، وقد كوفئوا بهدية المملكة في وسط البحر، قريبًا من وطن الجن. ولكن في الأرض الوسطى، أصبح الإنس والجن غرباء في أيام الظلمة، من جراء حيل العدو، وبتغييرات الزمن البطيئة التي كان يمشي كل نوع فيها عبر طرقه المنفصلة المتباعدة، الإنس الآن يخشون الجن ويرتابون فيهم، ومع ذلك يعرفون القليل عنهم، ونحن من جوندور تربينا وكبرنا مثل الإنس الآخرين، مثل رجال روهان؛ لأنهم وهم الذين هم خصوم لسيد الظلام، يجتنبون الجن ويتحدثون عن الغابة الذهبية بفزع.

«ولكن هناك بعضًا منهم لا يزالون بيننا لهم تعاملات مع الجن عندما يكون بإمكانهم ذلك، وسوف يذهب الواحد سرًا بين الفينة والفينة إلى لورين، ونادرًا ما يعودون. وليس أنا. إنني أعتبر أنه من الخطير الآن على الإنسان الفاني أن يبحث بقصد عن الشعب القديم. ولكني أحسدكم أنتم الذين تحدثتم مع السيدة البيضاء».

وصاح سام: «سيدة لورين! جَلَدْرِيل! ينبغي عليك أن تراها، حقًا ينبغي يا سيدي أن تراها. إنني يا سيدي لستُ سوى هوبيتي، وأعمل في بلادي بستانيًا. فإذا كنت تدرك ما أقول، وأنا لستُ جيدًا كثيرًا في الشعر ولا في قرضه؛ ربما مقطوعة صغيرة من شعر فكاهي من وقت لآخر، تعرف ما أقول، ولكن ليس شعرًا حقيقيًا؛ ولذلك لا يمكنني أن أخبرك ما أقصده. ينبغي أن تُغني. ينبغي أن يكون لديك سترايدار ـ وأعني به أراجورن، أو السيد بيلبو العجوز ـ لهذا الغرض. ولكني أتمنى أن لو أستطيع أن أنظم أغنية عنها. جميلة هي يا سيدي! فاتنة! أحيانًا مثل شجرة عظيمة مزهرة، وأحيانًا أخرى مثل زهرة نرجس بيضاء، صغيرة وهيفاء. صلبة مثل أحجار الماس، رقيقة مثل نور

القمر. دافئة مثل ضوء الشمس، باردة مثل الندى في النجوم. أبية وبعيدة مثل جبل جليدي، وسعيدة مرحة مثل أي حسناء حدث أن رأيتها، وزهور الأقحوان في شعرها في الربيع. ولكن ذلك هراء كثير، وكل ذلك بعيد عن هدفي».

وقال فارامير: «إذن لابد أنها جميلة فاتنة حقًا. جميلة بشكل خطير».

فقال سام: «إنني لا أعرف شيئًا عن خطير. يعن لي أن الناس يأخذون خطرهم معهم إلى لورين، ويجدونه هناك لأنهم كانوا قد أحضروه.

ولكن ربما يمكنك أن تقول عنها إنها خطرة؛ لأنها قوية جدًا في نفسها. أنت.. أنت يمكنك، أن تحطم نفسك إلى قطع عليها، مثل سفينة تتحطم على صخرة؛ أو تُغرق نفسك، مثل هوبيتي في نهر. ولكن ليس الصخر ولا النهر هو الذي تلوم. والآن يا بورو وتوقف واحمر وجهه.

فقال فارامير: «نعم؟ والآن يا بورومير كنت ستقول؟ ماذا ستقول؟ أخذ خطره معه؟».

«نعم يا سيدي، أستميحك عذرًا، ورجل رائع مثلما كان أخوك، إذا جاز لي القول. ولكنك كنت حميمًا في إحساسك طوال الطريق. ولقد شاهدتُ بورومير واستمعتُ إليه، من ريفنديل عبر الطريق بأكمله أعتني بسيدي وأهتم به، كما ستدرك قولي، ولم أكن أقصد أي ضرر لبورومير وإنه في رأيي أنه في لوريين رأى بكل وضوح ما خمنتُه سريعًا؛ ما كان يريده. من اللحظة التي رآه فيها أول مرة فإنه كان يريد خاتم العدو!»

«سام!» صاح فرودو في ذعر. وكان قد غاص عميقًا في أفكاره لبعض الوقت، وأفاق منها فجأة وبعد فوات الأوان كثيرًا.

قال سام وقد ابيض وجهه، وبعد ذلك تورد حمرة «اعذرني! ها أنا ذا مرة أخرى! كلما فتحتَ فمك الكبير تضع قدمك فيه هكذا كان الجافر يقول لي، وكان على صواب بشكل كاف. آه يا عزيزي، آه يا عزيزي!»

والتفت، مواجهًا فارامير بكل الشجاعة التي استطاع استجماعها: «والآن انظر هنا يا سيدي! لا تستغل سيدي لأن خادمه ليس أكثر من أحمق. لقد تحدثتَ بشكل بارع جدًا طوال الوقت، وجعلتني أتخلى عن حذري، متحدثًا عن الجن وعن كل شيء آخر. ولكن بشكل بارع مثلما تفعل البراعة كما نقول. والآن هذه فرصة لتظهر طبيعتك».

«هكذا يبدو» قال فارامير ذلك، ببطء وفي صوت خفيض جدًا، مع ابتسامة غريبة. «إذن فتلك هي الإجابة عن كل الألغاز! الخاتم الأوحد الذي كان يظن أنه هلك من العالم. وقد حاول بورومير أن يأخذه بالقوة! وهربتما أنتما! وجريتما كل تلك المسافة إليَّ! وهنا في البرية أنتما في يدي أيها النصفان، ومجموعة من الرجال تحت أمري، وخاتم الخواتم. ضربة حظ كبيرة! فرصة لفارامير، قائد جوندور، ليظهر طبيعته! ها!» وانتصب واقفًا، طويلًا وصارمًا جدًا، وعيناه الرماديتان تومضان.

وقفز فرودو وسام من مقعديهما اللذين كانا بلا ظهر ووضعا أنفسهما جنبًا إلى جنب وظهريهما للجدار، يحاولان البحث في ارتباك عن مقبضي سيفيهما. وكان هناك صمت. توقف جميع الرجال الذين كانوا في الكهف عن الكلام ونظروا باتجاههما في دهشة وعجب. ولكن فارامير جلس مرة أخرى في مقعده وبدأ يضحك في هدوء، وبعد ذلك أصبح فجأة وقورًا رزينًا، وقال:

«واحسرتاه على بورومير! لقد كانت محنة مؤلمة للغاية! لكم زدتما حزني، أيها الهائمان الغريبان من بلد بعيد، يا من تحملان خطر البشر! ولكنكما أقل خبرة بالبشر من خبرتي بالأنصاف. إننا نادرًا ما نتفاخر، وبعد ذلك نفعل، أو نموت في محاولتنا. إنني لن آخذه، حتى إذا وجدته ملقى على الطريق قلت لكما. حتى ولو كنتُ ذلك الرجل الذي يرغب في ذلك الشيء، وعلى الرغم من أنني لم أكن أعرف بوضوح ما هو هذا الشيء عندما تكلمت، فإنني مع ذلك سوف آخذ هذه الكلمات على سبيل القسم، وألتزم بها.

ولكني لستُ ذلك الرجل. أم إنني حكيم بما فيه الكفاية لأعرف أن هناك بعض الأخطار التي يجب أن يفر الإنسان منها. لتجلسا في سلام! ولتستريحا، يا ساموايز. إذا كان يبدو أنك قد زللت، فلتفكر أن ذلك كان مقدورًا. إن قلبك داهية مثلما هو مخلص، وكان يرى بوضوح أكثر من عينيك؛ لأنه على الرغم من أنه قد يبدو غريبًا فقد كان آمنًا أن تصرح بذلك لي. بل وحتى قد يساعد ذلك السيد الذي تحبه. سوف تصير الأمور لصالحه، إذا كان ذلك بإمكاني ومقدوري. ولذلك فلتسترح. ولكن عليك، حتى، ألا تذكر هذا الشيء بصوت عال. مرة واحدة تكفي».

وعاد الهوبيتيان إلى مقعديهما وجلسا في هدوء شديد. وعاد الرجال إلى شرابهم وحديثهم مجددًا، وقد أدركوا أن قائدهم كان يمزح أو شيئًا ما من هذا القبيل مع الضيوف الصغار، وأن الأمر قد انتهى.

وقال فارامير: «حسنًا يا فرودو، الآن على الأقل يفهم كل منا الآخر. لو أنك كنت قد أخذت ذلك الشيء على عاتقك، غير راغب، بناء على طلب من الآخرين، فإنك عندئذ جدير بالشفقة والإجلال مني. وإنني أعجب وأندهش منك؛ لأنك أخفيته ولم تستخدمه. إنكم أناس جدد وعالم جديد بالنسبة لي. هل كل عشيرتك من نوع مشابه لك؟ لابد أن بلادك مملكة سلام واطمئنان، ولابد أن البستانيين هناك ذوو مرتبة عالية وشرف».

فقال فرودو: «ليس كل شيء على ما يرام هناك ولكن بكل تأكيد فإن البستانيين يحظون بمرتبة عالية وشرف».

«ولكن لابد أن السكان هناك يتعبون، حتى في حدائقهم، مثلما تتعب كل الأشياء تحت شمس هذا العالم. وأنتما بعيدان عن وطنكما وأضناكما السفر. لا مزيد من الحديث

الليلة. ناما، كلاكما في سلام، إذا استطعتما. لا تخافا! إنني لا أريد أن أراه، أو ألمسه، أو أعرف المزيد عنه أكثر مما أعرف (وهو كاف)، خشية أن يهاجمني الخطر مصادفة وأرسب في الامتحان محرزًا أقل من فرودو ابن دروجو. اذهبا الآن لتستريحا ولكن أولًا أخبراني فقط، إذا أردتما، إلى أين تريدان أن تذهبا؟ وماذا تفعلان؟ لأنه ينبغي عليَّ أن أراقب، وأنتظر، وأفكر. الوقت يمضي. في الصباح علينا أن نذهب جميعًا بسرعة على الطرق المحددة والمرادة لنا».

أحس فرودو بنفسه يرتعش بينما مرت صدمة الخوف الأولى. والآن حل به تعب عظيم مثل سحابة. لم يعد بإمكانه أن يخفي ذلك وأن يقاومه أكثر من ذلك، وقال في ضعف:

كنتُ سأجد طريقًا إلى موردور. كنتُ ذاهبًا إلى جورجوروث. يجب أن أعثر على جبل النار وأرمي الشيء في خليج الهلاك. قال ذلك جَنْدَلْف. لا أعتقد أنني سأصل إلى هناك أبدًا.

وحدق فارامير فيه للحظة في ذهول كبير. بعد ذلك فجأة أمسك به وهو يترنح، ورفعه برفق، وحمله إلى الفراش ووضعه فيه، وغطاه بدفء. وفي الحال راح في نوم عميق.

وتم إعداد فراش آخر إلى جواره لخادمه. وتردد سام للحظة، بعد ذلك انحنى جدًا وقال: «طابت ليلتك أيها القائد سيدي. لقد غنمتَ الفرصة يا سيدي».

فقال له فارامير: أفعلتُ ذلك حقًّا؟

«نعم يا سيدي، وأظهرت طبيعتك الجيدة؛ أسمى وأرقى طبيعة».

وابتسم فارامير، وقال: «خادم أنيق، أيها السيد ساموايز. ولكن كلا؛ فإن مدح من يستحق المديح هو فوق كل المكافآت. ولكن لم يكن هناك شيء في هذا لامتداحه. ليست لديَّ أي رغبة أو غواية أن أفعل بخلاف ما فعلتُه».

فقال سام: «آه، حسنًا يا سيدي، لقد قلتَ إن سيدي لديه مسحة جنية؛ وأنا أقول إن ذلك كان جيدًا وحقيقيًا. ولكني أقول: أنت أيضًا لديك مسحة يا سيدي تذكرني، تذكرني، بجَنْدَلْف، بالساحر».

فقال فارامير: «ربما. ربما أنك ترى من بعيد جدًّا مسحة نومينور. طابت ليلتك».

الفصل السادس

البــركـــة المحظـــورة

استيقظ فرودو ليجد فاراميرمنحنياً فوقه. انتابته لثانية المخاوف القديمة وجلس في مكانه وانزوى بعيداً منكمشاً.

وقال فارامير: «ليس هناك من شيء تخافه».

ورد فرودو وهو يتثاءب: «هل الوقت صباحاً بالفعل؟»،

«ليس بعد، ولكن الليل قارب من نهايته، والبدر يأخذ في المغيب. هل ستأتي وتراه؟ كما أن هناك مسألة أيضاً أرغب في الحصول على مشورتك بشأنها. إنني آسف لإيقاظك من النوم، ولكن هل ستأتي؟».

«سوف آتي» قال ذلك فرودو، وهو ينهض ويرتعش قليلاً وهو يرفع البطانية والجلود الدافئة من عليه. بدا الجو بارداً في الكهف الذي لم تكن فيه نار. كان صوت المياه عالياً في السكون. ولبس معطفه وتبع فارامير.

واستيقظ سام فجأة بغريزة اليقظة ورأى أول ما رأى فراش سيده الخالي وقفز على قدميه. بعد ذلك رأى الشكلين الأسودين؛ فرودو ورجلاً، محاطين بإطار في الطريق المقنطر، والذي كان عندئذ مملوءاً بضوء أبيض شاحب. وأسرع وراءهما، أمام صفوف من البشر نائمين على فرش بطول الجدار. وبينما كان يمر عبر مدخل الكهف رأى أن الستار قد أصبح عندها حجاباً لامعاً من حرير ولآلئ وخيط من فضة؛ قطرات جليدية من نور القمر ذائبة مدلاة. ولكنه لم يتوقف ليبدي إعجابه بها، ودار جانباً وتبع سيده عبر الباب الضيق في جدار الكهف.

مرا في البداية عبر ممر أسود، بعد ذلك صعدا الكثير من درجات السلم المبتلة، وبعد ذلك وصلا إلى منبسط سلم صغير مسطح محفور في الصخر ووميض بالسماء الشاحبة، يتوهج عالياً فوقهم عبر عمود عميق طويل. ومن هنا راحت مجموعتان من درجات السلالم تقودهما؛ واحدة تسير في خط مستقيم، كما بدا ذلك، صاعدة إلى ضفة النبع العالية؛ أما الأخرى فقد استدارت بعيداً إلى الشمال. وتبعا هذه المجموعة من السلالم. وراحت تتعرج في طريقها صاعدة مثل سلم في برج صغير.

وأخيراً خرجا من الظلمة الحجرية ونظرا حولهما. كانوا على صخرة واسعة مسطحة بدون درابزين أو حاجز. وعلى يمينهم، باتجاه الشرق، راح السيل الجارف يتساقط، متناثراً فوق مصاطب كثيرة، وبعد ذلك، راح ينهمر هابطاً في سباق حاد

الانحدار، ملأ قناة ملساء مشقوقة بقوة مظلمة لمياه مرقشة بالزبد، وهي تتلوى وتتدافع عند أقدامهم تقريبًا حيث اندفعت بشكل حاد فوق الحافة التي كانت مفتوحة منشقة على يسارهم. كان رجل يقف هناك، بالقرب من الحافة، صامتًا، يحدق في أسفل.

واستدار فرودو ليشاهد أعناق المياه الأنيقة وهي تنحني وتغوص في الأعماق. بعد ذلك رفع عينيه وحدق بعيدًا. كان العالم هادئًا وباردًا، كما لو كان الفجر وشيكًا. وبعيدًا في الغرب كان البدر يأخذ في المغيب، دائريًا وأبيض اللون. كان السديم الشاحب يومض في الوادي العظيم أسفل منهم؛ خليج واسع من أبخرة فضية، كانت تدور أسفل منه مياه الليل الباردة في نهر أندوين. راحت تلوح فيما وراء ذلك ظلمة سوداء، وكانت تتلألأ فيها، هنا وهناك، باردة حادة بعيدة نائية بيضاء مثل أسنان الأشباح قمم جبال إريد نيمرايس، الجبال البيضاء في مملكة جوندور، يتوجها ثلج دائم.

وقف فرودو هناك لبرهة على الحجر المرتفع، وحلت به رعشة سرت في جميع بدنه، متسائلًا إن كان رفاقه في أي مكان في تلك الأراضي الشاسعة في الليل قد مشوا أو ناموا، أو رقدوا موتى يكفنهم الضباب والسديم. لماذا جيء به إلى هنا من نوم باعث على النسيان؟

كان سام متلهفًا إلى الحصول على إجابة عن نفس السؤال ولم يستطع أن يمنع نفسه من الغمغمة؛ لأذن سيده وحده كما اعتقد هو: «إنه منظر جميل، ولا ريب يا سيد فرودو، ولكنه يبعث قشعريرة في القلب، ناهيك عن العظام! ما الذي يجري؟».

وسمع فارامير وأجاب: «وقت غروب القمر فوق جوندور. إيثيل الجميلة، وهو يمضي من الأرض الوسطى، تنظر إلى الخُصلات البيضاء في جبل ميندولوين. إن ذلك يستأهل عدة رعشات ورجفات قليلة. ولكن ليس هذا ما أحضرتُك إلى هنا من أجله لتراه، لكن بالنسبة لك يا ساموايز فإنك لم تُحضَر إلى هنا، إلا لتدفع ثمن يقظتك. رشفة من نبيذ سوف تصلح ذلك كله. هيا، انظر الآن!».

وقفز إلى جوار الحارس الصامت الذي كان واقفًا فوق الحافة المظلمة، وتبعه فرودو. وتخلف سام وراءهما. أحس بالفعل بعدم الأمان بالشكل الكافي في منصته العالية المبتلة. نظر فارامير وفرودو لأسفلَ؛ أسفلَ منهما بكثير رأيا شلال المياه البيضاء يندفع إلى تجويف مزبد، وبعد ذلك يدور بشكل مظلم حول حوض بيضاوي عميق في الصخور، حتى وجد طريقه مرة أخرى عبر بوابة ضيقة، وراح يتدفق بعيدًا، وهو ينطلق مثل الدخان ويهدر، إلى ألسنة أكثر هدوءًا وأكثر استواء. كان نور القمر لايزال ينحدر مائلًا على سفح الشلال وكان يتوهج على مويجات الحوض. في الوقت الحالي أدرك فرودو وجود شيء صغير مظلم على الضفة القريبة، ولكن حتى وهو ينظر إليه، فإنه غاص واختفى وراء غليان الشلال وهديره، شاقًا المياه السوداء ببالغ الدقة مثل سهم أو حجر ماض.

التفت فارامير إلى الرجل الذي كان بجواره وقال: «والآن ماذا ستقول عن هذا يا أنبورن؟ سنجاب أم طائر القِرلي[1]؟ هل هناك طيور قِرلي سوداء في البرك الليلية في غابة ميركوود؟».

وأجابه أنبورن قائلًا: «إنه ليس طائرًا، مهما يكن غير ذلك، فله أربعة أطراف ويغوص مثل الإنسان؛ وهو يظهر أيضًا براعة كبيرة في هذه العملية. ما الذي هو بصدده؟ هل يبحث عن طريق للصعود عبر الستار إلى مخابئنا؟ يبدو أننا قد كُشفنا أخيرًا. لديَّ قوسي هنا، وقد عينت رماة آخرين في الحراسة، رجالًا حاذقين في الرمي جيدين مثلهم مثلي، على كلتا الضفتين. إننا لا ننتظر سوى الأمر بالرمي أيها القائد».

وقال فارامير وقد التفت إلى فرودو: «هل نرمي؟».

ولم يجبه فرودو للحظة وبعد ذلك قال: «لا! لا! أرجوك لا تفعل». ولو كان سام قد واتته الجرأة لأجاب أسرع وبصوت أعلى: «نعم».

ولم يستطع أن يرى، ولكن خمن جيدًا بما يكفي من كلماتهما ما الذي كانا ينظران إليه.

وقال فارامير: «أنت تعلم إذن ما هو هذا الشيء؟ هيا، لقد رأيته إذن، أخبرني لماذا ينبغي أن نبقي عليه. في كل كلماتنا معًا لم تتحدث مرة واحدة عن رفيقك الشرير، وأنا تركته كذلك حتى ذلك الوقت. يمكنه الانتظار حتى يتم الإمساك به ويُحضر أمامي. لقد أرسلتُ أبرع الصيادين لديَّ للبحث عنه، ولكنه هرب منهم، ولم يرَوْه حتى وقتنا هذا، باستثناء أنبورن هنا، مرة واحدة عند الغسق مساء أمس. ولكنه الآن قام بتعديات وتجاوزات أسوأ من مجرد ذهابه لاصطياد الأرانب في المرتفعات؛ لقد تجرأ على أن يأتي إلى هينيث أنون، وحياته عُرضة للإهدار. إنني أتعجب من هذا المخلوق؛ مبهم للغاية وماكر للغاية مثلما هو عليه، لأنه يأتي متريضًا في البركة أمام نافذتنا تمامًا. هل يظن أن الرجال ينامون دون حراسة طوال الليل؟ لماذا هو كذلك؟».

وقال فرودو: «هناك إجابتان، فيما أعتقد. بالنسبة لأحد الأشياء، فهو يعرف القليل عن البشر، على الرغم من دهائه، فإن مخبأك مختبئ للغاية لدرجة أنه ربما لم يكن يعرف أن البشر مختبئون هنا. بالنسبة للشيء الآخر، أظن أن هناك رغبة مسيطرة تغريه؛ رغبة أكثر قوة من حذره».

وقال سفارامير بصوت منخفض: «أتقول: شيء يغريه هنا؟ هل يمكنه أن... هل هو إذن، يعلم بعبئك وحملك[2]؟».

«في الحقيقة نعم. لقد حمله هو نفسه لسنوات كثيرة». وقال فارامير وهو يتنفس بحدة في ذهوله: «هو حمله؟ هذه المسألة تلف نفسها دائمًا في ألغاز جديدة. إذن فهو يطارده؟».

(1) القرلي (kingfisher) طائر يعيش قرب الأنهار ويعيش على الأسماك (قاموس المورد) (المترجم)

(2) الإشارة هنا إلى الخاتم. (المترجم)

«ربما. إنه ثمين بالنسبة له. ولكني لم أتحدث عن هذا».

«ما الذي يبحث عنه هذا المخلوق إذن»؟

فقال فرودو: «السمك. انظر!».

وحدقوا لأسفل في البركة المظلمة. ظهر رأس صغير أسود عند نهاية الحوض البعيدة من خارج الظل العميق للصخور مباشرة تماما. كانت هناك ومضة فضية وجيزة، ودوامة من مويجات غاية في الصغر. وسبح إلى الجانب، وبعدئذ وبرشاقة رائعة تسلق شكل شبيه بالضفدع خارجا من الماء وصعد الضفة. وفي الحال جلس وبدأ يقضم ذلك الشيء الفضي الذي كان يومض وهو يدور؛ الأشعة الأخيرة للقمر كانت الآن تغيب وراء الجدار الصخري عند نهاية البركة.

وضحك فارامير بصوت منخفض وقال: «سمك! إنه جوع أقل خطرًا. أو ربما لا؛ سمك من بركة هينيث أنون قد يكلفه كل ما لديه ليعطيه».

وقال أنبورن: «الآن، فإنه عند سن سهمي. ألن أرميه، أيها القائد؟ ونظرًا لكونه جاء دون دعوة إلى هذا المكان فإن الموت قانوننا». فقال فارامير: «انتظر، يا أنبورن. إنها مسألة أكثر مشقة وصعوبة مما تبدو عليه. ماذا لديك الآن لتقوله يا فرودو؟ لماذا علينا أن نبقي عليه؟».

فقال فرودو: «المخلوق تعيس وجائع، وغير مدرك لخطره. وجَنْدَلْف، والذي تسمونه ميثراندير، كان سيأمركم بألا تذبحوه لذلك السبب، ولأسباب أخرى. لقد أمر الجن أن يفعلوا ذلك. لا أعرف بوضوح السبب في ذلك، ولا أستطيع أن أتكلم صراحة عما أخمنه. ولكن هذا المخلوق مربوط بطريقة ما بمهمتي. و كان هو مرشدنا حتى أن عثرتَ أنت علينا وأخذتنا».

وقال فارامير: «مرشدكم! الأمر يصبح أكثر غرابة. يمكنني أن أفعل الكثير لك يا فرودو ولكني لا أستطيع أن أمنحك هذا؛ أن أدع ذلك الهائم الماكر يذهب حرًا بإرادته من هنا، لينضم إليكما فيما بعد إذا كان هذا يعجبه، أو أن يمسك به الأوركيون فيفشيَ كل ما يعرفه تحت تهديد الألم. لابد أن يُذبح أو يؤخذ. يُذبح، إذا لم يُؤخذ بسرعة كبيرة. ولكن كيف يمكن الإمساك بهذا الشيء المراوغ الخادع الذي له مظاهر كثيرة متعددة يتخفى بها، إلا برمح مريش؟».

وقال فرودو: «دعني أهبط إليه سريعًا. يمكنك أن تجعل أقواسك محنية في وضع الاستعداد وترميني على الأقل إذا أنا فشلتُ. إنني لن أهرب».

فقال له فارامير: «لتذهب إذن وأسرع! إذا نجح وجاء حيًّا، فإنه سيكون خادمك

الأمين طوال ما تبقى من حياته التعيسة. لتقد فرودو إلى أسفل الضفة يا أنبورن، واذهب سريعًا. الشيء[1] له أنف وأذنان. أعطني قوسك».

وقاد أنبورن طريق الهبوط وهو متضجر هابطًا السلالم المتعرجة حتى وصلا أخيرًا إلى فتحة ضيقة تغطيها شجيرات صغيرة كثيفة. ومر فرودو عبرها في صمت إلى أن وجد نفسه على قمة الضفة الجنوبية فوق البركة. كانت الدنيا عندها ظلامًا وكانت مساقط المياه شاحبة ورمادية، لا تعكس سوى ما تبقى من نور قمر السماء الغربية. لم يستطع أن يرى جولام. وتقدم مسافة قصيرة وجاء أنبورن في هدوء وراءه.

وهمس في أذن فرودو بقوله: «استمر في سيرك! كن حذرًا على يمينك. إذا أنت سقطت في البركة، فلن يستطيع مساعدتك سوى صديقك الذي يقوم بصيد السمك. ولا تنس أن هناك قواسين قريبين من هنا، على الرغم من أنك لا تراهم».

وزحف فرودو سائرًا للأمام، مستخدمًا يديه بطريقة شبيهة باستخدام جولام ليتحسس الطريق وليحافظ على توازنه. كانت الصخور في الجزء الأعظم مسطحة وملساء ولكنها كانت زلقة. وتوقف وأرهف السمع. في البداية لم يستطع أن يسمع أي صوت سوى حفيف شلال الماء وراءه، والذي لا ينقطع. وعندئذ سمع في الحال لفترة قصيرة، ليس بعيدًا أمامه، صوت تذمر هامس في هسيس.

«سمك، سمك لطيف[2]. اختفى الوجه الأبيض، يا ثميني[3]، أخيرًا، نعم. يمكننا[4] أن نأكل السمك في سلام. كلا، ليس في سلام، يا ثميني. لأن الثمين ضاع؛ نعم، ضاع. الهوبيتيون القذرون، الهوبيتيون الحقيرون. ذهبوا وتركونا، جولام[5]؛ الثمين مضى. فقط سميجول المسكين وحده تمامًا. ليس هناك ثمين. البشر الحقيرون، سوف يأخذونه، يسرقون ثميني. لصوص. نحن نكرههم. سمك، سمك لطيف. يجعلنا أقوياء. يجعل العينين حادتين، والأصابع قوية، نعم. نخنقهم أيها الثمين. نخنقهم جميعًا، نعم، إذا أتيحت لنا الفرص. سمك لطيف. سمك لطيف!».

واستمر على هذا النحو، دون أن يتوقف تمامًا مثل شلال المياه، لا يقطعه سوى صوت بلع اللعاب والغرغرة. وارتعش فرودو، وهو ينصت بشفقة واشمئزاز. تمنى أن لو توقف ذلك، وألا يكون لزامًا عليه أبدًا أن يسمع ذلك الصوت مرة أخرى. لم يكن أنبورن بعيدًا جدًا وراءه. كان يمكنه أن يزحف عائدًا ويطلب منه أن يجعل الرماة

---

(1) الإشارة هنا إلى جولام الذي سينزل فرودو لإحضاره. (المترجم)

(2) كعادة جولام، ينطق الكلام بطريقة غريبة وصوته له هسيس، فهو ينطق (fish) سمك (fissh). (المترجم)

(3) الإشارة هنا إلى الخاتم (المترجم)

(4) طريقة جولام في الكلام يستخدم ضمير المتكلم الجمع في حديثه عن نفسه. (المترجم)

(5) جولام هنا ليست إشارة إلى اسمه، وإنما هو هنا إشارة إلى صوت الحشرجة الحلقية الذي يصدر عنه، والذي سمي باسم جولام نسبة إليه. (المترجم)

يرمون سهامهم. ربما سيكونون قريبين بشكل كاف، في حين كان جولام يلتهم أكله بنهم وغير منتبه. رمية صائبة واحدة فقط، ويتخلص فرودو من الصوت التعيس للأبد، ولكن لا، جولام كان له حق عليه الآن. الخادم له حق على سيده لخدمته، حتى الخدمة من جراء الخوف. كان من الممكن أن يغرقوا تائهين في المستنقعات الميتة لولا جولام. وقد عرف فرودو أيضًا بحال من الأحوال بوضوح تام أن جندلف لم يكن ليريد ذلك ويرغب فيه.

وقال بصوت منخفض: «سميجول!».

وقال الصوت: «سمك، سمك لطيف».

وقال، بصوت أعلى قليلًا: «سميجول!» وتوقف الصوت.

«سميجول، السيد أتى ليبحث عنك. السيد هنا. تعال يا سميجول!» لم تأته أية إجابة سوى صوت هسيس منخفض، كصوت الشهيق في التنفس.

وقال فرودو: «تعال يا سميجول! إننا في خطر. البشر سوف يقتلونك، إذا هم وجدوك هنا. تعال سريعًا، إذا كنت تريد أن تهرب من الموت. تعال إلى السيد!».

وقال الصوت: «كلا! ليس لطيفًا أيها السيد. يترك سميجول المسكين ويذهب مع أصدقاء جدد. السيد يمكنه أن ينتظر. سميجول لم ينته».

فقال له فرودو: «ليس هناك وقت. أحضر السمك معك. تعال!».

«لا! يجب أن أنهي السمكة».

وقال فرودو في يأس وإلحاح: «سميجول! الثمين سوف يغضب. سوف آخذ الثمين، وسوف أقول: دعه يأكل العظام ويختنق. لا تذق السمك مرة أخرى. تعال، الثمين ينتظر!».

وجاء صوت هسيس حاد. وفي هذه اللحظة من خارج الظلمة جاء جولام يزحف على أطرافه الأربعة، مثل كلب ضال نادى عليه صاحبه ليعود. كانت معه سمكة أكل نصفها في فمه وسمكة أخرى في يده. جاء قريبًا من فرودو، وقد تلاصقت أنفاهما تقريبًا، وتشممه. كانت عيناه الشاحبتان تلمعان. وبعد ذلك أخرج السمكة من فمه ووقف.

وهمس قائلًا: «أيها السيد اللطيف! أيها الهوبيتي اللطيف، عُد إلى سميجول المسكين. سميجول الطيب يأتي. والآن دعنا نمضي، نمضي سريعًا، نعم. عبر الأشجار، بينما لا تزال الوجوه[1] مظلمة. نعم، تعال، هيا بنا نمضي!».

فقال له فرودو: «نعم، سوف نمضي قريبًا. ولكن ليس في الحال. سوف أذهب معك مثلما وعدتك. وأعدك مرة أخرى. ولكن ليس الآن. إنك لست في أمان بعد. سوف أنقذك، ولكن يجب أن تثق فيَّ».

(1) الوجوه يقصد بها الشمس والقمر. (المترجم)

وقال جولام في شك: «يجب أن نثق في السيد؟ لماذا؟ لماذا لا نمضي في الحال؟ أين الآخر؛ الهوبيتي النزق الأحمق؟ أين هو؟».

وقال فرودو وهو يشير إلى شلال الماء: «بعيداً هناك. إنني لن أمضي بدونه. يجب أن نعود إليه». وخار قلبه. كان ذلك شديد الشبه كثيراً بالخدعة. إنه لم يكن يخشى حقاً أن فارامير سيسمح بقتل جولام، ولكن من المحتمل أن يأسره وأن يقيده؛ وبالتأكيد ما فعله فرودو سيبدو خيانة للمخلوق المسكين الخائن. ربما سيكون من المستحيل جعله يفهم على الإطلاق أو يظن أن فرودو قد أنقذ حياته بالطريقة الوحيدة التي كانت باستطاعته. ماذا عساه أن يفعل غير ذلك؛ ليكون صادقاً، بقدر الإمكان مع كلا الجانبين. وقال: «تعال! وإلا فإن الثمين سيغضب. سوف نعود الآن، عبر نبع الماء. تحرك، تحرك، امض أنت في المقدمة!».

وراح جولام يحبو متاخماً للحافة لمسافة قصيرة، يتشمم وملؤه الشك والريبة. وتوقف عندئذ ورفع رأسه، وقال: «هنالك شيء ما! ليس هوبيتياً». وفجأة دار للوراء. كان هناك ضوء أخضر يومض في عينيه البارزتين. وقال في هسيس: «السيد، السيد! شرير! مخادع! زائف!» وبصق ومد ذراعيه الطويلتين بأصابعه البيضاء التي تطبق على الأرض.

في تلك اللحظة، لاح الشكل الأسود العظيم لأنبورن وراءه وهبط عليه. وأخذته يد كبيرة قوية في مؤخرة عنقه وثبتته في مكانه. والتوى ودار مثل البرق، مبتلاً تماماً ونحيلاً وقذراً، وبه لزوجة كعادته، يتلوى مثل سمكة الجريث، ويعض ويخمش بأصابعه مثل قطة ولكن جاء رجلان آخران من خارج الظلال.

وقال واحد منهم: «اثبت مكانك! وإلا فإننا سنجعلك مثل قنفذ مليء بالمسامير. اثبت في مكانك!».

وأصبح جولام ضعيفاً واهناً، وبدأ يعوي ويبكي. وربطوه بلا بلطف على الإطلاق.

وقال فرودو: «برفق، برفق! ليست لديه القوة التي تضاهيكم. لا تؤذوه ما استطعتم. سيصبح أكثر هدوءاً، إذا أنتم لم تؤذوه. سميجول! إنهم لن يؤذوك. سوف أذهب معك، ولن يصيبك أي أذى. إلا إذا قتلوني أنا أيضاً. لتثق بالسيد!»

والتفت جولام وبصق عليه. وأخذه الرجال، ووضعوا قلنسوة على عينيه، وحملوه ومضوا.

وتبعهم فرودو، وهو يشعر بمنتهى التعاسة. وساروا عبر الفتحة التي تقع وراء الشجيرات القصيرة، ثم إلى الوراء، هابطين السلالم والممرات، إلى الكهف. أضيئت ثلاثة مشاعل. كان الرجال يتحركون. كان سام هناك، ونظر نظرة غريبة إلى الحزمة الضعيفة الواهنة التي كان الرجال يحملونها. وقال لفرودو: «أمسكتم به؟».

«نعم. حَسنًا لا، إنني لم أمسك به. لقد جاء إلـيَّ؛ لأنه، للأسف، وثق بي في البداية، إنني لم أكن أريد أن يُربط هكذا. آمل أن يكون كل شيء على ما يرام؛ ولكن أكره الأمر برمته».

وقال سام: «وأنا كذلك. ولن يكون أي شيء على ما يرام في المكان الذي يوجد فيه هذا الشيء التعيس».

وجاء رجل وأومأ للهوبيتيين، وأخذهما إلى الفجوة الموجودة في مؤخرة الكهف. كان فارامير يتحرك هناك في مقعده، وأضيء المصباح مرة أخرى في كوته فوق رأسه. وأومأ إليهما بالجلوس على كراسيٍ ليس لها ظهور إلى جواره؛ وقال: «أحضروا نبيذًا للضيفين. وأحضروا الأسير إليَّ».

وجيء بالنبيذ، وبعد ذلك جاء أنبورن يحمل جولام. وأزال الغطاء من على رأس جولام وأوقفه على قدميه، وهو واقف وراءه ليسنده. وطرفت عينا جولام، وهو يحجب مكر عينيه بجفونهما الشاحبة الثقيلة. كان يبدو مخلوقًا تعسًا للغاية، مبتلًا تتقاطر منه المياه، رائحته رائحة السمك (لا يزال قابضًا على سمكة في يده)؛ كانت خصل شعره النزرة مدلاة مثل أطراف الأعشاب النتنة على جبينه بارز العظام، وكان أنفه سائلًا.

وقال: «فكونا! فكونا! الحبل يؤذينا، نعم يؤذينا، إنه يؤذينا، ونحن لم نفعل شيئًا».

«لم تفعل شيئًا؟». قال له فارامير ذلك، وهو ينظر إلى المخلوق التعس نظرة حادة مدققة، ولكن بدون أي تعبير في وجهه سواء أكان تعبير غضب أم شفقة أم دهشة. «لم تفعل شيئًا؟ ألم تفعل أي شيء أبدًا يستحق القيد أو عقابًا أسوأ من القيد؟ ومع ذلك، ليس من شأني الحكم في هذا، لحسن الحظ. ولكنك جئت هذه الليلة في مكان الموت ينتظرك فيه. إن أسماك هذه البركة اشتريناها بثمن باهظ».

وأسقط جولام السمكة من يده، وقال: «لا أريد السمك».

فقال له فارامير: «السعر ليس موضوعًا على السمك. إن مجرد مجيئك إلى هنا والنظر في البركة يحمل الكثير من الموت. لقد أبقيت عليك إلى الآن بناء على رجاء فرودو هنا، والذي قال إنك تستحق منه هو على الأقل بعض الشكر. ولكن يجب عليك أيضًا أن تقنعني وترضيني. ما اسمك؟ من أين أتيت؟ وإلى أين تذهب؟ ما هو عملك؟».

فقال له جولام: «لقد ضعنا، ضعنا. لا اسم، لا عمل، لا ثمين، لا شيء. فقط الخواء. فقط جائعون؛ نعم، إننا جائعون. سمكات قليلة صغيرة، سمكات صغيرة قذرة عجفاء، لمخلوق مسكين، ويقولون الموت. إنهم حكماء جدًا؛ عادلون جدًا، عادلون جدًا جدًا».

وقال فارامير: «ليسوا حكماء جدًا. ولكنهم عادلون؛ نعم ربما، عادلون بالقدر الذي تسمح به حكمتنا البسيطة. فكه يا فرودو!» وأخذ فارامير سكينًا صغيرًا من حزامه وأعطاها لفرودو. ولما كان جولام قد أساء فهم الإشارة، فإنه راح يصرخ وسقط على الأرض.

وقال له فرودو: «الآن يا سميجول! يجب أن تثق بي. إنني لن أتخلى عنك. أجبني بصدق، إذا استطعت. سوف يكون ذلك لصالحك ولن يصيبك بضرر». وقطع الحبال من على معصمي جولام وكاحليه ورفعه وأوقفه على قدميه.

وقال له فارامير: «تعال هنا! انظر إليَّ! هل تعرف اسم هذا المكان؟ هل جئت إلى هنا من قبل؟».

ورفع جولام عينيه ببطء ونظر بلا رغبة في عيني فارامير. اختفى منهما الضوء تماماً، وحدقتا كئيبتين وشاحبتين للحظة في عيني رجل جوندور الصافيتين الثابتتين. كان هناك صمت ساكن. وبعد ذلك أنزل فرودو رأسه وانكمش على نفسه، حتى أصبح جاثيًا على الأرض، يرتعش، وقال وهو ينشج ويئن: «إننا لا نعرف ولا نريد أن نعرف. لم نأت هنا أبدًا؛ ولن نأتي أبدًا».

فقال فارامير: «هناك أبواب موصدة ونوافذ مغلقة في عقلك، وغرف مظلمة وراءها. ولكني أرى أنك تقول الحقيقة في هذا. هذا جيد بالنسبة لك. أي قسم ستقسم به بألا تعود مطلقًا؛ وألا تقود أي كائن حي أبدًا إلى هنا سواء بالكلمة أو بالإشارة؟».

فقال جولام وهو ينظر بطرف عينه إلى فرودو: «السيد يعلم. نعم، إنه يعلم. سوف نعد السيد، إذا هو أنقذنا. سوف نعطي عهدنا له[1]، نعم». وراح يحبو إلى قدمي فرودو زحفًا وقال في نحيب: «أنقذنا، أيها السيد اللطيف! سميجول يعطي وعده للثمين، ويعد بصدق. لن يأتي إلى هنا أبدًا، لن يتحدث أبدًا، كلا أبدًا! كلا، أيها الثمين، كلا!».

وقال فارامير: «هل رضيت واقتنعت؟».

فقال له فرودو: «نعم. يجب عليك، على الأقل، إما أن تقبل هذا الوعد أو تنفذ قانونك. لن تحصل على شيء أكثر من ذلك. ولكني وعدتُ أنه إذا جاء إليَّ، فلن يصاب بأذى. ولن يثبت أنني خائن غادر».

وجلس فارامير للحظة مفكرًا، وقال أخيرًا: «جيد جدًا. إنني أسلمك إلى سيدك، إلى فرودو بن دروجو. دعه يعلن ما الذي سيفعله معك!».

فقال فرودو وهو ينحني: «ولكن، أيها اللورد فارامير، إنك لم تعلن بعد إرادتك بشأن المدعو فرودو، وحتى تتم معرفة ذلك، فإنه لا يمكن أن يصوغ خططه لنفسه أو لرفاقه. لقد تأجل حكمك حتى الصباح؛ ولكن ذلك قريب الآن».

فقال فارامير: «إذن فسوف أعلن حكمي. فيما يخصك يا فرودو بقدر ما هو مخول لي في ظل سلطة أعلى؛ إنني أعلن أنك حر في مملكة جوندور إلى أبعد نقطة في حدودها

(1) الضمير الذي استخدم في هذه الكلمة (له) هو ضمير غير العاقل وكتب بحرف كبير (It) وهكذا فإن الإشارة إلى الخاتم. (المترجم)

القديمة؛ يستثنى من ذلك فقط أنه لا أنت ولا أي شخص يكون ذاهبًا معك مسموح لكم بالمجيء إلى هذا المكان دون دعوة. هذا الحكم قائم لمدة سنة ويوم، وبعد ذلك ينقطع، ما لم تأت قبل ذلك الأجل إلى ميناس تيريث وتقدم نفسك إلى ملك المدينة. وفي هذه الحالة فإنني سأرجوه أن يؤكد ما فعلته وأن يجعله مستمرًا مدى الحياة. وفي ذات الوقت، فإن أي شخص مهما يكن تأخذه في حمايتك سيكون في حمايتي وفي رعاية وحماية جوندور. هل أُجيب سؤلك؟».

وانحنى فرودو كثيرًا وقال: «لقد أُجيب سؤالي، وإنني أضع نفسي في خدمتك، إذا كان لذلك أي قيمة بالنسبة لشخص عالي المقام وشريف بهذا القدر الكبير».

فقال له فارامير: «إن له قيمة عظيمة. والآن، هل تأخذ هذا المخلوق، هذا السميجول، في حماية؟».

وقال له فرودو: «إنني آخذ سميجول في حمايتي». وتنهد سام بصوت مسموع؛ وليس بالكياسة التي كان يوافق عليها تمامًا، مثلما هي الحال مع أي هوبيتي؛ إن تلك المسألة كانت ستقتضي كلمات وانحناءات أكبر بكثير.

وقال فارامير وهو يلتفت إلى جولام: «إذن فإنني أقول لك، إنك محكوم عليك بالموت؛ ولكن مادمت تمشي مع فرودو فإنك آمن من جانبنا. ولكن إذا حدث على الإطلاق وعثر عليك أي رجل من جوندور تتجول هائمًا بدونه، فإن حكم الموت سوف يقع عليك. وسوف يجدك الموت سريعًا، داخل جوندور أو خارجها، إذا لم تخدمه بالشكل الجيد. والآن أجبني: إلى أين ستذهب؟ لقد كنتَ مرشده، حسب قوله. إلى أين كنتَ تقوده؟». ولم يرد عليه جولام.

فقال فارامير: «وهذا لن أحتفظ به سرًا. أجبني، وإلا فسوف ألغي حكمي!» ولكن جولام لم يجبه.

فقال له فرودو: «سوف أجيب أنا عنه. لقد أحضرني إلى البوابة السوداء، حسب طلبي؛ ولكن كان من المتعذر اجتيازها».

فقال فارامير: «ليست هناك بوابة مفتوحة إلى الأرض المجهولة».

وواصل فرودو كلامه: «ولما رأينا هذا، درنا جانبًا وأخذنا الطريق الجنوبي؛ لأنه قال إن هناك ـ أو قد يكون هناك ـ طريقًا قريبًا من ميناس إثيل».

فقال فارامير: «ميناس مورجول».

ورد فرودو بقوله: «لا أعرف بوضوح، ولكن الطريق يصعد، في رأيي، إلى الجبال في الجانب الشمالي من ذلك الوادي حيث توجد المدينة القديمة. وهو يصعد إلى جرف عال وبعدها يهبط إلى ما هو وراءه».

وقال فارامير: «هل تعرف اسم ذلك الطريق المرتفع؟».

ورد فرودو قائلًا: «كلا».

«يسمونه سيريث أنجول» قال جولام في هسيس حاد وبدأ يغمغم مع نفسه. وقال فارامير وقد التفت إليه: «أليس ذلك هو اسمه؟».

«كلا!» رد عليه جولام، وبعد ذلك صرخ صرخة طويلة حادة، كما لو أن شيئًا قد طعنه. «نعم، نعم، لقد سمعنا الاسم ذات مرة. ولكن ما الذي يعنيه الاسم؟ السيد يقول إنه لابد أن يدخل. ولذلك يجب علينا أن نجرب طريقًا ما. ليس هناك طريق آخر لنجربه، كلا».

فقال فارامير: «ليس هناك طريق آخر؟ كيف تعرف ذلك؟ ومن الذي جاب جميع تخوم هذه المملكة المظلمة؟». ونظر طويلًا وفي استغراق إلى جولام. وتحدث مرة أخرى بعدها مباشرة: «خذ هذا المخلوق بعيدًا، يا أنبورن. عامله بلطف، ولكن راقبه. ولا تحاول يا سميجول أن تغطس في الشلالات. الصخور لها أسنان من الممكن أن تذبحك قبل أوانك. اتركنا الآن وخذ سمكتك!».

وخرج أنبورن وذهب جولام في تذلل وتملق أمامه. وأغلق الستار عبر التجويف.

وقال فارامير: «فرودو، أظن أنك تتصرف بتهور كبير في هذا الشأن وبلا حكمة. لا أعتقد أنه ينبغي عليك أن تذهب مع هذا المخلوق. إنه شرير».

فقال فرودو: «كلا، ليس شريرًا تمامًا».

فقال فارامير: «ليس كلية، ربما، ولكن الحقد يأكله مثل الآفة، والشر ينمو ويكبر. إنه لن يقودك إلى خير. إذا أنت تخليت عنه وفارقته فإنني سأمنحه جواز مرور وإرشادًا إلى أي نقطة على حدود جوندور من الممكن أن يرغب فيها».

وقال له فرودو: «إنه لن يأخذ ذلك. إنه سيتبعني مثلما فعل طويلًا. وقد وعدته كثيرًا أن آخذه معي في حمايتي ورعايتي وأن أذهب إلى حيث يقودني. إنك لن تطلب مني أن أحنث في عهدي معه؟».

فقال فارامير: «كلا. ولكن قلبي سيفعل؛ لأنه يبدو أقل شرًا أن تشير على رجل آخر أن يحنث في عهده من أن تفعل ذلك مع نفسك، وخاصة إذا كان الشخص يرى صديقًا يسير دون عمد إلى إيذاء نفسه. ولكن لا. . إذا ذهب معك، يجب عليه الآن أن تتحمله. ولكني لا أظن أنك مجبر على الذهاب معه إلى سيريث أنجول التي أخبرك عنها أقل مما يعرف. ذلك الكثير أدركه بوضوح في عقله. لا تذهب إلى سيريث أنجول!».

فقال له فرودو: «إلى أين أذهب إذن؟ أعود إلى البوابة السوداء وأسلم نفسي للحراس؟ ما الذي تعرفه ضد هذا المكان يجعل اسمه مخيفًا للغاية هكذا؟».

وقال له فارامير: «ليس هناك شيء على وجه اليقين. نحن في جوندور لم نعبر أبدًا شرق الطريق في هذه الأيام، ولم يفعل ذلك أحد قط منا نحن الرجال الأصغر سنًا، كما

لم يحدث قطُّ أن وضع أحد منا قدمه على جبال الظل التي لا نعرف عنها سوى حكايات قديمة وشائعات في الأزمان الخالية. ولكن هناك رعب أسود معين يسكن في الممرات والطرق فوق ميناس مورجول. إذا ذُكرت سيريث أنجول، تبيض وجوه الرجال وسادات المعرفة ويلزمون الصمت.

«لقد تحول وادي ميناس مورجول إلى الشر منذ وقت طويل جداً، وكان تهديداً ورعباً في حين كان العدو المنفي لا يزال يسكن بعيداً، وكانت إثيلين لا تزال في الجزء الأعظم منها تحت سيطرتنا. وكما تعرف، كانت تلك المدينة في وقت من الأوقات مكاناً قوياً منيعاً، فخماً وجميلاً، ميناس إثيل، الأخت الشقيقة لمدينتنا. ولكن استولى عليها رجال وحشيون كان العدو قد سيطر عليهم في قوته الأولى، والذين جابوا الأرض مشردين لا سيد لهم بعد سقوطه. ويقال إن ساداتهم كانوا رجالاً من نومينور انحدروا إلى شر مظلم؛ وكان العدو قد أعطاهم خواتم السلطة والقوة، وقد التهمهم؛ فقد أصبحوا أشباحاً حية، رهيبة وشريرة. وبعد عودته، استولوا على ميناس إثيل وسكنوا هناك، وملئوها، وكل الوادي من حولها، بالفساد والخراب؛ كانت تبدو خالية إلا أنها لم تكن كذلك؛ لأنه كان هناك خوف بشع يعيش داخل أطلال الجدران. كانوا تسعة سادة، وبعد عودة سيدهم، الذي ساعدوه وأعدوه سراً، أصبحوا أقوياء مرة أخرى. وبعد ذلك انطلق الخيالة التسعة من بوابات الرعب، ولم نستطع أن نصمد أمامهم. لا تقترب من قلعتهم. سوف تُرى من بعد. إنه مكان لا ينام المكر والخبث فيه، مليء بأعين يقظة حذرة. لا تذهب في ذلك الطريق!».

فقال فرودو: «ولكن إلى أي مكان آخر سوف توجهني؟ لا يمكنك أنت نفسك، حسب قولك، أن تقودني إلى الجبال، ولا حتى فوقها. ولكن فوق الجبال محكوم ومحتوم عليَّ، بعهد والتزام مقدس أمام المجلس، أن أجد طريقاً أو أهلك في مسعاي. وإذا أنا عدتُ، رافضاً الطريق في نهايته القصوى، أين سأذهب عندئذ؛ بين الجن أم الإنس؟ هل ستجعلني آتي إلى جوندور بهذا الشيء، الشيء[1] الذي أصاب أخاك بالجنون من فرط الرغبة؟ أي سحر سيؤتيه في ميناس تيريث؟ هل ستكون هناك مدينتا ميناس مورجول، تكشران عن لعنة سيصبها على بعضهما عبر أرض ميتة مليئة بالفساد والخراب؟».

فقال له فارامير: «لن أسمح بحدوث ذلك».

«إذن ما الذي ستجعلني أفعله؟».

«لا أدري. فقط لن أدعك تذهب إلى الموت أو إلى العذاب. ولا أعتقد أن ميثراندير كان سيختار لك هذا الطريق».

(1) الشيء الإشارة إلى الخاتم (المترجم)

فقال فرودو: «ولكن حيث إنه قد مضى، فينبغي عليَّ أن أسلك الطرقات التي يمكنني العثور عليها. وليس هناك وقت للبحث الطويل».

وقال فارامير: «إنه قدر صعب ومهمة ميئوس منها. ولكن على الأقل، تذكر تحذيري؛ احذر هذا المرشد، سميجول. لقد قام بالقتل قبل الآن. لقد قرأتُ ذلك فيه». وتنهد بعد هذا القول.

«حسنًا، وهكذا نلتقي ونفترق، يا فرودو بن دروجو. لستَ بحاجة إلى كلمات رقيقة؛ لا أتمنى أن أراك مرة أخرى في أي يوم آخر تحت هذه الشمس. ولكنك ستذهب الآن مصحوبًا بمباركتي لك، ولجميع قومك. استرح قليلًا بينما يتم إعداد الطعام لكم».

«يسعدني أن أعرف كيف أصبح هذا المخلوق الزاحف سميجول مالكًا لهذا الشيء الذي نتحدث عنه، وكيف ضاع منه، ولكني لن أضايقك الآن. إذا حدث ـ وهو أمر خارج كل أمل وعدتَ إلى أرض الأحياء وقصصنا حكاياتنا مرة أخرى، ونحن جالسان إلى جوار جدار في الشمس، نضحك على ما مضى من حزن وأسى ـ فسوف تخبرني عندئذ بذلك. وحتى ذلك الوقت، أو حتى وقت آخر خارج نطاق رؤية صخور نومينور المبصرة، الوداع!».

ونهض وانحنى واطئًا أمام فرودو، وشد الستارة وخرج إلى الكهف.

الفصل السابع
رحلــة إلى مفتــرق الطـــرق

عاد فرودو وسام إلى فراشهما ورقدا هناك في صمت يستريحان قليلاً، في حين راح الرجال يتحركون وبدأ عمل اليوم. بعد فترة قصيرة جاءهم الماء، وبعد ذلك أُخذوا إلى طاولة حيث وضع عليها طعام لثلاثة. وأفطر فارامير من صيامه معهم. لم ينم منذ المعركة التي كانت في اليوم السابق، ولكن لم يكن يبدو أنه متعب.

وعندما انتهوا من تناول إفطارهم وقفوا جميعًا، وقال فارامير: «أتمنى أن لا يقلقكم جوع أبدًا على الطريق. لديكم القليل من المؤن، أمرتُ بتجهيز مخزون صغير من طعام ملائم للمسافرين ووضعه في أمتعتكم. لن يكون لديكم عجز في الماء وأنتم تسيرون في إثيلين، ولكن لا تشربوا من أي نبع يتدفق من إملاد مورجول، وادي الموت الحي. وهذا أيضًا عليّ أن أخبركم به. لقد عاد الكشافة والحراس الذين أرسلتهم جميعًا، حتى بعض أولئك الذين وصلوا في مرمى بصر بوابة مورانون[1]. ووجدوا كلهم شيئًا غريبًا. الأرض خاوية. ليس هناك أي شيء على الطريق، وليس هناك صوت لقدم، أو بوق، أو وتر قوس في أي مكان يمكن سماعه. صمت مترقب يجثم فوق الأرض المجهولة. لا أدري ما الذي ينذر به ذلك. ولكن الوقت يقترب سريعًا ليصل إلى خاتمة عظيمة معينة. العاصفة قادمة. لتسرعوا بينما في استطاعتكم ذلك! إذا كنتم جاهزين، هيا بنا نذهب. سوف تشرق الشمس في الحال فوق الظل».

وتم إحضار أمتعة الهوبيتيين إليهما (أكثر ثقلًا بقليل مما كانت عليه)، وكذلك هراوتان ثقيلتان من خشب مصقول، لهما نعال من حديد، ورءوس منحوتة كانت تسير خلالها سيور جلدية مجدولة.

وقال فارامير: «ليست لدي هدية مناسبة أعطيها لكما ونحن نفترق، ولكن خذا هاتين الهراوتين. ربما تكونان ذواتي فائدة لأولئك الذين يمشون أو يتسلقون في البرية. يستخدمها رجال الجبال البيضاء؛ على الرغم من أن هاتين الهراوتين قد قطعتا لتناسبا طوليكما وركبت لهما نعال جديدة من حديد. إنهما مصنوعتان من الشجرة الجميلة (ليبيثورن)، الشجرة المحببة لصناع الخشب في جوندور، كما وضعت فيهما قوة وميزة للعثور والرجوع. لعل هذه القوة والميزة لا تخفق تمامًا تحت الظل الذي تذهبان إليه!».

وانحنى الهوبيتيان كثيرًا وقال فرودو: «أيها المضيف غاية الكرم، لقد قال لي

---

(1) Morannon مورانون المدخل إلى موردور. وتترجم «البوابة السوداء»، وتسمى أيضًا «بوابة موردور». (المترجم)

إلروند هاف إلفين إنني سأجد الصداقة على الطريق، سرية ودون أن أبحث عنها. بالتأكيد لم أبحث عن تلك الصداقة التي أظهرتها. وجدتها تحول الشر إلى خير عظيم».

والآن استعدوا للرحيل. أُحضر جولام من ركن معين أو مخبأ في حفرة، وكان يبدو سعيدًا بنفسه أكثر مما كان، على الرغم من أنه ظل ملاصقًا لفرودو وكان يتجنب نظرة فارامير.

وقال فارامير: «ينبغي أن تعصب عيني مرشدكما، ولكني أعفيك أنت وخادمك ساموايز من هذا، إذا أردتما».

وصرخ جولام صرخة حادة، وتلوى، وأمسك بفرودو، عندما جاءوا ليعصبوا عينيه؛ وقال فرودو: «اعصبوا أعيننا نحن الثلاثة، وغطوا عينيَّ أنا أولًا، عندئذ ربما سيرى أنه ليس هناك أذى في الأمر». وفُعل ذلك، وتم اقتيادهم من كهف هينيث أنون. وبعد أن عبروا الممرات والسلالم أحسوا بهواء الصباح البارد، نقيًا وجميلًا، من حولهم. وواصلوا سيرهم وهم لا يزالون معصوبي الأعين لبعض الوقت، صعودًا وبعد ذلك هبوطًا برفق. وأخيرًا أمر صوت فارامير بكشف أعينهم.

ووقفوا تحت غصون الشجر مرة أخرى. لم تكن هناك أي ضوضاء تُسمع صادرة عن مساقط المياه؛ لأنه كان هناك منحدر طويل يقع بينهم وبين الوادي الضيق الذي كان نبع الماء يتدفق فيه. وإلى الغرب كانوا يرون الضوء عبر الأشجار، كما لو أن العالم قد وصل هناك إلى نهاية مفاجئة، عند حافة تطل فقط على السماء.

وقال فارامير: «هذا هو المفترق الأخير لطرقنا. إذا أخذتم بمشورتي، فلا تدورون شرقًا بعد. واصلوا سيركم في خط مستقيم؛ لأنكم هكذا ستكونون تحت غطاء الغابة لمسافة أميال كثيرة. يوجد في غربكم حافة تنخفض الأرض فيها لتصل إلى الوديان العظيمة، ويكون ذلك أحيانًا فجأة وبشكل شديد الانحدار، وأحيانًا في منحدرات تلالية طويلة. ابقوا قريبين من هذه الحافة ومن جوانب الغابة. في بداية رحلتكم، قد تسيرون في وضح النهار، فيما أعتقد. الأرض تحلم في سلام زائف، ولبعض الوقت سُحب كل الشر. الوداع، بينما تستطيعون ذلك!».

وبعد ذلك عانق الهوبيتيين، على طريقة قومه، منحنيًا وواضعًا يديه على أكتافهما، ومقبلًا جبهتيهما، وقال: «اذهبوا بالإرادة والعزيمة الجيدة لكل الرجال الجيدين!».

وانحنوا حتى وصلوا إلى الأرض. بعد ذلك استدار ودون أن ينظر للوراء تركهم وذهب إلى حارسيه اللذين كانا يقفان على بعد مسافة صغيرة. وتعجبوا لما رأوا السرعة التي يسير بها هؤلاء الرجال الذين يرتدون ثيابًا خضرًا عندئذ، متلاشين تقريبًا في طرفة عين. وبدت الغابة التي كان فارامير يقف فيها خاوية وموحشة، كما لو أن حلمًا قد مر.

وتنهد فرودوً واستدار نحو الجنوب. أما جولام، وكأنه يظهر عدم اكتراثه بكل تلك المجاملات وانحناءات الاحترام، فإنه كان يحفر في الطين تحت جذع شجرة. وفكر سام قائلًا: «جائع مجددًا بالفعل؟ حسنًا، هلمَّ الآن ثانيةً!».

وقال جولام: «هل ذهبوا أخيرًا؟ الرجال الأشرار القذرون! لا تزال رقبة سميجول تؤلمه، نعم إنها تؤلمه. هيا بنا نمضي!».

وقال فرودو: «نعم، هيا بنا نمضي. ولكن إذا كان كل ما لديك من كلام عن أولئك الذين كانوا رحيمين بك كلامًا شريرًا وسيئًا فالزم الصمت!».

فقال له جولام: «أيها السيد اللطيف! كان سميجول يمزح فحسب. دائمًا يغفر، نعم يغفر، نعم، نعم، حتى خدع السيد الصغير. أوه، نعم، أيها السيد اللطيف، سميجول اللطيف!».

ولم يجبه فرودو أو سام. ورفعا أمتعتهما وأخذا عصيهما، وسارا مارين عبر غابة إثيلين.

استراحوا مرتين في ذلك اليوم وأخذوا قليلًا من الطعام الذي زودهم به فارامير؛ فاكهة جافة ولحم مملح، يكفي لعدة أيام؛ وخبز كاف ليظل معهم مادام طازجًا. لم يأكل جولام شيئًا.

وأشرقت الشمس ومرت فوق الرءوس دون أن يراها أحد، وبدأت تغرب، وأصبح الضوء عبر الأشجار إلى الغرب ذهبيًا؛ وكانوا دائمًا يمشون في ظل أخضر بارد، وكان كل ما حولهم صامتًا. وبدت الطيور وكأنها طارت جميعًا أو أنها قد أصبحت خرساء.

وحل الظلام مبكرًا بالغابة الصامتة الساكنة، وقبل حلول الليل توقفوا، مرهقين متعبين؛ لأنهم كانوا قد مشوا سبعة فراسخ أو أكثر من هينيث أنون. ورقد فرودو ونام طوال الليل على الطمي تحت شجرة قديمة. كان سام إلى جواره أكثر قلقًا: استيقظ مرات كثيرة، ولكن لم تكن هناك أي علامة على جولام، الذي انسل بعيدًا بمجرد أن خلد الآخران للراحة. ولم يقل ما إذا كان قد نام بمفرده في أي حفرة قريبة، أم أنه قد راح يتجول في قلق يطوف بالمكان خلسة خلال الليل؛ ولكنه عاد مع أول شعاع من الضوء، وأيقظ رفيقيه.

وقال: «يجب أن يستيقظوا، نعم يجب أن يستيقظوا! هناك طريق طويل لا يزال أمامنا علينا أن نقطعه، جنوبًا وشرقًا. يجب أن يسرع الهوبيتيون!».

ومر اليوم على نحو كبير الشبه بالطريقة التي انقضى بها اليوم السابق، باستثناء أن الصمت بدا أكثر عمقًا؛ أصبح الهواء ثقيلًا، وبدأ يصبح خانقًا تحت الشجر. بدا وكأن الرعد بدأ يتجمع. كان جولام يتوقف كثيرًا، يتشمم الهواء، وبعد ذلك كان يغمغم بكلمات مع نفسه ويحضهم على السير بسرعة أكبر.

وبينما كانت المرحلة الثالثة من مسيرة يومهم تقترب وكانت فترة ما بعد الظهيرة تنقضي، أصبحت الغابة مكشوفة أمامهم، وأصبحت الأشجار أكبر حجمًا وأكثر تناثرًا. كانت أشجار البلوط الأخضر العظيمة ضخمة الحجم تقف مظلمة ورزينة في مناطق مكشوفة واسعة في الغابة متناثرة هنا وهناك بينها أشجار الدردار العتيقة، وأشجار البلوط العملاقة وقد طرحت براعمها الخضراء البنية منذ وقت قريب. كانت هناك من حولهم مساحات شاسعة من العشب الأخضر يتخللها نبات بقلة الخطاطيف وشقائق النعمان، بيضاء وزرقاء، كانت عندئذ مطوية للنوم؛ وكانت هناك هيكتارات مليئة بأوراق زهور الياقوتية[1]: كانت بالفعل سويقاتها الملساء جرسية الشكل تخرج بارزة من طبقة الطمي في التربة. لم يكن هناك أي مخلوق حي أو حيوان أو طير يمكن رؤيته، ولكن في هذه الأماكن المكشوفة أصبح جولام خائفًا، وراحوا يمشون عندئذ بحذر، متنقلين من ظل طويل إلى آخر.

كان الضوء يتلاشى سريعًا عندما وصلوا إلى نهاية الغابة. وهناك جلسوا تحت شجرة بلوط عجوز مشوهة أرسلت جذورها متلوية مثل الثعابين عبر ضفة منهارة شديدة الانحدار، زرقاء وبنية تحت المساء الكئيب، وراحت تواصل سيرها جنوبًا. وإلى اليمين، كانت جبال جوندور تتوهج، بعيدة في الغرب، تحت سماء مرقشة بالنار. وإلى اليسار كانت ترقد الظلمة:

جدران موردور العالية الشاهقة؛ ومن تلك الظلمة جاء الوادي الطويل، ينحدر انحدارًا كبيرًا في غور يتسع باستمرار باتجاه نهر أندوين. وكان يجري في قاع ذلك الوادي كان يجري جدول ماء مسرع، كان فرودو يسمع صوته الصخري يأتي عبر الصمت المطبق؛ وإلى جواره على الجانب القريب كان هناك طريق يسير متعرجًا هابطًا مثل شريط باهت اللون، يهبط إلى السُدم الرمادية الباردة التي لم تمسسها أي ومضة من غروب الشمس. وهناك بدا لفرودو أنه لمح عن بعد القمم العالية المعتمة والقمم المكسرة لأبراج قديمة مهجورة ومظلمة، تطفو كما لو أنها كانت على بحر من ظلال.

والتفت إلى جولام وقال: «هل تعرف أين نحن الآن؟».

«نعم، يا سيدي. أماكن خطيرة. هذا هو الطريق من برج القمر، يا سيدي، إلى المدينة الخراب المتهدمة، نعم، مكان قذر للغاية، مليء بالأعداء. لم يكن يتوجب علينا أن نأخذ بنصيحة البشر. لقد سار الهوبيتيون مسافة طويلة بعيدًا عن الطريق. يجب علينا أن نسير شرقًا الآن، بعيدًا إلى هناك». ولوح بذراعه النحيلة باتجاه الجبال المظلمة. «ولا يمكننا أن نستخدم هذا الطريق. أوه، كلا! أناس متوحشون يأتون في هذا الطريق، قادمين من البرج».

---

(1) Hyacinth المكحلة، الحدقية، الياقوتية: زهرة جميلة من الزنبقيات (قاموس المورد) (المترجم).

ونظر فرودو لأسفل إلى الطريق. لم يكن هناك على أية حال أي شيء يتحرك على الطريق في هذا الوقت. كان يبدو مهجورًا وغير مطروق، يسير عبر أطلال خربة في السديم. ولكن كان هناك شعور شرير في الجوار، كما لو أنه قد كانت هناك حقًا أشياء تمر جيئة وذهابًا لا تراها العين. وارتجف فرودو وهو ينظر مرة أخرى إلى قمم البرج البعيدة، والتي كانت عندئذ تغيب في الليل، وبدا صوت الماء باردًا ووحشيًا: صوت مورجولديون[1]، النهر الملوث الذي يتدفق من وادي الأطياف.

وقال: «ما الذي سنفعله؟ لقد سرنا طويلًا وبعدنا كثيرًا. هل نبحث عن مكان في الغابة يمكننا أن نختفي وراءه؟».

وقال جولام: «ليست هناك فائدة من الاختباء في الظلام. يجب على الهوبيتيين أن يختبئوا في النهار الآن، نعم في النهار».

فقال سام: «على رسلك! يجب أن نستريح لبعض الوقت، حتى ولو استيقظنا مرة أخرى في منتصف الليل. ستكون لا تزال هناك ساعات مظلمة، وقت كاف لك لتأخذنا في مسيرة طويلة، إذا كنتَ تعرف الطريق».

ووافق جولام على مضض على هذا، واستدار باتجاه الأشجار، يسير في جهد شرقًا لبعض الوقت عبر حواف الغابة الممتدة في غير نظام. لم يكن يستريح على الأرض القريبة للغاية من الطريق الشرير، وعقب بعض النقاش والحوار صعدوا جميعًا إلى جزء متشعب من شجرة بلوط منخفضة، والتي صنعت أفرعها الكثيفة التي كانت منبثقة معًا من الجذع مخبئًا جيدًا للاختباء فيه وملاذًا مريحًا إلى حد ما. وحل الليل وأصبحت الدنيا مظلمة تمامًا تحت ظُلة الشجرة. شرب فرودو وسام قليلًا من الماء وأكلا بعض الخبز والفاكهة الجافة، ولكن جولام في الحال التف على نفسه وراح في النوم. لم يغمض الهوبيتيان أعينهما.

لابد أن الوقت كان بعد منتصف الليل بقليل عندما استيقظ جولام؛ فجأة تنبهوا لعينيه الشاحبتين مكشوف عنهما جفناهما تومضان فيهما. وأنصت وتشمم، الأمر الذي بدا، مثلما كانوا قد لاحظوا من قبل، طريقته المعتادة لاكتشاف الوقت في الليل.

وقال: «هل استرحنا؟ هل نمنا نومًا جميلًا؟ هيا بنا نمضي!».

وقال سام في تذمر: «إننا لم نسترح، ولم ننل قسطًا من النوم. ولكننا سنمضي إذا كان يجب علينا ذلك».

ونزل جولام في الحال من فوق أفرع الشجرة على أطرافه الأربعة، وتبعه الهوبيتيان بشكل أكثر بطئًا.

(1) Morgulduin نهر إملاد مورجول (المترجم).

وبمجرد أن صارا على الأرض واصلا سيرهما مرة أخرى يقودهما جولام، نحو الشرق، صاعدين الأرض المنحدرة المظلمة. لم يكونوا يرون سوى القليل؛ لأن الليل كان عندئذ عميقًا للغاية لدرجة أنهم كانوا لا يكادون يدركون جذوع الشجر قبل أن يتعثروا فيها وهم يسيرون. أصبحت الأرض أكثر تكسرًا وأصبح المشي أكثر صعوبة. ولكن لم يبد أنه كانت هناك مشكلة بالنسبة لجولام بأي حال من الأحوال. وقادهما عبر الأجمات وبقايا نباتات العليق؛ أحيانًا حول حافة جرف عميق أو حفرة مظلمة، وأحيانًا هابطًا بهما إلى تجاويف سوداء تغطيها الشجيرات القصيرة وخرج بهما مرة أخرى؛ ولكن كلما حدث وساروا قليلا لأسفل ـ فقد كان المنحدر الآخر دائمًا أكثر طولًا وأكثر انحدارًا ـ كانوا يصعدون باطراد. وفي المرة الأولى التي توقفوا فيها نظروا للوراء، ورأوا على نحو معتم أسقف الغابة التي خلفوها وراءهم، قابعة مثل ظل كثيف مترامي الأطراف، ليلة أكثر ظلمة تحت السماء المظلمة الشاحبة. كان يبدو أن هناك ظلمات عظيمة تلوح ببطء من الشرق، تلتهم النجوم الواهنة الغائمة. وفيما بعد هرب القمر الذي كان يأخذ في الغروب من السحب التي تطارده، ولكنه كان محلقًا في كل مكان حوله بوهج أصفر شاحب.

وأخيرًا التفت جولام إلى الهوبيتيين، وقال: «النهار سيطلع قريبًا. يجب أن يسرع الهوبيتيان. ليس آمنًا البقاء في العراء في هذه الأماكن. أسرعا!».

وأسرع الخطى، وتبعاه في إرهاق وضجر. وفي الحال بدءوا يصعدون هضْبة حادة القمة متحدرة الجنبات عظيمة. كانت مغطاة في الجزء الأعظم منها بنبات الجولق والعنبية، وأشجار الزعرور القصيرة الوعرة، على الرغم من وجود بعض مساحات خالية هنا وهناك، آثار حرائق حديثة. أصبحت شجيرات الجولق القصيرة أكثر ظهورًا وانتشارًا وهي تصبح أكثر قربًا من القمة؛ كانت عجوزة وطويلة للغاية، نحيلة وطويلة السوق من أسفل ولكنها كثيفة من فوق، وكانت بالفعل تحمل أزهارًا صفراء تتوهج في الظلمة ويصدر عنها رائحة حلوة خفيفة. كانت الأجمات الشائكة طويلة لدرجة أن الهوبيتيين كانا يمشيان منتصبي القامة تحتها، مارين عبر ممرات طويلة جافة مغطاة بتربة عميقة كلها أشواك.

عند الحافة البعيدة من هذه الهضْبة العريضة توقفوا عن سيرهم وراحوا يزحفون بحثًا عن مكان يختبئون فيه تحت عقدة متشعبة من أشجار الزعرور. أما أغصانها الملتوية، التي كانت منحنية على الأرض، فقد غطتها متاهة متسلقة من الورد البري المتشابك. كانت هناك منطقة خالية جوفاء في العمق في الداخل، عليها عوارض من فروع ميتة ومن سوق العليق، ومسقوفة بأوراق وبراعم الربيع الأولى. وهناك استقروا لبعض الوقت، ولما كانوا متعبين جدًا فلم يأكلوا؛ وكانوا يحدقون عبر الفتحات الموجودة في مكمنهم مترقبين طلوع النهار البطيء.

ولكن لم يطلع نهار، فقط فجر كاذب أسمر ميت. في الشرق كان هناك وهج أحمر كئيب تحت السحب المنخفضة؛ لم تكن هذه حمرة الفجر. عبر الأراضي المتقلبة المنهارة بينها، كانت جبال إفيل دواث عابسة تطل عليها، سوداء وعديمة الأشكال من أسفل حيث يرقد الليل كثيفاً ولم يمض بعيداً، ومن فوق بقمم وحواف خشنة مثلمة بارزة بشدة وتقف وقفة كلها تهديد قبالة الوهج الناري. وبعيداً على يمينهم كانت هناك كتف عظيمة من الجبال ناتئة للخارج، مظلمة وسوداء وسط الظلال، بارزة نحو الغرب.

وسأل فرودو: «أي طريق نسلكه من هنا؟ هل هذه فتحة وادي مورجول، بعيداً هنالك وراء تلك الكتلة السوداء؟».

وقال سام: «هل نحن بحاجة إلى التفكير في ذلك بعد؟ بالتأكيد إننا لن نسير اليوم أكثر من ذلك، إذا كان هذا هو النهار؟».

فقال جولام: «ربما لا، ربما لا. ولكن يجب علينا أن نمضي في الحال، إلى مفترق الطرق. نعم، إلى مفترق الطرق. هذا هو الطريق الذي يظهر هناك، نعم، يا سيدي».

وتلاشى الوهج الأحمر الذي كان فوق موردور. وأصبح الشفق أكثر عمقًا بينما راحت كميات كبيرة من الأبخرة ترتفع وبعد ذلك تنزل مرة أخرى، ولكن جولام كان مفعماً بالقلق. لم يأكل أي طعام من طعامهما، ولكنه شرب قليلًا من الماء وبعد ذلك راح يزحف حبواً في المكان حوله تحت الشجيرات القصيرة، يتشمم ويغمغم. بعد ذلك اختفى فجأة.

فقال سام وهو يتثاءب: «خرج للصيد، في ظني». وكان الدور دور سام لينام أولًا، وفي الحال راح في النوم وبدأ يحلم. اعتقد أنه عاد ورأى نفسه في حديقة باج إيند يبحث عن شيء معين؛ ولكنه كان يحمل متاعًا ثقيلًا على ظهره، جعله ينحني. وبدا كل شيء كثير الأعشاب وعفنًا، وكانت الأشواك ونباتات السرخس تغزو القيعان قريباً من قاع السياج الشجري.

وظل يقول: «وظيفة لي، يمكنني أن أرى؛ ولكني تعب للغاية». وتذكر في الحال ما كان يبحث عنه، وقال وقد استيقظ حينئذ: «غليوني!»

وقال لنفسه، وهو يفتح عينيه ويتعجب لماذا كان يرقد تحت السياج الشجري؛ «سخيف! إنه في متاعك طوال الوقت!» بعدئذ أدرك أولًا أن الغليون قد يكون في متاعه ولكن لم يكن لديه أي ورقة، وثم إنه كان على بعد مئات الأميال من باج إيند. وجلس في مكانه. كان يبدو أن الدنيا ظلام تقريباً. لماذا تركه سيده يستمر في النوم بعد انتهاء نوبته، مستمراً حتى المساء؟

وقال له: «ألم تنل أي قسط من النوم يا سيد فرودو؟ كم الساعة الآن؟ يبدو أن الوقت أصبح متأخراً!».

فقال له فرودو: «كلا الوقت ليس متأخرًا. ولكن النهار أصبح أكثر ظلمة بدلًا من أن يصبح أكثر ضوءًا؛ أكثر ظلمة وأكثر. وحسبما يمكنني القول، فإن الوقت لم يبلغ منتصف النهار بعد، ولم تنم إلا حوالي ثلاث ساعات».

وقال سام: «أتمنى أن أعرف ما يجري. هل هناك عاصفة قادمة؟ إذا كان الأمر كذلك فإنها ستكون أسوأ عاصفة هبت من قبل. سوف نتمنى أن لو كنا في حفرة عميقة، ولسنا محشورين تحت سياج شجري وحسب». وراح ينصت. «ما هذا؟ رعد، أم طبول، أم ماذا؟».

فقال فرودو: «لا أدري. لقد كان ذلك مستمرًا لفترة طويلة حتى الآن. كانت الأرض تبدو وكأنها ترتج أحيانًا، وكان يبدو أحيانًا أن الهواء الثقيل يخفق ويرتج في أذنيك».

ونظر سام حوله، وقال: «أين جولام؟ ألم يعد بعد؟».

فقال فرودو: «كلا. لم يكن هناك إشارة أو صوت تدل عليه».

وقال سام: «حسنا، لا يمكنني أن أتحمله. في حقيقة الأمر، لم يحدث قط أن أخذتُ أي شيء في رحلة، وكنتُ سآسف على فقده في الطريق أسفًا أقل من ذلك. ولكن ذلك سيكون من صميم عاداته وخصاله تمامًا، بعد أن نقطع كل هذه الأميال، أن يذهب ويضيع الآن، في الوقت الذي ستكون حاجتنا إليه أكثر ما يكون وبعبارة أخرى، إذا كان سيحدث على الإطلاق أن يكون له أي فائدة، الأمر الذي أشك فيه».

فقال فرودو: «أنت تنسى المستنقعات. أتمنى ألا يكون قد حدث له أي شيء».

«وأتمنى ألا يكون بصدد حيلة أو خدعة. وعلى أية حال أتمنى ألا يقع في أيدٍ أخرى، إذا جاز لك التعبير؛ لأنه إذا حدث له ذلك، فإننا سنكون في ورطة قريبًا».

في تلك اللحظة، سمع ضجيج مدوٍ ومدمدم مرة أخرى، أعلى الآن وأعمق. بدت الأرض وكأنها ترتجف تحت قدميهما. فقال فرودو: «أخشى أننا في ورطة على أية حال. أخشى أن رحلتنا تقترب من نهايتها».

فقال له سام: «ربما، ولكن أينما توجد الحياة يوجد الأمل، مثلما اعتاد الجافر العجوز أن يقول؛ والحاجة إلى الطعام، مثلما اعتاد أن يضيف قائلًا في أغلب الأحيان. لتأخذ قضمة من طعام يا سيد فرودو وبعدها قسطًا قليلًا من النوم».

وانقضت فترة ما بعد الظهيرة، حسبما افترض سام أنه يجب أن يسميها. ونظر للخارج من المكمن الذي كانا فيه ولم يستطع أن يرى سوى عالم مظلم لا ظل له، يتلاشى بطيئًا إلى ظلمة عديمة الملامح والألوان. أحس بالاختناق ولكن ليس بالدفء. ونام فرودو في قلق، يتقلب ويدور قلقًا، وأحيانًا يدمدم بصوت منخفض. ظن سام أنه سمعه مرتين يذكر اسم جندلف. وبدا الوقت وكأنه يزحف على نحو متطاول حتى السأم.

وفجأة سمع سام صوت هسيس وراءه، ونظر ليرى سام على أطرافه الأربعة، يحدق فيهما بعينين متوهجتين.

وهمس قائلًا: «استيقظوا، استيقظوا! استيقظوا أيها النائمون! استيقظوا! ليس أمامنا وقت نضيعه. يجب أن نمضي، نعم، يجب أن نمضي في الحال. ليس أمامنا وقت نضيعه!».

وحدق سام فيه بريبة: بدا أنه مرعوب أو مهتاج. «نمضي الآن؟ ما هي لعبتك الصغيرة؟ لم يحن الوقت بعد. لا يمكن أن يكون الوقت حتى ساعة الشاي[1]، وعلى الأقل ليس في أماكن محترمة حيث يمكن أن تكون فيها ساعة لتناول الشاي».

وقال جولام في هسيس: «سخيف! إننا لسنا في أماكن محترمة. الوقت يدهمنا، نعم، الوقت يجري سريعًا. ليس أمامنا وقت نضيعه. يجب أن نمضي، استيقظ، يا سيدي، استيقظ!» وراح يشد فرودو بيديه الشبيهتين بالمخالب؛ وجلس فرودو فجأة وأمسك به من ذراعه، وقد فزع من نومه. وأفلت جولام من قبضته وتراجع للوراء.

وقال في هسيس: «يجب ألا يكونوا سخفاء. يجب أن نمضي. ليس أمامنا وقت نضيعه!» ولم يستطيعا أن يعرفا شيئًا منه أكثر من ذلك. أين كان؟! وما الذي ظن أنه يجري مما جعله يكون في تلك العجلة، فإنه لم يقل شيئًا عن ذلك؟!» امتلأ سام بالشك العميق، وأظهره؛ ولكن فرودو لم يظهر أي علامة على ما كان يدور في عقله. وتنهد، ورفع متاعه، واستعد للخروج إلى الظلمة المتجمعة والمتزايدة.

وقادهما جولام في خلسة شديدة عبر جانب التل، وظل بهما تحت غطاء كلما كان ذلك ممكنًا، وكان يجري، وكان محنيًا حتى يصل إلى الأرض تقريبًا، عبر أي مساحة مفتوحة؛ ولكن الضوء كان عندئذ معتمًا للغاية لدرجة أنه لم يكن من الممكن حتى لحيوان حاد البصر من البرية أن يرى الهوبيتيين، ورءوسهما مغطاة، وهما مرتديان معاطفهما الرمادية، كما لم يكن بالإمكان سماعهما وهما يمشيان بحذر قدر استطاعة صغار الناس. ودون طقة من غصن أو حفيف من ورقة عبروا الطريق وغابوا عن الأنظار.

ولمدة ساعة تقريبًا ظلوا يسيرون، في صمت، في صف واحد، يضغط عليهم الظلام وسكون الأرض المطلق، الذي لم يكن يكسره من آن لآخر سوى القعقعة الخافتة كما لو كانت قعقعة رعد تأتي من بعيد أو قرع طبول في بعض تجاويف التلال. وذهبوا هبوطًا من مخبئهم، وبعد ذلك داروا جنوبًا وساروا في خط مستقيم بقدر ما كان باستطاعة جولام أن يجد مسارًا مستقيمًا عبر منحدر طويل متكسر كان يميل صعودًا باتجاه الجبال. وفي الوقت الحالي، وليس بعيدًا أمامهم، لاح أمامهم مثل جدار أسود،

(1) Tea time : ساعة تناول الشاي (في أواخر الأصيل أو عند الغروب) (المترجم).

حزام من أشجار. وبينما أصبحوا أكثر قربًا أدركوا أن هذه الأشجار كانت عظيمة الحجم، وكانت تبدو قديمة للغاية، ولا تزال ترتفع عاليًا، على الرغم من أن قممها كانت نحيلة ومكسرة، كما لو أن عاصفة وهبة برق قد اجتاحتها، ولكنها فشلت في قتلها أو في هز جذورها التي لا يسبر لها غور.

وهمس جولام قائلًا: «مفترق الطرق، نعم» وكانت هذه أول كلمات جرى الحديث بها منذ أن غادروا مخبأهم. «يجب أن نسير في هذا الطريق». ودار عندئذ نحو الجنوب، وقادهما صاعدًا المنحدر؛ وبعد ذلك فجأة ظهر أمامهم؛ الطريق الجنوبي، يتعرج شاقًا مساره حول السفوح الخارجية للجبال، حتى اندفع عندئذ إلى حلقة الأشجار العظيمة.

وهمس جولام قائلًا: «هذا هو الطريق الوحيد. ليست هناك أي ممرات وراء هذا الطريق. ليست هناك أي ممرات. يجب أن نذهب إلى مفترق الطرق. ولكن أسرعوا! والزموا الصمت!».

وراحوا يسيرون خلسة مثل الكشاف في نطاق معسكر أعدائهم، وتسللوا عبر حافته الغربية تحت الضفة الصخرية، ولونهم رمادي مثل الحجارة ذاتها، ولهم أقدام ناعمة طرية مثل قطط الصيد. وأخيرًا وصلوا إلى الأشجار، ووجدوا أنهم كانوا يقفون في حلقة عظيمة لا سقف لها، مكشوفة في المنتصف تطل على السماء الكئيبة؛ وكانت المساحات الخالية بين جذوعها الهائلة مثل قناطر عظيمة مظلمة لبهو مهدم. وفي القلب نفسه التقت طرق أربع. وكان يوجد وراءها الطريق الذي يؤدي إلى بوابة مورانون؛ وأمامهم كان يسير مرة أخرى في رحلته الطويلة جنوبًا؛ وعلى يمينهم جاء الطريق من قلعة أوسجيلياث[1] صاعدًا، وعابرًا، ومر خارجًا باتجاه الشرق إلى الظلمة؛ الطريق الرابع، الطريق الذي كانوا سيسلكونه.

ووقف فرودو هناك للحظة وقد ملأه الخوف، أدرك أنه كان هناك ضوء يسطع؛ ورأى أنه كان يتوهج على وجه سام إلى جواره. ولما دار باتجاهه الضوء، رأى، فيما وراء قوس من أغصان، الطريق إلى أوسجيلياث يجري تقريبًا مستقيمًا مثل شريط ممدود لأسفل، لأسفل، إلى الغرب. وهناك، بعيدًا، فيما وراء جوندور الحزينة التي كانت عندئذ مغمورة في الظل، كانت الشمس تغرب، وقد وجدت أخيرًا حافة حجاب السحب العظيم الذي يتدافع ببطء، ويسقط في نار منذرة بالشؤم باتجاه البحر الذي لم يلطخ بعد. وسقط الوهج الذي جاء لبرهة قصيرة على شكل ضخم جالس، ساكن ورزين ووقور مثل حجر الملوك العظيم حجر أرجوناث[2]. لقد أكلته السنون، وشوهته أيد عنيفة. لقد ذهبت رأسه، وفي مكانها وضع في تقليد مستهزئ حجر دائري

(1) Osgiliath [Fortress of the Stars] قلعة النجوم (المترجم).

(2) Argonath [King-stones] حجر الملوك (المترجم).

محفور بطريقة بها خشونة، وظلته بشكل أحمق أيدٍ همجية في صورة وجه مكشر بعين واحدة حمراء كبيرة في وسط جبهته. وفوق ركبتيه ومقعده العظيم، وفي كل مكان حول القاعدة، كانت هناك كتابات خرقاء مخلوطة بالرموز الشريرة التي كان الماجوتيون[1] في موردور يستخدمونها.

وفجأة، رأى فرودو وقد لفت نظره العوارض المستوية رأس الملك العجوز: كانت ترقد ملتفة بعيداً إلى جوار جانب الطريق، وصاح وقد جعله الفزع يتحدث: «انظر يا سام! انظر! الملك لديه تاج مرة أخرى!».

كانت الأعين جوفاء وكانت اللحية المنحوتة مكسورة، ولكن كان هناك حول الجبهة العالية المتجهمة تاج من فضة وذهب. نبات زاحف بأزهار مثل نجوم بيضاء صغيرة ربط نفسه عبر الحاجبين كما لو كانت في إجلال للملك الذي سقط، وفي شقوق شعره المصنوع من الخصر كانت تتوهج أزهار السيدوم[2] الصفراء.

وقال فرودو: «لا يمكنهم أن يَغلبوا للأبد!» وبعد ذلك فجأة اختفت اللمحة الخاطفة القصيرة. وانخفضت الشمس وتلاشت، وحل الليل، كما لو أن مصراعي مصباح قد أغلقا.

---

(1) Maggot حسب تعريف المؤلف لها أنها كلمة قصد أن تكون بلا معنى. وحسب قوله أنها تعني (يرقة) وهذه مجرد مصادفة، والأفضل تركها دون ترجمة. (المترجم).

(2) Sedum = Stonecrop = السيدوم: عشبة ذات زَهر أصفر أو أبيض، إلخ (قاموس المورد) (المترجم).

الفصل الثامن

سلالم سيريث أونجول[1]

كان جولام متشبثًا في معطف فرودو بقوة وكان يهس في خوف ونفاد صبر، وقال: «يجب أن نمضي. يجب ألا نقف هنا. أسرعوا!».

وأدار فرودو ظهره للغرب وهو كاره وسار متبعًا مرشده حسبما يقوده، إلى ظلمة الشرق. وتركوا حلقة الأشجار وراحوا يزحفون عبر الطريق باتجاه الجبال. وسار هذا الطريق أيضًا مستقيمًا لبعض الوقت، ولكن في الحال بدأ ينحني بعيدًا باتجاه الجنوب، حتى جاء مباشرة أسفل الكتف الصخرية العظيمة التي كانوا قد رأوها من على البعد. لاحت أمامهم سوداء وكالحة وعرة، أكثر ظلمة من السماء المظلمة وراءهم. وواصل الطريق زحفه تحت ظل الكتف الصخرية، ودار حوله ثم انطلق شرقًا مرة أخرى وبدأ ينحدر صعودًا بشكل حاد.

كان فرودو وسام يكدان عبر الطريق بقلبين مثقلين، ولم يعودا قادرين على الاهتمام كثيرًا بالخطر الذي يحدق بهما. كان رأس فرودو محنيًا؛ كان حمله يضغط عليه نحو الأرض مرة أخرى. وبمجرد أن عبرا مفترق الطرق العظيم، فإن ثقله الذي كادا أن ينسياه في إثيلين بدأ يكبر مرة أخرى. والآن، وقد أحس أن الطريق أصبح شديد الانحدار تحت قدميه، فإنه نظر في إرهاق وسأم لأعلى؛ وبعد ذلك رآها، في ذات الوقت الذي قال فيه جولام إنه سيراها؛ مدينة أطياف الخاتم. وانكمش ملتصقًا بالضفة الصخرية.

واد مائل طويل، خليج عميق من ظلال، راح ينسرح للوراء في الجبال. وعلى الجانب البعيد، على بعد مسافة داخل أذرع الوادي، عاليًا على مقعد صخري فوق ركبتي إفيل دواث السوداوين، كانت تقف جدران وبرج ميناس مورجول. كان كل شيء مظلمًا من حولها، الأرض والسماء، إلا أن ضوءًا يضيئها. ليس بنور القمر السجين ينبجس عبر جدران ميناس إيثيل برج القمر الرخامية منذ زمن طويل، جميلًا ومشعًا في تجويف التلال. أكثر شحوبًا حقًا من القمر المتوجع في خسوف بطيء. كان ضوءه الآن يخفق ويهب مثل زفير فساد عفن صاخب، ضوء الجيفة، ضوء لم يكن يضيء أي شيء. ظهر في جدران ونوافذ البرج مثل حفر سوداء لا حصر لها تطل نحو الداخل إلى الخواء؛ ولكن المسار الأعلى للبرج راح يدور بطيئًا، في طريق أول الأمر وبعد ذلك في طريق آخر، رأس شبحي عظيم ينظر شزرًا إلى الليل. وقف الرفاق

(1) Cirith Ungol ومعناها [Spiders Cleft] أي شق العناكب، وهي مجاز على إيفل دُواث فوق ميناس مورجول وتسكن في شيلوب (أنثى العنكبوت) (والتي سيرد ذكرها تفصيلا في مكان لاحق) (المترجم).

الثلاثة هناك للحظة منكمشين، يحدقون بأعين حانقة. كان جولام أول من أفاق. وراح مرة أخرى يشد معاطفهم في إلحاح، ولكنه لم ينبس بكلمة. كان يجرهم للأمام تقريبًا. كانت كل خطوة كارهة، وبدا أن الوقت يبطئ من سرعته، ولذلك فإنه كان بين رفع القدم وإنزالها ثانية على الأرض دقائق تمر من اشمئزاز.

وهكذا وصلوا ببطء إلى الجسر الأبيض. وهنا فإن الطريق وهو يتوهج واهنًا عبر النهر في قلب الوادي، مواصلًا سيره، متعرجًا بشكل منحرف لأعلى باتجاه بوابة المدينة؛ فتحة سوداء في الدائرة الخارجية للجدران الشمالية. سهول واسعة ترقد على كلتا الضفتين، ومروج مظللة مملوءة بزهور بيضاء شاحبة. وكانت هذه أيضًا مضيئة، جميلة، بيد أن شكلها كان رهيبًا، كأشكال معتوهة مشوهة في حلق مضطرب؛ وكانت تنبعث منها رائحة مقززة كرائحة الجيف؛ رائحة نتن وفساد ملأت الهواء. وكان الجسر يقفز من مرج إلى مرج. كانت الأشكال تقف هناك عند رأسه، منحوتة بتدبير في صور إنسانية وحيوانية، ولكنها كانت جميعًا فاسدة ومقززة. كانت المياه المتدفقة من أسفل صامتة ساكنة، هكذا كانت تبدو، إلا أن البخار الذي يرتفع منها، متلويًا ملتفًا حول الجسر، كان باردًا إلى حد بعيد. أحس فرودو بحواسه تضطرب وتدور وبعقله يعتم. وعندئذ فجأة، كما لو أن قوة ما كانت تؤثر عليه بخلاف قوته، بدأ يسرع، وهو يترنح للأمام، وامتدت يداه اللتان كانتا تتلمسان الطريق، وكان رأسه يتمايل من جانب لآخر. جرى كل من سام وجولام وراءه. أمسك سام بسيده من ذراعيه، وهو يسقط على الأرض ويكاد يقع على عتبة الجسر مباشرة.

«ليس هذا الطريق! لا، ليس هذا الطريق!» همس جولام بهذه الكلمات، ولكن النفس الذي يخرج من بين أسنانه بدا وكأنه يمزق السكون الثقيل مثل الصفارة، وجثا منكمشًا على الأرض في رعب.

وغمغم سام في أذن فرودو قائلًا: «تماسك يا سيد فرودو! ارجع! ليس هذا الطريق. جولام يقول إنه ليس هذا الطريق، ولمرة واحدة فإنني أتفق معه».

ومرر فرودو يده فوق جبينه وانتزع عينيه بعيدًا عن المدينة التي كانت على التل. لقد سحره البرج المضيء، وقاوم الرغبة التي كانت تراوده ليجري صاعدًا الطريق المتوهج باتجاه بوابته. وأخيرًا وبجهد كبير عاد للوراء، وبينما هو يفعل ذلك، أحس بالخاتم يقاومه، يشد في السلسلة المعلقة حول رقبته؛ كما أن عينيه، وهو ينظر بعيدًا، بدتا في هذه اللحظة وقد أصيبتا بالعمى. كانت الظلمة أمامه لا يمكن اختراقها.

أما جولام الذي كان يحبو على الأرض مثل حيوان أصابه الرعب والفزع فقد تلاشى بالفعل في الظلمة. وتبعه سام سريعًا قدر استطاعته وهو يسند ويقود سيده المترنح. وعلى مسافة غير بعيدة من الضفة القريبة للنهر كانت هناك فجوة في الجدار

الحجري إلى جانب الطريق. ومروا عبر هذه الفجوة، ورأى سام أنهم كانوا على طريق ضيق ينبعث منه وميض واهن أولاً، مثلما كان على الطريق الرئيسي، حتى تلاشى وأصبح مظلمًا عندما صعد فوق مروج الزهور القاتلة، وراح يتعرج شاقًا مساره الملتوي صعودًا إلى جنبات الوادي الشمالية.

عبرا هذا الطريق، مشى الهوبيتيان في جهد وإعياء، جنبًا إلى جنب، عاجزين عن رؤية جولام أمامهما، إلا عندما كان ينظر للوراء ليدعوهما ويحثهما على مواصلة السير. عندئذ لمعت عيناه بضوء أخضر مائل للبياض، يعكس لمعان مورجول الكريه ربما، أو توهجتا على نحو يعكس ما في داخله. كان فرودو وسام دائمًا على وعي بهذا الوهج القاتل وبمحجري عينيه المظلمتين اللتين تنظران دائمًا في خوف فوق كتفيهما، وتشد دائمًا عينيهما للوراء ليجدا الطريق المظلم. وراحا يسيران في كد وجهد ببطء. وبينما كانوا يرتفعون فوق الرائحة النتنة والأبخرة المنبعثة من الجدول الآسن أصبح تنفسهما أيسر وعقلاهما أكثر صفاء؛ ولكن صارت أطرافهما الآن متعبة إلى أقصى حد، كما لو أنهما مشيا الليل بطوله تحت وطأة حمل ثقيل، أو كانا يسبحان مسافة طويلة ضد تيار ثقيل. وأخيرًا عجزا عن أن يسيرا أكثر من ذلك دون توقف.

وتوقف فرودو وجلس على حجر. كانوا عندئذ قد صعدوا على قمة رابية عظيمة من صخر مكشوف. وكان يوجد أمامهم خليج صغير في جانبي التل، وحول رأس هذا ظل الطريق منسابًا في اتجاهه، ولم يكن اتساعه أكثر من رف صخري واسع به شق في اليمين؛ وعبر الوجه الجنوبي المنحدر للجبل كان يجري زاحفًا لأعلى، حتى اختفى في الظلمة من أعلى.

وهمس فرودو بقوله: «ينبغي أن أستريح لبعض الوقت يا سام. إنه ثقيل عليَّ، أيها الرجل سام، ثقيل جدًا. إنني لأتساءل إلى أي مدى يمكنني حمله؟ على أية حال ينبغي أن أستريح قبل أن نغامر وندخل في ذلك». وأشار إلى الطريق الضيق أمامهما.

وقال لهما جولام في هسيس وقد عاد إليهما: «إشش! إشش! إشش!» وكانت أصابعه على شفتيه وكان يهز رأسه في إلحاح. وأخذ يشد في كم فرودو، وأشار باتجاه الطريق؛ ولكن فرودو لم يتحرك.

وقال: «ليس بعد. ليس بعد». لقد كبحه التعب الشديد وأكثر من التعب الشديد؛ كان يبدو كما لو أن تعويذة ثقيلة قد وضعت على عقله وجسده. وقال مغمغمًا: «ينبغي أن أستريح».

وعند هذا تصاعد خوف جولام واهتياجه للغاية لدرجة أنه تحدث مرة أخرى، وهو يهمس في هسيس من وراء يده، كما لو أنه كان يبعد الصوت عن مستمعين غير مرئيين في الهواء. «ليس هنا، لا. لا تسترح هنا. أيها الأحمقان! الأعين يمكن أن ترانا. عندما يصلون إلى الجسر سوف يروننا. هيا ابعدا، اصعدا، اصعدا، هيا!».

وقال سام: «هيا، يا سيد فرودو. إنه على صواب مرة أخرى. لا يمكننا أن نبقى هنا».
«حسنًا» رد عليه فرودو في صوت ضعيف، كما لو أن شخصًا يتحدث وهو نصف نائم: «سوف أحاول». وفي تعب وإعياء نهض على قدميه.

ولكن كان قد فات الأوان. في تلك اللحظة انتفض الحجر وارتج أسفل منهم. وراحت الضوضاء المدمدمة العظيمة، أعلى من أي وقت مضى، تدوي في الأرض ويرتج صداها في الجبال. وبعد ذلك وفي فجاءة حادة وقاسية انبعث وميض أحمر كبير. وبعيدًا وراء الجبال الشرقية قفز إلى السماء وخضب السحب المنخفضة بلون قرمزي. في وادي الظل هذا، والضوء البارد بشكل مميت كان يبدو عنيفًا ورهيبًا على نحو لا يمكن احتماله. قمم من الصخور وقمم الجبال كسكاكين محززة تقفز بارزة في سواد صارخ أمام اللهب المتدافع في جورجوروث. عندئذ انبعثت فرقعة رعد مدوية.
ورد برج ميناس مورجول. كانت هناك ومضة من برق واهن؛ شعب من لهب أزرق تطفر من البرج ومن التلال المحيطة إلى السحب الكئيبة. وتأوهت الأرض وأنت؛ وجاءت من المدينة صيحة. وجاءت ممتزجة بأصوات الطيور الجارحة العالية الخشنة، وصوت الصهيل الحاد للخيل التي هاجت وجمحت من الهياج والخوف، جاءت صرخة ممزقة، محطمة، ترتفع سريعًا لتصل إلى درجة خارقة وراء نطاق السمع. واندفع الهوبيتيان في حركة دائرية باتجاهه، وألقيا بأنفسهما على الأرض، وقد وضعا أيديهما على آذانهما.
وبينما انتهت الصرخة المروعة، وقد عادت عبر عواء طويل مقزز إلى الصمت، رفع فرودو رأسه ببطء. وعبر الوادي الضيق، كانت تنتصب جدران المدينة الشريرة، وقد صارت الآن في مستوى واحد مع عينيه، وكذلك بوابتها الكهفية، والتي كان لها شكل فم مفتوح بأسنان متوهجة، وكانت مفتوحة على اتساعها كفم فاغر. وأقبل خارجًا من البوابة جيش.
كان كل ذلك الجيش مرتديًا ملابس سوداء، سوداء مثل الليلة. استطاع فرود أن يراهم بالمغايرة مع الجدران الشاحبة وسطح الطريق المرصوف المضيء، أشكال سوداء صغيرة في صفوف وطوابير كثيرة، يسيرون في خفة وصمت، عابرين نحو الخارج في موكب متصل لا نهائي. وكانت تسير أمامهم مجموعة كبيرة من الخيالة يتحركون مثل ظلال مرتبة مأمورة، وعلى رأسهم كان هناك شخص أكبر من كل الباقين؛ خيال، ملفع بالسواد تمامًا، إلا أنه كان يلبس فوق رأسه المغطى خوذة كالتاج تتوهج بضوء خطير. والآن كان يقترب من الجسر في الأسفل، وتبعته عينا فرودو المحدقتان، دون أن تستطيعا أن تطرفا أو أن تنسحبا. لقد كان ذلك بالتأكيد سيد الخيالة التسعة، وقد عاد إلى الأرض ليقود جيشه المروع إلى المعركة؟ هنا، نعم هنا حقًا كان

الملك الشرس الذي ضربت يده بكل قوة بسيفه القاتل حامل الخاتم. خفق هذا الجرح القديم بالألم وانتشرت قشعريرة عظيمة وسرت باتجاه قلب فرودو.

وبينما كانت هذه الأفكار تخترقه بالخوف والرعب وتسيطر عليه كما لو أنه كان واقعًا تحت تأثير تعويذة سحرية، توقف الخيال فجأة، قبل مدخل الجسر مباشرة، ووقف وراءه جميع الجيش ساكنًا. وكانت هناك وقفة صمت قاتل. ربما يكون الخاتم هو الذي نادى على سيد الأطياف، وللحظة أصيب الخيال بالقلق، حيث أحس بقوة أخرى داخل واديه. والتفت الرأس الأسود في هذا الاتجاه وذاك وقد ارتدى خوذة وتاج الخوف، وراح يجتاح الظلال بعينيه غير المرئيتين. وانتظر فرودو، كما ينتظر الطائر عند اقتراب ثعبان منه، غير قادر على الحركة. وبينما كان ينتظر، أحس بإلحاح أكثر من أي وقت مضى لوجوب أن يلبس الخاتم. ولكن مع عظم ما كان عليه هذا الضغط، فإنه لم يحس بأي ميل الآن لأن يستسلم له. لقد عرف أن الخاتم سوف يخونه وحسب، وأنه هو نفسه لم تكن لديه القوة، حتى لو لبس الخاتم، على أن يواجه ملك مورجول، ليس بعد. لم يكن ثمة ما يبعث إرادته على ذلك، على الرغم من كونه مفعمًا بالرعب والخوف، ولم يحس هو نفسه إلا بالضغط عليه من قوة عظمى من الخارج. وقبضت يده، وبينما كان فرودو يرى بعقله، دون رغبة منه في قلق وترقب (كما لو أنه كان يشاهد قصة قديمة بعيدة جدًا)، وقد راحت اليد تُحرك بوصة بوصة باتجاه السلسلة التي كانت في رقبته. وعندئذ تحركت إرادته هو؛ وببطء أجبرت اليد على العودة ثانية وجعلتها تعثر على شيء آخر، شيء مختبئ بالقرب من صدره. كان يبدو باردًا وصلبًا عندما أطبقت قبضته عليه: قنينة جَلَدْرِيلْ، ادخرت لوقت طويل، وقد نُسيت تقريبًا حتى تلك الساعة. وعندما لمسها، وللحظة واحدة تلاشى كل تفكير كان لديه في الخاتم من عقله. وتنهد وحنى رأسه.

في تلك اللحظة، التفت الملك الطيف ونخس حصانه وانطلق عبر الجسر، وتبعه كل جيشه الأسود. ربما تكون أغطية الرأس الجنية قد تحدت أعينه غير المرئية، وقد يكون عقل عدوه الصغير، وقد تقوى، قد حول فكره جانبًا. ولكنه كان في عجلة من أمره. كانت الساعة قد دقت بالفعل، وبناء على أمر سيده العظيم يجب أن يسير للحرب في الغرب.

وسريعًا مر، مثل ظل إلى ظل، عبر الطريق المتعرج، ووراءه كانت الصفوف السوداء لاتزال تعبر الجسر. لم يفد جيش عظيم كهذا من هذا الوادي منذ أيام عظمة إسيلدور؛ ومع ذلك فقد كان جيشًا ليس بأعظم الجيوش التي أرسلتها موردور للخارج.

وتحرك فرودو. وفجأة ذهب قلبه إلى فارامير، وفكر بينه وبين نفسه: «هبت الريح أخيرًا. هذا العدد الكبير من الرماح والسيوف ذاهب إلى أوسجيلياث. هل سيمر

فاراميير في الوقت المناسب؟ لقد خمن ذلك، ولكنه لم يكن يعرف الساعة؟ ومن الذي سيحمي المخاضات الآن عندما يأتي ملك الخيالة التسعة؟ وسوف تأتي جيوش أخرى. لقد تأخرتُ كثيرًا للغاية. ضاع كل شيء. لقد تلكأتُ في الطريق. ضاع كل شيء. حتى إذا أُنجزتْ مهمتي، فلن يعرف أحد أبدًا. لن يكون هناك أي أحد يمكنني أن أخبره. سوف يكون ذلك بلا جدوى». وبكى من فرط الضعف الذي تغلب عليه. ولايزال جيش مورجول يعبر الجسر.

عندئذ وعلى مسافة كبيرة، جاء صوت سام يتحدث، كما لو كان قد انبعث من ذكريات المقاطعة، في صباح مبكر مشرق مشمس، عندما طلع الصباح وبدأت الأبواب تُفتح، «استيقظ، يا سيد فرودو! استيقظ!» ولو أن الصوت أضاف: «إفطارك جاهز»، لما دُهش أبدًا. وبكل تأكيد كان سام كثير الإلحاح، وقال: «استيقظ، يا سيد فرودو! لقد ذهبوا».

وكان هناك صوت رنين كئيب. لقد أغلقت أبواب ميناس مورجول. اختفى آخر صف من الرماح عبر الطريق. لا يزال البرج كالحًا مكشرًا عبر الوادي، ولكن الضوء كان يخفت فيه ويتلاشى. كانت المدينة بأكملها تعود إلى ظل مظلم كئيب، وصمت. غير أنه كان لا يزال يكتنفه الحذر واليقظة.

«استيقظ يا سيد فرودو! لقد ذهبوا، ومن الأفضل أن نذهب نحن أيضًا. هناك شيء لا يزال حيًا في ذلك المكان، شيء له عينان، أو عقل مبصر، إذا كنت تفهم قولي؛ وكلما طالت فترة بقائنا في بقعة واحدة كان وصوله إلينا أسرع. هيا يا سيد فرودو!».

ورفع فرودو رأسه، وانتصب واقفًا بعد ذلك. لم يكن قد فارقه اليأس، إلا أن الخوف قد انجاب عنه. بل إنه ابتسم في كآبة، حيث أحس الآن بذات الوضوح الذي أحس به على غير ما كان منذ لحظة مضت، أن ما يجب عليه فعله، ينبغي عليه أن يفعله، إذا استطاع، وما إذا كان فاراميير أو أراجورن أو إلروند أو جَلَدْرِيلْ أو جَنْدَلفْ أو أي شخص آخر قد عرف على الإطلاق بذلك فقد كان شيئًا عارضًا. وأخذ عصاه في إحدى يديه والقنينة في اليد الأخرى. وعندما رأى أن الضوء الواضح ينساب بالفعل عبر أصابعه، إنه دسها في صدره ووضعها على قلبه. بعد ذلك التفت بعيدًا عن مدينة مورجول، والتي لم تكن الآن أكثر من وميض رمادي عبر خليج مظلم، واستعد ليسلك الطريق الصاعد.

ويبدو أن جولام قد زحف عبر الرف الصخري إلى الظلمة فيما وراء ذلك الرف، عندما فُتحت أبواب ميناس مورجول، تاركًا الهوبيتيين في مكانهما. وعاد الآن زاحفًا متسللًا، وأسنانه تصطك ببعضها وأصابعه تطقطق، وقال في هسيس: «أحمقان! سخيفان! أسرعا! يجب ألا يظنا أن الخطر قد زال. لم يزل. أسرعا!».

ولم يجيباه، ولكنهما تبعاه في صعودهما للرف الصخري. لقد كان الميل له قليلًا لدى كل منهما، حتى بعد أن واجها كثيرًا من المخاطر الأخرى؛ ولكنه لم يدم طويلًا. فسرعان ما وصل الطريق إلى زاوية دائرية حيث برز جانب الجبل للخارج مرة أخرى، وهناك دخل فجأة في فتحة ضيقة في الصخر. ووصلا إلى أول سلم كان جولام قد تحدث عنه. كانت الظلمة ضاربة تقريبًا، ولم يستطيعا أن يريا أي شيء أبعد من امتداد أيديهما؛ بيد أن عينا جولام كانت تلمع شاحبة، على بعد عدة أقدام فوقهما، وهو يستدير للوراء باتجاههما.

وهمس إليهما قائلًا: «بحذر! الدرجات! الكثير من الدرجات. لابد أن تكونا حذرين!».

لقد كان الأمر يستدعي الحذر واليقظة بالتأكيد. أحس فرودو وسام في بداية الأمر براحة أكثر، حيث كان هناك جدار على جانب يكتنفهما، ولكن درجات السلم كانت شديدة الانحدار كسلم خشبي، وبينما كانا يصعدان أكثر وأكثر، كان إدراكهما يتزايد للمنحدر الأسود الطويل وراءهما. وكانت درجات السلم ضيقة، والمسافات بينها جميعًا متساوية، وكانت في الغالب غير آمنة محفوفة بخطر خفي، كانت بالية وملساء عند الحواف، وكان بعضها مكسرًا، وكان بعضها ينهار عندما تقع عليه الأقدام. وواصل الهوبيتيان سعيهما الشاق، حتى كانا أخيرًا يتشبثان بأصابع يائسة بدرجات السلم التي كانت أمامهما، ويرغمان ركبهما التي كانت تصرخ ألمًا على الانثناء والاستقامة؛ بل حتى عندما كانت درجات السلم تقطع طريقها بشكل أكثر عمقًا إلى الجبل شديد الانحدار فقد راحت الجدران الصخرية تصبح أكثر ارتفاعًا فأكثر فوق رأسيهما.

وأخيرًا، عندما أحسا أنه لم يعد بإمكانهما أن يتحملا أكثر من ذلك، رأيا عيني جولام تحدقان لأسفل فيهما مجددًا. وقال في همس: «لقد صعدنا. انتهت مجموعة السلالم الأولى. هوبيتيون مهرة يصعدون عاليًا جدًا، هوبيتيون مهرة للغاية. ليس هناك سوى مجموعة درجات قليلة أخرى وسوف يكون هذا كل شيء، نعم».

وراح سام يزحف صاعدًا الدرجة الأخيرة، وكان مصابًا بالدوار ومتعبًا للغاية، ويتبعه فرودو، وجلس الاثنان يحكان سيقانهما وركبهما. وقد كانا في ممر عميق مظلم لايزال يبدو صاعدًا أمامهما، وعلى الرغم من أن صعوده كان في هيئة منحدر أكثر اعتدالًا وبدون درجات سلم. لم يدعهما جولام يستريحان طويلًا.

وقال لهما: «لا يزال أمامنا سلم آخر. سلم أطول كثيرًا. استريحا عندما نصل إلى أعلى السلم التالي. ليس بعد».

راح سام يئن ويتأوه، وسأل: «أطول، هل قلتَ ذلك؟».

فقال جولام: «نعم، نعم، أطول. ولكنه ليس صعباً للغاية. لقد صعد الهوبيتيان السلم المستقيم. بعد ذلك يأتي السلم المتعرج».

وسأل سام: «وماذا بعد ذلك؟».

فقال جولام في صوت منخفض: «سوف نرى. أوه، نعم، سوف نرى!».

فقال سام: «أعتقد أنك قلت إن هناك نفقًا. أليس هناك نفق أو شيء يمكن النفاذ خلاله؟».

فقال جولام: «آه، نعم، هناك نفق. ولكن الهوبيتيين يمكنهما الراحة قبل أن يجربا ذلك. إنهما لو نفذا خلال ذلك، سيكونان، عند القمة تقريباً، قريبين جداً، لو أنهما نفذا من خلاله. آه، نعم!»

وارتجف فرودو. لقد جعله الصعود يعرف، ولكنه الآن أحس ببرودة وبرطوبة، وكان هناك تيار بارد في الممر المظلم، يهب لأسفلَ من المرتفعات غير المرئية فوقهم. ونهض وهز نفسه، وقال: «حسناً، هيا بنا نواصل سيرنا! ليس هذا بالمكان الذي يمكن الجلوس فيه».

كان يبدو أن الممر يسري لمسافة أميال، وكان الهواء البارد يتدفق فوقهما دوماً، يتصاعد وهما يسيران إلى ريح قارسة. بدت الجبال وكأنها تحاول بهباتها المهلكة ترويعهما، وحجبهما عن أسرار الأماكن العالية، أو أن تدفعهما بهبوبها بعيداً إلى الظلمة وراءهما. كانا يعرفان فحسب أنهما وصلا إلى النهاية، عندما أحسا فجأة أن لا جدار عن يمينهما. وكان ما يستطيعان رؤيته قليلًا جداً. كانت تلوح فوقهما ومن حولهما كتل عظيمة سوداء عديمة الأشكال وظلال رمادية داكنة، ولكن كان يومض فوقهما من وقت لآخر تحت السحب المنخفضة ضوء أحمر كئيب، ورأيا للحظة قمماً طويلة، أمامهما وعلى كلا الجانبين، مثل أعمدة تحتمل سقفاً شاسعاً متدلياً. كان يبدو أنهما قد صعدا مئات الأقدام، إلى رف صخري واسع. كان هناك جرف عن يسارهما وشق عن يمينهما.

وتقدمهما جولام ملاصقًا بشكل كبير للجرف. وفي الوقت الحالي لم يعودوا يصعدون، ولكن الأرض كانت عندئذ أكثر تكسراً وخطورة في الظلمة، وكانت هناك كتل وقطع من صخور متساقطة في الطريق. كان سيرهم بطيئاً وحذراً. لم يعد بإمكان سام أو فرودو أن يخمنا عدد الساعات التي أمضوها منذ أن دخلوا وادي مورجول. كان الليل يبدو لا نهائياً.

وأخيراً أدركوا مرة أخرى وجود جدار يلوح أمامهم، ومرة أخرى فُتح سلم

أمامهم. وتوقفوا مرة أخرى، وبدءوا مرة أخرى في الصعود. لقد كان صعودًا طويلًا ومرهقًا؛ ولكن هذا السلم لم يغص في جانب الجبل. وهنا انحدر وجه الجرف بشدة للوراء، وراح الطريق يتعرج عبره مثل ثعبان جيئة وذهابًا. وفي إحدى النقاط راح يسير زاحفًا بانحراف نحو اليمين إلى حافة الشق المظلم، ولما حدق فرودو لأسفل رأى تحته الوهد العظيم كهوة عميقة شاسعة، عند رأس وادي مورجول. وفي الأسفل في أعماق الوادي كان طريق الأطياف من المدينة الميتة إلى المجاز المجهول يتوهج مثل حشرة سراج الليل. والتفت بسرعة بعيدًا.

ومازال السلم ينحني ويسير زاحفًا ويصعد، حتى انتهي إلى مجموعة من السلالم قصيرة ومستقيمة، خارجًا إلى مستوى آخر. وانحرف الطريق بعيدًا من المجاز الرئيسي في الوادي الكبير، وراح عندئذ يواصل مساره الخطير عند قاع شق أقل بين المناطق الأكثر ارتفاعًا في سلسلة جبال إيفيل دواث[1]. كان الهوبيتيان يريان بغير وضوح دعامات عالية وقممًا متلمة من الصخر على كلا الجانبين، كانت هناك بينها شقوق وصدوع هائلة أشد سوادًا من الليل، حيث نحتت فصول الشتاء في سنوات منسية وشقت الحجر الذي لا يرى الشمس. والآن بدا الضوء الأحمر في السماء أكثر حدة؛ على الرغم من عجزهما عن إدراك ما إذا كان هناك صباح مخيف مروع قادم حقًا إلى هذا المكان الظلالي، أو ما إذا كانا قد رأيا فقط ومضة من عنف عظيم لساورون في عذاب هضبة جورجوروث فيما وراءه. ونظر فرودو إلى أعلى ليرى إلى الأمام كثيرًا ولأعلى كثيرًا حسبما ظن قمة هذا الطريق القاسي. كان هناك شق يظهر محيطه الكفافي في أعلى حافة، ضيقًا ومشقوقًا بعمق بين الكتفين السوداوين، يظهر أمام خلفية الحمرة الكئيبة للسماء الشرقية؛ وعلى كلتا الكتفين كان هناك قرن من صخر.

وتوقف ونظر بتدقيق أكثر. كان القرن في الشمال طويلًا، أرفع؛ وكان يتوهج فيه ضوء أحمر، أو بطريقة أخرى كان الضوء الأحمر في الأرض من ورائه يتوهج عبر حفرة. ورأى الآن: كان هناك برج أسود يقف عاليًا فوق المجاز الخارجي. ولمس ذراع سام وأشار بيده.

وقال سام: «إنني لا أحب رؤية ذلك! وفوق ذلك فإن على طريقك السري حراسة». وتذمر، والتفت إلى جولام: «كما كنتَ تعرف طوال الطريق وطول الوقت، في اعتقادي؟».

فقال له جولام: «جميع الطرق مراقبة، نعم. بالطبع هي مراقبة. ولكن على

(1) Ephel Dúath «سلسلة جبال إيفيل دواث»: سياج الظل سلسلة جبال بين جوندور وموردور، وتسمى أيضًا جبال الظل. (المترجم)

الهوبيتيين أن يُجربا طريقًا ما. ربما يكون هذا الطريق أقلها مراقبة. ولعلهم ذهبوا جميعًا إلى معركة كبيرة، لعلهم!».

وقال في صوت أجش: «لعلهم. حسنًا، لا يزال يبدو أنه على بعد مسافة طويلة، على بعد مسافة كبيرة حتى نصل إلى هناك لأعلى. ولا يزال أمامنا النفق. أعتقد أنه ينبغي عليك أن تستريح الآن يا سيد فرودو. لا أعلم أي وقت من ليل أو نهار الآن، ولكننا ظللنا نسير لساعات وساعات».

فقال فرودو: «نعم، يجب أن نستريح. هيا بنا نجد ركنًا بعيدًا عن الريح، ونستجمع قوتنا للجزء الأخير» لكونه أحس بالأمر على هذا النحو. رعب البلاد فيما وراءهم، والعمل الذي ينبغي إنجازه هناك، كان كل ذلك يبدو بعيدًا، بيد أنه كان لا يزال بعيدًا بحيث لا يمكن أن يزعجه. كان كل عقله متركزًا على اجتياز أو اختراق هذا الجدار الذي لا يمكن اختراقه. إذا استطاع يومًا أن يفعل ذلك الشيء المستحيل، ففي هذه الحالة سيتم إنجاز هذه المهمة على نحو من الأنحاء، أو هكذا بدا له في تلك الساعة المظلمة من الإرهاق، وهو لا يزال يكدح في الظلال الصخرية تحت جرف سيريث أُنجول[1].

في تجويف مظلم بين دعامتين كبيرتين من صخر جلسوا جميعًا: فرودو وسام على مسافة صغيرة في الداخل، وجثم جولام على الأرض بالقرب من الفتحة. وهناك تناول الهوبيتيان ما توقعا أن يكون وجبتهما الأخيرة قبل أن يهبطا إلى الأرض المجهولة، ربما الوجبة الأخيرة التي سيأكلانها معًا. أكلا بعضا من طعام جوندور، ورقائق من خبز الطريق (الليمباس) الذي أعطاه الجن لهما، وشربا قليلًا. ولكنهما كانا مقتصدين فيما كان لديهما من ماء وتناولا فقط ما يرطب فاهيهما الجافين.

وقال سام: «إنني أتساءل متى سنعثر على ماء مرة أخرى؟ ولكني أظن أنهم حتى هناك يشربون؟ الأوركيون يشربون، أليسوا كذلك؟».

فقال فرودو: «نعم، إنهم يشربون. ولكن دعنا لا نتحدث عن ذلك. ذلك الشراب ليس لنا».

وقال سام: «إذن فإن الحاجة أعظم إلى ملء زجاجاتنا بالماء. ولكن ليست هناك أي مياه هنا.. إنني لم أسمع أي صوت أو تقاطر للمياه. وعلى أية حال فقد قال لنا فارامير إنه يجب ألا نشرب أي مياه في مورجول».

وقال فرودو: «لا مياه تأتي متدفقة من إملاد مورجول، هذه كانت كلماته. ونحن لسنا في هذا الوادي الآن، وإذا مررنا بنبع ماء فإنه سيكون متدفقًا إلى وادي إملاد مورجول وليس خارجًا منه».

---

(1) Cirith Ungol ومعناها ‹Spiders Cleft›؛ أي جُرف العناكب وهو عبارة عن مجاز فوق «سياج الظل» Ephel Dúath أعلى برج Minas Morgul (المترجم)

فقال سام: «إنني لن أثق فيها، ما لم أمُت من العطش. هناك شعور شرير مزعج بشأن هذا المكان»، وتنشّق الهواء بصوت مسموع. «ورائحة، حسب ظني. هل لاحظت ذلك؟ رائحة غريبة النوع، فاسدة. إنني لا أحبها».

وقال فرودو: «إنني لا أحب أي شيء هنا على الإطلاق، درجة سلم أو حجر، روح أو عظمة. الأرض والهواء والماء كلها تبدو ملعونة. ولكن هذا وضع طريقنا ومسارنا».

وقال سام: «نعم، هكذا هو. ويجب ألا نظل هنا على الإطلاق، لو أننا كنا قد عرفنا المزيد عن ذلك قبل أن نبدأ. ولكنني أظن أن الأمر في الغالب على ذلك النحو. الأمور التي تتسم بالشجاعة في الحكايات والأغاني القديمة يا سيد فرودو؛ المغامرات، مثلما اعتدتُ أن أسميها، اعتدتُ الاعتقاد بأنها كانت أشياء، كان شخوص الحكايات الرائعون يخرجون ويبحثون؛ لأنهم كانوا يريدون ذلك. ونظرًا لأنها كانت مثيرة وكانت الحياة كئيبة إلى حد ما، كنوع من الرياضة، إذا جاز لك القول. ولكن ليس كذا الحال مع الحكايات التي هي ذات أهمية، أو الحكايات التي تستقر في العقل. ويبدو أن الشخوص قد نُجِّيَتْ بها، عادة كانت طرقهم قد صيغت بهذه الطريقة، حسبما صغت أنت الكلام. ولكنني أخمّن أنه كان لديهم الكثير من الفرص، مثلنا، في الرجوع.. الأمر ببساطة أنهم لم يرجعوا. وإذا كانوا قد فعلوا، فإننا لا نعرف؛ لأنهم لابد أنهم قد نُسوا. إننا نسمع عن هؤلاء مثلما يشاع عنهم وليس كل شيء يفضي إلى نهاية جيدة، لعلك تلحظ وتعي - على الأقل ليس فيما يتصل بما يطلق عليه الشخوص داخل الحكاية وخارجها نهاية جيدة - أنت تعلم العودة إلى الوطن، وتبين أن الأشياء على ما يرام، رغم أنها قد لا تكون هي ذاتها تمامًا مثل السيد بيلبو العجوز. ولكن ليست هذه دائمًا أفضل الحكايات التي يمكن سماعها، على الرغم من أنها قد تكون أفضل الحكايات التي تحل فيها! إنني أتساءل أي نوع من الحكايات قد حللنا فيه؟».

فقال فرودو: «إنني لأتعجب. ولكنني لا أعلم. وهذه هي طريقة الحكايات حقًا. خذ أي حكاية تكون مغرمًا بها. قد تعرف، أو قد تخمن أي نوع من الحكايات هي، ذات نهاية سعيدة أو ذات نهاية حزينة، ولكن الأشخاص فيها لا يعرفون. وأنت لا تريدهم أن يعرفوا».

«كلا يا سيدي، بالطبع لا. بيرين[1] الآن، إنه لم يذهب تفكيره قطُّ إلى أنه سيحصل على تلك الجوهرة السيلماريل من التاج الحديدي في جبال ثانجورودريم[2]، ومع ذلك فقد فعل، وكان هذا مكانًا أسوأ، وخطرًا أكثر سوادًا من مكاننا ومن خطرنا. ولكن هذه

(1) Beren القهرمان الحاكم في جوندور، وهو الذي منح سارومان مفاتيح أورثانك. (المترجم)

(2) Thangorodrim [Mountains of Tyranny] أي جبال الطغيان (المترجم)

كما ينبغي أن تكون راقدة في الجبانة.
فناء الكهف! فناء الرصيف!
حيث كان تيم قد مضى منذ سنين عديدة،
وكنتُ أعتقد أنه يرقد في الجبانة

«يا ولدي» ـ كلمه الغول، «هذه العظمة سرقتُها.
ولكن ما تكون العظام التي ترقد في فجوة؟
لقد مات عمك مثل كتلة من الرصاص،

وجدتُ عظمة ساقه من قبل.
عظمة الساق! عظمة الساق!
يمكنه أن يبقي حصة لغول مسكين عجوز،
لأنه لا يحتاج إلى عظمة ساقه».

وقال توم: «لا أفهم لماذا يسمح أمثالك لأنفسهم
دون أخذ إذن بأن يتصرفوا بحرية
في ساق أو جلد أقارب والدي؛
وعليه أعطني العظمة القديمة!
أيها القرصان! أيها السارق!
على الرغم من أنه ميت، ولكنه يخصني؛
وعليه أعطني العظمة القديمة!

وقال الغول وكشر: «من أجل رجلين،
«سوف آكلك أنت أيضًا، وأقضم جلدك.
قضمة من لحم طازج تكون حلوة في بلعها!
سوف أجرب أسناني معك الآن.
هيا الآن! لنرى الآن!
لقد تعبتُ من قضم العظام والجلود القديمة؛
لقد قررتُ أن أتعشى بك الآن».

ولكن بمجرد أن ظن أنه قد أمسك بعشائه،
فإنه وجد يده تقبض على لا شيء.
وقبل أن يفكر، انسل توم وراءه
وركله برجله حتى ينذره.
يحذره! ينذره!
ضربة بالحذاء على المقعد، فكر توم مع نفسه،
ستكون هي الطريقة لإنذاره.

ولكن أقسى من الحجر يكون اللحم والعظم
جبار يجلس في التلال بمفرده.
كما لو كنتُ قد ضربت بحذائه جذر الجبل،
لأن مقعد الغول لم يحس بالركلة.
قشره! «اشفه!»
وضحك الغول العجوز، عندما سمع توم يئن،

ساق توم صارت عرجاء، منذ أن عاد للبيت،
وأصبحت قدمه التي لا حذاء فيها عرجاء دائمًا؛
ولكن الغول لم يبالِ، ولا يزال هناك
ومعه العظمة التي نزعها من صاحبها.
المعطي! صاحب العظمة!

لا يزال مقعد الغول القديم هو نفسه،
والعظمة التي نزعها من صاحبها.

وضحك ميري وقال: «حسنًا، هذا تحذير لنا جميعًا. الأمر كما لو كنت قد استعملت عصا، وليس يدك، يا سترايدار!».

وسأل بيبين: «أين عثرت على هذه الكلمات يا سام؟ إنني لم أسمعها أبدًا من قبل».

وغمغم سام بشيء غير مسموع. وقال فرودو: «إنها من رأسه هو، بالطبع. إنني أتعلم الكثير عن سام جامجي في هذه الرحلة. بداية أن كان متآمرًا، والآن فهو مهرج. سوف ينتهي به الأمر ليكون ساحرًا ـ أو محاربًا!

لسميجول المسكين. هذه هي الفكرة الوحيدة في جميع خططه الوضيعة، إذا كانت لديه أي خطط. ولكن كيف يمكن لإحضارنا إلى هنا أن يساعده في ذلك أبعد مما أخمنه؟».

فقال فرودو: «من المحتمل جدًا أنه هو نفسه لا يمكنه أن يخمن ذلك. ولا أعتقد أن لديه خطة واحدة واضحة في رأسه المرتبك. أعتقد أنه يحاول جزئيًا أن ينقذ الثمين من العدو، مادام يستطيع ذلك؛ لأن ذلك سيمثل آخر كارثة له هو أيضًا، إذا استولى العدو عليه. ومن طرف آخر ربما كان يتحين ببساطة الفرصة المناسبة».

فقال سام: «نعم، المتسلل والمتشمم، كما قلتُ من قبل. ولكن كلما أصبح أكثر قربًا من أرض العدو فإنه سيصبح أكثر شبهًا بالمتسلل والمتشمم. هل تتابع كلماتي؟ لو أنه حدث ووصلنا فعلًا إلى الممر، فإنه لن يدعنا حقًا نأخذ الشيء الثمين ونمر به عبر الحدود دون أن يسبب لنا بعض المتاعب والمشاكل».

فقال فرودو: «ولكننا لم نصل إلى هناك بعد».

«نعم، ولكن من الأفضل أن نتوخى الحذر ونكون يقظين حتى نصل إلى هناك. فلو أنه عُثر علينا نائمين، فسرعان ما يهاجمنا المتشمم. غير أنه آمن لك أن تنال قسطًا من النوم الآن يا سيدي. آمن إذا أنت نمت قريبًا مني جدًا. سأكون سعيدًا للغاية برؤيتك تنال قسطًا من النوم. سوف أقوم على حراستك؛ وعلى أية حال، إذا أنت نمت قريبًا مني، وذراعاي حولك، فلن يأتي أي أحد يتحسسك ويضربك بمخالبه دون أن يعرف سام ذلك».

«أنام!» قال ذلك فرودو وتنهد، كما لو كان قد رأى في صحراء سرابًا من خضرة باردة: «نعم، حتى هنا يمكنني أن أنام».

«نم إذن يا سيدي! ضع رأسك في حجري».

وهكذا وجدهما جولام بعد ساعات، عندما عاد، يحبو ويزحف عبر الطريق خارجًا من الظلمة أمامهما. كان سام يجلس مستندًا على الحجر، ورأسه يتمايل نعاسًا إلى هذا الجانب وذاك ونفسه عال وعميق. كان يرقد في حجره رأس فرودو، غارقًا في نوم عميق؛ وكانت ترقد على جبهته البيضاء إحدى يدي سام السمراوين، وكانت اليد الأخرى ترقد في لطف على صدر سيده. كان السلام والطمأنينة يرتسمان على وجهيهما.

ونظر جولام إليهما. مر عبر وجهه النحيل الجائع تعبير غريب. واختفى الوهج من عينيه، وأصبحتا منطفئتين كئيبتين، عجوزين ومتعبتين. بدا أن هناك نوبة من ألم تعصره، والتفت بعيدًا، يحدق خلفه باتجاه الممر، وهو يهز رأسه، كما لو كان منخرطًا في حوار داخلي. عندئذ عاد مرة أخرى، وببطء مد يدًا مرتعشة، وفي حذر شديد لمس ركبة فرودو ولكن كانت اللمسة تربيتة وملاطفة. وفي لحظة خاطفة، لو أن أحد

النائمين رآه لظن أنه رأى هوبيتيًا عجوزًا مضنى من التعب، جعدته السنون التي حملته بعيدًا إلى ما وراء وقته، إلى ما وراء أصدقائه وأقاربه، وحقول الشباب وينابيعه، شيء عجوز جائع يبعث على الرثاء.

ولكن مع هذه اللمسة تحرك فرودو وصاح في صوت خفيض في نومه، وعلى الفور كان سام مستيقظًا تمامًا. وكان أول شيء رآه جولام «يضرب سيده ببراثنه» كما ظن.

وقال في صوت أجش: «أنت! ما الذي ستفعله؟».

فقال جولام بصوت خافت: «لا شيء، لا شيء. أيها السيد اللطيف!».

فقال سام: «أظن ذلك. ولكن أين كنت تذهب متسللًا وتعود متسللًا، أيها النذل العجوز؟».

وسحب جولام نفسه، وومض ضوء أخضر لامع تحت جفنيه الثقيلين. وبدا الآن قريبًا من العنكبوت، وجثم للوراء على أطرافه المحنية، بعينيه الجاحظتين. ومرت اللحظة الوامضة، التي لا يمكن استرجاعها. وقال في هسيس: «تسلل، تسلل! الهوبيتيون دائمًا مؤدبون للغاية، نعم. يا لهؤلاء الهوبيتيين الظرفاء! سميجول يسوقهم إلى طرق سرية لا يمكن لأحد آخر أن يجدها. إنه متعب، إنه عطشان، نعم عطشان؛ ويقودهم ويبحث عن الطرق، وهم يقولون يتسلل، يتسلل. أصدقاء ظرفاء جدًا، نعم أيها الثمين، ظرفاء جدًا».

وشعر سام بالندم بعض الشيء، على الرغم من أنه لم يكن أكثر ثقة، وقال: «إنني آسف. آسف، ولكنك أفزعتني من نومي. وما كان لي أن أنام، فحملني هذا على أن أكون حادًا بعض الشيء. على أن السيد فرودو متعب للغاية، وقد طلبت منه أن يغفو قليلًا؛ حسنًا، هذه جلية الأمر. ولكن إلى أين ذهبت؟».

«أتسلل» قال ذلك جولام دون أن يبرح الوهج الأخضر عينيه.

فقال سام: «حسنًا جدًا، ليكن ذلك على طريقتك! إنني لا أفترض أن ذلك بعيد كثيرًا عن الحقيقة. والآن من الأفضل لنا أن نتسلل جميعًا معًا. في أي وقت نحن الآن؟ هل نحن اليوم أم غدًا؟».

فقال جولام: «إنه غدًا، أو إنه كان غدًا عندما نام الهوبيتيان. منتهي الحمق، منتهي الخطر لو لم يكن سميجول المسكين يتسلل في المكان للمراقبة».

فقال سام: «أعتقد أننا سنسأم هذه الكلمة قريبًا. ولكن لا تبتئس. سوف أوقظ سيدي».

وبرفق صفف شعر فوردو للوراء من على جبينه، وانحنى وراح يقول بصوت خفيض.

«استيقظ، يا سيد فرودو! استيقظ!».

وتحرك فرودو وفتح عينيه، وابتسم، ورأى وجه سام منحنيًا عليه، وقال: «توقظني مبكرًا يا سام، أليس كذلك؟ لا تزال الدنيا مظلمة!».

فقال له سام: «نعم إنها مظلمة دائمًا هنا. ولكن جولام عاد يا سيد فرودو وهو يقول إننا في الغد. ولذلك يجب أن نواصل سيرنا.. المرحلة الأخيرة».

وأخذ فرودو نفسًا عميقًا وجلس في مكانه وقال: «المرحلة الأخيرة! مرحبًا يا سميجول! هل وجدت أي طعام؟ هل أخذت أي قسط من الراحة؟».

فقال جولام: «لا طعام ولا راحة، لا شيء لسميجول. إنه متسلل متلصص».

وطقطق سام لسانه، ولكنه سيطر على نفسه.

وقال فرودو: «لا تنبز نفسك بالألقاب يا سميجول. ليس ذلك من الحكمة، سواء كانت هذه الألقاب صحيحة أو غير صحيحة».

وأجابه فرودو بقوله: «ينبغي على سميجول أن يتقبل من الألقاب ما يُعطى له. لقد أطلق عليه ذلك اللقب السيد الطيب ساموايز، الهوبيتي الذي يعرف الكثير للغاية».

ونظر فرودو إلى سام، فقال: «نعم يا سيدي. لقد استخدمتُ الكلمة، وقد استيقظتُ من نومي فجأة ولما نظرتُ وجدته فوقي. وقلت إنني آسف، ولكني قريبًا لن أكون آسفًا».

فقال فرودو: «هيا، لنتغاضَ عن الأمر. ولكن يبدو أننا وصلنا الآن إلى النقطة أنا وأنت يا سميجول. أخبرني. هل يمكننا أن نجد باقي الطريق نحن أنفسنا؟ إننا على مرأى من الممر، ومن طريق فيه، وإذا استطعنا أن نجده الآن، أظن أن بوسعنا أن نقول عن اتفاقنا إنه قد انتهى. لقد فعلتَ ما وعدتَ به، وأنت حر، حر لأن تعود للطعام والراحة، إلى أي مكان ترغب في الذهاب إليه، باستثناء الذهاب إلى العدو. وفي يوم من الأيام قد يكون بإمكاني مكافأتك، أنا أو أولئك الذين يتذكرونني».

وقال جولام منتحبًا: «كلا، كلا، ليس بعد. كلا! لا يمكنهم أن يجدوا الطريق بأنفسهم، هل يمكنهم ذلك؟ كلاً يقينًا. سوف يأتي النفق. يجب أن يواصل سميجول السير. لا راحة. لا طعام. ليس بعد».

الفصل التاسع

وكـــــر شـــيلــوب[1]

ربما كان الوقت نهارًا حقًا مثلما زعم جولام ولكن الهوبيتيين كانا يريأن فرقًا صغيرًا؛ إذ كانت السماء الثقيلة فوقهما أقل ما يتوقَّع من اكفهرار السواد ، وأكثر شبهًا بسقف سميك من دخان؛ في حين أنه بدلًا من ظلمة الليل البهيم، التي كانت لا تزال عالقة في الشقوق والحفر، كان هناك ظل ضبابي كئيب يغطي العالم الصخري من حولهم. وواصلوا سيرهم وجولام في المقدمة وكان الهوبيتيان عندئذ يسيران جنبًا إلى جنب، صاعدين الوهد الطويل بين الدعامات والأعمدة التي كانت من صخر ممزق حللته العوامل الجوية، تنتصب كتماثيل ضخمة عديمة الشكل على كلا الجانبين. لم يكن هناك صوت. على بعد مسافة أمامهم، على مدى ميل أو قرابة ذلك، ربما. كان هناك جدار هائل رمادي، كتلة أخيرة ضخمة بارزة من حجر جبلي. كان يلوح ويبدو أكثر ظلمة، وراح يرتفع باطراد وهم يقتربون، حتى صعد عاليًا جدًا فوقهم، وقد حجب الرؤية عن كل ما كان يقع وراءه. كان هناك ظل عميق يقع أمام سفوحه. وتنشق سام الهواء.

وقال: «آخ! رائحته كريهة! وهي تزداد قبحا أكثر وأكثر».

في الوقت الحالي كانوا تحت الظل، وهناك في وسطه رأوا فتحة كهف. فقال جولام بصوت خفيض: «هذا هو طريق الدخول. هذا هو المدخل إلى النفق»، ولم يذكر اسمه: توريك أنجول[2]، وكر شيلوب. وخارجًا منه انبعثت رائحة نتنة، ليست رائحة العفن التي تبعث على الغثيان في مروج مورجول، ولكنها رائحة قوية كريهة، كما لو أن قاذورات لا يمكن ذكرها أو معرفتها قد تكومت وتم تخزينها في الظلمة بالداخل.

وقال فرودو: «هل هذا هو الطريق الوحيد يا سميجول؟».

وأجابه سميجول: «نعم، نعم. نعم، يجب أن نسير في هذا الطريق الآن».

وقال سام: «هل تقصد أن تقول إنك سرت في هذه الحفرة. ياه! ولكن ربما كنت لا تبالي بالروائح الكريهة».

وومضت عينا جولام. «إنه لا يعرف ما لا نبالي به، إنه لا يعرف، أيها الثمين. كلا، إنه لا يعرف. ولكن سميجول يمكنه أن يتحمل الأشياء. نعم. لقد سار عبرها. نعم، عبرها تمامًا. إنها هي الطريق الوحيد».

---

(1) Shelob's Lair الكلمة Shelob مكونة من مقطعين (She) و(lob)، ومعناها عنكبوت (spider) وهي بهذا تعني أنثى العنكبوت. وهي مخلوق له شكل العنكبوت يسكن الجبال على حدود موردور الغربية. أما كلمة (Lair) فمعناها جحر أو وجار أو عرين أو مخبأ. وتشير العبارة إلى [أنفاق سيريث أنجول المظلمة] (المترجم)

(2) Torech Ungol

فقال سام: «وما الذي يسبب هذه الرائحة، أود لو عرفت. إنها مثل.. حسنًا.. إنني لا أود أن أقول. حفرة بغيضة كريهة الرائحة من حفر الأوركيين، إنني على يقين من ذلك، لقد مضى على قاذوراتهم بها مائة سنة».

وقال فرودو: «حسنًا. أوركييون أم لا، لو أن هذا هو الطريق الوحيد، لتحتم علينا أن نسلكه».

وأخذا نفسًا عميقًا ودلفا إلى الداخل. وفي خطوات قليلة كانا في ظلمة تامة لا يمكن النفاذ منها. إلا أن فردو وسام ـ منذ ممرات موريا التي لم تكن تعرف الضوء ـ كانا قد عرفا مثل تلك الظلمة، فإن أمكنهما ذلك، فقد كانت هنا أكثر عمقًا وكثافة. هناك، كان هناك هواء يتحرك، وأصداء، وإحساس بالفضاء. أما هنا فالهواء ساكن راكد كريه الرائحة، وكان الصوت يبدو ميتًا. ومشيا كما لو كان ذلك بين دخان أسود تشكَّلَ من ظلمة حقيقية كانت إذ يتم استنشاقه تجلب العمى لا للأعين ولكن للعقل كذلك، لدرجة أنه حتى ذاكرة الألوان والأشكال وأي ضوء قد تلاشت من الفكر. لقد كان الليل دومًا، وسيكون دائمًا، وكان الليل كل شيء.

ولكن لبعض الوقت كانا لا يزالان يشعران، وحقيقة فإن حواس أقدامهما وأصابعهما في البداية بدت وقد أصبحت نحيلة بشكل مؤلم تقريبًا. وبدت الجدران عند اللمس لحواسهما المندهشة ملساء، والأرض باستثناء درجة سلم من وقت لآخر كانت مستقيمة ومستوية، وكانت تروح صاعدة دائمًا بنفس درجة الانحدار الشديدة. كان النفق عاليًا وواسعًا، واسعًا للغاية لدرجة أنه على الرغم من أن الهوبيتيين كانا يسيران جنبًا إلى جنب لا يمسان الجدران الجانبية إلا بأيديهما ممتدة على طولها، فقد كانا منفصلين، وانعزلا وحدهما في الظلمة.

ودخل جولام أولًا وبدا أنه على بعد خطوات قليلة أمامهما. بينما كانا لا يزالان قادرين على الانتباه للأشياء، كانا يستطيعان سماع نفسه يهمس وينهج أمامهما مباشرة. ولكن بعد بعض الوقت أصبحت حواسهما أكثر تبلدًا، بدت كل من حاسة اللمس والسمع وقد أصبحتا مخدرتين، وظلا يسيران، يتحسسان، يمشيان، ويمشيان، في الأساس بقوة الإرادة التي دخلا بها، الإرادة في المضي والرغبة في الوصول أخيرًا إلى البوابة العالية فيما وراء ذلك.

وقبل أن يكونا قد سارا مسافة كبيرة جدًا، أدرك سام الذي فقد سريعًا الإحساس بالزمان والمسافة وقد كان يسير في الجانب الأيمن، يتحسس الجدار، وأنه كانت هناك فتحة في الجانب؛ أحس للحظة بنسمة ضعيفة من هواء أقل ثقلًا، رائحته أقل عفونةً، وبعد ذلك مضيا وتركا هذه الفتحة.

وهمس في جهد قائلًا: «هناك أكثر من طريق واحد هنا» فقد بدا من الصعب أن يجعل نفسه يصدر أي صوت. «إنه مكان شبيه بأماكن الأوركيين كأكمل ما يمكن أن يوجد تشابه بينهما على الإطلاق!».

بعد ذلك، وهو على اليمين، ثم فرودو على الشمال، مرًا بثلاث أو أربع فتحات مثل هذه، بعضها أكثر اتساعًا، وبعضها أصغر؛ ولكن لم يكن هناك أي شك في الطريق الرئيسي؛ لأنه كان مستقيمًا ولم ينعطف، ولم يزل يسير باطراد في صعود. ولكن كم كان طوله، ما ذلك المزيد الذي سيتحتم عليهما احتماله، أو يكون بوسعهما احتماله؟ كان سكون الهواء يتزايد وهما يصعدان؛ والآن بدا أكثر أنهما في الظلمة العمياء بحيث يحسان قوة أكثر كثافة من الهواء الثقيل الكثيف. وبينما كانا يشقان طريقهما بقوة للأمام أحسا بأشياء تحك رأسيهما أو أيديهما، مجسات طويلة، أو زوائد نامية مدلاة ربما؛ فلم يكن بإمكانهما معرفة كُنه هذه الأشياء. وظلت الرائحة النتنة تزيد. وزادت، حتى بدا لهما تقريبًا أن الشم كان هو الحاسة الوحيدة الواضحة لهما، وكان هذا مصدر تعذيبهما. ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات؛ كم من الساعات أمضيا في تلك الحفرة المظلمة! ساعات أيامًا، أسابيع بالأحرى. ترك سام جانب النفق وانكمش باتجاه فرودو، وتلاقت أيديهما وتشابكت، وهكذا مضيا معًا وظلا يسيران في سكون.

وأخيرًا جاء فرودو فجأة وهو يتحسس عبر الجدار الأيسر منطقة خالية. كاد أن يقع جانبًا في الفراغ. كانت هنا فتحة ما في الصخر أكثر اتساعًا بكثير من أي فتحة مرًا بها حتى الآن؛ وجاءت منها رائحة نتنة للغاية، وإحساس بحقد خفي شديد للغاية، لدرجة أن فرودو اضطرب وأصيب بدوار. وفي تلك اللحظة ترنح سام أيضًا وسقط للأمام.

وأمسك فرودو وهو يحارب الإعياء والخوف بيد سام، وقال له في نفس أجش دون صوت: «انهض! إن كل شيء يأتي من هنا، الرائحة النتنة والخطر. والآن لنواجه الخطر! أسرع».

واستجمع ما تبقى من قوته وعزمه، وسحب سام وأوقفه على قدميه، وأجبر قدميه هو على الحركة. وراح سام يسير متعثرًا إلى جانبه. خطوة واحدة، خطوتين، ثلاث خطوات وأخيرًا ست خطوات. ربما يكونان قد مرًا بالفتحة المروعة غير المرئية، ولكن سواء كان ما حدث هو ذلك أم لا، فإن الحركة أصبحت فجأة أيسر، وكما لو كانت إرادة معادية قد حررتهما في تلك اللحظة. وراحا يناضلان في سيرهما، وهما لايزالان يسيران يدًا في يد.

ولكنهما وقعا تقريبًا في الحال في ورطة أخرى. تشعب النفق، أو هكذا بدا، وفي الظلمة لم يمكنهما أن يتبينا أي الطرق كان الطريق الأكثر اتساعًا، أو أيها كان أقرب من الطريق المستقيم. أيها ينبغي أن يسلكاه، الأيسر أم الأيمن؟ لم يتبينا أي شيء يرشدهما؛ لأن أي خيار خاطئ كان موشكًا أن يكون قاتلًا بكل تأكيد.

وقال سام وهو يلهث: «أي طريق سلكه جولام؟ ولماذا لم ينتظر؟».

فقال فرودو محاولًا النداء: «سميجول! سميجول!» ولكن صوته راح يخفت ويضعف، وراح الاسم يموت وهو يغادر شفتيه تقريبًا. لم تكن هناك إجابة، ولا صدى، ولا حتى رعشة هواء.

وغمغم سام قائلًا: «لقد ذهب فعلًا هذه المرة، كما أعتقد. أظن أن هذا هو المكان الذي كان يقصد أن يأتي بنا إليه بالضبط. جولام! لو أن يديَّ وقعتا عليك مرة أخرى، فسوف تأسف على ذلك».

وفي الوقت الحالي، وهما يتحسسان ويتخبطان في الظلمة، وجدا أن الفتحة التي كانت على اليسار قد سدت، فإما أنها كانت فتحة ذات نهاية مسدودة، وإما أن حجرًا كبيرًا قد سقط في الممر. وهمس فرودو قائلًا: «لا يمكن أن يكون هذا هو الطريق. صوابًا أم خطأً، ينبغي أن نسلك الآخر».

وقال سام وهو ينهج: «وبسرعة! هناك شيء ما أسوأ من جولام حولنا. إنني أشعر بشيء ما ينظر إلينا».

ولم يمضيا أكثر من أمتار قليلة عندما جاء صوت من ورائهما مروع ورهيب في الصمت المطبق الخانق؛ ضوضاء بها قرقرة وبقبقة، وهسيس حقود طويل. والتفتا، ولكن لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته. ووقفا ساكنين مثل الصخور، يحدقان، يترقبان؛ لأنهما لم يكونا يعرفان ما يمكن أن يفعلاه.

«إنها مصيدة!» قال ذلك سام، ووضع يده على مقبض سيفه؛ وبينما كان يفعل ذلك، فكر في ظلمة الرابية من أين أتت. وقال مفكرًا بينه وبين نفسه: «أتمنى لو كان توم العجوز قريبًا منا الآن!» بعد ذلك، وبينما كان واقفًا، حيث الظلمة من حوله وسواد من يأس وغضب في قلبه، بدا له أنه رأى ضوءًا؛ ضوءًا في عقله، ساطعًا على نحو لا يمكن احتماله تقريبًا في بداية الأمر، كشعاع شمس إزاء عيني شخص اختبأ كثيرًا في حفرة بلا منافذ. بعد ذلك أصبح الضوء ملونًا؛ أخضر، ذهبيًا، فضيًا، أبيض. وبعيدًا جدًا، كما لو كان في صورة صغيرة رسمتها أصابع جنية، رأى السيدة جَلَدْريل تقف على العشب في لورين، وكانت في يديها هدايا. وسمعها تقول من بعيد، بيد أن صوتها كان واضحًا: «وأنت يا حامل الخاتم، أعددت هذا لك»[1].

وصار الهسيس أكثر قربًا، وكان هناك صرير كذلك الذي يصدر عن شيء عظيم

(1) نص الفقرة كما ورد في الجزء الأول: [«وأنت، يا حامل الخاتم. أصل إليك أخيرًا ولكنك لستُ آخرًا في أفكاري. بالنسبة لك، فإنني قد أعددت هذه». وأمسكت قنينة بللورية صغيرة كانت تتوهج وهي تحركها، وقفزت أشعة من ضوء أبيض من يدها، وقالت: «في هذه القنينة، يوجد ضوء نجم إرينديل، موضوع في مياه فسقيتي. سوف يظل يسطع أكثر إشراقًا عندما يكون الليل من حولك. لعله يكون ضوءًا لك في الأماكن المظلمة، عندما تخمد كل الأضواء الأخرى. تذكر جَلَدْرِيل ومرآتها!»] (المترجم).

تحرك بإصرار بطيء في الظلمة. وجاء يسبقه دخان ورائحة كريهة. وصاح سام وقد عادت الحياة والإلحاحية إلى صوته مرة أخرى: «سيدي، سيدي! هدية السيدة! زجاجة النجم! ضوء لك في الأماكن المظلمة، هذا الذي قالت إنها تتحول إليه. زجاجة النجم!».

وغمغم فرودو كشخص يجيب عن سؤال بينما هو نائم ولا يكاد يفهم: «زجاجة النجم؟ لماذا، نعم! لماذا نسيتها؟ إنها ضوء عندما تخبو كل الأضواء الأخرى! والآن حقًا الضوء وحده هو الذي يمكن أن يساعدنا».

وذهبت يده في بطء إلى صدره، وببطء أمسك بقنينة جَلَدْريل ورفعها. وتوهجت للحظة، خافتة مثل نجم يأخذ في البزوغ يجاهد في سديم ثقيل تجاه الأرض، وبعد ذلك يبدو كما لو أن قوته قد خبت، وكبر الأمل في عقل فرودو، بدأ يحترق ويتوهج متحولًا إلى لهب فضي، قلب دقيق من ضوء باهر، كما لو أن إرينديل قد نزل هو نفسه من مسارات غروب الشمس العالية بآخر جوهرة سيلماريل على جبينه. وتراجعت الظلمة منها، حتى بدا أنها تسطع في قلب كرة من بلور هوائي، وكانت اليد التي تمسكها تتوهج بنار بيضاء.

وحدق فوردو في ذهول في هذه الهدية الرائعة التي حملها منذ فترة طويلة، دون أن يخمن قدرها وقيمتها الكاملة. نادرًا ما تذكرها على الطريق، حتى وصلا إلى وادي مورجول، ولم يستخدمها أبدًا خوفًا من ضوئها الكاشف. وصاح قائلًا: *Aiva Eärendil Elenion Ancalima!*، ولم يكن يعرف ما يتحدث به؛ لأنه بدا أن صوتًا آخر كان يتحدث من خلاله واضحًا، ولم يقلقه هواء الحفرة النتن فاسد الرائحة.

ولكن هناك قدرات أخرى في الأرض الوسطى، قوى الليل، وهي قديمة وقوية. وهي تلك التي سرت في الظلمة، سمعت الجن يصرخون تلك الصرخة التي تعود بعيدًا للغاية إلى الوراء في أعماق الزمن، ولم تأبه بذلك، ولم تعد تلك الصرخة تنتابها الآن. حتى وبينما كان فرودو يتكلم أحس بحقد عارم مصوب ومسلط عليه، ونظرة مهلكة تنظر إليه في تأمل عميق. وليس بعيدًا جدًا عبر النفق، بينهما وبين الفتحة التي كانا قد تعثرا فيها وأصيبا بالدوار، أدرك وجود أعين تصبح مرئية، مجموعتان كبيرتان من أعين كثيرة الفتحات. أخيرًا انكشف التهديد القادم وزال عنه القناع. انكسر إشعاع زجاجة النجم وارتد من واجهاتها الكثيرة، ولكن وراء الوهج المتألق بدأت نار قاتلة شاحبة تتوهج باطراد في الداخل، اشتعلت شعلة في حفرة عميقة من فكر شرير. كانت أعينًا وحشية ومقيتة، بوهيمية، ومع ذلك زاخرة بالتصميم والعزم وبالبهجة البشعة، تحدق في تركيز بالغ في فريستها المحبوسة دونما أدنى أمل في الهرب.

بدأ فرودو وسام وقد تولاهما الرعب يتراجعان ببطء، وقد ثبتت نظرتهما وتركزت على تلك النظرة المروعة لتلك الأعين المهلكة؛ ولكن وهما يتراجعان إلى الوراء كانت

الأعين تتقدم. وارتعشت يد فرودو، وراحت القنينة تتدلى ببطء. وبعد ذلك تحرر فجأةً من التعويذة التي كانت تقبض عليه ليجري للحظة قصيرة في ذعر غير مجد، وهو الأمر الذي كان تسلية للأعين، ودار الاثنان معًا وفرا هاربين؛ ولكن بينما كانا يجريان نظر فرودو للوراء، وتبيَّن له في رعب أن الأعين كانت تتعقبهما قافزة وراءهما في الحال. كانت رائحة النتن بعد الموت مثل سحابة تحيط بهما.

وصاح في يأس: «قف! قف! ليست هناك فائدة من الجري».

وبطيئًا راحت الأعين تزحف باتجاههما وتصبح أكثر قربًا.

وصاح مناديًا: «جِلْدرِيل» استجمع كل شجاعته ورفع القنينة مرة أخرى. وتوقفت الأعين. واسترخت نظراتها للحظة، كما لو أن لمحة من شك قد أقلقتها. بعد ذلك توهج قلب فرودو بداخله، وبدون تفكير ماذا فعل؟! سواء أكان ذلك حماقة أو يأسًا أو شجاعة، أخذ القنينة في يده اليسرى، وبيده اليمنى استل سيفه. وومض سيفه ستينج، وتوهج النصل الجني الحاد في الضوء الفضي، ولكن ومضت نار زرقاء عند حوافه. بعد ذلك ممسكًا بزجاجة النجم عاليًا يتقدمه السيف اللامع، راح فرودو هوبيتي المقاطعة يمشي في ثبات هابطًا لملاقاة الأعين.

وارتعشت. وتطرق الشك إليها والضوء يقترب. وراحت تبهت واحدة تلو الأخرى، وفي بطء تراجعت إلى الوراء. لم يصبها ضوء ساطع بهذا القدر من الفتك من قبل على الإطلاق. من الشمس والقمر والنجوم. كانت آمنة تحت الأرض، ولكن الآن أقبل نجم وهبط إلى الأرض نفسها. ومازال يقترب، وبدأت الأعين تذبل وتذوي. وأظلمت واحدة تلو الأخرى؛ واستدارت بعيدًا، وألقت كتلة كبيرة، فيما وراء امتداد الضوء، بظلها الهائل فيما بينهما. واختفت.

وصاح سام: «سيدي، سيدي!» وكان لصيقًا به من خلفه، وسيفه مسلول وجاهز. «النجوم والمجد! ولكن الجن ستصوغ ذلك في أغنية، لو حدث أن سمعت عن هذا! ولعلي أعيش لأخبرهم بذلك وأسمعهم يغنون. ولكن لا تواصل السير يا سيدي! لا تهبط إلى ذلك الوكر! الآن فرصتنا الوحيدة. والآن هيا بنا نخرج من هذه الحفرة الشنيعة!»

وهكذا دارا إلى الوراء راجعين مرة أخرى، بداية كانا يمشيان وبعد ذلك راحا يجريان؛ لأنه بينما كانا يسيران كانت أرضية النفق ترتفع بشكل حاد، ومع كل خطوة كانا يصعدان عاليًا أكثر فوق روائح الوكر غير المرئي النتنة، وعادت القوة إلى الأطراف وإلى القلب. ولكن كراهية المراقب كانت لا تزال مترصدة وراءهما، وكان أعمى لبعض الوقت، ربما، إلا أنه لم يكن ليُهزَم، ولا يزال مصرًا على الموت. والآن هبَّ تيار من الهواء لملاقاتهما، بارد وواهن. وظهرت أمامهما أخيرًا الفتحة، نهاية النفق. وألقيا

بأنفسهما ـ وهما يلهثان ويتوقان إلى مكان لا سقف له ـ إلى الأمام؛ وبعد ذلك في ذهول ترنحا وسقطا إلى الوراء. لقد أغلق المنفذ بحاجز ما، ولكنه لم يكن حاجزًا من حجر، كان يبدو أنه صغير ولين، ومع ذلك قوي وغير منفذ؛ ونفذ الهواء عبره، ولكن لم تكن هناك ومضة من أي ضوء تنفذ عبره. وهاجما مرة أخرى واندفعا إلى الوراء.

نظر فرودو وهو ممسك بالقنينة عاليًا ورأى أمامه ظلمة لم يخترقها شعاع زجاجة النجم ولم يضئها، كما لو كانت ظلًا لم يسلط عليه أي ضوء، ليس هناك أي ضوء يمكن أن يبدده. وعبر عرض وطول النفق نسجت شبكة واسعة كبيرة، منظمة كشبكة عنكبوت ضخمة هائلة، إلا أنها منسوجة بشكل أكثر كثافة وأكبر كثيرًا، وكان كل خيط فيها غليظًا كالحبل.

وضحك سام في تجهم، وقال: «خيوط العنكبوت! أهذا كل شيء؟ خيوط العنكبوت! ولكن يا له من عنكبوت، يتعامل معها، وينزل معها!».

وفي غضب شديد ضرب الخيوط بسيفه بقوة، ولكن الخيوط التي ضربها لم تُقطع. لانت قليلًا وبعد ذلك ارتدت عائدة مرة أخرى كوتر قوس قد اندفع بقوة، وقلب نصل السيف وصد كلًا من السيف والذراع وجعلهما ينقلبان. وضرب سام بكل قوته ثلاث مرات، وأخيرًا طقطق خيط واحد من الخيوط التي لا حصر لها والتوى، وراح يتلوى ويتحرك سريعًا في الهواء، وضربت إحدى نهاياته يد سام، فصرخ من الألم، وقفز إلى الوراء وسحب يده عبر فمه.

وقال: «سوف يستغرق الأمر أيامًا لإخلاء الطريق على ذلك النحو. ما الذي يمكن أن نفعله؟ هل عادت تلك الأعين؟».

فقال فرودو: «لا، ولن تُرى. ولكني لا أزال أشعر أنها تنظر إليَّ، أو تفكر فيَّ، تُدبِّر خطة أخرى، ربما. لو أن هذا الضوء انخفض، أو أنه غار، فإنها سوف تعود سريعًا مرة أخرى».

وقال سام في مرارة وقد زاد غضبه مرة أخرى وطفح فوق التعب واليأس: «لقد وقعنا في النهاية! بدلًا من ذلك في شبكة. أتمنى أن تقضم لعنة فارامير ذلك الجولام وتقضمه بسرعة!».

فقال فرودو: «لن يساعدنا هذا الآن. هيا! هيا بنا نرى ما يمكن أن يفعله سيفي ستينج. إنه سيف جني. كانت هناك شباك من رعب في وديان بيلرياند[1] المظلمة التي صُنع فيها. ولكن يجب أن تقوم بالحراسة وتبعد العينين. إليك هذه، خذ زجاجة النجم. لا تخف. أمسك بها عاليًا وشاهد!».

(1) Beleriand وتعني [The Country of Balar] أي بلاد بالار (المترجم).

عندئذ قفز فرودو في الشبكة الرمادية الهائلة، وقطعها بضربة هائلة للغاية، ضاربًا بالحافة الماضية بسرعة عبر سلم من حبال مجدولة بإحكام، وفي الحال قفز بعيدًا. جزها النصل الأزرق المتوهج كالمنجل عندما يجز العشب، وقفزت وتلوت في جدائل، وبعد ذلك أصبحت سائبة مدلاة. وتكون صدع ضخم هائل.

ووجه إليها ضربة بعد ضربة، حتى تناثرت الشبكة التي كانت في متناوله كلها، وانفجر الجزء العلوي وتأرجح مثل ستار سائب في الريح القادمة. وكسرت المصيدة.

وصاح فرودو: «تعال! هيا! هيا!» ملأت الفرحة الغامرة بنجاتهما من فم اليأس ذاته فجأة كل عقله. ودار رأسه كما لو كان ذلك بجرعة من نبيذ قوي. وقفز إلى الخارج، مقبلًا وهو يصيح.

بدا لعينيه أن ضوءًا في تلك الأرض المظلمة قد مر عبر وكر الليل. لقد ارتفعت الأدخنة الهائلة وصارت أكثر سموقًا وأخف، وكانت الساعات الأخيرة من اليوم الكئيب تمر؛ وقد تضاءل وهج موردور الأحمر متحولًا إلى ظلمة كئيبة. ولكن بدا لفرودو وكأنما ينظر إلى نهار من أمل مفاجئ. وقد أوشك أن يصل إلى قمة الجدار. لم يصبح إلا أعلى قليلًا الآن. كان الجرف سيريث أنوجول أمامه، كوة معتمة في السلسلة السوداء، وقرون الصخر المظلمة في السماء على كل جانب. سباق قصير، مسار عدائين قصير، وعندها يكون قد عبر ووصل!

«الممر، يا سام» صاح فرودو بهذه الكلمات غير آبه بحدة صوته، والذي تحرر من هواء النفق الخانق وهو يرن الآن عاليًا، أكثر جموحًا. «الممر! اركض، اركض، وسوف نعبر ونصل، سوف نعبر ونصل قبل أن يوقفنا أي أحد!»

ودَلَفَ سام صاعدًا وراءه سريعًا بقدر ما استطاع أن يحث ساقيه؛ ولكن على الرغم من سعادته أنه سيكون حرًا، فقد كان قلقًا، وبينما كان يجري، ظل يحدق خلفه في قنطرة النفق المظلمة، متوجسًا أن يرى أعينًا، أو شكلًا ما خارج نطاق تخيله، يقفز في مطاردتهما. كان ما يعرفه هو أو سيده عن حيل شيلوب قليلًا للغاية، فقد كان لديها كثير من المخارج من وكرها.

ظلت مقيمةً هناك عمرًا بطوله، شيء شرير في هيئة عنكبوت، مثلما عاشت في أرض الجن قديمًا في وقت من الأوقات في الغرب، حيث أصبحت الآن تحت البحر، كتلك التي حاربها بيرين في جبال الرعب في دورياث، وهكذا وفدت إلى لوثيين على المرج الأخضر وسط نباتات الشوكران في نور القمر منذ زمن طويل. كيف دلفت شيلوب إلى هناك، فارة من الدمار، ليست هناك حكاية تخبر عن ذلك؛ لأن الحكايات التي وردت من السنين المظلمة كانت قليلة. ولكنها كانت لا تزال هناك، كانت هناك قبل ساورون، وقبل حجر باراد دور الأول؛ ولم تخدم أحدًا سوى نفسها، تشرب دم

الجن والإنس، وانتفخت وأصبحت مترهلةً وهي تمكث لفترات لا نهائية متأملة في ولائمها، تحبك شباك الظل؛ إذ كانت كل الكائنات الحية طعامًا لها، وقيؤها الظلمة. في كل مكان صغارها الأقل حجمًا، أبناء الأزواج التعساء، نسلها هي، التي كانت تذبحهم، منتشرون من واد إلى واد، من إيفيل دواث إلى التلال الشرقية، إلى دُول جولدور وإلى غابة ميركوود الشاسعة. ولكن لم يكن هناك من يضاهيها، شيلوب العظيمة، آخر أبناء أونجوليانت[1] لتعكر صفو العالم التعيس.

بالفعل، قبل سنين، رآها جولام، سميجول الذي رأى وفحص كل الحفر المظلمة، وفي الأيام الخوالي انحنى لها وعبدها، وسارت ظلمة إرادتها الشريرة من خلال جميع طرقات إعيائه وإرهاقه إلى جواره تعزله عن الضوء وعن الندم. وقد وعد أن يحضر لها الطعام. ولكن رغبتها لم تكن رغبته. كانت ما تعرفه أو تهتم به بشأن الأبراج أو الخواتم أو أي شيء ابتكره عقل أو يد قليلًا، إنما كانت تريد الموت لكل الآخرين، عقلًا وجسدًا، ولنفسها شهوة الحياة، وحدها، منتفخة حتى لا يعود بإمكان الجبال أن تسعها ولا للظلمة أن تحتويها.

ولكن تلك الرغبة كانت لا تزال بعيدة، وإنها لجائعة الآن منذ فترة طويلة، مختبئة في وكرها، بينما كانت قوة ساورون تكبر وتزيد، وهجر الضوء والكائنات الحية حدوده؛ وماتت المدينة التي كانت في الوادي، ولم يكن أي جن أو إنس يقترب منها سوى الأوركيين التعساء. طعامها المسكين الحي. ولكنها يجب أن تأكل، إذ كانوا يحفرون في انشغال كبير من طرقات متعرجة من المجاز ومن برجهم، فقد كانت دائمًا تجد طريقة ما لاصطيادهم والإيقاع بهم. ولكنها كانت تشتهي لحمًا أكثر لذةً. وقد أحضره لها جولام.

«سوف نرى، سوف نرى» كان غالبًا ما يقول ذلك لنفسه، عندما كان ينتابه المزاج الشرير، سائرًا في الطريق الخطير من تلال إمين مويل إلى وادي مورجول، «سوف نرى. قد يكون حقًا، نعم، قد يكون حقًا أننا سنراه عندما ترمي بالعظام والثياب الخالية، سنعثر عليه، سنحصل عليه، أيها الثمين، مكافأة لسميجول المسكين الذي يحضر الطعم اللطيف. وسوف ننقذ الثمين، كما وعدنا. نعم. وعندما نحصل عليه في أمان، فإنها سوف تعرفه عندئذ، نعم، عندئذ سوف نعاقبها، يا ثميني. عندئذ سوف نعاقب الجميع!».

هكذا كان يفكر في غرفة داخلية من مكره، كان لا يزال آملًا أن يخفيها عنها، حتى عندما كان يأتي إليها مرة أخرى وكان ينحني في وضاعة أمامها بينما يكون رفاقه نائمين.

أما ساورون فقد كان يعرف أين تختبئ. كان يسره أنها تسكن هناك جائعة، ولكن حقدها في كامل تأججه لا يضعف، والحراسة على ذلك الطريق القديم إلى بلاده أمنع

(1) Ungoliant العنكبوت العظيم، الذي كان حليف وشريك ميلكور [Melkor] في تدمير أشجار فالينور [Trees of Valinor] (المترجم).

من أي حراسة أخرى كان يمكن لمهارته أن تخترعها، وكان الأوركيون، خدمًا مفيدين، إلا أنهم كانوا كثيرين لديه. وإذا أمسكت بهم شيلوب من وقت لآخر لإشباع شهيتها، فقد كانت على الرحب والسعة إذ ذاك، يمكنه أن يستغني عنهم لها. وأحيانًا مثلما يلقي الرجل بطعام لذيذ لقطته (كان يسميها قطته، ولكنها لا تملكه) كان ساورون يرسل إليها السجناء الذين لم يكن لديه استخدام أفضل لهم؛ كان يجعلهم يساقون إلى حفرتها، وكان يأمرأن يأتيه تقرير عما فعلته بهم.

هكذا عاش الاثنان، مغتبطين بمكائدهما وحيلهما، ولم يكونا يخافان أي هجوم، ولا غضب، ولا نهاية لشرهما أو أذاهما. لم يحدث قط حتى الآن أن هربت ذبابة من شباك شيلوب وكان حنقها وجوعها أكبر الآن.

ولكن لا شيء من هذا الشر الذي حركاه ضدهما عرفه سام المسكين، غير أنه كان هناك خوف يكبر بداخله، تهديد لم يكن يراه؛ وقد زادت وطأته كثيرًا لدرجة أنه كان حملًا يعوقه عن الجري، وكانت قدماه تبدوان مثقلتين حتى الإرهاق عاجزتين عن الجري.

كان الرعب يحيط به، والأعداء أمامه في الممر، وكان سيده في حالة مزاجية ذاهلة غير آبه بملاقاتهم. ونحّى عينيه بعيدًا عن الظل وعن الظلمة العميقة تحت الجرف في يساره، ونظر أمامه، ورأى شيئين زادا من رعبه. رأى أن السيف الذي كان فرودو لا يزال ممسكًا به خارج غمده يتوهج بلهب أزرق؛ ورأى أنه على الرغم من أن السماء وراءهما كانت الآن مظلمة، فمازالت النافذة الموجودة في البرج تتوهج بضوء أحمر.

وقال مغمغمًا: «الأوركيون! إننا لن نندفع هكذا أبدًا. هناك أوركيون من حولنا، وأسوأ من الأوركيين». بعد ذلك عندما عاود سريعًا عادة السرية القديمة لديه، أغلق يده حول القنينة التي كان لا يزال يحملها. توهجت يده حمرة من دمه هو الحي للحظة، وبعد ذلك دس الضوء الكاشف بعمق في جيب بالقرب من صدره ولملم معطفه الجني محيطًا به نفسه. وحاول الآن أن يزيد من سرعته. كان سيده يسرع للحاق به؛ وكان بالفعل على بعد حوالي عشرين خطوة أمامه، يطير كأنه ظل؛ وقريبًا سوف يزوغ عن البصر في ذلك العالم المظلم الكئيب.

ولم يكد سام يخفي ضوء زجاجة النجم حتى أتت. على بعد مسافة صغيرة أمامه على اليسار منه رأى فجأة شكلًا من أبغض الأشياء التي سبق أن رآها وأبعثها على النفور على الإطلاق، يطلع من حفرة سوداء من الظل تحت الجرف، مروعًا بما يفوق رعب حلم شرير. كانت أقرب شبهًا إلى العنكبوت، ولكنها كانت أكبر حجمًا من

حيوانات الصيد الكبيرة، وأكثر إرعاباً منها، لذلك العزم الشرير الذي كان في أعينها القاسية التي لا تعرف الرحمة. هي نفس تلك الأعين التي ظن أنه روعها وهزمها، كانت مضاءة بضوء شرس مرة أخرى، متجمعة في رأسها البارز نحو الخارج. كانت لديها قرون كبيرة، وكان وراء رقبتها القصيرة كسويقة النبات يقع جسمها الضخم المنتفخ، حقيقة كبيرة منتفخة، تترنح وتتمايل بين ساقيها؛ كان جسدها الهائل أسود اللون، تلطخه بقع زاهية إلا أن بطنها من أسفل كان شاحباً ومضيئاً، تنبعث منه رائحة نتنة. كانت سيقانها محنية، بها مفاصل كبيرة عظيمة العقد إلى ما فوق ظهرها، وشعرها منتصباً كأعمدة فولاذية، وكان في نهاية كل ساق مخلب.

وبمجرد أن ضغطت على جسمها الطري الساحق وأطرافه المطوية وأخرجته من المخرج العلوي من شعرها، تحركت بسرعة مروعة، وكانت الآن تجري على سيقانها الصارخة، وكانت تنطلق في قفزة مفاجئة. كانت بين سام وسيده. وإما أنها لم ترَ سام، وإما أنها تجنبته في هذه اللحظة لكونه حامل الضوء، وركزت كل هدفها على فريسة واحدة، على فرودو، المحروم من قنينته، وهو يجري دون هدف عبر الممر، غير مدرك بعد للخطر الذي يحدق به. كان يجري سريعاً، ولكن شيلوب كانت أكثر سرعة؛ وفي خطوات قليلة سوف تلحق به.

ولهث سام واستجمع كل ما تبقى من نفس لديه ليصرخ، وصاح: «احترس وراءك! احترس يا سيدي! إنني» ولكن صرخته اختنقت فجأة.

مرت يد طويلة باردة ودبقة فوق فمه وإذا بيد أخرى تمسك به من رقبته، في حين أن شيئاً ما لف نفسه حول ساقه. ولما كان قد أخذ على حين غرة، فقد سقط إلى الوراء مرتمياً على ذراعي مهاجمه.

ووشوش جولام في هسيس في أذنه: «لتنل منه! أخيراً، يا ثميني، لقد نلنا منه، نعم، الهوبيتي القذر. إننا نأخذ هذا الشخص. وهي سوف تأخذ الآخر. نعم، سوف تنال شيلوب منه، وليس سميجول. لقد وعد أنه لن يؤذي السيد على الإطلاق. ولكنه سوف ينال منك، أنت أيها المتسلل القذر المقزز!» وبصق على رقبة سام.

وأضفى هذا الغضب العارم على سام لتعرضه للخيانة، واليأس لتأخره عندما كان سيده يتعرض لخطر مهلك عنفاً وقوة مفاجئين فاقا نطاق أي شيء كان يمكن لجولام أن يتوقعه من هذا الهوبيتي الغبي البطيء، حسب ظنه. وما كان جولام نفسه ليستطيع أن يلتوي بسرعة أو بعنف أكبر. وانزلقت قبضته عن فم سام، واندفع سام بقوة للأمام مرة أخرى، محاولاً الفكاك من القبضة التي كانت ممسكة برقبته. كان لا يزال سيفه في يده، وكانت هراوة فارامير معلقة من سيرها الجلدي في ذراعه اليسرى. وفي يأس حاول أن يدور ويطعن عدوه. ولكن جولام كان سريعاً للغاية. واندفعت ذراعه اليمنى

الطويلة بقوة، وقبَض على رسغ سام. . كانت أصابعه كالمنجَلة؛ وفي بطء وبدون هوادة أو رحمة ثنى اليد لأسفل وللأمام، حتى ترك سام السيف صارخًا من الألم وسقط السيف على الأرض؛ وفي ذات الوقت كانت يد جولام الأخرى تضيق قبضتها على عنق سام.

وعندئذ لعب سام حيلته الأخيرة. بكل قوته جذب نفسه بعيدًا وغرس قدميه في الأرض بكل قوة؛ بعد ذلك دفع ساقيه فجأة على الأرض وبكل ما أوتي من قوة ألقى بنفسه للوراء.

ولما لم يكن جولام يتوقع حتى تلك الخدعة البسيطة من سام، فإنه سقط على الأرض وتكوم سام فوقه، ووقع ثقل الهوبيتي القوي على بطنه. وخرج منه صوت هسيس حاد، وفي ثانية خفت قبضة يده على رقبة سام؛ ولكن أصابعه كانت لا تزال تقبض على اليد التي كان السيف بها. واقتلع سام نفسه منه للأمام بعيدًا عنه، ووقف على قدميه، وبعد ذلك أسرع فجأة منطلقًا بعيدًا إلى يمينه، متمركزًا على الرسغ الذي كان جولام ممسكًا به. وقبض سام على الهراوة بيده اليسرى، ورفعها عاليًا، وهبط بها لتهوي بضربة مدوية على ذراع جولام التي كانت ممتدة، أسفل الكوع مباشرة.

وأفلته جولام بصرخة مدوية، ثم هاجم سام بكل قوة؛ ولم ينتظر حتى يحول الهراوة من يده اليسرى إلى اليمنى وسدد ضربة وحشية أخرى. وانزلق جولام بسرعة جانبًا كالثعبان، ووقعت الضربة التي كانت موجهة إلى رأسه فوق ظهره. وطقطقت الهراوة وانكسرت. كان ذلك كافيًا بالنسبة له، وقد كان الإمساك من الخلف لعبة قديمة من لعبه، ونادرًا ما كان يخفق فيها. ولكن في هذه المرة، وقد خانه الحقد والغل، ارتكب خطأ التحدث والتبجح قبل أن تكون كلتا يديه حول رقبة ضحيته. لقد فشل كل شيء في خطته الجميلة، منذ أن ظهر ذلك الضوء الرهيب على نحو غير متوقع في الظلمة. والآن كان وجهًا لوجه مع عدو شرس، صغير أقل من حجمه هو. لم تكن المعركة تدور لصالحه. والتقط سام سيفه من على الأرض ورفعه. وصرخ جولام، ووثب جانبًا على أطرافه الأربعة، وقفز بعيدًا قفزة هائلة كالضفدع. وقبل أن يتمكن سام من الوصول إليه، انطلق راكضًا بسرعة مذهلة عائدًا باتجاه النفق.

وذهب سام وراءه وسيفه في يده. لقد نسي في تلك اللحظة كل شيء آخر سوى الغضب المتوهج في رأسه والرغبة في قتل جولام. ولكن قبل أن يتمكن من اللحاق به، كان جولام قد اختفى. وبعد ذلك، حيث كانت الحفرة المظلمة تتمثل أمامه وكانت الرائحة النتنة تخرج منها فتجابهه، كان التفكير في فرودو والوحش مخيمًا على عقله كصفعة من رعد. ودار وانطلق في جموح متهور عبر الطريق، مناديًا ومناديًا باسم سيده. لقد تأخر أكثر مما يجوز بعد فوات الأوان، ولقد نجحت خطة جولام حتى الآن.

الفصل العاشر

خيـــارات السـيد سـامـوايـــز

كان فرودو يرقد ووجهه لأعلى على الأرض وكان الوحش منحنيًا فوقه ، لقد كانت منكبة للغاية على ضحيتها لدرجة أنها لم تنتبه لسام وصراخه، حتى صار قريبًا في المتناول. وبينما كان يندفع رأى أن فرودو مقيّد بالفعل بحبال الشبكة، وقد لُفت حوله من كاحله إلى كتفه، وكان الوحش بأرجله الأمامية قد بدأ يرفعه نصف رفعة، عند منتصف المسافة ليجر جسده بعيدًا.

وعلى الجانب القريب منه كان يرقد، متوهجًا على الأرض، سيفه الجني، حيث كان قد سقط من قبضته ولم تعد له فائدة. لم ينتظر سام ليتساءل ماذا عسى أن يفعله، أو ما إذا كان هو شجاعًا أو مخلصًا أو مفعمًا بالغضب الشديد. قفز إلى الأمام وهو يصرخ، وأمسك بسيف سيده في يده اليسرى. وبعد ذلك هجم. لم يُشهد أي هجوم أكثر شراسة على الإطلاق في عالم الحيوانات البري من ذلك الهجوم، حيث تقفز بعض المخلوقات الصغيرة اليائسة مسلحة بأسنان صغيرة، فقط، على برج من قرن وجلد يقف فوق رفيقها الذي سقط على الأرض.

ولما أن أصابها الإزعاج كما لو أنها خرجت من حلم تأملي من صرخته الصغيرة، حولت في بطء حقد نظرتها المخيف إليه. ولكن قبل أن تدرك تقريبًا أنَّ غضبًا وحنقًا يحلان بها أكبر من أي غضب وحنق عرفتهما خلال سنين لا حصر لها، ضربها السيف الساطع فوق قدمها وقصـ مخلبها ورمى به بعيدًا. وقفز سام نحو الداخل، إلى داخل أقواس أرجلها، وبطعنه سريعة من يده الأخرى طعن الأعين الكثيرة المتجمعة فوق رأسها المحني، وأظلمت عين عظيمة.

والآن، كان المخلوق التعيس تحتها مباشرة، وصار إذ ذاك بعيدًا عن لدغها وعن مخالبها. وكان بطنها الكبير فوقه بضوئه الفاسد العفن، تكاد رائحتها النتنة تطرحه أرضًا. لا يزال حنقه وغضبه يسيطران عليه لتوجيه ضربة أخرى، وقبل أن تتمكن من الغوص فوقه، وتكبحه هو وكل ما لديه من شجاعة صغيرة وقحة، وجه إليها بكل قوة ضربة بالسيف الجني اللامع بقوة متهورة دافعها اليأس.

ولكن شيلوب لم تكن مثل التنانين، لم تكن بها أي بقعة تفوق عينيها رخاوة. كان جلدها العجوز قدر الزمان مليئًا بالعقد ومنقرًا بالفساد، لكنه كان ثخينًا دومًا من الداخل بطبقة فوق طبقة من الأجزاء النامية الشريرة. وقد شقها نصل السيف محدثًا جرحًا بالغًا مخيفًا، بيد أن تلك الطبقات المخيفة الشريرة لم يكن لأي قوة بشرية أن

تخترقها، ولا يمكن ذلك على الرغم من كون صانع النصل جنيًا أو قزمًا أو أن تكون يد بيرين أو تورين هي التي تستخدمه. واستسلمت للضربة القوية، وبعد ذلك كومت بطنها الهائل الضخم فوق رأس سام. وطفح السم وراح يبقبق من الجرح. والآن وهي باسطة سيقانها دفعت كتلتها الضخمة فوقه مرة أخرى. وعلى نحو أعجل من اللازم. إذ كان سام لا يزال واقفًا على قدميه، وكاد يسقط سيفه، وبكلتا يديه أمسك سن السيف الجني لأعلى، دافعًا ذلك السقف الضخم المروع عن نفسه؛ وهكذا فإن شيلوب، بقوة دفع إرادتها الشريرة نفسها، بحيث تفوق قوة يد أي محارب، دفعت وغرزت نفسها فوق نصل بتار موجع. وراح النصل يثقب عميقًا وعميقًا بينما كان سام ينسحق ببطء إلى الأرض.

لم تعرف شيلوب على الإطلاق عذابًا مثل ذلك العذاب، أو حلمت بأن تعرف مثله، في كل عالمها الفسيح بالشر والأذى. لم يحتملها حتى أي جندي صنديد من أشجع جنود جوندور الأقدمين، ولا أكثر الأوركيين همجية وشراسة سقط في شركها، فوضع نصلًا على لحمها الأثير. سرت في كل جسمها رعشة. وتكومت مرة أخرى، تتلوى بعيدًا وتتوجع من الألم، وثنت أطرافها الملتوية تحتها وقفزت إلى الوراء في قفزة تشنجية.

سقط سام على ركبتيه فوق رأس فرودو، وحواسه تلفها الرائحة النتنة الفاسدة، وكلتا يديه لاتزالان قابضتين على مقبض السيف. وعبر الضباب الذي كان يتراكم أمام عينيه كان يميز وجه فرودو بالكاد، وناضل بكل عناد حتى يسيطر على نفسه ويجر نفسه ليخرج بها من ذلك الإغماء الذي كان يسيطر عليه. وفي بطء رفع رأسه ورآها، على بعد خطوات قليلة فقط منه، تنظر إليه، ومنقارها يقطر لعابًا من سم، وتتقاطر من أسفل عينها المجروحة إفرازات خضراءً لزجة. وهناك تكومت وجثمت على الأرض، وتمدد بطنها المرتعش وانبسط على الأرض، كانت أوتار سيقانها العظيمة ترتعش، وهي تستجمع قواها لتقفز قفزة أخرى هذه المرة لتقتل سحقًا ولدغًا.. لم تكن لها لسعة صغيرة من سم تُبث في وجبتها المناضلة من اللحم هذه المرة فتذبحها وتمزقها بعد ذلك.

وبينما كان سام نفسه يجثم على الأرض، ينظر إليها، ويرى موته في عينيها عنت له فكرة، كما لو أن صوتًا بعيدًا نائيًا كان يتحدث، وفتش في صدره بيده اليسرى، ووجد ما كان يبحث عنه؛ لقد بدت قنينة جَلَدْرِيل باردة، صلبة وجامدة وهو يلمسها في عالم شبحي من الرعب والفزع.

«جَلَدْرِيل!» قال ذلك في صوت خافت، ثم سمع أصواتًا بعيدة للغاية بيد أنها كانت واضحة؛ صياح الجن وهم يمشون تحت النجوم في الظلال الحبيبة في المقاطعة، وموسيقى الجن وهي تأتي عبر نومه في قاعة النار في منزل إلروند.

جيلثونيل إيه إلبرث!

Gilthoniel A Elbereth!

وبعد ذلك انفك لسانه وصاح صوته بلغة لم يكن يعرفها:

A Elbereth Gilthoniel
o menel palan-diriel,
le nallon sí di'nguruthos!
A tiro nin, Fanuilos!

وبهذه الكلمات ترنح ووقف على قدميه وكان ساموايز الهوبيتي، ابن هامفاست، مرة أخرى.

وصاح قائلًا: «والآن تعالي، أيتها القذرة! لقد آذيت سيدي، أيتها المتوحشة، وسوف تدفعين ثمن ذلك. سوف نستمر؛ ولكن سوف نسوي أمرنا معك أولًا. هيا، فذوقيه مرة أخرى!».

وكما لو أن روحه التي لا تقهر أطلقت قدرتها وحركتها، توهج الكأس مرة أخرى فجأة كمشعل أبيض في يده. وأضاءت كنجم يهوي من السماء ويجعلُ الأثير المظلم يذبل بضوءٍ لا يمكن احتماله. لم يحدث على الإطلاق من قبل أن اشتعل مثل ذلك الرعب من السماء في وجه شيلوب. لقد دخلت أشعتها إلى رأسها المجروح وشقتها مع ألم لا يمكن احتماله، وانتشرت عدوى الضوء المخيفة من عين إلى عين. وتراجعت للوراء وهي تضرب الهواء بسوقها الأمامية، وقد دمر بصرها برق داخلي، وإن عقلها ليعاني ألمًا مبرحًا. وبعد ذلك وهي تدير رأسها المشوه الذي أصابه العجز بعيدًا، تدحرجت على جانبها وبدأت تزحف، مخلبًا مخلبًا، باتجاه الفتحة الموجودة في الجرف المظلم في الخلف.

وواصل سام تقدمه. كان يترنح في سيره مثل رجل ثمل، ولكنه واصل سيره وتقدمه. وأخيرًا خارت شيلوب، وأحجمت في انهزام، وراحت ترتعش وتهتز وهي تحاول أن تسرع مبتعدة عنه. ووصلت الفتحة وحشرت نفسها عبرها مخلفة أثرًا من وحل أخضر مصفر وراءها، وانسلت نحو الداخل، بينما كان سام يسدد ضربة أخيرة يصيب بها سيقانها التي كانت تجرها. وبعد ذلك سقط على الأرض.

اختفت شيلوب؛ فإن تكن رقدت طويلًا في وكرها، ترعى حقدها وبؤسها، وفي سنوات بطيئة من الظلمة شفت نفسها من الداخل، معيدة بناء أعينها المتجمعة، حتى

غزلت بجوع يقارِب الموت مرة أخرى حبائلها المخيفة في وديان جبال الظل الصغيرة، فذلك ما لم تنبئ عنه هذه الحكاية.

وتُرك سام وحده. وفي إرهاق وإعياء، بينما كان مساء الأرض المجهولة يحل بساحة المعركة، راح يزحف عائدًا إلى سيده.

«سيدي، سيدي العزيز!» هكذا راح ينادي عليه، ولكن فرودو لم يتكلم، إذ جاءت شيلوب عندما جرى للأمام، متلهفًا، فرحًا لتحرره، بسرعة مخيفة من ورائه وبضربة واحدة خاطفة لدغته في رقبته. وهو يرقد الآن شاحبًا، لم يكن يسمع أي صوت، ولم يتحرك.

وناداه سام: «سيدي، سيدي العزيز!»، وعبر صمت طويل راح ينتظر، وينصت دون جدوى.

عندئذ وسريعًا قدر استطاعته قطع الخيوط التي كانت تقيده ووضع رأسه على صدر فرودو وعلى فمه، ولكن لم يتبين أي حركة تدل على الحياة، ولم يشعر بأقل خفقان لقلبه. وراح يفرك يدي سيده وقدميه، ويجس جبهته كثيرًا، إلا أنها جميعًا كانت باردةً.

وراح ينادي: «فرودو، سيد فرودو! لا تتركني هنا وحدي! إنه خادمك سام ينادي عليك. لا تذهب إلى حيث لا يمكنني أن أتبعك! استيقظ يا سيد فرودو! استيقظ، يا فرودو، يا عزيزي، يا عزيزي. استيقظ!».

عندئذ غمره الغضب، وراح يجري حول جسد سيده في حنق، طاعنًا الهواء، وضاربًا الصخور، ومطلقًا كلمات التحدي في صراخ. وفي الحال عاد مرة أُخرى، وانحنى ينظر إلى وجه فرودو، وكان شاحبًا أسفل منه في الظلمة. وفجأة رأى أنه كان في الصورة التي كشفت له في مرآة جلَدْرِيل في لورين؛ فرودو بوجه شاحب يرقد نائمًا نومًا عميقًا تحت جرف هائل مظلم. أو ظن عندها أنه نائم نومًا عميقًا، وقال: «إنه ميت! ليس نائمًا، ميت!» وبينما كان يقول ذلك، كما لو أن الكلمات قد جعلت السم يعمل مرة أخرى، بدا له أن لون الوجه أصبح أخضر شاحبًا.

وعندئذ أطبق على سام يأس أسود، وانحنى على الأرض، وشـد غطاء رأسه الرمادي على رأسه، ووصل الليل إلى منتصفه، ولم يعرف أي شيء أكثر من ذلك.

وعندما انجابت الظلمة أخيرًا، نظر سام لأعلى، وكانت الظلال تحيط به من حوله؛ ولكن لكم من الدقائق أو الساعات جرى العالم في ملل؟ ذلك ما لم يكن بإمكانه أن يعرفه. كان لا يزال في نفس المكان، ولا يزال سيده راقدًا إلى جواره ميتًا. لم تندك الجبال، ولم تخسف الأرض وتتحول إلى أطلال.

وراح يقول: «ما الذي سأفعله، ما الذي سأفعله؟ هل قطعتُ كل هذا الطريق وهذه المسافة معه من أجل لا شيء؟». وعندئذ تذكر صوته هو نفسه يتحدث بكلمات، لم يستطع أن يفهمها هو نفسه في ذلك الوقت، في بداية رحلتهم؛ ثمة شيء يجب أن أفعله قبل النهاية. يجب عليَّ أن أعالج الأمر حتى النهاية، يا سيدي، إن كنت تعي ما أرمي إليه.

«ولكن ما الذي يمكنني أن أفعله؟ لا أترك السيد فرودو ميتًا غير مدفون على قمة الجبال، وأعود إلى دياري، أم أواصل سيري؟ أواصل سيري؟». وكرر عباراته، وللحظة هزه الشك والخوف. «أواصل سيري؟ هل هذا ما يتحتم عليَّ أن أفعله؟ وأتركه؟».

عندئذ أخيرًا راح يبكي؛ وذهب إلى فرودو وسوى جسده، وطوى يديه الباردتين ووضعهما على صدره، ولف معطفه حوله؛ ووضع سيفه هو إلى أحد جانبيه، ووضع الهراوة التي كان فارامير قد أعطاها له على الجانب الآخر.

وقال: «لو كان محتمًا عليَّ أن أواصل المسير، ينبغي عندئذ أن آخذ سيفك، بعد إذنك يا سيد فرودو، ولكني سوف أضع هذا ليرقد إلى جوارك، كما كان يرقد إلى جوار الملك العجوز في التلة الجنائزية؛ وإن معك لمعطفك الجميل المصنوع من الميثريل، الذي منحك إياه السيد بيلبو. وكذلك فإن كأس النجم الخاص بك، يا سيد فرودو، والذي أعرته لي سوف أحتاج إليه؛ لأنني سأكون في ظلمة دائمًا الآن. إنه أجود من أن يكون لي، كما أن السيدة أعطته لك أنت، ولكن لعلها ستتفهم الأمر. هل تفهمني، يا سيد فرودو؟ عليَّ أن أكمل المسيرة».

ولكنه لم يستطع أن يمضي، لم يحن الوقت لذلك. وركع وأمسك بيد فرودو ولم يستطع أن يتركها. ومر الوقت وهو لا يزال راكعًا، ممسكًا بيد سيده، وفي قلبه يحتدم حوار.

والآن، حاول أن يجد القوة لينتزع نفسه بعيدًا ويواصل المسيرة في رحلة وحيدة للانتقام. فلو أنه أمكنه أن يمضي، لحمله غضبه عبر جميع طرقات العالم، في مطاردة، حتى يمسك بجولام في النهاية. عندئذ سوف يموت جولام في أحد الأركان. ولكن لم يكن هذا هو ما خرج في رحلته من أجله. ليس من شأن ذلك أن يترك سيده من أجله. إن ذلك لن يرجعه. ليس هناك أي شيء سوف يرجعه. من الأفضل أن يموتا معًا. كما أن تلك سوف تكون رحلة مفردة.

ونظر إلى طرف السيف اللامع. فكر في الأماكن التي خلفها وراءه حيث كانت هناك حافة سوداء وسقوط أجوف في العدم. لم يكن هناك أي مهرب بهذه الطريقة، ومما يعني ألا يمكنه فعل أي شيء، حتى الحزن. لم يكن هذا ما خرج في رحلته من أجله، وصاح مرة أخرى: «ما الذي عليَّ أن أفعله إذن؟». وكان يبدو بوضوح الآن أنه يعرف الإجابة الصعبة، أن يعالج الأمر حتى النهاية. رحلة وحيدة أخرى؛ هي أسوأ الرحلات.

«ماذا؟ أناْ وحدي، أذهب إلى هوة الهلاك فوق ذلك كله؟». وتملَّكه الجبن مع ذلك، بيد أن التصميم نما داخله. «ماذا؟ أنا آخذ الخاتم منه؟ لقد وهبه المجلس إياه».

ولكن الإجابة جاءته في الحال: «والمجلس أعطاه رفاقًا، حتى لا تخفق المهمة. وأنت آخر واحد في الصحبة كلها. يجب ألا تخفق المهمة».

وقام في ألم وتأوه: «أتمنى لو أنني لا أكون الأخير. أتمنى لو كان جَنْدَلف العجوز هنا، أو أي شخص آخر. لماذا تُركت أنا وحدي لأتخذ القرار؟ إنني واثق من أنني سأخطئ. ولستُ أنا بالذي يأخذ الخاتم، ويرشح نفسه لهذه المهمة».

«ولكنك لم ترشح نفسك لهذه المهمة؛ لقد رُشحت لها. أما كونك لست بالشخص الصحيح والمناسب، فلمَ لمْ يكن السيد فرودو كذلك، إذا جاز لك القول، كما لم يكن السيد بيلبو؟ إنهما لم يتخيرا أنفسهما».

«حسنًا، ينبغي عليَّ أن أتخذ قراري بنفسي. سوف أتخذ قراري. ولكني واثق أنني سأخطئ، سوف يكون هذا هو سام جامجي في جميع الوجوه».

«هيا أتدبر الأمر الآن؛ لو أننا وُجدنا هنا، أو لو أن السيد فرودو وُجد هنا، وذلك الشيء معه، حسنًا، سوف يأخذه العدو. وهذه نهايتنا جميعًا، نهاية لورين، و رِيفنْديل، والمقاطعة فوق ذلك كله. وليس هناك وقت لأضيعه، وإلا فإنها ستكون النهاية على أية حال. لقد بدأت الحرب، والأقرب احتمالًا أن الأشياء تسير جميعها على طريقة العدو بالفعل. ليست هناك فرصة للرجوع به[1] والحصول على مشورة أو تصريح. كلا، إنه الجلوس هنا حتى يأتوا ويقتلوني فوق جسد سيدي، ويأخذوه؛ أو آخذه وأمضي». وتنفس نفسًا عميقًا. «عندئذ آخذه، هذا هو القرار!».

وانحنى، وفي رفق شديد فك المشبك الذي كان في رقبة فرودو وأدخل يده داخل سترة فرودو؛ عندئذ بيده الأخرى وقد رفع الرأس، قبل الجبين البارد، وفي رفق سحب السلسلة من فوقه، ثم أعاد الرأس في هدوء إلى الوراء ليستريح مرة أخرى. لم يطرأ أي تغيير على الوجه الساكن، وقد اقتنع سام بذلك أكثر من اقتناعه بأي علامات أخرى؛ أخيرًا مات فرودو وتخلى عن المهمة.

وغمغم قائلًا: «الوداع يا سيدي، يا عزيزي! اغفر لخادمك سام. سوف يعود إلى هذه المنطقة عندما تنتهي المهمة لو أنه نجح في إنجازها. وعندئذ لن يتركك مرة أخرى. استرح في سكينة حتى أعود؛ وإنني لأدعو ألا يقترب أي مخلوق شرير منك! وإذا كانت السيدة تسمعني وتحقق لي أمنية واحدة، فإنني أتمنى أن أعود وأجدك مرة أخرى. الوداع!».

(1) الضمير في كلمة (به) يعود إلى الخاتم. (المترجم).

وبعد ذلك حنى رقبته ووضع السلسلة حولها، وفي الحال انحنى رأسه ليصل إلى الأرض تحت ثقل الخاتم، كما لو أن حجرًا كبيرًا قد تعلق به. ولكن في بطء، كما لو أن الثقل قد أصبح أقل، أو كما لو أن قوة جديدة قد تكونت فيه، رفع رأسه، وبعد ذلك وبجهد كبير نهض على قدميه ووجد أنه يستطيع أن يمشي وأن يحمل حمله. وللحظة رفع القنينة ونظر أسفل إلى سيده، وراح الضوء يشتعل برفق ولطف الآن مع الإشعاع الرقيق لنجمة المساء في الصيف، وفي ذلك الضوء عاد وجه فرودو ليصبح جميلًا مرة أخرى وملونًا، كان شاحبًا إلا أنه كان جميلًا به جمال جني، كما لو كان جمال شخص قد عبر الظلال منذ زمن طويل. ومع ما منحته إياه من راحة مرة تلك النظرة الأخيرة، استدار سام وأخفى الضوء وراح يتخبط في سيره إلى الظلمة المتزايدة.

لم تكن أمامه مسافة كبيرة ليقطعها. كان النفق على بعد مسافة قصيرة وراءه؛ كان الشق على بعد مائتي ياردة أو أقل إلى الإمام. كان الممر منظورًا في ظلمة الغسق، طريق عميق أبلته عصور من المرور فيه، يسير الآن في رفق صاعدًا في غور طويل تحيط به الجرف من كلا الجانبين. راح الغور يصبح أكثر ضيقًا بسرعة. وسريعًا وصل سام إلى مجموعة طويلة من درجات سلم عريضة ضحلة. والآن كان برج الأوركيين فوقه مباشرة، يحدق في سواد وتجهم، وكانت العين الحمراء تتوهج فيه. والآن صار سام مختفيًا تحته في الظل المظلم. كان في طريقه إلى قمة درجات السلم ووصل أخيرًا إلى الشق.

«لقد اتخذتُ قراري» ظل يقول ذلك لنفسه. ولكنه لم يكن قد اتخذ قراره. على الرغم من أنه بذل قصارى جهده ليحسم الأمر، ما كان يفعله كان ضد طبيعته تمامًا. وغمغم قائلًا: «هل اتخذتُ القرار الخطأ؟ ماذا كان ينبغي عليَّ أن أفعله؟».

وبينما كانت الجوانب المنحدرة للشق تطبق عليه من حوله، قبل أن يصل إلى القمة الفعلية، قبل أن ينظر أخيرًا إلى الطريق الذي يهبط إلى الأرض المجهولة، استدار. وللحظة، ساكنًا دون حركة في شك لا يُطاق، نظر إلى الوراء. كان لا يزال بإمكانه أن يرى، مثل بقعة صغيرة في الظلمة المتكاثرة، فم النفق؛ وظن أنه يرى أو يخمن المكان الذي كان يرقد فرودو فيه. وتخيل أنه كان هناك وهج على الأرض أسفل منه هناك، أو ربما كان ذلك تخييلًا من دموعه، وهو يحدث في ذلك المكان الصخري العالي حيث تداعت كل حياته وأصبحت أطلالًا.

وتنهد قائلًا: «لو أنني أستطيع أن أحصل على أمنيتي، أمنيتي الوحيدة أن أعود وأجده!» وأخيرًا عندئذ استدار إلى الطريق الذي كان أمامه وخطا خطوات قليلة؛ أثقل خطوات وأكثرها كراهة لنفسها سبق أن خطاها على الإطلاق.

خطوات قليلة فقطْ؛ والآن خطوات قليلة أخرى فقط وسوف يكون في طريقه للهبوط ولن يرى ذلك المكان العالي مرة أخرى أبدًا. وعندئذ وفجأة سمع صرخات وأصواتًا. ووقف ساكنًا مثل الحجر. أصوات أوركيين. كانوا وراءه وأمامه. صوت أقدام ثقيلة وصرخات حادة؛ كان الأوركيون قادمين عبر الشق من الجانب البعيد، من مدخل ما إلى البرج، ربما. أقدام ثقيلة وصرخات وراءه. واستدار. ورأى أضواء حمراء صغيرة، ومشاعل، تومض هنالك بعيدًا في الأسفل وهم ينطلقون من النفق. أخيرًا انتهت المطاردة. لم تكن عين البرج الحمراء عمياء. لقد تم الإمساك به.

والآن صار وميض المشاعل المقتربة وصليل الحديد أمامه قريبًا جدًا. في غضون دقيقة سيصلون إلى القمة وسوف يمسكون به. لقد استغرق وقتًا طويلًا أكثر من اللازم في اتخاذ قراره، والآن لم تكن هناك من فائدة أو جدوى. كيف يمكنه الهروب والنجاة، أو إنقاذ نفسه، أو إنقاذ الخاتم؟ الخاتم. لم يكن مدركًا لأي تفكير أو قرار. بكل بساطة وجد نفسه يُخرج السلسلة ويأخذ الخاتم في يده. وظهر رئيس مجموعة الأوركيين في الشق أمامه. ثم لبس الخاتم.

تغير العالم، وامتلأت لحظة واحدة من الزمن بساعات من الفكر. في الحال بات يدرك أن حاسة السمع قد صارت أكثر حدة بينما أصبحت حاسة الإبصار كليلة، ولكن ذلك على خلاف وكر شيلوب. جميع الأشياء من حوله الآن لم تكن مظلمة بل مبهمة غير واضحة؛ في حين أنه هو نفسه كان هناك في عالم ضبابي مظلم، وحده، مثل حجر أصم أسود صغير، والخاتم، يهبط ثقيلًا على يده اليسرى، كان مثل دائرة من ذهب ساخن. لم يكن يشعر أنه غير مرئي على الإطلاق، بل كان يشعر أنه مرئي بشكل مروع وفريد؛ وقد عرف أن عينًا كانت تبحث عنه في مكان ما.

سمع تشقق الصخور، وخرير الماء بعيدًا في وادي مورجول؛ وبعيدًا في الأسفل تحت الصخور تعاسة شيلوب المتفجرة، وهي تتلمس طريقها، ضائعة تائهة في ممر مظلم مسدود؛ وأصوات في زنازين البرج؛ وصرخات الأوركيين وهم يخرجون من النفق؛ وصمم وهدير في أذنيه، اصطدام وارتطام أقدام والضجيج المدوي للأوركيين أمامه. وانكمش ملتصقًا بالجرف. لكنهم مشوا سائرين مثل جماعة من الأطياف، أشكال رمادية كئيبة مشوهة في سديم، فقط أحلام من خوف ومعهم مشاعل شاحبة في أيديهم. ومروا به. وانكمش مرتعدًا، محاولًا الزحف بعيدًا إلى زاوية مظلمة وليختبئ.

وراح ينصت. لقد رأى الأوركيين الخارجين من النفق والآخرين الذين يسيرون هابطين بعضهم لبعضٍ، وكان كلا الفريقين الآن يسرع ويصرخ. وكان يسمع كلا الطرفين بوضوح، وكان يفهم ما يقولون. ربما يكون الخاتم قد منحه فهم الألسن، أو

الفهم بكل بساطة، وخاصة فهم خدام ساورون صانعه، وهكذا فإنه إذا انتبه، فإنه كان يفهم ويترجم التفكير لنفسه. بكل تأكيد زادت قوة الخاتم بشكل كبير وهو يقترب من الأماكن التي صُنع فيها؛ ولكنْ هناك شيء واحد لم يمحه الخاتم، وكان ذلك هو الشجاعة. في الوقت الحالي، لم يكن سام يفكر إلا في الاختباء، وفي الرقود في وضع منخفض حتى يصبح كل شيء هادئًا مرة أخرى؛ وراح ينصت في قلق. لم يكن يستطيع أن يحدد مدى قرب الأصوات، كانت الكلمات تبدو وكأنها في أذنيه تقريبًا.

«يا جورباج! ماذا تفعل هنا؟ هل كان لديك ما يكفي من حرب بالفعل؟».

«الأوامر، أيها الضخم. وماذا تفعل أنت يا شاجرات؟ سئمت الاختباء هنالك؟ تفكر في النزال لتحارب؟».

الأوامر لك. إنني المسئول عن هذا الممر. ولذلك تكلم بأدب ولطف. ماذا عندك؟».

«لا شيء».

«هاي! هاي! يوي!» جاءت صرخة خلال الحوار الذي كان يتبادله القادة. لقد رأى الأوركيون الذين كانوا في الأسفل فجأة شيئًا ما. وبدءوا يجرون. وكذلك فعل الآخرون.

«هاي! أنت! يوجد شيء ما هنا! يرقد في الطريق. جاسوس، جاسوس!» وكان هناك صياح لأبواق مزمجرة مدمدمة وجلبة أصوات تعوي وتنبح.

وبضربة مخيفة استيقظ سام من مزاجه الذي كان يسيطر عليه الجبن وهو منكمش في مكانه. لقد رأوا سيده. ما الذي سيفعلونه؟ لقد سمعت حكايات عن الأوركيين تجعل الدم يتجمد في العروق. لا يمكن احتمالها. وقفز على رجليه. وألقى بالمهمة وكل قراراته بعيدًا، ومعها الخوف والشك. عرف الآن أين كان مكانه الآن ومن قبل إلى جانب سيده، على الرغم من أن ما كان يمكن أن يفعله هناك لم يكن واضحًا. وجرى عائدًا يهبط الدرجات، هابطًا عبر الطريق باتجاه فرودو.

وفكر مع نفسه: «كم يكون عددهم هناك؟ ثلاثون أو أربعون من البرج على الأقل، وأكثر منهم بكثير من أسفل، حسب ظني. كم عدد الذين يمكنني أن أقتلهم قبل أن ينالوا مني ويقتلونني؟ سوف يروا لهب السيف، بمجرد أن أستله، وسوف يقتلونني عاجلًا أو آجلًا. وإنني لأتساءل وأتمنى أن أعرف إن كانت هناك أي أغنية سوف تذكر ذلك؛ كيف سقط ساموايز في الممر العالي وصنع جدارًا من الجثث حول سيده. لا، لن تكون هناك أي أغانٍ. بالطبع لا؛ لأنه سيتم العثور على الخاتم ولن تكون هناك أي أغانٍ أخرى. لا يمكنني أن أمنع نفسي. إن مكاني إلى جوار السيد فرودو. يجب عليهم أن يفهموا ذلك

إلروند والمجلس، والسادة والسيدات العظام بكل ما لديهم من حكمة. لقد سارت خططهم في الطريق الخطأ. لا يمكنني أن أكون حامل الخاتم. ليس بدون السيد فرودو».

•

ولكن الأوركيين أصبحوا خارج نطاق رؤيته الغائمة. لم يكن لديه وقت لأن ينظر في نفسه، ولكنه الآن أدرك أنه كان مرهقًا، مرهقًا إلى حد الإعياء تقريبًا؛ فلم تكن ساقاه ستحملانه مثلما كان يرغب. كان بطيئًا للغاية. بدا الطريق وكأن طوله أميال. أين ذهبوا جميعًا في ذلك السديم؟

هاهم أولاء مرة أخرى! لا تزال هناك مسافة كبيرة أمامه. مجموعة من أشكال حول شيء ما يرقد على الأرض؛ بدا عدد قليل منهم يتدافعون هنا وهناك، منحنين في تدافعهم مثل كلاب تقتفي أثرًا. حاول أن يستجمع كل ما لديه من قوة.

وراح يقول: «هيا يا سام! وإلا سيفوت الأوان مرة أخرى». وفك السيف في غمده. وفي دقيقة كان سيستله وعندئذ كانت هناك جلبة صاخبة هائلة، صياح صاخب مستهزئ وضحك، وكأن شيئًا ما قد رُفع من على الأرض. «يا هوي! يا هاري هوي! ارفع ارفع!».

بعد ذلك صاح صوت: «والآن انطلقوا! الطريق السريع. العودة إلى البوابة السفلى! إنها[1] لن تزعجنا هذه الليلة حسبما تدل عليه كل الأمارات». وبدأت مجموعة أشكال الأوركيين بكاملها تتحرك. كان هناك أربعة في المنتصف يحملون جسدًا عاليًا على أكتافهم. «يا هوي!».

لقد أخذوا جسد فرودو. وانطلقوا. لم يستطع أن يلحق بهم. وظل يناضل. وصل الأوركيون إلى النفق وكانوا يمرون عبره. ذهب أولئك الذين كانوا يحملون الحمل أولًا، وكان هناك وراءهم قدر كبير من النضال والتصادم والاحتكاك. ووصل سام. واستل سيفه، وكانت هناك ومضة من لون أزرق في يده المرتعشة، ولكنهم لم يروها. وبينما كان يصل إليهم وهو يلهث، فإن آخر واحد منهم تلاشى في الحفرة المظلمة السوداء.

ووقف للحظة، يلهث، ممسكًا بصدره. بعدئذ مر بكمه عبر وجهه، يمسح ما تراكم عليه من سخام وعرق ودموع، وراح يقول: «اللعنة على القاذورات!»، وقفز وراءهم إلى الظلمة.

لم تعد الدنيا تبدو مظلمة جدًا بالنسبة له في النفق، بل لقد بدا كما لو أنه قد قفز خارجًا

(1) الضمير هنا يعود إلى شيلوب (المترجم)

من سديم رقيق إلى ضباب أشد ثقلًا ووطأة. كان تعبه يتزايد ولكن إرادته كانت تشتد أكثر وأكثر. ظن أنه يستطيع أن يرى ضوء المشاعل أمامه بمسافة قصيرة، ولكنه حاول قدر استطاعته، بيد أنه لم يستطع اللحاق بهم. الأوركيون يتحركون سريعًا في الأنفاق، وكانوا يعرفون هذا النفق جيدًا؛ لأنه على الرغم من وجود شيلوب فإنهم كانوا مرغمين على استخدامه كثيرًا حيث إنه كان أسرع طريق من المدينة الميتة فوق الجبال. ولم يكونوا يعرفون في أي زمن سحيق تم حفر وبناء ذلك النفق الرئيسي وتلك الحفرة الدائرية الهائلة، حيث اتخذت شيلوب مأوى لها على مدار عصور مضت؛ بيد أنهم حفروا طرقًا فرعية كثيرة حوله على كلا الجانبين، حتى يهربوا من الوكر في تحركاتهم جيئة وذهابًا وهم يقومون بإنجاز أعمال ساداتهم. لم يكونوا ينوون الليلة الذهاب بعيدًا إلى أسفل عبر النفق، ولكنهم كانوا يسرعون للعثور على ممر جانبي كان يقود في طريق العودة إلى برج المراقبة الخاص بهم على الجرف. كان معظمهم مرحًا وفرحًا، مسرورين مبتهجين بما وجدوه ورأوه، وبينما كانوا يجرون كانوا يهذرون ويثرثرون على طريقة نوعهم. سمع سام ضوضاء أصواتهم الخشنة، كانت فاترة وشاقة في الهواء الساكن، وقد استطاع أن يميز صوتين من بين جميع الأصوات الباقية؛ كان الصوتان أعلى، وأقرب إليه. كان يبدو أن قائدي الفريقين كانا في آخر الصفوف وكانا يتجاذبان أطراف الحديث وهم يسيرون.

قال أحدهما في صوت متذمر: «ألا يمكنك أن تمنع جماعتك من إحداث تلك الجلبة واللغط، يا شاجرات؟ إننا لا نريد أن تدهمنا شيلوب وتمسك بنا».

فقال الآخر: «لتستمر يا جورباج! إن جماعتك تحدث أكثر من نصف تلك الجلبة واللغط. ولكن دعهم يلعبوا! ليس هناك داع للقلق بشأن شيلوب لقليل من الوقت، حسب اعتقادي. إنها نائمة في وكرها، فيما يبدو، ولن نصرخ بشأن ذلك. ألم تر فوضى قذرة طوال طريق العودة إلى ذلك الشق الملعون الخاص بها؟ لو أننا قد أوقفنا ذلك مرة واحدة، فإننا قد أوقفناه مئات المرات. ولذلك دعهم يضحكوا. وقد حالفنا بعض الحظ أخيرًا؛ فقد حصلنا على شيء يريده لُجبورز».

«لُجبورز يريده، نعم؟ ما هو ذلك، في رأيك؟ كان يبدو لي جِنيًا، ولكن حجمه أقل من حجم الجن. أي خطر في شيء كهذا؟».

«لا أدري حتى نلقي نظرة».

«أوهو! إذن لم يخبروك ما الذي تتوقعه؟ إنهم لم يخبرونا بكل ما يعرفونه، أليس كذلك؟ ليس حتى بمقدار النصف. ولكن يمكن أن يخطئوا، حتى الأكابر يمكن أن يخطئوا».

«شش، يا جورباج!» وانخفض صوت شاجرات، ولذلك فإن سام حتى بحاسة

سمعه التي أصبحَت حادة بشكل غريب، فإنه لم يستطع أن يسمع ما يقولون إلا قليلًا وبصعوبة. «ربما، ولكنْ لهم أعين وآذان في كل مكان؛ وبعضهم بين جماعتي من المحتمل. ولكن ليس هناك أي شيء في ذلك، إنهم قلقون بشأن شيء ما. إن أطياف الخاتم (النازجول) أسفل منا قلقون، حسب روايتك؛ كما أن لَجْبُورز قلق أيضًا. هناك شيء ما فات تقريبًا».

فقال جورباج: «تقول تقريبًا!».

ورد شاجرات: «حسنًا، ولكننا سنتحدث عن ذلك في وقت لاحق. انتظر حتى نصل إلى الطريق السفلي. ثمة مكان هناك يمكننا أن نتحدث فيه قليلًا، بينما يواصل أفراد المجموعتين سيرهم».

بعد ذلك بوقت قصير رأى سام المشاعل تختفي. عندئذ كانت هناك ضوضاء صاخبة وجلبة، وبينما كان يجري في الحال، سمع صوت ارتطام. وبقدر ما يمكنه أن يخمن فإن الأوركيين قد داروا وذهبوا في نفس الفتحة التي حاول هو وفرودو المرور منها ووجداها مسدودة. كانت لا تزال مسدودة.

كان يبدو أن هناك صخرة عظيمة تسد الطريق، ولكن الأوركيين استطاعوا المرور خلالها بحال من الأحوال؛ إذ إنه سمع أصواتهم على الجانب الآخر. كانوا لايزالون يجرون عبر الطريق، ويصبحون أكثر عمقًا وأكثر نحو الجبال، عائدين باتجاه البرج. أحس سام باليأس. كانوا يحملون جسد سيده لغرض كريه ما ولم يستطع أن يتبعهم. وراح يدفع الكتلة بقوة، وألقى بنفسه عليها، ولكنها لم تلن تحته. وبعد ذلك وعلى مسافة غير بعيدة نحو الداخل، أو هكذا ظن هو، سمع صوت القائدين يتحدثان مرة أخرى. ووقف ساكنًا يتصنت لبعض الوقت أملًا في احتمال أن يعلم شيئًا مفيدًا. ربما سيخرج جورباج الذي كان يبدو أنه ينتمي إلى ميناس مورجول، وبعد ذلك يمكنه أن يتسلل نحو الداخل.

وجاءه صوت جورباج يقول: «كلا، إنني لا أدري. إن الرسائل تنتقل سريعًا؛ أسرع من أي شيء يمكنه أن يطير، وهذه قاعدة. ولكني لا أتساءل عن الطريقة التي تم بها ذلك. من الأكثر أمنًا ألا أتساءل عن ذلك. يـاااه! إن أطياف الخاتم هؤلاء (النازجول) يصيبونني بالرعب والاشمئزاز. كما أنهم يسلخون جسمك عنك بمجرد أن ينظروا إليك، ويتركونك باردًا تمامًا في الظلمة على الجانب الآخر. ولكنه[1] يحبهم؛ إنهم المفضلون لديه هذه الأيام، ولذلك فليس ثمة فائدة من التذمر والضجر. دعني أخبرك هذه، إن الأمر ليس لعبة أن تخدم في المدينة».

(1) ضمير الغائب الفاعل هنا يعود إلى سيد الظلام (ساورون) (المترجم)

فقال له شاجرات: «ينبغي عليك أن تجرب أن تكون هنا مع شيلوب وتكون هي صحبتك الوحيدة. إنني أود في أن أجرب العيش في مكان ما آخر حيث لا يوجد فيه أي منهم. ولكن الحرب بدأت الآن، وعندما ينتهي كل ذلك ربما تكون الأشياء أيسر وأسهل».

«الأمور تسير على ما يرام، هكذا يقولون».

وقال جورباج في تذمر: «سوف يقولون ذلك. سوف نرى. ولكن على أية حال، إذا لم تسر الأمور على ما يرام، فسوف يكون هناك المزيد من الفراغ الكبير. ماذا ستقول؟ إذا أتيحت لنا الفرصة، فإننا سوف ننسل أنا وأنت ونقيم في مكان ما خاص بنا وحدنا مع عدد قليل من الأشخاص الذين نثق فيهم، في مكان ما حيث تكون هناك غنيمة جيدة لطيفة وسهلة، ولا يوجد رؤساء كبار».

فقال له شاجرات: «آه! مثل الأوقات الخوالي».

وقال له جورباج: «نعم. ولكن لا تعول على ذلك. إنني لا أحس بالارتياح في داخلي. وكما قلت، الرؤساء الكبار، نعم» وانخفض صوته حتى كاد يصبح همسا، «نعم، حتى كبار الكبار، يمكن أن يخطئوا. هناك شيء ما كاد يصبح خطأ كما قلت. وإنني أقول إن شيئًا ما قد أصبح خطأ. وينبغي علينا أن نكون على حذر. دائمًا الأوروكيون[1] المساكين هم الذين يقومون تلك الأخطاء، ولا يحصلون إلا على القليل من الشكر. ولكن لا تنس أن الأعداء لا يحبوننا، بحال من الأحوال أكثر من حبهم له[2]، وإذا هم تسلطوا عليهم وصارت لهم الغلبة، فإنه سيكون قد قضي علينا أيضًا. ولكن انظر هنا: متى أمرت بالخروج؟».

«منذ ساعة مضت، قبل أن ترانا مباشرة. جاءت رسالة: النازجول قلقون. هناك جواسيس نخشاهم على السلم. يقظة مضاعفة. دورية حراسة إلى أعلى السلم. أتيتُ في الحال».

فقال جورباج: «أمر سيئ. انظر، هنا حراسنا الصامتون كانوا قلقين منذ أكثر من يومين، ذلك ما أعرفه. ولكن دوريتي لم تؤمر بالخروج ليوم آخر، ولم تُرسل رسالتي إلى لجبورز أيضًا: وذلك بسبب الإشارة العظيمة المتصاعدة، وخروج النازجول الكبار إلى الحرب، وذلك كله. وعندئذ لا يمكنهم جعل لجبورز يعير انتباهه لوقت كبير. هكذا أُخبرتُ».

وقال شاجرات: «لقد كانت العين مشغولة في مكان ما، حسب افتراضي. أشياء كبيرة تتحرك بعيدًا نحو الغرب، هذا ما يقولونه».

(1) Uruks وهم الجنود من الأوركيين (Orcs)، وهم أكبر حجمًا وأكثر قوة. (المترجم)

(2) الضمير في (له) يعود إلى ساورون (المترجم)

وقال جوررباج في تذمر: «هذا ما أظنه. ولكن، في نفس الوقت، قد صعد الأعداء السلم. وما ذلك الذي كنتَ بصدده؟ من المفترض أن تكون في حراسة، أليس كذلك، أوامر خاصة أم لا؟ لماذا أنت هنا؟».

«هذا يكفي! لا تحاول أن تعلمني وظيفتي. لقد كنا مستيقظين طوال الليل. لقد عرفنا أنه كانت هناك أشياء غريبة تدور حولنا».

«غريبة جداً!»

«نعم، غريبة جدًّا: أضواء وصراخ وما شابه ذلك كله. ولكن شيلوب كانت مشغولة للغاية. لقد رآها رجالي هي وشيئها المتسلل».

«شيئها المتسلل؟ ما هذا؟».

«لابد أنك رأيته؛ كائن أسود صغير نحيل؛ هو نفسه مثل العنكبوت، أو ربما يكون أكثر شبهاً بضفدع يعاني الحرمان والجوع الشديد. لقد جاء إلى هنا من قبل. لقد خرج من لَجْبُورز في المرة الأولى، منذ سنوات مضت، ولقد وصلت أخبار من أعلى أن ندعه يمر. لقد صعد السلم مرة أو مرتين منذ ذلك الحين، ولكننا تركناه بمفرده؛ فيبدو أن هناك تفاهماً بينه وبين فخامتها[1]. أظن أنه غير صالح للأكل؛ إنها لن تقلق بشأن كلمات وأخبار تأتي من أعلى. ولكنك تقوم بحراسة جيدة في الوادي. لقد صعد إلى هنا قبل كل ذلك اللغط والصخب بيوم واحد. رأيناه في وقت مبكر من ليلة أمس. على كل حال ذكر رجالي أن فخامتها كانت مستمتعة ومرحة، وبدا ذلك جيدًا بالشكل الكافي بالنسبة لي، إلى أن جاءت الرسالة. ظننتُ أن شيئها المتسلل قد أحضر لها لعبة، أو أنك فيما يحتمل قد أرسلت لها هدية، أسير حرب أو شيئاً من هذا القبيل. إنني لا أتدخل عندما تكون تلعب. لا شيء يفلح مع شيلوب عندما تكون تصطاد».

«تقول لا شيء! ألم تستخدم عينيك في الوراء هناك؟ إنني أخبرك أنني لستُ مستريحاً في الداخل. أيًّا ما كان ذلك الذي صعد السلم، فإنه لم يفلح معها. لقد قطعت شبكتها وخرجت سالمة من الحفرة. هذا شيء جدير بالتفكير فيه!»

«نعم، حسنًا، ولكنها نالت منه في النهاية، أليس كذلك؟».

«نالت منه؟ من الذي نالت منه؟ هذا الشخص الضئيل؟ ولكن إذا كان هو الشخص الوحيد، ففي هذه الحالة فإنها كانت ستحوله إلى مخزن الطعام الخاص بها قبل ذلك بوقت طويل، وكان سيكون هناك الآن. وإذا كان لَجْبُورز يريده، أكان سيتحتم عليك أن تذهب وتأخذه. شيء طيب بالنسبة لك. ولكن كان هناك أكثر من واحد».

عند هذه النقطة بدأ سام ينصت بانتباه ويقظة أكثر ووضع أذنه على الحجر.

---

(1) الإشارة إلى شيلوب (المترجم).

«من الذي قطع الحبال التي وضعتها حوله يا شاجرات؟ نفس الشخص الذي قطع الشبكة. ألم تر ذلك؟ ومن الذي طعن في فخامتها؟ نفس الشخص في اعتقادي. وأين هو؟ أين هو يا شاجرات؟».

ولم يحر شاجرات جوابًا.

«ربما يكون من الأفضل كثيرًا بالنسبة لك أن تضع قبعتك المفكرة على رأسك، إذا كانت لديك واحدة على الإطلاق. إن الأمر ليس لعبة للتسلية والضحك. ليس من أحد، ليس من أحد على الإطلاق طعن شيلوب من قبل، كما ينبغي عليك أن تعرف بشكل كاف للغاية. ليس هناك من إخفاق أو حزن في ذلك؛ ولكن فكر؛ فهناك شخص طليق من حولنا وهو أكثر خطرًا، مثله مثل أي ثوري ملعون آخر حدث وأن مشى على الأرض منذ الأزمان الخالية السيئة، منذ الحصار العظيم. لقد أصبح شيء ما خطأً».

وقال شاجرات في تذمر: «وما هذا الشيء إذن؟».

«من خلال كل الأمارات، أيها القائد شاجرات، يمكنني القول إن هناك محاربًا ضخمًا حرًا طليقًا، جنيا في أكثر الاحتمالات، ومعه سيف جني بأي حال من الأحوال، وبلطة أيضًا فيما يحتمل؛ وهو حر طليق في حدودك أيضًا ولم تعثر عليه ولم تره أبدًا. شيء غريب للغاية حقًا!» وبصق جورباج. وابتسم سام في تجهم على الوصف الذي سمعه عن نفسه.

فقال شاجرات: «نعم، حسنًا، أنت دائمًا ما ترى رؤية كئيبة. يمكنك أن تقرأ الأمارات بالطريقة التي تعجبك، ولكن قد تكون هناك طرق أخرى لتفسيرها. على أية حال، لدي حراس في كل نقطة، وسوف أتعامل مع كل شيء على حدة. عندما أكون قد ألقيتُ نظرة على الشخص الذي أمسكنا به، عندئذ سوف أبدأ في القلق بشأن شيء ما آخر».

وقال جورباج: «قلبي يحدثني أنك لن تجد كثيرًا في ذلك الشخص الصغير. ربما لم يكن لديه شيء يربطه بالشر الحقيقي. الشخص الكبير الذي لديه سيف ماض لا يبدو أنه قد فكر أنه هو نفسه جدير بالكثير على أية حال اتركه راقدًا وحسب: شخص جني عادي».

«سوف نرى. هيا بنا الآن! لقد تحدثنا بما فيه الكفاية. هيا بنا نمضي ونلقي نظرة على الأسير!»

«ما الذي ستفعله به؟ لا تنس أنني رأيته أولًا. لو كانت هناك أي خطة، فلابد أن أكون أنا ورجالي فيها».

وقال شاجرات في تذمر: «الآن، الآن. لديّ أوامري. وأن الأمر أكثر مما يستحقه بطني أو بطنك أن نكسر هذه الأوامر. إن أي متعد يعثر الحراس عليه يتم احتجازه في البرج. يجب أن يتم تجريد الأسير. ويجب أن يتم إرسال وصف كامل لكل ما عليه وما لديه من أدوات أو ملبس أو سلاح أو خطاب أو خاتم أو حلية صغيرة

إلى لَجْبُورز في الحال، وإلى لَجْبُورز فقط. ويجب أن يتم الاحتفاظ بالأسير آمنًا وسليمًا، تحت عقوبة الموت بالنسبة لكل فرد من الحراس، حتى يقوم هو[1] بإرسال رسول أو يأتي بنفسه. هذا واضح وضوحًا كافيًا، وهذا ما سوف أفعله».

وقال جورباج: «يتم تجريده، صحيح؟ من ماذا، الأسنان والأظافر والشعر وكل ما شابه؟».

«لا، ليس شيئًا من ذلك. إنه يخص لَجْبُورز، إنني أقول لك إنهم يريدونه سالمًا وكاملًا لم يصب بأذى».

وضح جورباج وقال: «سوف تجد ذلك صعبًا. إنه ليس شيئًا سوى جيفة الآن. لا أستطيع أن أخمن ما الذي سيفعله لَجْبُورز بهذا الشيء. ربما يذهب أيضًا في القدر».

فقال شاجرات في غضب: «أيها الأحمق. لقد كنت تتحدث ببراعة كبيرة للغاية، ولكن هناك الكثير لا تعرفه، على الرغم من أن الكثيرين غيرك يعرفونه. إنك ستذهب إلى القدر أو إلى شيلوب، لو لم تتوخ الحذر. جيفة! هل هذا كل ما تعرفه عن فخامتها؟ عندما تربط بالحبال، فإنها تبحث عن اللحم. إنها لا تأكل اللحم الميت، ولا تمص الدم البارد. هذا الشخص ليس ميتًا!».

وترنح سام، وتشبث بالحجر. شعر كما لو أن العالم المظلم كله كان يدور رأسًا على عقب. كانت الصدمة رهيبة جدًا لدرجة أنه كاد يغمى عليه، ولكن حتى وهو يناضل ليسيطر على أحاسيسه، فإنه في أعماق نفسه كان مدركًا للتعليق: «أيها الأحمق إنه ليس ميتا، وقلبه عرف ذلك. لا تثق برأسك يا ساموايز، إنها ليست الجزء الأفضل فيك. المشكلة لديك أنه لم يكن لديك أي أمل حقًا على الإطلاق. والآن فقد تم إنجاز ذلك؟». لم يكن لديه شيء في هذه اللحظة سوى أن يغرس نفسه على بالة الحجر الثابت وينصت، ينصت لأصوات الأوركيين الحقيرة.

وقال شاجرات: «اللعنة! إن لديها أكثر من سم واحد. عندما تصطاد، فإنها بكل بساطة تضرب فريستها ضربة في الرقبة وبعدها تصبح الفريسة عاجزة مثل سمكة مخلية العظم، وبعد ذلك تتعامل معها بطريقتها. هل تتذكر أوفثاك العجوز؟ لقد فقدناه لمدة أيام. وبعد ذلك وجدناه في ركن؛ كان معلقًا، ولكنه كان مستيقظًا تمامًا وكان يحدق. كم ضحكنا! لقد نسيته، ربما، ولكننا لم نلمسه ليست هناك فائدة أو جدوى في التدخل معها. كلا هذه القذارة الصغيرة، سوف يستيقظ، في غضون ساعات قليلة؛ وسوف

(1) الضمير (هو) يعود إلى ساورون (المترجم).

يكون على ما يرام، باستثناء أنه سوف يشعر بالمرض بعض الشيء لبعض الوقت. أو سوف يكون كذلك، لو أن لَجْبُورز تركه وشأنه. وبالطبع، وراء نطاق التساؤل أين هو وما الذي حدث له».

وضحك جورباج: «وما الذي سيحدث له؟ يمكننا أن نحكي له بعض حكايات قليلة على كل حال، إذا لم نستطع أن نفعل أي شيء آخر. إنني لا أفترض أنه سبق له أن ذهب على الإطلاق إلى برج لَجْبُورز الجميل، ولذلك فإنه قد يود أن يعرف ما الذي يتوقعه. سوف يكون ذلك أكثر غرابة ومتعة مما ظننتُ. هيا بنا نمضي!».

وقال شاجرات: «إنني أقول لك إنه ستكون هناك متعة وتسلية. ولابد أن نحتفظ به آمنًا وسليمًا، وإلا فإننا جميعًا سنكون بلا فائدة مثل الأموات».

«حسنًا! ولكني لو كنتُ مكانك، فإنني كنتُ سأمسك بالآخر الضخم الذي هو حر طليق، قبل أن ترسل أي تقرير إلى لَجْبُورز. لن يكون جميلًا للغاية أن تقول إنك أمسكت بالقطة وتركت الفأر يهرب».

وبدأت الأصوات تتحرك بعيدًا. سمع سام صوت أقدام تتراجع. كان يفيق من صدمته، والآن أصابته نوبة غضب جامح وراح يصيح: «لقد أفسدتُ كل شيء! كنت أعرف أنني سأفسد كل شيء. والآن فقد أخذوه، الشياطين! القذارة! لا تترك سيدك أبدًا، أبدًا، أبدًا؛ كانت هذه قاعدتي. وكنتُ أعرف ذلك في قرارة نفسي. ربما يمكن أن يُغفر لي! والآن ينبغي عليَّ أن أعود إليه. بطريقة أو بأخرى، بطريقة أو بأخرى!»

واستل سيفه مرة أخرى وضرب على الحجر بالمقبض، ولكن صدر عنه صوت كليل فقط. ولكن السيف مع ذلك ومض بشكل براق للغاية في هذا الوقت لدرجة أنه كان يرى بشكل معتم في ضوئه. ولدهشته لاحظ أن الحجر الضخم كان له شكل باب ثقيل، وكان أقل من ضعف طوله هو. وكان هناك فوقه ساحة فضاء خالية سوداء بين القمة والقنطرة السفلية للفتحة. ربما كان المقصود منه فقط أن يكون مانعًا من تطفل شيلوب، وكان مثبتًا من أحد جانبيه بمزلاج معين أو سُقاطة خارج نطاق دهائها ولا يمكنها الوصول إليها. وقفز سام بقوته المتبقية وأمسك بالقمة، وراح يصعد إلى أعلى وسقط؛ وبعد ذلك راح يجري بجنون، والسيف يتوهج في يده، وهو يدور حول منحنى ويصعد نفقًا متعرجًا.

إن خبر كون سيده لا يزال حيًا أنعشه وجعله يبذل آخر جهد عنده فيما وراء التفكير في التعب. لم يستطع أن يرى أي شيء أمامه؛ لأن هذا الممر الجديد كان يتعرج ويدور باستمرار؛ ولكنه كان يعتقد أنه يتبع الأوركيين وهما يصعدان: راحت أصواتهما تزداد قربًا. وفي ذلك الوقت بدا أنهما قريبان تمامًا.

وقال شاجرات بنبرات صوت غاضبة: «هذا ما سأفعله. ضعوه في الغرفة العليا مباشرة».

فقال جورباج في غضب: «لماذا؟ ألا توجد لديك أي غرفات محكمة لاحتجازه في الأسفل؟».

وأجابه شاجرات بقوله: «إنني أقول لك إنه يجب أن يوضع بعيدًا عن طريق الخطر والأذى. هل ترى؟ إنه ثمين. إنني لا أثق بجميع رجالي، ولا بأي من رجالك، ولا أنت أيضًا، عندما تكون في حالة جنون على المتعة والمرح. إنه سيذهب إلى حيث أريده، وإلى حيث لن تأتي أنت، إذا لم تحافظ على حدود الأدب واللياقة. صعودًا إلى القمة، اسمع قولي. سوف يكون آمنًا هناك».

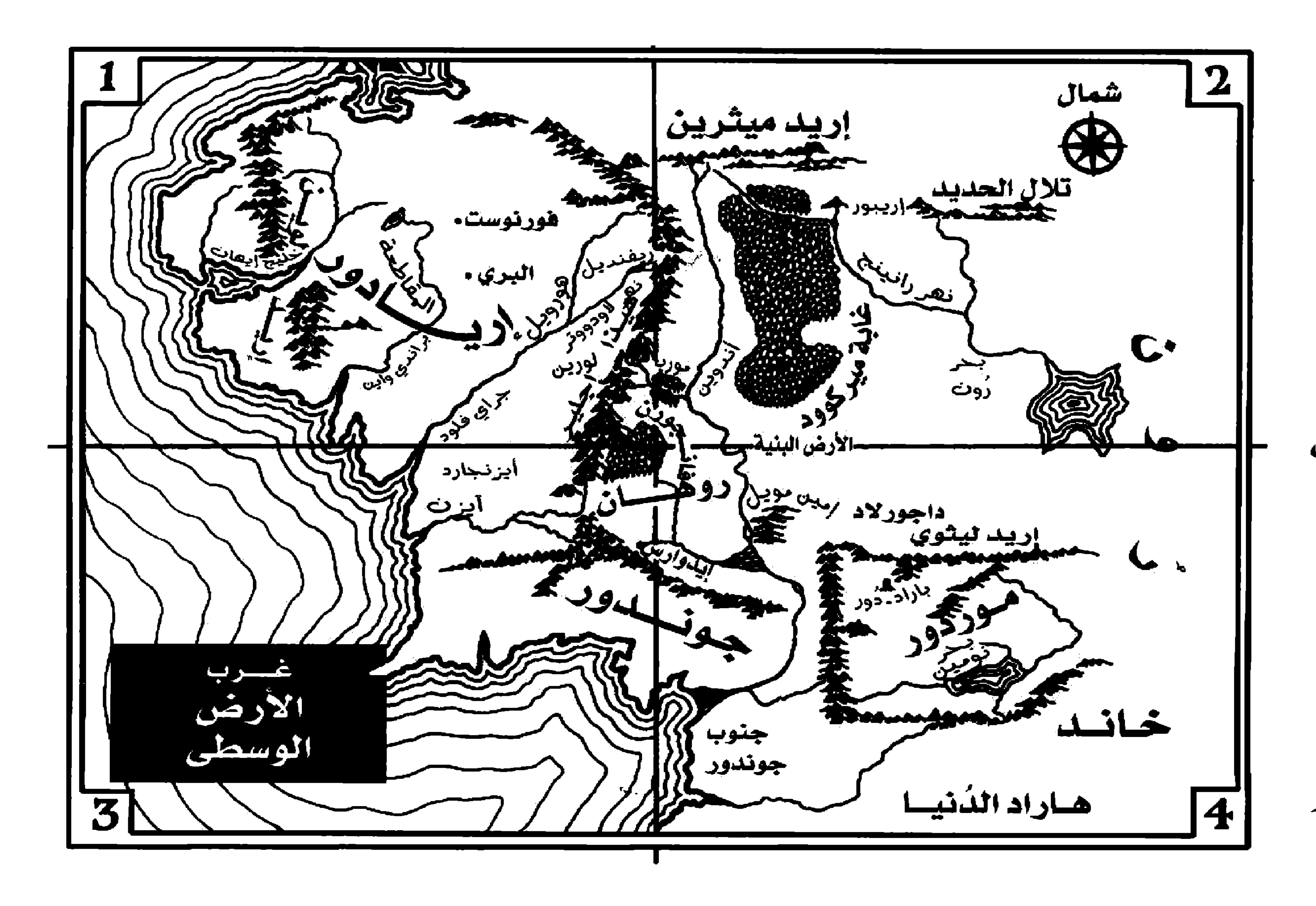
وقال سام: «هل سيكون كذلك فعلًا؟ إنكما تنسيان المحارب الجني الكبير الذي هو حر طليق!» وبهذه الكلمات انطلق يعدو حول الزاوية الأخيرة، لا لشيء إلا ليجد أنه بخدعة ما من النفق، أو من قوة حاسة السمع التي منحها له الخاتم، أخطأ تقدير المسافة.

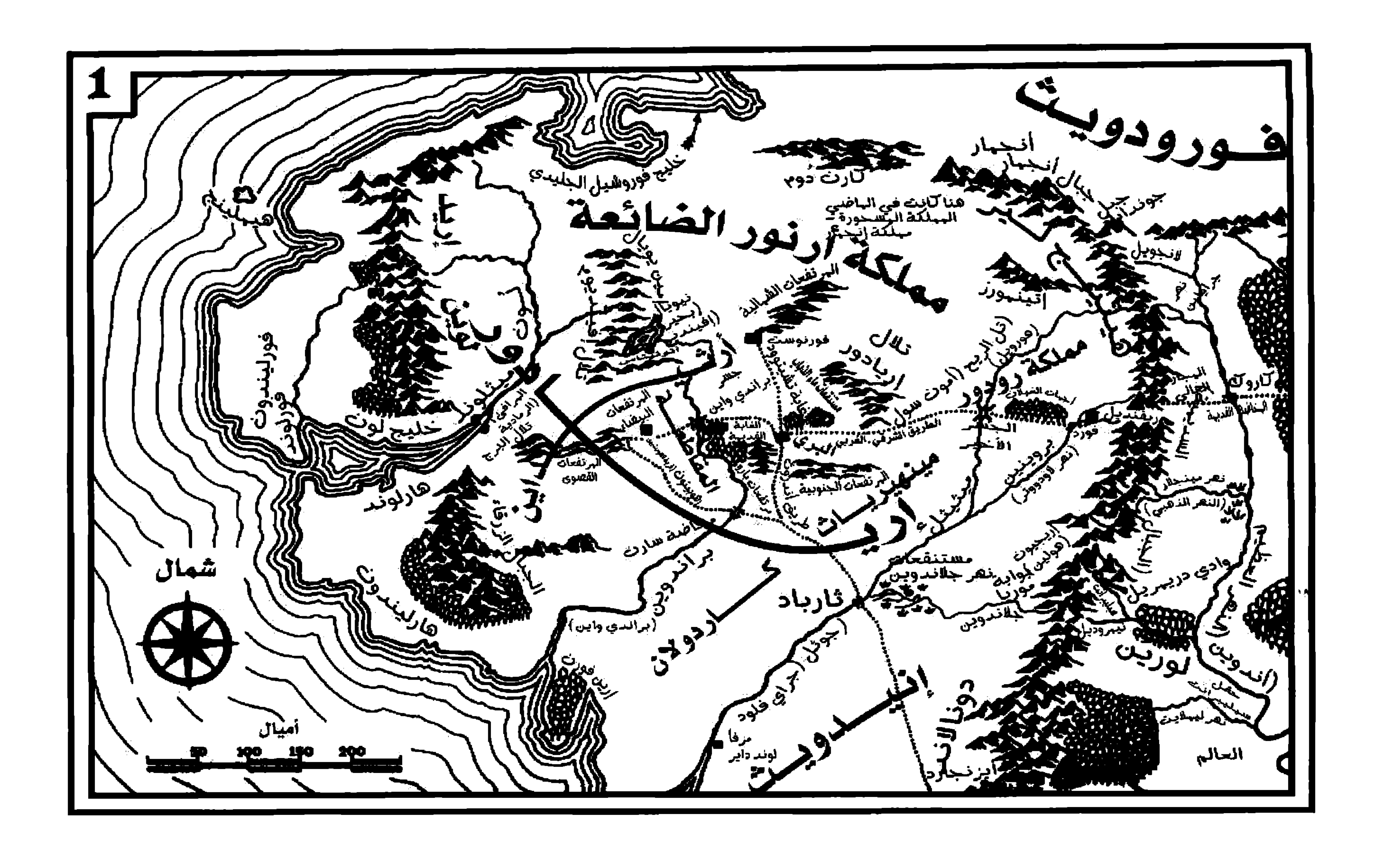
كان الشكلان الأوركيان لا يزالان على بعد مسافة في المقدمة. كان يستطيع رؤيتهما الآن، أسودين وقصيرين في ظل الوهج الأحمر. سار الممر بشكل مستقيم أخيرًا، وراح يصعد منحدرًا؛ وفي النهاية، كان هناك بابانٍ مزدوجان مفتوحين على مصاريعهما، يؤديان فيما يحتمل إلى غرف عميقة بعيدة جدًا أسفل قرن البرج العالي. لقد كان الأوركيان قد مرا بالفعل بحملهما نحو الداخل. كان جورباج وشاجرات يقتربان من البوابة.

سمع سام انفجارًا مفاجئًا لغناء أجش، ودوي أبواق ودق أجراس، جلبة بشعة هائلة. كان جورباج وشاجرات بالفعل على العتبة.

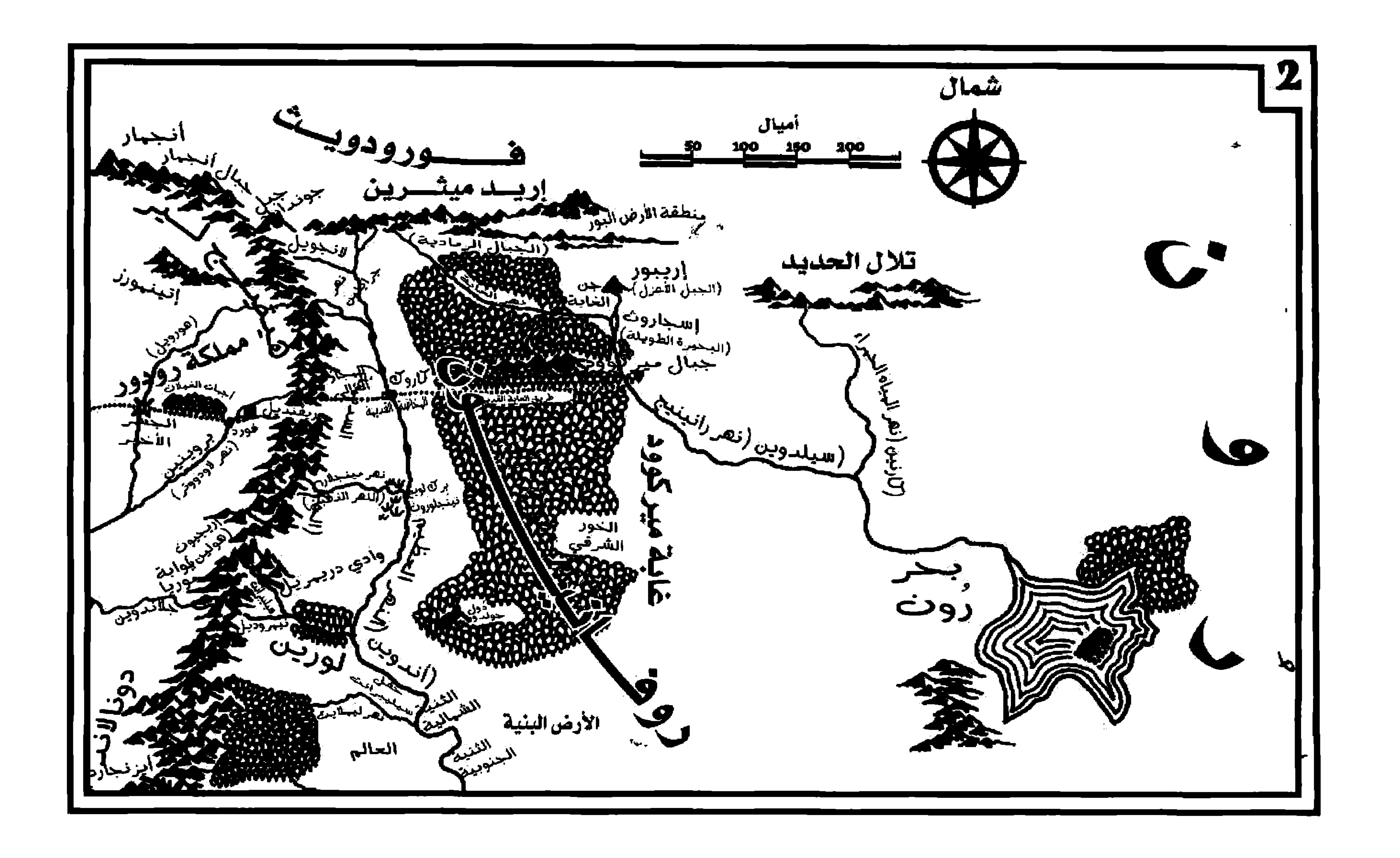
وصرخ سام ولوح بالسيف ستينج، ولكن صوته الصغير غرق في الصخب والجلبة. لم ينتبه له أي أحد.

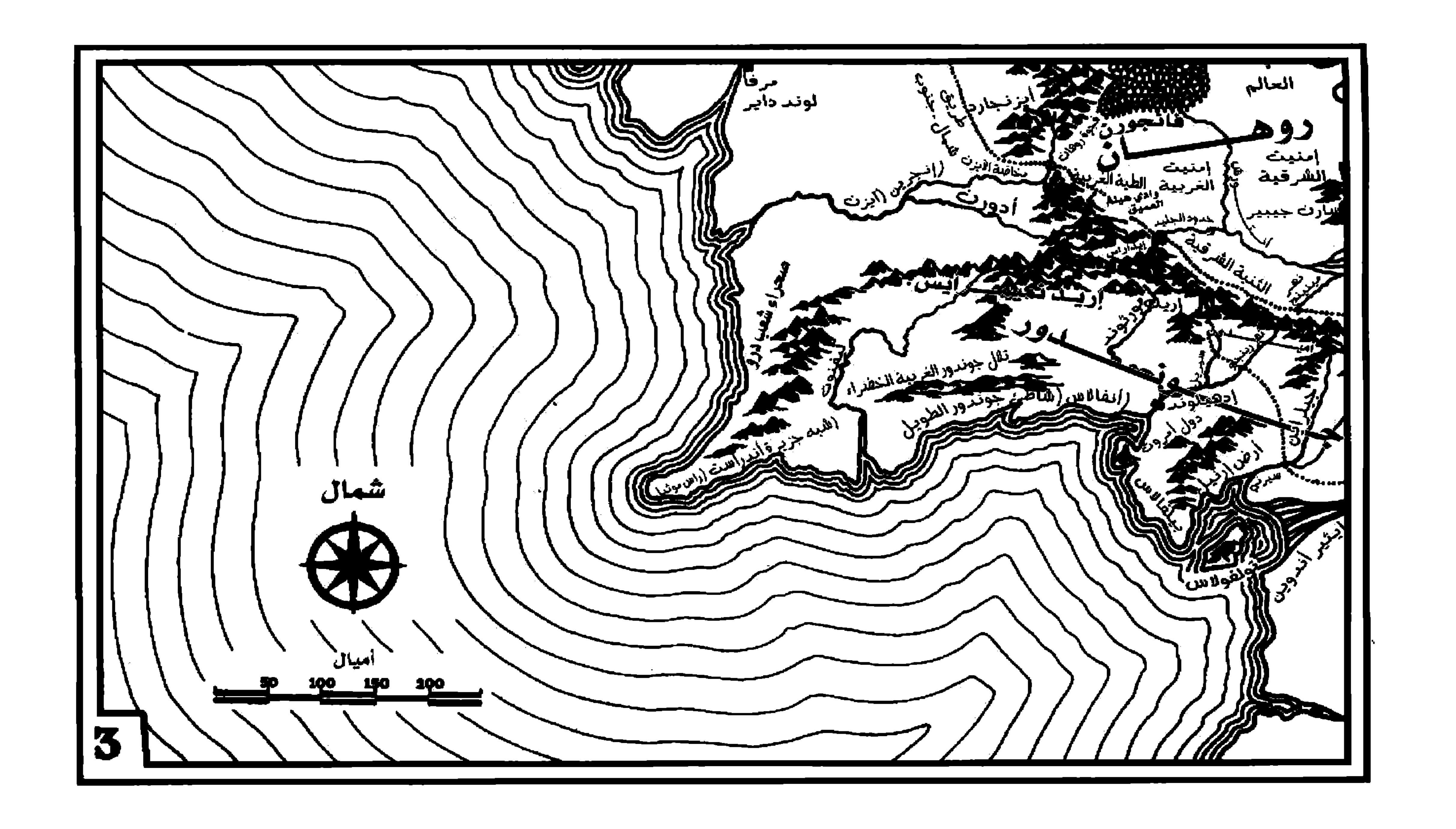
وأُغلقت الأبواب الهائلة بكل قوة محدثة دويًّا. ونزلت القضبان الحديدية في أماكنها في الداخل محدثة صليلًا قويًّا. وأغلقت البوابة. ودفع سام نفسه بكل قوة على الصفائح النحاسية المغلقة بالمزاليج وسقط فاقدًا الوعي على الأرض. وكان هو في الخارج في الظلمة. وكان فرودو حيًا بيد أن العدو أخذه.


غرب
الأرض
الوسطى
شمال
إريد ميثرين
تلال الحديد
إريبور
نهر رانينج
بحر
رون
رون
غابة ميركوود
أندوين
الأرض البنية
فورنوست
البري
القاطعة
إريادور
ريفنديل
هورويل
برانديواين
جراي فلود
لوثلورين
موريا
أيزنجارد
آيزن
روهان
داجورلاد
إريد ليثوي
باراد دور
موردور
نورنين
إيدوراس
جوندور
جنوب
جوندور
خاند
هاراد الدُنيا
1
2
3
4

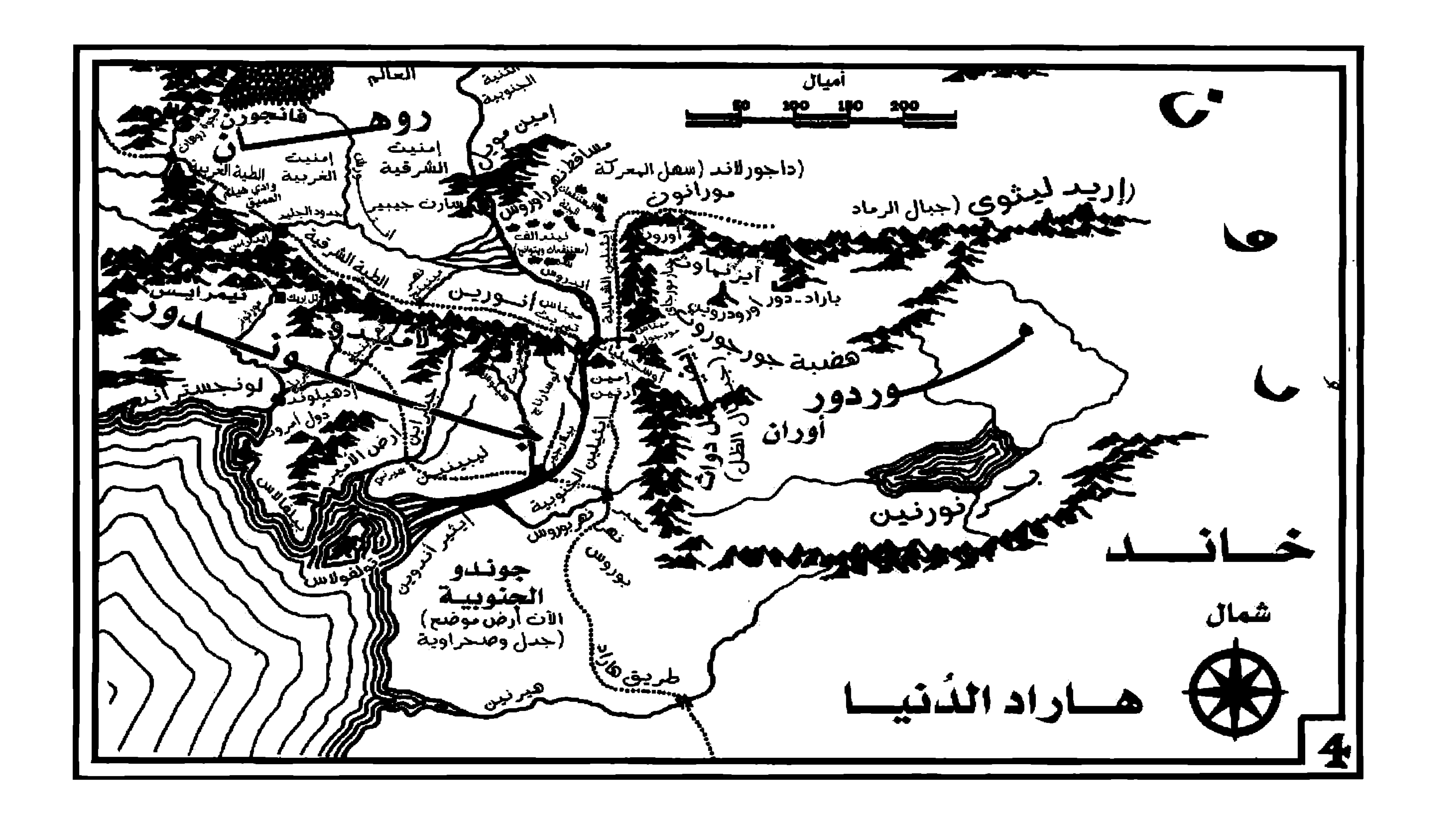


1
فورودويث
انجمار
جبال انجمار
كارث دوم
خليج فوروشيل الجليدي
هنا كانت في الماضي المملكة المسحورة مملكة انجمار
مملكة أرنور الضائعة
المرتفعات الشمالية
اتينمورز
تلال ريادور
فورنوست
مملكة رودور
الطريق الشرقي الغربي
الطريق الشرقي
الغابة القديمة
المرتفعات الجنوبية
المرتفعات البيضاء
المرتفعات القصوى
خليج لون
هارلوند
هارليندون
فورليندون
فورلوند
هيبلين
ثارباد
مستنقعات
نهر جلاندوين
جلاندوين
إرين فورن
براندوين (برالدي واين)
اردولان
إنيدوير
دونلاند
ايزنجارد
لوند داير
مرفا
جراي فلود
لورين
اندوين
العالم
كارولك
فورد
ريفنديل
نهر مينيجالد (النهر الذهبي)
وادي ديريمريل
نيمرودل
شمال
أميال
50 100 150 200

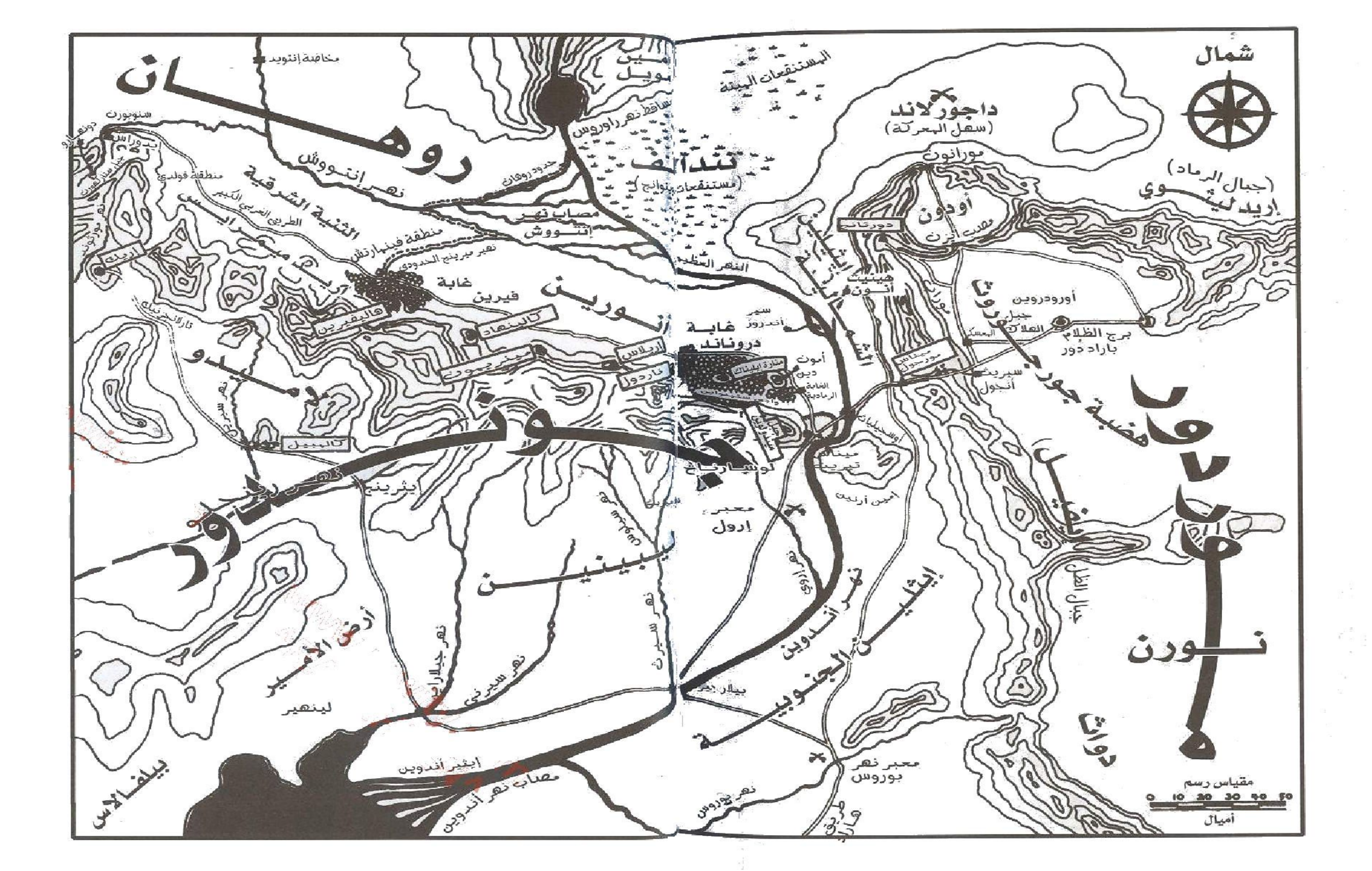

2
شمال
أميال
50 100 150 200
فـــورودويث
إريد ميثرين
أنجمار
جبال أنجمار
جونداجبل
منطقة الأرض البور
الجبال الرمادية
لانجويل
تلال الحديد
إربيور
(الجبل الأعزل)
الخاية
إسجاروث
(البحيرة الطويلة)
إتينموز
(هوروبيل)
مملكة رودور
كاروك
بحر
رون
سيلدوين (نهر رانينيج)
كارنين (نهر المياه الحمراء)
الخور الشرقي
غابة ميركوود
رون
وادي دريمريل
لورين
أندوين
الأرض البنية
الثنية الشمالية
الثنية الجنوبية
العالم
فورد
الأرض البنية



العالم
روهان
فانجورن
إمنيت الشرقية
إمنيت الغربية
الطية العريضة
بارث جيبير
الثنية الشرقية
أدورن
إنجرين (آيزن)
محافظة آيزن
لوند داير
مرفأ
طريق شمال - جنوب
أيزنجارد
إريد نمريس
صحراء شعب دروز
جوندور
تلال جوندور الغربية الخضراء
انفالاس (شاطئ جوندور الطويل)
أنفالاس
(شبه جزيرة أندراست (رأس موتا
دول أمروث
أرض أرنيا
بيلفالاس
تولفولاس
إيثير أندوين
أميال
شمال
50
100
150
200
3



4
هـــاراد الدُنيـــا
شمال
خـــانـــد
أميال
50 100 150 200
روهـــان
إريد ليثوي (جبال الرماد)
داجورلاند (سهل المعركة)
موراَنون
إمنيت الشرقية
إمنيت الغربية
أمين موي
الطية الشرقية
أنورين
أيثيلين الشمالية
أيثيلين الجنوبية
هضبة جورجورو
باراد ـ دور
وردور
أوران
نورنين
نهر بوروس
بوروس
جوندو الجنوبية
الآن أرض موضع
(جدل وصحراوية)
طريق هاراد
هيرنين
لونجستراند
دول أمروث
أرض الأمير
ليبينين
لوندوير
نيمرايس



شمال
داجورلاند
(سهل المعركة)
(جبال الرماد)
إريد ليثوي
موراتون
أودون
دورثانغ
موردور
هضبة جورجوروث
برج الظلام
باراد دور
أورودروين
نورن
دوات
جبال الظل
إيثيليان الشمالية
إيثيليان الجنوبية
غابة دروناند
أنوريين
فيرين
غابة
منطقة فينمارتش
نهر ميرينج الحدودي
الثنية الشرقية
الطريق الغربي الكبير
نهر إنتووش
روهان
سنوبورن
منطقة فولدي
مصاب نهر إنتووش
حدود روهان
مساقط نهر راوروس
المستنقعات الميتة
تنداليف
مستنقعات نواتج
النهر العظيم
لوساربايح
معبر إرول
أمين أرنين
جوندور
ليبينين
أرض الأمير
لينهير
نهر سيريني
نهر جيلراين
إيثير أندوين
مصاب نهر أندوين
بيلفالاس
نهر أندوين
نهر بوروس
معبر نهر بوروس
طريق هاراد
مقياس رسم
0 10 20 30 40 50
أميال

الجزء الثاني من ملحمة جيه. آر. آر. تولكين الرائعة "سيد الخواتم"

راح الخطر يحدق بفرودو ورفقة الخاتم من جميع الجهات خلال رحلتهم ومهمتهم للحيلولة دون وقوع الخاتم الحاكم في يدي سيد الظلام وذلك بتدميره في شقوق الهلاك. لقد فقدوا الساحر - جندلف - في المعركة التي خاضها مع روح شريرة في أنفاق موريا، وعند شلالات راوروس، استسلم بورومير لغواية وقوة الخاتم، وحاول أن يأخذه لنفسه بالقوة. وبينما نجح فرودو وسام في الهرب هاجم الأوركيون الباقين من أفراد الصحبة.

وهكذا واصلا رحلتهما معًا -عبر نهر أندوين العظيم- وحيدين، إلا أنه كان معهما ذلك المخلوق الغامض الغريب الذي كان يتبعهما أينما ذهبا.

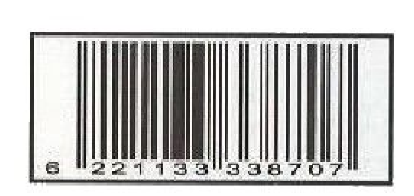
"مغامرات تحبس الأنفاس وألفاظ تنطق بالجمال والإلهام".

«صنداي تيليجراف»

كان تولكين قاصًا وعبقريًا

«ليتيراري ريفيو»




6 221133 338707

www.nahdetmisr.com


روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية